

جوناثان هايت

العقل القويم

لماذا ينقسم الناس الطيبون حول السياسة والدين

نقله إلى العربية
د. محمد علي حرفوش

تليجرام

مكتبة سور الأزبكية

العقل القويم

لماذا ينقسم الناس الطيبون حول السياسة والدين



عنـــــوان الكتـــــاب : العقل القويم:
لماذا ينقسم الناس الطيبون حول السياسة والدين

تـأليـــــــــــــف : جوناثان هايت

نقلــــه إلى العربيـــــة: د. محمد علي حرفوش

الطبعـــــة الأولــــــى : 2016م

التنفيـــذ والإشـــراف : دار الفرقد

الإخـــــراج الفـــــني : وفاء الساطي

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ سورية

Email: alfarqad70@Gmail.com

alfarqad71@hotmail.com

هاتف : (00963-11) 6618303 - 6660915

فاكس : (00963-11) 6660915

ص . ب : 34312



جوناثان هايت

العقل القويم

لماذا ينقسم الناس الطيبون حول السياسة والدين

نقله إلى العربية: د. محمد علي حرفوش





المحتوى





كلمة المترجم

تشكل تجربة ترجمةِ أيّ كتابٍ جديد يغرف من آخر ما توصلت إليه مراكز البحوث أو المؤسسات الأكاديمية العالمية تحدياً كبيراً لأيّ مترجم أو اختصاصي في عالمنا العربي. وينجم هذا التحدي، في حال كتاب جوناثان هيت ((العقل القويم)) الذي نحن بصدده، عن كونه يجمع في متنه مباحث من عدة ميادين معرفية، كالأنثروبولوجيا، والتاريخ الطبيعي، والتاريخ، وعلم نفس الأخلاق، وعلم الاجتماع، وعلم الأعصاب، والفلسفة، والسياسة، والاقتصاد. فهو دونما شك عملٌ موسوعي، يستند في إنشائه إلى أسس أكاديمية تخصصيّة إلى أبعد الحدود.

بعد انطلاق عملية ترجمة كتابنا هذا، واجهتني صعوبات عديدة، لم تسعفني القواميس المتوفرة، على الرغم من غناها وجهد القائمين عليها المشهود، في حلحلة هذه المصاعب. فتتالت مواطن التحدي الاصطلاحي في الكتاب، فتصادفت بمصطلح "groupishness"، والذي لم أعثر عليه في قواميس اللغة الانكليزية – العربية، ((قاموس المورد)) وسواه، والتي أوردت كلمة "group" والتي تفيد "جماعة، زمرة، مفرزة"، من الواضح أن دلالة كلمة "groupishness" تفيد تماسك أعضاء الجماعة وتضامنهم وولاءهم، ومن الممكن اقتراح مفردة من قبيل "الزمرية"، لكنني وجدتها بالغة التجريد، ومن ثم وجدت العون في ((مقدمة إبن خلدون))، وهو "العصبية"، التي اجتهدت في نحت مفهوم جديد نوعاً استناداً إليها، وهو "العصبوية" وهو أمر جائزٌ باللغة العربية، وخير مثالٍ على ذلك لفظان مستخدمان على نطاقٍ واسعٍ، وهما "إسلامي" وهي تفيد المفهوم العام أما "إسلاموي" فهي تشير إلى حركات الإسلام السياسي، وهكذا من الممكن استخدام "عصبوي" للدلالة على ضيق الانتماء والولاء.



عند هذا الحد من تناول مصاعب ترجمة الكتاب، لا بأس بالانتقال إلى مزايا الكتاب، وهي عديدة يمكن أن نجمل أهمها. في مقدمة هذه المزايا هي حسن توظيف الأمثلة المستقاة من مصادر عدة، أكانت من واقع حياة المؤلف اليومية، والإعلام، وأمهات الكتب في جميع مجالات المعرفة، والاستشهاد بآراء كبار الفلسفة والمفكرين، من توماس جيفرسون، وجون ستيوارت ميل، وتشارلز داروين وسواهم. كما أورد عدداً كبيراً من الاستبيانات، والتجارب المخبرية، والاستطلاعات الميدانية في عدة بلدان من الشرق والغرب والجنوب. ولعل الهوامش التي تجاوزت الثلاثمائة ما يظهر جهد الكاتب المبذول على مدى عشرة أعوام. ولا بدّ من التنويه أن الكاتب، وعلى الرغم من اقتداره المعرفي، سعى بكل طاقته إلى مخاطبة القارئ غير المختص، وهي معادلة، من غير السهل تحقيقها. ولنا مثالٌ في ما يقدمه بعض المثقفين العرب من اسلوب مقعر متكلف متحذلق في عرض المعلومة، مما يوقع القارئ في حالة اغتراب ونفور حيال المادة المعرفية.

أما آخر مزايا الكتاب، وهي الأهم حسب رأيي، فهي أطروحة الكتاب الإشكالية "لماذا ينقسم الناس الطيّبون حول الدين والسياسية؟" لقد شغلت هذه المسألة كبار المفكرين والفلاسفة على مرّ التاريخ، وعانى الجنس البشري منها، وما يزال. وهي تواصل إيقاع الضحايا، وشرذمة المجتمعات، وتدمير الدول، واقتتال البشر فيما بينهم. فنجد في كافة مواطن الكتاب محاولةً جاهدة جديرة بالإعجاب لفك مغاليق هذه الظاهرة الأزلية ــ تقريباً ــ، مع سعي في الختام إلى البحث عمّا يجمع البشر، بغض النظر عما يفرّقهم وهو أمرٌ ليس باليسير. ولا بأس أن ننظر نحن العرب ملياً في هذه الظاهرة، ونأخذ عبرة منها، لكي نجد مخرجاً من الكوارث المرعبة التي تجتاح حياتنا.

يمكن للقارئ، على صعيد آخر، أن يلحظ في متن الكتاب أصداء لنظرية إبن خلدون في "العصبية" و"العمران"، وبالطبع لا يشير الأكاديميون الغربيون، وصاحبنا هايت لا يخرج عن هذه القاعدة، إلى أيّة مرجعية عربية في أي ميدان معرفي، بينما يفرطون في الاستناد إلى المرجعيات اليونانية، وهذا ما تعارف



المختصون على تسميته ب"المركزية الغربية". كما سيلحظ القراء الكرام عددا من الهوامش والإيضاحات التي وجدت نفسي مضطراً لها، لأنها تشير إلى تلك النزعة "المركزية الغربية" المفرطة، وخير مثالٍ على ذلك كلمة "إسرائيل" التي قمت على الفور بإضافة كلمة [فلسطين] إلى جانبها، ولحسن الحظ أنّ هذه الشطحات "المركزية الغربية" كانت محدودةً جداً في متن هذا الكتاب القيّم.

ختاماً، أجد لزاماً عليّ التوجه بالشكر والامتنان إلى الأستاذ هادي أحمد، لقراءته النص العربي وتدقيقه من الناحيتين الأسلوبية والقواعدية، وهو عمل ليس باليسير. كما أشكر الزميل الدكتور هيثم فرحت الذي أشغلته معي في تدقيق بعض المصطلحات وأحياناً نحتها. أما إذا ما وجد القارئ بعض المثالب في النص المترجم، فأستميحه العذر وأعلن أنني أتحمّل مسؤوليتها بمفردي.

د. محمد علي حرفوش

اللاذقية – نيسان 2015





العقل القويم

لماذا ينقسم الناس الطيّبون حول
السياسة والدين




مكتبة
التنوير

في ذكرى والدي

هارولد هيت





لقد كافحتُ كي لا أضحك على التصرّفات البشرية، أو أذرفَ الدمع لأجلها،

أو أمقتَها، بل كي أفهمَها.

ـ باروك سبينوزا، ((مبحثٌ في السياسة))، 1676





مكتبة
التنوير

المقدمة

"لماذا لا ننسجم جميعاً؟". لقد اكتسبتْ هذه المناشدة صيتاً يوم الأول من أيار، عام 1992، من قِبَلِ رودني كينج، وهو رجلٌ أسود تعرّضَ للضرب حتى الموت تقريباً على يد أربعة من عناصر شرطة لوس أنجلوس في العام المنصرم. لقد شاهدتِ الأمة برمّتها شريط الفيديو الذي يصوّر حادثة الضرب، وبالتالي عندما أخفقت هيئة المحلّفين في تجريم العناصر الأربعة، أطلق قرار تبرئتهم انتهاكاً واسع النطاق لحرمة القانون وستة أيّامٍ من أعمال الشغب في لوس أنجلوس. ولقي خمسةٌ وخمسون شخصاً مصرعهم وتعرّض ثلاثةٌ وسبعون ألف مبنىً للحرق. كما تمت متابعة الدمار على الهواء مباشرة؛ وقامت كاميرات الأخبار بمتابعة الحدث بواسطة الطائرات المروحيّة المحلّقة فوق الموقع. وبعد فعل عنفٍ مروّع ولا سيما ضدّ سائق شاحنةٍ أبيض، تأثر كنج ليطلقَ مناشدته من أجل السلام.

إنَّ مناشدة كنج مستعملة إلى حد بعيد استعمالاً تحوالت معه إلى مادة ثقافية قليلة القيمة، وعبارة مكرورة [1] غالباً ما تُقال على سبيل الضحك أكثر منها مناشدة في سبيل التفاهم الجمعي. بالتالي أتردّدُ في استخدام كلمات كنج سطراً استهلالياً لهذا الكتاب، لكنّني قرّرتُ الانطلاق منها لسببين. السبب الأوّل يتلخّص في أنّ معظم الأمريكيّين في أيامنا هذه لا يطرحون سؤال كنج حول العلاقات العرقية بل حول العلاقات السياسية وانهيار التعاون عبر الخطوط

---

[1] هي علامة أكيدة أنّ مناشدة كينج قد أصبحت عبارة متكررة بحيث أنها تعرّضت للتعديل. فالبحث بواسطة محرّك البحث جوجل عن "ألا نستطيع جميعاً الانسجام" (والتي لم يقلها كينج) تظهر ثلاث مرات بعدد النقر "هل نستطيع جميعاً الانسجام."



الحزبية. ويشعر كثيرٌ من الأمريكان أنّ أخبار المساء من واشنطن يتمّ إرسالها إلينا من ساحة المعركة.

والسبب الثاني لاتخاذي قرار استهلال هذا الكتاب بعبارة مكرورة الاستخدام هو أنّ كنج أتبعها بشيءٍ محبّب، وهو نادراً ما يتم اقتباسه. بينما كان يتلعثم أثناء مقابلته التلفزيونية، محاولاً منع دموعه من الانهمار ومكرراً نفسه غالباً، عثر على الكلمات التالية: "من فضلكم يمكننا الانسجام هنا. جميعنا قادرون على الانسجام. جميعنا عالقون هنا لبعض الوقت. دعونا نحاولْ تحقيقه."

يتناول هذا الكتاب سبب مواجهتنا صعوبة في الانسجام. فنحن في حقيقةِ الأمر عالقون هنا لبعض الوقت، فلنبذل ما بوسعنا على الأقل لفهم سبب انقسامنا بهذه السهولة إلى مجموعات عدائية، كلّ منها على يقين بصوابيّة رأيه.

غالباً ما يعتقد الأشخاص الذين يكرّسون أعمارهم لدراسة أمرٍ ما أنَّ موضع افتتانهم هو بمثابة المفتاح لفهم كلّ شيء. ولقد تمّ نشرُ كتبٍ في السنوات الأخيرة عن الدور التحويليّ الذي لعبه كلٌّ من الطبخ، والأمومة، والحرب.... وحتى الملح في التاريخ الإنساني. وهذا واحد من الكتب الآنف ذكرها. إنّني أقوم بدراسة علم النفس الأخلاقي، وسأبادر إلى إيضاح قضيّةٍ فحواها أنَّ الأخلاق هي القدرة العقلية الإنسانية التي جعلت الحضارة ممكنة. ولا أقصد أنّ الطبخ، والأمومة، والحرب، والملح لم تكنْ ضرورية كذلك الأمر، لكن سأصحبكم ضمن هذا الكتاب في جولة على الطبيعة والتاريخ الإنسانيين من منظور علم النفس الأخلاقي.

في نهاية الجولة، آمل أن أكون قد منحتكم طريقةً جديدةً في التفكير بشأن اثنين من أكثر الموضوعات أهميّةً، وإرباكاً، وخلافيّةً: ألا وهما السياسة والدين. تخبرنا كتبُ اللباقة بعدم مناقشة هذه الموضوعات في جماعة مهذبة، لكنني أقول لننطلقْ بالنقاش. فكلّ من السياسة والدين تعبيرٌ عن تركيبتنا النفسية الأخلاقية الضمنية، ويمكنُ لفهم تلك التركيبة النفسية المساعدةُ على الجمع ما بين الناس. إنّ هدفي من هذا الكتاب هو تصريف بعض الحرارة، والغضب، وحالة الانقسام الناجمة عن هذين الموضوعين واستبدالها بالرهبة،



والعجب، والفضول. كنّا محظوظين تماماً لقيامنا بتطوير هذه النفسية الأخلاقية المعقّدة التي سمحت لفصيلتنا بالاندفاع بقوة خارجةً من الغابات والسهول غير الشجريّة إلى مباهج المجتمعات الحديثة، ورفاهياتها، وطمأنينتها في ظرف بضعة آلافٍ من السنوات.[1] وأملي أنّ هذا الكتاب سيجعل الحوارات في الأخلاق، والسياسة، والدين أكثر شيوعاً، وأكثر حضاريّة، وأكثر طرافةً، حتى بين الأصحاب المتنوعين. وأملي أنه سيساعدنا على التناغم.

مولود ليكون على صواب

كنتُ أستطيع وضعَ عنوان **العقل الأخلاقي** للكتاب لإيصال المعنى الذي مفاده أنّ العقل البشري مصمّمٌ ل"ممارسة" الأخلاق، مثلما هو تماماً مصمم لممارسة اللغة، والشهوة الجنسية، والموسيقى، والأشياء الكثيرة الأخرى الموصوفة في الكتب الشعبية التي تخبر عن آخر الاكتشافات العلمية. لكنّني اخترت عنوان **العقل القويم** لإيصال معنى مفاده أنّ الطبيعة البشرية ليست في الجوهر متزمتةً، نقديّة، عقلانيّة المحاكمة.

تأتي كلمة righteous [مستقيم] من كلمة في اللغة النرويجية rettviss واللغة الإنكليزية القديمة rihtwis، وكلتاهما تعنيان "صائب، مستقيم أخلاقيّاً، فاضل"[2]. وحُمِلَ هذا المعنى إلى كلمتي righteous [مستقيم] وrighteousness [استقامة] اللغة الانكليزية الحديثة*، على الرغم من أنّ هاتين الكلمتين في الوقت الحاضر تفيدان دلالات دينية قوية لأنهما تستخدمان عادة في ترجمة

---

(1) *Oxford English Dictionary*

(2) *Webster's Third New International Dictionary*. هذا التعريف #3 ل *righteous* ؛ التعريف الأول "فعلُ ما هو صحيح: التصرّف بشكلٍ صحيح أو عادل: ملتزماً بمعيار القانون المقدس أو الأخلاقي."

* تم اللجوء إلى المكافئ المعنوي لا الحرفي باللغة العربية لأنّ المصطلح الحرفي لا يحدث الإيحاء المطلوب: في العربية غالباً ما يتم استخدام تعابير مثل "رأي صائب" و"صواب التوجه" و"فلان على صواب" و"صوابية الهدف" الخ. — المترجم



الكلمة العبرية Tze-dek. وtzedek كلمة شائعةٌ في الكتاب المقدس بالعبرية، التي تُستَخدَم غالباً لوصف الناس الذين يتصرّفون حسبما يشاء الله، لكنّها أيضاً صفة لله ومحاكمة الله للبشر (وهي في الغالب قاسية لكن يُعتَقَدُ أنّها عادلة).

إنَّ الربط بين الاستقامة righteousnessوالحاكميّة judgmentalism ملتَقطٌ في بعض التعاريف الحديثة ل righteous مستقيم مثل "نابع من معنى غاضب للعدل، والأخلاق، والإنصاف."[1] كما يظهر الربط أيضاً في مصطلح self-righteous الأقوم خُلُقاً [القويم أخلاقياً]، والتي تعني "معتقد باستقامته، على وجه الخصوص بالتضاد مع أفعال الآخرين ومعتقداتهم؛ متزمّت أخلاقيّاً وغير متسامحٍ على نحوٍ ضيّق."[2] وأريد أنْ أظهرَ لكم أنَّ الهوس بالاستقامة (الذي يؤدي حتميّاً إلى القويم أخلاقيّاً)، إنّما هو وضع إنسانيٌّ اعتيادي. إنها سمةٌ في تصميمنا الثوري، وليست علّةً أو خطأً تسلّلَ إلى عقولنا التي ستكون خلاف ذلك موضوعيّةً وعقلانيّةً.[3]

لقد مكّنت عقولنا القويمة الكائنات البشرية ـ لكن ليس الحيوانات الأخرى ـ من إنتاج جماعات كبيرة، وقبائل، وأممٍ متعاونةً من دون غراء القرابة. لكن في الوقت نفسه، تضمن عقولنا القويمة أنَّ جماعتنا المتعاونة ستتعرّض دائماً للنقمة بفعل النضال الأخلاقي المتزمّت. قد تكون درجةً ما من الصراع بين الجماعات ضروريّةً من أجلِ صحّة أيّ مجتمعٍ وتطوّره. عندما كنتُ مراهقاً كنت

---

(1) *Webster's Third New International Dictionary*

(2) الارتقاء عملية تصميم؛ وهي ليست عملية تصميم ذكيّةً. أنظر Tooby and Cosmides 1992

(3) في كتابتي الأكاديمية، أصف أربعة مبادئ لعلم النفس الأخلاقي، وليس ثلاثة. على سبيل التبسيط والتسهيل على الذاكرة، قمت بدمج المبدأين الأولين معاً في هذا الكتاب لأنهما متعلّقان معاً بالنموذج الحدسي الاجتماعي (Haidt 2001). عندما يتم فصلهما، المبدآن هما: الأولية الحدسية لكن ليس الدكتاتورية، والتفكير الأخلاقي من أجل الفعل الاجتماعي. أنظر مناقشة مطولة لكل المبادىء في Haidt and Kesebir 2010 .



أصبو إلى السلم العالمي، لكنْ في الوقت الحاضر أتوق إلى عالم يتم فيه الحفاظ على التوازن بين الإيديولوجيات، وتمنعنا نُظُم المساءلة من القيام بأفعال منكرة دون التعرّض للعقاب، ويعتقد عددُ أقلّ من الناس أنّ الغايات الصوابيّة تبرّرُ الوسائل العنيفة. وهي ليست أمنيةً رومانسيةً جداً، لكنّها أمنيةٌ قد نحققها فعلياً.

ما الذي يخبّئه الآتي

يتألّف هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء، قد تظنّون أنّها ثلاثة كتبٍ منفصلة ـ باستثناء أن كلّ واحدٍ منها يعتمد على سابقه. كلّ جزءٍ يعرضُ مبدأً رئيساً من مبادئ علم النفس الأخلاقي.

يتناول الجزء الأول المبدأ الأول: حالات الحدس تأتي أولاً، والتفكير المنهجي ثانياً.[1] تبرز حالات الحدس الأخلاقي آلياً وآنياً تقريباً، قبل وقتٍ طويلٍ من حصولها على فرصة الشروع الحجة الأخلاقيّة. إذا ما فكّرتَ أنّ الحجّة الأخلاقيّة هي شيءُ ما نقوم به من أجل إدراك الحقيقة، سوف تكون باطّرادٍ مستاءً إزاء كيف يصبح الناس حمقى، ومنحازين، وغير منطقيّين عندما لا يوافقونك الرأي. لكنْ إنْ فكّرتَ في الحجة الأخلاقية على أنها نوعٍ من المهارة تطوّرنا نحن البشر لتعزيز أجنداتنا الاجتماعية ـ لتبرير أفعالنا والدفاع عن الفرق التي ننتمي إليها ـ من ثمّ تقدّم الأشياء الكثير من الدلالات. ركّزْ نظرَكَ على حالات الحدس، ولا تأخذ حجج الناس الأخلاقية في ظاهرها. وهي في المجمل بنىً خاصة تابعة يتمّ تصنيعها بسرعةٍ دونما تفكير، وصيغت يدوياً لطرح واحدٍ أو أكثر من الأهداف الاستراتيجية.

إنّ المجاز المركزي لهذه الفصول الأربعة هو **العقل مقسّمٌ، مثل الراكب على الفيل، وعمل الراكب هو خدمة الفيل. والراكب هو محاكمتنا الواعية** ـ تدفق الكلمات والصور التي نحن مدركون تماماً لها. والفيل هو ال99 بالمئة الأخرى من العمليات الذهنية ـ تلك التي تجري خارج الإدراك لكنّ ذاك فعليّاً يوجّه معظم

[1] أنظر T. D. Wilso 2002 حول "اللاوعي التكيّفي"



سلوكنا.[1] ولقد طوّرت المجاز في كتابي الأخير، **فرضيّة السعادة**، حيث وصّفتُ كيف يعمل الراكب والفيل معاً، في بعض الحالات على نحوٍ هزيل، أثناء سيرنا باضطراب خلال الحياة بحثاً عن المعنى والرابط. سأستخدم في هذا الكتاب المجازلحلّ ألغازٍ من قبيل لمَ يبدو منافقاً من هو مثل كل شخصٍ آخر[2] ولماذا يكون بعض المناصرين السياسيّين على قدر من الاستعداد للاعتقاد بأكاذيب فاضحة ونظريات المؤامرة. وسوف أستعمل المجاز لأظهرَ لكم كيف تستطيعون على نحوٍ أفضل إقناع الناس الذين يظهرون غير مستجيبين للمنطق.

يتناول الجزء الثاني المبدأ الثاني لعلم النفس الأخلاقي، والذي قوامه أنّ **في الأخلاق ما يتخطّى الأذى والعدل**. والمجاز المحوري لهذه الفصول الأربع هو أنّ **العقل القويم أشبه بلسانٍ ذي ستة متقبّلات**[3]. فالأخلاقيات الغربية العلمانية أشبه بالتنوعات المطبخيّة التي تحاول تفعيل واحدةً أو اثنتين من تلك المتقبّلات ـ إما حالات الاهتمام بالأذى والألم، أو حالات الاهتمام بشأن العدالة والظلم. لكن لدى الناس الكثير من حالات الحدس الأخلاقي الأخرى، من قبيل تلك المتعلّقة بالحرية، والولاء، والسلطة، والقداسة. وسوف أقوم بشرح من أين تأتي تلك المتقبّلات، وكيف تُشَكِّل أساس المطابخ الأخلاقية العالمية الكثيرة، ولماذا يتمتع الساسة من تيار اليمين بميزة جاهزة داخليّاً عندما ينتهي الأمر إلى طهي وجباتٍ يفضّلها الناخبون.

---

[1] لنقتبسْ عنوان كتاب روب كورزان (2010) Rob Kurzan الأخير الممتاز.

[2] حسب تعبير نيك كليج Nick Clegg، زعيم حزب الديمقراطيين الأحرار في المملكة المتحدة، "لكن نحن لسنا في اليسار ولسنا في اليمين. نحن لدينا لصاقة تصنيفنا الخاصة: ليبراليون [الأحرار]" (خطاب موجه إلى مؤتمر الربيع للديمقراطيين الأحرار Liberal Democrat Spring Conference, Sheffield, UK, March 13, 2011). نادراً ما يصل الليبراليون الأوروبيون إلى الحد الذي يصله الليبراليون الأمريكان في الإخلاص للأسواق الحرة والحكومة الضئيلة. أنظر Iyer, Koleva, Graham, Ditto, and Haidt 2011 من أجل مراجعة الكتابة النظرية والنتائج الجديدة عن أنصار الإرادة الحرة.

[3] Sen-ts'an, *Hsin hsin ming*. In Conze 1954.



يركز الجزء الثالث على المبدأ الثالث: **الأخلاق تقيّد وتصيب بالعمى**. والمجاز الرئيس لهذه الفصول الأربعة مفاده أنّ بني البشر قرود شمبانزي بنسبة 90 بالمئة ونحلٌ بنسبة 10 بالمئة. لقد تمّ تشكيل الطبيعة البشرية بفعل الاصطفاء الطبيعي الفاعل على مستويين على نحوٍ متزامن. فالأفراد يتنافسون مع أفرادٍ آخرين ضمن كلّ جماعة، ونحن متحدّرون من رُتَبٍ ثديّة تمايزت بذلك التنافس. وهذا يمنحنا وجه طبيعتنا القميء، وهو الذي كان يتجلّى عادةً في كتُبٍ تخصّ جذورنا التطوّرية. فنحن في حقيقة الأمر منافقون على قدرٍ من البراعة في التظاهر بالفضيلة التي نخدع بها حتى أنفسنا.

لكنّ تمّ صوغ الطبيعة البشرية على شكلِ جماعاتٍ قامت بالتنافس مع جماعات أخرى. وكما قال داروين منذ عهدٍ بعيد، تهزم الجماعات الأكثر ترابطاً وتعاوناً على وجه العموم الجماعات المؤلفة من أفراد أنانيين. ولقد وقعت أفكار داروين ضحيّة الإهمال في الستينات، لكنّ الاكتشافات التي جرت مؤخراً تقوم بإعادة تفعيل أفكاره، والتضمينات بالغة العمق. فنحن لسنا منافقين أنانيّين دائماً. ونحن كذلك الأمر نتمتّعُ بالقدرة، في ظلّ ظروفٍ خاصةٍ، على إغلاق ذواتنا الصغيرة لنصبح كالخلايا في جسدٍ كبير، أو كالنحل في الخليّة، نقوم بالعمل من أجل صالح الجماعة. وتكون هذه التجارب في الغالب بين الأغلى في حياتنا، على الرغم من أنّ نزعة خلية النحل لدينا من الممكن أن تصيبنا بالعمى حيال القضايا الأخلاقية الأخرى. وتسهّل طبيعتُنا المشابهة لطبيعة النحل إنكارَ الذات، والبطولةَ، والحرب، والإبادة الجماعية.

فور ملاحظة عقولنا القويمة باعتبارها عقولاً أساسية ذوات طبقة خارجية قوامها نزعةُ خلية النحل، ستحصل على منظورٍ كامل جديدٍ حيال الأخلاق، والسياسة، والدين. وسوف أُظهِرُ أنّ "طبيعتنا الأعلى" تسمح لنا أن نكون على نحوٍ عميق منكرين للذات، لكنّ ذاك الإنكار للذات في معظمه موجّه إلى أعضاء من الجماعات الخاصة بنا. كما سأظهر أنّ الدين (احتمالاً) تكيّفٌ ارتقائي لربط الجماعات مع بعضها ومساعدتها على خلق تجمّعات ذات أخلاق



مشتركة. وهو ليس فيروساً أو كائناً طفيلياً، حسبما ناقش بعض العلماء ("الملحدون الجدد") في السنوات الأخيرة. وسوف أستخدم هذا المنظور لشرح لمَ يكون بعض الناس محافظين، وآخرون ليبراليّين (أو تقدميّين)، ولمَ على الرغم من ذلك يصبح الآخرون أحرار الإرادة. ويربط الناس أنفسهم بفرقٍ سياسية تشترك بروايات أخلاقية. وفور قبولهم روايةً محددةً، يصبحون معميّين حيال العوالم الأخلاقية البديلة.

(ملاحظة عن المصطلحات: في الولايات المتحدة تفيد كلمة ليبرالي السياسة التقدمية أو اليسارية، وسوف أستخدم الكلمة في هذه الدلالة. أمّا في أوروبا وأماكن أخرى، فكلمة **ليبرالي** أكثر صدقيّةً لمعناها الأصلي ـ تثمين الحرية فوق كلّ شيء، بما في ذلك النشاطات الاقتصادية. وعندما يستخدم الأوربيون كلمة **ليبرالي**، في الغالب يعنون شيئاً ما اقرب إلى مصطلح **حرّ الإرادة** الأمريكي الذي يصعب وضعه بسهولةٍ على طيف اليمين ـ اليسار. وقد يرغب القراء من خارج الولايات المتحدة باستبدال كلمات تقدمي أو **يساري** في أي وقت أتي على ذكر كلمة **ليبرالي** فيه.)

في الفصول التالية سأعتمد على آخر البحث في علم الأعصاب، وعلم الجينات، وعلم النفس الاجتماعي، والنمذجة الارتقائية، لكنّ إبلاغ رسالة الكتاب موغل في القدم. إنه الإدراك أننا جميعاً منافقون ذوي استقامة في نظر أنفسهم:

> ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك. وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها. أمْ كيف تقول لأخيك دعني أخرج القذى منْ عينك وها الخشبة في عينك.
>
> يا مرائي أخرجْ أولاً الخشبة من عينك وحينئذٍ تبصرُ جيّداً أن تُخرجَ القذى من عيني أخيك. (**إنجيل متى**، الأصحاح السابع، الآية 3- 5)



يتطلّبُ التنوير (أو الحكمة، ـ إذا أحببت ـ) منا إخراج الأخشاب من عيوننا ومن ثمّ النجاة من التمسك المتواصل البائس الخلاق بالفضيلة. وكما كتَب معلّم فرقة الزّن الصيني سين ـ تسان:

طريق الكمال شاقة فحسب

لأولئك الذين ينتقون ويختارون؛

امتنع عن الحب، امتنع عن النفور؛

حينذاك يغدو كل شيء جليّاً.

أحدث فارقاً بمقدار شعرة،

فيحدث الفصل بين الأرض والسماء؛

إذا ما رغبتَ بمثول الحقيقة جليّةً أمامك،

لا تكنْ مع ولا ضد.

الصراع بين "مع" و"ضد"

هو أسوأ أمراض العقل.

لا أقول إنَّ علينا أن نمضي أعمارنا مثل سين ـ تسان. في حقيقة الأمر، أعتقد أنَّ العالم من دون تمسّك بالفضيلة، والشائعة، والحكم القيمي سينحدر إلى مهاوي الفوضى. لكنْ إذا ما أردنا فهم أنفسنا، أو انقساماتنا، أو قيودنا، أوطاقاتنا الكامنة، علينا التراجع خطوة، والتخلّي عن التمسك بالفضيلة، واستخدام بعض من علم النفس الأخلاقي، والقيام بتحليل اللعبة التي نلعبها.

لنَقُمْ برصد علم النفس المتعلّق بهذا الصراع بين "مع" و"ضد". إنّه صراعٌ يصل النهاية في كلّ واحدٍ من عقولنا الصوابيّة، وبين كلّ جماعاتنا القويمة.





الجزء الأول

حالات الحدس تأتي أولاً،

والحجة الاستراتيجية ثانياً

المجاز الرئيس

العقل مقسّمٌ، مثل راكب على فيل،

وعمل الراكب هو خدمة الفيل.





أولاً
من اين تأتي الأخلاق؟

أرغب أن أتلو قصةً مختصرةً عليكم. توقفوا بعد قراءتها وقرّروا فيما إذا كان الشخوص في القصة قد أقدموا على أيّ شيءٍ مخطئٍ أخلاقياً.

سيارة تقتل كلب العائلة أمام منزلها. فسمعوا أنّ لحم الكلب كان لذيذاً، ثمّ قاموا بتقطيع جثّة الكلب وطبخوه وتناولوه على العشاء. لم يرهم أحد وهم يفعلون ذلك.

لو كنتَ مثل معظم الناس جيّديّ التعلّم في دراساتي، فلا بدّ أنّك شعرت بومضةٍ من الاشمئزاز، لكنّكَ تردّدتَ قبل القول إنّ العائلة قد أقدمتْ على أمرٍ خاطئٍ من الناحية الأخلاقية. وعلى الرغم من كلّ ما سبق قوله، كان الكلبُ ميتاً للتو، وهم لم يلحقوا أذىً به، أليس ذلك صحيحاً؟ وكان كلباً لهم، لذلك كان لهم الحق أن يفعلوا ما شاؤوا بالجثّة، أليس كذلك؟ إذا ما دفعتكم لتقديم برهان، فالأرجحيات أنكم ستقدمون لي جواباً غير قاطع، شيئاً من قبيل: "حسنٌ، أعتقد أن الأمر مثير للاشمئزاز، وأظن أنه كان عليهم دفن الكلب فحسب، لكنني لن أقول إنه أمر خاطئٌ أخلاقياً."

لا بأس، إليكم قصةً أكثر إشكالية. يذهب رجلٌ إلى السوبرماركت مرّةً في الأسبوع ويشتري فرّوجاً. لكنْ قبلَ طهي الفرّوج، قام بمضاجعته. ثمّ طبخهُ وأكله.

مرة أخرى، لا ضير، ما من شخصٍ آخر يعلم، ومثل العائلة آكلة الكلب، تنطوي [هذه القصة] على نوعٍ من إعادة التدوير أي ـ حسبما أوضح أحد



المتطوّعين في بحثي ـ استخدام فعّال للمصادر الطبيعيّة. لكن في الوقت الحاضر الاشمئزاز أشدّ بكثير، ويبدو الفعل فحسب إلى حدٍّ بعيد .... مخزياً. هل يجعله ذلك خاطئاً أخلاقياً؟ إذا ما كنتَ شخصاً غربياً جيّد التعلّم وليبراليا من الناحية السياسية، من المحتمل أنكَ ستقدم جواباً ليس قاطعاً، وهو جواب يقرُّ بحق الرجل في أن يفعل ما يشاء، طالما أنّه لا يلحقُ الأذى بأي شخص آخر.

لكنْ إنْ لمْ تكنْ شخصاً غربياً ليبرالياً أو من أنصار الإرادة الحرة، قد تفكّر أنّ من الخطأ ـ الخطأ أخلاقيّاً ـ قيام شخصٍ ما بممارسة الجنس مع الفروج ثمّ التهامه. بالنسبة إليك، وهذه حال معظم الناس فوق الكوكب، الأخلاق واسعة المجال. فبعض الأفعال خاطئة على الرغم من أنّها لا تُلحِقُ الأذى بأحد. إنَّ فهم الحقيقة البسيطة التي مفادها أنّ الأخلاق تتباين حول العالم، وحتى ضمن المجتمعات، هو الخطوة الأولى نحو فهم العقل القويم. والخطوة التالية لفهم من أين أتت هذه الأخلاقيات الكثيرة في المقام الأول.

أصل الأخلاق (تصوير 1)

قمت بدراسة الفلسفة في الكليّة، آملاً في تصوّر معنى الحياة. بعد مشاهدة الكثير من أفلام وودي آلن، كان لديّ الانطباع المغلوط وهو أن الفلسفة ستقدم بعض المساعدة.[1] لكنّني درستُ بعض المساقات في علم النفس كذلك الأمر، وأحببتها، فاخترت المتابعة. وفي عام 1978 تمّ قبولي لبرنامج دراسات عليا في جامعة بنسلفانيا. كان لديّ خطة غامضة لإجراء تجارب حول علم نفس الدعابة. لقد ظننت أنّ القيام ببحث يسمح لي بالتردد على أندية الكوميديا قد يكون ترويحاً عن النفس.

[1] كان استنتاجي لدى التخرج أنّ علم النفس والأدب كان من الممكن أن يكونا مجالين أفضل لمساعدة شخصٍ شاب في رحلة استكشاف وجودي. لكنّ الفلسفة باتت أفضل منذ ذلك الحين ـ أنظر Woolf 10.



بعد أسبوع من وصولي إلى فيلادلفيا، جلست للتحدث مع جوناثان بارون، وهو أستاذٌ يقوم بدراسة كيفية تفكير الناس واتخاذ قراراتهم. بما هو متوفرٌ من خلفية فلسفية (في الحد الأدنى) لدي، خضنا نقاشاً جيّداً حول علم الأخلاق. سألني بارون مسدداً إلى الهدف مباشرة: "هل التفكير الأخلاقي مغاير لأنماط التفكير الأخرى؟" أقول إنّ التفكير في المسائل الأخلاقية (من قبيل إن كان الإجهاض خطأً) بدت مختلفةً عن التفكير في أنواعٍ أخرى من التساؤلات (من قبيل أين نذهب لتناول العشاء الليلة)، بسبب حاجة كبيرةٍ جداً إلى تقديم أسباب تبرر أحكامك الأخلاقية للناس الآخرين. استجاب بارون بحماس، وتحدّثنا حول بعض الطرق التي بموجبها يقارن المرء التفكير الأخلاقي بأنواع التفكير الأخرى في المُختَبَر. في اليوم التالي، وعلى أساس قوامه ما هو أكثر قليلاً من شعورٍ بالتشجيع، طلبت منه أن يكون مرشدي وانطلقتُ لدراسة علم النفس الأخلاقي.

في عام 1978، كان علم النفس الأخلاقي جزءاً من علم النفس التطوّري. ولقد ركّزت الأبحاث على تساؤلات من قبيل كيف يتطوّر الأطفال في تفكيرهم بشأن القواعد، ولا سيّما قواعد العدل. وكان السؤال خلف هذا البحث: كيف يصل الأطفال إلى معرفة الخطأ من الصواب؟ ومن أين تأتي الأخلاق؟

لهذا السؤال إجابتان: الطبيعة أو التطبّع. إن اخترت الطبيعة، أنت إذن فطري؟ أنت تعتقد أنّ المعرفة الأخلاقية اصلانية فطرية في عقولنا. فهي تأتي محمولةً سلفاً، ربما في قلوبنا التي كُتِبَ اسم الله فيها (حسبما يذكر الكتاب المقدس)، أو في مشاعرنا الأخلاقية الخاضعة للتطور (حسبما يجادل داروين).[1]

لكن إن تعتقد انَّ المعرفة الأخلاقية تأتي من التربية، فأنت بذلك تجريبيّ معرفي،[2] ترى أنّ الأطفال على نحوٍ أو آخر صفحات بيضاء عند الولادة (كما

---

[1] أنظر إنجيل جيرميا 33:31- 34: " I will put my law within them, and I will write it on their hearts". أنظر أيضاً داروين 1871/1998.

[2] التجريبية تفيد معنيين مختلفين. أستخدم هنا مثلما يفعل مختصو علم النفس بشكلٍ نموذجي، لأفيد الاعتقاد، على عكس الأهلانية، أنّ العقل بشكلٍ أو بآخر "لوح أبيض"

==



قال جون لوك).[1] فإذا ما تنوّعت الأخلاق حول العالم وعبر القرون، فكيف كان بإمكانها أن تكون فطرية؟ مهما كانت الأخلاق التي لا بد أننا تعلّمناها بوصفنا بالغين أثناء الطفولة من تجاربنا الخاصة، التي تتضمّن أناساً بالغين يخبروننا ما هو خطأ وصواب. (تجريبي معرفي تعني "من الملاحظة والتجربة.")

لكنّ هذا خيارٌ زائف، وفي عام 1987 كان علم النفس الأخلاقيّ مستنداً في معظمه إلى جوابٍ ثالث: العقلانية التي تقول إن الأطفال يستنبطون الأخلاق بأنفسهم. لقد بدأ جان بياجيه، أعظم علماء النفس التطوّريين عبر الأزمنة، حياته المهنية عالماً في مجال الحيوان يدرس الرخويات والحشرات في وطنه الأم سويسرا. كان مفتوناً بالمراحل التي تعبرها الحيوانات عندما كانت تحوّل نفسها من، لنقُلْ، يرقة إلى فراشة. فيما بعد، حين حوّل انتباهه للأطفال أحضر معه هذا الاهتمام بمراحل التطور. أراد بياجيه معرفة التعقيد غير الاعتيادي لتفكير البالغين (الفراشة المدركة) التي تنبثق من قدرات الأطفال الصغار المحدودة (اليرقات الدنيا).

كما ركّز بياجيه على أنواع من الأخطاء يرتكبها الأطفال. على سبيل المثال، كان يضع ماءً في كأسين متماثلين ويسأل الأطفال أنْ يخبروه إن كانا يحتويان الكمية نفسها من الماء (نعم). ثمّ كان يصب محتويات أحد الكأسين في كأسٍ رقيقٍ طويل ويطلب من الطفل مقارنة الكأس الجديد بالكأس الذي لمْ يُمَسّ. كان الأطفال الذين يقل عمرهم عن ست سنوات أو سبع يقولون عادةً إنّ الكأس الطويل الرقيق يحتوي حالياً كمية أكبر من الماء، لأنّ مستوى الماء أعلى. هم لا يدركون أنّ حجم الماء بكامله يتمُّ حفظه عندما ينتقل من كأس

عند الولادة، وأنّ تقريباً كل محتواه يتمّ تعلّمه من التجربة. أعتقد أنّ وجهة النظر هذه خاطئة. التجريبية تُستخدَم من قبل فلاسفة العلم للإشارة إلى التكريس للأساليب التجريبية ـ أساليب المراقبة، والقياس، والتحكم بالعالم لاستنباط نتائج يُعوَّل عليها حول الأمر. بصفتي عالماً، أؤكد على التجريبية بشكلٍ تام بهذا المعنى.

[1] Lock 1979/1960



إلى آخر. كما وجد أنّ من غير المجدي قيام الراشدين بشرح حفظ حجم الماء للأطفال. فهؤلاء لن يدركوا المسألة حتى يصلوا عمراً معيّناً (مرحلة الإدراك المعرفي) عندما تكون عقولنا مستعدة للمسألة. وعندما يصبحون مستعدين، سيستنبطونها من تلقاء أنفسهم بمجرد اللعب بكؤوس الماء.

بمعنى آخر، لم يكن فهم الحفاظ على الحجم فطرياً، ولم يتم تعلّمه من الراشدين. بلْ إنَّ **الأطفال يستنبطونه بأنفسهم**، عندما تكون عقولهم مستعدة فحسب ، ويتم منحهم الأنواع الصحيحة من التجارب.

لقد طبّق بياجيه المقاربة الأسلوب الإدراكي ـ التطوري على دراسة التفكير الأخلاقي عند الأطفال كذلك الأمر.[1] جثا على يديه وركبتيه ليلعب الدّحل مع الأطفال، وقام في بعض الأوقات بخرق القواعد واللعب الملتوي بعدئذٍ، ردَّ الأطفال على أخطائه، وبعملهم هذا، أظهروا قدرتهم المتنامية على احترام القواعد، وتغيير القواعد، وأخذ الأدوار، وحلّ النزاعات. وقد جاءت هذه المعرفة المتصاعدة في مراحل متسلسلة، بينما تنضج قدرات الأطفال الإدراكية.

ولقد ناقش بياجيه أنّ فهم الأطفال للأخلاق مثل فهمهم لكأسي الماء السابقين كليهما: لا نستطيع القول إنه فطريّ، ولا نستطيع القول إنَّ الأطفال التقطوه مباشرةً من الكبار.[2] وهو على نحوٍ أدقّ **ذاتي البناء** حينما يلعب الأطفال مع أطفال آخرين. إن تعاقب الأدوار في لعبة أشبه بصبّ الماء أماماً وخلفاً بين الكأسين. مهما نحاول في الغالب القيام بالأمر مع أطفال في عمر السنوات الثلاثة، فهم غير مستعدّين فحسب لالتقاط مفهوم العدالة،[3] بأكثر مما هم

---

(1) Piaget 1932/1965

(2) على الرغم من أنني أعرف الآن بأن معرفة الفيزياء هي، إلى حدٍّ ما، فطرية (Baillargen (2008)، وهكذا هو المزيد من المعرفة الأخلاقية (Hamlin, Wynn, and Bloom 2007). المزيد حول هذا في الفصل 3.

(3) يبدو أنّ بياجيه كان على خطأ في هذا الصدد. يبدو الآن أنّك عندما تقوم باستخدام الكثير من الإجراءات الحساسة التي لا تتطلّب من الأطفال الاستجابة فعلياً، يبدؤون

==



قادرون على فهم الحفاظ على الحجم. ولكن ما إن يصلوا سن الخامسة أو السادسة، حتى يساعدهم ساعدهم كلٌّ من ممارسة الألعاب، وخوض النقاشات، وحدس الأشياء في التعلّم حول العدالة على نحوٍ أكثر فعالية من أيّة موعظة يقدّمها الراشدون.

هذا هو جوهر العقلانية النفسية: نتحول إلى عقلانيّتنا مثلما تتحوّل اليرقات إلى فراشات. إذا ما أكلت اليرقة ما يكفي من ورق الشجر، فهي (في خاتمة المطاف) ستنمّي أجنحةً. وإذا ما حصل الطفل على تجارب كافية من تداول الأدوار، المشاركة، وعدالة ساحة اللعب، فهو (في خاتمة المطاف) سيصبح مخلوقاً أخلاقياً، قادراً على استخدام الإمكانات لحلّ مشكلات متصاعدة في تعقيدها. إن العقلانية هي طبيعتنا، والمحاكمة المنطقية الأخلاقية الجيّدة هي نقطة النهاية في تطوّرنا.

تتمتّع العقلانية بتاريخٍ طويل ومعقد في الفلسفة. وفي هذا الكتاب سأستخدم كلمة عقلاني لوصف أيّ شخصٍ يعتقد أنّ التفكير هو أهمّ الطرق وأكثرها موثوقيّة للحصول على المعرفة الأخلاقية.[1]

باتخاذ ردود الفعل على انتهاكات العدالة في سن الثالثة (LoBue et al. 2011)، وربما حتى في عمر الخمسة عشر شهراً (Schmidt and Somerville 2011). بمعنى آخر، هنالك دعمٌ متزايد لنظريات مثل نظرية الأسس الأخلاقية (أنظر الفصل 6).

[1] إنّ تعريفي للعقلانية ليس بعيداً عن تعريف الفلاسفة، على سبيل المثال، يعتقد العقلانيّون أنّ "قوة التفكير الأعلى على التقاط الحقائق الملموسة حول العالم" (B. Williams 1967, P. 69). لكنّ مقاربتي تتجنّب مناظرات القرن الثامن عشر حول الأفكار الفطرية وترتبط باهتمامات القرن العشرين حول فيما إذا التفكير، على وجه الخصوص التفكير حول الفرد المستقل، إنما هي ذات صدقية (مقابل) الطريقة (الخطيرة) لاختيار القوانين والسياسات العامة. أنظر Hayek 1988 . Oakeshott 1997/1947 لقد برهن حايك أن "الاستدلالية" كانت مصطلحاً أكثر دقة بالنسبة لنوع من العقلانية بحيث يستطيع إنشاء نظام اجتماعي على أساس التأمل العقلاني. ألاحظ أنّ كولبيرج Kohlberg لم يقم فعلياً بتسمية نفسه عقلانياً: لقد أسمى نفسه استدلالي. لكنّي سأشير إلى كولبيرج، وبياجيه،



لقد تمّ توسيع تبصّرات بياجيه من قِبَل لورنس كولبرج، الذي ثوّرَ دراسة الأخلاق في الستينات بواسطة فكرتين مبتكرتين مفصليّتين.[1] بدايةً، قام بتطوير طريقة لقياس كميّة ملاحظة بياجيه التي مفادها أنّ تفكير الأطفال الأخلاقي قد تغيّر بمرور الزمن. كما قام بخلق مجموعة من المعضلات الأخلاقية التي عرضها على أطفال من أعمارٍ متباينة، وقام بتسجيل استجاباتهم وتشفيرها. على سبيل المثال، هل ينبغي على رجلٍ يُدعى هاينتزالتسلل إلى الصيدلية لسرقة دواءٍ يُنقذ حياته؟ هل ينبغي على فتاةٍ تُدعى لويز الوشاية إلى أمها بأنّ أختها الصغيرة قد كذبت على الأم؟ لم يكن أمرا ذا أهمية إن قال الطفل نعم أو لا؛ تلخص الأمر المهم في الأسباب التي قدمها الأطفال عندما حاولوا شرح أجوبتهم.

لقد اكتشف كولبرج تعاقب ست مراحلَ في تفكير الأطفال حول العالم الاجتماعي، وتناغمَ هذا التعاقب على نحوٍ جيّد مع المراحل التي اكتشفها بياجيه في تفكير الأطفال بشأن العالم المادي. لقد قام الأطفال بمحاكمة صحيحة أو خاطئة بواسطة السمات الظاهرة، من قبيل إن كان شخصٌ ما قد عوقِبَ على فعلٍ اقترفه. (إذا قام شخص راشدٌ بعقاب الفعل ذاته، فلا بدَّ أنْ يكون الفعل خاطئاً.) وسمّى كولبرج المرحلتين الأوّلين مستوى المحاكمة الأخلاقية "ما قبل التقاليد"، وهما تتطابقان مع المرحلة البياجية [نسبةً إلى بياجيه] التي يحكم الأطفال فيها على العالم المادي بواسطة السمات السطحية (إذا ما كان الكأس أطول، إذن كمية الماء فيه أكبر).

لكن أثناء المرحلة الابتدائية، ينتقل معظم الأطفال إلى المرحلتين "التقليديّتين"، إذ يصبحون قابلين لفهم القواعد والتقاليد الاجتماعية وحتى التلاعب بها. فهذا هو عمر التقيّد الصغير الحرفي بالأخلاق الذي يتذكره معظم من يترعرع منا مع الأقارب ("أنا لا أضربك. أنا أستخدم يدك في ضربك. فتوقف

Piaget وتوريل Turiel على أنهم عقلانيون لتوضيح ليقابلهم مع الحدسية، مثلما أقوم بتطويرها في معظم مواضع هذا الكتاب.

(1) Kohlberg , 19711969



عن ضرب نفسك.") يهتم الأطفال في هذه المرحلة على وجه العموم إلى حد بعيدٍ بالامتثال للتعاليم، ولديهم احترامٌ عظيم للسلطة ـ قولاً، ولو لم يكنْ فعلا بشكلٍ دائمٌ. فهم نادراً ما يشككون بشرعيّة السلطة، حتى وهم يتعلّمون المناورة ضمن القيود التي يفرضها الكبار عليهم أو حولها.

بعد سنّ البلوغ، تماماً عندما قال بياجيه إنّ الأطفال يصبحون قادرين على التفكير المجرّد، وجد كولبرج أنّ بعض الأطفال يبدؤون التفكير بأنفسهم حول طبيعة السلطة، ومعنى العدل، والأسباب الكامنة خلف القواعد والقوانين. وفي المرحلتين "ما بعد التقاليد"، يظل المراهقون يثمّنون الصدق ويحترمون القواعد أو القوانين، لكن في الوقت الحاضر يقومون في بعض الأحيان بتبرير الكذب أو خرق القانون بحثاً عن بضائع أرفع، أي العدل على وجه الخصوص. كما رسم كولبرج صورة عقلانية ملهَمة للأطفال على أنهم "فلاسفة أخلاقيون" يحاولون استنباط منظومات أخلاقية لأنفسهم.[1] في المراحل ما بعد التقليدية، يغدون في خاتمة المطاف متمكنين من الأمر. لقد كانت معضلات كولبرج بمثابة أداةٍ لقياس حالات التقدم الدراماتيكية هذه في التفكير الأخلاقي.

الإجماع الليبرالي

قال مارك توين ذات مرة إنه "بالنسبة إلى رجلٍ يحمل مطرقة، كلّ شيءٍ يبدو مسماراً." فور قيام كولبرج بتطوير معضلاته الأخلاقية وأساليب تسجيله، كان لدى أوساط علم النفس مطرقة جديدة، وقام باستخدامها ألف من متخرّجي علم النفس في *تدبيج* أبحاثٍ في التفكير الأخلاقي. ولكن كان هنالك سببٌ أعمق إذ بدأ كثيرٌ من الشبان المختصّين في علم النفس بدراسة الأخلاق من منظور عقلاني، وكان هذا ثاني ابتكارات كولبرج العظيمة: لقد استخدم بحثه لبناء تبريرٍ علمي من أجل نظامٍ علمانيٍ ليبراليٍ أخلاقيّ.

(1) Kohlberg 1968



كان اكتشاف كولبرج الأكثر نفوذاً يتمثَّلُ في أنّ الأطفال الأكثر تطوّراً من الناحية الأخلاقية (بموجب أسلوبه في تسجيل النقاط) كانوا الأكثر تواتراً في تبديل الأدوار ـ وفي وضع أنفسهم في موضع الآخر والنظر إليه من منظور ذلك الشخص. فعلاقات المساواة (كتلك التي بين الأقران) تدعو إلى لعب الأدوار، لكنَّ العلاقات التراتبيّة (كتلك التي مع الأساتذة والآباء) لا تقوم بذلك. إن من الصعوبة بمكانٍ بالنسبة إلى طفلٍ رؤية الأشياء من وجهة نظر الأستاذ، لأنّ الطالب لم يسبق له أنْ كان أستاذاً. ولقد فكّرَ كلٌّ من بياجيه وكولبرج في أنّ الآباء والسلطات الأخرى كانوا عقبات أمام التطوّر الأخلاقي. إذا ما أردتَ لأطفالك التعلّم عن العالم المادي، فدعهم يلعبوا بالكؤوس والماء؛ ولا تحاضر عليهم عن الاحتفاظ بالحجم. وإذا أردتَ لأولادك التعلّم عن العالم الاجتماعي؛ فدعهم يلعبوا مع أطفالٍ آخرين ويحلّوا النزاعات؛ ولا تحاضر عليهم بشأن الوصايا العشر. ولا، من أجل السماء، تُرغِمْهم على طاعة الله أو أساتذتهم أو أنت. فهذا سيجمّدهم عند المستوى التقليدي.

كان توقيت كولبرج تاماً. فبينما كانت الموجة الأولى من الأطفال الناشئين يدخلون مرحلة التعليم العالي، قام بتحويل علم النفس الأخلاقي إلى قصيدةٍ من أجل العدل صديقة للأطفال الناشئين، كما قدّم لهم أداةً لقياس تقدم الأطفال نحو المثال الليبرالي. على مدى خمسةٍ وعشرين عاماً، منذ السبعينات وصولاً إلى التسعينات، قام اختصاصيو علم النفس الأخلاقي فحسب بمقابلة شبّان بشأن المعضلات التاريخية وبتحليل تبريراتهم.20 ومعظم هذا العمل لم تكن السياسة دافعاً خلفه ـ كان بحثاً علمياً حريصا وصادقاً. لكن باستخدام إطاريعرّف على نحوٍ سابقٍ الأخلاق على أنّها العدل بينما يشوّه سمعة السلطة، والتراتبية، والتقليد، كان البحث حتماً سيدعم وجهات النظر العالمية التي كانت علمانية، ومستقصية، وقائمة على المساواة.



اختبار أسهل

إذا ما أجبرتَ الأطفال على شرح أفكارٍ معقدة، من قبيل كيفية موازنة الاهتمامات المتنافسة بشأن الحقوق والعدل، فإنك لا شكّ ستجد نزعاتٍ عمريّة لأنَّ الأطفال يغدون أكثر بياناً في الكلام إلى حدٍّ بعيد بانقضاء كل عام. أما إذا كنت تبحث عن أول ظهور لمفهوم أخلاقي، فمن الأفضل أن تجد تقنيةً لا تتطلّب الكثير من المهارة اللفظية. ولقد قام تلميذ كولبرج السابق إليوت توريل بتطوير هذه التقنية. كان ابتكاره يتمثّل في إخبار الأطفال قصصاً قصيرة عن أطفالٍ آخرين يخرقون القواعد ومن ثم يعطيهم سلسلةً من أسئلة سبر بسيطة قوامها نعم ـ و ـ لا. على سبيل المثال، تقوم بإخبار قصة حول طفلٍ يذهب إلى المدرسة مرتدياً الملابس الاعتيادية، على الرغم من أنّ المدرسة تطلب من تلاميذها ارتداء الزي الرسمي. تبدأ الأمر بالحصول على محاكمة شاملة: "هل ذاك الأمر الذي أقدم عليه الولد OK ؟" فكان جواب معظم الأطفال لا. تسأل إن كانت هنالك قاعدة بشأن ما الذي يُلْبَس. ("نعم") ثمّ تسبر لتكتشف أية قاعدة هي: "ماذا لو قال الأستاذ OK بشأن قيام الولد بارتداء الملابس العادية، بالتالي هل ستكون OK ؟" و"ماذا لو حدثَ هذا في مدرسةٍ أخرى، حيث ليس لديهم أيّة قواعد تفرض الأزياء الرسمية، فهل سيكون الأمر OK ؟"

لقد اكتشف توريل الأطفال الصغار في العمر حتى الخامسة يقولون عادةً إنّ الصبيّ كان مخطئاً في خرق القاعدة، لكن سيكون الأمر مقبولاً OK إذا ما منح الأستاذ إذناً أو إذا حدث في مدرسةٍ أخرى حيث لا توجد قاعدةٌ كهذه. يدرك الأطفال أنّ القواعد بشأن اللباس، والغذاء، وعناصر أخرى من الحياة عبارة عن أعرافٍ اجتماعية، وهي اعتباطية ومتغيّرة إلى حدٍّ ما.[1]

ولكنْ إذا ما سألتَ الأطفال عن أفعال تعود بالأذى على الناس الآخرين، من قبيل فتاةٍ تدفع صبيّاً خارج الأرجوحة لأنّها تريد استخدامها، فسوف تحصل على

[1] أنظر، على سبيل المثال، Killen و Smetana 2006 .



مجموعة مختلفةٍ من الأجابات. كلّ الأطفال تقريباً يقولون إن الفتاة كانت على خطأ وستكون على خطأ حتى لو قال الأستاذ OK ، وحتى لو حدث ذلك في مدرسةٍ أخرى حيث لا توجد قواعد حول دفع الأطفال خارج الأرجوحات. ويدرك الأطفال أنَّ القواعد التي تمنع الأذى هي **قواعد أخلاقية** ، والتي عرّفها توريل على أنها قواعد متعلقة بـ "العدل والحقوق والرفاه ، ومتصلة بكيف ينبغي على الناس الانخراط في علاقاتٍ تضمُّ بعضهم إلى بعضٍ."[1]

بمعنى آخر، لا يعالج الأطفال الفتية كل القواعد بالطريقة ذاتها ، حسبما افترض كلٌّ من بياجيه وكولبرج. ولا يستطيع الأطفال الحديث مثل الفلاسفة الأخلاقيين، لكنّهم منشغلون في فرز المعلومات الاجتماعية بطريقةٍ معقدة. يبدو أنّهم يلتقطون في وقتٍ مبكّرٍ أنّ القواعد التي تمنع الأذى إنما هي خاصة، ومهمةٌ، وراسخة، وكونية. وهذا الإدراك، حسبما يقول توريل، كان أساس التطور الأخلاقي. وينشئ الأطفال فهمهم الأخلاقي على أساس وطيد متعلّق بالحقيقة الأخلاقية المطلقة أنّ **الأذيّة خاطئة**. وقد تتغيّر قواعدُ محددةٌ عبر الثقافات، ولكنْ في كلّ الثقافات التي قام توريل برصدها، ما زال الأطفال يقومون بالتمييز بين القواعد الأخلاقية والقواعد التقليدية.[2]

لقد اختلفت رواية توريل عن التطور الأخلاقي بطرق كثيرةٍ عن قصة كولبرج، لكنّ الدلالات السياسية كانت متشابهة: تتمحور الأخلاق حول **حسن التعامل مع الأفراد**. هي معنيّة بالأذية والعدالة (وليس الولاء، والإحترام، والواجب، والتقوى، والوطنية، والتقليد). إن التراتبية والسلطة أمران سيّئان (وهكذا من الأفضل ترك الأطفال يستنبطون الأشياء بأنفسهم). من ثمّ يترتّب على المدارس والعائلات تجسيد المبادئ التقدمية القائمة على المساواة والاستقلالية (وليس المبادئ السلطوية التي تمكّن الأكبر سناً من تدريب الأطفال وتقييدهم).

---

[1] عرف توريل [Turiel 1983, p. 3] القيود الاجتماعية على أنّها "تماثلات سلوكية تخدم تنسيق التفاعلات الاجتماعية وهي مرتبطة بسياقات منظومات اجتماعية محددة."

[2] Turiel 1983, P. 3



في هذه الأثناء، في معظم العالم

لقد قام كولبرج وتوريل تقريباً بتعريف حقل علم النفس الأخلاقي بحلول الوقت الذي جلستُ أثناءه في مكتب جون بارون وقرّرتُ دراسة الأخلاق.[1] كان المجال الذي دخلته متذبذباً ومتنامياً، لكن شيئاً ما بشأنه بدا خاطئاً بالنسبة إلي. لم يكن السياسة ـ كنت ليبرالياً جداً في ذاك الوقت، عمري أربعةٌ وعشرون عاماً وحافلاً بالاستياء من رونالد ريجان والجماعات المحافظة من قبيل المسماة **الأغلبية الأخلاقية** على نحوٍ يدعي التفوق الأخلاقي. لا، تلخّصت المشكلةُ في أنّ الأشياء التي كنت أقرؤها إلى حدٍ بعيدٍ ..... جافة. لقد ترعرعتُ مع شقيقتين، تقاربانني العمر. كنا نتشاجر كلّ يوم، مستخدمين كل حيلةٍ بلاغيّةٍ كنا نستطيع التفكير فيها. كانت الأخلاق قضيّة على قدرٍ من العاطفية في عائلتي، على الرغم من أنّ المقالات التي كنتُ أقرؤها كانت عن تقديم البنى المتعلقة بتقديم الحجج والإدراك ومجالات المعرفة. وبدا الأمر مفرطاً في التجريد. ولم يكن أي ذكرٍ للشعور وارداً.

بصفتي طالب دراسات عليا في السنة الأولى، لمْ تكنْ لديّ الثقة بالنفس لمتابعة القراءة. لكن في ذلك الوقت، في سنتي الثانية، درست مساقاً حول علم النفس الثقافي وكنت مفتوناً. قام بتدريس المساق أنثروبولوجيٌّ لامع، هوآلان فيسك، الذي أمضى سنواتٍ كثيرةً في غرب إفريقيا يقوم بدراسة الأسس النفسية للعلاقات الاجتماعية.[2] لقد طلبَ منا جميعاً قراءة عدة تقارير

---

[1] Hollos, Leis, and Turiel 1968; Nucci, Turiel, and Encarnacion-Gawrych 1983

[2] قام كولبرج وتوريل بتحفيز معظم العمل التجريبي، لكنْ عليّ كذلك الأمر ذكر شخصيّتين مؤثرتين: لقد ناقشت Carol Gilligan (1982) أنّ كولبرج قد أهمل "أخلاق الرعاية"، التي قالت إنّها أكثر شيوعاً لدى النساء من الرجال. كذلك الأمر قام Martin Hoffman (1982) بعملٍ هام حول تطوّر التقمّص العاطفي، ملقياً الضوء على الشعور الأخلاقي في ذلك الوقت عندما كان معظم البحث كان عن المحاكمة الأخلاقية 1987. كان يعاني من الإحباط، ومن ألم مزمن ناجم عن التهابٍ طفيلي.



أنثروبولوجيا وصفية (تقارير بطول كتاب عن عمل ميداني قام به خبير أنثروبولوجي)، كان كلٌّ منها يركّز على موضوعٍ مختلف من قبيل القرابة، أو الشهوانية أو الموسيقى. لكنْ بغض النظر عن الموضوع، تبيّن أنّ الأخلاق هي التيمة الرئيسة.

قرأتُ كتاباً عن السحر بين الأزنادّيين في السودان.[1] ويتبيّن أنّ المعتقدات بشأن السحر تبرز مدهشةً في عدة أجزاء من العالم بصيغٍ متشابهة، مما يفيد أنّ هنالك ساحراتٍ في الواقع أو (على وجه الدقة هنالك شيءٌ ما بشأن العقول البشرية يولّد غالبا هذه المؤسسة الثقافية. كما يعتقد الأزناديّون أنّ الساحرات كنّ من المرجّح أن يكنّ رجالاً أو نساءً بالقدر ذاته، وإنّ الخوف من إطلاق تسمة ساحرة جعل الأزانديين حذرين في جعل جيرانهم غاضبين أو حاسدين. وكانت تلك أولى الماحاتي بأنّ الجماعات تخلق كيانات خارقة للطبيعة ليس بغرض شرح الوجود بل لتنظيم مجتمعاتها.[2]

قرأتُ كتاباً عن الإلونجوت، وهي قبيلة في الفلبين نال شبّانها الشرف عبر قطع رؤوس البشر.[3] كانتْ بعض عمليات قطع الرؤوس حالات قتلٍ ثأري، منحت القراء الغربيين حافزاً يمكن لهم فهمه. لكنّ الكثير من جرائم القتل تلك تمّ اقترافها بحقّ غرباءَ لم يكونوا منخرطين في أيّ نوعٍ من الصراع مع القاتل. وشرح المؤلف عمليات القتل الأكثر بعثاً على الحيرة تلك على أنّها طرقٌ تقوم من خلالها مجموعاتٌ صغيرة بتفريغ حالات الاستياء والخلافات ضمن المجموعة إلى "حفلة صيد" تقوّي المجموعة، تكلّلها ليلةٌ طويلةٌ من الغناء الجماعي الاحتفالي. وكانت هذه أولى إلماحاتي بأنّ الأخلاق تنطوي على توتر ضمن المجموعة متعلّقٍ بالتنافس بين عدة جماعات.

---

[1] A. P. Fiske 1991

[2] Evans –Pritchard 1976

[3] سوف أطوّرُ هذه الفكرة في الفصل 11، معتمداً إلى حدٍّ بعيدٍ على أفكار إميل دوركهايم Emile Durkheim



لقد كانت الدراسات الإثنية الوصفية آسرة، مكتوبة غالباً بأسلوب جماليّ، قابلٍ للالتقاط عن طريق الحدس على الرغم من غرابة محتواها. كانت قراءة كُلِّ كتابٍ أشبه بتمضية أسبوعٍ في بلدٍ جديد: تثير التشويش في البداية، لكن بالتدرّج بتوليف نفسك، تجد نفسك أقدر على تخمين ما الذي سيحدثُ لاحقاً. وكما في حال السفر إلى الخارج، سوف تتعلّم عن المكان الذي تأتي منه على قدر المكان الذي تزوره. فبدأت أرتئي أنّ الولايات المتحدة وأوروبا الغربية بوصفهما استثناءان تاريخيان خارجان على المألوف ـ مجتمعان جديدان تمكنا من إيجاد طريقةٍ تجرّد وتخفف المنظومات الأخلاقية الشاملة السميكة التي كتبَ عنها علماء الأنثروبولوجيا.

ما من مكان يكون التخفيف فيه أوضح من افتقادنا للقواعد بشأن ما يدعوه أخصتصاصيو الأنثروبولوجيا "النقاء" و"التلوّث". ضعْنا مقابل قومِ الهووا في غينيا الجديدة، الذين طوّروا شبكة من المحرّمات الغذائية التي تحكم ما يأكله الرجال والنساء. وسعياً إلى أنْ يصبح صبيتهم رجالاً، عليهم تجنب الأطعمة التي تشبه الفرج بأي شكلٍ من الأشكال، وتتضمن أيّ شيئ أحمر اللون، ورطباً، ونحيلاً، ويخرج من فتحة، أو لديه شعر. يبدو الأمر للوهلة الأولى أشبه بحالة شعوذة اعتباطية ممزوجة بالتمييز الجنسي المتوقع لمجتمعٍ أبويّ. كان توريل يدعو هذه القواعد تقاليدَ اجتماعية، لأنّ الهووا لا يعتقدون أنّ الرجال في القبائل الأخرى يجب أن يتّبعوا قواعدهم الغذائية على أنّها قواعدٌ أخلاقية. لكنّ الهووا بدؤوا حتماً التفكير بقواعدهم الغذائية على أنّها قواعدٌ أخلاقيّة. كانوا يتحدثون عنها على نحوٍ متواصلٍ، وقيّم بعضُهم بعضَهم الآخربموجب عاداتهم الغذائية، وحكموا حياتهم، وواجباتهم، وعلاقاتهم بموجب ما دعته عالمة الأنثروبولوجيا آنا مايجز "دين الجسد".[1]

---

[1] Rosaldo 1980.



لكنْ ليس الصيادون ـ جامعو الثمار في الغابات المطرية فحسب من يعتقدون أن الممارسات الجسدية من الممكن أن تكون ممارساتٍ أخلاقية. وعندما قرأت الكتاب المقدس العبري، تعرّضتُ للصدمة لاكتشافي كم من الكتاب ـ وهو واحدٌ من مصادر الأخلاق الغربية ـ منشغلٌ بقواعد عن الغذاء، والحيض، والجنس، والجلد، وكيفية التعامل مع الجثث. ولقد كانت هذه القواعد محاولاتٍ واضحة لتجنّب المرض، من قبيل الأجزاء المطوّلة المخصصة لفيتيكوس عن الجُذام. إلا أنّ الكثير من القواعد بدت تتبع منطقاً أكثرعاطفيّة بشأن تجنّب القرف. على سبيل المثال، ينهى الكتاب المقدس اليهود عن أكل أو حتى لمس "الأشياء المتسلّقة التي تتسلّق فوق الأرض" (وتأمل فحسب كم يكون حشدٌ من الفئران أكثر قرفا من فأرٍ بمفرده).[1] وبدا أنّ القواعد الأخرى تتبع منطقاً مفاهيمياً يتضمّن الإبقاء على الفئات صافية أو عدم خلط الأشياء ببعضها (من قبيل لباس مصنوعٍ من خيطين مختلفين).[2]

وهكذا ما الذي يجري هنا؟ إذا كان توريل على صواب في أنّ الأخلاق في الحقيقة متعلّقة بالأذيّة، لماذا إذن تقوم الكثير من الثقافات غير الغربية بتأويلٍ أخلاقيٍ لكثير من الممارسات التي تبدو عديمة الصلة بالأذية؟ ولماذا يعتقد الكثير من المسيحيّين واليهود أنّ "النظافة من الإيمان"؟[3] ولماذا يستمر الكثير من الغربيّين، بمن فيهم العلمانيّون، برؤية خيارات بشأن الطعام والجنس على أنها محمّلة على نحوٍ مفرط بمغزًى أخلاقي؟ ويقول الليبراليون في بعض الأحيان إنّ المتديّنين المحافظين عبارة عن غلاة في الاحتشام إذ إنّ أيّة وضعية مضاجعة خلاف

---

(1) Meigs 1984

(2) أنظر Leviticus 11

(3) أنظر 11ــ Deuteronomy 22;9. تناقش ماري دوجلاس (1966) Mary Douglass أنّ الحاجة لإبقاء الفئات نقيّة هو المبدأ الأهم وراء قوانين الكوشر [الطعام الشرعي اليهودي ــ المترجم]. وأنا أخالف ذلك ، وأعتقد أنّ القرف يلعب دوراً أقوى ؛ أنظر Rozin, Haidt, and McCauley 2008 .



وضعية المبشّر* في الاتصال الجنسي ضمن الزواج إنما هي إثم. لكنْ بالطريقة ذاتها يستطيع المحافظون الهزء من الصراعات الليبرالية لاختيار وجبة فطور متوازنة ـ متوازنة بين الهموم الأخلاقية حول البيضات ذات المدى الحر، وقهوة التجارة العادلة، والنزعة الطبيعية، وتنوّع من الذيفان**، والتي يجسّد بعض منها (من قبيل الذرة وفول الصويا المعدّلين وراثياً) خطراً من الناحية الروحية يفوق مثيله من الناحية البيولوجية. وحتى إذا ما كان توريل على صواب في أن الأطفال يلتقطون الأذية هدفاً على نحوٍ آليّ بوصفها أسلوباً لتحديد الأعمال غير الأخلاقية، لم أتمكن من رؤية كيف أمكن للأطفال في الغرب ـ وما بالك بين الأزنادبيين، والإلونجوتيين، والهوواويين ـ الوصول إلى شأن هذا النقاء والتلوّث بأنفسهم. ولا بد أن ينطوي التطور الأخلاقي على أكثر من قيام أطفال ببناء للقواعد، إذ يتّخذون منطلقات أناس آخرين ويشعرون بألمهم. فلا بدّ إذن من وجود ما هو أبعد من العقلانية.

المناظرة الكبرى

عندما كتب علماء الأنثروبولوجيا عن الأخلاق، بدا الأمر كأنهم تحدثوا لغةً مختلفة عن علماء النفس الذين سبق لي قراءتهم. وكان حجر رشيد الذي ساعدني على الترجمة بين المجالين ورقةً تمّ نشرها للتو من قِبَل مستشار فيسك، ريتشارد شويدر، في جامعة شيكاجو.[1] إنّ شويدر أنثروبولوجي أخلاقي عاش وعمل في أوريسا، وهي ولاية على شاطئ الهند الشرقي. وكان قد وجد فروقاتٍ جسيمة في كيف كان كلٌّ من الأوريانيين (سكان أوريسا) والأمريكيين يفكرون في الشخصية والفردية، ولقد أدت هذه الفروقات إلى مثيلاتها في

* المرأة مستلقية على ظهرها والرجل فوقها – المترجم

** مادة سامة تنتجها البكتيريا في النباتات والحيوانات على وجه الخصوص – المترجم

[1] يعود أقدم سجلّ لهذه العبارة إلى موعظةٍ لجون ويزلي John Wesley في عام 1778، لكنها ترجع أساساً إلى ليفيتيكوس. [الترجمة العربية غير حرفية ـ المترجم].



كيفية تفكيرهم في الأخلاق. ولقد اقتبس شويدرعالم الأنثروبولوجيا كليفورد جيرتز في مدى كون الغربيين غير اعتياديين خارجين على المألوف في التفكير بشأن الناس على أنهم أفراد غير مترابطين:

> إنّ المفهوم الغربي للشخص على أنّه كونٌ مرتبطٌ ، متفرّدٌ، تقريباً حافزيّ إدراكيٌّ على نحوٍ متكامل، ومركزُ ديناميكي للإدراك، والشعور، والمحاججة، والفعل المنظم ضمن كلٍ مميّز وموضوع بالتقابل في آنٍ معا حيال كلّيات أخرى وحيال خلفيّته الاجتماعية والطبيعية، هو، بغض النظر عن مدى كونه راسخاً، فكرة غريبة ضمن سياق ثقافات العالم.[1]

لقد قدم شويدر فكرةً بسيطة لشرح سبب اختلاف الذات إلى حد كبير عبر الثقافات: يتوجب على كل المجتمعات حلّ مجموعة صغيرة من الأسئلة عن كيفية تنظيم المجتمع، والأهم بينها كيف توازن بين حاجات ا/الأفراد والجماعات. يبدو أنّ هناك طريقتين أساسيتين للإجابة عن هذا السؤال. اختارت معظم المجتمعات الجواب المرتكز على المجتمع، حيث يضع حاجات الجماعات والمؤسسات أولاً، وإلحاق حاجات الأفراد. بالمقابل، يضع الجواب القائم على الفردية الأفراد في المركز ويجعل المجتمع خادماً للفرد.[2] سيطر الجواب المرتكز على المجتمع على معظم العالم القديم، لكنّ الجواب القائم على الفردية أصبح منافساً قويّاً أثناء عصر التنوير. لقد تغلّب الجواب القائم على الفردية المقاربة القائمة على مركزية المجتمع في القرن العشرين إذ توسعت الحقوق الفردية بسرعة، وتوسعت ثقافة المستهلك، وقام الغرب بردة فعل مع شيئ من الهلع ضد الشرور التي أقدمت عليها الإمبراطوريات الفاشية والشيوعية المفرطة في مجتمعيّتها. (إنّ الأمم الأوروبية ذات شبكات الأمان الاجتماعي القوية ليست مرتكزة على المجتمع بموجب هذا التعريف. فهي تقوم فحسب بعملٍ جيّد متمثّلٍ بحماية **الأفراد** من تقلّبات الحياة.)

---

(1) Shweder, Mahapatra, and Miller 1987

(2) Geertz 1984, P. 126



لقد فكّر شويدر في أنّ نظريات كولبيرج وتوريل قد تمّ إنتاجها من قبل ومن أجل أناس ينتمون إلى ثقافاتٍ فردانية. وكان يشك بأن هذه النظريات كانت ستنطبق على أوريسا، حيث كانت الأخلاق مرتكزة على المجتمع، والذوات متداخلة الاستقلالية، وما من خطٍّ أخلاقي برّاقٍ يفصل القواعد الأخلاقية (المانعة للأذية) من التقاليد الاجتماعية (التي تنظّم السلوكيات غير المرتبطة مباشرة بالأذية). من أجل اختبار أفكاره، وصل مع اثنين من المتعاونين إلى تسع وثلاثين قصةً يقوم فيها شخصٌ ما بشيءٍ ما يكسر القاعدة سواءٌ أكان في الولايات المتحدة أو كان في أوريسا. وقام الباحثون بعدئذٍ بمقابلة 180 طفلاً (تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثالثة عشرة) و60 راشداً الذين كانوا يقطنون في هايد بارك (الحي المحيط بجامعة شيكاجو) بشأن هذه القصص. وقابلوا أيضاً عيّنةً مماثلة من الأولاد البراهميين والراشدين في بلدة بوبانسوير (موقع الحج القديم في أوريسا)،[1] و120 شخصاً ممن ("لا يمكن الوصول إليهم") في الطبقات المنغلقة*. بالإجمال كان مشروعاً ضخماً - ستمئة مقابلة مطوّلة في مدينتين جدّ مختلفتين.

استخدمت المقابلة منهج توريل، تقريباً، لكنّ السيناريوهات كانت تغطي مزيداً من السلوكات مما سبق لتوريل السؤال عنه. حسبما ترون في الثلث الأعلى من الشكل 1.1 ، يؤذي الناس في بعض القصص بوضوح أناساً آخرين أو يعاملونهم بإجحاف، وقد أدان الأشخاص المشاركون في الاختبار (الناس الذين تتم مقابلتهم) في البلدين كليهما هذه الأفعال بالقول إنها كانت في آنٍ معاً خاطئة، وخاطئة على نحوٍ راسخٍ، وخاطئ على المستوى الكوني. لكنّ الهنود ما كانوا ليدينوا حالاتٍ أخرى بدتْ بوضوحٍ مماثل (بالنسبة إلى الأمريكيين) تنطوي على الأذية والجور (أنظر الثلث المتوسط).

---

(1) Shweder, Mahapatra, and Miller 1987 . كل شخص استجاب لثلاث عشرة أو تسعة وثلاثين حالة

* إحدى الطوائف الاجتماعية الوراثية عند الهندوس – المترجم



لمْ تُصوِّر القصص التسع والثلاثون أذيّةً أو ظلماً، على الأقل ما ينطوي على غموضٍ بالنسبة إلى طفل في الخامسة من عمره، وقال كلُّ الأمريكيين تقريباً إنَّ هذه الأفعال مباحةٌ (أنظر الثلث الأسفل من الشكل 1.1). وإذا ما قال الهنود إنّ هذه الأفعال خاطئة، سيقوم توريل بتنبّؤ أنهم كانوا يدينون الأفعال على أنها ليست سوى خروقات للتقاليد الاجتماعية. بالرغم ذلك قال معظم الهنود الخاضعين للاختبار ـ حتى الأطفال في الخامسة من العمر ـ إنّ هذه الأفعال كانت خاطئة، خاطئة كونيّاً، وهي خاطئة على نحوٍ راسخ. وكان يتمُّ تقييم الممارسات الهندية المتعلّقة بالغذاء، والجنس، واللباس، والعلاقات بين الجنسين بوصفها مسائل أخلاقية، وليست تقاليد اجتماعية، وكان هنالك فروقات قليلة بين الراشدين والأطفال ضمن المدينة. بمعنى آخر، لم يجد شويدر تقريباً أثراً للتفكير الاجتماعي التقليدي في ثقافة أوريسا المرتكزة على المجتمع، حيث، حسب تعبيره، "النظام الاجتماعي نظامٌ أخلاقي". كما كانت الأخلاق أكثر اتساعاً وكثافةً في أوريسا؛ كان من الممكن تقريباً تحميل أية ممارسة بقوة أخلاقية. وإذا ما كان ذاك حقيقياً، تصبح نظرية توريل، إذن، أكثر قبولاً في ظاهر الأمر. ولم يكن الأطفال يستنبطون الأخلاق بأنفسهم، اعتماداً على الاعتقاد بأنّ الأذيّة سيّئة.

الأفعال التي اتفق الأمريكان والهنود على أنها خاطئة
• شاهد رجلٌ أثناء سيره كلباً نائماً في الطريق. سار نحوه وركله. • قال أبٌ لابنه، "إذا أحسنتَ صنعاً في الامتحان، سأشتري لكَ قلماً." كان أداء الإبن جيداً في الامتحان، لكن الأب لم يُعطِهِ أيّ شيء.
أفعال قال الأمريكان عنها إنها خاطئة لكنَّ الهنود قالوا إنها كانت مقبولة:
• ذهبت امرأةٌ شابة متزوجة وحدها لمشاهدة فيلم سينمائي دون إعلام زوجها. عندما عادت إلى البيت قال زوجها، "إذا ما فعلتها ثانيةً، فسأضربك حتى يزرقَّ جلدك." أعادت الكرّة؛ ضربها حتى ازرق جلدها. (أحكم على الزوج.)



- لدى رجلٍ ابنٌ متزوجٌ وابنةٌ متزوّجة. بعد وفاته طالب إبنه بمعظم الملكية. وحصلت ابنته على القليل منها. (أحكم على الابن)

أفعال قال الهنود عنها إنها خاطئة لكنّ الأمريكان قالوا عنها إنها مقبولة:

- في عائلة، يخاطب ابنٌ في الخامسة والعشرين من عمره والده باسمه الأول.
- قامت امرأةٌ بطهي أرزٍ وأرادت أن تتناول الطعام مع زوجها وشقيقه الأكبر. ثم تناولت الطعام معهم. (أحكم على المرأة)
- أرملة تنتمي إلى مجتمعك المحلي تتناول السمك مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع.
- بعد الارتداد عن معتقد ديني لم تغيّر امرأةٌ ملابسها قبل القيام بإعداد الطعام.

الشكل 1.1 بعض من القصص التسعة والثلاثين المستخدمة عند شويدر ومهاباترا وميلر 1987

حتى في شيكاجو، وجد شويدر دليلاً ضئيلاً نسبياً متعلّقاً بالتفكير الاجتماعي التقليدي. كان هنالك الكثير من الأخبار التي لم تتضمّن أذيّةً أو جوراً، من قبيل أرملةٍ تتناول السمك، وقد قال الأمريكان على نحوٍ متوقع إن تلك الحالات لا غبار عليها. لكنّ الأهم من ذلك أنهم لم يجدوا تلك السلوكات بصفتها تقاليدَ اجتماعية من الممكن تغييرها من جرّاء الإجماع الشعبي. اعتقدوا أنّه لا بدّ للأرامل من أن تكنّ قادراتٍ على تناول ما يطيب لهن، وإذا ما كانت هنالك بلادٌ أخرى حيث يحاول الناس الحد من حريّات الأرامل، حسناً، هم مخطئون في عملهم هذا. وحتى في الولايات المتحدة النظام الاجتماعي هو نظامٌ أخلاقي، لكنّه نظام قائم على الفردية مرتكزٌ على حماية الأفراد وحريّاتهم. إنّ التمايز بين الأخلاقيات والتقاليد المجرّدة ليس أداةً يستخدمها الأطفال في كلّ مكانٍ ليبنوا ذاتياً معرفتهم الأخلاقية. على نحوٍ أدق، تبيّن أنّ التمايز ناتج ثقافي مصنّع، وهو ناتج جانبي ضروري للجواب القائم على الفردية عن سؤالٍ بشأن كيفية قيام العلاقة بين الأفراد والجماعات. عندما تضعُ [أنت] الأفراد أولاً، قبل المجتمع، وهكذا من الممكن تفحّص أيّة قاعدة أو ممارسةٍ اجتماعية تحدّ من



حريّة الأفراد. فإذا لم تقمْ بحماية شخصٍ ما من الأذية، يصبح من غير الممكن أن تكون مبرّرةً أخلاقياً. فهي ليست سوى تقليدٍ اجتماعي.

لقد كانت دراسة شويدر هجوماً رئيساً على المقاربة العقلانية برمتها، ولم يتبنّاها توريل مسلّما بالهزيمة. بل قام بكتابة مقالٍ دفاعيّ موضحاً أنّ الكثير من قصص شويدر التسع والثلاثين كانت أسئلةً ماكرة: فهي تفيد معانيَ مختلفةً في الهند وأمريكا.[1] على سبيل المثال يعتقد الهندوس في أوريسا أن السمك طعام "مهيّجٌ جنسياً" سيحرّض الرغبة الجنسية لدى الفرد. فإذا ما تناولت أرملةٌ طعاماً مهيّجاً جنسيّاً، فهي لا بد أن تمارس الجنس مع شخصٍ ما، مما سيؤذي إلى إهانة روح زوجها المتوفى والحيلولة دون تقمّصها في مستوى أعلى. وناقش توريل أنّكَ فور أخذ "الافتراضات المعلوماتية" عن الطريقة التي يعمل العالم بموجبها في حسبانك، ترى أن معظم قصص شويدر التسع والثلاثين كانت حقيقة انتهاكاتٍ أخلاقية، تؤذي الضحايا بأوجهٍ لا يمكن للأمريكان رؤيتها. وهكذا لا تناقض دراسة شويدر ادعاءات توريل؛ بل إنها قد تدعمها، إذا ما كنا نستطيع الاكتشاف بالتأكيد فيما إذا كان هنود شويدر المشاركين في الاختبار وجدوا أذية في القصص.

اشمئزاز وعدم احترام

عندما قرأت مقالاتِ كلٍّ من شويدر وتوريل، كان لدي ردّتا فعل قويّتان. الأولى كانت موافقةً فكرية مع دفاع توريل. وكان شويدر قد استخدم أسئلة "ماكرة" كي لا يكون مراوغاً بل ليثبت عملياً أنّ القواعد الناظمة للطعام، واللباس، وطرق مخاطبة الناس، والأمور الأخرى التقليدية ظاهرياً يمكن نسجها في شبكة عنكبوتٍ أخلاقية سميكة. على الرغم من ذلك، وافقت مع توريل أن دراسة شويدر كانت تفتقد إلى الضبط التجريبي المهم: فهو لم يسأل الخاضعين لاختباره عن الأذية. إذا ما أراد شويدر إظهار أنّ الأخلاق تمتد إلى ما بعد الأذية في

---

[1] Turiel, Killen, and Helwig 1987



أوريسا، كان عليه إظهار أنّ الناس كانوا مستعدين لإدانة أفعالٍ من الناحية الأخلاقية أعلنوا هم أنفسهم أنها كانت غير مؤذية.

كانت ردة فعلي الثانية عبارة عن شعور عميقٍ أن شويدر كان في الجوهرعلى صواب. ويتناسب شرحه للأخلاق المرتكزة على المجتمع تماماً مع دراسات الأنثروبولوجيا الوصفية التي قرأتها في صف فيسك. كما كان تأكيده على المشاعر الأخلاقية مرضياً بعد قراءة كل ذاك العمل المتعلق بالتطور الذهني الإدراكي. وفكرتُ أنه في حال قيام شخصٍ ما بإجراء دراسةٍ صحيحة ـ دراسة يتم ضبطها من أجل حالات الإدراك الحسي للأذية ـ فإنّ ادعاءات شويدر بشأن التباينات الثقافية ستجتازالاختبار. كما أمضيت الفصل الآتي أستنبط كيف يصبح المرء شخصاً ما.

شرعتُ بكتابة قصص قصيرة عن أناسٍ يقومون بأعمالٍ كريهة، ولو كانوا يفعلونها بطريقة لا يتعرض بموجبها أحدٌ للأذية. وسمّيتُ تلك القصص "انتهاكات غير مؤذية للمحرمات،" وتقرأ أنتَ اثنتين منها في مستهلّ هذا الفصل (عن أكل الكلب أو أكل .... الفرّوج). ولقد فبركت عشراتٍ من هذه القصص لكي اكتشف بسرعة أنّ القصص التي أصابت النجاح جيّداً قد وقعت في فئتين: ألا وهما القرف وعدم الاحترام. فإذا ما أردت منح الناس ومضة سريعة من الاشمئزاز بطريقةٍ تحرمهم من أي ضحيّةٍ يمكنهم استخدامها لتبريرالإدانة الأخلاقية،فقم بسؤالهم عن أناسٍ يقومون بأشياء مقرفة أو عديمة الاحترام، لكن تأكد أن الأعمال تُنفّذ في حالة عزلة دون وجود شخص أخر يتعرّض لجرح المشاعر. على سبيل المثال، كانت واحدة من قصص عدم الاحترام لدي: "تقوم امرأةٌ بتنظيف خزانتها، وتعثر على علمها الأمريكي القديم. لم تعد ترغب العلم بتاتاً، وهكذا تقوم بتمزيقه إلى قطع وتستخدم القطع الممزقة في تنظيف حمامها."

كانت فكرتي تتمثّل في تقديم قصص للراشدين والأطفال حرّضت مشاعر عميقة تتعلّق بقواعد سلوكية ثقافية مهمة مقابل تقديم الحجج على عدم الأذية ومن ثم رؤية أيّ من القوّتين كانت الأقوى. لقد توقعت عقلانية توريل أن تقديم الحجج والبراهين على الأذية بمثابة أساس الحكم الأخلاقي، وهكذا على



الرغم من أنّ الناس قد يقولون من الخطأ أكل كلبك الخاص، فإنّ عليهم معالجة الفعل على أنه انتهاك للتقليد الاجتماعي. (نحن لا نأكل كلابنا، ولكن "أيوه"*، إذا ما أراد أناس في بلادٍ أخرى أن يأكلوا كلابهم، من نحن لنقوم بالنقد؟) من جانب آخر، أفادت نظرية شويدر أنّ توقعات توريل يجب أن تصمد بين أعضاء المجتمعات العلمانية القائمة عل الفردية وليس في مكان آخر. لدي الآن دراسة مصممة. كان عليّ البحث عن المكانِ الآخر فحسب.

أتحدث الإسبانية جيّداً إلى حدّ ما، وهكذا حين علمتُ أنّ مؤتمراً رئيساً لعلماء النفس في أمريكا اللاتينية سيتم عقده في بوينس أيرس في شهر تموز 1989، قمت بشراء بطاقة طائرة. لم يكن لدي مصادر معلومات خاصة أو فكرة حول كيفية البدء بتعاون بحثي دولي، فعدتُ إلى كل حديث كان على علاقة بالأخلاق. كنت مغموماً لاكتشاف أنّ علم النفس في أمريكا اللاتينية لم يكن علمياً جداً. كان نظريا على نحوٍ مسرفٍ، وكان معظم تلك النظرية ماركسياً، تركز على القمع، والاستعمار، والسلطة. كان القنوط قد بدأ يتملّكني عندما صادفت جلسةً يديرها بعض أختصاصيي علم النفس البرازيليّين الذين كانوا يستخدمون مناهج كولبرجيّة [نسبة إلى كولبرج] في دراسة التطور الأخلاقي. تحدثت بعد الجلسة إلى مدير الجلسة، أنجيلا بياجيو، وطالب الدراسات العليا لديها سيلفيا كولير. وعلى الرغم من أنّ كلتيهما فضّلتا مقاربة كولبرج، فقد كانتا مهتمّتين بالاستماع عن البدائل. دعتني بياجيو لزيارتهما بعد المؤتمر في الجامعة في بورتو أليجري، عاصمة ولاية أقصى الجنوب في البرازيل.

إنّ جنوب البرازيل هو الجزء الأكثر أوروبيةً في البلاد، تمّ استيطانه في القرن التاسع عشر من قبل المهاجرين البرتغاليين، والألمان، والطليان. ولم تبدُ بورتو أليجري، بعمارتها الحديثة وازدهار الطبقة الوسطى، تشبه قطّ أمريكا اللاتينية الماثلة في مخيّلتي، فكنت في البداية خائب الأمل. كنت أريد أن تنطوي دراستي

* في الأصل hey وهي لفظة عامية الغرض منها الاستدراك ولفت الانتباه. – المترجم



العابرة للثقافات على مكانٍ غرائبيّ، مثل أوريسا. لكنّ سيلفيا كولير كانت متعاونةً رائعة، وكان لديها فكرتان عظيمتان عن كيفية زيادة تنوّعنا الثقافي. أولاً، اقترحت قيامنا بإجراء الدراسة عبر الطبقة الاجتماعية. إن الانقسام بين الفقراء والأغنياء هائل في البرازيل وكأنّ الناس يعيشون في بلدين مختلفين. قرّرنا مقابلة أناس راشدين وأطفال من الطبقة الوسطى المتعلمة، ومن الطبقة الدنيا كذلك الأمر - كان الراشدون يعملون خدماً لدى أناسٍ أثرياء (والذين نادراً ما حصلوا على تعليم يتجاوز الصف الثامن) وأطفالٍ من المدرسة العامة في الحي حيث كان يقطن الخدم. ثانياً، كان لدى سيلفيا زميلة برتبة بروفيسور تم التعاقد معها للتدريس في راسيفي، وهي مدينة في ذروة الشمال الشرقي من البلاد، وهي منطقة مختلفة تماماً من الناحية الثقافية عن بورتو أليجري. ورتبت سيلفيا لي زيارةً إلى صديقتها، جراسا دياز، في الشهر التالي.

قمنا سيلفيا وأنا بالعمل على مدى أسبوعين مع فريق من طلبة الدراسات الدنيا، على ترجمة قصص المحرمات غير المؤذية إلى اللغة البرتغالية، وعلى اختيار أفضلها، وفلترة أسئلة السبر، واختبار نص مقابلتنا للتأكد أنّ كلّ شيء كان مفهوماً، حتى من قبل الأقل تعليماً بين الخاضعين المشاركين في الاختبار، والذين كان بعضهم أمياً. ومن ثمّ سافرت إلى ريسيفي، وقمت مع جراسا بتدريب فريق من الطلبة لإجراء مقابلات بالطريقة ذاتها المعمول بها في بورتو أليجري. شعرت أخيراً في ريسيفي أنني كنت أعمل في موقع استوائي غرائبي، بصحبة موسيقا برازيلية تنساب عبر الشوارع وثمار مانجو ناضجة تتساقط من الأشجار. والأمر الأهم هو أنّ سكان شمال شرق البرازيل في الغالب من أصل مختلط (أفريقي وأوروبي)، والمنطقة أفقر وأقل تصنيعاً بكثير من بورتو أليجري.

عندما عدتُ إلى فيلادلفيا، قمت بتدريب فريقي من المحاورين وأشرفت على مجموعة البيانات الخاصة بالمجموعات الأربعة من الخاضعين للتجربة في فيلادلفيا. وبناءً عليه كان تصميم التجربة هو ما ندعوه "ثلاثة ضرب اثنين ضرب اثنين"، مما يعني أنّ لدينا ثلاث مدنٍ، وفي كل مدينة لدينا مستويان من الطبقة الاجتماعية (عليا ودنيا)، وضمن كل طبقة اجتماعية كان لدينا مجموعتان



عمريّتان: أطفال (الأعمار عشرة إلى اثني عشر) وراشدون (الأعمار ثماني عشرة إلى ثمان وعشرين). ومجموع هذا اثنتا عشرة مجموعة، في كلّ مجموعة ثلاثون شخصاً، وبلغ إجمالي عدد المقابلات360. وسمح لي هذا العدد الكبير من المشاركين بالتجربة بإجراء اختبارات إحصائية لرصد تأثيرات المدينة، والطبقة الاجتماعية، والعمر. كما توقعت أنّ فيلادلفيا ستكون الأكثر ارتكازاً على الفردية من المدن الثلاثة (وبالنتيجة الأقرب من نموذج توريل) وستكون ريسيفي الأكثرتعلّقاً بالمجتمع (وبالنتيجة أشبه بأوريسا في أحكامها).

كانت النتائج واضحة على قدر الإمكان في دعم شويدر. أولاً، لقد أكدت جميع مجموعاتي الأربعة في فيلادلفيا نتيجة توريل بأن الأمريكيين قاموا بتمييز كبير بين الانتهاكات الأخلاقية والتقليدية. واستخدمتُ قصّتين مأخوذتين مباشرة من بحث توريل: فتاة تدفع صبياً من الأرجوحة (ذاك انتهاك أخلاقي واضح) وطفلٌ يرفض ارتداء زيّ المدرسة (ذاك انتهاك تقليدي). وهذا ثبّت مناهجي. وقصدتُ أنّ أيّة اختلافات وجدتها على صلة بقصص المحرّمات غير المؤذية من غير الممكن إرجاعها إلى مراوغة في طريقة صياغتي لأسئلة السبر أو طريقة تدريبي المحاورين الخاصين بي. ولقد نظر البرازيليون من الطبقة العليا إلى هذه القصص تماماً مثل الأمريكيين. لكن الأطفال البرازيليين من الطبقة العاملة فكّروا عادة في أنّ خرق التقليد الاجتماعي وعدم ارتداء الزيّ الرسمي كان خطأً ذا طابعٍ كونيّ. في ريسيفسي، ولا سيّما حكم أطفال الطبقة العاملة على التمرد ضد الزيّ (الّذي) بما يشبه حكمَهم على مرتكبة الدفع من الأرجوحة. ودعم هذا النموذج شويدر: تنوّع حجم التمايز الأخلاقي- التقليدي عبر الجماعات الثقافية.

كان اكتشافي الأول هو أنّ الناس استجابوا إلى قصص الحرام غير المؤذي مثلما توقع شويدر تماماً: لقد حكم عليها أبناء فيلادلفيا من الطبقة العليا على أنها انتهاكات للتقاليد الاجتماعية، وحكم عليها أبناء ريسيفي من الطبقة الدنيا على أنها انتهاكات أخلاقية. كانت هنالك مؤثرات مهمة منفصلة متعلقة بالمدينة (أبناء بورتو أليجرو استفاضوا في تأكيد البعد الأخلاقي أكثر من أبناء



فيلادلفيا، واستفاض أبناء ريسيفي في تأكيد الجانب الأخلاقي أكثر من أبناء بورتو أليجري)، ومتعلقة بالطبقة الاجتماعية (أفرط أبناء الطبقة الدنيا في تأكيد الجانب الأخلاقي أكثر من أبناء الطبقة العليا)، ومتعلّقة بالعمر (أفرط الأطفال في تأكيد الجانب الأخلاقي أكثر من الراشدين). على نحوٍ غير متوقع، كان تأثير الطبقة الاجتماعية أكبر بكثير من تأثير المدينة. بمعنى آخر، كان الأشخاص جيّدو التعلّم أكثر شبهاً بأقرانهم من تشابههم مع جيرانهم من الطبقات الدنيا. لقد سافرت عن طريق الجو خمسة آلاف ميل بحثاً عن التنوّع الأخلاقي في حين كان الكثير موجوداً مما يمكن اكتشافه على مبعدة عدة كتل بنائية غرب الحرم الجامعي، في الحي الفقير المحيط بجامعتي.

كان اكتشافي الثالث أنّ كلّ الاختلافات التي اكتشفتها كانت قائمة عندما تحكّمت بحالات إدراك الأذية حسّياً. وكنتُ قد ضمّنتُ سؤالاً لإجراء التحقيق والذي سال مباشرةً ، بعد كلّ قصّة: "هل تظن أنّ أحداً تعرّض للأذية من جرّاء ما قام به [أحد شخوص القصة]؟" وإذا ما كانت نتائج شويدر قد نجمت عن ملاحظات ضحايا خفيّين (حسبما افترض توريل)، ومن ثمّ كان لا بدّ أن تتلاشى تبايناتي العابرة للثقافات عندما قمتُ بإزاحة المشاركين في الاختبارممن قالوا نعم في الرد على هذا السؤال. ولكن عندما قمت بإخراج أولئك الأشخاص بواسطة الغربلة ، أصبحت التباينات الثقافية أكبر لا أصغر. وكان هذا دعماً قوياً جداً لادعاء شويدر أن المجال الأخلاقي يتجاوز الأذية. ولقد قال معظم المشاركين في التجربة إن انتهاكات الحرمات غير المؤذية كانت على صعيدٍ كونيٍ خاطئة على الرغم من أنها لم تعدّ بالأذى على أحد.

بمعنى آخر، كسب شويدر المناظرة. وكنت قد نسخت نتائج توريل مستخدماً مناهج توريل على أشخاصٍ مثلي ـ أي غربيّين متعلّمين نشؤوا في ثقافة ترتكز على الفرد ـ لكنّي قمت بتثبيت تأكيد ادعاء شويدر أنّ نظرية توريل لم تسرْ على ما يُرام. لقد تنوّع ميدان الأخلاق عبر الأمم والطبقات الاجتماعية. وبالنسبة إلى معظم الناس في دراستي، كان ميدان الأخلاق يمتد إلى ما بعد الأذية والعدل.



كان من الصعب رؤية كيف يمكن لإنسانٍ عقلاني شرحُ هذه النتائج. كيف يمكن للأطفال بناء معرفة أخلاقية ذاتياً عن الاشمئزاز وعدم الاحترام انطلاقاً من تحليلهم الخاص لنزعة الأذية؟ ولا بدّ أن تكون هذه مصادرَ أخرى للمعرفة الأخلاقية، بما فيها التعلّم الأخلاقي (حسبما يناقش شويدر) أو حالات الحدس الفطري الأخلاقية بشأن الاشمئزاز وعدم الاحترام (حسبما بدأت أناقش بعد سنوات فيما بعد).

وصل أسماعي ذات مرّة مقابلة محاكمة أخلاقية حسب أسلوب كولبرج يتم إجراؤها في حمام أحد مطاعم مكدونالد في شمال ولاية إنديانا. الشخص المشارك في المقابلة ـ المستَجوَب ـ كان ذكراً قوقازيّاً يبلغ من العمر قرابة ثلاثين عاماً. وكان المحاور في المقابلة ذكراً قوقازيّاً في حوالي الرابعة من عمره. بدأت المقابلة في مبولة مجاورة.

المحاور: بابا، ما الذي سيحدث إذا ما تغوّطت هنا [في المبولة]؟

المستَجوَب: سيكون أمراً مقززاً "تفوه". دعكَ من ذلك، هيّا نغسلْ أيدينا.

[ينتقل الشخصان إلى المغاسل]

المحاور: ما الذي سيحدث لو تغوّطتُ في المغسلة؟

المستَجوَب: العاملون هنا سيجنّ جنونهم منك.

المحاور: ما الذي سيحدث إذا ما تغوّطتُ في مغسلة البيت؟

المستَجوَب: سيجنّ جنوني منك.

المحاور: ما الذي سيحدث إذا ما تغوّطتَ في مغسلة المنزل؟

المستَجوَب: سيجنّ جنون الماما منّي.

المحاور: لا بأس، ما الذي سيحدث إذا ما تغوّطنا جميعاً في مغسلة البيت؟

المستَجوَب: [لحظة صمت] أخمّن سنقع جميعنا في ورطة.

المحاور: [ضاحكاً] أيوه، سنقع جميعاً في ورطة.

المستَجوَب: هيا بنا، نجفف أيدينا. علينا الذهاب.



لاحظْ إصرار المحاور ومهارته، الذي يسبر سعياً إلى سؤالٍ أعمق بتغيير الفعل الآثم، لإزاحة القائم بالعقوبة. مع ذلك حتى عندما يتعاون كلّ شخصٍ في كسرالقاعدة بما لا يمكّن أحداً من لعب دور القائم بالعقوبة، ما زال المستَجوَب متمسّكاً بمفهوم العدالة الكونية التي فيها، إلى حدٍّ ما، كامل الأسرة "ستقع في ورطة".

بالطبع، لا يحاول الأب حقيقةً إبراز حججه الأخلاقية. يتم القيام بتقديم الحجج الأخلاقية للتأثير على الناس الآخرين (أنظر الفصل الرابع)، وما يحاول الأب القيام به هو جعل ابنه الفضوليّ الشعور بالأحاسيس الحقيقية - الاشمئزاز والخوف - من أجل تحفيز سلوك مناسب في الحمام.

إختراع الضحايا

على الرغم من أنّ النتائج خرجت كما سبق أن توقع شويدر، كان هنالك عددٌ من المفاجآت في سيرورة الأمور. تمثّلت المفاجأة الأكبر في أنّ المستَجوَبين حاولوا اختراع الضحايا. وكنت قد كتبت القصص بحرص على إزاحة كل أذية ممكن تصوّرها على الناس الآخرين، وبالرغم من ذلك في 38 في المئة من ال 1620 مرة التي سمع الناس فيها قصة استفزازية غير مسببة للأذى، ادّعوا أنّ شخصاً ما تعرّضَ للأذى. في قصة الكلب، على سبيل المثال، قال كثير من الأشخاص إنّ العائلة بحدّ ذاتها ستتعرّض للأذية لأنّ أفرادها سيمرضون بسبب تناول لحم الكلب. هل كان هذا اختباراً "للافتراضات المعلوماتية" التي تحدّث عنها توريل؟ هل كان الأشخاص يدينون الأفعال لأنهم تنبّؤوا بهذه الأذيات، أو أنها العملية المعاكسة - هل كان الناس يخترعون تلك الأذيات لأنهم كانوا تواً قد أدانوا الأفعال.

قمت بإجراء كثيرٍ من مقابلات فيلادلفيا بنفسي، وكان من الواضح أنّ معظم الأذيّات المفترضة كانت فبركات مرتجلةٌ لاحقة. قام الأشخاص عادةً بإدانة الأفعال سريعاً - لم يبدُ أنّهم احتاجوا إلى الكثير من الوقت ليقرّروا فيمَ يفكّرون. لكن في الغالب كانوا يقدّمون أولئك الضحايا بحماسٍ محدود



وبشكلٍ اعتذاري تقريباً. حسبما قال أحد المستَجوَبين: "حسناً، لا أدري، ربما ستشعر المرأة أنها مذنبة فيما بعد بشأن رمي علمها؟" وكان الكثير من ادعاءات الضحية تلك منافية للعقل تماماً، من قبيل الطفل الذي برّر إدانته لمزّقة العلم بالقول إنّ قطع القماش الممزّقة من الممكن أن تسد المرحاض وتؤدي إلى فيضانه.

لكنّ شيئاً أكثر إمتاعاً كذلك حدث عندما قمت أو قام غيري من المحاورين بتحدّي ادعاءات الضحيّة المختَرَعة تلك. لقد دربّت المحاورين معي لتصحيح الأشخاص بلطف عندما قدموا ادعاءات ناقضت نص القصة. على سبيل المثال، إذا ما قال شخص: "من الخطأ [تمزيق العلم لأنّ أحد الجيران قد يراها تفعل ذلك، وقد تجرح مشاعره"، أجاب المحاور: "حسناً، يرد هنا في القصة أنّ أحداً لم يرها تقوم بفعلتها. هل ما زلت تقول إنّ قيامها بتمزيق علمها أمرٌ خاطئ؟" رغم ذلك عندما تحقق المُستجوَبون أنّ ادعاءات ضحيّتهم كانت زائفة، مازالوا يرفضون القول إنّ الفعل كان لا غبار عليه. بدلاً من ذلك، واصلوا البحث عن ضحيّةٍ أخرى. فقالوا أشياءَ من قبيل: "أعرف أنّ الأمرَ خاطئ، لكنّني لا أستطيع التفكير في السبب فحسب؟" بدوا **مشدوهين من الناحية الأخلاقية** ـ تحوّلوا إلى عاجزين عن الكلام من جرّاء عدم قدرتهم على شرح شفهي لما عرفوه بواسطة الحدس.[1]

كان هؤلاء المستَجوَبون يفكّرون في البراهين. وكانوا يعملون بجد على تقديم الحجج. لكنّه لم يكن بحثاً عن البراهين في سبيل الحقيقة؛ كان تفكيراً بالبراهين دعماً لردود أفعالهم العاطفية. كان التفكير في البراهين حسبما وصّفهُ الفيلسوف ديفيد هيوم، الذي كتب عام 1739 أنّ "العقل هو، وينبغي أن يكون عبداً للعواطف فحسب، ولا يستطيع مطلقاً التظاهر بأداءأيّ دورٍ أكثر من خدمتها وطاعتها."[2]

---

[1] أشكر دان فيرجر Dan Weger، زميلي ومدربي في جامعة فرجينيا، على نحت مصطلح الانشداه الأخلاقي.

[2] Hume 1969/1739—40, P. 462. لقد قصد هيوم أن التفكير، يجد الوسائل لتحقيق أية غايات كانت تمّ اختيارها بواسطة العواطف. لمْ يُركّز على التبرير اللاحق كما هي

==



لقد وجدتُ دليلاً على ادعاء هيوم. وجدتُ أنّ تقديم الحجج الأخلاقية في الغالب خادمٌ للمشاعر الأخلاقية، وكان هذا تحدياً للمقاربة العقلانية التي سادت علم النفس الأخلاقي. وقمت بنشر هذه النتائج في واحدة من أرفع دوريات علم النفس في تشرين الأول من عام 1993[1] ثمّ انتظرتُ الإجابة بأعصابٍ متوترة. وعلمتُ أنّ ميدان علم النفس الأخلاقي ما كان ليتغيّر بين عشيّة وضحاها لأنّ طالباً متخرّجاً قام فحسب بإنتاج بعض البيانات التي لمْ تكن مناسبةً ضمن النموذج السائد. كما علمتُ أنّ المناظرات في علم النفس الأخلاقي من الممكن أن تكون حامية (ولو أنها دوماً حضارية). ما لم أتوقعه، من جانبٍ آخر، هو عدم توفر الجواب. وهنا فكرتُ في أني قمتُ بدراسةٍ دقيقة لحسم مناظرة رئيسية في علم النفس الأخلاقي، وعلى الرغم من ذلك لم يقتطف أحد من عملي ـ حتى من قبيل التهجم عليه ـ في السنوات الخمس الأولى بعد قيامي بنشره.

استقرت أطروحتي في مكانها ترافقها خبطةٌ صامتة جزئياً لأنني نشرتها في دورية مختصة في علم النفس الاجتماعي. لكنْ في أوائل التسعينات، كان ميدان علم النفس الأخلاقي ما يزال جزءاً من علم النفس التنموي. فإذا ما دعوتَ نفسَكَ عالم نفس أخلاقي، فذلك كان يعني أنك درست جمع البراهين الأخلاقية المطروحة وكيف تتغيّر بتقدم العمر، وأنكَ اقتبستَ كولبرج على نحوٍ موسع سواء أوافقتَ معه أم لم توافق.

لكنّ علم النفس كان في طريقه إلى أن يتغيّر ويصبحَ أكثر اقتراباً من المشاعر.

وظيفة التفكير المنطقي. لكن كما سأُظهر في الفصول اللاحقة، تبرير أفعال الذات والأحكام العقلية أحد الغايات الأساسية التي نشعر جميعاً بالحماس حيالها.

[1] Haidt, Koller, and Dias 1993.



خلاصة الأمر

من أين تأتي الأخلاق؟ كان الجوابان الأكثر شيوعاً لوقتٍ طويل يفيدان أنّها مسألة فطرية (الجواب الأهلاني) أو أنّها تأتي من التعلم في الطفولة (جواب المعرفة التجريبية). في هذا أخذت بالحسبان احتمالاً ثالثاً، الجواب العقلاني، الذي ساد علم النفس الأخلاقي عندما دخلت المجال المذكور: ألا وهو أنّ الأخلاق يتمّ بناؤها ذاتيّاً من قِبَل الأطفال على أساس تجربتهم مع الأذية. يعرف الأطفال أنّ الأذيّة خطأ لأنهم يكرهون التعرّض للأذية، وبالتدريج يصلون إلى إدراك أن من الخطأ بالتالي أذية الآخرين، مما يقودهم إلى فهم المشروعية وفي خاتمة المطاف العدل. لقد شرحت لماذا وصلتُ إلى رفض هذا الجواب بعد القيام ببحثٍ في البرازيل والولايات المتحدة. وبدلاً من ذلك استنتجت:

- يتنوّع المجال الأخلاقي بفعل الثقافة. فهو عادةً ضيّق في الثقافات الغربية، المتعلمة، الفردية. وتقوم الثقافات المرتكزة على المجتمع بتوسيع المجال الأخلاقي لتضمين بعض عناصر الحياة وتنظيمها.
- لدى بعض الناس مشاعر عميقة ـ ولا سيّما بشأن القرف وعدم الاحترام ـ التي بمقدورها توجيه التفكير بالبراهين. يكون التفكير الأخلاقي في البراهين أحياناً فبركة مرتجلةً لاحقاً.
- لا يمكن للأخلاق كلّها أن تُبنى ذاتياً من قِبَل الأطفال بناءً على تطوّرفهمهم للأذية. لا بدّ من أن يُسهمَ التعلّم أو الإرشاد الثقافي إسهاماً أكبر مما منحت النظريات العقلانية له.

إذا لمْ تأتِ الأخلاق أساساً من التفكير في البراهين، فسيترك ذلك إذن بعض الدمج بين الفطرية والتعلّم الاجتماعي بصفتهما المرشّحين المرجّحين. في معظم مواضع هذا الكتاب سأحاول شرح كيف يمكن أن تكون الأخلاق فطرية (بوصفها مجموعة من حالات الحدس المتحوّلة أو التي تمّ تعلّمها (مثلما يحاول أولئك الأطفال تطبيق حالات الحدس تلك ضمن ثقافةٍ محددة). لقد ولدنا كي نكون صوابيين.



ثانياً

الكلب الحدسيّ وذيله العقلاني

إنّ واحدةً من أكبر الحقائق في علم النفس هي أنّ العقل مقسّمٌ إلى أجزاءٍ تتصارع في بعض الأحيان[1]. أن تكون إنساناً هو أن تَشعُرَ بالجذب نحو اتجاهات مختلفة، وتستغرب - في بعض الأحيان برعب - حيال عدم قدرتك على السيطرة على أفعالك. لقد عاش الشاعر الروماني أوفيد في زمنٍ تفكيرالناس في أنّ الأمراض ناجمةٌ عن عدم توازن في العصارة الصفراء، ولكنّه عرف ما يكفي من علم النفس لجعل واحدٍ من شخصياته يندب: "أنا مسحوبٌ إلى الأمام بفعل قوّةٍ غريبةٍ جديدة. أرى الطريق الصحيح وأستحسنه، لكنّني أتبع الخطأ."[2]

لقد أعطانا المفكّرون القدامى الكثير من الصور المجازية لفهم هذا الصراع، لكنّ القلّة القليلة منها أكثر تلوّناً من صورةٍ في حوار أفلاطون ((تيميانوس)). يشرح الراوي تيميانوس كيف خلق الله الكون، بما فيه نحن. ويقول تيميانوس إنّ الله الخالق الذي تميّز بالكمال وخلق الأشياء الكاملة فحسب كان يملأ كونه بالنفوس [الأرواح] - وما الذي يمكن أن يكون أكمل في النفس من عقلانية كاملة؟ وهكذا بعد صنع عدد كبيرٍ من النفوس الكاملة العقلانية، قرّر الله الخالق أخذ فرصة استراحة، مرسلاً آخر أجزاء الخلق الصغيرة في وفدٍ إلى بعض المعبودين الأدنى، الذين فعلوا ما بوسعهم لتصميم أوعيةٍ لهذه النفوس.

---

[1] هذا أساس حقيقة فرضيّة السعادة الذي يتم وصفه في الفصل 1 من الكتاب.

[2] D Medea, in *Metamorphosis* (Ovid 2004), Book VII



بدأ المعبودون بتغليف النفوس في ذاك الشكل الأكمل، أي الكرة السماوية، وهو ما يشرح لماذا رؤوسنا دائريّةٌ تقريباً. لكنْ سرعان ما لاحظوا أنّ هذه الرؤوس الدائرية ستواجه صعوباتٍ وإهانات وهي تتدحرج حول سطح الكرة الأرضية غير المستوي. وهكذا خلقت الآلهة أجساداً لحمل الرؤوس، وقاموا ببعث الحركة في كلّ جسدٍ بنفسٍ أخرى ـ في منتهى الدونية لأنها لم تكن عقلانية أو خالدة على حدٍّ سواء. ولقد تضمّنت النفس الثانية:

> تلك الاضطرابات الكريهة لكن الضرورية: المتعة، في المقام الأول، إغواء الشيطان الأقوى؛ ثمّ الآلام، التي تجعلنا نهرب بعيداً عمّا هوجيّد؛ فضلاً عن هذه، هنالك الوقاحة والخوف، وهما ناصحان أحمقان معاً؛ وبعدئذٍ روح الغضب أيضاً من الصعب تهدئتها، والتطلّع يقود بسهولةٍ إلى الضلال. ولقد قاموا بدمج ذلك كلّه بحسٍ مدركٍ لا علاقة له بالفكر وكل الشهوة المغامرة، وهكذا، حسبما كان ضرورياً، قاموا ببناء النمط الفاني من النفس.[1]

لقد كان كلٌّ من المباهج، والمشاعر، والأحاسيس شروراً ضرورية. ومن أجل منح الرأس المقدسة قليلاً من المسافة الفاصلة عن الجسد المضطرب و"قصده السرّيَ الأحمق"، اخترع الآلهة العنق.

تقوم معظم أساطير الخلق بوضع قبيلةٍ أو سلفٍ في مركز الخلق، وضعاً يبدو معه من الغرابة منحُ الشرف لَلَكةٍ عقليّة ـ على الأقل حتى تلحظ أسطورةَ الفيلسوف هذه تجعلُ الفلاسفة يبدون جيّدين تماماً إلى حدّ المبالاة. وهي تسوّغ استخدامهم الدائم على أنّهم كهنة المنطق الرفيعون. إنها الخيال الجامح، العقلاني الجوهري ـ فالعواطف وهي ولا بد أن تكون [وينبغي أن تكون] خدماً

[1] Plato 1997 . المقبوس من كتاب *Timaeus* d69 . لاحظ أنّ تيمايوس يبدو متحدّثا بلسان أفلاطون. لم يتم استعماله باعتباره قناعاً، على وشك أن يتم دحضه من قبل سقراط.



للعقل، على سبيل مناقضة صيغة هيوم. وفي حال أيّ شك حول ازدراء أفلاطون للعواطف فحسب، يضيفُ تيميانوس أنّ الإنسان الذي يسيطر على مشاعره سيعيش حياةً من الرشد والعدل، وسوف يُبْعَثُ في جنّةٍ علويّةٍ من السعادة الأبدية. أمّا الإنسان الخاضع لعواطفه، من جانبٍ آخر، فسوف يتقمّص هيئة امرأة.

كانت الفلسفة الغربية تواصل عبادتها العقل وارتيابها من العواطف على مدى آلاف السنين.[1] ويوجد خطٌّ مباشر يتكرّرُ من أفلاطون مروراً بمانويل كانط وصولاً إلى لورنس كولبيرج. وسوف أشيرُ إلى هذا الموقف التعبّديّ في مواضع هذا الكتاب كافة على أنّه *الوهم العقلاني*. وأسمّيه وهماً لأنّه عندما تصنع مجموعةٌ من الناس شيئاً ما مقدّساً، يبدأ أعضاء الطائفة القدرة على التفكير فيه بوضوح. فالأخلاق تعمي البشر وتجمع بينهم. ويقوم المؤمنون الحقيقيون بإنتاج خيالات ورعة لا تتناسبُ مع الواقع، وفي نقطةٍ ما يبرز شخصٌ للإطاحة بالصنم من على قاعدته. كان ذاك مشروع هيوم، بادعائه المنافي للدين من الناحية الفلسفيّة بأنَّ العقل لم يكنْ يعدو كونه خادماً للعواطف.[2]

لقد قام توماس جيفرسون بتقديم نموذجٍ متوازنٍ للعلاقة ما بين العاطفة والعقل. ففي عام 1786، بينما كان يؤدي مهمّته سفيراً إلى فرنسا، وقع جيفرسون فريسةً للغرام. كانت ماريّا كوزواي فنانّةً إنكليزيةً في السابعة والعشرين من عمرها تعرّف جيفرسون إليها عن طريق صديقٍ مشترك. بعدئذٍ قام جيفرسون وكوزواي على مدى الساعات التالية برمتها بكلّ ما يتوجّب فعله للوقوع في الغرام على نحوٍ جنونيّ. قاما بالتسكّع في أرجاء باريس في يومٍ مشمسٍ تماماً، فهما شخصان أجنبيّان يتشاركان في حالات إعجابٍ جمالي لدى كل

---

[1] Solomon 1993

[2] استخدم هيوم كلمة عبد، لكنْ سأتحوّل إلى مصطلح خادم الأقل استفزازاً والأكثر دقّةً. كان هيوم يؤسس على أفكار أصحاب النزعة العاطفية ا، لكن من منظورٍ حدسي، لإنكليز واسكتلنديّين، من أمثال فرانسيس هاتشيسون وإيرل شافتسبيري. يتضمّن أنصارُ النزعة العاطفية، أو المناوئون للعقلانية، الآخرون روسّو، ونيتشة، وفرويد.



منهما بالمدينة العظيمة. كما أرسلَ جيفرسون رسائلَ تنطوي على أكاذيبَ لإلغاء اجتماعاته المسائية على نحوٍ يمكِّنه من استغلال نهار اليوم ومسائه. كانت كوزواي متزوّجة، على الرغم من أنّ الزواج يبدو زواجاً مفتوحاً قوامه المصلحة، ولا يعرف المؤرّخون إلى أيّ حدّ وصلت العلاقة الغرامية في الأسابيع التي تلت ذلك[1]. لكنَّ زوجَ كازواي أصرَّ على إعادة زوجته إلى إنكلترا، تاركاً جيفرسون نهباً للألم.

بغرضٍ تخفيف الألم، كتب جيفرسون رسالةَ حبٍّ مستخدماً حيلةً أدبيّةً لتمويه عدم لباقة الكتابة عن الحبّ إلى امرأةٍ متزوّجة. لقد كتبَ جيفرسون الرسالةَ مستخدماً أسلوب حوارٍ ما بين رأسه وقلبه مناقشاً حكمة مواصلة "علاقة صداقة" حتى أثناء معرفته أنّها آيلةٌ إلى النهاية. إنّ رأس جيفرسون هو المثال الأفلاطونيّ للعقل، الذي يوبّخ القلب الذي أقدمَ على توريط الاثنين معاً في معمعةٍ أخرى من العيار الثقيل يطلبُ القلب الشفقة من الرأس، لكنَّ الرأس يردُّ بمحاضرة صارمة:

> كلّ شئ في العالم مسألة حساب.
> تقدّمْ بحذرٍ إذنْ، فالميزان في يدكْ.
> ضع في إحدى كفّتيّ الميزان الملذّات التي يمنحها شئٌ ما؛
> لكنْ ضعْ بعدالةٍ في الكفة الثانية الآلام الأخرى التي تتبع، &
> وتأمّل أيّة كفة منهما ترجح.[2]

بعد تلقّي جولةٍ إثرَ جولةٍ من التوبيخ باستسلامٍ، ينهض القلب في خاتمة المطاف للدفاع عن نفسه، وليضع الرأس في مكانه المحدد ـ ألا وهو معالجة المعضلات التي لا تورّط الناس:

(1) Ellis 1996.

(2) Jefferson 1975/1786، ص 406.



> عندما زوّدتنا الطبيعة بالسكنى ذاتها، منحتنا علاوةً عليها سيطرة مقسّمة. وخصّصتْ لكَ حقل العمل؛ ولي حقل الأخلاق. وعندما سيتمُّ تحويل الدائرة إلى مربّع، أو رسم مدارٍ لمذنّب؛ وعندما يتمّ استقصاء قوس القوّةِ الأكبر، أو مادة صلبة قليلة المقاومة، وفهم المشكلة؛ وهي ملكك؛ الطبيعة لمْ تمنحني معرفة الأمر. بأسلوبٍ مشابه، في حرمانك من الشفقة، ونزعة فعل الخير، والامتنان، والعدل، والحب، والصداقة، إنّما أبعدَتْك عن سيطرتها. ومن أجلِ هذه الأمور، هيّأتْ آليّةً خاصةً بالقلب. كما كانت الأخلاق جدّ أساسية لسعادة الإنسان كي تتمّ المجازفة من خلالها على تراكيب الرأس الحائرة. وبناءً على ذلك وضعت أساسها في العاطفة، لا في العلم.[1]

وهكذا لدينا الآن ثلاثةُ نماذجٍ للعقل. لقد قال أفلاطون إنَّ العقل ينبغي أن يكون السيّد، حتى لو كان الفلاسفة الوحيدين الذين يستطيعون الوصول إلى مستوى التمكّن العالي.[2] وقال هيوم إنّ العقل هو ـ وينبغي أن يكون ـ خادمَ العواطف: ويعطينا خياراً ثالثاً، يكون فيه العقل والعاطفة (وينبغي أن يكونا) حاكمين مشتركين مستقلّين، مثل أباطرة روما، الذين قسّموا الأمبراطورية إلى نصفين شرقيٍّ وغربيّ. فمن على صواب؟

نبوءة ويلسون

لقد حاول أفلاطون، وهيوم، وجيفرسون فهم تصميم العقل البشري دون مساعدة الأداة الأقوى التي استُنْبطَتْ إلى حينه لفهم تصميم الأشياء الحيّة: نظرية

---

(1) المصدر السابق، ص 408 - 9.

(2) كان نموذج أفلاطون في كتاب ((تيمياوس)) *Timaeus*، كما هو في كتاب ((فايدروس)) *Phaedrus*، فعلياً ينطوي على ثلاثةِ أجزاء للروح: العقل (في الرأس)، والروح (بما فيه الرغبة بالشرف، في الصدر)، والشهية (حبّ المتعة والمال، في المعدة). لكن في هذا الفصل سأقوم بتبسيطه بصفته نموذج عمليّةٍ ثنائية، تنشر العقل (فوق العنق) مقابل مجموعتي العواطف (في الأسفل).



داروين في التطوّر. كان داروين مفتوناً بالأخلاق لأنّ أيّ مثالٍ عن التعاون بين المخلوقات الحيّة كان لا بُدّ أن يتعرّضَ للاختبار بواسطة تأكيده العام على التنافس و"البقاء للأجدر"[1]. وقدّمَ داروين عدّةَ شروحاتٍ عن كيفيّة إمكانية حصول تطوّر الأخلاق، وقد أشار الكثير منها إلى مشاعر من قبيل الشفقة، التي كانت حسبما ارتأى "حجر الأساس" للغرائز الاجتماعية.[2] وكتب أيضاً عن العار والفخر، اللذين كانا مرتبطين بالرغبة في السمعة الطيبة. كان داروين أهلانيّ النزعة بشأن الأخلاق: اعتقد أنّ الاصطفاء الطبيعي منحنا عقولاً كانت محمّلةً مسبّقاً بالمشاعر الأخلاقية.

وحين تقدّمت العلوم الاجتماعية في القرن العشرين، تغيّرَ مسارُها بواسطة موجتين من الحكمة الأخلاقية حوّلتا الأهلانية إلى جريمة أخلاقية. كان الذُعرُ الأول في صفوف علماء الأنثروبولوجيا وآخرين حيال "الداروينية الاجتماعية" ـ وهي الفكرة (التي طرحها داروين دون أن يسلّم بها) التي مفادها أنّ الأمم، والأعراق، والأفراد الأغنى والأنجح هم الأجدر. لذلك يتدخّلُ منح الفقراء صدقةً في التقدم الطبيعي للتطوّر: فهي تسمح للفقراء بالتناسل.[3] فالادعاء أنّ بعض الناس كانوا متفوّقين بالفطرة على الآخرين تبناه هتلر، وبذلك كان هتلر أهلانياً، ومن ثمّ كان كلُّ الأهلانيين نازيّين. (النتيجة منافية للمنطق، لكنّها ذات مغزى من الناحية الشعورية إذا ما كنتَ لا تحبّ الأهلانيّة.)[4]

---

(1). تمّ نحتُ هذه العبارة من قِبَل هربرت سبنسر، لكنّ داروين استخدمها أيضاً.

(2). Darwin 1998/1871, Part I, chapter. المزيد حول هذه المسألة في الفصل التاسع.

(3) تمّ تطوير هذه الفكرة من قبل هربرت سبنسر في أواخر القرن التاسع عشر، لكنّها ترجع إلى توماس مالتوس في القرن الثامن عشر. اعتقد داروين بشكلٍ مؤكد أن القبائل تنافس سواها (أنظر الفصل التاسع)، لكنّه لم يكن داروينيّاً اجتماعياً، حسب ديزموند زمور 2009.

(4) كان هتلر نباتياً كذلك الأمر، لكن ما من أحدٍ يجادل في أنّ تبني النزعة النباتية يجعلُ المرءَ نازياً.



كانت الموجة الثانية للحكمة الأخلاقية ممثّلةً بالسياسة الراديكالية التي غمرت الجامعات في أمريكا، وأوروبا، وامريكا اللاتينية في الستينات والسبعينات من القرن المنصرم. يريد الإصلاحيّون الراديكاليون عادةً الاعتقاد أنّ الطبيعة البشرية لوح أبيضٌ يُمكنُ أنْ تُخَطّ عليه أيّةُ رؤية. وإذا ما منح التطور الرجال والنساء مجموعاتٍ مختلفة من الرغبات والمهارات، كان سيغدو عائقاً لإنجاز المساواة بين الجنسين في مهنٍ كثيرة على سبيل المثال. وإذا ما كانت الأهلانية ممكنة الاستخدام لتبرير بُنى السلطة القائمة، فالأهلانية نتيجةً لذلك لا بُدَّ أن تكون خاطئة. (من جديد، هذا خطأٌ منطقي، لكنْ هذه هي الطريقة التي تعمل العقول القويمة بموجبها.)

كان العالِم الإدراكي ستيفن بينكر طالبَ دراسات عليا في جامعة هارفرد في السبعينات من القرن المنصرم. في كتابه الصادر عام 2002 الذي يحمل عنوان ((اللوح الأبيض: الإنكار الحديث للطبيعة البشرية)) يصف بينكر الطُرُق التي تخلّى من خلالها العلماء عن قِيَم العلم للإبقاء على الولاء لحركة التقدم. لقد اصبح العلماء "مستعرضين أخلاقيين" في قاعة المحاضرات حيث قاموا بشيطنة الزملاء والعلماء وحثّوا طلاّبَهم على تقييم الأفكار ليس لكونها تُجَسِّدُ الحقيقة بل بسبب تناغمها مع المُثُل التقدمية من قبيل المساواة الجنسية والعرقية.[1]

ما منْ مكانٍ كانت خيانة العلم فيه أكثر جلاءً مما هي عليه في الانتقادات الحادة بحق إدوارد أو. ويلسون، وهو تلميذٌ مستمرٌ مدى الحياة للنمل وأنظمة البيئة. في عام 1975 قام ويلسون بنشر ((علم الاجتماع: الجمعية الجديدة))•. يرودُ الكتاب كيف صاغ الاصطفاء الطبيعي، الذي شكّل على نحوٍ لا يقبلُ الجدَلَ أجسام الحيوانات، وسلوكها كذلك. وذاك لم يكنْ مثارَ جدَلٍ، لكنْ لدى ويلسون الجسارة للاقتراح في آخر فصوله أنّ الاصطفاء الطبيعي أثّرَ كذلك على

---

[1] Pinker 2002، ص 106.

• الجمعية: نتيجة الجمع بين الطريحة thesis والنقيضة antithesis في الديالكتيك الهيجلي – المترجم



السلوك الإنساني. كان ويلسون يعتقد بوجود شيءٍ من قبيل الطبيعة البشرية، وأنّ الطبيعة البشرية تكبح مدى ما نستطيع إنجازه عندما نربّي أطفالنا أو نصممُ مؤسساتٍ اجتماعية.

استخدم ويلسون الأخلاق لتوضيح غرضه. كان أستاذاً في جامعة هارفرد، إلى جانب لورنس كولبيرج والفيلسوف جون رولز، وهكذا كان على درايةٍ بنمطهم من التنظير العقلاني حول الحقوق والعدل.[1] بدا جليّاً لويلسون أنّ ما كان العقلانيون يقومون به *على واقعي* هو أنهم ينتجون تبريراتٍ ذكيّةً للبديهيات الأخلاقية التي شُرِحَتْ أفضلَ شرحٍ ممكنٍ عن طريق التطوّر. هل يعتقد الناس بحقوق الإنسان لأنَّ هذه الحقوق موجودة في واقع الأمر، مثل الحقائق في الرياضيات، وهي تتربّع فوق رفٍّ كوني إلى جوار النظرية الفيثاغورثية لكي يتمَّ اكتشافها عن طريق المحاججين الأفلاطونيين أو هل يشعر الناس بالاشمئزاز والتعاطف والشفقة عندما يقرؤون قصص التعذيب، ثمَّ يخترعون قصّةً عن الحقوق الكونيّة كي يبرّروا مشاعرهم؟

يقف ويلسون في صفّ هيوم. وقد اتهم الفلاسفة بأنّ ما كانوا يقومون به في واقع الأمر هو فبركة التبريرات بعد "استشارة المراكز الانفعالية" لدى أدمغتهم.[2] وتنبّأ أنَّ دراسة الأخلاق ستُسحَبُ من أيدي الفلاسفة "وتحوّل إلى دراسةٍ

---

[1] يبقى رولز واحداً من أكثر فلاسفة السياسة اقتباساً. وهو مشهور بإجرائه تجربةً في التفكير في Rawls 1971 حيث طلبَ إلى الناس تخيُّلَ المجتمع الذي سيصممونه إذا ما كانوا سيقومون بذلك من وراء "حجاب الجهل" بحيث أنهم لا يعرفون ما الموقع الذي سيشغلونه في خاتمة المطاف في ذلك المجتمع. يميل العقلانيون إلى محبّة رولز.

[2] تحمل كلمات ويلسون بالضبط تكراراً، حيث كانت ذات طابعٍ نبوئيّ: "يقوم الفلاسفة الأخلاقيون بحدس الشرائع المتعلقة بآداب الأخلاق بواسطة استشارة المراكز الشعورية لنظمهم الطرفية ما دون السرير البصري. وهذا صحيح أيضا لدى أنصار النزعة الارتقائية [من أمثال كولبيرج]، حتى عندما يكونون في أقصى حدود موضوعيّتهم. من الممكن فكّ مغاليق معنى الشرائع فقط عن طريق تفسير نشاط المراكز الشعورية بصفتها عملية تأقلم حيوي." E. O. Wilson 1975، ص 563.



بيولوجية"، أو تُجعَلُ متناسبةً مع علم الطبيعة البشرية الناشئ. وسوف يكون رابطٌ كهذا لكلٍّ من الفلسفة، وعلم الأحياء، والتطور مثالاً عن "الفرضية الجديدة" التي حلُمُ بها ويلسون، والتي أشار إليها فيما بعد على أنها دمج حقول المعرفة ـ "قفزة جماعية" للأفكار لخلق هيكلٍ معرفيٍّ موحد".[1]

يتحدى الأنبياء الوضع القائم، ليحظوا غالباً بكراهية أهل السلطة أولئك. بناءً عليه يستحق ويلسون أنْ يُسمّى رسول علم النفس الأخلاقي، فقد تعرّضَ للمضايقة والشجب عن طريق الطباعة وعلى الملأ.[2] وسُمِّيَ فاشياً، وهو ما برّر (بالنسبة إلى بعضهم) اتهامه بالعنصرية، وهو ما برّرَ (للآخرين) محاولة منعه من التحدث في العلن. واندفع المحتجّون الذين حاولوا مقاطعة واحدٍ من أحاديثه العلمية إلى المنصة وهتفوا، "أيّها العنصري ويلسون، لا تستطيع التخفّي، نتهمّكَ بالإبادة الجماعية."[3]

التسعينات الشعورية

في زمن دخولي كليّة الدراسات العليا، عام 1987، توقف التجريح وفنِّدت البيولوجيا الاجتماعية ـ على الأقل، تلك هي الرسالة التي التقطتها من الاستماع للعلماء وهم يستخدمون الكلمة مصطلحاً ازدرائياً منحصراً في المحاولة الساذجة لحصر علم النفس في الارتقاء. فعلمُ النفس الأخلاقي لم يكنْ حول المشاعر المجتازة مرحلة التطور، بل كان حول تطوّر تقديم الحجج ومعالجة المعلومات.[4]

---

[1] E. O. Wilson 1998.

[2] قام علماء الأحياء الرئيسيون مثل ستيفن جاي جولد وريتشارد ليونتين بكتابة نقدٍ ساخرٍ عنيف ضد علم الأحياء الاجتماعي الذي ربط جهراً العلم بالأجندة السياسية للعدالة الاجتماعية. أنظر على سبيل المثال، Allen et al. 1975.

[3] أنظر Pinker 2002, chapter 6.

[4] كان الاستثناء من هذا البيان عملاً حول التقمص العاطفي من قبل مارتن وهوفمان، على سبيل المثال، Hoffman 1982



رغمَ ذلك، عندما نظرتُ خارج علم النفس، وجدت كثيراً من الكتب الرائعة عن أساس الأخلاق الشعوري. فقرأتُ كتاب فرانسيس دي وال بعنوان ((ذو الطبيعة الخيّرة: أصول الصواب والخطأ عند البشر والحيوانات الأخرى)).[1] لمْ يدّعِ دي وال أنَّ قرود الشمبانزي كانت تتمتّعُ بالأخلاق؛ قام فحسب بمناقشة أنَّ قرود الشيمب (وسواها من السعادين) تمتلك معظم مداميك البناء النفسي التي يستخدمها البشر لإنشاء نُظُمٍ أخلاقية ومجتمعات صغيرة. إنّ مداميك البناء هذه جدُّ عاطفية، مثل مشاعر الشفقة، والخوف، والغضب، والحب.

أطّلعتُ أيضاً على كتاب بعنوان ((خطأ ديسكريتيز)) للمختصّ بعلم الأعصاب أنطونيو داماسيو.[2] كان داماسيو قد لاحظ نموذجاً غير اعتيادي من الأعراض لدى مرضى يعانون من تلفٍ دماغيّ لجزءٍ محددٍ من الدماغ ـ القشرة الداخلية السفلى الوسطى أمام الجبهيّة والذي يختَصَر بـ vm PFC؛ وهي منطقةٌ خلف جسر الأنف وفوقه تماماً). فقد هبطت حالتهم الانفعالية إلى الصفر تقريباً. كانوا يستطيعون النظر إلى الصور الأكثر إثارةً للفرح أو الرعب دون أنْ ينتابهم أيُّ شعور. واحتفظوا بمعرفةٍ تامةٍ عمّا كان خطأً وصواباً ولمْ يُظهروا أيّة نواقص في IQ اختبار الذكاء. بل إنّهم أحسنوا في السجل في اختبارات كولبيرج المتعلّقة بتقديم الحجج الأخلاقية. رغم ذلك عندما وصل الأمر إلى اتخاذ قرارات في حياتهم الشخصية وفي العمل، قاموا باتخاذ قراراتٍ حمقاء أو لا قرارات قطُّ. لقد عزلوا عائلاتهم وأرباب عملهم، وتحطّمت حياتهم هباءً منثوراً.

لقد كان تفسير داماسيو أنَّ المشاعر العميقة الداخلية وردود أفعالهم الجسدية كانت ضرورية للتفكير على نحوٍ عقلاني، وأنَّ أحد أعمال جزء vmPFC [القشرة الداخلية الوسطى أمام الجبهية] من الدماغ دمج تلك المشاعرالعميقة ضمن حالات التفكير الواعي المترويّ. عندما تقوم بتقليب الرأي

[1] De Waal 1996 . قرأت هذا العمل بعد الانتهاء من كليّة الدراسات العليا، لكن عزّزتُ اهتمامي في عمل وال أثناء الدراسات العليا.

[2] Damasio, 1994.



بشأن مزايا قتل والديك ومساوئه ... لا تستطيع حتى القيام بذلك، لأنَّ مشاعر الرعب تأتي مندفعةً عبر جزءٍ [القشرة الداخلية الوسطى أمام الجبهية]vmPFC من الدماغ.

كان مرضى داماسيو يستطيعون التفكير في أيّ شئ، دون تنقية أو تلوين من مشاعرهم. لدى إقفال جزء vmPFC[القشرة الداخلية الوسطى أمام الجبهية] من الدماغ، كان كلُّ خيارٍ في أيّةِ لحظةٍ يبدو حسناً على قدم المساواة مع سواه. كانت الطريقة الوحيدة لاتخاذ القرار اختبار كلِّ خيارٍ، والتفكير مليّاً بالحجج المؤيدة والمعارضة باستخدام التفكير المنطقي الوجداني، الكلامي. إذا ما حاولت البحث كي تشتري جهازاً كهربائياً تضمر حياله أدنى مستوى من المشاعر - لنَقُلْ غسالة - عرفتَ مدى صعوبة الأمر فور تجاوز الخيارات ستة أو سبعة (وهي قدرة استيعاب ذاكرتنا قصيرة الأمد). تأمَّلْ فحسبْ كيف ستكون حياتك إذا ما أصبح اختيار الشيء الصحيح مثل اختيار أفضل الغسالات وسط عشر خيارات، في أيّةِ لحظة، وفي كلِّ موقفٍ اجتماعي، لحظةً تلو الأخرى، ويوماً بعد يوم. تقوم باتخاذ قراراتٍ حمقاء.

كانت نتائجُ داماسيو مضادةً للأفلاطونية إلى أبعد الحدود. ها هنا أناسٌ أغلقَ التلف الدماغيُّ عندهم أساساً الاتصال بين النفس العاقلة والعواطف الجيّاشة للجسم (وهي غيرُ معروفة لأفلاطون، ولمْ تكنْ قائمةً في القلب والمعدة إنما في مساحات الشعور من الدماغ). ولمْ يعُدْ الكثير من تلك الاضطرابات المريعة لكن الضرورية ، "وأولئك "الناصحين الحمقى" يودي بالنفس العاقلة إلى الضلال. على الرغم من ذلك لم تكن نتيجة الاختبار تحريرَ العقل من عبودية العواطف. بل كان الكشفُ الصاعق أنَّ تقديم الحجج يتطلّب العواطف. إنَّ نموذج جيفرسون أكثرُ ملاءمةً: عندما يوجد إمبراطورٌ شريك تتم الإطاحة به ويحاول الشريك الآخر حكمَ الإمبراطورية بنفسه، فهو ليس أهلاً للمهمة.

إذا ما كان نموذج جيفرسون صحيحاً، من جانب آخر، فلا بُدَّ أنَّ مرضى داماسيو يصيبون نجاحاً في نصف الحياة الذي يتحكَّم به الرأس. رغمَ ذلك كان انهيار صنع القرار واسع النطاق ، حتى في وظائف تحليلية وتنظيمية، . فلا



يستطيع الرأسُ القيام بما هو للرأس من دون القلب. وهكذا يناسب نموذج هيوم هذه الحالات على نحوٍ أفضل: فعندما يسقط السيّد (العواطف) ميتاً، لا يعود لدى الخادم (التفكير) أيٌّ من القدرة أو الرغبة لإبقاء العزبة في حالة عمل. كلُّ شيءٍ يؤول إلى الخراب.

لِمَ لا يبيعُ الملحدون أرواحَهم

في عام 1995 انتقلتُ إلى جامعة فرجينيا (UVA) للشروع بأوّل عملٍ لي بصفةِ أستاذ جامعيّ. كان علم النفس الأخلاقي ما يزال مكرّساً لدراسة التفكير الأخلاقي. ولكنْ إذا ما نظرتَ إلى ما وراء علم النفس التطوّري، فإنَّ توليفة ويلسون الجديدة هي البداية. إذا كان عددٌ قليلٌ من الاقتصاديين، والفلاسفة، ومختصّي علم الأعصاب ينشؤون بهدوء مقاربةً بديلةً للأخلاق، كانت المشاعر أساسها، كما المشاعر من حيث الافتراض قد تمّتْ صياغتها بفعل التطور.[1] وتلقى هؤلاء المؤلّفون المساعدة من جرّاء إحياء البيولوجيا الاجتماعية في عام 1992 تحت إسمٍ جديد ـ علم النفس التطوري.[2]

لقد قرأت رسالةَ جيفرسون الموجهة إلى كوزواي أثناء الشهر الأول في جامعة تشارلوتسفيل، كجزءٍ من استهلال انضمامي إلى زمرته. (لقد أسّس جيفرسون

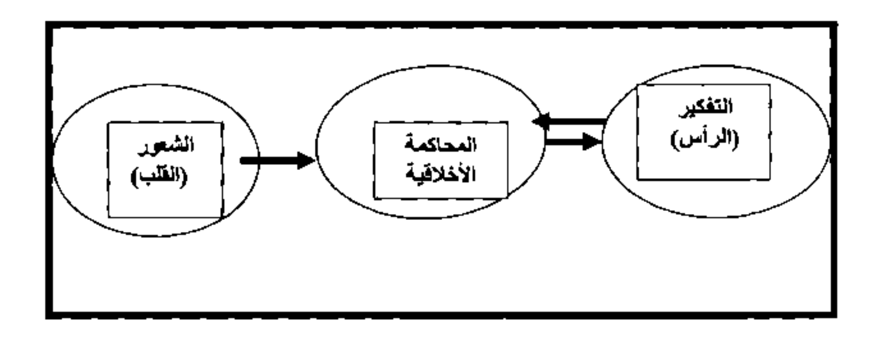
[1] كانت الأعمال الثلاث المؤثرة التي جلبت المشاعر إلى الأخلاق هي ((العواطف ضمن التفكير)) للاقتصادي روبرت فرانك، و((الخيارات الحكمية، والمشاعر المناسبة)) للفيلسوف آلان جيبارد، و((تنويعات الشخصية الأخلاقية)) للفيلسوف أوين فلانجان. كذلك الأمر، كان عملٌ لعالم النفس الاجتماعي جون بارج عنصراً مفصلياً في إحياء العمليات الميكانيكية ـ أي الحدس، وومضات الحب [affect] الصغيرة التي ستظهرُ بشكلٍ بارزٍ في االفصل 3. أنظر Bargh and Chartrand 1999 .

[2] أعيدُ تاريخ الإحياء إلى عام 1992 لأن ذاك الوقت شهد ظهور كتاب مؤثر بعنوان استفزازي ((العقل المتكيّف: علم النفس التطوّري وتوليد الثقافة)). قام كلٌّ من جيروم باركو، وليدا كوزميديس، وجون توبي بإعداده. ويضم الرموز الرئيسيّون في الحقل إياه دايفيد بوس، ودوج كينريك، وستيفن بينكر. الأخلاق (على وجه الخصوص التعاون والغش) كانت حيّزاً هاماً للبحث في علم النفس التطوري منذ البداية.



جامعة فرجينيا UVA في عام 1819، وهنا في "جامعة السيد جيفرسون" نعتبره شخصيةً معبودة). ولكنني كنتُ قد وصلتُ تواً إلى وجهة نظر جيفرسون التي مفادها ان المشاعر الأخلاقية والتفكير الأخلاقي عمليّتان منفصلتان.[1] فكلّ عملية يمكن أن تقوم بمحاكماتٍ أخلاقية من تلقاء نفسها، وهي في بعض الأحيان كانت تقوم بالنضال سعياً إلى حق القيام بذلك. (الشكل 102).

في سنواتي القليلة في جامعة فرجينيا UVA قمت بعدة تجارب لاختبار نموذج العملية المزدوجة من خلال الطلب إلى الناس كي يقوموا بمحاكمات ضمن شروطٍ قوّتْ أو أضعفت إحدى العمليّتين. على سبيل المثال، يطلبُ علماء النفس



الشكل 1. 2. نموذج عملية جيفرسون المزدوجة الخاص بي. الشعور والتفكير مسلكان منفصلان إلى المحاكمة الأخلاقية، على الرغم من أنّ المحاكمة الأخلاقية من الممكن أن تقود إلى تقديم حجج لاحق كذلك الأمر

[1] أسمّي هذا النموذج "جيفرسونياً" لأنه يسمح لـ"الراس" و"القلب" بالوصول إلى أحكام أخلاقية مستقلّة ومتصارعة، كما حدث في رسالته إلى كوزواي. لكنْ لاحظت أنّ جيفرسون كان يفكّر أنّ الرأس كان بائس التأهيل للقيام بأحكامٍ أخلاقية، وأنها يجب أن تحصَرَ نفسها في قضايا من الممكن البت فيها بواسطة الحساب. كان جيفرسون نفسه عاطفياً بشأن الأخلاق.



الاجتماعيون -غالباً- القيام بمهام وهـم يحملون عبئاً إدراكياً ثقيلاً من قبيل حفظ الرقم 7250475 في الذهن، أو أثناء حمل عبء معرفي خفيف، الرقم 7. إذا ما تأثر الأداء أثناء قيام الناس بحمل أعباء ثقيلة، يمكننا من ثمّ الاستنتاج أنَّ التفكير "المضبوط " (من قبيل التفكير الواعي) ضروريٌّ من أجل تلك المهمة الخاصة. لكنْ إذا ما أحسن الناس الأداء في المهمة بغض النظر عن العبء، نستطيع إذن استنتاج أنَّ العمليات "الميكانيكية" (من قَبيل الحدس والعاطفة) كافية لأداء تلك المهمة.

كان سؤالي بسيطاً: هل يستطيع الناس القيام بمحاكمة أخلاقية تماماً كذلك الأمر وهم يحملون عبئاً إدراكياً ثقيلاً بالقدر ذاته عندما يحملون عبئاً خفيفاً؟ تبيّن أن الجواب هو نعم. كما لمْ أجدْ فارقاً بين الشروط، أوتأثيراً للعبء الإدراكي. جرّبتُ الأمر ثانيةً مع قصصٍ مختلفة وحصلتُ على المُخرَج ذاته. حاولت القيام بمناورة أخرى: لقد قمتُ باستخدام برنامج حاسوب لإرغام الناس على الإجابة بسرعة ، قبلَ أنْ يكون لديهم وقتٌ كافٍ للتفكير، وقمتُ بإرغام أناس سواهم على الانتظار مدة عشرثوانٍ قبل أن يقدّموا حكمَهم. كانت هذه المناورة ستضعف أو تقوّي التفكير الأخلاقي وتحرف ميزان القوة، حسبما فكّرت. لكنَّ ذلك لمْ يقع.[1]

عندما قدمتُ إلى جامعة فرجينيا كنت متيقّناً أنَّ النموذجَ الجيفرسوني ثنائي العمليّة صحيحٌ، لكنّني واصلت الإخفاق في جهودي لإثبات صحّته. كانت ساعة فترتي التدريبية في التعليم الجامعي تواصل دقاتها، وكان توتري يتصاعد. كان عليَّ إنتاجُ سلسلةٍ من المواد المنشورة في أرفع الدوريات في ظرف خمس سنوات وإلاّ سيتم رفضي في فترة التدريب وإرغامي على مغادرة جامعة فرجينيا.

---

[1] أجريت هذه الدراسات مع ستيفن ستوز وفريدريك بيوركلوند. لم أحوّل هذه البيانات إلى مخطوط لأنني ارتأيتُ في ذلك الوقت أنّ تلك النتائج غير القيّمة ستكون غير قابلة للنشر.



في هذه الأثناء، شرعتُ بإجراء دراساتٍ بغرض متابعة الصعق الأخلاقي الذي كنتُ قد لاحظته قبل أعوامٍ منصرمة قليلة في المقابلات التي تخصُّ أطروحتي. لقد عمِلتُ مع طالبٍ موهوبٍ من السنوات الدنيا، سكوت مورفي. كانت خطّتنا هي زيادة كميّة الصعق بواسطة جعل سكوت يؤدي دور محامي الشيطان أكثرَ من دور المحاور اللطيف. عندما نجح سكوت في إزالة المناقشات، هل كانوا سيصبحون مشدوهين من الناحية الأخلاقية، متمسّكين بأحكانهم الأولى أثناء التلعثم ومحاولة التقاط الأسباب؟

أحضر سكوت ثلاثين طالباً من جامعة فرجينيا إلى المختبر، كلُّ طالبٍ على حدة، من أجل مقابلة مطوّلة. وشرح أنَّ عمله كان تحدّي تفكيرهم، بغضّ النظر عمّا قالوه. بعدئذٍ أخذهم عبر خمسة سيناريوهات. كان واحدٌ منها عبارة عن معضلة هاينز الخاصة بكولبيرج: هل على هاينز سرقة الدواء لإنقاذ زوجته؟ كنّا نتوقع أنَّ هذه القصة ستُحْدِثُ القليل من الوقع الصاعق. لقد أثارتْ هموماً بشأن الأذية والحياة ضدَّ هموم على صلةٍ بالقانون وحقوق الملكية، وكانت القصة محكمةَ البناء لتحرّض تفكيراً أخلاقيّاً، عقلانياً، بارداً. بما يكفي من التأكيد، لم يتمكّن سكوت من إثارة أيّ وقعٍ صاعقٍ مع قصة هاينز. قدَّمَ الناس أسباباً جيّدة لإجاباتهم، ولمْ يكن سكوت قادراً على جعلهم يتخلّون عن مبادئ مثل "الحياة أهم من الملكيّة".

قمنا كذلك الأمر باختيار سيناريوهين يركزان على نحوٍ أكثر مباشرةً على المشاعر العميقة. في سيناريو "عصير سمك الروش"، فتحَ سكوت عبوةً معدنية صغيرة من عصير التفاح، وقام بصب محتواها في كأس بلاستيكي، وطلَبَ من المشارك في التجربة تناولَ رشفة. أخرَجَ سكوت صندوقاً بلاستيكياً وقال:

> لديَّ هنا في هذه العبوة صرصورٌ معقّم. أحضرنا بعض الصراصير من شركة تزويد المختبر. لقد تمّت تربية أسماك الروش في بيئةٍ نظيفة. لكن على سبيل اليقين فحسب، قمنا بتعقيم أسماك الروش ثانيةً في المعقام*، والذي يسخّنُ كلَّ شيءٍ إلى حدّ بقاء الجراثيم على قيد

* وعاء معدني محكم القفل يُستَخدَم للتعقيم بواسطة البخار المحميّ والضغط – قاموس المورد



الحياة. سأقوم بتغطيس الصرصور في العصير، على هذه الشاكلة باستخدام مصفاة الشاي. والآن هل تتناولون رشفة؟

في السيناريو الثاني، عرَضَ سكوت على المشاركين 2$ إذا ما وقّعوا على قصاصةِ ورق جاء فيها: أنا، ....، بموجب هذه الوثيقة أبيع نفسي بعد موتي، لسكوت موريف، بمبلغ قدره 2$. كان هنالك خطٌ للتوقيع، وتحت الخط كانت هذه الملاحظة. هذه الاستمارة جزءٌ من تجربة في علم النفس. وهي ليست عقداً ملزماً على الإطلاق.[1] وقال لهم سكوت أيضاً إنهم يستطيعون تمزيق الورقة فور قيامهم بالتوقيع، وسوف يحصلون رغم ذلك على مبلغ 2$ الخاص بهم.

كان 23 في المئة من الخاضعين للاختيار مستعدين لتوقيع الورقة دون أيّ تحفيزمن سكوت. كما كنا مندهشين قليلاً لنكتشف أنّ 37 في المئة كانوا مستعدين لتناول رشفةٍ من عصير سمك الروش.[2] في هذه الحالات، لم يستطعْ سكوت القيام بدور محامي الشيطان.

بالنسبة إلى الأغلبيّات الذينَ قالوا لا، من جانبٍ آخر، طلَبَ سكوت منهم شرحَ أسبابهم وبذَلَ ما بوسعه لتحدي تلك الأسباب. اعترفَ عددٌ قليلٌ من الناس أنهم ملحدون، لا يعتقدون بالأوراح، ورغمَ ذلك شعروا بعدمِ الارتياح حيال التوقيع.

هنا أيضاً لم يكنْ المزيد من الصعق. كما شعرَ الأشخاص أنَّ الأمر كان اختيارهم الخاص في خاتمة المطاف في أنْ يشربوا أو لا، واختيارهم في أن يوقعوا الورقة أو لا، وهكذا بدا معظم المشاركين في الاختبارمرتاحين إذ قالوا: "أنا لا أريد أنْ أفعلَ ذلك فحسب، رغمَ أنّني لا أستطيع أنْ أُقدّمَ لك سبباً في هذا الصدد."

---

[1] جاءت فكرةُ هذه المهمة من دان فاغنر، الذي استخلصها من مشهدٍ في مسلسل ((عائلة سيمبسون)) الذي يبيع فيه بارت روحه لصديقه ميلهاوس.

[2] لمْ ندَعْ أيّاً منهم يشرب العصير فعليّاً؛ أوقفهم سكوت تماماً قبلَ أنْ يلمس الكأس شفاههم.



كانت النقطة الرئيسة في الدراسة اختبار استجابات الأشخاص حيالَ كسرِ أمرين محرَّمين لا ينطويان على أذيّة. لقد أظهروا لنا أن نعرف فيما إذا كان الحكم الأخلاقي بشأن أحداثٍ صادمة وغير مؤذية فحسب سيبدو أشبه بالأحكام المتعلّقة بمهمة هاينز (ذات الارتباط اللصيق بالتفكير)، أو بتلك الواردة في مهمات عصير سمك الروش وبيع النفس (إذْ أقرَّ الناسُ مسبّقاً عن طيب خاطرٍ أنهم يتّبعون مشاعر عميقةً). ها هنا القصة التي استخدمناها:

> يقوم جولي ومارك، وهما أخٌ وأخت، بالسفر معاً إلى فرنسا. وكلاهما في عطلة الصيف بعد انتهاء دوام الكليّة. في إحدى الليالي يبيتان وحيدين قرب الشاطئ. لقد قرّرا أنَّ الأمر سيكون ممتعاً ومرِحاً لو قاما بممارسة الجنس. على الأقل سيكون ذاك تجربة جديدة لكلٍّ منهما. تتناول جولي حبوب منع الحمل توّاً، ويستخدم مارك الواقي الذكري أيضاً، على سبيل السلامة فحسب. يستمتع كلاهما بالأمر، لكنّهما يقرّران ألا يفعلاها ثانيةً. ويحتفظان بتلك الليلة سرّاً خاصاً بينهما، وهو ما يجعلهما يشعران بقربٍ أكبر لكلٍّ منهما حيال الآخر. وهكذا ماذا ترتئي حول ذلك؟ هل كان من الخطأ بالنسبة إليهما ممارسة الجنس؟

في قصّةٍ أخرى محرّمة خالية من الأذيّة، تعمل جينيفر في مخبر علم الأمراض في المشفى. وهي نباتيّةٌ لأسباب أخلاقية ـ تعتقد أنَّ من الخطأ قتل الحيوانات. لكنْ ذات ليلةٍ كان عليها حرقُ جثّةٍ بشرية طريّة، وتعتقد أنَّ من الهدر التخلّص من لحمٍ قابلٍ للأكل تماماً. فتُبادرُ إلى إزاحة قطعةٍ من اللحم وتأخذها إلى المنزل. وثمَّ تقوم بطهيها وأكلها.

كنّا نعلم أنَّ هذه القصص مقزِّزة، وكنا نتوقع أنها ستثير إدانةً أخلاقية مباشرة. لقد قال 20 بالمائة فحسب من المشاركين في التجربة إنَّ قيام جولي ومارك بممارسة الجنس كان أمراً لا ضيرَ فيه، وقال 13 في المئة فحسب لا ضير في قيم جينيفر بأكلِ جزءٍ من الجثة. لكنْ عندما طلب سكوت أحكامهم ومن ثمَّ تحدي تلك الشروحات، وجدَ على وجه الدقة النموذج الهيومي [نسبةً إلى هيوم]



الذي كنّا قد توقعناه. في هذه السيناريوهات المحرّمة الخالية من الأذيّة، أنتجَ الأشخاص أسباباً كثيرةً أكثر مما هي عليه في أيّة سيناريوهات أخرى. بدا أنهّم يضربون بمدرسٍ على نحوٍ دائري، وهم يلقون سبباً إثر سبب ونادراً ما غيّروا تفكيرهم عندما برهنَ سكوت أنَّ آخرَ أسبابهم لمْ يكنْ في محلّه. هنا نصُّ واحدةٍ من المقابلات بشأن قصة السّفاح.

المجرّب: ماذا ترتئي بشأن الأمر، هل كان خطأً من جولي ومارك القيام بالمضاجعة؟

المشارك: أجل، أعتقد أنَّ ممارستهما للجنس خطأٌ تام. كما تعلمْ لأنني شخصٌ متديّنٌ وأرى فحسب أنَّ السفاح خطأ على أيّة حال. لكنْ لا أعرف.

المجرّب: ما هو الخطأ في السفاح، هلاّ تفضلّت بالقول؟

المشارك: مممم، الفكرة برمّتها، لا بأس، لقد سَمِعتُ ـ لا أعرف إن كان هذا صحيحاً، لكن في حال، إذا ما حَمَلت الفتاة فعلاً، سيصبح الأطفال مشوّهين، غالباً، في حالات كهذه.

المجرّب: لكنهما استخدما واقياً ذكريّاً وحبوباً لتحديد النسل ـ

المشارك: أوه، أوكّي. "أيْوَه"، قلتَ ذلك.

المجرّب: ـ وهكذا ليس هنالك طريقة ليكون لديهم أطفال.

المشارك: لا بأس، أخمّنُ أنَّ الجنس الأكثر أماناً هو الامتناع، لكنْ، مممم، أوه .... مممم: لا أعرف، أعتقد أنَّ ذاك خطأ فحسب. لا أعرف ماذا سألتني؟

المجرّب: هل كانت ممارسة الجنس خطأً من جانبهما؟

المشارك: "أيْوَه"، أعتقد أنّه خاطئ.

المجرّب : وأنا أحاول البحث لماذا، ما الذي تعتقد أنّه خطأ في هذا الأمر.

المشارك : أوكّي، مممم .... لا بأس .... لِنَرَ، دعني أُفَكّرْ حول هذا الأمر.



مممم ـ كم كان عمرها؟

المجرِّب: كانا في عمر الكلّيّة، 20 سنة تقريباً أو ما شابه.

المشارك: أوه، أوه [يبدو خائب الأمل]. لا أدري، أنا فقط .... هو فحسب ليس شيئاً تتربّى على القيام به. هي ليست فقط ـ لا بأس، أعني أنا لمْ أكنْ. أفترضُ معظم الناس ليسوا [يضحك]. أنا أفكّرُ أنّهُ لا يتوجّبُ عليك ـ لا أعرف ـ أظنُّ سببي هو، مممممم .... فقط أنّه، مممم .... أنتَ لم تتربّى على القيام به. لا ترى الأمر. ليس، مممم ـ لا أظنّهُ مقبولاً. هذا هو الأمر بتمامه.

المجرِّب: ما كنتَ تقول أيَّ شيءٍ لم تتربّى لرؤية الخطأ، ألن تفعل؟ على سبيل المثال، إذا ما تربّيتَ على عدم رؤية امرأةٍ تعملُ خارج المنزل، هل تقول إنَّ ذاك يجعل خطأً من جانب المرأة القيام بالعمل؟

المشارك: مممممم .... لا بأس .... أوه، يا لطيف. هذا صعبٌ. أنا ـ في حقيقة الأمر ـ مممم، أعني، ليس هنالك أيةُ طريقةٍ تجعلني أغيّر قناعتي لكنْ أنا فقط لا أعرف كيف ـ كيف أظهِرُ ما أشعرُ به، ما أشعرُ بشأنه. الأمر جنون. [1]

في هذا النص الحواري وفي نصوصٍ حوارية أخرى كثيرة، بدا من الواضح أنَّ الناس كانوا يطلقون حكماً أخلاقياً مباشرةً وعلى نحوٍ عاطفي. لم يكن التفكير سوى خادمٍ للعواطف، وعندما يُخفِقُ الخادمُ في إيجاد أيّة حججٍ جيّدة، من ثمّ لا يُغيِّرُ السيّدُ رأيه. كما قمنا بقياس بعض السلوكات التي انطوت على

[1] النص حرفيٌّ وغيرمنقّح، عدا عن القيام بحذف بعض تعليقات المتطوّع الجانبية. هذا هو النصف الأول من النص لهذا المشارك في التجربة بشأن هذه القصة. لقد استخدمنا كاميرا فيديو خفيّة لتسجيل كل المقابلات، وحصلنا على موافقة من جميع المشاركين باستثناء واحد فيما بعد لتحليل الفيديو.



دلالة أعمق لكونها ذات تأثير صاعقٍ من الناحية الأخلاقية، وقد أظهرتْ هذه التحليلات فروقاتٍ في طريقة استجابة الناس لسيناريوهات المحرمات الخالية من الأذى مقارنة بمعضلة هاينز.[1]

لقد أيّدت هذه النتائج هيوم، لا جيفرسون أو أفلاطون. قام الناس بمحاكماتٍ أخلاقية بسرعةٍ وعلى نحوٍ عاطفي. كان التفكير الأخلاقي في معظمه بعد البحث الآني عن الأسباب لتبرير المحاكمات التي قام الناس بإطلاقها توّاً. ولكنْ هل كانت هذه الأحكام ممثّلةً للمحاكمة الأخلاقية على نحوٍ عام؟ كان عليّ كتابةُ بعضِ القصص المفرطة في غرابتها كي أعطي الناس هذه الومضات من الحدس الأخلاقي الذي لم يكونوا قادرين على شرحه. وهذا لا يمكن أن يجسّد كيفية عمل معظم تفكيرنا، أليس كذلك؟

---

[1] على سبيل المثال، في مقابلات المحرّم غير المنطوي على الأذى، كان من الأغلب أن يقول الأشخاص "لا أدري" بالمقارنة مع مقابلة هاينز. كما كان من المرجّح أن يعلنوا ببساطة شيئاً ما دون دعم بمعدل الضعف ("هذا خطأ فحسب!" أو "أنت لا تعرفُ ذلك!")؛ كان المعدل أكبر بعشرة أضعاف بالغالب قولهم أنّهم لا يستطيعونالتعبير عن مكنوناتهم (كما هو الحال في الجولة الأخيرة من النص الوارد أعلاه)؛ وكان بمعدل 7 من الأغلب أن يفكروا بأنفسهم نحو ما نسمّيه نهاية عقيمة 0 بالمائة ــ وهي مناقشةٌ يبدأ المتطوع بصياغتها، ومن ثمَّ يتراجع بعد التحقق بأنها لن تنجح. وهذا ما حدث عندما بدأ الشخصُ الموصوف أعلاه بالمحاججة بأن الأخ والأخت كانا فتيّين على ممارسة الجنس مع أيّ شخصٍ كان. كانَ بعض هذه النهايات المغلقة مصحوبةً بما ندعوه قناع الشك بالذات، حيث يقطّب الأشخاص أجفانهم ويعبسون عندما كانوا يتكلّمون، تماماً مثلما قد تفعل عندما تستمع لشخصٍ آخر ما وهو يطرح مناقشةً مضحكةً. لم أقمْ بنشرِ هذه الدراسة بتاتاً، لكن يمكنك قراءة تقريرٍ عنها في صفحة على الشبكة الألكترونية، www.jonathanhaidt.com ، تحت عنوان أعمال منشورة، ومن ثم أوراق عمل، وبعد ذلك أنظر Haidt and Murphy.



"رؤية- أنَّ- ضد "التفكير- في لماذا"

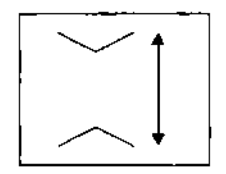
قبل سنتين من قيامي مع سكوت بإجراء الدراسات ذات الوقع الصاعق، قرأتُ كتاباً غير اعتيادي نادراً ما يشير إليه علماء النفس: ((النماذج، والتفكير، والإدراك))، بقلم هوارد مارجوليس، وهو محاضرٌ برتبة أستاذ في جامعة شيكاجو. كان مارجوليس يحاول فهم لمَ قناعات الناس المتعلّقة بالقضايا السياسية كانت ذات ارتباطٍ واهٍ بالحقائق الموضوعية غالباً، وكان يأمل أن العلم الإدراكي يمكن أن يحلَّ اللغز. على الرغم من ذلك خرج عن المسار بواسطة مقارباتٍ للتفكير كانت سائدةً في الثمانينات [القرن العشرين]، معظمها كان يستخدم الصورة المجازية للذهن بوصفه حاسوباً.

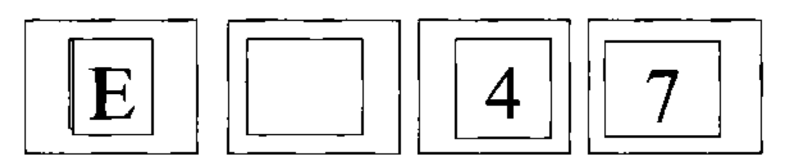
فكّرَ مارجوليس أنَّ أفضلَ نموذجٍ لدراسة الوعي الأعلى، مثل التفكير السياسي، كان الإدراك الأدنى، مثل الرؤية، التي تعملُ إلى درجةٍ كبيرة بواسطة مطابقة النماذج السريعة غير الواعية. بدأ كتابه بتحقيقٍ عن الأوهام المدركة حسّياً، مثل الوهم المعروف جيداً باسم موللر- لاير (الشكل 2.2)، الذي يبدو فيه أحد الخطّين أطول من الآخر حتى بعد أن تعرفَ أنَّ طول الخطين واحد. ثمَّ انتقلَ إلى مشكلات المنطق مثل مهمة واسن ذات البطاقات الأربع، التي يُعرَضُ عليك فيها 4 بطاقات فوق الطاولة.[1] أنتَ تعرفُ أنَّ أية بطاقة تخرج من مجموعة ورق اللعب تحملُ حرفاً أبجدياً على أحد الوجهين ورقماً على الوجه الآخر. إنَّ مهمّتك هي اختيار أصغر رقمٍ للبطاقات في الشكل 2.3 كما يتوجّبُ عليك أن تقلبَ البطاقة كي تقرّر إن كانت هذه القاعدة حقيقية: "إذا كان حرفُ صوتيٌ على أحد الوجهين، فسوف يوجد رقم زوجيٌّ على الجانب الآخر."

---

(1) Wason 1969







الشكل 2. 3. واجب واسون القائم على 4 بطاقات. أيّ من البطاقات عليك أن تقلب لتثبيت القاعدة التي مفادها أن في حال أظهرت البطاقة حرفاً صوتياً على أحد وجهيها، فإن الرقم الموجود على الوجه الآخر مزدوج؟

يرى كلُّ شخصٍ على الفور أنَّ عليكَ قلبَ البطاقة E، ولكنْ يقول كثيرٌ من الناس أيضاً إنّك تحتاج إلى قلب الرقم 4. يبدو أنهم يقومون بعملية مطابقة نماذج مبسّطة ذهنياً: كان يوجدُ حرفٌ صوتيٌّ ورقمٌ مزدوجٌ في االسؤال، وهكذا دعنا نقلبْ الحرف الصوتي والرقم المزدوج. يقاوم كثيرٌ من الناس شرح المنطق البسيط الماثل خلف هذه المهمة: قلب البطاقة 4 وإيجاد الحرف B على الوجه الآخر لمْ يبطل القاعدة، بينما قلبُ الرقم 7 والعثور على الحرف U سيؤدي إلى نسخ القاعدة، وهكذا يكون عليك قلبُ كلٍّ من الحرف E والرقم 7.

عندما يتمُّ إعلامُ الناس في المقدمة ما هو الجواب ويُطلَبُ منهم شرح سبب صحّة الجواب، يغدو بإمكانهم القيام بالأمر. ولكن على نحوٍ يثير الدهشة، هم بالقدر ذاته قادرون على تقديم الشرح، وبالقدر ذاته واثقون بتفكيرهم، سواء أتمَّ إخبارهم الجواب الصحيح (E و7) أم [تمّ إخبارهم] الجواب الشعبي لكن المخطئ (E و4).[1] لقد قادت اكتشافاتٌ كهذه واسون إلى النتيجة التي مفادها أن

[1] Johnson-Laird and Wason 1977، ص 155.



الحكم والتبرير عمليّتان منفصلتان. ويشارك مارجوليس وجهة نظر واسون، حين يقوم بتلخيص وضع القضايا على النحو الآتي:

> طالما أنَّ الأحكام (التي يتمُّ إنتاجها بحدِّ ذاتها بواسطة آلة الإدراك اللاواعي في الدماغ، على نحوٍ صحيحٍ في بعض الأحيان، وعلى نحوٍ خاطئٍ في أحيانٍ أخرى)، يقوم البشر بإنتاج حالات عرضٍ للأسباب التي يعتقدون أنها تعلّلُ أحكامهم. لكنَّ عروض الأسباب (بشأن هذا النقاش) هي ما قبل التسويغات أو ما بعدها.[1]

لقد طرح مارجوليس أنَّ هنالك نوعين مختلفين تماماً من العمليات الإدراكية عندما نطلقُ الأحكام أو نحلُّ المشكلات: "رؤية ـ أنَّ" و"التفكير ـ لماذا". "رؤية ـ أنَّ" هي مطابقة النماذج التي كانت تقوم بها الأدمغة طوال مئات ملايين السنين. وحتى أبسط الحيوانات إنما هي مزوّدة بأسلاك للاستجابة إلى بعض النماذج من المُدخَلات (من قبيل الضوء، أو السكّر) في حال سلوكاتٍ خاصة (مثل إشاحة النظر بعيداً عن الضوء، أو التوقف وتناول طعام السكر). تتعلّمُ الحيوانات نماذجَ جديدة وتربطها بسلوكاتها الموجودة حاليّاً، التي من الممكن إعادةُ تشكيلها في نماذج جديدة كذلك الأمر (والمثال عندما يعلّم مروّضُ الحيوانات الفيلَ حيلة جديدة).

حين تزداد الأدمغة حجماً وتعقيداً، تبدأ الحيوانات إظهار حنكة إدراكية أكبر، إذ تقوم بتبنّي خياراتٍ (مثل أين يتم التماس المؤن اليوم، أو متى يتم التوجه جنوباً) والأحكام (مثل إن كان أحد قرود الشمبانزي التابعين قد أظهر على نحوٍ مناسب سلوك احترامٍ نحو الآخرين). لكنْ في جميع الحالات، أساس علم النفس هو مطابقة النموذج. إنّه نوع من المعالجة السريعة، الأوتوماتيكية، التي توجه دون جهد المدركات الحسية في صورة موللر ـ لاير المضللة بصرياً. لا تستطيع [أنتَ] اختيار رؤيتنا الصورة المضللة أو لا؛ أنتَ تقوم بـ"رؤية ـ أنَّ" أحد الخطّين أطول من الآخر. ويدعو مارجوليس هذا النوع من التفكير "حدسيّاً" أيضاً.

---

[1] Margolis 1987, P.21. من أجل نقاشٍ مماثل، أنظر Gazzaniga 1985.



"التفكير- لماذا"، بالمقابل، هو عمليةٌ "نصف بواسطتها كيف نُفكِّر بوصولنا إلى المحاكمة، أو كيف نفكرأنَّ شخصاً آخر استطاع الوصول إلى المحاكمة."[1] "التفكير- لماذا" يمكن أن يحصل مع مخلوقات لديها لغة وحاجة إلى شرح ذاتها أمام المخلوقات الأخرى؛ إنه عملٌ واعٍ، إنها تعطي شعوراً بأنها عمل، ويتم قطعها بواسطة الحمل الإدراكي. لقد أقنع كولبرج علماء النفس الأخلاقيين بدراسة "التفكير- لماذا" وإهمال "رؤية - أنَّ."[2]

كانت أفكار مارجوليس حالةَ تناسب تام مع كلِّ شيءٍ شاهدته في دراساتي: المحاكمة الحدسية السريعة ("هذا خطأٌ فحسب!") تليها تبريراتٌ بطيئة وفي بعض الأحيان ملتوية ("حسناً، قد تخفقُ طريقتاهما في تحديد النسل، وقد يكون الأطفال الذين يتجبانهم مشوَّهين"). لقد قام الحدسُ بإطلاق التفكير، لكنَّ الحدسَ لمْ يعتمدْ على نجاح التفكير أو إخفاقه. لقد كانت قصصي عن المحرمات غير المنطوية على الأذى أشبه بصور موللر - لاير الخادعة: مازالت تبدو خاطئة، حتى بعد أن قمتَ بقياس كمية الأذية المرتبطة ووافقتَ على أنَّ القصص لا أذية فيها.

نجحت نظرية مارجوليس بالقدر الحسن ذاته في حال المعضلات الأسهل. ففي سيناريو هاينز، "يرى" معظم الناس حدسياً أن على هاينز سرقة الدواء (حياة زوجته في قلب الرهان)، ولكنْ في هذه الحالة من السهولة إيجاد الأسباب. لقد قام كولبيرج بإنشاء معضلة لجعل الأسباب الموجبة متوفرة لدى الجانبين، إلى درجة ألا يقعَ أحد فريسة التأثير الصاعق.

---

[1] Margolis 1987, p. 76 . من الممكن القيام ببعض صيغ التفكير من قِبَل حيوانات دون لغة، لكنّها لا تستطيع القيام ب "التفكير— لماذا" لأنَّ ذاك النوع من التفكير إنّما يتمُّ القيام به على وجه التحديد بغية الاستعداد لإقناع الآخرين.

[2] في أحد آخر أعماله، أكد كولبرج أن محور مقاربته الرئيسيس كان الافتراض أن "التفكير الأخلاقي هو عملية استخدام اللغة الأخلاقية الاعتيادية" (Kohlberg, Levine, and Hewer 1983, p. 69). لم يكن مهتماً بالاستدلالات غير الواعية أو غير اللغوية (أي في الحدس).



تجعلُ معضلات عصير سمك الروش وبيع النفسِ الناسَ "يرون أنّهمْ" يريدون الرفض، لكنّهم لا يشعرون بكثيرٍ من ضغط الدردشة لتقديم الأسباب. فعدم الرغبة بتناول عصير سمك الروش ليس محاكمة أخلاقية، بل تفضيلاً شخصياً. إن قول "لأنني لا أرغب بذلك" هو تبريرٌ مقبولٌ تماماً لتفضيلات المرء الذاتية. على الرغم من ذلك ليست المحاكمات الأخلاقية بيانات ذاتية؛ بل هي ادعاءٌ بأنَّ شخصاً ما اقترفَ خطأً. لا أستطيع مناشدة المجتمع المحلي معاقبتك لأنني ببساطةٍ لا أحبُّ ما تقوم به. عليَّ الإشارة إلى شيءٍ ما خارج تفضيلاتي الخاصة، وتلك الإشارة هي تفكيرنا الأخلاقي. فنحنُ نقوم بإنشاء الأسباب [المتعلقة بـ] لِمَ نحنُ أنفسنا وصلنا إلى المحاكمة؛ نحن نقوم بالتفكير لإيجاد أفضل الأسباب الممكنة [المتعلقة بـ] لِمَ ينبغي على شخصٍ آخر ما الانضمام إلينا في محاكمتنا.[1]

الراكب والفيل

استغرق الأمر مني عامين لتقييم تداعيات أفكار مارجوليس على نحوٍ تام. كان جزءٌ من المشكلة أنَّ تفكيري كان راسخاً متحصّناً في نموذجٍ ثنائي ما بين الإدراك والشعور. بعد الإخفاق مراراً في الوصول إلى جعل الإدراك يعمل مستقلا عن الشعور، بدأتُ أتحقق من أنّ النموذج الثنائي لا يعني شيئاً. يشير الإدرك فحسب إلى معالجة المعلومات، التي تتضمّنُ الإدراك الأعلى (من قبيل التفكير الواعي) وكذلك الأمر الإدراك الأدنى (من قبيل الإدراكات الحسية البصرية واستعادة الذاكرة).[2]

[1] قام عدةُ فلاسفةٍ بتطوير هذه الفكرة التي مفادها أنَّ التفكير الأخلاقي يجبُ فهمُه على أنّه يؤدي مهماتٍ اجتماعيةٍ وتبريريةٍ. أنظر Gibbard 1990 and Stevenson 1960؛ في علم النفس، أنظر Mercier and Sperber 2011 .

[2] أنظر Neisser 1967 . إنَّ جرين (2008) حذرٌ في تعريف الإدراك بطريقةٍ أكثر حصراً من الممكن مقارنتها بالشعور، لكنّه الاستثناء الأكثر ندرةً.



إنَّ تعريف الشعور أصعبُ قليلاً. فقد كان التفكير في الشعور لوقتٍ طويل على أنّه مغفَلٌ وغريزي، لكنْ بدءاً من فترة الثمانينات، أدرك العلماء إدراكاً أوضح أنَّ المشاعر مليئةٌ بالإدراك. المشاعر تحدث في خطوات، أولاها هي تقييم شيءٍ ما كان قد حدث للتو اعتماداً على إن كان قد عزّزَ أهدافنا أو أعاقها.[1] هذه التقييمات عبارة عن نوعٍ من معالجة المعلومات؛ هي حالات من الإدراك. فعندما يلتقط أيُّ برنامج تقييمٍ نماذج مدخلاتٍ معينة، يقوم بإطلاق مجموعةٍ من التغييرات في دماغك تجعلكَ مستعداً للاستجابة كما ينبغي. على سبيل المثال، إذا سمعتَ شخصاً ما يجري خلفك في شارعٍ مظلم، يقوم نظام الخوف لديك بالتقاط الخطر الداهم ويشغّل نظامك العصبي العاطفي، مطلقاً استجابة القتال - أو - الهروب، ليزيد معدل عمل قلبك بما يشبه ذراع التدوير، ويوسّع حدقتيك لمساعدتك في تلقي المزيد من المعلومات.

ليست المشاعر بلهاءً. فقد قام مرضى داماسيو باتخاذ قراراتٍ مريعة لأنهم كانوا محرومين من المُدْخَل الشعوري في عملية اتخاذ القرار لديهم. إنَّ المشاعرَ هي نوعٌ من معالجة المعلومات.[2] إن تقابل الشعور مع الإدراك من ثمّ لا معنى له مثل تقابل المطر مع الطقس، أو السيّارات مع العربات.

لقد ساعدني مورجاليس على التخلي عن مفارقة الشعور- الإدراك. كما ساعدني عمله على رؤية أنَّ المحاكمة الأخلاقية عمليّةٌ إدراكية، مثلما هو حال كلّ صيغ المحاكمة. إن التمييز الحاسم في حقيقة الأمر هو بين نوعين مختلفين من الإدراك: الحدس والتفكير. والمشاعر الأخلاقية هي نمطٌ من الحدس الأخلاقي، لكنَّ معظم حالات الحدس الأخلاقي أصعب في الفهم: فهي لا ترقى إلى مستوى المشاعر.[3] في المرة التالية التي تقرأ فيها صحيفةً أو تقود سيّارةً،

---

[1] Ekmo 1992; Ellsworth and Smith 1985; Scherer 1984.

[2] Lazarus 1991

[3] المشاعر ليست بشكلٍ كاملٍ فصيلة جزئية من الحدس: يُقالُ في الغالب أنّ المشاعر تتضمّن كافة التغييرات الجسدية التي تجعل المرء مستعداً للسلوك التكيُفي، بما فيها ==



لاحظ أنَّ الكثير من الومضات الصغيرة من الإدانة التي تنتقلُ عبر وعيك. هل كلّ ومضةٍ كهذه بمناسبة شعور؟ أو إسألْ نفسَكَ إنْ كانَ من الأفضل إنقاذ أرواح خمسة غرباء أو واحد (بافتراض أنَّ كلَّ اللآخرين متساوون). هل تحتاج إلى شعورٍ ليقول لكَ تبنَّ اختيارالخمسة؟ هل تحتاج إلى التفكير؟ لا، أنت ترتئي فحسب، على الفور، أنَّ خمسة أفضل من واحد. الحدس هو أفضلُ كلمةٍ لوصف عشرات أو مئات المحاكمات والقرارات الأخلاقية السريعة دون جهدٍ والتي تقوم بها يومياً. تأتي حالات الحدس القليلة إلينا متجذِّرة في مشاعر تامة التشكل فحسب.

في كتاب ((فرضيّات السعادة))، أسميتُ هذين النوعين من الإدراك الراكب (عمليات منضبطة، متضمّنة "التفكير ــ لماذا") والفيل (عمليّات أوتوماتيكية، متضمّنة الشعور، والحدس، وكلّ صيغ "رؤية ـ أنّ").[1] لقد اخترت الفيل لا الحصان لأنَّ الفيلة أكبر حجماً بكثير ـ وأذكى ـ من الأحصنة. تُسيِّرُ العمليّات الأوتوماتيكية العقل البشري، تماماً مثلما كانت تسيّر عقول الحيوانات على مدى 500 مليون عاماً، فهم جيّدون فيما يقومون به، مثل برامج الحاسوب المحسّنة من خلال آلاف دورات الإنتاج. عندما طوّر البشر القدرة اللغوية والتفكير في نقطةٍ ما ضمن ملايين السنين الأخيرة، لمْ يقُمْ الدماغ بإعادة تشكيل ذاتهْ لتقديم أعنّة إلى راكبي عرباتٍ غير مجرّبين. بالأحرى، الراكب (التفكير القائم على اللغة) يتطوّر لأنّه فعل شيئاً ما مفيداً بالنسبة إلى الفيل.

التغيّرات الهرمونية في معظم أنحاء الجسم. والاستجابات الهرمونية ليست حالاتٍ حدسية. لكنّ عناصر الإدراك المتعلّقة بالشعور ـ من قبيل تقييمات الأحداث وتغيرات الانتباه والمراقبة ـ هي أنماطٌ فرعيةٌ من الحدس. وهي تحدثُ بشكلٍ أوتوماتيكي وبإدراك واعٍ للمُخرجات، لا للعمليات.

[1] كان دانييل كانيمان قد دعى هذين النوعين من الإدراك "النظام 1" (الفيل) و"النظام 2" (الراكب). أنظر Kahneman 2011 من أجل تقريرعن التفكير وصنع القرار من منظور النظامين.



يستطيع الراكب القيام بعدة أشياء مفيدة. يُمكن أنْ تذهبَ أبعد نحو المستقبل (لأننا نستطيع اختبار سيناريوهات بديلة في رؤوسنا) فنستطيع مساعدة الفيل في اتخاذ قراراتٍ أفضل في الوقت الحاضر. ويمكن معرفة مهارات جديدة والتمكن من تقنياتٍ جديدة، يمكن عرضها لمساعدة الفيل كي يصل إلى أهدافه ويتجنّب الكوارث. والأهم من ذلك هو أنَّ الراكب يتصرَّف كأنّه ناطقٌ باسم الفيل، على الرغم من أنّه قد لا يعرفُ ما الذي فكَّرَ فيه الفيل في حقيقة الأمر. فالكاتب لديه المهارة على فبركة شروحات ما في أعقاب الحدس عن أيِّ شيء قام الفيل به، والأمر جيّدٌ في إيجاد أسباب لتبرير أيِّ شيءٍ يريد الفيل القيام به تالياً. فور قيام المخلوقات البشرية بتطوير اللغة والبدء باستخدامها في الثرثرة عن كلٍّ منها، باتت ذات قيمة إلى حدٍّ كبيرٍ بالنسبة إلى الفيلة كي تحملَ في أرجاء المكان على ظهورها شركة علاقات عامةٍ دائمة.[1]

لمْ تكنْ صورة الراكب والفيل المجازية متوفرةً لديَّ آنذاك في التسعينات، ولكنْ ما إنْ توقفتُ عن التفكير في الشعور مقابل الإدراك وبداتُ التفكير في الحدس مقابل التفكير، اتّخذ كلُّ شئٍ مكانه الصحيح. ثُمَّ أخذتُ نموذجي الجيفرسوني [نسبةً إلى جيفرسون] القديم ذا العملية المزدوجة (الشكل 2.1.) وأجريتُ تغييرين كبيرين. أولاً، أضعفت السهم الواصل من التفكير إلى المحاكمة، وأنزلته إلى درجة خطٍّ منقط (الرابط 5 الشكل 2. 4.) وتعني النقاط المتتابعة أنَّ المحاكمة المنجزة على نحوٍ مستقلٍ بواسطة التفكير ممكنة على صعيد النظرية لكنّها نادرةٌ على صعيد الممارسة. لقد حوّل هذا التغيير البسيط النموذج إلى [نموذجٍ] آخر هيومي [نسبةً إلى هيوم] إذ الحدس (أكثر من العاطفة) هو السبب الرئيس للمحاكمة الأخيرة (الرابط 1)، ثمَّ يتبع التفكير على نحوٍ نمطي (الرابط 2) التركيب تبريرات ما بعد الحدس. إنّ التفكير خادم لحالات الحدس. لقد تمَّ وضع الراكب هناك في المقام الأول كي يخدُمَ الفيل.

[1] يدعو العالم المختص بالأعصاب مايكل جازانيا هذا "وحدة وظيفة المترجم"



أردتُ كذلك الأمر التقاطَ الطبيعة الاجتماعية للمحاكمة الأخلاقية. ويخدم الحديث الأخلاقي تنويعةً من الأغراض الاستراتيجية من قبيل قيامك بإدارة سمعتك، وبناء تحالفاتك، وتطويع مشاهدين للحدث كي يقفوا إلى جانبك في النزاعات كثيرة الشيوع في الحياة اليومية. أردت الذهاب إلى أبعد من المحاكمات التي يقوم بها الناس عندما يسمعون حديثاً ممتعاً أو يشاهدون حدثاً مدهشاً ما. أردتُ أن يلتقِطَ نموذج "هات ـ و ـ خذ"، والجولة إثر الجولة من النقاش والجدل التي في بعض الحالات تؤدي بالناس إلى تغيير مواقفهم.

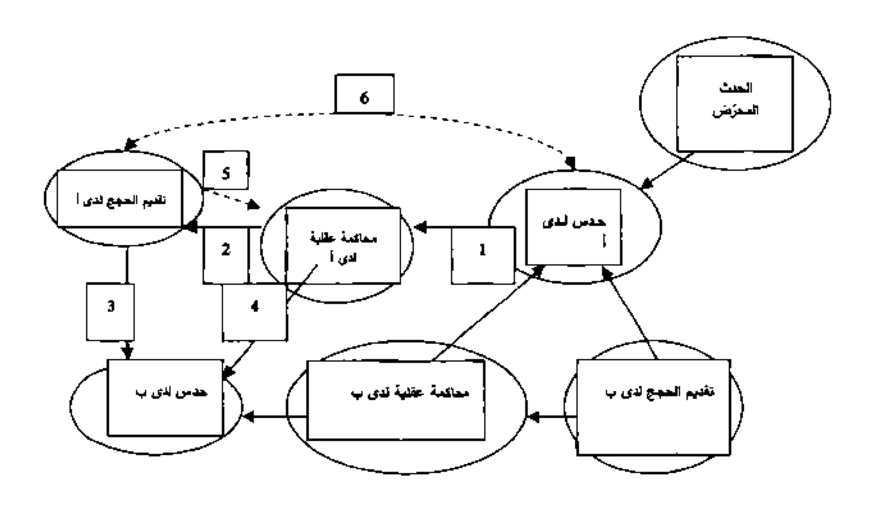
نقوم بالمحاكمات الأولى على جناح السرعة، ونحنُ مروّعون في السعي لاستخلاص دليلٍ قد يُبطِلُ تلك المحاكمات الأولية.[1] على الرغمَ من ذلك، لا يستطيع الأصدقاء أنْ يُقدِّموا لنا ما لا نستطيعُ تقديمَهُ لأنفسنا: يمكنهم مواجهتنا، وتقديم الأسباب والبراهين (الرابط 3) التي تُطلِقُ في بعض الأحيان عمليّات حدسٍ جديدة، ويمكن لنا بتلك الوسيلة تغييرُ مواقفنا. نقوم بين الفينة والفينة بهذا التفكير المليّ في مشكلةٍ بذاتنا، نرى الأشياء في ضوءٍ جديدٍ أو من منظور (من قبيل استخدام الصور المجازية). يُجَسِّدُ الرابط 6 في النموذج عملية التأمل الخاص هذه. والخط المنقّط، المتقطّع لأنَّ العملية لا تحدث كثيراً في الغالب.[2] بالنسبة إلى معظمنا لا نقوم بتغييررأينا كلّ يوم أو حتى كلّ شهرٍ حول القضايا الأخلاقية دونما تحريضٍ من أيِّ شخصٍ آخر.

---

[1] يُدعى هذا إنحياز التثبيت؛ أنظرْ مراجعة هذه أدبيات هذه النظرية في الفصل 4.

[2] أحدُ أكثر الانتقادات بحق نموذج الحدس الاجتماعي من الفلسفة شيوعاً هو أنّ الرابطين 5 و6، الذين أظهرتهما بمثابة خطين منقّطين، قد يكون في حقيقة الأمر أكثر شيوعاً في الحياة اليومية مما أؤكد. أنظر على سبيل المثال، Greene، الوشيك الصدور. لا يُقدِّم هؤلاء النقاد دليلاً، لكنْ، والحق يُقال، ليس لديَّ دليلٌ إما حول التواتر الفعلي في الحياة اليومي الذي يبرر الناس طريقةً للإتيان بنتائج معاكسة للحدس (الرابط 5) أو لتغيير رأيهم أثناء التأمل الخاص حول الأمور الأخلاقية (الرابط 6). بالطبع يغيِّر الناس رأيهم حول القضايا الأخلاقية، لكنْ أشتبه بأنَّ في سببُ التغييرمعظم الحالات كان تجربةً قسريةً حدسياً (الرابط 1)، من قبيلِ رؤية صور الجنين المرنانية، أو مناقشة قسريّة حدسيّاً يقوم بها شخصٌ آخر (الرابط 3). أشكُ أيضاً أنَّ الفلاسفة قادرون على إبطال حالات حدسهم بسهولةٍ أكثر مما يستطيع القوم العاديون، اعتماداً على نتائج استنبطها كون (1991).





<u>أربعة روابط أساسية</u>

1) المحاكمة الحدسية

2) التفكير ما بعد الحدس

3) إقناع معقلن

4) إقناع اجتماعي

<u>رابطان نادرا الاستخدام</u>

5) محاكمة عقلانية

6) تأملٌ خاص

الشكل 2. 4. <u>النموذج الحدسي الاجتماعي</u> . تأتي عمليّات الحدس أولاً ويتم إنتاج التفكير عادةً بعد القيام بالمحاكمة من اجل التأثير على الناس الآخرين. لكنْ حين تتطوّر المناقشة، تُغيّرُ الأسباب التي يقدمها الناس الآخرون في بعض الأحيان حدسنا ومحاكماتنا. (From Haidt 2001, p. 815. Published by the American Psychological Association. تم الاقتباس بعد الحصول على الموافقة).



إنّ التأثير الاجتماعي هو أمر أكثر شيوعاً من عملية تغيير الرأي الخاص هذه. فالناس الآخرون يؤثرون علينا باستمرارٍ من خلال الإفصاح عن أنّهم يحبّون شخصاً ما أو لا يُحِبّونه. تلك الصيغة من التأثير هي الرابط 4، رابط الإقناع الاجتماعي. يعتقد كثيرون منا أنّنا نتبع بوصلةً داخلية، لكنَّ تاريخ علم النفس الاجتماعي يُثبتُ بوضوح أنَّ الناس يبذلون قوّةً هائلة، وهم قادرون على جعل الوحشية تبدو مقبولة[1] والغيريّة تبدو محرجة[2]، دون أن يقدّموا لنا أيّة أسبابٍ أو حجج.

بسبب هذين التغييرين أسميتُ نظريّتي "النموذج الحدسيَّ الاجتماعي للمحاكمات الأخلاقية"، وقمتُ في عام 2001 بعنونة مقالتي "الكلب العاطفي وذيله العقلاني."[3] في الإدراك المؤخر أتمنّى لو أسميت الكلبَ "حدسياً" لأنَّ علماء النفس الذين ما يزالون متمرّسين في ثنائية الشعور - ضد - الإدراك يخمّنون غالباً من العنوان أنني أقول إنَّ الأخلاق دائماً تُدْفَعُ من قِبَل الشعور. هم إذن يبرهنون أنَّ الإدراك مهمٌّ، ويظنون أنّهم عثروا على الدليل ضد الحدسية.[4] لكنَّ حالات الحدس (بما فيها الاستجابات الشعورية) هي نوعٌ من الإدراك. وهي ليست نوعاً من التفكير فحسب.

كيف تربح مناظرة

يقدم النموذج الحدسي الاجتماعي تفسيراً مخيّباً للآمال للسبب الذي يجعل الحجج الأخلاقية والسياسية مثاراستياء: لأنَّ الأسباب الأخلاقية هي الذيل الذي يقوم الكلب بتلويحه. يلوح ذيلُ الكلب من أجل التواصل. لا تستطيع جعلَ كلبٍ سعيداً بواسطة هزِّ ذيلهعلى نحوٍ قسري. ولا تستطيع تغيير عقول الناس بتفنيد حججهم فقط. لقد شخّصَ هيوم المشكلة منذ أمدٍ بعيد:

---

(1) Zimbrado 2007

(2) Latane and Darley, 1970

(3) Haidt 2001

(4) أنظر على وجه الخصوص Hauser 2006; Huebner, Dwyer, and Hauser 2009; Saltzstein and Kasachkoff 2004



وطالما أنَّ التفكير ليس المصدر الذي يستقي منه أيّ من الطرفين المتصارعين عقائدة؛ فمنَ العبث التوقّع أنَّ أيَّ منطق، لا يوجه الكلام إلى العواطف، سوف يُشغِلُهُ مطلقاً باعتناقٍ مبادئ أكثر رسوخاً.[1]

إذا ما أردتَ عقول الناس، عليك الحديثُ إلى فيلَتِهم. عليك استخدام الروابط 3 و4 للنموذج الحدسيّ الاجتماعي لكي تثيرَ حالات حدسٍ جديدة، لا عروضاً منطقيةً للأسباب.

كان دايل كارنيجي واحداً من أعظم الفيلة الهامسين على مر الزمان. في كتابه الكلاسيكي ((كيف تعثر على أصدقاء وتؤثر في الناس))، كان كارنيجي يحثُّ القرّاء مراراً على تجنّب المجابهات المباشرة. عوضاً عن ذلك نصح الناس أن "يبدؤوا بطريقةٍ ودية"، وأن "يبتسموا"، و"يكونوا مستمعين جيّدين"، و"ألاّ يقولوا أنت مخطيء." يجب أنْ يكون هدف الشخص الساعي إلى الإقناع متابعة الاحترام، والدفء، والانفتاح على الحوارقبلَ أن يعرضَ قضيتَه. كان كارنيجي يحثُّ القرّاء على استخدام الرابط 4، وهو رابط الإقناع الاجتماعي، من أجل تمهيد الأرضية قبل محاولة استخدام الرابط 3، رابط الإقناع العقلاني.

من توصيفي لكارنيجي حتى الآن، قد تُفكّرُ في أنَّ تقنياته سطحية وقائمة على التلاعب، وهي مناسبةٌ لطواقم المبيعات. لكنَّ كارنيجي كان في حقيقة الأمر عالم نفسٍ أخلاقيّاً ألمعيّاً التقطَ واحدةً من أعمق الحقائق حول الصراع. كما استخدمَ مقبوساً من هنري فورد للتعبير عنه: "إذا ما كان هنالك أيُّ سرٍّ للنجاح فهو يكمنُ في الوصول إلى وجهة نظر الناس الآخرين وترى الأمور من زاويتهم كما تراها من زوايتك."[2]

(1) Hume 1960/1977, Part I, the opening paragraph

(2) Carnegie 1981/1936, p. 37



إنها نقطة جليّةٌ هائلة، رغم ذلك قلّةٌ منا من يطبّقونها في المناظرات الأخلاقية والسياسية لأنَّ عقولنا الصوابية تنحرفُ بسهولةٍ إلى أسلوب النزاع. فيعملُ كلٌّ من الراكب والفيل معاً بسلاسة لصدٍّ الهجمات وقذف قنابلٍ يدوية خطابية خاصة بنا. قد ينال الأداء إعجابَ أصدقائنا ويظهرَ للحلفاء أننا أعضاءٌ ملتزمون بالفريق، ولكن بغضّ النظر عن مدى جودة منطقنا، فهو لنْ يُغيّر آراء خصومنا إذا ما كانوا في صيغة نزاع كذلك الأمر. إذا ما أردتَ تغييرَ تفكير شخصٍ ما في أمرٍ أخلاقيّ أو سياسي، ستحتاجُ إلى رؤية الأشياء من زاوية الشخص وزاويتك في آنٍ معاً. إذا ما كنت تراها حقاً بطريقة الشخص الآخر ـ بعمق وطريقةٍ حدسية ـ يُحتَمَلُ أن تجدَ عقلك الخاص ينفتح في الاستجابة. إنَّ التقمّص العاطفي ترياقٌ للصوابية، على الرغم من أن التقمص العاطفي صعب عبر الانقسام الأخلاقي.

باختصار

يُفكِّر الناس ويتمتعون بحالات الحدس (بما فيها المشاعر الأخلاقية)، لكن ما العلاقة بين هذه العمليات؟ كان أفلاطون يعتقد أن العقل يجب أن يكون السيد؛ وارتأى جيفرسون أنَّ العمليَّتين كانتا بمثابةِ شريكين متساويين (الرأس والقلب) يحكمان أمبراطوريةً مقسّمة؛ وارتأى هيوم أنّ العقل كان (وهو كان مناسباً ليكون) خادماً للعواطف فحسب. في هذا الفصل حاولت أنْ أُظهِرَ أن هيوم كان على صواب:

- يُقسَّمُ العقلُ إلى أجزاء، مثل الراكب (العمليات المنضبطة) على الفيل (العمليات الآلية). لقد تطوَّرَ الراكبُ لخدمت الفيل.
- تستطيع أنْ ترى الراكبَ يخدمُ الفيل عندما يكون الناس مصعوقين من الناحية الأخلاقية. فهم يتمتّعون بمشاعرعميقة قويّة بشأن ما هو خطأٌ وما هو صواب، ويناضلون لتركيب تبريراتٍ خاصةٍ لاحقةٍ مناسبة لتلك المشاعر. وحتى عندما يعود الخادم (تقديم الحجج) خالي الوفاض، لا يقوم السيّد (الحدس) بتغيير حكمه.



- يبدأ نموذج الشخص الحدسي الاجتماعيّ مع نموذج هيوم ويجعله أكثر اجتماعيةً.تقديم الحجج جزءٌ من نضالنا طوال حياتنا لكسب أصدقاء والتأثير في الناس. لهذا السبب أقول إنَّ "حالات الحدس تأتي أولاً، والتفكير الاستراتيجي ثانياً." ولن تفهَمَ التفكير الأخلاقي إذا ما فكّرتَ به بصفته شيئاً يقوم به الناس من أجل فهم الحقيقة.
- بناءً على ذلك، إذا ما أردتَ تغيير رأي شخصٍ ما حول القضية الأخلاقية والسياسية، تحدثْ إلى الفيل أولاً. إذا ما أردت أنْ يؤمنَ الناس بشئٍ ينتهكُ حالاتِ حدسهم، فسوفَ يكرّسون جهودَهم لإيجاد بوبٍ للهروب ـ سبب للتشكيك في حجّتك أو نتيجتك. وسوف ينجحون دائماً تقريباً.

لقد حاولت استخدام الحدسية أثناءَ إنجازي هذا الكتاب. وهدفي هو تغيير الطريقة إلى مجموعة متنوعةٍ من القراء ـ ليبراليين كانوا أم محافظين، علمانيين ومتديّنين ـ يفكّرون في الأخلاق والسياسة والدين، ويفكّر بعضُهم في بعض. علمتُ أنّه وجب عليّ تناول الأمور بتؤدة وتوجيه نفسي نحو الفيلة أكثر من راكبيها. لمْ أستطِعْ تفسيرَ النظرية في الفصل 1 ثمَّ أطلب إلى القرّاء إبقاءَ محاكمتهم العقلية حتّى أقومَ بتقديم البرهان كاملاً. وعلى نحوٍ أدقّ، قرّرتُ نسج تاريخٍ لكلٍّ من تاريخ علم النفس الأخلاقي وقصتي الشخصية لخلق معنىً للحركة من العقلانية إلى الحدسية. وأدخلتُ قصصاً تاريخيةً، ومقاطع مقتبسة من القدماء، ومديحاً لقلّةٍ من الرؤيويين. وقمت بوضع صورٍ مجازية (من قبيل الراكب والفيل) التي ستتواتر في كافة مواضع الكتاب. وأنجزتُ هذه الأمور لكي "تولفوا" عمليات حدسكم نحو علم النفس الأخلاقي. إذا ما أخفقت وكان لديكم كرهٌ عميقٌ للحدسيّة أو لي، إذن لا يوجد كمٌّ من البراهين أستطيع تقديمه لإقناعكم أنَّ الحدسية صحيحة. لكن إذا ما شعرتم الآن بمعنىً حدسيّ أنَّ الحدسية ربما تكون صحيحة، فدعونا نستمر. في الفصلين التاليين سأتوجه إلى الركاب أكثر من توجّهي إلى الفيلة.



ثالثاً

الفِيلة تحكم

في 3 شباط، 2007، وقبل الغداء بوقتٍ قصير، اكتشفت أنني كنت كاذباً مزمناً. كنتُ في المنزل، أكتبُ مقالة مراجعةٍ حول علم النفس الأخلاقي، عندما سارت زوجتي، جين، إلى جانب طاولة مكتبي. في السياق، طلبتْ مني عدمْ ترك الصحون القذرة على الطاولة حيث أعدّت طعام طفلنا الصغير. كان رجاؤها مهذباً لكنَّ نبرته أضافت حاشيةً ملحقة: "مثلما سبق لي أن طلبتُ منك مائة مرّةٍ من قبل."

تحرّكَ فمي قبل أن يتوقّفَ فمُها. خرجتِ الكلمات. وربَطت تلك الكلمات بعضَها إلى بعض لتقولَ شيئاً عن فور قيام وليدنا من النوم وفي الوقت ذاته الذي نبَحَ كلبُنا العجوز مطالباً بمشوار وأنا آسف لكنني وضعتُ صحون فطوري في أيِّ مكانٍ متاح. في عائلتنا، الاعتناء بوليدٍ جائع وكلبٍ عاجزٍ عنْ ضبط النفس عذرٌ موثوقٌ، وهكذا تمّت تبرئتي.

غادرتْ جيني الغرفة وتابعتُ عملي. كنتُ أكتبُ عن المبادئ الأساسية الثلاثة لعلم النفس الأخلاقي.[1] المبدأ الأول هو <u>حالات الحدس أولاً، والتفكير</u>

[1] المقالة التي كنتُ أكتبها هي Haidt 2007. في تلك المقالة، وفي كلّ كتاباتي الأكاديمية، أصفُ <u>أربعة</u> مبادئ لعلم النفس الأخلاقي، أولاهما <u>الأوليّة الحدسية لا الدكتاتورية والتفكير الأخلاقي هو من أجل الفعل الاجتماعي</u>. في هذا الكتاب أقوم بدمج هذين المبدأين في مبدأ واحد - <u>الحدس يأتي أولاً، والتفكير [تقديم الحجج] الاستراتيجي ثانياً</u> - لأنني أفكر أنه سيكون في التذكر والتطبيق.



الاستراتيجي ثانياً. وهذا ملخّصٌ مكوّنٌ من خمس كلمات لنموذج الشخص الحدسي الاجتماعي.[1] ولتوضيح المبدأ، وصفتُ دراسةً قمتُ بها مع تاليا ويتلي، وهي حالياً أستاذةٌ محاضرةٌ في كليّة دارموث.[2] في الماضي عندما كانت تاليا طالبة دراسات دنيا في جامعة فرجينيا، كانت قد تعلّمت كيف تنوِّم الناس مغناطيسياً، ووصلت إلى طريقةٍ ذكيّةٍ لاختبار نموذج الشخص الحدسي الاجتماعي. لقد قامت تاليا بتنويم الأشخاص مغناطيسياً لتشعر بومضة قرفٍ كلّما شاهدوا كلمةً محددة (خذ لنصف المشاركين؛ غالباً للآخرين).[3] بينما كانوا ما يزالون في حالة الغَشية وجّهتهم تاليا أنهم لن يستطيعوا تذكُّر أيّ شئ سبق أن قالته لهم، ثمّ أخرجتهم من الغَشية.

وفور عودتهم إلى الصحوِ التام، طلبنا إليهم ملءَ رزمة استبيانٍ كان عليهم فيه محاكمة ست قصص قصيرة عن التجاوزات الأخلاقية. ولكلّ قصة، قرأ نصف المشاركين نسخةً تمّ غرس كلمة شيفرة التنويم المغناطيسي فيها. على سبيل المثال، كانت إحدى القصص عن عضوٍ في الكونجرس يدّعي محاربة

---

[1] هي خلاصةٌ من ستّ كلماتٍ لما يحدثُ في الثواني القليلة الأولى من الحكم. بموجب نموذج الشخص الحدسي الاجتماعي. وهو لا يلتقط التأثير المتبادل الذي يحدث على الفور إذ يقوم كلٌّ من شخصين اثنين بتقديم الأسباب للآخرالآخر وفي بعض الأحيان يتبادلان الحكم.

[2] Wheatley and Haidt 2005

[3] قمنا بتنويم مشاركين قابلين للتنويم المغناطيسي لدرجة عالية، تمّ اختيارهم من شعبة علم النفس 101التي أدرّسها في اليوم الذي حاضرت أثناءه عن التنويم المغناطيسي. كانت هنالك فترة في عقد الثمانينات فكّر أثناءها العلماء أنّ التنويم المغناطيسي كان ظاهرة غير حقيقية، بل كانت مجرّد قيام المشاركين بالتكيف مع دور أو تمثيل اللعبة. لكنّ سلسلةً من الدراسات قد أظهرت تأثيراتٍ لا يمكنُ التظاهر بها؛ على سبيل المثال، إذا ما أعطيت الأشخاص اقتراحاً ما بعد التنويم المغناطيسي أنهم كانوا يستطيعون فحسب الرؤية بالأبيض والأسود، ومن ثمّ تضعهم أمام ماسحة fMRI ، تجدُ فعاليةً مخفّضة بشكل هائل في رؤية الدارات اللونية للدماغ عندما يشاهدون صوراً بالألوان (Kosslyn et al. 2000).



الفساد، رغم ذلك "يأخذُ رشاً من مجموعة الضغط الخاصة بالتبغ." وقرأ المشاركون الآخرون نسخةً مطابقة باستثناء كلمات قليلة (عضو الكونجرس "كان يتلقى رشاً من مجموعة الضغط الخاصة بالتبغ"). بمعدلٍ وسطي، حكمَ كلٌّ من المشاركين على القصص الستة بأنها أكثر إثارةً للقرف وخاطئة من الناحية الأخلاقية عندما كانت كلمة الشيفرة مغروسة في القصة. وهذا ما ثبّت نموذج الشخص الحسي الاجتماعي. ولدى منح الأشخاص ومضةً صغيرةً مصطنعةً من السلبية أثناء قراءتهم القصة، دون تقديم أيّةِ معلوماتٍ جديدة، جعلنا حكمهم الأخلاقي أكثر حدّة.

على الرغم من ذلك، جاءت المفاجأة الحقيقية مع قصةٍ سابعة قمنا بإضافتها على عجلٍ بعد فكرةٍ خطرت في البال مؤخراً، وهي قصةٌ لم تتضمَّن تجاوزاً أخلاقياً من أيّ نوعٍ كان. كانت عن رئيس مجلسٍ للطلبة يُدعى دان وهو مسؤول عن جدولة المناقشات بين الطلبة والكليّة. فقرأ نصفُ المشاركين لدينا أنَّ دان "يحاول اختيارموضوعاتٍ جاذبة لكلٍّ من المحاضرين والطلبة من أجل أنْ يُحفّز النقاش." وقرأ النصف الآخر القصة ذاتها ما عدا أنّ دان "يختار غالباً موضوعات" تجتذب الأساتذة والطلبة. أضفنا هذه القصة لنُبرهن على أنّ هنالك حدّاً لقوة الحدس. كنا نتوقع أنَّ المشاركين الذين شعروا بومضة قرفٍ أثناء قراءة هذه القصة كان عليهم أن ينقضوا مشاعرهم العميقة. ستكون إدانةُ دان أمراً عجيباً.

لقد قال معظم المشاركين لدينا فعلاً إنّ أفعال دان كانت لا غبار عليها. لكن ثُلُثَ المشاركين الذين وجدوا كلمة الشيفرة التي تخصّهم في القصة كانوا يتبعون مشاعرهم العميقة فأدانوا دان. لقد قالوا إنَّ ما فعله كان خطأً، وفي بعض الأحيان خطأً جداً. لحسن الحظ، كنّا قد طلبنا من كلّ مشارك كتابة جملةٍ أو اثنتين يشرحون فيها أحكامهم، فوجدنا بعض الجواهر مثل "دان شخصٌ متعجرف باحث عن الجماهيرية" و"لا أدري، يبدو كأنّه يرمي إلى شيء ما فحسب." لقد قام هؤلاء المشاركون باختلاق أسباب سخيفة لتبرير أحكامٍ قاموا بها على أساس المشاعر العميقة ـ وهي المشاعر التي كانت تاليا قد زرعتْها بواسطة التنويم المغناطيسي.



وهكذا كنتُ وراء مكتبي، أكتبُ عن كيف يُفبرِكُ الناس بشكلٍ آليٍّ تبريراتٍ لمشاعرهم العميقة، عندما لاحظتُ على حين غرَّة أنني كنت قد فعلتُ الشيءَ نفسه مع زوجتي. لقد كرهتُ تعرّضي للنقد، وشعرتُ بومضةٍ من السلبية عندما وصلت جيني إلى كلمتها الثالثة "ألنْ تقوم ب ...". وحتى قبل أن أعرف لماذا كانت تنتقدني، علمتُ أنّني اختلفتُ معها (لأنَّ عمليات الحدس أولاً). وفي اللحظة التي عرفتُ أثناءها محتوى النقد ("... تترك الصحون القذرة على ...")، انطلق المحامي القابع في داخلي للعمل بحثاً عن عذرٍ (التفكير الاستراتيجي ثانياً). تناولت فطوري حقا، وقدّمت لماكس زجاجته الأولى، وأخرجت الكلب آندي في مشواره الأول، لكنَّ كل هذه الوقائع حدثت في أوقاتٍ منفصلة. في النهاية عندما انتقدتني زوجتي قمتُ بدمجها في صورةٍ مركّبة لأبٍ مرْهَقٍ لديه أيادٍ محدودة جداً في الوقت الذي أتمّتْ نقدَها المؤلّف من جملةٍ واحدة ("الطاولة حيث أضع طعام الطفل الوليد؟"). بعدئذٍ مارستُ الكذبَ بقدرٍ كبيرٍ من السرعة والإقناع إلى درجة أنني وزوجتي على حدٍ سواء صدّقنا ما قلت.

كنتُ قد ضايقتُ زوجتي بقصصٍ معدلةٍ لجعلها أكثر دراماتيكية عندما تسردها لبعض الأصدقاء، لكنّ الأمر استغرق عشرين عاماً من دراسة علم النفس الأخلاقي لأكتشف أنني حرّفتُ قصصي الخاصة. فهمتُ أخيراً ــ ليس ذهنياً لكنْ حدسياً وبقلبٍ مفتوح ـ أن معاتبات الحكماء من حقبٍ وثقافاتٍ بعيدة جداً تحذّرنا حول الذات الصوابية. لقد اقتبَستُ المسيح تواً "العود في عين جارك"). ها هنا الفكرة ذاتها من بوذا:

> من السهولة رؤية أخطاء الآخرين، لكنْ من الصعب رؤية المرء لأخطائه. فالمرء يُظهرُ أخطاء الآخرين مثلَ تبنٍ تذروه الرياح، لكنَّ المرءَ يُغطِّي أخطاءَه مثل مقامرٍ محتالٍ يخفي قطعة النرد. [1]

---

[1] Dhammapada verse 252 (Mascaro 1973) . أنظر الفصل الرابع ((أطروحة السعادة)) من أجل المزيد عن التركيبة النفسية لهذه الحقيقة.



كان كلٌّ من المسيح وبوذا على حقّ، وفي هذا الفصل والذي يليه سوف أظهر لكم كيف تفعل صوابية الذات لدينا فعلها، فهي تبدأ بحالات حدسٍ سريعة وقسرية (ذلك هو الرابط 1 في نموذج الشخص الحدسي الاجتماعي)، وتتابع بعد الحجج المنشأة آنياً، والتي يتمُّ إيجادها لأغراضٍ استراتيجية من الناحية الاجتماعية (الرابط 2 و3). إليكم ستّ نتائج رئيسة للبحث توضح على نحوٍ جماعي النصف الأول للمبدأ الأول: حالات الحدس تأتي أولاً (في الفصل التالي سأقدم برهاناً للنصف الثاني ـ التفكير الاستراتيجي ثانياً). الفيَلةُ تحكم، على الرغم من أنّها في بعض الأحيان منفتحة على الإقناع من قِبَل الركاب.

1. الأدمغة تقيّم فوراً وباستمرار

تقوم الأدمغةُ بتقييم أيّ شيءٍ فيما يتعلّقُ بالخطر الكامن أو الفائدة للذات، ومن ثمَّ تكيِّفُ السلوك وتحصلُ على كثيرٍ من الشيء الجيّد وقليل من السيّء.[1] تقوم أدمغةُ الحيوان بعمليات التقييم آلاف المرات يومياً دون حاجة إلى التفكير الواعي، ليجعلَ جواب العقل في النهاية أقرب إلى الكمال عن السؤال الأساسي لدى الحيوان: اقتربْ أو تجنّبْ؟

في التسعينات من القرن 19 صاغ فيلهلم فوندت، مؤسس علم النفس التجريبي، مبدأ "الأوليّة المؤثرة."[2] تشير كلمة يؤثر إلى ومضاتٍ من الشعور السلبي أو الإيجابي التي تجهّزنا للاقتراب من أو تجنّب شيءٍ ما. يتضمّن كلُّ شعورٍ (مثل السعادة أو القرف) ردّة فعلٍ عاطفية، لكنّ معظم ردود فعلنا العاطفية سريعة الزوال كي تُسمّى مشاعر (على سبيل المثال، المشاعر صعبة الفهم التي تأخذها من كلمتي سعادة وقرف فحسب).

---

[1] هذه الجملة صيغةٌ تقريبية منطقية للمقولة المركزية في مفهوم السلوكية: أنظر Pavlov 1927 حول مُنعكَسيّ البرمجة الأساسية. بتعديلٍ بسيط تنطبق على فرويد كذلك الأمر ـ تقوم الأجزاء المتعددة من اللاوعي بشكلٍ مستمر بمسح البيئة وإطلاق ردودِ فعلٍ آليةٍ سريعة، على الرغم من أنها في بعض الأحيان متناقضة فيما بينها. أنظر أيضاً Osgood 1962، حول الأبعاد الثلاثة الأساسية للتصنيف، والتي أوّلها تكافؤ الجيّد مقابل السيء.

[2] Wundt 1907/1896



قال فوندت إنّ ردود الفعل المؤثرة إنما هي متكاملة تكاملاً وثيقاً لدى الإدراك الحسي أننا نجد أنفسنا نحب أو لا نحب شيئاً ما في اللحظة التي نلاحظه فيها، وأحياناً قبلَ أن نعرفَ ما هو.[1] تحدثُ هذه الومضات بسرعةٍ عالية إلى درجة أنها أنها تسبق كل الأفكار الأخرى عن الشئ الذي ننظر بشأنه. نستطيع الشعور بالأولية المؤثرة أثناء الفعل في المرة الثانية التي تواجه فيها شخصاً لعدة سنوات. ستعرفُ عادةً في ظرف ثانية أو اثنتين إن كنت تحبُ الشخصَ أو لا تحبه، لكن الأمر يمكن أن يأخذَ وقتاً أطول لتتذكّر من هو الشخص أو كيف يعرفُ أحدكم الآخر.

في عام 1980 أحيا عالم النفس الاجتماعي روبرت زاجونك Zajpnc (والإسم على وزن كلمة "science " علم) مفهوم فوندت المنسي منذ زمن المتعلق بالأولية العاطفية. كان زاجونك قد سئم وجهة النظر السابقة في أوساط علماء النفس في ذلك الوقت عن أنَّ الناس رابطو الجأش، ومعالجو معلومات عقلانيون يدركون في البداية ويصنِّفون الأشياء من ثمَّ يتّخذون ردّة فعلٍ حيالها. لقد أجرى عددا من التجارب العبقرية التي طلبت من المشاركين تحديد ترتيب أشياء اعتباطية منها نماذج الكتابة التصويرية اليابانية، والكلمات في لغةٍ مصطنعة، والأشكال الهندسية. يبدو من الغرابة سؤال الناس أن يقوموا بتقييم مدى محبتهم الكلمات الأجنبية والخربشات التي لا معنى لها، لكنَّ الأشخاص يستطيعون القيام بذلك لأنَّ كلّ شيءٍ ننظرُ إليه يطلق ومضةً صغيرةً من العاطفة. والأهم من ذلك، كان زاجونك قادراً على جعل الناس يحبّون أيّة كلمة أو صورة أكثر عن طريق إظهارها لهم عدة مرات فقط.[2] يقوم الدماغ بتسمية الأشياء المألوفة على أنها

---

[1] أنظر LeDoux 1996 حول كيف تستطيع اللوزة إطلاق ردة فعلٍ شعورية حيال شيءٍ بشكلٍ حسن قبل أن تتوفر الفرصة لقشرة الدماغ كي تقوم بمعالجة الحدث.

[2] لا يعتمد التأثير على ما إذا كان بمقدورالأشخاص تذكُر مشاهدتهم لعنصر محفّز. في واحدة من الدراسات، قام زاجونك بإضاءةِ صورٍ على الشاشة لمجرّد جزءٍ من ألف من الثانية، بالغة السرعة كي يتمكّن أيّ شخص على التعريف بالتحديد، بشكلٍ واعٍ، رغم
==



أشياء جيّدة. أسمى زاجونك هذا "التأثير المتعلّق بالتعرّض"، وهو مبدأ الإعلان الأساسي.

في مقالةٍ أشبه بالمَعلَم، حثّ زاجونك علماء النفس على استخدام نموذج العمليّة المزدوجة التي تكون العاطفة أو "الشعور" العملية الأولى فيها.[1] لديها الأوّلية لأنها في آنٍ معاً تحدثُ أولاً (إنّها جزءٌ من الإدراك الحسي ولذلك هي في غاية السرعة) ولأنّها أقوى (هي مرتبطةٌ ارتباطاً وثيقاً بالحافز، ولذلك تؤثر بقوة في السلوك). والعملية الثانية ـ التفكير ـ هي مقدرةٌ أحدث على نحو تطوّري، المتجذّرة في اللغة وغير المتعلّقة تعلّقاً وثيقاً بالحافز. بمعنى آخر، التفكير هو الراكب؛ والعاطفة هي الفيل. إنّ نظام التفكير ليس مؤهلاً للقيادة ـ إنّه ببساطةٍ لا يمتلك القوة لجعل الأشياء تحدث ـ لكنّه يمكن أن يكون ناصحاً نافعاً.

قال زاجونك إنَّ التفكير من الممكن أن يعملَ مستقلاً عن الشعور من الناحية النظرية ولكنّ المشاعر العاطفية من الناحية العملية سريعةٌ وقسريةٌ إلى حدّ أنّها تقوم بعمل غمامة الحصان: فهي "تقلّص كون البدائل" المتاحة للتفكير اللاحق.[2] إنَّ الراكب خادم يقظ، يحاول دائماً ترقّب حركة الفيل التالية. فإذا مال الفيل قليلاً إلى اليسار، وكأنّه يستعدّ ليقدم على خطوة، ينظر الراكب نحو اليسار ويبدأ الاستعداد لمساعدة الفيل في رحلته الوشيكة نحو اليسار. ويفقد الراكب اهتمامه في أيّ شئٍ له علاقة باليمين.

ذلك عندما تمّ اختبارهم فيما بعد، فضّل الناس الصور التي كانوا قد "شاهدوا" لمدة خمس دقائق على تلك الصور التي كانوا قد تعرّضوا لها لمرّةٍ واحدة، أو لم يتعرّضوا لها أبداً (Zajonc 1968).

(1) Zajonc 1980. اعتمد بشكلٍ كبيرٍ على زاجونك عندما قمت بصياغة الصورة المجازية المتعلّقة بالفيل والراكب.

(2) Ibid., p. 171



2. المحاكمات الاجتماعية والسياسية حدسية على وجه الخصوص

فيما يلي أربع أزواج من الكلمات.إنّ مهمتك النظر إلى الكلمة الثانية فقط في كلّ زوج ومن ثمّ تصنيفها على أنها جيدة أو سيئة:

زهرة ــ سعادة

كراهية ــ أشعة الشمس

حب ــ سرطان

صرصور ــ على حدة

إنّ الأمر من السهولة إلى حد السخف، لكنْ تخيّل إذا ما سألتك أن تقوم بالعمل بواسطة الحاسوب، حيث أستطيع إضاءة الكلمة الأولى في كلّ زوجٍ لمدة 250 ميليثانية (ربع الثانية، طويل بما يكفي لقراءتها) وبعد ذلك أعرض على الفور الكلمة الثانية. في تلك الحالة سنجد أنّها تستغرق منك وقتاً كي تقوم بحكم القيمة المتعلّق ب أشعة الشمس وسرطان أكثر مما هي الحال مع سعادة وعلى حدة.

يُدعى هذا التأثير "الشعيلة العاطفية" لأنَّ الكلمة الأولى تُطلِقُ ومضة العاطفة التي تلقّن العقل كي يعمل بطريقةٍ أو بأخرى.[1] أشبه بإرغام الفيل على الميلان نحو اليمين أو اليسار، في ترقّبٍ للسير نحو اليمين أو اليسار. تقوم الومضة بالبدء بما لا يزيد 200 ميليثانية، وتستغرق حوالي ثانية ما بعد ذلك إذا لم يكنْ هنالك هزّة، لدعمها.[2] فإذا ما رأيتَ الكلمة الثانية ضمن نافذة الزمن المختصرة، وإذا كان لدى الكلمة الثانية التكافؤ ذاته، ستكون قادراً على الاستجابة بسرعةٍ هائلة لأنَّ عقلك يميل بذاك الاتجاه تواً. ولكنْ إنْ قامت الكلمة الأولى بشحن عقلك نحو تقييمٍ سلبي (كره) ثمّ تُظهِر لك كلمةً إيجابية (أشعة الشمس)، فسوفَ تستغرق منك 250 ميليثانية أطول للاستجابة لأنّه عليك أنْ تلغي الميل نحو السلبية.

---

[1] Fazio et al. 1986; Greenwald, McGhee, and Schwartz 1998

[2] Morris et al. 2003



حتى الآن هذا تثبيت نظرية زاجونك عن سرعة العاطفة وكليّة وجوده فحسب، لكن الجدوى جاءت عندما بدا علماء النفس الاجتماعيون باستخدام مجموعاتٍ اجتماعية لأنها المطالع. هل ستؤثر على سرعة استجابتك إذا ما استخدمت صوراً فوتوجرافية لأشخاص سودٍ وبيض بمثابة المطالع؟ طالما أنّك لست منحازاً، فهو لن يؤثر على أزمنة ردود فعلك. ولكن إذا ما كنتَ فعلاً تنحاز حيال الناس ضمنياً (أيْ آلياً وعلى نحوٍ لا واعٍ)، فستكون تلك الأحكام (المسبّقة تتضمّن ومضاتٍ عاطفية، وسوف تقوم تلك الومضات بتغيير ازمنة ردود فعلك.

إنَّ أوسع القياسات استخداماً لهذه المواقف الضمنية هي اختبار التداعي الضمني (IAT)، الذي تمَّ تطويره من قِبَل طوني جرينوالد، ومهزارين بناجي، وزميلي في جامعة فرجينيا بَرَيان نوسيك.[1] وتستطيع خوض تجربة IAT بنفسك على موقع ProjectImplicit.org لكن كنْ على حذرٍ سلفاً: فمن الممكن أن يكون مزعجاً. يمكنك فعلياً أنْ تشعر أنّك نفسك تتحرّك ببطءٍ أوضح عندما يُطلَب منك ربط الأشياء الجيدة مع وجوه أحد العرقين أكثر من الآخر. وتستطيع المراقبة حين يناقض موقفك الضمني قِيَمكَ الظاهرية. فيتبيّن أنّ معظم الناس لديهم تداعيات خواطر ضمنية مع فئات اجتماعية كثيرة، مثل السود، والمهاجرين، والبدينين، وكبار السن.

ولكنْ إذا ما مال الفيل للابتعاد عن فئاتٍ مثل كبار السن (الذين قد تدينهم القلّة القليلة من الناحية الأخلاقية)، فعلينا بالتأكيد توقّعُ بعض الميل (عملية الحكم المسبق) عندما يفكّر الناس في أعدائهم السياسيين. من أجل النظر إلى هذه التأثيرات، قام زميلي في جامعة فرجينيا جيمي موريس بقياس موجات دماغ الليبراليين والمحافظين وهم يقرؤون كلماتٍ ذات حمولةٍ سياسية.[2] لقد قام

---

[1] Greenwald, Nosek, and Banaji 2003

[2] Morris et al. 2003. تم العثور على الاختلاف في المكوّن N400، وهو أكبرعندما يواجه الدماغ شيئاً متنافراً، أي عندما يضع موريس الكلمات في ثنائيات ذات معانٍ شعورية مختلفة. طلبت دراسة هولندية أحدث (Van Berkum et al. 2009) من المحازبين قراءة بياناتٍ تؤكّدُ أو تُعارض قضايا مثل الموت الرحيم. فوجدوا التأثير N400 نفسه، إضافةً إلى تأثير ==



باستبدال كلمتيَ زهرة وكره في المثال الوارد أعلاه كلماتٍ مثل كلينتون، بوش، علم، ضرائب، رفاه، تأييد الحياة. عندما يقرأ الأنصار هذه الكلمات، التي تليها مباشرةً كلماتٌ يوافق عليها كلُّ شخص على أنّها جيّدة (أشعة الشمس) أو سيّئة (سرطان)، فقد أظهرتْ أدمغتهم في بعض الأحيان صراعاً. كان كلٌّ من تأييد الحياة وأشعة الشمس كلماتٍ متنافرة على نحو مؤثر بالنسبة لليبراليين، كما كانت كلمات كلينتون وأشعة الشمس بالنسبة إلى المحافظين. وكلمتا تأييد وحياة كلتاهما إيجابيّتان بحدّ ذاتهما، لكنّ جزءاً ما مما يعنيه كون المرء نصيراً هو أنّكَ استحوذتَ على حق المشارك المحدد في ردود الفعل الحدسية تجاه مئات الكلمات والعبارات. ففيلُك يعرف اتجاه الاستجابة لمصطلحات تأييد الحياة، حين يتأرجح الفيل إلى الخلف والأمام طوال فترات النهار، تجدُ نفسكَ تحبُّ وتثق بالناس الذين يتأرجحون بالتناغم حولك.

إنَّ طبيعة الأحكام السياسية ذات الطبيعة الحدسيّة إنّما هي أكثر لفتاً للانتباه في عمل أليكس تودوروف في جامعة برنستون. يقوم تودوروف بدراسة كيف نكوّن انطباعاتنا عن الناس. عندما بدأ عمله، كان هنالك سلفاً الكثيرُ من البحث الذي يظهر أنّنا نحكم على الناس الجذّابين ليغدوا أكثر جاذبية وأكثر فضيلةً، ومن المرجّح أننا نعطي الوجه الجميل التبرئة[1] ومن المرجّح أنّ المحلّفين سيبرّؤون متّهمين جذّابين، وعندما يتمُّ تجريم الناس الجميلين، يوقع القضاة بهم أحكاماً مخفّفةً بالمعدل العام.[2] وهذا الأمر [مرتبةٌ] أوّليّةٌ عاطفية

LPI) (إمكانية إيجابية لاحقة) أكبر وأبطأ، المرتبط بالاستجابة الشعورية بشكلٍ عام، مما يدل على أنَّ المحازبين بدؤوا يشعرون بأشياء مختلفة ضمن نصف الثانية الأولى لقراءة الكلمات المفتاحية.

(1) Dion, Berscheild, and Walster 1972

(2) فيما يتعلّق بالتجربة مع محلّفين زائفين، أنظر Efran 1974؛ بالنسبة لحقل دراسة يظهر المتّهمين الجذّابين يتبرّؤون بأخف الأحكام، أنظر Stewart 1980. بالنسبة إلى التحليل الأعلى، أنظر Mazzella and Feingold 1994. كون المرء جذاباً هو ميزةٌ بالنسبة للمتهمين في حال معظم الجرائم، لكن ليس بالنسبة لتلك حيث ساعدت الجاذبية المجرم على التبرّوء من الجريمة، مثل الخداع (Sigall and Ostrove 1975).



تجعل كلّ شخصٍ يميل نحو المتهم، والتي تطيح بتوازن الراكب لديهم لتفسير الدليل بطريقةٍ تدعم رغبةَ الفيل في التبرئة.

لكنَّ تودوروف وجدَ أنَّ هنالك الكثير من الاستمرار وأكثر من الجاذبيّة فحسب. لقد قام بتجميع صورٍ فوتوجرافية للرابحين والذين ما يزالون يخوضون السباق في مئات الانتخابات على مجلس الشيوخ ومجلس ممثليّ الشعب. أظهر الناس زوجاً من الصور الفوتوجرافيّة من كلّ منافسة دون معلوماتٍ عن الحزب السياسي، وطلب منهم اختيار من هو الشخص الأكثر جدارةً. فاكتشف أنَّ المرشّح الذي اعتبره الناس أكثر جدارةً كان الشخص الذي ربح السباقَ فعليّاً في ثلثيّ المرات.[1] ولم تكنْ أحكام الناس السريعة بشأن الجاذبية الجسدية للمرشّحين وإجمال كونهم محبوبين أمرين جيّدين متنبّئين بالنصر، إذ إنّ أحكام الجدارة تلك قائمة على الشعور الشامل بالإيجابية. يمكننا أن نمتلك حالات حدسٍ متعددة ناشئة نحوٍ متزامن، وكل منها يعالج نوعاً مختلفاً من المعلومات.

ومن دواعي الغرابة، عندما أجبر تودوروف الناس على اتخاذ أحكامهم بشأن الجدارة بعد إضاءة زوجٍ من الصور على الشاشة لمدة عشرٍ من الثانية فحسب - وهي مدةٌ ليست طويلة بما يكفي لترك عيونهم مثبتةً على كلّ صورة - توقعت أحكامهم اعتماداً على اللقطة [السريعة] بشأن الجدارة المُخرَجات الحقيقية بالجودة ذاتها.[2] مهما يكن ما يفعله الدماغ، فإنه يقوم بذلك لحظياً، ويشبهك تماماً عندما تنظر إلى صورة مولر- لاير.

---

[1] Todorov et al. 2005. قام تودوروف باستبعاد الحالات القليلة التي استطاع المشاركون فيها اختيار أيٍّ من المرشّحين.

[2] لم تجد الدراسة الأصلية هبوطاً في الدقة لدى التعرّض لثانية واحدة. ونتيجة عشر الثانية هي من دراسة متابعة، Ballew and Todorov 2007 . تتناول هذه الدراسة أيضاً أنَّ إمكانية شغل المنصب عامل متغيّر ثالثٌ يجعل السياسيين يبدون جديرين وأيضاً، بالمصادفة، يربحون. ليس الأمر كذلك. وكان التوقع بواسطة جدارة الوجه دقيقاً بالقدر ذاته في السباقات حيث لم يكن شاغل المنصب موجوداً، أو حيث يضيع شاغل المنصب، مثلما كان الوضع عندما ربح شاغلُ المنصب.



إنَّ النتيجة الأخيرة، هي أنَّ عقول البشر، أشبه بعقول الحيوانات، تقوم - باستمرار- باتخاذ ردة الفعل على نحو حدسي حيال أيِّ شيءٍ تدركه، وتؤسس استجاباتها على ردود الأفعال هذه. فضمنَ أوّل ثانيةٍ من الرؤية البصرية، أو السمع أو الالتقاء بشخص آخر، قد بدأ الفيل بالميل نحو أو بعيداً عن، ويؤثر ذاك الميلُ على ما تفكّر فيه أو تفعله تالياً. حالات الحدس تأتي أولاً.[1]

3. أجسامنا توجّه أحكامنا

إحدى طرق الوصول إلى الفيل هي خرطومه، إذ يحمل العصب الشمّي إشاراتٍ عن الروائح إلى قشرة الدماغ الجزيرية (منطقة الشم)، وهي منطقةٌ على طول السطح السفلي للجزء الأمامي من الدماغ. وكان من المعتاد أن يُعرَفَ هذا الجزء بـ "قشرة التذوّق" نظراً إلى أنه يقوم في جميع الثدييات بمعالجة المعلومات القادمة من الأنف والفم. ويساعد في توجيه الحيوان نحو الطعام المناسب وبعيداً عن الأطعمة غير المناسبة. أما عند البشر، فاتّخذ مركز معالجة الطعام هذا واجباتٍ جديدة، وهو يقوم في الوقت الحاضر بتوجيه ذوقنا فيما يخص الناس. وهو يغدو أنشط نشاطاً عندما نشاهد شيئاً عفناً ما من الناحية الأخلاقية، على ولا سيما شيئاً مقرفاً، وبالقدر ذاته تنافر التنوّع في الحديقة.[2] وإذا كان لدينا شيءٌ من قطب كهربائي يمكن إدخاله عن طريق أنوف الناس إلى مناطق التذوق الخاصة بهم، نستطيع آنذاك السيطرة على فيَلَتهم، وجعلهم يتّخذون سبيلاً بعيداً عن أيِّ شيءٍ كانوا يشاهدونه في اللحظة التي قمنا أثناءها بضغط الزر. وفي حوزتنا هذا القطب الكهربائي. إنّه يُدعى رذاذ الضراط.

التقط أليكس جوردان، وهو من طلبة الدراسات الدنيا في جامعة ستانفورد، فكرة الطلب من الأشخاص إطلاق أحكامٍ أخلاقية بينما تمّ إيقاف منبّهات

---

[1] من أجل مراجعات إضافية حول دور الحدس أو "الموجّهات الأخلاقية" الأوتوماتيكية، أنظر Gigerenzer 2007 and Sunstein 2005

[2] انظر مراجعات Damsio 2003; Greene, 2009a. بشأن العدالة [التقيّد بالأصول] ومنطقة الذوق، أنظر Hsu, Anen, and Quartz 2008; Rilling et al. 2008; Sanfey et al. 2003



القرف على نحوٍ سرّي. ووقفَ بحزمٍ على تقاطع للمشاة في حرم الجامعة ثمَّ طلب من المارّة ملء استبيان مسح مختصر. لقد طلب من الأشخاص إصدار أحكامٍ بشأن قضايا مثيرة للجدل مثل زواج أبناء العم المقرّبين، أو قرار استديو سينمائي إنتاج عملٍ وثائقي مع مخرجٍ كان قد احتال على بعض الناس كي تتمّ مقابلتهم.

وقف أليكس بجانب صفيحة نفايات كان قد أفرغها. وقبل القيام بتطويع أيّ مشارك، وضعَ راسماً بلاستيكيا داخل الصفيحة المعدنية. وقبل أن يقوم نصف الأشخاص المتواجدين بالسير (وقبل أن يتمكنوا من رؤيته)، قام بذر رذاذ الضراط مرّتين في الكيس، الذي "عطّر" التقاطع برمّته لعدة دقائق. وقبل عمليات تطويعٍ أخرى، ترك الكيس دون ذرّ.

بالتأكيد التام، قام الناس بإطلاق أحكامٍ أقسى عندما كانوا يستنشقون الهواء الكريه الرائحة.[1] وكان باحثون آخرون قد وجدوا التأثير نفسه عند الطلب من المشاركين ملء استبيانات بعد تناولِ شرابٍ مرّ المذاق مقابل شرابٍ حلو المذاق.[2] وحسبما عبّر زميلي في جامعة فرجينيا، جيري كلور، عن الأمر، نحن نستعمل "العاطفة بمثابة معلومات."[3] عندما نحاول أنْ نقرّرَ ما نفكّر فيه

[1] Schnall et al. 2008, Study 1. كل الأحكام الأربع سارت في الاتجاه المتوقع، على الرغم من أنّ ليس كلّ مقارنة كانت ذات مغزى من الناحية الإحصائية. وعندما تمّ دمج القصص الأربعة ، وهو الطريقة الاعتيادية التي يتم بها تحليل البيانات، كان تأثير رذاذ الضراط بالغ الأهمية، P < .000 . كان هنالك أيضاً شرطاً تجريبياً ثالثاً، حيث تمّ تفعيل رشة واحدة من الضراط، لكنّ هذا الشرط لم يختلف عن شرط نوعين من الرذاذ.

[2] Eskine, Kacinic, and Prinz 2011. انظر أيضاً Liljenquist, Zhong, and Galinsky 2010 حول كيف تقوم الروائح الطيبة بتعزيزالسلوك الحسن.

[3] Clore, Schwarz, and Conway 1994. عندما تمّت توعية الناس أنَّ عاملاً خارجياً ما قد سبب مشاعرهم غير السارة، يتضاءل التأثير عادةً أو يتلاشى. وردود أفعالنا العاطفية هم عادةً مرشدون جيّدون إلى ما إذا كنا نحب شيئاً ما أم لا، ولكن عندما يقوم خبراء علم النفس "بالاحتيال" على المشاركين بإطلاق مشاعر دخيلة، ويرتكب مرشد "العاطفة بمثابة معلومات" الأخطاء.



بشأن أمرٍ ما، نقوم بالنظر نحو الداخل، ننظر كيف نشعر. إن كنتُ حسنَ الشعور، يتوجّب عليّ أن أحبّه، وإذا ما كنت أشعر بأيّ شيءٍ غير سار، فذلك يعني أنني لا أحبّه.

لستَ بحاجةٍ حتى إلى تحريض مشاعر القرف للوصول إلى هذه التأثيرات، ببساطة: غسلُ يديك سيَفي بالغرض. ولقد أظهر تشينيو جونج في جامعة تورنتو أنّ المشاركين في التجربة - الذين طُلِبَ منهم غسلُ أيديهم بالصابون قبل ملء الإستبيانات- أصبحوا أكثر تزمتاً بشأن قضايا تتعلّق بالطهر الأخلاقي (من قبيل مواد الإباحية الجنسية واستخدام المخدرات).[1] ولأنك نظيفٌ فحسب، فأنت تريد أنْ تبقي الأشياء القذرة بعيدةً عنك.

لقد أظهر جون العملية المقلوبة: انعدام الأخلاق يجعل الناس يرغبون بأنْ يصبحوا نظيفين. يجدُ الأشخاص الذين يُطلَب إليهم استعادة تجاوزاتٍ أخلاقية خاصة بهم، أو النسخ باليد فقط قصة انتهاك أخلاقي تخصُّ شخصاً آخر، أنفسَهم يفكّرون بالنظافة على نحوٍ أكثر تواتراً، ويريدون على نحوٍ أقوى أن يطهّروا أنفسهم.[2] فهم يختارون مماسح ومنتجات تنظيفٍ أخرى عندما يُمنَحون فرصة أخذ سلعٍ استهلاكية معهم إلى المنزل بعد التجربة. يدعو جونج هذا تأثير ماكبث، نسبةً إلى هوس السيدة ماكبث بالماء والنظافة بعد أنْ حرّضت زوجها كي يَقتُلَ الملك دنكان (فهي تمضي من "قليل من الماء يطهّرنا من هذه الفعلة" إلى "أخرجي، أيتها البقعة اللعينة! أقول اخرجي!")

بمعنى آخر، هناك شارع مؤلف من مسربين بين أجسادنا وعقولنا الصوابية. يجعلنا انعدام الأخلاق نشعر بالقذارة الجسدية، وتطهير أنفسنا يمكن أنْ يجعلَنا في بعض الأحيان أكثر اهتماماً بإرشاد نقائنا الأخلاقي. في واحدٍ من أغرب البراهين على هذا التأثير، طلبَ كلٌّ من إريك هيلز ودايفيد بيزار من الطلبة في

(1) Zhong, Strejcek, and Sivanathan 2010

(2) Zhong and Lihenquist 2006



جامعة كورنيل ملء استمارات استطلاع لمواقفهم السياسية أثناء وقوفهم قرب (أو بعيداً عن) جهاز تزويد معقّم اليدين. وقد أصبح أولئك الذين طُلِبَ منهم الوقوف قرب المعقّم مؤقتاً أكثر محافظةً.[1]

إنَّ الحكم الأخلاقي ليس قضيّةً ذهنية محضة نقوم فيها بقياس همومنا بشأن الأذية، والحقوق، والعدل. بل هي نوع من العملية الأوتوماتيكية السريعة أقرب إلى الأحكام التي تقوم بها الحيوانات أثناء حركتها في الدنيا، حين تشعر بنفسها منقادةً نحو أشياء عديدة أو بعيدة عنها. يتمّ إصدارالحكم الأخلاقي من قِبَل الفيل.

4. السيكوباتيون يفكرون ولكنّهم لا يشعرون

واحدٌ من أصل مائة رجل (وقلّةٌ ملحوظة من النساء) هم سيكوباتيون. معظمهم عنيفون، لكنَّ الأشخاص الذين يرتكبون تقريباً أكثر من نصف الجرائم الأفظع، والقتل التسلسلي، والاغتصاب التسلسلي ، وقتل عناصر الشرطة.[2] يعرّف روبرت هير، وهو باحث رائد، السيكوباتيا بواسطة مجموعتين من السمات. فهناك الأمر غير الاعتيادي الذي يقدم السيكوباتيون عليه - سلوك متهوّر معادٍ للمجتمع، يبدأ في الطفولة - وهناك المشاعر الأخلاقية التي يفتقد السيكوباتيون إليها. فهم لا يشعرون بالعاطفة الجياشة والذنب، والعيب، وحتى الإحراج، وهي أمورٌ تجعل من السهل عليهم الكذب، وأذية العائلة، والأصدقاء، والحيوانات.

---

(1) Hezler and Pizarro 2011 لقد سعت أول دراسةٍ في هذه الورقة، وهي استخدام معقّم اليدين، فحسب حالات توصيف الذات الإجمالية لدى المشاركين، ووجدت أنّ المشاركين يدعون أنفسهم أكثر محافظةً لدى الوقوف قرب المعقّم. في الدراسة الثانية قام المؤلفون بنسخ [محاكاة] الأثر وأظهروا أنّ الأشياء التي تذكر بالطهارة والغسيل جعلت الناس أكثر ميلاً لإطلاق الأحكام على نحوٍ أساسي حول قضايا تتعلّق بالعفّة الجنسية.

(2) Hare 1993



يتمتّع السيكوباتيون ببعض المشاعر. عندما سأل هير أحد الرجال إن كان قد شعر يوماً أن قلبه يدق أو معدته تضطرب: "بالطبع لستُ رجلاً آلياً. في حقيقة الأمر أشتعلُ إثارةً عندما أمارس الجنس أو أنخرط في عراك."[1] لكنّ السيكوباتيين لا يظهرون مشاعرهم التي تشير إلى أنهم يهتمون بالآخرين. يبدو أنّ السيكوباتيين أنهم يعيشون في عالمٍ من الأشياء المدركة بالحواس، يتصادف أنّ بعضاً منها يسير في أرجاء المكان على قدمين. قال أحد السيكوباتيين لهير بشأن جريمة قتلٍ اقترفها أثناء السطو على منزل أحد الرجال المسنين:

> كنتُ أبحث في أرجاء المكان عندما نزل هذا المسن الغريب الأطوار الدرج و... أيوَه ... بدأ الصراخ وانخرط في نوبةٍ لعينة... فقمتُ بضربه على، أيوَه، الرأس وما زال لا يغلق فمه. فعالجته بطعنةٍ في الحلق وهو ... كأنه.. ترنّح نحو الخلف وهو على الأرض. كان يغرغر ويُخرجُ أصواتاً مثل خنزير مطعون! [يضحك] وهو حقاً يرهق أعصابي وهكذا أنا ... أيوَه ..ركلتُه ببوطي عدة مراتٍ على رأسه. وهذا ما أسكتَهُ ... أنا متعب جداً عند هذا الحد فالتقطتُ عدة عبواتٍ من البيرة من الثلاجة وشغّلتُ جهازَ التلفزة ثمَّ خلدتُ إلى النوم. فأوقظني رجال الشرطة [يضحك].[2]

إنَّ القدرة على التفكير المقترن بالافتقار إلى المشاعر الأخلاقية أمرٌ خطير. يتعلَّم السيكوباتيون أن يقولوا أيّ شيءٍ يمنحهم ما يريدون. كان القاتل المتسلسل تيد بوندي، على سبيل المثال، يدرس اختصاص علم النفس في الكلية، إذ تطوّع لخدمة الخط الساخن الخاص بالأزمات. في تلك المكالمات الهاتفية تعلَّم كيف يتحدث مع النساء ويكسب ثقتهنَّ. فاغتصبَ، وقتلَ، ومثَّل بجثث ثلاثين امرأة شابة قبلَ أنْ يُلقى القبض عليه في عام 1978.

(1) Ibid., p. 54

(2) Ibid., p. 91



لا يبدو أنّ السيكوباتيا ناجمة عن إهمال في الأمومة أو عن شدّاتٍ مبكّرة، أو لديها أيّ تفسيرآخر قائم على الدراسة المترويّة. إنها وضعٌ موروثٌ جينياً[1] يخلقُ أدمغةً لا تتحرك بفعل حاجات، أو معاناة أو كرامة الآخرين.[2] فالفيل لا يستجيب بأقلّ ميلٍ حيال أكثر أنواع الظلم جسامةً. أما الراكب فهو عاديٌّ تماماً ـ إذ يقوم بتفكير استراتيجي على أكمل وجه. لكنّ عمل الراكب هو خدمة الفيل، وليس أداء مهمة البوصلة الأخلاقية.

5. الأطفال الصغار يشعرون لكنّهم لا يفكّرون

دأبَ علماء النفس على افتراض أنّ عقول الأطفال القاصرين كانت ألواحاً بيضاء. إنّ العالم الذي يدخله الأطفال الوليدون قوامه "فوضى واحدة باهرة الإضاءة والطنين،" حسب تعبير وليام جيمس،[3] وهم يمضون السنوات الخمس التالية يحاولون استخلاص معنىً من الأمر برمّته. ولكنْ عندما طوّر علماء النفس طرقاً لرصد داخل عقول الأطفال الوليدين، وجدوا كمّاً كبيراً من الكتابة موجوداً من قبلُ على ذلك اللوح.

كانت الحيلة تتلخّص في ما الذي يثير دهشة الأطفال الصغار. فالمواليد إلى عمرِ شهرين كانوا ينظرون فترةً أطول إلى حدث يثير دهشتهم أكثر مما ينظرون

---

(1) Beaver et al. 2011; Blonigen et al. 2005; Viding et al. 2005

(2) تثبّت دراسات مسح الأدمغة أنّ كثيراً من المساحات الشعورية، بما فيها اللوزة amygdale والقشرة الوسطى الأمام جبهية vmPFC ، هي أقلّ استجابةً بكثير لدى السيكوباتيين مما هي لدى الناس العاديين؛ أنظر Blair 2007; Kiehl 2006 . إذا ما ربطتهم مع مقياس المواصلة الجلدي، كما هو الحال في تجربة جهاز كشف الكذب، يظهر السيكوباتيون استجابةً عادية لصورة سمك القرش ذي الفكّين المفتوحين. لكنْ إذا ما عرضتَ عليهم صور جثثٍ ممثلٍ بها لأطفال متألمين، فلا يتحرك المؤشر (Blair 1999). فيما يخص أفضل لوحاتٍ سريرية للسيكوباتيين وعدم اكتراثهم بالآخرين، بمن فيهم آبائهم وأمهاتهم، أنظر Checkley 1955

(3) James 1950/1890, I:488



إلى حدثٍ كانوا يتوقعونه. وإذا ما كان كلّ شئ فوضى من الطنين، فإنّ كلّ شئ يجب أن يكون مدهشاً بالقدر ذاته. ولكنْ إذا كان عقل الطفل الوليد مجهّزاً مسبقاً لتفسير الأحداث ، من ثمَّ يستطيع الأطفال الوليدون عندئذٍ أن يتعرّضوا للدهشة عندما ينسفُ العالم توقعاتهم.

باستخدام هذه الحيلة، اكتشف علماء النفس أنّ الأطفال حديثي الولادة مولودون بمعرفة ما حول الفيزياء والميكانيك: فهم يتوقعون أنّ الأجسام تتحرّك حسب قوانين نيوتن المتعلّقة بالحركة، وهم يجفلون عندما يريهم علماء النفس مشاهدَ لا بدَّ أنْ تكون مستحيلة فيزيائياً (من قبل سيارة دمية تبدو أنّها تمرّ من خلال جسمٍ صلب). ويعرف علماء النفس ذلك لأنَّ الأطفال الوليدين يحدقون في المشاهد المستحيلة مدةً أطول من التي يمضونها في التحديق إلى المشاهد المألوفة والأقل سحراً (مشاهدة السيارة اللعبة تمر تماماً خلف الجسم الصلب).[1] يبدو أنّ لدى الأطفال الرّضّع شيء من المقدرة الفطرية على معالجة الأحداث في عالمهم المادي - عالم الأجسام.

لكنْ عندما قام علماء النفس بتعميق الحفر، وجدوا أن حديثي الولادة يأتون مزوَّدين بقدراتٍ فطرية على فهم عالمهم الاجتماعي كذلك الأمر. فهم يفهمون أشياءً مثل الأذية والمساعدة.[2] لقد قام أخصّائيو في جامعة يال كيلي هاملين، وكارين واين، وبول بلوم بتنفيذ عرض لمسرح العرائس أمام أطفال بعمر ستة - إلى - عشرة أشهر يكافح فيه "متسلّق" (شكلٌ خشبيٌّ أُلصقَتْ فوقَه عينان) في الصعود إلى إعلى التلة. في بعض الأوقات كانت دمية ثانية تأتي وتساعد المتسلّق من الأسفل. وفي أوقات أخرى، ظهرت دميةٌ مختلفةٌ من أعلى التلة وعلى نحوٍ متكرر ضربت المتسلّق بعنفٍ نحو أسفل المنحدر.

---

[1] Baillargeon 1987

[2] أول عملٍ يبرهن أن الأطفال لديهم قدرات فطرية لفهم العالم الاجتماعي، بما فيها القدرات على استنتاج المقاصد والرد على الأذى، تم إنجازها من قبَل دايفيد وآن بريماك: أنظر Premack and Premack 1994 من أجل مراجعة تلخيص أصول الإدراك الأخلاقي.



بعد دقائق قليلة، شاهد الأطفال الرّضّع عرضاً جديداً لمسرح العرائس. وفي هذه المرة نظر المتسلّق إلى الوراء والأمام بين دمية المساعد ودمية المعيق، ثمّ اختار الالتصاق بالمعيق. بالنسبة إلى الأطفال الرّضّع، كان ذاك المكافئ الاجتماعي لمشاهدة السيارة تعبر من داخل الصندوق الصلب؛ فهي لمْ تعنِ شيئاً، ونظر الرّضّع فترةً أطول مما فعلوا عندما قرر المتسلّق الالتصاق بالمساعد.[1]

في نهاية التجربة تمّ وضع دميَتي المساعد والمعيق على صينيةٍ أمام الأطفال الرّضّع. وكان المرجّح إلى حدٍّ بعيد سعي الأطفال الرّضّع إلى الوصول إلى المساعد. لو لمْ يكنْ الأطفال يَعربون عالَمَهم الاجتماعي، لما كانوا قد اهتموا بأية دمية يلتقطون. فاستنتج الباحثون أنّ "القدرة على تقييم الأفراد بناءً على تفاعلاتهم الاجتماعية هي كونية وغير مكتسبة بواسطة التعلّم."[2]

يبدو أمراً ذا مغزى أنّ الأطفال الرّضّع بإمكانهم أن يتعلّموا بسهولة من هو محببٌ لديهم. والجراء تستطيع فعلَ ذلك أيضاً. لكنّ تقترح هذه النتائج أنّ الرّضّع، بحلول الشهر السادس، يقومون بمراقبة كيفية تصرّف الأشخاص حيال الأشخاص الآخرين، وهم يطوّرون تفضيلاً نحو أولئك اللطفاء أكثر من أولئك الشحيحين. بمعنىً آخر، يشرع الفيل بفعلِ شيءٍ ما يشبه الأحكام الأخلاقية أثناء فترة الطفولة المبكّرة، قبلَ أنْ تصلَ اللغة والتفكير بوقتٍ طويل.

بالنظر إلى المكتشفات [المستقاة] من الأطفال الرّضّع والسيكوباتيين في آنٍ معاً، من الواضح أنّ حالات الحدس الأخلاقي تبرزُ في مرحلةٍ مبكّرةٍ جداً وهي

---

[1] Hamlin, Wynn, and Bloom 2007. تم إيجاد أنّ اختلاف مدة النظر كان فقط بالنسبة لأطفال عمرهم عشرة أشهر، وليس لدى أطفال عمرهم ستة أشهر. لكنّ الاختلاف في متناول اليد وُجِدَ لدى كلا الفئتين. لم تكن الدمى دمىً تقليدية؛ كانت عبارة عن أشكال وألوان مختلفة من الكتل. بإمكانك متابعة عروض الدمى من روابط على www.yale.edu/infantlab/In_the_Media1.html. تمّ تطوير هذه التقنية في قياس العزوات لدى الأطفال الرضّع للمرة الأولى Kuhlmeier, Wynn, and Bloom 2003

[2] Hamlin, Wynn, and Bloom 2007, p. 559



ضرورية للتطور الأخلاقي.[1] كما تبرز القدرة على التفكير في وقتٍ بعيدٍ لاحقاً، وعندما لا يكون التفكير مصاحباً للحدس الأخلاقي، تغدو النتيجة شنيعة.

6. ردود الفعل العاطفية هي في المكان والزمان الصحيحين من الدماغ

تُظْهِرُ دراسات داماسيو على مرضى التلف الدماغي أنّ المساحات الشعورية من الدماغ هي الأمكنة الصحيحة التي يتم البحث فيها عن اسس الأخلاق، لأنّ فقدانها يتدخّل في الجدارة الأخلاقية وستكون الحالة أقوى إذا ما كانت هذه المناطق نشطةً في الأوقات الصحيحة. هل تصبح أنشط قبل أن يقوم شخصٌ ما بإجراء حكمٍ أخلاقي أو قرار في نهاية الأمر؟

في عام 1999، شارك جوشوا جرين، الذي كان آنذاك طالب دراساتٍ دنيا في الفلسفة في جامعة برنستون، في فريق عمل مع خبير علم الأعصاب الميّزجوناثان كوهين لتبيُّن ماذا يحدث فعليّاً في الدماغ لدى قيام الناس بأحكامهم الأخلاقية. لقد درس معضلاتٍ أخلاقية يبدو فيها مبدآن أخلاقيان رئيسان يتضاربان. على سبيل المثال، من المحتمل أنّك قد سمعت "بمعضلة عربة السوبرماركت"[2] الشهيرة، حيث الطريقة الوحيدة التي تستطيع بموجبها إيقاف عربة الترولّلي المنفلتة عن قتل خمسة أشخاصٍ تتجلّى بدفع شخصٍ واحدٍ من على الجسر نحو الدرب الموجود في الأسفل.

لقد اختلف الفلاسفةُ طويلاً حول إنْ كانَ من المقبول أذيّة شخص في سبيل مساعدة أو إنقاذ عدة أشخاص. إنّ مذهب المنفعة هو المدرسة الفلسفية التي تقول إنّ عليك دائماً السعي لإنجاز أعظم إجمالي جيّدٍ، حتى لو تعرّضَ أناسٌ قلائلٌ للأذية في الطريق. وهكذا إنْ لم يكنْ من سبيلٍ آخر فعلياً لإنقاذ حياة الأشخاص الخمسة أولئك، تقدّمْ وقمْ بدفعِ الشخص. ويعتقد فلاسفةٌ آخرون أنّ

[1] للاطّلاع على كتاباتٍ مبكّرة حول هذه الفكرة، أنظر Hoffman 1982; Kagan 1984

[2] تمّت مناقشة معضلة الترولّلي للمرة الأولى من قِبَل الفلاسفة فيليبا فوت وجوديث جارفث تومبسون.



على عاتقنا واجباتٌ احترام حقوق الأفراد، ويجب علينا ألاّ نؤذي الناس في مسعانا نحو أهدافٍ أخرى، ولو كانت هذه الأهداف الأخلاقية مثل إنقاذ حياة الأشخاص. تُعرَفُ وجهة النظر هذه بعلم الواجبات الأخلاقية من الجذر الإغريقي الذي يعطي كلمتنا واجب (duty). يتحدّث علماء الواجبات الأخلاقية عن مبادئ سامية أخلاقية مستقاة ومبررة بواسطة التفكير المنطقي، وما كانوا ليوافقوا أنّ هذه المبادئ مبررات عقلانية تالية للمشاعر العميقة. لكنْ كان لدى غرين حسٌ باطنيٌ بأنّ المشاعر العميقة كانت ما يدفع في الغالب الناس على القيام بأحكام الواجبات الأخلاقية، بينما الأخلاق النفعية كانت أكثر برودةً وقائمة على الحساب.

من أجل اختيار حسّه الباطني كتبَ جرين عشرين قصةً انطوتْ، مثل قصة عربة التروللي، على اذيّةٍ شخصيّةٍ مباشرة، تمّ القيام بها عادة لسبب وجيه. على سبيل المثال، هل يتوجب عليك رمي شخصٍ مصابٍ خارج زورق النجاة للحفاظ على الزورق من الغرق ومن إغراق المسافرين الآخرين؟ كانت كلّ هذه القصص مكتوبةً لإحداث ومضةٍ قوية سلبية عاطفية.

كتب جرين ايضاً عشرين قصة منطوية على أذيّةٍ غير شخصية، مثل نسخة معضلة عربة التبضّع التي تقوم فيها بإنقاذ خمسة اشخاصٍ برمي مفتاح يحرف عربة التبضّع إلى دربٍ جانبي، حيث ستقتل شخصاً واحداً فحسب. إنّه المقايضة الموضوعية ذاتها لحياة مقابل خمسة، وهنا يقول بعض الفلاسفة إنّ الحالتين متكافئتان أخلاقياً، لكنْ من منظورٍ حدسي، هنالك عالم كامل من الاختلاف.[1] وبدون ومضة الهلع الأساسية (الدفعة بواسطة اليد المجردة)،

[1] يلاحظ بعض الفلاسفة الفرق بأنه في قصة الجسر تقومُ [أنتَ] باستخدام الضحية كأداةٍ من أجل غاية، بينما في قصة المفتاح الرئيسي الضحية ليست أداةً من أجل غاية؛ فموته ليس سوى عارضاً جانبياً من سوء الطالع. قام جرين وآخرون، بناءً على ذلك، باختبار نسخ بديلة، مثل الحالة حيث ينقذ المفتاح الرئيسي الأرواح فحسب لأنه يحرف العربة إلى العقدة حيث يقف رجلٌ واحد. في تلك الحالة الضحية مازال يتم استخدامها أداةً لغاية؛ وإذا ما
==



للمشارك الحرية في اختبار الخيارين كليهما وينتقي الخيارالذي يُنقِذُ أكبر عدد من الأرواح.

أحضر جرين ثمانية عشرمشاركاً في التجربة إلى ماسحة fMRI وقدّم لكلّ واحد قصة على الشاشة، واحداً في كلّ مرة. وكان على كل شخصٍ ضغطُ أحدَ زرّين للإشارة فيما إذا كان من المناسب للشخص أم لا اتخاذ منحى عملٍ موصوف - على سبيل المثال، دفعُ الرجل ورمي المفتاح الرئيس.

كانت النتائج جليّةً وقسريّة. عندما قرأ الناس قصصاً تنطوي على الأذى الشخصي، أظهروا نشاطاً أكبر في مناطق متعددة من الدماغ متعلّقة بالمعالجة الشعورية. وعبرَ قصصٍ كثيرة، توقّعتْ القوة النسبية لردود الأفعال الشعورية الحكم الأخلاقي المعتدل.

نشر جرين هذه الدراسة الشهيرة حالياً في عام 2001 في دورية ((العلم)) *Science*.[1] منذ ذلك الحين قامت مختبراتٌ كثيرةٌ أخرى بوضع الناس أمام ماسحات fMPRI وطلبتْ منهم النظر إلى الصور الفوتوجرافية حول الانتهاكات الأخلاقية، وتقديم التبرّعات الخيريّة، وتحديد عقوبات للجرائم، أو خوض مباريات مع غشّاشين ومتعاونين.[2] وباستثناءاتٍ قليلةٍ جداً، أخبرتِ النتائج قصةً متماسكة: تتفعّل مناطق الدماغ المنخرطة في المعالجة الشعورية على الفور تقريباً،

كانت الضحية لتخرج عن المسار، ستواصل العربة الحركة من خلال العقدة، رجوعاً إلى المسار الرئيسي، وسوف تقتل الأشخاص الخمسة. في هذه الحالات، يميل المشاركون لتقديم استجابات مابين نسختي المفتاح الأصلي وبرج السابلة.

(1) Greene et al. 2001 أفادت هذه الدراسة أيضاً أن المشاركين الذين لم يتبنّوا الخيار النفعي استغرقوا وقتاً أطول في تقديم إجاباتهم، وكأنّ التفكير كان يناضل للتفوّق على الشعور، على الرغم من أنّ هذا الاكتشاف أُظهِرَعلى أنه نتاج صنعي للقصص المحددة المختارة، لا مبدأ عاماً ((McGuire et al. 2009). لكن أنظر فيما يتعلّق بالاستجابات Greene 2009b .

(2) Rilling et al. 2008; Sanfey et al. 2003



وتترابط الفعالية العالية في هذه المناطق بعلاقةٍ تبادليةٍ مع أنواعٍ من الأحكام الأخلاقية أو القرارات التي يتخذها الناس في خاتمة المطاف.[1]

في مقالةٍ بعنوان "نكتة روح كانتْ السريّة"، لخّص جرين ما كان هو وآخرون قد أسسوه.[2] لمْ يعرفْ ما كان ي. و. ويلسون قد قاله عن الفلاسفة مستثيراً "مراكز الشعور" لديهم عندما كتبَ هذه المقابلة، لكنّ نتيجته كانت نتيجةَ ويلسون بذاتها:

> لدينا مشاعرٌ قوية تقول لنا بمصطلحات واضحة وأكيدة إنّ بعض الأشياء ببساطةٍ لا يمكن القيام بها وإنّ أشياء أخرى ببساطة يتوجّب القيام بها. لكنْ من غير الواضح كيف ندرك المراد من هذه المشاعر؛ وهكذا فنحن؛ بمساعدة بعض الفلاسفة ولا سيما المبدعين، ننشيء قصّةً جذابة من الناحية العقلانية [عن الحقوق].

إنَّ هذا مثال مذهل عن تلاقي أدلة المصادر المتباينة. تنبّأ ويلسون في عام 1975بأنّ الأخلاق في أمرٍ قريبٍ "ستخضع لعلم الأحياء" ويُعادُ تأسيسها على أنّها تفسيرٌ لفعالية "مراكز الشعور" في الدماغ. وعندما طرح تلكَ النبوءة كان يسير ضدَّ وجهات الآراء السائدة في زمنه. قال خبراء علم النفس مثل كولبيرج إنّ الفعلَ في الأخلاق كان في التفكير، لا الشعور. وكان المناخ السياسي قاسياً على أشخاصٍ مثلَ ويلسون الذي تجرّأ على اقتراح أنَّ التفكير الارتقائي كان طريقةً فعّالةً لاختبار السلوك الإنساني.

---

[1] من أجل مراجعات أنظر Greene 2009b and Greene forthcoming . المناطق الأكثر وروداً في التقرير بشكلٍ متكرر تتضمّن اللوزة والجزيرة [الدماغية] والقشرة الوسطى الأمام جبهية. من قبيل الاستثناء، أنظر Knoch, Pascual-Leone, Meyer, Treyer, and Fehr 2006 .

[2] Greene 2008 ص 63. سألتُ جرين إنْ كان قد علمَ عن مقبوس ويلسون من p. 563 *Sociology* وقال لا.



رغم ذلك في الأعوام الثلاثين الفاصلة بين مقبوسات كلّ من ويلسون وجرين، تغيّر كلُّ شيء. وبدأ علماء في كثيرٍ من الميادين يدركون قوّة وذكاء العمليات الآلية ومنها الشعور.[1] بات علم النفس التطوّري يحظى بالاحترام، ليس في جميع الأقسام الأكاديمية ولكن على الأقل في أوساط الباحثين من ذوي الاختصاصات المتداخلة الذين يقومون حالياً بدراسة الأخلاق.[2] في السنوات القليلة المنصرمة، وصلت "التوليفة " الجديدة التي تنبّأ بها ويلسون قديماً في عام 1975.

الفيلة منفتحة في بعض الأحيان على التفكير

لقد بيّنتُ أن النموذج الهيومي [نسبةً إلى هيوم] (التفكير هو الخادم) يناسب الحقائق أكثر من النموذج الأفلاطوني (التفكيريمكن ويجب أن يحكم) أو النموذج الجيفرسوني (الرأس والقلب أمبراطوران بالشراكة). لكن عندما قال هيوم إنّ التفكير هو "عبد" العواطف، أظنّ أنّه قد ذهب بعيداً جداً.

لا يُفتَرَضُ بالعبد أن يسألَ سيّدَه، لكنّ معظمنا يستطيع التفكيرعندما سالنا وراجعنا حُكمَنا الحدسي الأول. تقوم صورة الراكب ـ و ـ الفيل بعملٍ جيّدٍ هنا. تطوّر الراكب لخدمة الفيل، لكنّها شراكةٌ مبجّلة، أشبه بمحامٍ يخدم زبوناً أكثر منه عبداً يخدم السيد. يفعلُ المحامون الجيّدون ما بوسعهم لخدمة زبائنهم، لكنّهم في بعض الحيان يرفضون الانسياق مع الطلبات. ربما يكون الطلب مستحيلاً (مثل إيجاد سبب لإدانة دان، رئيس مجلس الطلبة ـ على الأقل بالنسبة إلى معظم الأشخاص في تجربة التنويم المغناطيسي الخاصة بي) ربما الطلب مدمر للذات (مثل عندما يريد الفيل ثلث قطعة من الكاتو، ويرفض الراكب الانسياق وإيجاد العذر). إنّ الفيل أقوى بكثيرٍ من الراكب، لكنّه ليس دكتاتوراً قطعاً.

---

[1] أنظر مراجعتي لهذه الأعمال في Haidt and Kesebir 2010

[2] أنظر Sinnott-Armstrong 2008 للاطّلاع على مجموعة ثلاثة مجلّدات من الأوراق بقلم هذه الجماعة متداخلة الاختصاصات.



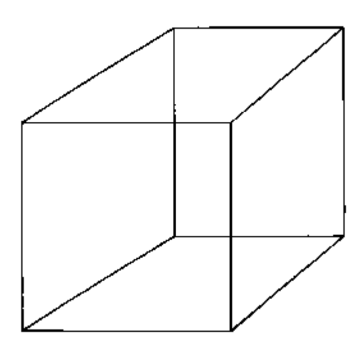
متى يصغي الفيل إلى التفكير؟ إنّ الطريقة الوحيدة التي نغيّر بها آراءنا بشأن قضايا أخلاقية هي عن طريق التفاعل مع الناس الآخرين. نحن مرعبون في السعي إلى البرهان الذي يتحدى معتقداتنا الخاصة، لكنّ الناس الآخرين يُسدون لنا هذا المعروف، تماماً كما نحن جيّدون إلى حد بعيد في إيجاد الأخطاء في معتقدات الناس الآخرين. وعندما تكون النقاشات عدائية، تكون حظوظ التغيير ضئيلة. يميل الفيل إلى الابتعاد عن الخصم، ويعمل الراكب باهتياجٍ شديدٍ ليردَّ بالحجة على اتهامات الخصم.

لكنْ إذا توفّر كلٌّ من العاطفة، أو الإعجاب، أو الرغبة بإسعاد الشخص الآخر، يميلُ الفيلُ [نفسياً] نحو الشخص الآخرويحاول الراكب العثور على الحقيقة في حجج الشخص الآخر. وفي الغالب قد لا يغيّر الفيل اتجاهه في الاستجابة للاعتراضات من راكبه الخاص، وإنما يتمّ توجيهه بواسطة حضور الفيلَةِ الصديقة المحض (هذا هو رابط الإقناع في النموذج الحدسي الاجتماعي) أو بواسطة الحجج المقدمة لها من قبل راكبيّ أولئك الفيلة الأصدقاء (ذاك رابط الإقناع المعقلن).

هناك أوقات نغيّر فيها آراءنا بأنفسنا، دونما مساعدة الآخرين. ولدينا أحياناً حالاتٌ حدسية متضاربة بشأن شيءٍ ما، مثلما يفعل الناس حيال الإجهاض والقضايا الأخرى المثيرة للجدل. بالاعتماد على أيّ ضحيّة، أو أيّة حجة، أو أي صديق تفكّر فيه في لحظةٍ محددة، قد يتحرّك حكماً متأرجحاً إلى الأمام أو الخلف كأنك تنظر إلى مكعّب نيكر (الشكل 103).

وأخيراً، من الممكن للناس ببساطة ترشيد طريقتهم وصولاً إلى نتيجةٍ أخلاقيةٍ تناقض حكمَهم الحدسي الأساسي، بالرغم من أنني أعتقد أنّ هذه العملية نادرة. أعرفُ دراسةٍ واحدة فحسب أثبتت فرض نقض [الحكم الحدسي] تجريبياً، ونتائجها معبّرة.





الشكل 103. مكعب نيكر، يستطيع نظامُكَ البصري قراءته بطريقتين متناقضتين، على الرغم من أنّ ذلك ليس في الوقت ذاته. على نحوٍ مشابه، يمكن قراءة بعض المعضلات الأخلاقية بواسطة عقلك القويم.

طلبَ جو باكستون وجوش جرين من طلبة جامعة هارفارد الحكم على قصة جولي ومارك التي أخبرتكم بها في الفصل 2.[1] لقد قاما بتزويد المشاركين بحجّةٍ سيئة حقاً لتبرير السّفاح برضى الطرفين التام ("إذا مارس جولي ومارك الحب، إذن هنالك حبٌ أكثر في العالم"). وقدما للنصف الآخر حجّةً داعمة أقوى (وهي) كيف أنّ كره السّفاح ناجم في الحقيقة عن عملية تأقلم تطوّري موغلة في القدم لتجنّب حالات الخلل الولادي في عالمٍ خالٍ من موانع الحمل، لكنْ لأنّ جولي ومارك يستخدمان مانعاً للحمل، فذاك القلق ليس في محلّه). ستظنّ أنّ طلبة جامعة هارفارد سيكونون مقتنعين بالسبب الجيّد أكثر من السبب السيء، لكنّ الأمر لمْ يحدث أيّ تغيير. مال الفيل فور سماع المشاركين للقصة. فوجد الراكب بعدئذٍ طريقةً لرد الحجة (جيدة أو سيئة)، وأدان المشاركون القصة على قدم المساواة في الحالتين كلتيهما.

لكنّ باكستون وجرين أضافا انعطافاً غير متوقع إلى التجربة: لمْ يُسمحْ لبعض المشاركين بالاستجابة على الفور. لقد أجبرهم الحاسوب على الانتظار لمدة دقيقتين قبل أن يستطيعوا إعلانَ حكمهم بشأن جولي ومارك. بالنسبة إلى أولئك

(1) Paxton, ungar, and Greene, forthcoming



المشاركين مال الفيل، لكنّ الومضات العاطفية لا تستغرق دقيقتين. بينما كان المشارك جالساً هناك يُحدّقُ إلى الشاشة، تلاشى الميْل وكان لدى الراكب الوقت والحرية للتفكير في الحجة الداعمة. فالأشخاص الذين تمّ إرغامهم على تأمل الحجة الضعيفة انتهى بهم الأمر بالرغم من ذلك إلى إدانة جولي ومارك ـ بدرجةٍ أقل من الأشخاص الذين وصلوا مباشرةً. لكنّ الأشخاص الذين أُجبروا على تأمل الحجة الجيّدة طوال دقيقتين أصبحوا فعليّاً أكثر تسامحاً نحو قرار جولي ومارك في ممارسة الجنس. لقد سمح التأخير للراكب بالتفكير من تلقاء نفسه واتخاذ قرار بشأن الحكم الذي كان بالنسبة إلى كثيرٍ من المشاركين معاكساً لميل الفيل الأوليّ.

بمعنى آخر، في الظروف الاعتيادية يأخذ الراكب إلماحَه من الفيل، تماماً مثلما يأخذ المحامي تعليماته من العميل. لكن إذا ما أرغمتَ الاثنين على الجلوس في المكان والدردشة لدقائق قليلة جداً، ينفتح الفيل فعلياً على النصيحة من الراكب والحجج من المصادر الخارجية. فتاتي حالات الحدس أولاً، وفي الظروف الاعتيادية تسبّبُ لنا انشغالاً في التفكير الاستراتيجي من الناحية الاجتماعية، لكنْ كانت هنالك طرقٌ لإقامة علاقةٍ أميل إلى ما يشبه شارعاً ثنائي الاتجاه.

باختصار

أوّل مبادئ علم النفس الأخلاقي يتمثّلُ في أنّ حالات الحدس تأتي أولاً، والتفكير الاستراتيجي ثانياً. ومن أجل دعم هذا المبدأ، قمت بمراجعة ست مناطق من البحث التجريبي التي تبرهن الآتي:

- الأدمغة تُقيّم حالاً وباستمرار (حسبما قال وندت وزاجونج)
- تعتمد الأحكام السياسية والاجتماعية اعتماداً كبيراً على ومضاتٍ حدسية سريعة (حسبما أظهر تودوروف والعمل مع IAT).
- تؤثر أوضاعنا الجسدية في بعض الأحيان على أحكامنا الأخلاقية. تستطيع الروائح والنكهات الكريهة أنْ تجعلَ الناس أكثر استعداداً لإطلاق الحكم (مثلما يستطيع أيُّ شيء جعل الناس يفكّرون بالطهارة والنظافة).



- السيكوباتيّون يفكّرون لكن لا يشعرون (وهم على نحوٍ حادٍ ناقصون من الناحية الأخلاقية).
- يشعر الرّضّع لكنّهم لا يفكّرون (ويتمتعون ببدايات الأخلاق).
- تكون ردود الأفعال العاطفية في المكان والزمان المناسبين من الدماغ (حسبما أُظهِرَ من قِبَل داماسيو، وجرين، وموجة من دراسات جرت مؤخراً كثيرة).

إنَّ ضمّ النقاط الست إلى بعضها يمنحنا صورة بالغة الوضوح للراكب والفيل، والأدوار التي يقومان بها في عقولنا الصوابية. إنّ الفيل (العمليات الأوتوماتيكية) موجودٌ في مكان توضّع معظم الفعل في علم النفس الأخلاقي. للتفكيرأهميته، طبعاً، ولا سيما بين الناس، وتحديداً عندما تطلقُ المبررات حالات حدس جديدة. الفِيَلَةُ تحكم، لكنّها ليست طرشاء أو طاغية. ويمكن تشكيل حالات الحدس بواسطة التفكير، ولا سيما عندما يتم تجذيرها في دردشة ودية أو رواية أو فيلمٍ سينمائي، أو تقرير إخباري قسري من الناحية الشعورية.[1]

لكنّ النتيجة الأخيرة تتجلّى في أننا عندما نرى أو نسمع عن الأشياء التي يفعلها الناس الآخرون، يبدأ الفيل بالميل على الفور. ويبدأ الراكب الذي يحاول دائماً ترقُّبَ حركة الفيل الآتية، بالنظر حوله بحثاً عن طريقةٍ لدعم حركةٍ كهذه. فعندما وبّختني زوجتي لترك الصحون القذرة على الطاولة، اعتقدتُ بصدقٍ أنني كنت بريئاً. أطلقتُ تفكيري ليدافع عني وعاد بإحاطةٍ قانونية مؤثرة بظرفِ ثلاثِ ثوانٍ فقط. وهذا فحسب لأنني تصادف أنني – في تلك اللحظة – كنت أكتبُ عن طبيعة الحجة الأخلاقية حيث إنني ضايقتُ نفسي بالتدقيق في

[1] لا بدَّ لي من التنويه أنَّ الناس يتباينون في الدرجة التي يشعرون بها بحالات حدسٍ قوية، وفي قدرتهم على إنشاء الأسباب، وفي انفتاحهم على أسباب الآخرين. أنظر Bartels 2008 للاطّلاع مناقشة هذه الفروقات الفردية.



حجج محاميَّ الخاص ووجدتها فبركات تاريخية قائمة بطريقةٍ واهية فحسب على أحداثٍ واقعية.

لماذا نتمتّع بهذه الهندسة العقلية الغريبة؟ وطالما أنّ الأدمغة البشرية تضاعف حجمها ثلاثة أضعاف على مدى خمسة ملايين سنة الماضية، مطوّرةً اللغة وقدرة على التفكير محسّنة على نحوٍ هائلٍ على التفكير، لمَ نقوم بتطوير محامٍ داخلي، أكثر مما هو قاضٍ داخلي أو عالم؟ أما كان الأمر الأكثر تكيّفاً بالنسبة إلى أسلافنا اكتشاف الحقيقة، الحقيقة الحقة عمّن فعل وماذا ولماذا، مفضّلاً ذلك على استخدام كل قوة الدماغ تلك لإيجاد دليلٍ داعم لما أرادوا الاقتناع به فحسب ؟ يعتمد ذلك على أيِّ أمرٍ تظن أنّه كان أهم بالنسبة إلى بقاء أسلافنا: الحقيقة أوالشهرة.



رابعاً

إمنحني صوتَك (هنا السبب لماذا؟)

افتَرِضْ أنّ الآلهة كانت ستجري قرعة بواسطة قطعةَ نقد معدنية في يوم مولدك. ستكون الطرّة، على نحوٍ أهم شخصاً صادقاً خلواً من العيوب طوال حياته، على الرغم من أنّ كلّ شخصٍ حولك يعتقد أنّك وغد. النقش، سوف تغش وتكذب في أي وقتٍ يناسب حاجاتك، على الرغم من أيّ شخص حولك سيعتقد أنك مثال الفضيلة. أية نتيجة كنت ستفضِّل؟ إنّ كتاب ((الجمهورية)) لأفلاطون ـ وهو أحد أكثر العلماء تأثيراً في الشريعة الغربية ـ وهو مناظرة قوامها أنّ عليك اختيار الطرة، من أجل صالحك الشخصي. خيرٌ لك أن تكون فاضلاً من أن تبدو كذلك.

في بدايات كتاب ((الجمهورية))، يواجه جلاوكون (شقيق أفلاطون) سقراط على برهان أنّ العدل بحدّ ذاته ـ وليس صيتاً للعدالة فحسب ـ يؤدي إلى السعادة. فيطلبُ جلاوكون من سقراط أنْ يتخيّل ما كان سيحدث لرجل لديه محبس أسطوري من الكيجات، وهو محبسٌ ذهبي يجعل من يلبسه غير مرئي على نحوٍ مقصود:

> الآن، ما من أحدٍ، على ما يبدو، سيكون غير قابلٍ للفساد إلى حدّ أنّه سيبقى على صراط العدل أو ينأى عن ملكية الناس الآخرين، عندما كان يستطيع أخذ أيّ شيءٍ كان يريده من السوق متمتعاً بالمناعة، ويذهب إلى بيوت الناس ويمارس الجنس مع أيّةِ امرأةٍ رغِبَها، ويقتل أو يطلق من السجن أيَّ امريءٍ شاء، وأن يقوم بكلّ



الأشياء الأخرى التي ستجعل منه إلهاً بين البشر. فلن تكون أعماله أبداً مختلفةً عن كل تلك العائدة إلى شخصٍ ظالم، وسيتبعُ كلاهما الصراط ذاته.[1]

تنطوي تجربة جلاوكون الفكرية على أنَّ الناس أخلاقيون أفاضل لأنهم يخافون تبعات تعرّضهم للانكشاف ـ ولا سيّما تدمير سمعتهم. يقول جلاوكون أنّه لن يرضى حتى يتمكن سقراط من البرهان على أنّ الشخص العادل صاحب السمعة السيئة أسعد من شخصٍ ظالم يُعتَقَدُ أنّه طيب على نطاقٍ واسع.[2]

إنّه تحدٍ إلى حدٍ بعيد، ويقاربه سقراط بقياس تمثيلي: العدل لدى شخص أشبه بالعدل في المدينة (باليونانية بولِس، أو الدولة المدينة). ثمّ يبرهن أنَّ المدينة العادلة هي مدينةٌ يوجد فيها تناغم، وتعاون، وتقسيم العمل بين كلّ هذه الطبقات الاجتماعية.[3] يقوم المزارعون بالزراعة، والنجارون بالبناء، والحكّام بالحكم. كلٌّ يساهم في الصالح العام، ويقوم الجميع بالندب عندما تصيبُ أيّاً منهم بليةٌ.

لكن في مدينةٍ ظالمة، يكون مكسب فئة خسارة لأخرى [مصائب قوم عند قوم فوائد]، فيقومُ فصيلٌ بالتآمر على فصيل آخر، ويستغلُّ القوي الضعيف، وتكون المدينة منقسمةً على ذاتها. وفي سبيل التأكيد على أنّ البولس [المركز المدني] لا ينحدر إلى فوضى المصلحة الذاتية، يقول سقراط إنَّ الفلاسفة يجب أنْ يحكموا، لأنّهم وحدهم من يتابع ما هو خيّرٌ فعلاً، وليس ما هو خيّرٌ لأنفسهم فحسب.[4]

---

(1) , *Republi*, 360c, trans. G. M. A. Grube and C. D. R. Reeve. In plato 1997

(2) أديمانتوس شقيق جلاوكون هو من يبيّن المواجهة هذه الطريقة، في القسم e-361d360، لكنّه يتوسّع فحسب في برهان جلاوكون. يريد جلاوكون وأديمانتوس أن ينجح سقراط في تفنيد حجّتهما. رغم ذلك، سوف أستخدم جلاوكون في معظم أجزاء هذا الكتاب بصفته الناطق باسم وجهة النظر القائلة أنّ السمعة تؤثر أكثر من الواقع.

(3) *Republic*, 443-45

(4) Ibid., 473ff



بعد أنْ جعلَ مستمعيه يوافقون على هذه الصورة للمدينة العادلة، المتناغمة، السعيدة، يبرهن سقراط أنّ هذه الأنواع من العلاقات تحديداً تحصل عند شخصٍ عادلٍ، ومتناغم، وسعيد. وإذا ما توجّب قيام الفلاسفة بحكم المدينة السعيدة، فإن التفكير يجبُ أنْ يحكُمَ الشخص السعيد. وإذا ما حكم التفكير، فإنّه يهتم بما هو خيرٌ فعلياً، وليس بمظهر الفضيلة فحسب.

كان لدى أفلاطون (وهو أحد تلامذة سقراط) مجموعة مترابطة من المعتقدات التي تخصّ الطبيعة البشرية، وجوهر هذه المعتقدات كان يقينه في كمال التفكير. فالتفكير هو طبيعتنا الأصلية، حسبما كان يعتقد؛ لقد تمَّ منحنا إياه من قِبَل الآلهة وتمَّ زرعه في رؤوسنا الكروية. والعواطف تفسد التفكير، لكنْ إذا ما استطعنا أن نتعلّم التحكم بهذه العواطف، فسوف تتألّق عقلانيّتنا التي منحها الله بجلاءٍ وترشدنا للقيام بالعمل الصالح، وليس العمل الجالب للشعبيّة.

وكما هو الحال في الغالب في الفلسفة الأخلاقية، تعتمد النقاشات عما ينبغي علينا القيام به على افتراضات - غير معلنة غالباً تخصّ الطبيعة أو النفسية البشريتين.[1] وبالنسبة إلى أفلاطون، النفسية المفترضة هي خطأ بحت. وسوف أظهر في هذا الفصل أنّ العقل ليس مؤهلاً للحكم؛ لقد تمَّ تصميمه من أجل السعي إلى العدل، لا الحقيقة. وسوف أُظهر أن جلاوكون كان على حق: الناس

---

[1] على الأقل أدرج أفلاطون افتراضاته حول الطبية البشرية بشكلٍ مطول. وقام كثير من الفلاسفة الأخلاقيين، مثل كانت وراولز، ببساطة بتأكيداتٍ حول كيف تعمل العقول، وماذا يريد البشر، وما يبدو "معقولاً". تبدو هذه التأكيدات أنها قائمة على قليل من الاستبطان حول شخصياتهم الخاصة أكثر من شخصيات الآخرين أو المنظومات القيميّة. على سبيل المثال، عندما تم اختبار بعض تأكيدات راولز (1971) ـ مثل أنّ معظم الناس سبب يهتمّون بتنشئة ذوي الأوضاع السيئة من اهتمامهم بتنشئة ذوي الحال المتوسط إذا ما كان عليهم تصميم مجتمع من خلاف "حجاب الجهل"، بحيث لا يعرفون ما الموقع الذي سيشغلونه في المجتمع ـ وتم الاكتشاف بأنها غير حقيقية (Frohlich, Oppenheimer, and Eavey 1987).



يهتمّون بالمظهر والسمعة أكثر من الواقع بكثير. في حقيقة الأمر، سأشيدُ بجلاوكون في معظم ما تبقى من الكتاب بوصفه الفتى الذي أدرك أهمّ المبادئ لتصميم مجتمعٍ أخلاقي ألا وهو التأكد من أنّ سمعة كلّ شخصٍ حسب المطلوب طوال الوقت، إذ إنّ السلوك السيء سيجر عواقب وخيمة.

لقد حثَّ وليام جيمس، أحد مؤسّسي علم النفس الأمريكي، علماء النفس اتخاذ مقاربةٍ "وظيفية" حيال العقل. وهذا يعني اختبار الأشياء فيما يخصُّ ما تقوم به، ضمن منظومة أكبر. فوظيفة القلب ضخ الدماء ضمن الدورة الدموية، ولا تستطيعُ فهم القلب ما لمْ تضعْ ذلك في حسبانك. وطبّق جيمس المنطقَ نفسَه على علم النفس؛ إذا ما أردتَ فهمَ أيّة آليّة أو عملية ذهنية، عليك أنْ تعرفَ وظيفتها ضمن نظامٍ أكبر. فقال يكون التفكيرمن أجل العمل.[1]

ما هي، إذن، وظيفة التفكير الأخلاقي؟ هل يبدو أنّه تشكّل، وتمّ توليفه، وقولبته (بفعل الاصطفاء الطبيعي) لمساعدتنا على إيجاد اكتشاف الحقيقة، وهكذا نستطيع أن نعرف الطريقة الصحيحة في السلوك وندين أولئك الذين يخطئوون في التصرف؟ إذا ما اعتقدتَ بذلك، أنت عقلانيٌّ إذن، مثل أفلاطون، وسقراط، وكولبرج.[2] أو هل يبدو أنّ التفكير الأخلاقي كان قد تشكل، وتمّ توليفه، وقولبته لمساعدتنا على السعي إلى أهدافٍ استراتيجية من الناحية الاجتماعية، مثل توجيه سمعاتنا وإقناع الناس الآخرين بدعمنا، أو دعم فريقنا، في النزاعات؟ إن كنت تعتقد ذلك، إذن أنت جلاوكوني [نسبة للفيلسوف جلاوكون].

---

[1] كلماته بالضبط: "تفكيري أولاً وأخيراً ودائماً من أجل عملي" (James 1950/ 1980, p. 333) . طبّقت سوزان فيسك (1933) وظيفية جيمس على الإدراك الاجتماعي، مختصرةً قولا فصلاً "التفكير من أجل العمل". للمزيد حول الوظيفية في العلوم الاجتماعية، أنظر Merton 1968 .

[2] ما زال أي عقلاني يستطيع الاعتقاد أن التفكير يتعرّض للإفساد بسهولة، أو أن معظم الناس لا يفكّرون بطريقة مناسبة. لكنّ كلمة ينبغي تفيد يستطيع، والعقلانيون ملتزمون بالاعتقاد أن التفكيريستطيع العمل، ربما (كما هو الحال في حالة أفلاطون) لأنَّ العقلانية التامة هي طبيعة الذات الحقيقية.



نحنُ جميعاً سياسيّون حدسيّون

إذا ما شاهدتَ مئةَ حشرةٍ تعمل معاً نحو هدفٍ مشترك، من المؤكد البرهان أنّهم أقارب. ولكنْ عندما ترى مئةَ شخصٍ يعملون في موقع بناء أو سائرين إلى الحرب، ستُصابُ بالدهشة إذا ما تبيّن أنهم أعضاء في عائلةٍ واحدة كبيرة. وبنو البشر هم أبطال العالم في التعاون بعد القرابة، ونحن نقوم بذلك إلى حدٍ كبيرٍ بخلقِ نُظُماً من المسؤولية الرسمية أو غير الرسمية. فنحن جيّدون في إخضاع الآخرين للحساب لقاء أفعالهم، ونحن حقاً ماهرون في رحلتنا عبرالعالم إذ يحمّلنا الآخرون مسؤولية خاصة بنا.

يعرّف فيل تيدلوك، وهو باحث مميّز في دراسة المساءلة على أنّها "توقعٌ صريحٌ أنّ المرء سيتمُّ استدعاؤه لتبرير قناعاته، ومشاعره، أو أفعاله للآخرين،" بالاقتران مع توقّع أنّ الناس سيقومون بمعاقبتنا أو إثابتنا اعتماداً على كيفية إظهارِ انفسنا بصورةٍ حسنة[1]. عندما لا يكون أيّ شخصٍ خاضعاً لمساءلة أيّ شخص، وعندما ينجو المتهرّبون من الواجب والغشاشون من العقاب، فسوف تتداعى كلّ الأشياء. (ستبرز ـ في فصولٍ لاحقة ـ كيفية إنزال الناس - بحماسةٍ - العقوبةَ بالمتهرّبين من الواجب والغشاشين خلافاً مهماً بين الليبراليين والمحافظين.)

يقترح تيدلوك صورةً مجازيةً لفهم كيفية تصرّف الناس ضمن شبكاتٍ من المساءلة التي تشكّل مجتمعاتٍ إنسانية: نفعل مثل السياسيين الحدسيين الساعين إلى الحفاظ على هوياتٍ جذابة أمام دوائرهم الانتخابية التعددية. ولقد قام عقلانيّون مثل كولبيرج وتوريد بتصوير الأطفال على أنهم علماء صغارٌ يستخدمون المنطق والتجريب لتخمين فهم الحقيقة بأنفسهم. عندما ننظر إلى جهود الأطفال في فهم العالم المادي، تكون صورة العالم المجازية ملائمة؛ يقوم الأطفال فعلياً بصياغة الفرضيات واختبارها، وهم يتلاقون، تدريجياً، عند الحقيقة.[2] لكنْ في العالم الاجتماعي، الأشياء مختلفة، حسب تيدلوك. والعالم

[1] Lerner and Tedlock 2003, p. 434

[2] Gopnik, Meltzoff, and Kuhl 2000



الاجتماعي جلاوكوني [نسبة إلى جلاوكون].[1] والمظهر في حقيقة الأمر أهم من الواقع.

في بحث تيدلوك، يُطلب من المشاركين حلُّ المشكلات واتخاذ القرارات.[2] على سبيل المثال، تُقدم لهم معلومات عن مسألة قانونية ثمّ يُطلَبُ استخلاص التجريم أوالبراءة. ويُطلَبُ من بعض المشاركين شرحُ القرارات لشخصٍ آخر. ويعرف مشاركون آخرون أنهم لن يتعرّضوا للمساءلة من قِبَل شخص ما. ووجد تيتلوك انّ الناس لدى تركهم وشأنهم، يظهرون سلسلة اعتيادية من الأخطاء، والكسل، والاعتماد على المشاعر العميقة التي تمّ توثيقها في بحث اتخاذ القرارات كهذا.[3] ولكنْ عندما يعرفُ الناس سلفاً أنَّ عليهم شرح مكنوناتهم، فإنهم يُفكّرون بطريقةٍ أكثرِ منهجيةً ونقدٍ للذات. وليس من المرجّح أنهم سيقفزون إلى النتائج قبل الأوان بل المرجّح أن يراجعوا قناعاتهم في الرد على الدليل.

قد يكون ذلك خبراً ساراً للعقلانيين ـ ربما نكون قادرين على التفكير بتروٍّ في أيّ وقت نعتقد أنه ذو أهمية؟ ليس تماماً. لقد وجد تيتلوك نوعين من التفكير الحذر. الفكر الاستكشافي هو "بحثٌ غير متحيّزلوجهة نظرٍ بديلة." الفكر

[1] كان بإمكاني استخدام مصطلح ميكيافيللي بدلاً من جلاوكوني في كافة أجزاء الكتاب. لكنَّ كلمة ميكيافيللي بالغة القتامة، بالغة الإيحاء إلى قادةٍ يحتالون لكي يسيطروا عليهم. أظنّ أنّ الحياة الأخلاقية فعلياً حول التعاون والتحالف، أكثر من السلطة والسيطرة. يتم انعدام صدق ونفاق تفكيرنا الأخلاقي من أجل جعل الناس يحبوننا ويتعاونون معنا، وهكذا أفضّل مصطلح جلاوكوني.

[2] أنظر مراجعة Lerner and Tetlock 2003 . يقدم تيتلوك 2003 ثلاث صورٍ مجازية: السياسيون الحدسيون، النواب العامون الحدسيون، واللاهوتيون الحدسيون. أركّز على السياسي الحدسي هنا، أقدم النائب العام الحدسي أدناه، على أنه مرتبطٌ بحاجات رجل السياسة الحدسي. أغطي موضوع اللاهوتي الحدسي عندما أناقش الدين والحاجة لربط الناس مع بعضهم بقناعاتٍ مشتركة حول القداسة، في الفصل 11.

[3] للمراجعات أنظر Ariely 2008; Baron 2007



التوكيدي هو "محاولة أحادية الجانب لعقلنة تبرير وجهة نظر ما."[1] تزيد المساءلة الفكر الاستكشافي عندما تنطبق ثلاثة شروط: (1) يتعلّم صنّاع القرار قبل صياغة أي رأي مفاده أنهم خاضعون للمساءلة أمام الجمهور، (2) وجهة نظر الجمهور معروفة، و(3) يعتقدون أنّ الجمهور واسع الاطّلاع ومهتمٌّ بالدقة.

عندما تنطبق الشروط الثلاثة كلّها، يقوم الناس بأقصى طاقتهم لاكتشاف الحقيقة، لأنّ هذا ما يريد الجمهور سماعه. ولكنْ معظم الوقت ـ وهو تقريباً طوال الوقت ـ تزيد ضغوط المساءلة ببساطة الفكر التوكيدي. فالناس يحاولون أنْ يبدوا على حق أكثر من كونهم على حق. يلخّص تيتلوك الأمر على هذه الشاكلة:

> إن من وظائف التفكير الأساسي التأكد من أنّ المرء يتصرّف بطرقٍ يمكن أن تكون على نحوٍ مقنعٍ مبررةً أو معذورة لدى الآخرين. في الحقيقة، إنَّ عملية التفكير في تبريرية خيارات المرء قد يكون سائداً إلى درجة أنَّ صنّاع القرار لا يبحثون فحسب عن أسبابٍ مقنعة للقيام بخيارٍ ما عندما يتوجب عليهم شرحُ ذاك الخيار للآخرين، بل يبحثون عن أسباب لإقناع أنفسهم بأنهم اتخذوا الخيار"الصائب. "[2]

يستنتج تيتلوك أنّ التفكير الواعي يتمُّ تنفيذه كثيراً بغرض الإقناع، أكثر من الاكتشاف. لكنَّ تيتلوك يضيف إننا نحاول أيضاً إقناع أنفسنا. نريد الاقتناع بالأشياء التي نوشك على قولها للآخرين. في معظم ما تبقى من هذا الفصل سأراجع خمس جماعات من البحث التجريبي الداعم لتيتلوك وجلاوكون. إنَّ تفكيرنا الأخلاقي أميَل إلى أن يشبه سياسياً باحثاً عن الأصوات أكثر منه باحثاً عن الحقيقة.

---

(1) Lerner and Tetlock 2003, p. 438

(2) Ibid.,p. 433; emphasis added



1. نحن مهووسون بصناديق الاقتراع

كان إيدكوش، عمدة مدينة نيويورك المندفع في الثمانينات، مشهوراً بتحية الناخبين بالسؤال: "كيف حالي؟" وكان ذلك عكس العبارة الاعتيادية في نيويورك "كيف حالك؟" لكنّه أفادَ الاهتمام المزمن للمسؤولين المنتَخَبين. قلّةٌ منا سيترشّحون لموقع مسؤولية، بالرغم من ذلك ينتمي معظم الناس الذين نلتقي بهم إلى واحدة أو أكثر من الدوائرالانتخابية ممن نريد أن نكسبهم إلى صفّنا. يقترح البحث بشأن احترام الذات أننا جميعاً عن غير وعي نسأل سؤال كوش كلّ يوم، تقريباً في كلّ لقاء عابر.

على مدى مئة عام، قام علماء النفس بالكتابة عن حاجة المرء إلى التفكير الجيّد بنفسه. لكنّ مارك ليري، وهو باحثٌ رائد في مجال وعي الذات، كان يرى أنّ وجود حاجةٍ عميقةٍ لاحترام الذات ليس ذا مغزى متعلّقٍ بالتطوّر.[1] على مدى ملايين السنين، اعتمد بقاء أسلافنا على قدرتهم في الوصول إلى مجموعات صغيرة لتضمّهم وتمنحهم الثقة، وهكذا إذا وُجِدَ أي دافع فطري هنا، فهو لا بدَّ أن يكون دافعاً لجعل الآخرين يفكرون بنا على أننا جيّدون. واعتماداً على مراجعته للبحث، اقترح ليري أن احترام الذات يشبه إلى حدٍّ بعيد المقياس الداخلي، و"المقياس الاجتماعي المدرّج" يقيس باستمرار قيمتك بصفتك شريكاً في علاقة. وكلما تهبط إبرة المؤشر، تطلق منبّهاً وتغيّر سلوكنا.

بينما كان ليري يطوّر نظرية المقياس الاجتماعي في التسعينات، ثابر على لقاء الناس الذين أنكروا أنهم كانوا متأثرين بما كان الآخرون يفكرون فيه عنهم. هل يتّخذ الناس فعلاً سبيلاً بواسطة بوصلتهم الخاصة؟

لقد قرّر ليري إخضاع أولئك الذين أعلنوا أنفسهم خارج السرب للاختبار. أولاً، كان لديه مجموعة كبيرة من الطلبة يحددون مستوى احترام ذاتهم وكم يعتمد ذلك على ما يظن الناس بهم. بعد ذلك انتقى الأشخاص القليلين الذين قالوا

---

(1) Leary 2004



ـ سؤالاً بعد سؤال ـ إنهم على نحوٍ تام غير متأثرين بآراء الآخرين، ودعاهم إلى المختبر بعد عدة أسابيع لاحقاً. على سبيل المقارنة، قام أيضاً بدعوة الأشخاص الذين قالوا بثبات إنّهم كانوا قد تأثروا بقوة بما يفكّر فيه الآخرون به عنهم. كانت التجربة قائمة.

كان على كلّ شخص الجلوس وحيداً في الغرفة والتحدث عن نفسه لمدة خمس دقائق، متكلّماً عبر الميكرفون. في نهاية كلّ دقيقة كانوا يشاهدون عدداً يضيء على الشاشة أمامهم. كان الرقم يفيد إلى أيّ حدّ يريد شخصٌ آخر يصغي في غرفةٍ مجاورة التفاعل معهم في الجزء التالي من الدراسة. مع مستويات القياس من 1 إلى 7 (حيث 7 الأفضل) يمكنك أن تتصوّر كيف سيبدو لدى رؤية الأرقام تتناقض أثناء كلامك. 2 ... 3 ... 2 ... 3 ... 4.

في الحقيقة، تلاعب ليري بالأمر . لقد منح بعض الأشخاص معدلات تنازلية بينما حصل الآخرون على معدلات تصاعدية 4 ... 5 ... 6... 5 ...6. على نحوٍ واضح، من دواعي السرور رؤية أرقامك تتصاعد، لكنْ هل ستغيّر أيّة مجموعة من الأرقام (على نحوٍ جلي من شخصٍ غريبٍ تماماً) ما تعتقد أنّه حقيقي عن نفسك، ومزاياك، وقيمة ذاتك؟

وعلى نحوٍ خالٍ من الدهشة، اتّخذ الأشخاص الذين أقرّوا أنهم اهتموا بآراء الناس الآخرين ردود أفعالٍ حيال الأرقام. وهبط احترامهم لذاتهم. وعانى الخارجون عن السرب من صدماتٍ بالقدر ذاته. ربما كانوا قد اتخذوا مساراً بواسطة بوصلتهم الخاصة، لكنّهم لمْ يُدركوا أنَّ بوصلتهم اقتفت أثرَ الرأي العام، لا القيمة الحقيقية. كان الأمر مثلما قال جلاوكون.

كانت نتيجة ليري أنّ "المقياس الاجتماعي يعمل على مستوى غير واقع ومنتبه سلفاً في مسح البيئة الاجتماعية بحثاً عن أيّ من المؤشرات أو كلّها حين تكون قيمة علائقية المرء منخفضة أو متناقصة."[1] إنّ المقياس الاجتماعي جزءٌ من الفيل.

[1] Leary 2005, p. 85 هناك بالتأكيد فروقاتٌ بين الناس في كم هم مهووسون بآراء الآخرين. لكن نتائج ليري تشير إلى أننا لسنا على وجه الخصوص دقيقين في تقديرمستوى الولع الخاص بنا.



ولأنّ ظهورنا مهتمين بآراء الناس الآخرين يجعلنا نبدو ضعفاء، فنحن، (مثل السياسيين) غالباً ما ننكر أننا نهتم باستطلاعات الرأي العام. لكنّ الحقيقة هي أننا نهتم كثيراً بما يفكر الناس حولنا. فالناس الوحيدون المعروفون بالافتقاد إلى المقياس الاجتماعي هم السيكوباتيون.(1)

2. السكرتير الخاص بنا داخل القصر الرئاسي يبرّر كلّ شيء آلياً

إذا ما أردتَ رؤية التفكير اللاحق في وضعٍ نشطٍ، راقب فحسب السكرتير الصحفي لدى رئيس أو رئيس حكومة وهو يتلقى أسئلة من المراسلين. بغض النظر عن مدى سوء السياسة قيد النقاش، سيجد السكرتير طريقةً ما لمديحها أو الدفاع عنها. بعدئذٍ يقوم المراسلون بمواجهة التأكيدات فيدفعون بمقبوسات متناقضة من رجل السياسة، أو حتى من السكرتير الصحفي مباشرةً في الأيام الماضية. في بعض الأحيان ستسمع برهة صمت حرجة أثناء بحث السكرتير عن الكلمات الصحيحية، لكنَّ ما لنْ تسمعه أبداً هو: "أيوه"، هذه نقطة هائلة! ربما علينا إعادة النظر في هذه السياسة."

لا يستطيع السكرتيرون الصحفيون قول ذلك لعدم وجود سلطةٍ لديهم في تقرير سياسةٍ أو مراجعتها. يأتيهم تبليغٌ بالسياسة [المعنيَّة]، وعملهم هو إيجاد دليل وحجج ستبرِّر السياسة للجمهور. وهذا أحد أعمال الراكب الرئيسة: ألا وهو أن يكون سكرتيراً صحفياً متفرغاً داخل مقرّ السلطة لدى الفيل.

في عام 1960، قام بيتر واسون (مخترع تدريب البطاقة - 4 من الفصل 2) تقريره بشأن "مشكلة 2ـ 4 ـ 6".(2) لقد عرض على الأشخاص سلسلةً من ثلاثة

---

(1) Millon et al. 1998. غالباً ما يفكر السيكوباتيون بما يظنّه الآخرون، لكن فقط كجزء من خطة للتلاعب بالآخرين واستغلالهم. وهم لا يتمتّعون بمشاعر اقخعلمثل العيب والذنب اللذان يجعلان الأمر مؤلماً بالنسبة لهم عندما يمحّصون [see through] أكاذيبهم ويصلون إلى كراهيتهم.

(2) Wason 1960.



أرقام وأخبرهم أنَّ الثلاثية تعملُ وفقَ قاعدة. كان عليهم تخمين القاعدة بتوليد ثلاثياتٍ أخرى ثمَّ سؤال المشرف على التجربة إن كانت الثلاثية قد عملتْ وفق القاعدة. وعندما كانوا واثقين بأنهم خمّنوا القاعدة، كان من المفترض بهم إخبار المشرف على التجربة عن تخمينهم.

افترض أنَّ مشاركاً شاهد أولاً 2ـ 4ـ 6. فيقوم المشارك بعدئذٍ بتوليد ثلاثية رقمية رداً على المشاهدة: "4ـ6ـ8؟"

يقول المشرف على التجربة: "نعم".

"ماذا بشأن 120ـ122ـ124؟"

"نعم."

بدا من الواضح لمعظم الأشخاص انّ القاعدة عبارة عن متتالية أعدادٍ زوجية. لكنَّ المشرف على التجربة أخبرهم أنَّ ذلك خطأ، وهكذا قاموا بإخضاع قواعدٍ أخرى للتجربة: "3ـ5ـ7؟"

"نعم."

"ماذا بشأن 35ـ37ـ39؟"

"نعم."

"أوكي. وهكذا يجب أن تكون أية متتالية من الأرقام تزداد بمقدار رقمين؟"

"لا."

لم يجد الأشخاص صعوبةً تُذكر في توليد فرضياتٍ جديدة عن القاعدة، في بعض الأحيان بالغة التعقيد. لكنَّ ما فعلوه لم يَعْدُ عن كونه اختبار فرضيّاتهم بتقديم ثلاثياتٍ رقمية <u>لا تخضع لفرضيّاتهم</u>. على سبيل المثال، بافتراض 2ـ4ـ5 (نعم) و2ـ4ـ3 (لا) كان من الممكن أن تساعد الناس بمقدار صفرٍ بشأن القاعدة الفعلية: أية متتالية من الأرقام التصاعدية.



لقد أسمى واسون هذه الظاهرة انحياز التثبيت، وهي نزعةٌ لاكتشاف برهانٍ جديدٍ وتفسيره بطرقٍ تثبّت ما تفكر به تواً. الناس متمكنون تماما من تحدي إفادات الناس الآخرين، لكنْ لو كان الاعتقاد يخصّك، فهو ملكك الخاص ـ طفلك، تقريباً ـ وأنت تريد حمايته، لا مواجهته أو المجازفة بفقدانه.[1]

كما وجدت ديانا كوهن، وهي باحثةٌ طليعية في التفكير المتعلّق بالحياة اليومية، برهاناً على انحياز التثبيت حتى عندما يقومُ الناس بحلٍّ مشكلة مهمة على صعيد البقاء: معرفة ما الأغذية التي توقعنا في المرض. ومن أجل إحضار هذا السؤال إلى المختبر قامت بإيجاد مجموعات مؤلفة من ست بطاقات فهرسة، يظهرُ كلٌّ منها رسماً كرتونياً قوامه طفلٌ يتناول شيئاً ما ـ كاتو الشوكولاته مقابل جاتو الجزر، على سبيل المثال ـ ثمَّ أظهرت ماذا حدث للطفل فيما بعد: يبتسم الطفل، أو خلاف ذلك يعبس ويبدو مريضاً. عرضتِ البطاقات واحدةً كلّ مرة، على الأطفال والراشدين، وطلبت منهم إخبارها إذا كان "الدليل" (البطاقات ال8) قد أفادت أنَّ أيَّ نوع من الطعام يوقع الأطفال مرضى.

لقد انطلق الأطفال والراشدون كذلك الأمر من حس باطني ـ في هذه الحالة ، من المرجّح أن تكون كعكة الشوكولاته المتهم بالجريمة. لقد استنتجوا أنّ الدليل أثبتَ أنهم على صواب. وحتى عندما اظهرتِ البطاقات ارتباطاً أقوى بين كعكة الجزر والمرض، بالرغم من ذلك أشار الأشخاص إلى بطاقةٍ أو اثنتين ذوات آكليّ كعكة الشوكولاتة بمثابة دليلٍ على نظريّتهم، وتجاهلوا العدد الأكبر من البطاقات التي جرّمت كعكة الجزر. وحسب تعبير كوهن، بدا أنّ الناس يقولون في نفسهم: "يوجد شيء من الدليل أستطيع الإشارة إليه فيما يتعلّق بدعم نظريّتي، وبناءً على ذلك النظرية صحيحة."[2]

---

[1] Shaw 1996. يوجد الميل للتأكيد على نطاقٍ واسع في علم النفس الاجتماعي، والسريري، والإدراكي. وهو يظهر مبكراً في مرحلة الطفولة ويستمرّ مدى الحياة. أنظر مراجعة Kunda 1990; Mercier & Sperber 2010; Nickerson 1998; Pyszczynsky and Greenberg 1987.

[2] Kuhn 1989, p. 681



هذا هو النوع من التفكير السيِّء الذي يجب على التربية أن تصحِّحه، أليس كذلك؟ حسنٌ، نتائج باحثٍ بارز في مجال التفكير، ديفيد بيركنز.[1] احضر بيركنز أشخاصاً متباينين في الأعمار ومستويات التعليم إلى المختبر وطلب منهم التفكير في قضايا اجتماعية، من قبيل إذا تُمنَح المدارس مالاً أكثر فسوف تحسِّن نوعية التعليم والتعلّم. بعد ذلك طلب منهم التفكير في القضية وكتابة كل الأسباب التي يمكن أن يفكروا ـ في أيّ جانب ـ في أنها كانت متعلّقة بالوصول إلى الجواب النهائي. وبعد أنْ فرغوا من الأمر، سجّلَ بيركنز كل سبب كتبه المشاركون بصفته إما حجة "في صفي" أو حجة "في صف الآخر".

على نحوٍ غير مدهش، جاء الأشخاص بالمزيد من حجج "في صفي" أكثر من حجج "في صف الآخر". وكذلك الأمر على نحوٍ غير مدهش، كلما زاد تعلّم المشاركين، استدعوا أسباباً أكثر. ولكنْ عندما قارن بيركنز طلبة السنة الرابعة في المدرسة العليا، أو الكلية، مع طلبة السنة الأولى في السنوات ضمن المؤسسات التعليمية ذاتها، فلمْ يكدْ يجد أيّ تحسّن ضمن كل برنامج، فطلبة المدرسة العليا الذي انتجوا كثيراً من الحجج هم اولئك الذين من المرجّح ان يستمرّوا حتى الدراسات العليا. لا تعلّم المدارس الناس أنْ يفكروا تفكيراً شاملاً؛ بل تختار المتقدمين ممن خضعوا لاختبار الذكاء IQ، والأشخاص الذين لديهم درجات أعلى في اختبار الذكاء قادرون على إنتاج أسبابٍ أكثر.

تصبح النتائج أكثر مدعاةً للقلق. فقد وجد بيركنز أنّ اختبار الذكاء كان حتى الآن المتنبّئ الأكبر بشأن كيفية تقديم الناس الحجج، لكنّه تنبّأ بعدد الحجج التي في صالحي فحسب. الأشخاص الأذكياء يصلحون حقاً لمهمة المحامين الجيّدين وسكرتيريّ الصحافة، لكنّم ليسوا أفضل من الآخرين في العثور على أسباب في الجانب الآخر. واستنتج بيركنز أنَّ "الناس يستثمرون اختبار

(1) Perkins, Farady, and Bushey 1991



الذكاء الخاص بهم في تدعيم قضيّتهم الخاصة أكثر من استقصاء القضية برمّتها بشموليةٍ وتوازن أكبر."[1]

يمنح البحث في التفكير المتعلق بالشأن اليومي أملاً بالغ الضآلة للعقلانيين الأخلاقيين. ففي الدراسات التي وصفتها، لا يوجد مصلحة ذاتية قيد الرهان. فعندما تسأل الناس عن سلسلة من الوحدات الرقمية، وأنواع الكيك والمرض، وتمويل المدرسة، يبدو أحد الجانبين أكثر جاذبيّةً من الآخر. ينحاز الفيل، ولو على نحوٍ ضئيلٍ جداً، ويأخذ الراكب حق العمل في البحث عن دليلٍ داعم ـ وينجح بطريقة ثابتة.

هذه هي الطريقة التي يعمل بها السكرتير الصحفي على قضايا ضئيلة الأهمية إذ لا يتوفر الحافز لدعم هذا الجانب أو ذاك. وإذا ما كان التفكير تثبيتياً أو استكشافياً في هذه القضايا الجافة السهلة، فماهي الفرصة المتوفرة لكي يفكر الناس بطريقةٍ استكشافيةٍ، وبعقلٍ منفتح، عندما يجعلهم كلٌّ من المصلحة الشخصية، والهوية الاجتماعية، والمشاعر القوية يريدون أو يحتاجون الوصول إلى نتيجة مرتبة قضاءً وقدراً.

3. نحن نكذب، ونغش، ونبرر إلى حد كبير نصدّق معه أننا صادقون

في المملكة المتحدة، سُمِحَ لأعضاء البرلمان بتحويل التكلفة المعتدلة للحفاظ على منزلٍ ثانٍ إلى دافعي الضرائب، إذا ما تمّت مراعاة أنّ المطلوب منهم تمضية وقتٍ في لندن وفي مقاطعاتهم الأصلية. لكنْ، لأنّ المكتب المسؤول عن تحديد السعر المعتدل قام بالتصديق على كلِّ طلبٍ تقريباً، فقد تعامل أعضاء البرلمان مع الأمر على أنه شيكٌ ضخمُ على بياض. ولأنَّ تكاليفهم كانت خفية عن الجمهور،

---

[1] Ibid., p. 95. لم يجدوا قليلاً من تحسنٍ في الإجمال بين السنة الأولى والرابعة في المدرسة العليا، لكن قد يكون هذا نضوجاً طبيعياً، أكثر منه تأثيراً ناجم عن التعليم. ولم يجدوا الأمر إياه في الكلية.



فكَّرَ أعضاء البرلمان في أنّهم كانوا يرتدون خاتم كيجيس* - حتى قامت إحدى الصحف بطباعة نسخةٍ مسرّبةٍ من تلك المطالبات بالتكاليف في عام 2009.[1]

حسبما توقع جلاوكون تماماً، كانوا قد تصرّفوا تصرّفاً مقيتاً. فقد أعلنَ كثير من أعضاء البرلمان أن منزلهم الثاني أيّاً كان لا بُدَّ له من عمليات تجديد رئيسة وفاخرة (بما في ذلك ترحيل الوحل من بركة المنزل). عندما تمتْ عمليات التجديد، قاموا ببساطةٍ بإعادة تصميم منزلهم الأساسي على أنّه منزلهم الثاني وقاموا بإعادة تجديد ذاك المنزل أيضاً، حيث يبيعون في بعض الأحيان المنزل الذي تمّ تجديده بربح هائل.

إن مقدّميّ برامج السهرة الكوميدية ممتنّون للفضائح غير المنتهية القادمة من لندن، وواشنطن، ومراكز السلطة الأخرى. لكن هل البقية الباقية منا أفضل من قادتنا؟ وهل علينا أولاً رؤية الأخشاب في عيوننا؟

قام كثيرون من علماء النفس بدراسة تأثيرات التمتع ب "إنكارية مقبولةٍ ظاهرية". في دراسةٍ من هذا القبيل، قام المشاركون بتأدية فرضٍ ثمَّ أعطيتُ لهم قصاصة ورق صغيرة وتأكيداً شفهياً بمقدار ما سيُدفع لهم. ولكن عندما أخذوا القصاصة إلى غرفةٍ أخرى للحصول على المال، قام المحاسب بقراءة خاطئة لخانةٍ عددية وسلّمهم الكثير من المال. قام 20 في المئة فقط منهم بالكلام علناً وتصحيح الخطأ.[2]

لكنَّ القصة تغيّرت عندما سألهم المحاسب إن كان المبلغ صحيحاً. في تلك الحالة، قال ستون في المئة لا وأعادوا النقود الزائدة. وكونهم سُئِلوا مباشرةً أزاح

---

* حاكم مملكة ليديا اليونانية 644 to ca.680. أشار أفلاطون إلى خاتمه الذي يجعله غير مرأي بحيث يتمكن من الاستيلاء على السلطة. ــ المترجم

[1] حصلت جريدة ((الدايلي تيليجراف)) على نسخةٍ مسرّبة من تقرير كاملٍ عن التكاليف، تمّ إعداده من قِبَل مجلس العموم استجابةً لطلب حرية المعلومات الذي حاول مقاومته طوال سنوات.

[2] Bersoff 1999. أنظر أيضاً بحث دان باتسون حول "النفاق الأخلاقي"، على سبيل المثال Batson et al. 1999



الإنكارية المقبولة ظاهرياً؛ فالاحتفاظ بالمال يتطلّبُ كذبةً مباشرة. بالنتيجة، من المرجّح أن يكون الناس صادقين بمعدل ثلاثة أضعاف.

لا تستطيع أن تتوقع من سيعيد المال اعتمادا على كيفية تقييم الناس مستوى صدقهم، أو إلى أيّ حدٍ هم قادرون على تقديم جواب سامي المبادىء عن معضلةٍ أخلاقية من النوع الذي استخدمه كولبرج.[1] إذا ما كان الراكب مسؤولاً عن السلوك الأخلاقي، فسيكون هناك علاقة تبادلية بين تفكير الناس الأخلاقي وسلوكهم الأخلاقي. لكنّه ليس كذلك، والعلاقة غير موجودة.

يصف دان أريلي في كتابه ((غير عقلانيّ على نحوٍ متوقع)) سلسلةً رائعة من الدراسات كان لدى المشاركين فيها الفرصة لكسب مالٍ أكثر بالادعاء أنهم حلوا المزيد من مسائل الرياضيات مما قاموا به فعلياً. ويلخّص اريلي نتائجَهُ من تنوّعات كثيرة لنموذجٍ كهذا:

> عندما تُمنَحُ الفرصة، سيقوم رجال صادقون كثيرون بالغش. في الحقيقة، بدلاً من إيجاد أنّ تفاحاتٍ سيئة قليلة وصل وزنها إلى المعدلات العادية، اكتشفنا أنَّ غالبية الأشخاص قاموا بالغش، وغشّوا إلى حدٍ قليلٍ فحسب.[2]

لم يحاول الأشخاص القيام بعملٍ منكرٍ دون التعرّض للعاقبة بالقدر الذي يستطيعونه. بل، عندما أعطاهم أريللي مثل خفاء خاتم كيجيس، قاموا بالغش فحسب إلى حدٍ لا يعود بإمكانهم إيجادُ تبريرٍ يحفظ قناعتهم بصدقهم الشخصي.

خلاصة الأمر أنَّ تجارب المختبر تعطي الأشخاص الخفاء مقترناً بالإنكارية المقبولة ظاهرياً، معظم الناس يمارسون الغش. السكرتير الصحفي (المعروف

---

(1) Perugini and Leone 2009

(2) Ariely 2008, p. 201; أُضيف التأكيد.



أيضاً بالمحامي الداخلي)[1] من الجودة بمكان في إيجادالتبريرات إلى حدّ أنّ معظم هؤلاء الغشاشين يغادرون التجربة وهم مقتنعون بفضيلتهم بالقدرذاته لدى دخولهم التجربة.

4. التفكير (وجوجل) يستطيع أخذَك أينما تريد الذهاب

عندما كان ابني، ماكس، في الثالثة من عمره، اكتشفتُ أنّ لديه حساسية حيال كلمة يجب. كلّما قلتُ له أنّه يجبُ عليه ارتداء ملابسه لنستطيع الذهاب إلى المدرسة (وكان يحب الذهاب إلى المدرسة)، كان يعبس وينتحب. إنّ كلمة يجب هي عبارة عن قيدٍ صوتي ضئيل أطلق فيه رغبة التلوّي بحريّة.

إنّ كلمة يستطيع ألطف بكثير: "هل تستطيع ارتداء ملابسك، حتّى نستطيع الذهاب إلى المدرسة؟" ولكي أتيقّن أنّ هذه الكلمات كانت حقاً في الليل والنهار، حاولت القيام بتجربة صغيرة. بعد العشاء في إحدى الأماسي، قلتُ: "ماكس، يجب عليك تناول البوظة الآن."

"لكنْ أنا لا أريد ذلك."

بعد مضي أربع ثوانٍ: "ماكس، تستطيع تناول البوظة لو رَغِبت."

"أريد بعضاً منها."

إنّ الفرق بين يستطيع ويجب هو مفتاح فهم التأثيرات العميقة للمصلحة الشخصية على التفكير. وهو أيضاً المفتاح لفهم الكثير من أكثر المعتقدات غرابةً ـ في حالات اختطاف قامت بها أجسام طائرة مجهولة، ومعالجات الدجالين الطبية، ونظريات المؤامرة.

يدرس عالم النفس الاجتماعي توم جيلوفيتش آليات إدراك المعتقدات الغريبة. وصيغته البسيطة هي أنّنا عندما نريد الاعتقاد بشيءٍ ما، نسأل أنفسنا، "هل

[1] هذا هو المصطلح الذي استخدمته في كتاب ((فرضيّة السعادة))



أستطيع الاعتقاد به؟"[1] بعدئذٍ (مثلما اكتشف كوهن وبيركنز)، نبحث عن دليلٍ داعم، ولو وجدنا شيئاً واحداً شبيهاً بالدليل فقط، نستطيع التوقف عن التفكير. نحن لدينا الآن سماح بالاعتقاد. لدينا تبريرٌ، في حال قيام أيّ شخصٍ بسؤالنا.

بالمقابل، عندما لا نريد الاعتقاد بشيءٍ ما، نسأل أنفسنا، "هل يجب عليَّ الاعتقاد به؟" بعدئذٍ نبحثُ عن دليلٍ مضاد، وإذا ما وجدنا سبباً واحداً للشك بالادعاء، نستطيع استبعاده. تحتاجُ مفتاحاً واحداً فحسب لفتح قفل كلبشات كلمة يجب.

يمتلك علماء الناس خزائنَ من الملفات ملأى بالنتائج التي تخصّ "التفكير المحفّز،"[2] تُظهر الكثير من الحيل التي يستخدمها الناس للوصول إلى النتائج التي يريدون الوصول إليها. عنما يتمّ إخبار المشاركين أنَّ اختبار الذكاء أعطاهم تسجيلاً متدنياً، يقومون باختيار قراءة المقالات التي تنتقد (أكثر مما تدعم) صحة اختبارات الذكاء.[3] عندما يقرأ الأشخاص دراسةً علمية (متخيّلة، غير حقيقية) يخبر عن رابطٍ بين استهلاك الكافئين وسرطان الصدر، فتجد النسوة المفرطات في تناول القهوة نقاط خلل في الدراسة أكثر من الرجال ومن النسوة الأقل تناولاً للكافئين.[4] فقد طَلَبَ بيت ديتو، في جامعة كاليفورنيا بمدينة إرفن، من المشاركين لحسَ قصاصةَ ورقٍ لتحديد إن كان لديهم نقصٌ خطيرٌ في الأنزيمات. ووجد أن الأشخاص انتظروا فترةً أطول ليتغيّر لون الورقة (وهو ما لا يحدثُ إطلاقاً) عندما يكون تغيُّر لون الورقة مرغوباً أكثر منه عندما يَدلُّ على النقص، ووجد أولئك الذين حصلوا على التكهّن غير المرغوب أسباباً بأنّ التجربة

---

[1] Gilovich 1991, p. 84

[2] Ditto, Pizarro, and Tannenbaum 2009; Kunda 1990

[3] Frey and Stahlberg 1986

[4] Kunda 1987



قد لا تكون صحيحة (على سبيل المثال "فمي كان جافاً على نحوٍ غير اعتيادي اليوم").[1]

إنَّ الفرقَ بين عقلٍ يسأل "أيجبُ عليّ الاعتقاد به؟" مقابل "هل أستطيع الاعتقاد به؟" أمر عميقٌ إلى حدّ أنه يؤثّرُ حتى على الإدراك البصري. وكان المشاركون الذين ظنّوا أنهم سيحصلون على شيءٍ جيّدٍ إذا ما أضاء الحاسوب حرفاً وليس رقماً من المرجّح رؤيتهم الرقم الغامض 13الشبيه بالحرف B، أكثر من رؤيتهم الرقم 13.[2]

إذا استطاع الناس حرفياً رؤية ما يريدون رؤيته ـ مع مراعاة قليلٍ من الغموض ـ فهل من عجبٍ أنَّ الدراسات العلمية غالباً ما تقنع عامة الجمهور؟ والعلماء جيّدون فعلاً في إيجاد السقطات في الدراسات التي تناقض وجهات نظرهم الخاصة، ولكنْ يحدثُ في أحياناً أنَّ الدليل يتراكم عبر دراساتٍ كثيرة إلى الحد الذي يتوجّب فيه على العلماء تغيير آرائهم. لقد رأيت هذا يحدث لدى زملائي (ولديّ) مراتٍ كثيرة،[3] وهو جزء من منظومة المساءلة المتعلّقة بالعلم ـ ستبدو أحمقَ إذا ما تعلّقتَ بنظريّاتٍ مشكوكٍ بصدقيّتها. أمّا بالنسبة إلى غير العلماء، فلا يوجد شيءٌ من قبيل دراسةٍ يجبُ عليك تصديقها. يمكن دائماً الشكُّ بالمناهج، وإيجاد تفسيرٍ بديلٍ للبيانات، أو، إن أخفقَ كل شيء آخر، الشك بصدق الباحثين أو إيديولوجيتهم.

وإذا كان لدينا الآن جميعاً مدخلٌ إلى محركات البحث الموجودة في هواتفنا الخليوية، نستطيع الاتصال مع فريقٍ من العلماء الداعمين بحثاً عن أية نتيجة طوال أربع وعشرين ساعةً في اليوم تقريباً. مهما كان ما ترغب الاعتقاد به بشأن

[1] Ditto and Lopez 1992. أنظر أيضاً Ditto et al. 2003، وهي دراسة تجد أنّه عندما نريد الاعتقاد بشيءٍ ما، غالباً ما لا نُشغِلُ أنفسنا بالبحث عن شيءٍ من دليلٍ واحد. نحن نقبل الأشياء بطريقةٍ غير نقدية فحسب.

[2] Balcetis and Dunning 2006

[3] أنظر Brockman 2009



قضايا الاحتباس الحراري أو بشأن كون الجنين يستطيع الشعور بالألم، فإنّ جوجل هو معتقدك فحسب. ستجدُ مواقعَ مناصرة تلخّص وفي بعض الأحيان تشوّه الدراسات العلمية المتعلقة بالموضوع. العلم عبارة عن مائدة شطائرية• ، وجوجل سوف يرشدك إلى الدراسة الصحيحة بالنسبة إليك.

5. نستطيع الاعتقاد بأيّ شيء يدعم فريقنا

اعتاد الكثير من علماء السياسة افتراض أنّ الناس يصوّتون بأنانيّة، إذ يختارون المرشّح أو السياسة التي ستعود عليهم بأكبر النفع. لكنّ عقوداً من البحث في شأن الرأي العام قد أدّت إلى النتيجة التي مفادها أنّ المصلحة الشخصية هي متوقّعٌ ضعيفٌ لتفضيلات سياسةٍ ما. وقد لا يكون أهالي الأولاد في المدارس العامة أكثر تأييداً لعون الحكومة للمدارس من المواطنين الآخرين؛ والرجال الشبان الأكثر عرضةً للاستدعاء إلى خدمة العلم لم يكونوا أكثر معارضةً للتصعيد العسكري من الرجال الأكثر تقدماً في السن لدرجة ألاّ يتم استدعاؤهم؛ والأشخاص الذين يفتقدون إلى الضمان الصحي لم يكن تأييدهم للضمان الصحي الصادرعن الحكومة أرجح من الأشخاص الذين يغطّيهم الضمان الصحي.[1]

على نحوٍ أدق، يهتم الناس بمصالح جماعاتهم، عرقيةً كانت تلك الأخيرة، أم مناطقية، أو دينية، أم سياسية. ويلخّص العالم السياسي دون كيندر نتائجَ كهذه: "في أمور الراي العام، يبدو أنَّ المواطنين لا يسألون أنفسهم 'ما الذي

• ضربٌ سويديٌّ من الغداء أو العشاء على الطريقة المقصفية تُقدَّمُ فيه ضروبٌ شتى من المشهّيات واللحوم الحارة والباردة والسمك المدخّن والنقانق والجبن والسلطة ــ المورد

[1] أنظر مراجعة في Kinder 1998 . الاستثناء لهذه القاعدة هو أنّه عندما تكون المنافع المادية لسياسة ما "سخيّة، وفورية، وحسنةُ الترويج،" فإنَّ أولئك الذين سيستفيدون منها من المرجّح أن يكونوا أكثر تأييداً لها ممن سيصيبهم الضرر. أنظر ايضاً D. T. Miller 1999 حول "نموذج المصلحة الشخصية."



يعنيني في الأمر؟' وإنما 'ماذا يعني جماعتي في الأمر؟'[1] تقوم استطلاعات الرأي العام بوظيفة "شارات عضوية اجتماعية."[2] إنهم أشبه بلصاقات المصدّات التي يضعها الناس على سيّاراتهم مظهرةً قضاياهم السياسية، وجامعاتهم، والفرق التي يشجّعونها. فقضايانا السياسية قائمة على الجماعة، وليس الأنا.

وإذا استطاع الناس رؤية ما يريدون رؤيته في الرقم 13، تخيّلْ فحسب كم هو مقدار الحيّز الموجود لمؤيديّ رؤية حقائق مختلفة في االعالم الاجتماعي.[3] وقد وثّقتْ عدةُ دراسات تأثير "موقف الاستقطاب" الذي يحدثُ عندما تقدّم كتلةً واحدة من المعلومات لأشخاصٍ يؤيدون ميولاً عصبوية مختلفة. ويحصلُ تباعد بين الليبراليين والمحافظين فعلياً عندما يقرؤون عن بحثٍ يتحدث عنْ إن كانت عقوبة الإعدام تردعُ الجريمة، أو عندما يحددون مستوى نوعية الأدلّة التي يقدمها المرشّحون في المناظرة الرئاسية، أو عندما يقيّمون العمل التوكيدي أو ضبط السلاح.[4]

في عام 2004، وفي وطيس الانتخابات الرئاسية الأمريكية، استخدم دريو وستن ماسحات fMRI لالتقاط الأدمغة في حالة الفاعلية.[5] قام بتجنيد خمسة عشر شخصاً من غلاة الديمقراطيين وخمسة عشر آخرين من غلاة الجمهوريين وجاء بكلٍ منهم على حدة إلى ماسحة لمراقبة ثماني عشرة مجموعة من الشرائح

---

(1) Kinder 1998, p. 808

(2) المصطلح مأخوذ من Smith, Brunner, and White، حسب اقتباس Kinder 1998.

(3) أنظر الدراسة الكلاسيكية بقلم Hastorf and Cantril (1954) التي يصل فيها طلاّبٌ في جامعتي دارتموث وبرينستون إلى نتائجَ مختلفة حول ما كان قد حدث بعد مشاهدة الفيلم ذاته الذي يعرض عدة مطالباتٍ بضربات الجزاء مثار الخلاف.

(4) Lord, Ross, and Lepper 1979; Munro et al. 2002; Taber and Lodge 2006. تأثيرات الاستقطاب غير موجودة في كافة الدراسات، لكن حسبما يناقش تابير ولودج، استخدمت الدراسات التي أخفقت في إيجاد التأثير عموماً محفّزاتٍ أهدأ، وأقل عاطفية لم تُشبك تشركْ تماماً الحوافزالحزبية.

(5) Westen et al. 2006



المصورة. وكانت الشريحة الأولى في كلّ مجموعة تظهر إما بياناً للرئيس جورج. و. بوش أو واحداً من منافسه الديمقراطي، جون كيري. على سبيل المثال، شاهد الأشخاص مقطعاً في عام 2000 يمدح كين لاي، المدير العام التنفيذي لشركة إنرون، التي انهارت فيما بعد عندما ظهرت عمليات احتيالها في العلن.

> أحب الرجل... عندما أصبح رئيساً، أخطط لإدارة حكومة مثلما يدير المدير عام التقيذي بلداً. إنّ كين لاي وإنرون مثال لكيفية القيام بذلك.

بعد ذلك شاهدوا شريحةً تصف الفعل المأخوذ فيما بعد والذي يبدو أنّه يناقض البيان الأول

> السيد بوش الآن يتجنّب أية إشارة إلى كين لاي، وهو ينتقد شركة إنرون عندما يتم سؤاله.

عند هذا الحد، كان الجمهوريون يتضايقون. لكنْ آنذاك تماماً، عرض عليهم وستن شريحةً أخرى تقدّم سياقاً إضافياً، يقوم بحلّ التناقض:

> يفيد الأشخاص الذين يعرفون الرئيس أنه يشعر بخيانة كين لاي، وكان على نحوٍ حقيقي مصدوما لأنه وجد أنّ قيادة شركة إنرون كانت فاسدة.

كانت هنالك مجموعة مكافئة من الشرائح المصورة تُظهر كيري واقعاً في تناقض ومن ثمّ يتخلّص منها. بمعنى آخر، قام وست بإحداث مواقفَ سيشعر المؤيّدون فيها مؤقتاً بتهديد نفاقٍ ظاهرٍ لمرشّحهم. في الوقت ذاته، لن يشعروا بتهديد ما ـ وربما حتى البهجة ـ عندما بدا أنّ فتى الفريق الآخر قد وقع في الشرك.

كان وستن فعلياً يحرّض أحد نموذجيّ العقل ضد الآخر. هل سيكشف المشاركون نموذج العملية الثنائية الجيفرسوني، حيث الرأس (الأجزاء المفكرة من الدماغ) تعالج معلومات عن التناقضات على نحوٍ متساوٍ بالنسبة إلى جميع الأهداف، ولكن يتم نقضه بواسطة استجابة أقوى من القلب (منطقة المشاعر)؟



أو هل يعمل الدماغ المؤيد مثلما يقول هيوم، حيث العمليات الشعورية والحدسية التي تدير المشهد وتثبّت فحسب دعوة إلى التفكيرعندما يتم احتياج خدماته لتبرير النتيجة المرغوبة؟

برزت البيانات داعمةً هيوم بقوة. لقد فعّلت المعلومات المهدِّدة (نفاق مرشّحهم الخاص) - على الفور – شبكةً من مناطق الدماغ المتعلقة بالمشاعر – وهي مناطق مقترنة بالشعور السلبي واستجابات للعقوبة؟ [1] فأصفاد ("هل يجب عليّ الاعتقاد بالأمر؟") تؤذي.

بعض هذه المناطق معروفة بأنها تقوم بدورٍ في التفكير، لكنْ لم يكنْ هنالك ازدياد في النشاط في منطقة قشرة الدماغ الظهرجانبية الأمامجبهية (dlPFC) . إنَّ منطقة (ق د ظ ج أ) هي المنطقة الرئيسة لفروض التفكير الرابط الجأش.[2] بغض النظر عن التفكير الذي كان يقوم به المؤيدون، فهو لم يكن من نوع وضع الأمور في نصابها التي تُعرَفُ بها منطقة (ق د ظ ج أ).[3]

---

[1] تضمّنت المناطق المفعّلة الجزيرة ، وقشرة الدماغ الأمامية المتوسطة ، ، القشرة الداخلية الطوقية الخلفية. والمناطق المقترنة بالمشاعر السلبية هي على وجه الخصوص الجزيرة الدماغية اليسرى، والقشرة الدماغية الجبهية الطوقية الجانبية، وال القشرة الداخلية الوسطى الأمام جبهية. وأظهرت الغدة ، ذات العلاقة الوثيقة بالخوف والتهديد، فعلياً فعالية أكبر في المحاولات الأولى لكن قام بالتأقلم في المحاولات الأخيرة. لاحظ أنّ كل هذه النتائج تأتي من طرح ردود الأفعال حيال النفاق بواسطة الهدف الحيادي (على سبيل المثال توم هانكس) من ردود الأفعال تجاه النفاق لدى المرشح الخاص بالمشارك في التجربة.

[2] Green (2008) . يشير الكاتب إلى هذه المنطقة على انها "مصنعٌ" في الدماغ، لكنّها تنزع إلى أن تكون فاعلة أكثر عندما يقوم المشاركون بالاختيار الرابط الجأش النفعي، وليس الاختيار الأدبي الأخلاقي القائم على الشعور.

[3] لم تظهر القشرة الداخلية الخلفية ازدياداً في النشاط حتى بعد تقديم المعلومات المبرّئة وتمّ تحرير الموالي من الأصفاد. سار الأمر كأنّ التفكير اليقيني لم يكن قادراً حتى على البدء حتى توفر لدى المشاركين تفسيراً مقبولاً من الناحية الشعورية ليقوم بتثبيته.



ذات مرّة حررّهم وستن من التهديد، فبدأ المخطط الباطني بالطنين ـ هذا واحدُ من مراكز الثواب الرئيسة. فجميع أدمغة الحيوانات مصمَّمة لإحداثِ ومضاتٍ من البهجة عندما يقوم الحيوان بشيءٍ مهم من أجل بقائه، وتكون النبضات المنقولة بواسطة ناقلِ نبضاتِ المرسلِ العصبيّ في المخطط الباطني (وفي أماكن قليلةٍ أخرى) حيث يتمُّ تصنيع هذه المشاعر الطيّبة. فالهروين والكوكايين مسبّبان للإدمان لأنهما على نحوٍ مصطنع يطلقان استجابة ناقل النبضات العصبية هذا. فالفئران التي تستطيع الضغط على زرٍ لتزويد مراكز المكافأة لديها بالمحرض الكهربائي ستستمر في الضغط حتى تتهاوى من فرط الجوع.[1]

لقد وجد وستن أنّ الموالين الهاربين من الأصفاد (بواسطة التفكير في الشريحة الأخيرة، الذي استرجع ثقتهم بمرشّحهم) تلقوا ضربةً ضئيلة من ناقل النبضات العصبية ذاك. وإذا ما كان هذا صحيحاً، فهو سيشرح السبب وراء كون الموالين المتطرّفين على هذا القدر من العناد، والانغلاق العقلي، وملتزمين بقناعات تبدو غالباً مفرطة في الغرابة أو جنون الارتياب. مثل الفئران التي لا تستطيع التوقف عن ضغط الزر، فإنّ الموالين ببساطة قد لا يكونون قادرين على التوقف عن الاعتقاد بأشياء عجيبة. لقد تمَّ تعزيز دماغ الموالي مرّاتٍ عديدة للقيام بالتواءات ذهنية تقوم بتحريره من عقائد غير مطلوبة. فالموالاة المتشددة قد تكون بكل ما في الكلمة من معنى باعثة على الإدمان.

الوهم العقلاني

يعرّف ((قاموس ويبستر العامي الثالث الجديد)) الوهم على أنه "مفهوم مزيّف واعتقاد متواصل غير قابل للاقتحام بواسطة الإقناع بأمرٍ لا وجود له في الحقيقة."[2] بصفتي شخصاً حدسياً، سأقول إنّ عبادة العقل بحد ذاتها عبارةٌ عن

---

[1] Olds and Milner 1954

[2] *Webster's Third New International Dictionary*. تتضمّن التعاريف المتعلّقة بذلك "اعتقادٌ زائفٌ أو خطأ متواصل بالفهم متصادف مع الاعتقاد الزائف أو خبلٌ عقلي."



توضيح واحد من أكثر الأوهام امتداداً عبر الزمن في التاريخ الغربي: الوهم العقلاني. إنها فكرة أن التفكير هو أنبل مزايانا، وهو ما يجعلنا مثل الآلهة (بالنسبة إلى أفلاطون) وهو الذي يوصلنا إلى ما بعد "الوهم" بالاعتقاد بالآلهة (بالنسبة إلى الملحدين الجدد).[1] والوهم العقلاني ليس ادعاءً بشأن الطبيعة البشرية فحسب، بل هو أيضاً ادعاء بأن الطبقة العقلانية (الفلاسفة والعلماء) يجب أن تحظى بسلطةٍ أكبر، وهي تأتي عادة مترافقةً مع برنامج المدينة الفاضلة من أجل تربية أطفالٍ أكثر عقلانية.[2]

لقد أكّد عقلانيّون كثُرٌ، من افلاطون مروراً بكانتْ وكولبرج، أن القدرة على التفكير جيّداً في القضايا الأخلاقية تسبب السلوك الحسن. فهم يعتقدون أنّ التفكير هو الطريق الملكي إلى الحقيقة الأخلاقية، وهم يعتقدون أنّ الناس الذين يفكّرون جيداً من الأكثر ترجيحاً أن يتصرّفوا تصرّفاً أخلاقياً.

ولكن إن كانت الحالة كذلك، فإنّ الفلاسفة الأخلاقيين ــ الذين يفكّرون في المبادئ الأخلاقية طوال اليوم ــ يجب أن يكونوا أكثر تمتّعاً بالفضيلة من الآخرين. هل هم كذلك؟ حاول الفيلسوف إيريك شفيتزجيبيل البحث بغرض التثبّت من الأمر. استخدم عمليات مسحٍ ومناهج أكثر سريةً لقياس كيف يتصدّق الفلاسفة الأخلاقيون من التبرعات الخيرية، ويصوّتون، ويتواصلون مع أمهاتهم، ويتبرّعون بالدم، ويتبرّعون بالأعضاء، ويتظاهرون بنقاء سريرتهم في مؤتمرات الفلسفة، ويردّون على رسائل الطلبة الألكترونية على نحوٍ مفهوم ظاهرياً.[3] ولا يكون الفلاسفة الأخلاقيون في أيٍ من هذه الطرق أفضل من الفلاسفة الآخرين أو كبار الأساتذة في الميادين الأخرى.

---

[1] Dawkins 2006; Dennett 2006; Harris 2006. سأناقش حججهم بالتفصيل في الفصل 11.

[2] يقدم أفلاطون نصيحته بشأن تنشئة الأطفال في Book 3 of *The Republic*؛ يقدمها داوكنز في الفصل 9 من كتاب *The God Delusion*.

[3] Schwitzgebel and Rust 2009; 2011; Schwitzgebel et al. 2011



وصل الأمر بشيفتز جيبل إلى اختلاس قوائم الدفتر الضائع من عشرات المكاتب ووجد أنّ الكتب الأكاديمية التي تتحدث عن الأخلاق، التي تمت استعارتها افتراضياً في المقام الأول من قبل المختصّين الأخلاقيين، ستتم سرقتها على الأرجح أو عدم إعادتها أكثر من كتب تتناول زوايا أخرى من الفلسفة.[1] بمعنى آخر، لا يبدو أنّ الخبرة في التفكير الأخلاقي تحسّن السلوك الأخلاقي، بل ربما تزيد في سوئه (ربما بجعل الراكب أمهر في تبريرات ما بعد وقوع الحدس). ولم يصلْ شيفتزجيبيل رغم ذلك لإيجاد مقياسٍ فردي يتصرّف الفلاسفة الأخلاقيون بموجبه على نحوٍأفضل من الفلاسفة الآخرين.

لا بدَّ أن يتوقف أيٌّ شخصٍ يثمّن الحقيقة عن عبادة العقل. نحتاج جميعاً لإلقاء نظرةٍ باردة قاسية على الدليل ورؤية التفكير على حقيقته. قام عالما النفس الإدراكيان الفرنسيان هوجو ميرسييه ودان سيربر مؤخراً بمراجعة الكتابات النظرية الهائلة عن التفكير المحفِّز (في علم النفس الاجتماعي) وعلى هذه الأسس (علم النفس الإدراكي). فاستنتجوا أنَّ معظم نتائج البحث الغريبة والمحبطة تفيدُ معنىً تاماً فور رؤيتك التفكير على أنّه قد تطوّر لا من أجل مساعدتنا في إيجاد الحقيقة بل من أجل مساعدتنا في الانغماس بالمشاركة في المناقشاتِ، والإقناع، والتلاعب في سياق المناقشات مع الآخرين. وحسبما عبّروا عنها، "المجادلون المهَرة ... ليسوا ساعين إلى الحقيقة بل إلى الحجج الداعمة لآرائهم."[2] ويشرح هذا سبب الانحياز بالغ القوة، وهكذا هو غير قابل للاستئصال. كم من الممكن أن يكون تدريس الطلبة البحثَ عن الجانب الآخر أمراً صعباً، واستقصاء الدليل المعاكس لوجهة نظرهم المفضلة؟ بالرغم من ذلك، في الحقيقة، الأمر بالغ الصعوبة، وما من أحد قد وجد طريقة للقيام به.[3] فهو صعبٌ لأنّ الانحياز

---

[1] Schwitzgebel 2009

[2] Mercier and Sperber 2011, p. 57

[3] أنظر Lilienfeld, Ammirati, and Landfield 2009 بشأن تقرير حول كيف كان أمراً صعباً تطويرمناهج تفكير إنساني "مبطل للانحياز". ما هو قليل من النجاح الموجود في

==



التثبيتي إنما هو سمة بنيوية داخلية (لعقل مجادل)، وليس خللاً يمكن إزاحته (من العقل الأفلاطوني).

أنا لا أقول إنَّ علينا جميعاً التوقف عن التفكير والانقياد لمشاعرنا الدفينة. فالمشاعر الدفينة في بعض الأحيان مرشداتٌ أفضل من التفكير للقيام باختيارات المستهلك وإطلاق أحكام ما بين الأشخاص،[1] لكنَّها في الغالب كارثية بصفتها أساساً لسياسةٍ عامة، وللعلم، والقانون.[2] وإنما ما أقوله هو أنّه يجب علينا أن نكون حذرين إزاء قدرة أيّ شخص على التفكير في الحجج. علينا أن نرى كلَّ فردٍ على أنّه محدود، مثل النيوترون. والنيوترون جيّدٌ حقاً في أمرٍ واحد: تلخيص التحفيز القادم إلى تفرعات الخلية العصبية من أجل "اتخاذ قرار" إطلاق نبضة على طول المحور العصبي. النيوترون بحدّ ذاته ليس حاد الذكاء. لكنْ إذا ما وضعت النيوترونات مع بعضها بالطريقة الصحيحة فستحصُل على الدماغ؛ وستحصل كذلك على منظومة طارئة أكثر ذكاءً ومرونةً بكثير من عصبونٍ واحد.

بالطريقة ذاتها، كلّ فرد مفكر في الحجج جيد حقاً في أمرٍ ما : إيجاد دليلٍ لدعم الموقع الذي يمتلكه توّاً هو أو هي، عادةً فيما يتعلّق بالأسباب الحدسية. يجب علينا ألاّ نتوقع من الأفراد إنتاج تفكير جيدٍ، ومنفتح، وساعٍ إلى الحقيقة، ولا سيّما عندما تكون المصلحة الشخصية والاهتمامات بالسمعة في حالة حراك. ولكن إن وضعتَ الأفراد معاً بالطريقة الصحيحة، على نحوٍ يستطيع فيه بعض الأفراد استخدام قوى التفكير لعدم تثبيت ادعاءات الآخرين، ويشعر جميع الأفراد برابطٍ مشترك أقدرَ يسمح لهم أن يتفاعلوا بطريقةٍ حضارية، فتستطيع

الكتابات النظرية حول "التفكير النقدي" لم يجد تقريباً (أو حتى لم يبحث عن) تحويلاً للمهارات ما بعد قاعة الصف.

(1) Wilson 2002; Wilson and Schooler 1991

(2) Baron 1998



خلق مجموعة ينتهي الأمر بها إلى إيجاد تفكير جيد بصفته ملكية خاصة طارئة للنظام الاجتماعي. وهذا سببٌ على قدرٍ من الأهمية ليتمتع بتنوع فكري وإيديولوجي ضمن الجماعة أو المؤسسة التي هدفها إيجاد الحقيقة (من قبيل وكالة الاستخبارات أو تجمّع من العلماء) أو لإنتاج سياسةٍ عامةٍ جيدة (من قبيل هيئةٍ تشريعية أو استشارية).

إذا ما كان هدفنا إنتاجُ سلوكٍ جيّد، لا تفكيرٍ جيّدٍ فحسب، يكون فلا بُدَّ من رفض العقلانية واعتناق الحدسية. ما من أحدٍ أبداً سيقوم باختراع صفٍ تدريسيٍّ للأخلاق يجعل الناس يتصرّفون بطريقةٍ أخلاقية بعد أن يغادروا قاعة الدرس. إن الصفوف التدريسية هي من أجل الركاب، وسوف يقوم الركاب باستخدام معرفتهم لخدمة فيَلَتهم بطريقةٍ أكثر فاعليّةً فحسب. إذا ما أردتَ جعل الناس التصرّف على نحوٍ أكثر أخلاقيةً، فهناك طريقتان تستطيع اتخاذهما. تستطيع تغيير الفيل، وهذا يستغرق وقتاً طويلاً ومن الصعب القيام به. أو، استعارة فكرةٍ من كتاب ((المفتاح الرئيسي))، بقلم تشيب هيث ودان هيث،[1] فتستطيع تغيير الصراط الذي يجد الراكب والفيل نفسيهما يسافران عليه. تستطيع صنع اضطراباتٍ ضئيلة وغير مكلفة للبيئة، وهو ما يستطيع انتاج زياداتٍ كبيرة في السلوك الأخلاقي.[2] تستطيع استئجار جلاوكون بصفته مستشاراً وتطلب منه معرفة كيفيّة تصميم مؤسساتٍ تهتمُّ فيها العناصر البشرية الحقيقية بسمعتها دائماً، سيتصرّفون بطريقةٍ أكثر أخلاقية.

---

(1) Heath and Heath 2010

(2) أنظر www.EthicalSystems.org للاطّلاع على محاولتي تجميع بحثٍ حول هذه "التغييرات في الصراط"، والكثير منه يسهل فعله. أحد الأمثلة الجيدة هو نتيجة دان أريلي بحيث إنْ طلَبتَ من الناس التوقيع على تقرير إنفاق في البداية، والوعد بالصدق، أكثر مما هو في النهاية، بالتأكيد أنهم كانوا صادقين، فتحصل على انخفاضٍ كبير في الادعاء الزائد للتكاليف. أنظر Ariely 2008



باختصار

المبدأ الأول لعلم النفس الأخلاقي هو الحدسُ يأتي أولاً، والتفكير الاستراتيجي ثانياً. ولبرهان الوظائف الاستراتيجية للتفكير الأخلاقي، قمت بمراجعةِ خمسة مجالاتٍ من البحث تظهر أنّ التفكير الأخلاقي أكثرُ شبهاً بالسياسي الباحث عن الأصوات من عالمٍ باحثٍ عن الحقيقة:

- نحن مهتمّونعلى نحوٍ مهووس بما يظنّه الآخرون بنا، على الرغم من أنّ الكثير من الاهتمام غير واعٍ وغير مرئيٍ لنا.
- يقوم التفكير الواعي بوظيفته مثل السكرتير الصحفي الذي يقوم أوتوماتيكياً بتبريرأيّ موقفٍ يتّخذه الرئيس.
- بمساعدة سكرتيرنا الصحفي، نحن قادرون على الكذب والغش غالباً، ثمّ نقوم بتمويهه بطريقةٍ مؤثرة حتى نقتنع بها أنفسنا كذلك.
- يستطيع التفكير في الحجج أن يأخذنا تقريباً إلى أيّة نتيجةٍ نريد الوصول إليها ، لأننا نسأل "هل أستطيع الاعتقاد بالأمر؟" عندما نريد الاعتقاد بشيءٍ ما، ولكنْ "هل يجب الاعتقاد به؟" عندما لا نريد الاعتقاد. والجواب دائماً تقريباً هو نعم على السؤال الأول ولا على السؤال الثاني.
- في الأمور الأخلاقية والسياسية غالباً ما نكون جمعيين أكثر منا أنانيين. ونعرض مهاراتنا في التفكير بالحجج لدعم فريقنا، وللبرهان على التزامنا بفريقنا.

لقد ختمت بالتحذير من أنّ عبادة العقل، التي توجد في بعض الأحيان في الأوساط الفلسفية والعلمية، إنما هي وهم. وهي مثالٌ عن اليقين في شيءٍ غير موجود. طالبتُ عوضاً عن ذلك بمقاربةٍ أكثر حدسيةً نحو الأخلاق والتربية الأخلاقية، وهي مقاربةٌ أكثر تواضعاً حول قدرات الأفراد، وأكثر توليفاً نحو السياقات والنظم الاجتماعية التي تمكّن الناس من التفكير والعمل على نحوٍ جيد.



لقد حاولت طرح قضيّةٍ معقلنة هي أنَّ قدراتنا الأخلاقية توصَفُ على نحوٍ أفضل من منظورٍ حدسي. لا أدعي بأنني قمتُ باختبار المسألة من الجوانب كافة، أو قدمت حلولاً لا يمكن دحضها. بسبب قوة الانحياز التثبيتي التي يستحيل التفوق عليها، لا بد أن يتمّ إنتاج الحجج المضادة من قبل أولئك الذين لا يوافقونني الرأي. في خاتمة المطاف، إن كان الوسط العلمي يعمل كما هو مفترضٌ به، فإنَّ الحقيقة ستبرزعلى شكلِ عقول معطوبة محدودة تخوض الصراع.

هذا ختام القسم الأول من هذا الكتاب، والذي كان يعالج المبدأ الأول من علم النفس:حالات الحدس تأتي أولاً، والتفكير الاستراتيجي ثانياً. ولشرح هذا المبدأ استخدمت الصورة المجازية للعقل على أنه الراكب (التفكير) على فيلٍ (الحدس)، وقلتُ إنَّ وظيفة الراكب هي خدمة الفيل. التفكير ينطوي على أهمية، لا سيّما أنّ الأسباب تؤثر على الناس فعلياً في بعض الأحيان، لكنّ معظم الحدث في علم النفس الأخلاقي إنما هو في عمليات الحدس. في القسم الثاني سأصبح أكثر تفصيلاً بشأن ما هي هذه الحالات الحدسية ومن أين تأتي. وسوف أرسم خريطة الفضاء الأخلاقي، وسوف أظهرُ لماذا تلك الخريطة هي عادةً أكثر إيجابية نحو السياسيين المحافظين من الليبراليين.



القسم الثاني

يوجد أكثر من الأذى والعدل
مما يتعلّق الأخلاق

الصورة المركزية المجازية

العقل القويم أشبه بلسانٍ له
ستة أعضاءٍ حسية




مكتبة
التنوير

خامساً

ما وراء الأخلاق الغريبة

حصلت على درجة الدكتوراة عند شركة ماكدونالدز. وعلى جزء منها، على أية حال، مع حساب الساعات التي أمضيتها خارج مطعم ماكدونالدز في ويست فيلادلفيا محاولاً تجنيد أشخاصٍ بالغين من الطبقة العاملة للتحدث إليّ من أجل البحث المتعلّق بأطروحتي. وعندما وافق شخصٌ ما، كنّا نجلس معاً في مساحة الجلوس عند الباب الخارجي، وكنت أسأله ماذا يظنّ بشأن العائلة التي أكلت كلبَها، والمرأة التي استخدمت علَمَها خرقةً، والبقية تأتي. حصلتُ على نظراتٍ غريبة عندما تقدّمت المقابلات، وعلى الكثير من الضحك كذلك ـ ولا سيما عندما أخبرت الأشخاص عن الفتى والفرّوج. كنت أتوقّع ذلك، لأنني قمت بكتابة القصص لإدهاش الأشخاص وحتى صدمهم.

لكنّ ما لمْ أتوقعْهُ أنّ هؤلاء المشاركين في التجربة من الطبقة العاملة سيجدون في بعض الأحيان رجائي بتقديم التبريرات باعثاً على الإرباك إلى هذا الحد. كلّ مرة يقول شخصٌ ما إنّ الأشخاص في قصةٍ ما قد فعلوا أمراً خاطئاً، أسأله، "هل لك أن تخبرني لمَ كان ذاك خطئاً؟" عندما كنت قد قابلت طلبة الكلية في حرم بنّ الجامعي قبل شهر، أدى هذا السؤال إلى إبراز تبريراتهم الأخلاقية على نحوٍ بالغ السلاسة. ولكن على بعد عدة مبانٍ نحو الغرب، المسألة نفسها غالباً ما قادت إلى لحظات صمت وتحديقات عدم التصديق. بدا كأنّ هذه السكتات والتحديقات تقول، تقصد أنّك لا تعرف لماذا من الخطأ فعل ذلك للفرّوج؟ عليّ أن أشرح هذا الأمر لك؟ من أيّ كوكب أنت؟



كان هؤلاء المشاركون في التجربة على حقٍ في الاستغراب مني لأنني كنت شخصاً غريباً. كنت قادماً من عالمٍ أخلاقيٍّ غريب ومختلف - جامعة بينسلفانيا. كان طلبة جامعة بنسلفانيا الأكثر خروجاً على المألوف بين كل المجموعات الاثنتي عشرة في دراستي. كانوا متفرّدين في تفانيهم الذي لا يتزعزع في سبيل "مبدأ الأذى"، الذي طرحه جون ستيوارت ميل في عام 1859: "إنّ الغرض الوحيد الذي من أجله يمكن ممارسة السلطة عن وجه حق على أيّ عضوٍ من تجمّعٍ متحضّر، ضد إرادته، هو منع الأذيّة عن الآخرين."[1] وكما قال أحد طلبة جامعة بنسلفانيا "الفروج يخصّه، وهو يأكله، لا أحد يتعرّض للأذى."

كان طلبة جامعة بنسلفانيا من المرجّح أن يقولوا كما قال الأشخاص في المجموعات الإحدى عشرة الأخرى إن يقولوا إنّ انتهاكات الحرمات ستزعجهم مشاهدتها، لكنّهم كانوا الجماعة <u>الوحيدة</u> التي تجاهل أعضاؤها تكراراً مشاعر القرف الخاصة بهم وقالوا إنّ الفعلة التي أزعجتهم كانت بالرغم من ذلك مقبولة من الناحية الأخلاقية. وكانوا الجماعة الوحيدة التي كان غالبية أعضائها (73 بالمائة) قادرين على التسامح مع قصة الفروج. كما قال أحد طلبة جامعة بنسلفانيا: "إنها فعلة منحرفة، لكنْ إن تمّت في السر، فهي من حقه."

كنت أنا وزملائي طلبة جامعة بنسلفانيا غريبي أطوارٍ بطريقةٍ أخرى أيضاً. في عام 2010، نشر علماء النفس الثقافيين جو هنريش، وستيف هايني، وآرا نورينزايان مقالة مهمة في العمق بعنوان "أكثر أهل الأرض غرابة في الأطوار؟"[2] وأوضح المؤلّفون أنّ كل البحث في علم النفس تقريباً تم إنجازه على مجموعة فرعية صغيرة جداً من السكان البشر: وهم أشخاصٌ من ثقافات غربية، متعلّمون، ومصنّعون، وأغنياء، وديمقراطيون (تشكّل الأحرف الأولى من هذه الصفات بالانكليزية WEIRD وتعني غريب الأطوار). بعدئذٍ قاموا بمراجعة عشراتٍ الدراسات التي تظهر أن الأشخاص WEIRD غريبي الأطوار هم مقيمون

(1) Mill 2003/1859, p. 80

(2) Henrich, Heine, and Norenzayan 2010



إحصائيون بعيداً عن الجامعة؛ فهم الأقل نمطيّةً، والأقل تمثيلاً للأشخاص الذين يمكنك دراستهم إذا ما أردت القيام بتعميمات بشأن الطبيعة البشرية. وحتى ضمن نطاق الغرب، يقيم الأمريكان بعيداً عن مكان العمل أكثر مما يفعل الأوروبيون. وضمن نطاق الولايات المتحدة، الطبقة الوسطى العليا المتعلمة (مثل عيّنتي من جامعة بنسلفانيا) هي الأكثر خروجاً على المألوف بين الجميع.

من الممكن التقاط السمات الغريبة لثقافة غريب الأطوار في هذا التعميم البسيط: كلما ازددت غرابةً في الأطوار، ازدادت رؤيتك العالم مليئاً بأجسامٍ منفصلة، أكثر من رؤيتك للعلاقات. لقد أُفيدَ منذُ أمدٍ بعيد أنَّ الغربيين يمتلكون مفهوماً أكثر استقلالية وسيادةً عن الذات من الشرق أسيويين.[1] على سبيل المثال، عندما طُلِبَ من الأمريكان كتابة عشرين بياناً يبدأ كلٌّ منها بكلمة "أنا ..."، كان من المرجّح أنْ يُدرِجوا سماتهم النفسية الداخلية (سعيد، غير متحفّظ، مهتم بالجاز)، أما الأسيويون فمن الأكثر ترجيحاً أن يدرجوا أدوارهم وعلاقاتهم (إبن، زوج، موظف لدى شركة فوجيتسو).

وتذهب الفروقات إلى العمق؛ فحتى الإدراك البصري يتأثر. فيما يُعرَفُ بفرض الخط المؤطّر، يُعرَضُ عليك خطٌّ مرسومٌ داخله. مثمّ تقوم بقلب الصفحة وترى مربّعاً فارغاً أكبر من المربع الأصلي أو أصغر. وفرضُكَ هو رسم خطٍ مشابه تماماً للخط الذي شاهدته في الصفحة السابقة، إما بشروط مطلقة (عدد السنتيمترات ذاته؛ تجاهل الإطار الجديد) أو بشروطٍ نسبية (التناسب ذاته بالعلاقة مع الإطار). يتميّزالغربيون، والأمريكان تحديداً، في الفرض المطلق، لأنهم شاهدوا الخطَ جسماً مستقلاً في المقام الأول وخزّنوه على نحوٍ منفصلٍ في الذاكرة. الشرق أسيويون، بالمقابل، تفوقوا على الأمريكان في أداء الفرض النسبي، لأنهم فهموا أوتوماتيكياً وتذكروا العلاقات بين الأجزاء.[2]

---

(1) Markus and Kitayama 1991

(2) لمراجعة هذه الأنواع من الفروقات الثقافية، أنظر Kitayama et al. 2009



وبهذا الفرق في الإدراك يتعلّق الفرق بأسلوب التفكير. معظم الناس يفكّرون شمولياً (رؤية السياق بكامله والعلاقات بين الأجزاء)، لكن الأشخاص غريبي الأطوار يفكّرون بطريقةٍ أكثر تحليليةً [يبعدون الجسم موضع التركيزمن سياقه، ويقومون بإلحاقه بفئة، ثمّ يفترضون أنّ ما هو صحيحٌ في حال الفئة صحيح في حال الجسم).[1] لدى تجميع ذلك كلّه، يبدو أمراً ذا مغزى أنَّ الفلاسفة غريبي الأطوار منذ [الفيلسوفين] كانتْ وميلل قد أحدثوا في المقام الأول نُظُماً أخلاقية قائمة على الفردية، ومؤسسة على القواعد، وكونية. وهذه هي الأخلاق التي تحتاجُها إدارة مجتمعٍ مؤلّفٍ من الأفراد المستقلّين.

لكنْ عندما يكتب المفكّرون الشموليّون في ثقافةٍ ليست غريبة الأطوار عن الأخلاق، نحصلُ على شيءٍ أشبه بمنتخبات كونفوشيوس الأدبية، وهي مجموعة من الأقوال المأثورة والنوادر التي لا يمكن تقليصها إلى قاعدةٍ واحدة.[2] يتحدّث كونفوشيوس عن تنوع الواجبات والفضائل المتعلّقة [بالشأن] الخاص- العلاقة (مثل التقى الأبوي وحسن معاملة المرء للأتباع).

إذا ما كان الأشخاص غريبو الأطوار والأشخاص غير غريبيّ الأطوار يفكّرون على نحوٍ مختلف ويرون العالم على نحوٍ مختلف، إذن تبرز الحجة بأنهم سيمتلكون اهتماماتٍ أخلاقية مختلفة. إذا ما رأيت العالم مليئاً بالأفراد، فسوف ترغب بأخلاق كولبيرج وتوريل ـ وهي أخلاقٌ تحمي هؤلاء الأفراد وحقوقهم الفردية. وسوف تؤكد على الأذية والعدالة.

---

[1] Nibett et al. 2001

[2] في [Analects] المنتخبات الأدبية 24/15، يُسألُ كونفوشيوس إن توجدْ كلمةٌ واحدةٌ تستطيع توجيه حياة المرء. فيجيب: "ألن تكون كلمة التبادلية؟ ما لا تتمنّاه لنفسك، لا تتمنّاه للآخرين" (Lays 1997). لكن لا توجد طريقة لحصر التعاليم الأخلاقية للمنخبات الأدبية في قاعدة ذهبية. لدى قراءتي لها، تعتمد المنتخبات الأدبية على ستةِ أسسٍ أخلاقية سأقدّمها في الفصول 7 و8.



لكن لو كنت تعيش في مجتمع ليس غريب الأطوار من المرجّح أن يرى الناس فيه العلاقات، والسياقات، والجماعات، والمؤسسات، إذن لن يكون تركيزك الزائد على حماية الأفراد.. بل سيكون لديك أخلاق اجتماعيّة التركيز، مما يعني (حسبما وصفها شودير سابقاً في الفصل 1) أنك تضع حاجات الجماعات والمؤسسات أولاً، قبل حاجات الأفراد في الغالب. وإذا ما فعلت ذلك، لن تكون الأخلاق القائمة على الأذية والعدالة كافية. وسوف يكون لديك اهتماماتٌ إضافية، وستحتاج مزيداً من الفضائل لربط الناس مع بعضهم.

القسم الثاني من هذا الكتاب هو عن الاهتمامات الإضافية والفضائل. وهو عن المبدأ الثاني لعلم النفس الأخلاقي: يوجد أكثر من الأذية والعدل مما يتعلّق بالأخلاق. سأحاول إقناعكم بأنّ هذا المبدأ حقيقي من الناحية الوصفية ـ أي، كصورة النظم الأخلاقية التي نراها عندما ننظر حول العالم. وسوف أنحّي جانباً السؤال فيما إذا كانت أيٌّ من هذه الأخلاقيات البديلة فعلياً جيدة، أو حقيقية، أو مبررة. بصفتي شخصاً حدسياً، أعتقدُ أنَّ من الخطأ طرح ذاك السؤال القوي شعورياً حتى نقوم بتهدئة فيلتنا وصقلِ فهمنا بشأن ما تحاول تلك الأخلاقيات إنجازه. إنه من السهولة بمكانٍ أن يقوم الراكبون برفع قضيةٍ ضدَّ كل منظومة أخلاقية، وحزبٍ سياسي، ودينٍ لا نحبّه.[1] وهكذا لنحاول فهم التنوّع الأخلاقي أولاً، قبل إطلاق حكم على النظم الأخلاقية الأخرى.

ثلاثة منظومات أخلاقية أكثر تصويرية من واحدة

إنّ جامعة شيكاجو فخورةٌ بتصنيفها من قِبَل مجلة ((بلاي بوي)) على أنها "أسوأ مؤسسة تعليمية من ناحية الحفلات" في الولايات المتحدة. ففصول الشتاء طويلة وقاسية، والمكتبات تفوق البارات عدداً، ويرتدي الطلبة تي- شيرت يظهر قوس الجامعة فوق عباراتٍ مثل "حيث يذهب المرح إلى الموت" و"لا يتجمّد الجحيم." وصلتُ إلى الجامعة في أحد أماسي شهر أيلول عام 1992، وقمت بتفريغ العربة التي استأجرتها، وخرجت لتناول كأس من البيرة. على الطاولة المجاورة

[1] أنظر على سبيل المثال كُتُب Sam Harris, such as *The End of Faith* and *The Moral Landscape*



لطاولتي، كان يدور نقاشٌ حامي الوطيس. قام رجلٌ ملتحٍ بخبط يده فوق الطاولة وصرخ: "اللعنة، أنا أتحدث عن ماركس!"

كان هذا ثقافة شويدر. لقد تمَّ منحي عضويةً للعمل مع شويدر طوال عامين بعد أنْ حزت على الدكتوراة في جامعة بنسلفانيا. كان شويدر المفكر الرائد في علم النفس الثقافي ـ وهو اختصاصٌ جديدٌ دَمَجَ حبَّ الأنثروبولوجيّين بالسياق والمتغيِّرية واهتمام علماء النفس بالعمليات الذهنية.[1] وقول الفصل في علم النفس الثقافي هو "إنّ كلاً من الثقافة والطبيعة النفسية يقوم بتصنيع الآخر."[2] بمعنى آخر، لا تستطيع دراسة العقل دون دراسة الثقافة، كما يفعل علماء النفس عادةً، لأنَّ العقول تقوم بوظيفتها فور امتلائها بثقافةٍ محددة فقط. ولا تستطيع دراسة الثقافة بمعزلٍ عن علم النفس، كما يفعل علماء الأنثروبولوجيا، لأنَّ الممارسات والمؤسسات الاجتماعية (مثل طقوس البدايات، والسحر، والدين) إلى حدٍّ ما متشكّلة بموجب مفاهيم ورغبات متجذّرة عميقاً داخل العقل البشري، الذي يشرح لماذا هي في الغالب تأخذ أشكالاً متشابهةً في قاراتٍ مختلفة.

كنتُ قد انجذبتُ على وجه الخصوص إلى نظريةٍ جديدة تخصّ الأخلاق كان شويدر قد طوّرها تأسيساً على بحثه في أوريسا (الذي وصفتُه في الفصل 1). بعد أن نشَرَ تلك الدراسة، استمر هو وزملاؤه في تحليل نصوص ستمئة مقابلة قاموا بتجميعها. فوجدوا ثلاث مجموعاتٍ رئيسة من الموضوعات الأخلاقية، والتي دعوها أخلاق الاستقلالية، والجمعيّة، واللاهوت.[3] كلّ واحدة منها قائمة على فكرةٍ مختلفة عما هو الإنسان حقاً.

---

[1] ليس جديداً تماماً. حسبما يشرح شويدر 1990a ، كان قد برز عدة مراتٍ في مجال علم النفس. لكنْ إذا ما أسمتْ إحداهنّ نفسها عالمة نفسٍ ثقافية، فمن المحتمل أن تنظّم نفسها في المجال حسبما تمت إعادة ولادته في السنوات العشر التي تلت نشر Shweder and LeVine 1984

[2] Shweder 1990a

[3] كانت أول إشارة تمّ نشرها إلى الأخلاقيات الثلاثة هي Shwede 1990a . المقولة الرئيسية للنظرية في Shweder et al. 1997



إنّ أخلاق الاستقلالية قائمة على فكرة أن الناس، أولاً وقبل كل شئ، أفراد مستقلون لهم متطلّبات، وحاجات، وتفضيلات. يجب أن يكون الناس أحراراً ليلبوا متطلّباتهم، وحاجاتهم، وتفضيلاتهم حسبما يرونه مناسباً، وهكذا تُطوّر المجتمعات المفاهيم الأخلاقية مثل الحقوق، والحرية، والعدل، التي تسمح للناس بالتعايش بسلام دون تدخّلٍ كثير في مشروع كل منهم. هذا هو الخُلُق السائد في المشاريع الفردية. تجده في كتابات النفعيين مثل جون ستيوارت مِلْ وبيتر سينجر[1] (الذي يُثمّن العدلَ والحقوق إلى الحد الذي يزيدان فيه رفاه الإنسان فحسب)، وتجده في كتابات علماء الأخلاق والواجبات مثل كانت وكولبرج (وهما يثمّنان العدل والحقوق حتى في حالاتٍ حيث القيام بذلك قد يقلّص الرفاه بالمجمل).

لكنّ فور خروجك من المجتمع الغربي العلماني، تجد أنَّ الناس يتحدّثون بلغتين أخلاقيّتين إضافيّتين. إن خُلُق الجمع قائمٌ على فكرةٍ مفادها أنَّ الناس، أولاً وقبل كلّ شئ، أعضاءٌ من كياناتٍ أكبر مثل العائلات، والفِرَق، والشركات، والقبائل، والأمم. فهذه الكيانات الأكبر إنما هي أكثر من مجموع الأشخاص الذين يتكونون منهم؛ فهي حقيقية، وهي ذات أهمية، ولا بُدَّ من حمايتها. ليس الناس مجبرين على القيام بالأدوار المحددة لهم في هذه الكيانات. وهكذا يطوّر كثيرٌ من المجتمعات مفاهيم أخلاقية مثل الواجب، والهرمية، والاحترام والسمعة، والوطنية. في مجتمعاتٍ كهذه، يبدو إصرار الغرب على أنَّ الناس يجبُ أنْ يصمموا حياتهم الخاصة ويسعوا نحو أهدافهم الخاصة أنانياً وخطيراً ـ وهي طريقةٌ أكيدة لإضعاف النسيج الاجتماعي وتدمّرُ المؤسسات والكيانات الجمعية التي يعتمد عليها كل شخص.

---

[1] بيتر سينجر أبرز الفلاسفة النفعيين في زمننا. أنظر P. Singer 1979



يقوم خلُق اللاهوت على فكرة أنّ الناس هم، أولاً وقبل كلّ شيء، أوعية مؤقتة تمَّ زرع روحٍ إلهيةٍ في داخلها.[1] فالناس ليسوا حيواناتٍ فحسب وإنما لديهم خدمة إضافية من الوعي؛ إنهم أبناء الله وعليهم أن يتصرفوا بموجب ذلك. فالجسد معبد، وليس ملعباً. وحتى لو لمْ يتسبب الأمر بأيّة أذية أو انتهاكٍ لحقوق أيّ شخص عندما يمارس رجل الجنس مع جثّة فروج، فهو رغم ذلك عليه ألا يفعل ذلك لأنّه يحطُّ من شأنه، ويهين خالقَه، وينتهك نظام الكون المقدس. لقد رسَّخ تطوّر كثير من المجتمعات بالتالي مفاهيمَ مثل الورع والإثم، والنقاء والتلوث، والسمو والانحطاط. في مجتمعاتٍ كهذه، تبدو الحرية الشخصية للأمم العلمانية الأوروبية أشبه بالفسق، ومذهب المتعة ، والاحتفاء بغرائز البشرية الدنيا.[2]

لقد قرأتُ عن أخلاقيات شويدر الثلاثة في عام 1991، بعد أن قمتُ بتجميع بياناتي في البرازيل وقبل الشروع بكتابة أطروحتي. ولاحظتُ أنّ جميع أفضل قصصي ـ التي دفعت الناس إلى اتخاذ ردة فعل شعورية دون أن يكونوا قادرين على إيجاد ضحيّة ـ تنطوي على [أمرين هما] إما عدم احترام، وهو ما انتهك أخلاق الجمع (على سبيل المثال، استعمال العلم كخرقة)، او القرف والاتصال الجنسي، والتي انتهكت أخلاق اللاهوت (على سبيل المثال، الأمر المتعلق بالفرّوج).

استخدمتُ نظريّة شويدر لتحليل التبريرات التي قدّمها الناس (عندما سألتهم "هل يمكنكَ أنْ تخبرني لماذا؟")، ففعلتْ فعلَ السحر. تحدث طلبة بنسلفانيا

---

[1] لا داعي أن تكون روحاً فيها أيّ شيءٍ من المعنى المسيحي. كما أظهر بول بلوم (200)، نحن "ازدواجيّون بالولادة الطبيعية". على الرغم من التنويعات الدينية الهائلة، يعتقد معظم الناس (بمن فيهم الكثير من الملحدين) أنّ العقل، أو الروح، أو النفس هي شيءٌ ما منفصلٌ عن الجسد، وهي شيءٌ يسكن الجسد.

[2] هذا على سبيل المثال كان النتيجة التي وصلَ إليها سيّد قطب، وهو مصريٌّ أمضى سنتين للدراسة في أمريكا في الأربعينات. لقد شعر بالنفور، وأثّرَ هذا النفورالأخلاقي عمله اللاحق كفيلسوف إسلامي ومنظر، وهو واحدٌ من مصادر إلهام أسامة بن لادن والقاعدة.



تقريباً على نحوٍ حصري بلغةِ خُلُق الاستقلالية، في حين أن المجموعات الأخرى (ولا سيما مجموعات الطبقة العاملة) قاموا باساخدامٍ كثيرٍ لخُلُق الجمع، وبقليلٍ من استخدام خُلُق اللاهوت.[1]

بعد وقتٍ قصير من وصولي إلى شيكاجو، تقدمتُ إلى منحة فولبرايت لتمضية ثلاثةِ أشهرٍ في الهند، حيث أملتُ أن أحصل على نظرة أقرب إلى أخلاقيات اللاهوت. (كانت الأكثر ندرةً بين الأخلاقيات الثلاثة في بيانات أطروحتي.) لأنني كنتُ قادراً على الاعتماد على شبكة شرويدر الموسعة من الأصدقاء والزملاء في بوبانيسفار، المدينة الرئيسة في أوريسا، كان سهلاً بالنسبة إليَّ تجميع مشروعِ بحثٍ مفصّل، كانت قد تمّتْ تغطيته مالياً. بعد تمضية عامٍ في شيكاجو قارئاً علم النفس الثقافي ومتعلّماً من شرويدر وطلبته، طرتُ إلى الهند في أيلول 1993.

كيفَ أصبحتُ شعبوياً

كنت على نحوٍ غير اعتيادي أتلقى جودة الاستضافة وخير المعاملة. أتيح لي استخدام شقة سكنية، وجاء معها خادمٌ وطباخٌ متفرّغان.[2] ولقاء خمسة دولارات في اليوم استأجرتُ سيارةً مع سائق. تمّ الترحيب بي في الجامعة المحلية من قِبَل البروفيسور بيرانشي بوهان، وهو صديق قديم لشرويدر، الذي قدّم لي مكتباً وعرّفني على معظم قسم علم النفس، الذين طوّعتُ منهم فريقاً بحثياً من الطلبة المتحمّسين. في ظرفِ أسبوعٍ كنتُ مستعداً لأبدأ عملي، الذي كان من المفترض أنْ يكون سلسلةً من التجارب على الحكم الأخلاقي، ولا سيّما انتهاكات

[1] تمّ تقديم تقريرٍعن نص هذه التحليلات في Haidt et al. 1993 . أنظر أيضاً عمل Lene Arnett Jensen (1997, 1998)، الذي وصلَ إلى نتائج مشابهة تُطبِّق أخلاقيات شرويدر الثلاثة على فروقات بين المشاركين التقدميين والأرثوذكسيين، في الهند والولايات المتحدة.

[2] أنا ممتنٌ أبد الدهر للمرحوم سوكومارسين واتبنه سوروجيت سين، من كوتاك وبهوبانسسفار، على كرمهما ولطفهما.



أخلاقيات اللاهوت. لكنّ هذه التجارب علّمتني قليلاً بالمقارنة مع ما تعلّمتُه فحسب من التسكع في أرجاء شبكة مدينةٍ هنديةٍ عنكبوتية اجتماعية معقدة ثمّ التحدث مع المضيفين والناصحين بشأن تشويشي.

كان أحد أسباب تشويشي أنني أحضرت معي هويتين متعارضتين. من جانب أول، كنتُ ملحداً ليبرالياً في التاسعة والعشرين من عمري مع آراء قطعية بشأن الصواب والخطأ. من جانب آخر، اردتُ أنْ أكون مثل علماء الأنثروبولوجيا ذوي العقول المنفتحة أولئك الذين قرأتُ الجم الكثير عنهم ودرست معهم، مثل آلان فيسك وريتشارد شويدر. فكانت الأسابيع الأولى من إقامتي في بوبانيسفار حافلة بمشاعر الصدمة وعدم الانسجام. تناولت الغداء مع رجالٍ قامت زوجاتهم بخدمتنا بصمتٍ ومن ثمّ انسحبنَ إلى المطبخ، دون أن يتحدّثنَ إليّ طوال المساء. لقد أخْبرتُ لأكونَ أكثر حزماً مع خادميّ، وأتوقّف عن شكرهما لخدمتهما إياي. راقبتُ الناس يستحمّون يستحمّون في ماءٍ ملوثٍ ويستعملونه على نحوٍ مرئي اعتقاداً بأنه مقدس. باختصار، كنت غارقاً في مجتمعٍ قائم على الفصل بين الجنسين، ومصمم طبقياً على نحوٍ هرمي، ومتديّن على نحوٍ تقي، وكنتُ ملتزماً بفهمه بشروطه الخاصة، لا بشروطي.

لقد استغرق عدم انسجامي أسابيع قليلة ليتلاشى، ليس لأنني كنتُ أنثروبولوجياً وإنما لأنَّ القدرة الإنسانية على التقمص العاطفي بدأتْ تفعَلُ فعلها. أحببتُ هؤلاء الناس الذين كانوا يستضيفونني، ويساعدونني، ويدرّسونني. حيثما ذهبت، كان الناس لطفاءً معي. وعندما تكون ممتناً من الناس، فمن الأسهل أن تتبنّى منظورَهم. لقد مال فيلي تجاههم، مما جعل راكبي يبحث عن أحكامٍ أخلاقية للدفاع عنهم. بدلاً من رفض الرجال بشكلٍ أوتوماتيكي على أنهم قامعون للجنس الآخر والإشفاق على النساء، والأطفال، والخدم بوصفهم ضحايا بؤساء، بدأتُ رؤية عالمٍ أخلاقي حيث العائلات، لا الأفراد، هنّ وحدة المجتمع الأساسية، وأعضاء كلِّ عائلةٍ موسّعة (بما فيها الخدم) متكلون على نحوٍ متبادل إلى أبعد الحدود. في هذا العالم، لم تكنْ المساواة والاستقلالية الشخصية قيمتين مقدّستين. فكان احترام الكبار، والآلهة، والضيوف، وحماية الأتباع، والقيام بالواجبات القائمة على دور الشخص هي الأهمّ.



كنتُ قد قرأتُ أخلاقية شويدر عن الجمع وفهمتها ذهنيّاً. لكن الآن، وللمرة الأولى في حياتي، بدأتُ أشعر بها. بدأتُ أرى جمالاً في شيفرةٍ أخلاقية تؤكّد على الواجب، واحترام المرء للكبار، وخدمة الجماعة، وإنكار رغبات الذات. كنت ما أزال أستطيع رؤية وجهها القبيح: كنت أستطيع رؤية أنّ السلطة في بعض الأحيان تقود إلى التباهي والإيذاء الجسدي. وكنت أستطيع أن أرى أنّ الأتباع ـ خاصةً النساء ـ كانوا في الغالب ممنوعين من القيام بما كانوا يريدون القيام به بفعل نزواتٍ من كبارهم (ذكوراً وإناثاً). ولكن للمرة الأولى في حياتي، كنتُ قادراً على الخروج من أخلاقي المحلية، أخلاق الاستقلالية. كان لدي مكاناً أقف فيه، ومن موقعٍ أفضليّة أخلاقية الجمع، فبدت أخلاقية الاستقلالية حالياً مفرطةً في فرديّتها ومرتكزةً على الأنا. في شهوري الثلاثة في الهند قابلتُ بضع أشخاص أمريكان. لكن عندما ركبت متن الطائرة عائداً إلى شيكاجو سمعتُ صوتاً بلكنة أمريكية على نحوٍ لا لبسَ فيه يقول، "أنظر، قلْ له أنّ حجيرة الأمتعة فوق مقعدي، وأنا أملك الحق باستخدامها." انكمشت.

وكان الشيءُ نفسه قد حدثَ مع أخلاقية اللاهوت. لقد فهمت ذهنياً أن أتعامل مع الجسد على أنه معبدٌ لا ملعب، لكنَّ ذاك كان مفهوماً تحليلياً لفهم مغزى أناسٍ كانوا مختلفين عني جذرياً. كنت شخصياً شديد الولع بالبهجة وكنت أجد ما قلَّ من التبرير لاختيار القليل لا الكثير منها. كنت مكرّساً تماماً للفاعلية، وهكذا كنتُ أجدُ أقل تبريرٍ لتمضية ساعةٍ أو ساعتين يومياً أؤدي الصلوات وأقوم بالشعائر. ولكنْ هناك كنتُ في بهوبانسفار، أجري مقابلاتٍ مع كهنةٍ هندوس، ورهبانٍ، وعامة الناس عن مفاهيم الطهارة والتلوّث وأحاول أن أفهم لمَ يضع الهندوس الكثير من التأكيد على الاستحمام، والاختيارات الغذائية، والاهتمام بشأن ماذا أو من لامس المرء. لمَ يهتمُ آلهةُ الهندوس بحالة أجساد أتباعهم؟ (ولا يتوقف الأمر على آلهة الهندوس فحسب؛ فالقرآن والتوراة العبري يظهران اهتماماتٍ مماثلة، ويعتقد كثيرٌ من المسيحيين أنّ "النظافة من الإيمان.")[1]

---

[1] في القرآن، أنظر 2: 222، 4: 43، 24: 30. في التوراة العبري، أنظر كتاب ليفينتكوس على وجه الخصوص. بالنسبة للمسيحية، أنظر Thomas 1983, chapter 1. أنظر العهد ==



في كلية الدراسات العليا قمتُ ببعض البحث بشأن القرف الأخلاقي وذاك حضّرني للتفكير بهذه المسائل. قمت بالعمل في فريق مع بول روزين (أحد كبار الخبراء في مجال علم نفس الغذاء والطعام) وكلارك مكاولي (وهو عالم نفسٍ اجتماعيٍ في كليّة براون ماور القريبة). أردنا معرفة سبب شعور القرف ـ وهو بوضوحٍ نشأ كشعورٍ يبقينا بعيداً عن القذارة والأشياء الباعثة على التلويث ـ يمكن إطلاقه بواسطة بعض الانتهاكات الأخلاقية (مثل خيانة الأطفال أو انتهاكهم جسدياً) لكنْ ليس من قبل الآخرين (مثل سطوٍ على مصرف أو الغش بشأن ضرائب المرء).[1]

كانت نظريّتنا، باختصار، انّ العقل البشري على نحوٍ أوتوماتيكي يستوعب نوعاً من البعد العمودي للفضاء الاجتماعي، ينتقل من الله أو الكمال الأخلاقي في الأعلى نزولاً عبر الملائكة، والبشر، والحيوانات الأخرى، والوحوش، والشياطين، ومن ثمّ الشيطان، أو الشيطان الكامل، في الأسفل.[2] تتنوّع قيمة المخلوقات ما فوق الطبيعية من ثقافةٍ إلى أخرى، وأنت لا تجدُ هذا البعد العمودي مفصّلاً في كلّ ثقافة. لكنّك تجد فعلاً أنّ عالي = جيّد = طاهر = الله بينما منخفض = سيّء = قذر = حيوان على نطاقٍ واسعٍ جداً. على نطاقٍ واسع، في حقيقة الأمر، على نحوٍ يبدو معه نوعاً من النموذج الأصلي (إذا كنت

الجديد المقاطع حول طهارات المسيح وأتباعه، أنظر يوحنا 3: 25، 11: 25؛ الآيات 15: 9ن 20: 26، 21: 26، 24: 18.

[1] كنا أيضاً نريد شرح لماذا الكثير من اللغات توسّع كلمتها المعبّرة عن "القرف" لتطبيقها ليس فقط على الأشياء الباعثة على الاشمئزاز فيزيائياًمثل البراز لكنْ أيضاً إلى بعض الانتهاكات الأخلاقية ــ لكنْ جميع الانتهاكات، وليس دائماً الأشياء نفسها عبر الثقافات (Haidt et al. 1997).

[2] يقرن الناس على نحوٍ حدسيّ أعلى مع الجيّد وأسفل مع السيّئ، حتى عندما يكون أعلى وأسفل مواقع نسبية على شاشة المراقبة في الحاسوب ((Meier and Robinson 2004). لمراجعات شاملة لبحثٍ حول هذا البعد النفسي، أنظر Brandt and Reyna 2011; Rozin, Haidt, and McCauley 2008; and chapter 9 of *The Happiness Hypothesis* .



من محبّي المصطلحات اليونجية [نسبةً إلى يونج عالم النفس]) أو الفكرة المعدّة فطرياً (إذا ما كنتَ تُفضّل لغة علم النفس التطوّري).

كانت فكرتنا تقوم على أنّ القرف الأخلاقي يتمُّ الشعور به كلما شاهدنا أو سمعنا عن أناسٍ سلوكهم منخفض على هذا البعد العمودي. يشعر الناس بالفسق عندما يفكرون بأشياء كهذه، تماما كما يشعرون بالسمو لدى السماع عن أعمالٍ فضيلة.[1] لكنّ رجلاً يعقُّ والديه أو يستعبد الأطفال من أجل تجارة الجنس يبدو شديد البشاعة ـ يفتقد إلى بعض العاطفة الإنسانية الأساسية. تثير أعمالٌ كهذه تقزّزنا ويبدو أنها تثير بعضاً من القرف الفيزيولوجي ذاته كما هو الحال لدى رؤية الجرذان تفرُّ خارجةً من صفيحة نفايات.[2]

تلك كانت نظريّتنا، وكان إيجاد دليلٍ عليها سهلاً في الهند. فأفكار التقمّص الهندوسية لا يمكن أن تكون أكثر جلاءً: إنّ أرواحنا تتقمّص في مخلوقاتٍ أعلى أو أدنى في الحياة الآتية، على أساس فضيلة سلوكنا في هذه الحياة. لكن كما هو الحال لدى أخلاقية الجمع، كانت الدهشة الكبيرة بالنسبة إليّ أنني بعد أشهرٍ قليلة بداتُ أشعرُ بأخلاقيّة اللاهوت بطرقٍ غير مفهومة.

كانت بعضُ هذه المشاعر متعلّقةً بالحقائق الفيزيائية للقذارة والنظافة في بهوبانيسفار. كانت الأبقار والكلاب، تطوف في أرجاء البلدة، بحيث أنك تتحاشى روثها بحذرٍ في مسيرك؛ وكنتَ ترى في بعض الأحيان أناساً يتبرّزون على

---

[1] أصف بحثي حول السمو أو القرف الأخلاقي بالتفصيل في الفصل 9 من *The Happiness Hypothesis*. أنظر أيضاً www.ElevationResearch.org

[2] غالباً ما كان يتم إظهار الانتهاكات الأخلاقية أنها تُفعّل الجزيرة الجبهية، وهو منطقةٌ من الدماغ هامة للقرف (Rilling et al. 2008; Sanfey et al. 2003)، على الرغم من أنّه حتى الآن كانت الانتهاكات الأخلاقية المستخدمة تنطوي على الغش، وليس على ما كان كلّ من روزين، ومكاولي، وأنا يدعونه القرف الأخلاقي. أنظر Rozin, McCauley, and Fincher 2009 .



قارعة الطريق: والنفايات كانت في الغالب مكدسةً في أكوامٍ يحتشد فوقها الذباب بأعدادٍ هائلة. بدا الأمر لي طبيعياً أن أخلع حذائي لدى دخولي ايّ منزلٍ خاص، مصطنعاً حداً فاصلاً بين الفضاءات النظيفة والقذرة. حين كنت ازور المعابد أصبحتُ مولّفاً حيال الطبوغرافيا الروحية الخاصة بها: الصحن أعلى (أكثر طهارة) من الشارع؛ وحجرة المعبد الداخلية أعلى كذلك الأمر، والحرم الداخلي، حيث يتوضع الإله، يمكن للكهنة البراهميين دخوله فحسب، والذين اتبعوا كلّ قواعد الطهارة الشخصية. وكانت المنازل الخاصة تتمتع بذات الطبوغرافيا، وكان عليّ عدم دخول المطبخ أو الغرفة حيثُ كانت النذور تحضَّرُ للآلهة. وتنطبق طبوغرافيا الطهارة على جسدك الخاص: تتناول الطعام بواسطة يدك اليمنى (بعد غسلها)، وتستخدم يدكَ اليسرى في تنظيف نفسك (بالماء) بعد التبرّز، وهكذا تطوّر مغزىً حدسياً مفاده أنَّ اليسار = قذر ويمين = نظيف. فيصبح من الطبيعة الثانية عدم تقديم الأشياء للناس الاخرين باستخدام يدك اليسرى.

لو كانت هذه المشاعر قدرةٍ جديدة فحسب على التقاط أشعةٍ قذرة غير مرئية تنتشر من الأجسام المادية، لكانت قد ساعدتني في فهم فوضى الهوس-القسري، وليس الأخلاق. لقد كانت هذه المشاعر أكثر من ذلك. في أخلاقية اللاهوت، هناك نظامٌ للكون، والأشياء (كالناس) يجب أن تتمَّ معاملتهم بالتبجيلِ أو القرف الذي يستحقّونه. عندما عدتُ إلى شيكاجو، بدأتُ أشعرُ بماهيّاتٍ إيجابية تخرج من بعض الأجسام المادية. تجلّى صواباً بالنسبة إلي التعامل مع كتبٍ محددة بتبجيل ـ دون تركها على الأرض أو أخذها إلى الحمام. عظات الجنازة أو الدفن (التي كانت بالنسبة إليّ في السابق شكلاً من هدر المال والفضاءات المكانية) بدات تعطيني مغزى اكبر بكثير. فالجسد البشري لا يصبحُ على حين غرّة جسماً متشيّئاً، مثل جثّة أي حيوانٍ ميت، عند لحظة الموت. هناك طرقٌ صحيحة وطرقٌ خاطئةٌ في التعامل مع الأجساد حتى عندما لا يكون الوعي موجوداً في الجسد لتجريب سوء المعاملة.



بدأتُ أفهم كذلك الأمر لماذا انطوت حروب الثقافة الأمريكية على كثيرٍ من المعارك حول تدنيس المقدسات. فهل العلم مجرّد قطعة قماش، من الممكن حرقها كصيغةٍ احتجاج؟ أو هل يحتوي العلم في داخله على شيءٍ غير مادي عندما يحرقه المحتجون، إنما يقترفون فعل سوءٍ (حتى لو لمْ يرَهم أحد أثناء الإقدام على فعلتهم)؟ وعندما يقوم فنانٌ بغمس الصليب في القطران أو البول أو يلطّخ صورة مريم العذراء بروث الفيل، هل تنتمي هذه الأعمال إلى متحف الفن؟[1] هل يستطيع الفنان ببساطةٍ أنْ يقول للمسيحيين المتديّنين، "إذا لم ترغبوا برؤيتها، لا تذهبوا إلى المتحف"؟ وهل يجعل مجرّدُ وجود أعمالٍ كهذه العالمَ أكثر قذارةً، ودنساً، وفسوقاً؟

إذا لمْ تجد أي خلل هنا، حاول الرجوع إلى السياسة. تخيّل أنَّ فناناً محافظاً أبدع هذه الأعمال باستخدام صور مارتن لوثر كنغ الإبن ونلسون مانديلا بدلاً من المسيح أو مريم. تصوّر أنَّ قصدَهُ الهزء من شبه تقديس اليسار لكثير من القادة السود. هل من الممكن عرضُ هكذا أعلامٍ في متاحف في نيويورك أو باريس دون إثارة مظاهراتٍ غاضبة؟ ألا يُحتمل أن بعض اليسار قد يشعر أنَّ المتحف نفسه كان قد تلوّث بالعنصرية، حتى بعد سحب تلك اللوحات؟[2]

---

[1] إن لوحة أندريس سيرانو بعنوان ((بول على المسيح)) حالة صعبةٌ على وجه الخصوص لأن الصورة الناجمة مدهشة من الناحية البصرية. ويمنح الضوء القويّ المشعّ من خلال البول الأصفر الصورة ألقاً شبه قدسيّ. انظر أيضاً لوحة كريس أوفيلي ((مريم العذراء المقدسة))، والجدل الذي أثاره عرضها في مدينة نيويورك 1990. وتجسّدُ اللوحة مريم العذراء امرأةً سوداء محاطةً بصور فروجٍ مقتطعة من مجلاّتٍ إباحية وملطّخة بروث فيلٍ حقيقي.

[2] بعد أنْ كتبتُ هذا المثال القائم على الافتراض، أوضح بروس بوتشانان لي أنَّ شيئاً ما شبيهاً به إلى حدٍ بعيد حدث في شيكاجو عام 1988. أنظر باب ((ميرث وجيرث)) في موسوعة ويكيبيديا ، وهي لوحة سخرتْ من عمدة شيكاجو الأسود الأفرو- أمريكي المتوفى مؤخراً، هارولد واشنطن.



كما هو الحال مع أخلاق الجمع، كنت قد قرأتُ عن أخلاق اللاهوت قبل الذهاب إلى الهند، وكنت قد فهمتها ذهنيّاً. ولكن في الهند، وفي السنوات التي تلت عودتي، شعرت بها. كنت أستطيع رؤية الجمال في مدوّنةٍ أخلاقية كانت تؤكد بتشدّد على ضبط النفس، ومقاومة الغواية، وتطويرذات المرء الأنبل والأسمى، وإنكار رغبات أهواء النفس. كنت أرى الجانب المظلم لهذه الأخلاق أيضاً: ما إنْ تسمحَ لمشاعرك الغريزية بالقرف بأن ترشِدَ تصوّرَك عمّا يريده الله، فإنَّ الأقلّيات التي تثير تلميحاً من القرف في الأغلبية (مثل اللواطيين أو البدينين) من الممكن أن يتم عزلهم ومعاملتهم بوحشية. إنَّ أخلاق اللاهوت في بعض الأحيان متعارضةٌ مع التعاطف، والمساواتية، وحقوق الإنسان الأساسية.[1]

لكنْ في الوقت نفسه، تقدّمُ منظوراً قيّماً يمكننا أن نفهم منه وننتقد بعض الأجزاء القميئة في المجتمع العلماني. على سبيل المثال، لمَ الكثيرون منا متضايقون من المادية الهائجة؟ إذا كان بعض الناس يرغبون في العمل بجدٍّ كي يكسبوا المال ويشتروا البضائع الفاخرة لكيّ يتركوا أثراً على الآخرين، كيف يمكننا انتقادهم باستخدام أخلاق الاستقلالية؟

لنقدّم مثالاً آخر، كنتُ أتناول الغداء مؤخراً في قاعة الطعام في جامعة فرجينيا. وكانت بجواري على المائدة امرأتان شابّتان تتحدثان. كانت إحداهما بالغة الامتنان لقاء شيءٍ ما فعلته الأخرى لها. وللتعبير عن امتنانها قالت هاتفةً، "آه يا إلهي! لو كنتِ شاباً، لجلست فوق قضيبك الآن تماماً!" شعرتُ بمزيجٍ من الذهول والاشمئزاز، ولكن كيف لي أن أنتقدَها ضمنَ أخلاق الاستقلالية؟

إنَّ أخلاق اللاهوت تمنحنا صوتاً للبدء بمشاعر الرفعة والانحطاط - فهمنا ل "أرفع" أو ال "أوضع". هي تمنحنا طريقةً لإدانة الاستهلاك الشديد والنشاط

[1] قامت مارثا نوسباوم (2004) بتوضيح هذه القضية بقوة، في مناقشة مطوّلة مع ليون كاس، بدءاً من Kass 1997 .



الجنسي الغبي التافه. كما نستطيع فهم المراثي القائمة منذ زمنٍ بعيد بشأن الخواء الروحي لمجتمعٍ استهلاكي مهمة كلٍّ من فيه تلبيةُ رغباتهم الشخصية.[1]

الخروج من المنظومة الأساسية

من بين أكثر الأفكار عمقاً التي برزت حول العالم وعبر الحقب هي أن العالم الذي نجرّبه هو وهم، قريب من الحلم. التنوير صيغة من اليقظة. وتجدُ هذه الفكرة في الكثير من الأديان والفلسفات،[2] وهي أيضاً رزّةٌ من الخيال العلمي ، ولا سيما منذ رواية ويليام جيبسون عام 1984 بعنوان ((كاتب القصص المتخيّلة الجديد)). نحت جيبسون مصطلح الفضاء الافتراضي ووصفه بأنّه "منظومة كبرى" تبرز عندما يتم ربط مليون حاسوبٍ ويقع الناس في شرك "هلوسة متبادلة".

قام مبدعوّ الفيلم السينمائي ((المنظومة الكبرى)) بتطوير فكرة جيبسون إلى تجربةٍ بصريّةٍ رائعة الجمال ومرعبة. في واحدٍ من أهم مشاهده، يعطى البطل، نايو، الخيار. فهو يستطيع تناول حبّةٍ حمراء، ستفك ارتباطه بالمنظومة الكبرى، وتنهي الهلوسة، وتعطيه السيطرة على جسده المادي الحقيقي (المتوضع في راقودٍ من مادةٍ لزجة). أو يستطيع تناول حبّةٍ زرقاء، فينسى أنّهُ منح هذا الخيار أبداً، وسيعود وعيه إلى الهلوسة المبهجة التي يمضي كلُّ بني البشر فيها وجودَهم الواعي. يبتلع نيو الحبّة الحمراء تتفكك المنظومة الكبرى من حوله.

لمْ يكن الأمر دراميا تماماً بالنسبة إليّ، لكنَّ كتابات شويدر كانت حبّتي الحمراء. كما بدأتُ برؤية أنّ الكثير من المنظومات الأخلاقية تتعايش ضمن كلّ أمة. فكلّ منظومةٍ تقدّمُ منظوراً كاملاً، موحداً، وملزِماً من الناحية الشعورية، سهلة التبرير بواسطة الدليل الملحوظ حصيناً على الهجوم بواسطة حجج من الدخلاء تقريباً.

---

[1] كان كلٌّ من البابا بيندكتوس السادس عشر ويوحنا بولص الثاني بليغين على وجه الخصوص حول هذه النقاط. أنظر أيضاً Bellah et al. 1985 .

[2] على سبيل المثال حجاب مايا الهندوسي؛ وعالم أفلاطون من الصيغ والهروب من كهف أفلاطون.



لقد ترعرعت شخصاً يهودياً في ضواحي مدينة نيويورك. كان أجدادي قد فرّوا من روسيا القيصرية ووجدوا عملاً في معمل للأثواب. بالنسبة إلى جيلهم، الاشتراكية واتحادات العمال كانت ردوداً فعّالة على الاستغلال وظروف العمل السيّئة التي واجهوها. كان فرانكلين روزفلت القائد البطل الذي حمى العمال وهزمَ هتلر. منذ ذلك الحين كان اليهود من أكثر الناخبين المعوّل عليهم بالنسبة إلى الحزب الديمقراطي.[1]

لم تتشكّل أخلاقي بفعلِ عائلتي وانتمائي العرقي فحسب. داومت في جامعة يال، التي تمَّ تصنيفها في ذلك الوقت على أنها ثاني أكثر المؤسسات ليبرالية بين رابطة مدارس آيفي*. لم يكن أمراً غير شائعٍ أثناء مناقشات الصف إلقاء نكاتٍ وتعليقاتٍ ناقدة لرونالد ريجان والحزب الجمهوري، أو الموقف المحافظ بشأن الأحداث الجارية المثيرة للجدل. فكون المرء ليبرالياً كان بمثابة رباطة الجأش؛ كون المرء ليبرالياً كان مع الحق. وقد دعم طلاّبُ جامعة يال في الثمانينات ضحايا الفصل العنصري، وشعب السلفادور، وحكومة نيكاراجوا، والبيئة، واتحاد عمال جامعة يال القائم بالإضراب، مما حرمنا من قاعة الطعام طوال ستة تخرّجي الدراسية.

بدت الليبرالية بوضوحٍ كبيرٍ أخلاقيةً. تظاهر الليبراليون من أجل السلام، وحقوق العمال، والحقوق المدنية، والعلمانية. وكان الحزبُ الجمهوري (كما رأيناه) حزب الحرب، والمؤسسات التجارية الكبرى، والعنصرية، والمسيحية البروتستانتية. لم أكن قادراً على فهم كيف يمكن لأي إنسانٍ لديه تفكير

---

[1] حسب بيانات تقرير الانتخابات الوطنية الأمريكية. اليهود يأتون فقط بعد الأفريقيين الأمريكيين في دعمهم للحزب الديمقراطي. ما بين عام 1992 و2008، 82 بالمائة من اليهود تماهوا مع أو مالوا إلى الحزب الديمقراطي.

* يُطلَق هذا الإسم على ثماني جامعاتٍ (براون، وكولومبيا، وكورنيل، ودارتماوث، وهارفارد، وبنسلفانيا، وبرنستون، ويال) التي كان لديها على مر السنين اهتماماتٍ مشتركة بالمنح الدراسية والأنشطة الرياضية. ــ المترجم



اعتناق حزب الشيطان طوعاً، وهكذا بحثتُ أنا وأصحابي الليبراليين عن تفسيراتٍ نفسية للنزعة المحافظة، ولكن ليس الليبرالية. قمنا بدعم السياسات الليبرالية لأنني شاهدتُ أنَّ العالم بوضوح وأردتُ مساعدة الناس، أما هم فدعموا السياسات المحافظة بدافع من المصلحة الذاتية (تخفيض ضرائبي!) أو العنصرية المغطاة بغلالةٍ رقيقة (أوقفوا تمويل برامج الرفاه للأقليات!). لم نفكرْ في إمكانية أن هنالك عوالم أخلاقية بديلة لا يكون فيها تخفيف الأذى (بمساعدة الضحايا) وزيادة العدالة (بالسعي إلى مساواة قائمة على الجماعة) هدفين رئيسين.[1] وإذا لم نستطعْ تصوّر أخلاقٍ أخرى، فلنْ نستطيع الاعتقاد أنّ المحافظين كانوا جديّين في معتقداتهم الأخلاقية كما كان حالنا مع معتقداتنا.

عندما انتقلت من يال إلى بينسلفانيا، ومنها إلى شيكاجو، بقيت المنظومة الكبرى إلى حدٍ بعيدٍ على حالها. كان عليَّ الوقوف في الهند وحيدا فقط. لو أنني كنتُ هناك بصفة سائحٍ لكان من السهل بالنسبة عليّ الحفاظ على عضوية المنظومة طوال ثلاثة أشهر؛ ولكنتُ التقيتُ آنذاك والآن بسيّاحٍ أوروبيين، ولتبادلنا القصص عن التمييز الجنسي، والبؤس، والقمع الذي شاهدناه. لكنْ لأنني كنتُ هناك أدرسُ علم النفس الثقافي فعلْتُ كلَّ ما بوسعي لأتأقلم في مصفوفةٍ أخرى، وهي منسوجةٌ غالباً من أخلاق المجموع واللاهوت.

عندما عدتُ إلى أمريكا، لمْ يَعُدْ المحافظون الاجتماعيون يبدون مجانين إلى هذا الحد. كنت قادراً على الاستماع إلى قادة "اليمين الديني" مثل جيري فالويل وبات روبرتسون بنوع من الانفصال الرصين. إنهم يريدون مزيداً من الصلاة والتوبيخ في المدارس، والتقليل من الثقافة الجنسية والوصول إلى الإجهاض؟ لم أفكرْ أن هذه الخطوات ستقلّل من الإيدز وحمل المراهقين، لكنّني استطعتُ أن أرى لماذا أراد المحافظون المسيحيّون "تكثيف" المناخ الأخلاقي في المدارس وعدم تشجيع رؤية أنَّ على الأطفال أن يكونوا أحراراً قدر الإمكان في العمل على

[1] سأخبر في الفصل 8، أنّ المحافظين مهتمون بذات قدر اهتمام الليبراليين بالعدالة؛ وهم فحسب يهتمون بالتناسب أكثر من المساواة.



أساس الرغبات. يفكّر المحافظون الاجتماعيون أنَّ برامج الرّفاه والنزعة النسوية تزيد معدّلات أمومة العازبات وتضعف البنى الاجتماعية التقليدية التي تقسر الرجال على دعم أبنائهم؟ حسنٌ، طالما أنني لمْ أعد في موقف الدفاع، كنت أستطيع ان أدرك أنَّ تلك النقاشات ذات مغزى، حتى إذا ما كان هنالك الكثير من الآثارِ الجيّدة لتحرير النساء من الاعتماد على الرجال. لقد نجوتُ من تركيبة المؤيد المسبّق العقليّة (أرفض أولاً، إسأل أسئلةً بيانيةً لاحقاً) وبدأتُ التفكير حول السياساتِ الليبرالية والمحافظة على أنها تجليّات رؤىً متصارعة في العمق ولكنّها على حدٍّ سواء صادرة من القلب عن مجتمعٍ جيد.[1]

يبدو التحرر من الغضب الموالي أمراً جيّداً. وفور تجاوزي حالة الغضب، لم أعد ملتزماً بالوصول إلى نتيجةٍ يتطلّبها الغضب القويم: نحن على صواب، والآخرون على خطأ. كنتُ قادراً على اكتشاف المنظومات الأخلاقية، التي تدعم كلاً منها تقاليدٌ ثقافية. بدا الأمر أشبه بنوعٍ من اليقظة.

في عام 1991، كتبَ شويدر عن قوة علم النفس الثقافي للتسبب بهكذا يقظة:

> على الرغم من أنّ التصوّرات التي يحملها الآخرون متوفرة لنا، بحيث يتسنى لنا عندما نفهم فعلياً تصوّرهم للأشياء أن نأتي لإدراك إمكاناتٍ كامنة ضمن عقلانيّتنا الخاصة... وتصبح تلك الطرق في تصوّر الأشياء بارزةً بالنسبة إلينا للمرة الأولى، أو مرةً أخرى. بمعنى

[1] أنا لا أقول أن الرؤى الأخلاقية والإيديولوجيات جيدة على قدم المساواة، أو مؤثرة على حدٍّ سواء في إيجاد مجتمعات إنسانية النزعة ومنظمة على أساسٍ أخلاقي. لست من أنصار النسبية. سأتناول قضيّة كيف تتناسب الإيديولوجيات مع الطبيعة البشرية في الفصل 12. لكنْ في الوقت الحاضر أريد التأكيد على نقطةٍ مفادها أن الصراعات الإيديولوجية القائمة لمدة طويلة تقريباً تخرطُ أناساً بشكلٍ ثابت للنضال من أجل رؤية أخلاقية يعتقدون بها عاطفياً وجدياً. غالباً ما يتوفر لدينا الحافز لإحالة دوافع عليا لخصومنا، من قبيل الكسب المالي. هذا خطأ بالعادة.



آخر، ليس هنالك "ستارة خلفية" متجانسة لعالمنا. فنحن تعدديّون منذ البدء.[1]

لا أستطيع المغالاة في أهمية هذا المقبوس بالنسبة إلى علم النفس الأخلاقي والسياسي. نحن تعدديون منذ البدء. لدى عقولنا الإمكانية الكامنة كي نصبحَ صوابيين بشأن الاهتمامات المختلفة الكثيرة، وقليل من هذه الاهتمامات فقط يتمُّ تفعيلها أثناء الطفولة. تُترَكُ الاهتمامات المحتملة الأخرى دون تطويرٍ وربطٍ إلى شبكة المعاني والقيم المشتركة التي تصبح منظومتنا الأخلاقية في فترة الرشد. فإذا ما ترعرعتَ في مجتمعٍ غريبِ الأطوار، تتعلّم أخلاق الاستقلال على نحوٍ يمكنّك من أن تلتقط القمع وعدم المساواة حتى حين لا يَشعُرُ الضحايا الظاهرون بأيّ خلل. لكن بعد سنواتٍ فيما بعد، عندما تسافر، أو تصبحُ أباً، أو ربما عندما تقرأ فحسب روايةً عن مجتمعٍ تقليدي، فقد تجدُ بديهاتٍ أخلاقية مستترة داخل كيانك. قد تجد نفسَكَ تستجيب لمعضلاتٍ تتعلّق بالسلطة، والنشاط الجنسي، أو الجسد الإنساني بطرقٍ يصعب شرحها.

على نحوٍ معاكس، إذا ما تلقّيتَ تنشئةً في مجتمعٍ أكثر تقليدية، أو ضمن عائلة مسيحية بروتستانتية في الولايات المتحدة، تصبحُ كذلك الأمر متعلماً أخلاق الجمع واللاهوت بحيث تستطيع رصد عدم الاحترام والانحلال حين لا يرى الضحايا الظاهرون خطأً في الأمر. أما إذا ما واجهت تمييزاً بنفسك (مثلما يفعل المحافظون والمسيحيّون في بعض الأحيان في العالم الأكاديمي)،[2] أو إذا ما استمعتَ إلى خطاب مارتن لوثر كنج الإبن "عندي حلم."، فقد تجد إيحاءً جديداً في الأحكام الأخلاقية بشأن القمع والمساواة.

---

[1] Shweder 1991, p. 5.

[2] كنت منخرطاً في نزاعٍ حول هذا الادعاء. قمتُ بتجميع موادٍ متعلّقةٍ بالجدل على موقع www.JonathanHaidt.com/postpartisan.html .



باختصار

المبدأ الثاني لعلم النفس الأخلاقي هو: هناك أكثر من الأذية والعدل مما يتعلّق بالأخلاق. ولدعم هذا الادعاء وصفتُ بحثاً يظهرُ أنَّ الناس الذين يترعرعون في مجتمعاتٍ غربيةٍ، متعلّمة، صناعية، غنيّة، ديمقراطية (غريبة الأطوار) هم مقيمون بعيدون عن المركز من الناحية الإحصائية، بما في ذلك مقاييس علم النفس الأخلاقي. وأظهرت كذلك الأمر:

- كلما كنت أكثر غرابةً في الأطوار ، ازداد تصوّرك للعالم على أنه مليءٌ بالأجسام المنفصلة أكثر من العلاقات.
- الاستقطاب الأخلاقي حقيقيٌّ من الناحية الوصفيّة. بصفته أمراً بسيطاً من حقيقةٍ أنثروبولوجية، فالميدان الأخلاقي يتنوّع عبر الثقافات.
- الميدان الأخلاقي عادةً ضيّقٌ في الثقافات غريبة الأطوار، حيث يكون محصوراً إلى حدٍّ بعيدٍ في أخلاق الاستقلالية (أي الهموم الأخلاقية التي تخصُ أفراداً يؤذون، أو يظلمون، أو يغشّون أفراداً آخرين). إنه أوسع ـ يتضمّن أخلاق الجمع واللاهوت ـ في معظم المجتمعات الأخرى، وضمن منظومات دينية ومحافظة اخلاقياً داخل المجتمعات غريبة الأطوار.
- تقوم المنظومات الأخلاقية بربط الناس ببعضهم وتحجبهم عن تماسك، منظومات أخرى، وحتى عن وجودها. وهذا يصعّب على الناس مراعاة إمكانية وجودٍ فعليّ لأكثر من حقيقةٍ أخلاقية واحدة، أو أكثر من إطار فاعل للحكم على الناس أو لإدارة المجتمع.

في الفصول التالية سأجرد الحالات الحدسية، مظهراً على وجه الدقة ما هو أيضاً بعد الأذية والعدالة. كما سأظهر كيف أنَّ مجموعةً صغيرةً من الأسس الأخلاقية الكونية والفطرية من الممكن استخدامها لبناء تنوّع من المنظومات الأخلاقية. وسوف أقدّم أدواتٍ تستطيعون استخدامها لفهم الحجج الأخلاقية المنطلقة من منظوماتٍ ليست خاصةً بكم.



سادساً

تذوّقْ براعم العقل القويم

قبل سنواتٍ قليلة خلت جرّبت مطعماً يحمل اسم الذوق الحقيقي. كان الداخل أبيضَ تماماً. وقد وُضِعَ على كلّ طاولةٍ الملاعق فقط ـ خمسُ ملاعق صغيرة في كل موقع ترتيب. جلست إلى الطاولة ونظرت إلى قائمة الوجبات. كانت مقسّمةً إلى أجزاءٍ مصنّفة "سكريّات"، "أنواع العسل"، "نُسُغ الشجر،" "مواد مصطنعة." ناديت النادل وطلبت إليه الشرح. ألا يقدمون طعاماً؟

تبيّن أن النادل كان أيضاً المالك والمستَخدَم الوحيد في المطعم. أخبرني أنَّ المطعم هو الأول من نوعه في العالم: إنه بارٌ لتذوّق مواد التحلية. أستطيع اختيار عيّنات تحليةٍ من اثنين وثلاثين بلداً. وشرح لي أنّه كان عالم أحياء مختصاً في حاسة الذوق. ووصف لي خمسةَ أنواعٍ من أعضاء الذوق موجودة لدى كلّ حليمة ذوق فوق اللسان ـ حلو، وحامض، ومالح، ومر، وسائغ (يسمّى أيضاً المغاير). وقال إنّه كان قد اكتشف في بحثه أن تفعيل عضو الذوق الحلو أنتج أقوى دفق من مادة الدوبامين في الدماغ، مما دلّه على أن البشر مبرمجون بقوة للسعي إلى الحلاوة أكثر من المذاقات الأربعة الأخرى. فتوصل إلى أنها كانت الأكثر فاعلية، فيما يتعلّق بوحدات القياس بكل سعرة حرارية، في استهلاك مواد التحلية، وانتهى إلى تصور فكرة افتتاح مطعمٍ يرمي بالكامل إلى تحفيز عضو التذوّق هذا. سألته كيف كان وضع العمل. قال: "شنيع، لكن على الأقل وضعي أفضل من وضع الصيدلاني في آخر الشارع الذي افتتح باراً لتذوّق الملح."

"أو كي"، لم يحدث هذا فعلياً معي، لكنّه عبارة عن صورةٍ مجازية عن كيفية شعوري في بعض الأحيان عندما أقرأ كتباً حول علم النفس والفلسفة



الأخلاقيين. إنّ الأخلاق غنيّةٌ ومعقدة، ومتعددة الوجوه ومتناقضة من الداخل إلى هذا الحد. أنصار التعددية من أمثال شويدر يرقون إلى سوية التحدي، مقدّمين نظريات تستطيع شرح التنوع ضمن الثقافات وعبرها. بالرغم من ذلك يحجّم كثيرٌ من المؤلفين الأخلاق في مبدأ واحد، عادةً بعض التنوع المتعلّق بتعظيم الرفاه (على نحوٍ أساسي، ساعد الناس، لا تؤذيهم).[1] أو في بعض الأحيان من العدل أو متعلّق بأفكار العدالة، والحقوق، أو احترام الأفراد واستقلاليتهم.[2]

نتمتع نحن البشر جميعاً بأعضاء التذوّق الخمسة ذاتها، لكننا لا نحبُّ جميعاً الأغذية نفسها. ولفهم من أين تأتي هذه الفروقات، يمكننا البدء بقصة التطور فيما يخص الفواكه السكّرية والحيوانات الملأى بالشحوم، التي كانت غذاءً جيدا لأسلافنا المشتركين. ولكنْ علينا أن نستقصي تاريخ كلّ ثقافة، وسيكون لزاماً علينا النظر إلى عادات الأكل في الطفولة لدى كلّ فرد. إنَّ معرفة أنَّ كلّ شخصٍ يتمتع بأعضاء تذوّق الحلاوة لا تستطيع أنْ تُخبرنا لمَ يُفضّلُ أحد الأشخاص طعاماً تايلاندياً أكثر من طعامٍ مكسيكي، ولمَ لا يكاد أحد الأشخاص السكر في البيرة. يتطلّبُ الأمر كثيراً من العمل لربط أعضاء الذوق الكوني إلى أشياء محددة يأكلها أو يشربها شخصٌ معيّن.

والأمر ذاته ينطبق على الأحكام الأخلاقية. لكي نفهم لم ينقسم الناس بشأن القضايا الأخلاقيةٌ، نستطيع البدء باستكشاف الميراث التطوري المشترك، لكنْ سيتوجّب علينا استكشاف تاريخ كلّ حضارة ونشاط الطفولة الاجتماعي

[1] تتضمن الأمثلة في الفلسفة Jeremy Bentham, R. M. Hare, and Peter Singer. في علم النفس، غالباً ما يتمّ تشغيلها عملياً على أنها غيرية أو "السلوك الموالي للمجتمع". وهو ينطوي على أن كثيراً من الناس يساعدون أناساً آكثر، بشكلٍ مثاليّ غرباء. وحتى الدالاي لاما يعرّف فعلاً أخلاقياً "المرء حيث ننأى عن التسبب بالأذى لتجربة الآخرين أو آمالهم بالسعادة" (Dali Lama XIV 1999, p. 49).

[2] تتضمن الأمثلة في الفلسفة إيمانويل كانت وجون راولز؛ وفي علم النفس، يسمح لورنس كولبرج وإليوت توريل للرفاه والعدل أن يكونا اهتمامين متنافسين.



لكلّ فرد ضمن الثقافة. إنّ معرفتنا أننا جميعاً نهتم بالأذية فحسب لا يمكن أن تُخبركَ لماذا يُفضّلُ احد الأشخاص الصيد أكثر من لعبة الريشة الطائرة ولماذا لا يكاد يقوم أيٌّ منا بتكريس ساعات صحوهم في المقام الأول لخدمة الفقراء. سيتطلب الأمر مزيداً من العمل بالنسبة إلينا لربط أعضاء الذوق الأخلاقية الكونية بأحكامٍ أخلاقية يقوم بها شخصٌ معيّن.

لقد قام الراهب مينشيوس بالتناظر الوظيفي بين الأخلاق والغذاء قبل 2300 عاماً خلت عندما كتب "تبهج المبادئ الأخلاقية عقولنا مثلما يُبهجُ كلٌّ من لحم العجل والخروف والخنزير أفواهنا."[1] في هذا الفصل والفصلين التاليين، سأقوم بتطوير التناظر الوظيفي الذي مفاده أنّ العقل القويم مثل لسانٍ له ستة أعضاء للتذوق. في هذا التناظر الوظيفي، تكون الأخلاق مثل أصناف الطبخ: إنها تركيبٌ ثقافي، متأثرٌ بحوادث البيئة والتاريخ ، لكنه ليس مرناً بما يكفي ليماشي كلّ شيء. لا تستطيع تأسيس أصناف مطبخ على لحاء الشجر، أو هل يمكنك امتلاك مطبخٍ قائم في المقام الأول على مذاقاتٍ مرة. تتنوع أساليب الطبخ، لكنّها جميعاً لا بدّ أنْ تُبهجَ الألسنة المزوّدة بأعضاء الذوق الخمس ذاتها.[2] كما تتنوع المنظومات الأخلاقية، لكنْ عليها جميعاً إبهاج العقول القويمةالمزوّدة بأعضاء التذوّق الاجتماعية الستّ ذاتها.

---

(1) Chan 1963, p. 54

(2) كذلك الأمر إبهاج الأنوف بنظامٍ شمّيّ أكثر تعقيداً، سوف أتجاهله لإبقاء التناظرالوظيفي بسيطاً.



العقل القويم

ولادة العلم الأخلاقي

في وقتنا الحاضر، يرى الناس العلمانيون أنّ التنوير معركةٌ بين عدوّين فانيين: من جانبٍ أول كان العلم، بسلاحه الرئيس، العقل، وفي المقلب الآخر كان الدين، بدرعه القديم المعتقد الخرافي. والعقلُ هزم المعتقد الخرافي، وحلّ النور مكان الظلمة. لكن عندما كان دايفيد هيوم على قيد الحياة، كان يخوض معركةً على ثلاثة محاور. كان مفكّرو التنوير متحدين في رفض الوحي المقدس بوصفه مصدرَ المعرفة الأخلاقية، لكنّهم كانوا منقسمين فيما إذا كانت الأخلاق تسمو فوق الوجود المادي للطبيعة البشرية ـ أي انبثقت من طبيعة العقلانية ذاتها ومن الممكن بذلك أن يتم استنتاجها بالتفكير المنطقي، حسبما كان يعتقد أفلاطون ـ أو فيما إذا كانت الأخلاق جزءاً من الطبيعة البشرية، كاللغة أو الذوق، التي توجبتْ دراستها بواسطة المراقبة.[1] وبالتسليم باهتمامات هيوم في حدود التفكير، كان يعتقد أنّ الفلاسفة الذين جرّبوا إيجاد حجج لطريقهم إلى الحقيقة الأخلاقية دون أن يتأملوا في الطبيعة البشرية لم يكونوا أفضل من اللاهوتيين الذين اعتقدوا أنّهم يستطيعون إيجاد الحقيقة الأخلاقية الموحى بها في نصوص مقدسة. كان كل من الفريقين متعاليين.[2]

---

[1] الكلمة التي أريد استخدامها هنا هي التجريبية، لكنْ للكلمة معنيان، وقد استعملتها للتو في الفصل 1 باعتبارها عكس الأهلانية. أنا أرفض التجريبية بذاك المعنى، وهو يفيد اللوح الفارغ، لكن أتبنّاه بمعنى آخر الا وهو المنهج الذي يحصل العلماء على المعرفة بواسطته من خلال الأساليب التجريبية (القائمة على الملاحظة والتجربة).

[2] يوضح ي. و. ويلسون هذا الأمر في الفصل 11 من كتاب *Consilience* .مثل هيوم ، اعتنق الطبيعية/التجريبية، أكثر من الفلسفة المتعالية. وأنا أفعل مثله.



كان عمل هيوم في مجال الأخلاق المشروع الجوهري للتنوير: استخدام مجالٍ تم امتلاكه سابقاً من قِبَل الدين، باستخدام أساليب ومواقف العلوم الطبيعية الجديدة. وكان لعمله الأول ((رسالة في الطبيعة البشرية))، العنوان الفرعي كونه محاولة لإدخال المنهج التجريبي في التفكير إلى المواضيع الأخلاقية. كان هيوم يعتقد أنّ "العلم الأخلاقي" كان يجب أنْ يبدأ بتحقيقٍ دقيقٍ بشأن ماهية طبيعة البشر فعلياً. وعندما اختبر الطبيعة البشرية ـ في التاريخ، وفي قضايا السياسة، وفي أوساط زملائه الفلاسفة ـ رأى أنّ "العاطفة" (الحدس) هي القوة الدافعة لحياتنا الأخلاقية، في حين إنّ التفكير منحازٌ وعاجز، مكيّفٌ كي يكون في المقام الأول خادماً للعواطف.[1] كما رأى تنوعاً في الفضائل، ورفض محاولات بعض معاصريه في تحجيم الأخلاق في فضيلةٍ واحدة مثل اللطف، أو رمي الفضائل جانباً واستبدالها بقوانين أخلاقية قليلة.

لأنّه فكّر أنَّ الأخلاق كانت قائمة على تنوّعٍ من العواطف، تمنحنا البهجة عندما نصادف الفضيلة والانزعاج عندما نلاقي الرذيلة، كان هيوم في الغالب يعتمد على القياسات التمثيلية الحسية:

> ليست الأخلاق في الطبيعة المجرّدة للأشياء، لكنّها على نحوٍ كاملٍ نسبية بالنسبة إلى العاطفة أو الذوق الفكري لكلّ كائنٍ بحدّ ذاته؛ وبالطريقة ذاتها الواردة في حالات تمييز الحلو والمر، والساخن والبارد، يبرز [الذوق] من شعورٍ محدد لكلّ حاسة أو عضو في الجسم. فالتصورات الأخلاقية بالتالي، ينبغي ألا تُصنّف مع عمليات الفهم، لكن مع أذواق العواطف.[2]

[1] لاحظ هيوم أنّ بعض المشاعر والعواطف بالغة الهدوء إلى درجة أنّ الخطأ يقع فيها على أنها العقل (*Treatise of Human Nature, Book 2*). هذا هو السبب لظني أنّ كلمة حدس هي أفضل صياغة حديثة لكلمة عواطف لدى هيوم.

[2] يؤسس هيوم هنا على النقاش من منظّرٍ أسبق حول "المعنى الأخلاقي"، فرانسيس هاتشيسون. كان هذا النص في الطبعتين الأوليتين لكتاب *Enquiry Concerning Human*

==



الحكم الأخلاقي نوع من التصوّر، ويجب أنْ يبدأ العلم الأخلاقي بدراسةٍ حريصةٍ لأعضاء الذوق الأخلاقي. لا تستطيع استنتاج قائمة مؤلفة من خمسة أعضاءٍ ذوقية بواسطة التفكير المجرّد، ولا يجبُ عليك البحث عنه في النصوص المقدسة. فليس هنالك ما هو واقع وراء نطاق الخبرة. عليك ان تقوم بفحص اختبار اللغات.

لقد أصاب هيوم. فعندما توفّيَ في عام 1776، كان مع سواه من أنصار الفلسفة المتعالية[1] قد وضعوا أساساً فائقاً ل "العلم الأخلاقي،"[2]، وهو [أساس]، حسب رأيي، ثبّته البحث الحديث. ستفكّر، إذن، أن العلوم الأخلاقية تقدمت بتسارع في العقود التي تلت وفاته. لكنك ستكون مخطئاً. ففي العقود التي تلت وفاة هيوم ادّعى العقلانيون النصر على الدين وأطلقوا العلوم الأخلاقية خارج مسارٍ استمر مئتي عام.

Understanding. وتم حذفه من الطبعة الأخيرة، لكنْ لمْ أجدْ أية إشارة إلى آنَّ هيوم قد غيّر رأيه حول قياس الذوق التمثيلي. على سبيل المثال في الطبعة الأخيرة من *Enquiry*, sec. xii, pt. 3، يقول: "السلوكيات الأخلاقية والنقد ليست بشكلٍ مناسب غايات فهم الذوق والعاطفة. الجمال سواء كان أخلاقياً أو طبيعياً، يتم الشعوربه بشكلٍ مناسب أكثر من تصوّره."

[1] على وجه الخصوص آدم سميث وإدموند بورك. أنظر Frazier 2010 .

[2] الفصل 3 مراجعتي للبحث. أنظر إلى ورقتي الأكثر اكاديمية للمراجعة، Haidt and Kesebir 2010 .



العقل القويم

هجوم التصنيفيين

لقد شوّش التوحد مصنّفيّ الطب العقلي طوال عقود لأنه ليس مرضاً خفياً بمفرده. إنّه عادة يوصَفُ على أنه اضطرابٌ "طيفي" لأنَّ الناس يمكنْ أنْ يكونوا أكثر أو أقلّ توحّداً، وليس من الواضح حيث رسم الخط ما بين هؤلاء الذين لديهم علّة عقلية خطيرة وأولئك الذين ليسوا جيّدين في قراءة الناس الآخرين فحسب. في أقصى طرف الطيف، الأشخاص التوحّديون هم "عميان العقل."[1] إنهم يفتقدون برامج الإدراك الاجتماعي التي يستخدمها معظمنا لتوقّع مقاصد الناس الآخرين ورغباتهم.

حسب واحدٍ من رواد الباحثين في التوحد، سيمون بارون- كوهينن، هناك في حقيقة الأمر طيفان، هناك بعدان يمكننا أنْ نضعَ كلّ شخصٍ فيهما: التقمّص العاطفي والتصنيف. التقمص العاطفي هو "الدافع إلى تحديد مشاعر وأفكار شخصٍ آخر، والرد على أولئك الذين لديهم شعور ملائم."[2] إن كنت تفضّلُ الخيالي أو غير الخيالي، أو إن كنتَ في الغالب تستمتع بالدردشات عن أناسٍ لا تعرفهم، فأنتَ فوق المعدل على صعيد التقمّص العاطفي. أما التصنيف فهو "دافع لتحليل المتغيّرات في نظام، لاستنباط القواعد الضمنية للسلوك المتعلّق بالنظام."[3] إن كنتَ جيّداً على صعيد قراءة الخرائط وكرّاسات الإرشاد، أو إنْ كنتَ تستمتع باستكشاف كيف تعمل الآلة، فمن المرجّح أنّك فوق المعدّل على صعيد التصنيف.

---

(1) Baron-Cohen 1995

(2) Baron – Cohen 2002, p. 248

(3) Ibid



إذا ما حذفنا هذه السمات، حصلنا على فضاءٍ ثنائيّ الأبعاد (أنظر الشكل 6. 1)، ومن الممكن وضعُ كلِّ شخصٍ في بقعةٍ محددة في ذاك الفضاء. لقد أظهر بارون – كوهين أنّ التوحد هو ما تحصل عليه عندما تتضافر عوامل الجينات وقبل الولادة لإنتاج دماغٍ متدنٍ استثنائياً على صعيد التقمص العاطفي وعالٍ استثنائياً على صعيد التصنيف. إنَّ التوحد، بما فيه عارض أسبيرجر (وهو نمطٌ فرعيٌّ من توحد عالي الوظيفة)، يعتقد به على نحوٍ أفضل بوصفه منطقة من فضاء الشخصية ـ الزاوية الأسفل من الربعية اليمنى السفلى* ـ وليس مرضاً خفياً.[1] لقد تمَّ تأسيس النظريّتين الأخلاقيّتين الرئيستين في الفلسفة الغربية من قبل رجالٍ كانوا رفيعي المستوى في التصنيف، وكانوا – على نحوٍ أدق – منخفضيّ المستوى على صعيد التقمّص العاطفي.

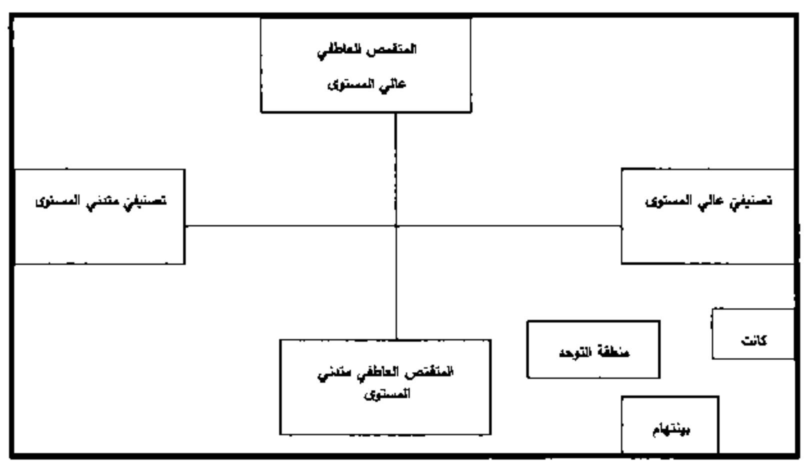
بينتهام والشبكة النفعية

وُلِدَ جيرمي بينتهام في إنكلترا في عام 1748. ذهب إلى أكسفورد في سن الثانية عشرة، وتدرّبَ ليكون محامياً، وكرّس حياته المهنية لإصلاح كميّة عشوائية متناقضة وفي الغالب لا معنى لها من القواعد والعقوبات التي تمّ اعتمادها طوال قرونٍ كثيرة لتشكّل القانون الإنكليزي. وكان أهم أعماله بعنوان ((مدخل إلى مبادئ الأخلاق السلوكية والتشريع)). وفيه يطرح أن مبدأً بمفرده يجب أن يتحكم بكل الإصلاحات، وكل القوانين، وحتى كلّ الأفعال الإنسانية: مبدأ النفعية، والذي يعرّفه على أنّه "المبدأ الذي يؤيد أو لا يوافق على أيّ فعلٍ مهما كان حسب النزعة التي تظهر بأن عليها زيادة سعادة الطرف الذي

* أداة تُستخدَم في الفلك والملاحة لقياس الارتفاع وتتألف من قوس مقسم إلى 90 درجة ـ المورد

(1) Baron - Cohen 2009. أحد عوامل ما قبل الولادة يبدو أنه التيستستيرون، الذي لديه تأثيرات كثيرة على دماغ الجنين المتطور. نبدأ جميعاً بناتٍ في الشهرين الأولين من التلقيح. إذا كان الكروموزوم Y حاضراً، يقوم بإطلاق إنتاج التيستيستيرون في الأسبوع الثامن؛ وهذا يحوّل كلاً من الدماغ والجسد إلى النموذج الذكوري. والتوحد شائعٌ أكثر بعدة أضعاف لدى الصبية منه لدى البنات.





الشكل 6. 1

بعدا الأسلوب الإدراكي. الأشخاص الذين يعانون من التوحد رفيعو المستوى على صعيد التصنيف ومتدنّو المستوى على صعيد التقمّص العاطفي، وهكذا كان بعض الفلاسفة الأخلاقيين المهمين. (Adapted from Baron –Cohen 2009).

لديه مصلحة في السؤال أو تقليلها."[1] يجبُ على كلّ قانون أن يزيد إلى الحد الأقصى منفعة المجموع، والتي تُعرَّف على أنها الإجمالي الحسابي لمنافع كلّ عضو. بعد ذلك قام بينتهام بتصنيف الحدود المطلوبة لحساب المنفعة، بما فيها الكثافة، والمدة، وحتمية "الهيدونات" (المباهج) و"الدولورات" (الآلام). وقدّم حساباً عشرياً، "حساب مقدار السعادة"، من أجل حاصل الهيدونان والدولورات بُغيَة الوصول إلى حكمٍ أخلاقي على أيّ فعل، بالنسبة إلى أيّ شخصٍ، في أيّ بلد.

أظهرت فلسفة بينتهام درجةً غير اعتيادية من التصنيف، وكما يقول بارون ـ كوهين، التصنيف سلطة. تبرز المشكلات، من جانبٍ آخر، عندما يحدثُ

(1) Bentham 1996/1789, chapter I, section 2



التصنيف في غياب التقمّص العاطفي. في مقالٍ بعنوان "عارض أسبيرجر وغرابة أطوار جيرمي بينتهام وعبقريته ،" يقوم فيليب لوكاس وأني شيران بجمع روايات من حياة بينتهام الشخصية ومقارنتها بالمعايير التشخيصية السريرية لأعراض أسبيرجر.[1] فيجدان تشابهاً لصيقاً في المعايير السريرية الرئيسة، بما فيها تلك المتعلقة بالتقمّص العاطفي المتدني والعلاقات الاجتماعية البائسة. كان لدى بينتهام عددٌ قليلٌ من الأصدقاء وهو طفل، وتخلّى عن سلسلة من الأصدقاء الغاضبين السابقين وهو راشد. لم يتزوّج أبداً، أشار إلى نفسه بأنّه ناسك، وبدا أنه يعير اهتماماً قليلاً للناس الآخرين. قال أحد المعاصرين عنه: "لا يعتبر الناس حوله أكثر من ذباب الصيف."[2]

المقياس المتعلّق بالأمر هو قدرةٌ متخيّلة ضعيفة، ولا سيما فيما يتعلّق بالحياة الداخلية للناس الآخرين. في فلسفته وفي سلوكه الشخصي، أثار بينتهام حفيظة الكثير من معاصريه من جرّاء عدم قدرته على تصوّر التنوّع والغموض في الدوافع الإنسانية. ووصل جون ستيوارت ميل ـ وهو على نحوٍ حاسمٍ نفعيٌ لا توحّديٌ ـ إلى احتقار بينتهام. وكتبَ إنَّ شخصيّة بينتهام لا تؤهّله بصفته فيلسوفاً بسبب "عدم اكتمال" عقله:

> في كثيرٍ من أكثر مشاعر الطبيعة الإنسانية طبيعيةً وقوّةً لم يكن لديه تعاطفٌ؛ ومن بين الكثير من التجارب الأخطر كان معزولاً إجمالاً؛ وكان محروماً من الملكة العقلية التي بواسطتها يفهم عقلٌ عقلاً آخر مختلفاً عنه، ويرمي نفسه إلى مشاعر العقل الآخر، بسبب عجزٍ في مخيّلته.[3]

[1] Lucas and Sheeran 2006

[2] Ibid., p. 5, quoting William Hazlitt

[3] Ibid., quoting Mill



يستنتج لوكاس وشيران [الآتي] لو أنّ بينتهام كان على قيد الحياة اليوم، "فمن المرجّح أنّه سيتلقى تشخيصاً بأعراض أسبيرجر."[1]

الفيلسوف كانتْ ومتناوِل الغداء المختص بالواجبات الأخلاقية

وُلِدَ إيمانويل كانت في بروسيا في 1724. كان على معرفةٍ لصيقة بعمل هيوم وكان على نحوٍ إيجابي ميّالاً إلى النظريات العاطفية في مرحلة مبكرة من حياته المهنية، ولا سيما عندما كتب عن علم الجمال والرفيع. وعلى الرغم من أنّه سلَّمَ بأنّ العواطف مثل التعاطف مفصلية في وصف لماذا يتصرّف الناسُ في حقيقة الأمر على نحوٍ أخلاقي، إلا أنّه كان منزعجاً من جرّاء الذاتية التي انطوت عليها هذه الرواية ضمناً على صعيد الأخلاق. إذا ما كان لدى شخصٍ واحدٍ عواطف أخلاقية مختلفةٌ عن شخصٍ آخر، فهل لديه التزامات أخلاقية مختلفة؟ وماذا لو كان لدى أناسٍ في ثقافةٍ ما عواطفُ مختلفة عن أناسٍ في ثقافةٍ أخرى؟

كان كانتْ، مثلَ أفلاطون، يريد اكتشاف صيغة من العنصر الخيّر أزلية لا تتغير. لقد اعتقد بأنَّ الأخلاق لا بُدَّ أن تكون ذاتها بالنسبة إلى كلّ المخلوقات العقلانية، بغض النظر عن نزعاتها الثقافية والفردية. ولاكتشاف هذه الصيغة الأزلية، لن يصيبَ استخدام مناهج المراقبة النجاح ببساطة - أي تأمل العالم ورؤية أيّة فضائل تصادف أنْ يتّبعها الناس. بل قال إنَّ من الممكن تأسيس القانون الأخلاقي على عملية سابقة (ما قبل التجربة) قوامها التأمل الفلسفي. كان لا بدَّ أنْ تكون مؤلفة من مبادئ موروثة في وموحى بها من خلال تشغيل العقل.[2] وقد وجد كانتْ مبدأً كهذا: اللاتناقض. وبدلاً من تقديم قاعدة ذات مضمونٍ محدد، مثل "ساعد الفقراء" أو "احترم والديك،" قدّم كانتْ قاعدةً مجرّدةً من الممكن

---

(1) Lucas and Sheeran 2006, p. 1. بالطبع، التشخيص النفسي لفحص الجثة هو لعبة صعبة. سواء كان لدى بينتهام أو لمْ يكن متزامنة أسبيرجر، وجهة نظري هنا هي أنَّ تفكيره كان غير اعتيادي وفهمه للطبيعة البشرية كان بائساً.

(2) Denis 2008



استنباط (حسبما ادعى) كلّ القواعد الأخلاقية الأخرى المعمول بها منها. أسماها الإجبارالقطعي (أو غير المشروط): "تصرّف بموجب تلك القاعدة السلوكية فتستطيع وفقاً لذلك في الوقت ذاته أن تصمم بأنها يجب أن تصبح قانوناً كونياً."[1]

طلب إلينا بينتهام استخدام الحساب لتقرير التوجه الصحيح في العمل، لكنّ كانتْ قالَ لنا أن نستخدم المنطق. لقد أنجز كلا الرجلين معجزات التصنيف، فاختصرا كلّ الأخلاق في جملةٍ واحدة، وصيغةٍ واحدة. هل كان كانتْ يعاني أيضاً من متزامنة أسبيرجر؟

مثل بينتهام، كان كانتْ شخصاً ميّالاً إلى العزلة لم يتزوّج وكانت حياته الداخلية تبدو باردة. كان مشهوراً بحبّه للروتين (كان يخرج في مسيره اليومي في الساعة الثالثة والنصف بالضبط، بغض النظر عن المناخ)، وخمّن بعض الخبراء أنّه أيضاً كان يعاني من متزامنة أسبيرجر.[2] بعد قراءة رواياتٍ من حياة كانتْ الشخصية، من جانب آخر، أعتقد أن الحالة ليست على القدر ذاته من الوضوح كما لدى بينتهام. كان كانتْ محبوباً على نطاقٍ واسع، وبدا فعليا أنّه يتمتع بالصحبة، على الرغم من أنّ بعض نشاطه الاجتماعي فيه مسحةٌ من الحساب (كان يُثمّن الضحك والصحبة لأنهما كانا جيّدين لصحّته).[3] إن أكثر الأمورأماناً هو الاستفادة من بعديّ بارون – كوهين والقول إنّ كانتْ واحدٌ من أكثر التصنيفيين خروجاً على المألوف في تاريخ البشرية بينما كان متدنّي

---

(1) Kant 1993/1785, P. 30

(2) Fitzgerald 2005. الامكانية الأخرى هي أنّ كانت تعرّض لورمٍ دماغيّ عندما كان في السابعة والأربعين من عمره. بدأ يشكو من ألم الرأس، وبعد ذلك بوقت قصير فقد الرؤية في عينه اليسرى. فتغيّر كلٌّ من أسلوبه في الكتابة وفلسفته بعد ذلك، وتحزّر البعض أنّه عانى من ورمٍ تدخّل بالعمليات الشعورية في القشرة ما دون الجبهية اليسارية، تاركاً تصنيفه الفائق دون الخضوع لتدقيق التقمص العاطفي. أنظر Gazzaniga 1998, P. 121

(3) Scruton 1982



المستوى فيما يتعلّق بالتقمّص العاطفي، دون أن ينضمّ إلى بينتهام الزاوية اليمنى السفلى للشكل 6. 1.

عودة إلى المسار

لا أريد أن اقترح أن النفعية والمبادئ الأخلاقية الأدبية الكانتية غير صحيحتين بوصفهما نظريّتين أخلاقيتين لأنهما أسستا من قِبَلِ رجلين ربما عانا من متزامنة أسبيرجر فقط. فهذه ستكون مناقشة، وخطأً منطقياً، ومن وضيع القول. علاوةً على ذلك، كان كلٌّ من النفعية ومبادئ الأخلاق الأدبية الكانتية منتجتين على نحوٍ هائل في الفلسفة والسياسة العامّتين.

لكنَّ هدفنا في علم النفس توصيفي. نريد اكتشاف كيف يعمل فعلياً العقل الأخلاقي، لا كيفَ ينبغي أن يعمل، وذاك لا يمكن القيام به بواسطة التفكير، أو الرياضيات، أو المنطق. بل يمكن القيام به بواسطة الملاحظة فحسب، والملاحظة عادةً أكثر حدّة عندما يتم إعلامها بواسطة التقمص العاطفي.[1] من جانبٍ آخر، بدأتِ الفلسفة تتراجع عن المراقبة والتّقمّص العاطفي في القرن التاسع عشر، حين وضعت المزيد من التأكيد على التفكير الممنهج. وإذ أصبحت المجتمعات الغربية أكثر تعلّماً، وتصنيعاً، وثراءً، وديمقراطية، تغيّرت عقول المثقّفين. أصبحوا أكثر تحليلاً وأقل شموليّةً.[2] لقد أصبح كلٌّ من النفعية والآداب الأخلاقية أكثر جذباً بكثير للمختصّين بالأخلاق من مقاربة هيوم العاطفية، غير المنسّقة، والتعددية.

---

[1]. لا أعني أنّ هذا البيان ينطبق على كلّ الاستقصاء العلمي. الكيميائيون ليسوا بحاجة للتقمص العاطفي. لملاحظة الحياة الداخلية للناس، امتلاك التقمّص العاطفي أمرٌ مساعدٌ، مثلما يفعلُ كبار الروائيين والكتّاب المسرحيين.

[2] لا يُعلّق مؤلفو مقالة الناس غريبي الأطوار (Henrich et al. 2010; see chapter 5) على متى بدأ التفكير الغربي يصبح غريب الأطوار. لكنّ أطروحتهم تفيد مباشرة أنّ في القرن التاسع عشر، حين واصلت الثورة الصناعية تقدمها، وتزايدت مستويات الثروة، والتعليم، والفردية (على الأقل بالنسبة لطبقة النخبة)، بات التفكير غريب الأطوار شائعاً بشكلٍ متزايد.



تشرح هذه النزعة لماذا وجدتُ علم النفس الأخلاقي باهتاً إلى هذا الحد عندما درسته في سنوات الجامعة الدنيا. كان كولبيرج قد اعتنق عقلانية كانتْ. لقد أبدع نظريةً للتطوّر الأخلاقي فيها نقطةُ نهايةٍ وحيدة لا غير: فهم تامّ للعدالة. بدت هذه المقاربة برمّتها خاطئةً بالنسبة إلي. لقد كانت تصنيفية أكثر مما ينبغي ومتقمّصة للعاطفة أقل مما ينبغي. كانت مطعماً للذوق الحقيقي، يخدم أخلاقاً تتمتّع بعضو تذوّقٍ واحد.[1]

توسيع حاسة الذوق

ماذا هنالك بعد الأذية والعدالة؟ لقد منحت اخلاقيات شويدر الثلاثة نقطة بداية مفيدة، ولكنْ مثلَ معظم الأنثروبولوجيين الثقافيين كان شويدر حذراً من الشروحات الارتقائية للسلوك الإنساني. وكانت وجهة النظر السائدة بين الأنثروبولوجيين لأمدٍ طويل أنَّ التطور قد أوصلَ صنفنا إلى نقطة نصبح فيها مخلوقات تسيرعلى رجلين، مستخدمين للأدوات، كبيري الدماغ، ولكن ما أنْ طورنا قدرة الثقافة، توقّف التطوّر البيولوجي، أو أصبح على الأقل غير ذي صلة. إنّ الثقافة تمتلك من القوة ما يمكنّها من دفع البشر إلى التصرّف بطرقٍ تتجاوز الغرائز القديمة جداً والتي نشترك فيها مع الثدييات الراقية الأخرى.

كنت مقتنعاً أنَّ وجهة النظر السائدة في الأنثروبولوجيا كانت خاطئة، وأنّه سيكون من غير الممكن فهم الأخلاق دون الارتقاء. لكنّ شويدر كان قد علّمني أنْ أكون حذراً بشأن الشروحات الارتقائية، وهي في بعض الأحيان اختزالية (لأنها تتجاهل المعاني المشتركة التي هي محور اهتمام الأنثروبولوجيا

[1] تحسنّت الفلسفة الأخلاقية في السنوات العشرين الأخيرة، في رأيي، لأنها عادت نوعاً ما إلى اهتمامها الموغل في القدم في العالم الطبيعي، بما فيها علم النفس. الكثيرمن الفلاسفة في الوقت الحاضر واسعوّ القراءة في علم الأعصاب، علم النفس الاجتماعي والتطور. كان هنالك تطوّرٌ متزايدٌ "الواقعيّة النفسية" منذ التسعينات، على سبيل المثال فلاناجان 1991 وجيبارد 1990. للاطّلاع على وضع الفن، أنظر Appiah 2008، ومجموعة المجلّدات الثلاثة من المقالات التي حرّرها Walter Sinnott-Armstrong 2008 .



الثقافية) ووظيفية على نحوٍ ساذج (لأنها بالغة السرعة بافتراض أنَّ كلَّ تصرّفٍ تطوّرٌ لخدمة وظيفة). هل أستطيع صياغة رواية الحدس الأخلاقي الذي لمْ يكنْ اختزالياً، وكان ذالك حذراً في ادعائه بشأن "الغاية" أو "الوظيفة" للآليات النفسية الارتقائية؟ لا أستطيع فقط الإشارة للسمات الأخلاقية التي بدت كونية ـ مثل العاطفة والتبادلية ـ وأكدت أنها كانت فطرية على نحوٍ مجرد لأنها وُجدتْ في كلّ مكان. كان علي الحصول على قصةٍ لكلّ واحدة، وكان عليّ أنْ أكون قادراً على القول كيف تفاعلت هذه البديهات الفطرية مع التطوّر الثقافي لإنتاج تنوّعٍ من المنظومات الأخلاقية التي تغطي الأرض حالياً.

بدأتُ بتحليل قوائم الفضائل من كافة أرجاء العالم. إن الفضائل بنىً اجتماعية. الفضائل تُعلَّمُ للأطفال في ثقافةٍ حربية مختلفةً عن التي تُعلَّمُ للأطفال في ثقافةٍ زراعية. يوجد دائماً بعض التداخل بين القوائم، ولكنْ حتى آنذاك توجد خلافاتٌ في ظلال المعنى. لقد تحدّثَ كلٌّ من بوذا، والمسيح، ومحمد عن الشفقة، ولكن بطرقٍ مختلفة.[1] على الرغم من ذلك، عندما ترى أنَّ بعض الأشكال من اللطف، والعدالة، والموالاة يتم تثمينها في كافة الثقافات، تبدأ التساؤل إذا ما كان من الممكن أن توجد بعض اعضاء الذوق الاجتماعي متدنية المستوى إنسانية جامعة (مشابهة بالتناظرلأعضاء الذوق) تجعل على وجه الخصوص ملاحظة بعض أنواع الحوادث الاجتماعية أسهل من الأخرى بالنسبة إلى الناس.

ولوضع الأمر بلغة التناظر الوظيفي: تتمتع معظم الثقافات بمشروب حلو أو أكثر يتمُّ استهلاكه على نطاقٍ واسع ـ مستقى من الفاكهة المحلية عادةً، أو، في الأمم الصناعية، من السكر ومنكّهات قليلة فحسب. سيكون من السخف افتراضُ وجود أعضاء ذوق منفصلة لعصير المانجا، وعصير التفاح، والكوكا كولا والفانتا. هنالك عضو ذوق واحد قيد العمل هنا ـ عضو ذوق خاص بالحلاوة

[1] فقط بوذا، على سبيل المثال، بشّر بالرأفة لكل كائنٍ واعٍ، بمن فيهم الحيوانات. للاطلاع على مراجعةٍ لنظرية الثقافة والفضيلة، انظر Haidt and Joseph 2007



ـ وقد قامت كلّ ثقافةٍ باختراع طرقٍ متنوّعةٍ لتحريضه.[1] إذا ما أخبرنا خبيرٌ أنثروبولوجي أنّ شخصاً من قبيلة إسكيمو ليس لديه هذا النوع من الشراب، فهذا لا يعني أنهم يفتقدون أعضاء ذوق الحلاوة؛ بل سيظهر أن مطبخ الأسكيمو لا يستخدمه إلا قليلاً، لسبب جليّ وهو أن الفاكهة كانت متاحةً على نطاقٍ ضيق للأسكيمو، حتى وقتٍ متأخر. وعندما يخبرنا المختصون بالثدييات الراقية غير البشرية أنّ قرود الشمبانزي والبونبو تحب الفاكهة وسوف تعمل بجد في واجبٍ في المختبر للحصول على رشفةٍ من الكوكا- كولا، تصبحُ مسألة [أهمية] عضو تذوّق الحلاوة الفطري أقوى.

كان هدفي إيجاد روابط بين الفضائل والنظريات التطورية جيّدة التأسيس. لمْ أرغبْ بالإقدام على خطإٍ كلاسيكي لمنظريّ التطوّر الهواة، وهو التقاط سمة، ومن ثمّ السؤال: "هل يمكنني التفكير في قصةٍ عن إمكانية كون هذه السمة متكيفة ذات مرة" إن الإجابة على هذا السؤال على نحوٍ شبه دائم نعم لأنَّ التفكير يمكنُ أن يأخذَكَ حيثما تشاء. إنّ أيّ شخصٍ لديه مدخلٌ إلى أريكة من الممكن أن يجلس وينتج ما أسماه روديار كيبلنج "هكذا قصص فحسب" ـ روايات متخيّلة عن كيف غدا للجمل سنام وللفيل خرطوم. إنَّ هدفي، بالمقابل، تحديد أكثر الارتباطات وضوحاً بين حقلين احترمتهما من الأعماق: ألا وهما الأنثروبولوجيا وعلم النفس التطوري.

نظرية الأسس الأخلاقية

عملت في فريقٍ مع صديقٍ من سنوات دراستي في جامعة شيكاجو، كريج جوزيف، الذي عمل مع ايضاً مع شويدر. قام بحثُ كريج باستكشاف مفاهيم الفضيلة بين المسلمين في مصر والولايات المتحدة.

---

[1] لنسلم أنّ هنالك أعضاء شمّ قيد العمل هنا أيضاً، لكنني أتجاهل تلك من أجل غاية التبسيط. وبالتسليم، كثيرٌ من عصائر الفواكه أيضاً تحرّض عضو الذوق الحامض، الذي يعمل بشكلٍ جيّدٍ تماماً مع هذا التشابه التناظري: تحرّضُ انتهاكاتٌ أخلاقيةٌ كثيرة أساساً واحداً في المقام الأول، وأساس أو أكثر بشكلٍ ضعيف.



استعرنا فكرة "الانتقائية الدراسية" من الأنثروبولوجيين الانتقائيين دان سيربر ولورنس هيرشفيلد.[1] إن الجزئيات الوظيفية أشبه بمفاتيح في دماغ جميع الحيوانات. يتم تشغيلها بواسطة نماذج كانت مهمة للبقاء في الموضع البيئي المخصص، وعندما تلتقط ذلك النموذج، تقوم بإرسال إشارة (في خاتمة المطاف) تغيّرُ سلوك الحيوان بطريقة تكيّفيّة. على سبيل المثال، كثير من الحيوانات تتخذ ردّة فعلٍ خائفة في أوّل مرّةٍ ترى أفعى لأنّ أدمغتها تتضمّن داراتٍ عصبية تقوم بوظيفة لاقطات الأفعى.[2] حسبما عبّر سبيربر وهيرشفيلد:

> إنّ وحدة الإدراك الارتقائية ـ على سبيل المثال كاشف الأفاعي، جهاز إدراك الوجه... عملية تكيّف لسلسةٍ من الظواهر التي تشكّل مشكلاتٍ أو فرصاً في بيئة أسلاف الصنف. إنّ وظيفتها معالجة نوع من التحفيز أو المدخلات ـ على سبيل المثال الأفاعي [أو] الوجوه البشرية.

كان هذا وصفاً تاماً لما ستبدو عليه "أعضاء الذوق" الأخلاقية الكونية. ستكون حالات تكيّف لتهديداتٍ طويلة الأمد وفرصاً في الحياة الاجتماعية. ستقوم بلفت انتباه الناس لأنواعٍ محددة من الأحداث (من قبيل الوحشية وعدم

(1) Serper and Hirschfield 2004 . الوحدات الوظيفية الصغرى ليست بالعادة بقعاً محددة في الدماغ؛ بالأحرى، يتم تعريفها بواسطة ما تقوم به. قمنا كريج وأنا برفض القائمة المتطلّبة من متطلّبات الوظيفية الصغرى اقترحه فودور 1983. بدلاً من ذلك اعتنقنا ال "الوظيفية الصغرى الموسّعة" لدى سبيربر 2005، التي تتضمّن "وحدات التعلم الوظيفية الصغرى" فطرية التي تنتج كثيراً جداً من الوحدات الوظيفية الصغرى أثناء سيرورة تطور الطفولة. أنظر Haidt and Joseph 2007, 2011 .

(2) في الثديّات الراقية الأمر أكثر تعقيداً بقليل. تولد الثدييات الراقية دونما كثيرٍ خوفٍ فطريٍ من الأفاعي بقدرٍ بكونه "استعداداً" لتعلم الخوف من الأفاعي، بعد تجربة سيئة واحدة فحسب مع أفعى، أو بعد مجرّد رؤية عضو آخر من صنفها اتخذ ردة فعل خوف تجاه أفعى (Mineka and Cook 2008). لايتعلّمون الخوف من الزهور، أو أجسامٍ أخرى يتّخذ حيوان آخر ردة فعل خوفٍ تجاهها. إنّ وحدة التعلم محددة بالأفاعي.



الاحترام)، وتطلق ردود أفعال حدسية فورية، قد تكون المشاعر المحددة (مثل التعاطف أو الغضب).

كانت هذه المقاربة ما كنّا نحتاجه فحسب لإدراك ماهية التعلّم والتنوّع الثقافيين. لقد قام سبيربر وهيرشفيلد بالتمييز بين المقاديح الأصلية للجزئية الوظيفية ومقاديحها الحالية.[1] إنّ المقاديح الأصلية هي مجموعةٌ من الأجسام التي تمّ تصميم الوحدة الوظيفية من أجلها[2] (بمعنى أن مجموعة الأفاعي هي المقداح الأصلي لجزئية التقاط الأفاعي الوظيفية). المقاديح الراهنة هي كلّ الأشياء في العالم التي يتصادف أن تطلقها (بما فيها الأفاعي الحقيقية، فضلاً عن الأفاعي الدمى، والعصيّ المعقوفة، والحبال السميكة، وأيّ منها قد يمنحك رهبةً إذا ما شاهدتها في العشب). ترتكب الجزئيات الوظيفية أخطاءً، وقد طوّرت كثيرٌ من الحيوانات حيلاً لاستغلال أخطاء الحيوانات الأخرى. على سبيل المثال، كانت الذبابة المحوّمة قد طوّرت خطوطاً صفراً وسوداً ، تجعلها تبدو أشبه بالدبور، تطلق جزئية الحماية الوظيفية من الدبور في بعض الطيور التي كانت خلاف ذلك ستستمتع بأكل الذبابات المحوّمة.

من الممكن شرح التنوّع الثقافي في الأخلاق جزئيّاً بملاحظة أنّ الثقافات يمكن أن تقلّص أو تمدّد المقاديح الراهنة لأية وحدة وظيفية. على سبيل المثال، في الخمسين عاماً المنصرمة وفي مجتمعاتٍ غربية كثيرة وصل الناس إلى شعورٍ بالرأفة استجابةً إلى أنواعٍ أكثر بكثير من معانات الحيوانات، كما وصلوا إلى

---

[1] استخدم سبيربر وهيرشفيلد مصطلحيّ المجال المناسب والمجال الفعلي، لكنّ أشخاصاً كثيرين (بمن فيهم أنا) يجدون من الصعب تذكّر هذين المصطلحين، وهكذا قمت بالاستبدال ب المقاديح الأصلية والمقاديح الراهنة. إنّ مصطلح المقداح الأصلي لا يُقصد به أن يفيد أن كان هناك ذات مرّةٍ، قبل زمنٍ طويل، عندما لا تقوم الوحدة الوظيفية لا ترتكبُ أخطاءً. سأستخدم مصطلح المقداح المقصود باستثناء أنّ التصميم التطوّري يفتقد إلى المقاصد.

[2] الاصطفاء الطبيعي هو عملية تصميم؛ إنّه سبب التصميم الذي يزخر في العالم الحيوي. وهو مصمم غير ذكيّ أو غير واعي. أنظر Tooby and Cosmides 1992 .



شعورٍ بالاشمئزاز استجابةً لأنواعٍ قليلةٍ جداً من النشاط الجنسي. ويمكن أن تتغيَّر المقاديح الراهنة في جيلٍ واحدٍ، على الرغم من أنّ ارتقاء الجينات سيستغرق عدة أجيال لتغيير تصميم الوحدة الدماغية الوظيفية ومقاديحها الأصلية.

علاوةً على ذلك، وفي داخل أيّة ثقافةٍ محددة، يتبيّن أنّ الكثير من الأمور الأخلاقية المثيرة للجدل تنطوي على طرقٍ متنافسة لربط السلوك بوحدةالوظيفية ما. هل يجب السماح للآباء والأساتذة بضرب الأطفال من أجل العصيان؟ على الجانب اليساري من الطيف السياسي، يثير الضرب - على نحوٍ نمطيّ - أحكاماً بالقسوة والقمع. على الجانب اليميني، يتم ربطه بعض الأحيان بالأحكام من أجل تعزيزٍ مناسبٍ للقواعد، ولا سيما بشأن احترام الآباء والأساتذة. وهكذا حتى لو اشتركنا بالمجموعة الصغيرة ذاتها من الجزئيات الوظيفية الإدراكية، نستطيع ربط الأفعال بالجزئيات الوظيفية بطرقٍ كثيرةٍ تمكنّنا بناء منظوماتٍ أخلاقية متنازعة على المجموعة الصغيرة نفسها من الأسس.

لقد قمتُ مع كريج بمحاولة تعريف أفضل المرشّحين ليكونوا جزئيات إدراكية وظيفية كونية تبني عليها الثقافات منظوماتٍ ثقافية. لذلك دعونا مقاربتنا نظرية الأسس الأخلاقية.[1] أوجدناها بواسطة تعريف التحديات التكيّفية للحياة الاجتماعية التي كتَبَ عنها على نحوٍ متواترٍ خبراء علم النفس التطوري ثمّ ربطوا هذه التحديات بالفضائل الموجودة بصيغةٍ [أو أخرى] في ثقافاتٍ كثيرة.[2]

---

[1] للمزيد حول أصول النظرية وتفاصيلها، أنظر Haidt and Graham 2007; Haidt and Joseph 2004, 2007. تأثرت النظرية بقوةٍ بفعلِ عمل ريتشارد شويدر والان فيسك. إنّ اختيار الأسس الخمس قريب لأخلاقيات شرويدر الساسية. كما أنّ مقاربتنا العامة لتحديد الوحدات الوظيفية الإدراكية التطوّرية التي يتمُّ ملؤها بطرقٍ ثقافيةٍ متغيّرة تمّ استلهامها من نظرية النماذج العلائقية لدى ألان فيسك. أنظر Rai and Fiske 2011 للاطّلاع على تطبيق هذه النظرية على علم النفس الأخلاقي.

[2] للاطّلاع على قائمة حديثة، أنظر Neuberg, Kenrick, and Schaller 2010



برزت خمسُ تحدياتٍ تكيفية بالغة الوضوح: الاهتمام بالأطفال الضعفاء، تشكيل شراكاتٍ مع غير الأقارب لجني فوائد التجارة التبادلية، وتشكيلِ إئتلاف للتنافس مع الائتلافات الأخرى، والمحادثاتٌ مع حالة الهرميات، وتجنيب المرء لذاته ولقرابته الطفيليات والكائنات المسببة للمرض، التي تنتشر بسرعةٍ عندما يعيش الناس في مناطق شديدة التجاورمع بعضها. (سأعرض الأساس السادس - الحرية / القمع - في الفصل 8).

	عناية/ اذية	التزام بالقواعد/ غش	ولاء/ خيانة	سلطة/ تدمير	قداسة/ انحلال
التحدي المتكيّف	حماية الأطفال والعناية بهم	جني الفوائد عن طريق شراكةٍ باتجاهين	تشكيل ائتلافات متماسكة	إقامة علاقات نفعية ضمن الهرمية	تجنّب الملوّثات
مقاديح أصلية	معاناة، شدة، أو حالة احتياج يتم التعبير عنها من قبل طفل المرء	غش، تعاون، خداع	تهديد المجموعة أو تحديها	علامات السيطرة والخضوع	منتجات نفايات، أشخاص مصابون بأمراض
مقاديح راهنة	أطفال الفقمة، شخصيات كرتونية جذابة	المضاف في الزواج، آلات بيع محطمة	فرق رياضية، أمم	أرباب عمل، مهنيون محترمون	أفكار محرمة (الشيوعية، العنصرية)
مشاعر نمطية	الرأفة	غضب، امتنان، إثم	فخر الجماعة، غضب ضد الخونة	احترام، خوف	اشمئزاز
فضائل متعلقة	عناية، لطافة	التزام بالقواعد، عدالة، جدارة بالثقة	ولاء، وطنية، فداء	طاعة، مراعاة	ضبط النفس، عفة، تقوى، طهارة

الشكل 6. 2 . أسس الأخلاق الخمس (المسودة الأولى)



في الشكل 6. 2 قمت برسم عمودٍ لكلٍّ من الأسس الخمس التي قمنا باقتراحها في المرحلة الأولية.[1] يمنح النسق الأول تحديات التكيّف. لو أنّ أسلافنا واجهوا هذه التحديات طوال مئات آلاف السنين، فسيقوم الاصطفاء الطبيعي بتفضيل أولئك الذين لديهم جزئيات وظيفية ساعدتهم على إنجاز الأمور إنجازاً صحيحاً ـ بسرعةٍ وبطريقةٍ حدسية ـ مقارنةً بأولئك الذين اعتمدوا على ذكائهم العام (الراكب) بغية حلّ المشكلات المتعاقبة. يعطي النسق الثاني المقاديح الأصلية ـ مما يعني، أنواع النماذج الاجتماعية التي تستطيع هذه الجزئيات الوظيفية التقاطها. (لاحظ أن الأسس حقاً مجموعاتٍ من الجزئيات الوظيفية تعمل مجتمعةً لترقى إلى مستوى تحدي التكيّف.)[2] في النسق الثالث أمثلةٌ عن المقادح

---

[1] في مقالتنا الأصلية (Haidt and Joseph 2004)، قمنا بوصف أربعة أسس فقط، صنّفناها على أنها المعاناة، والهرمية، والتبادلية، والقداسة. لاحظنا أن من المحتمل أنّ الكثير كان موجوداً، وعلى وجه الخصوص لاحظنا "الولاء للجماعة" في الهوامش على أنه مرشح جيّد للأساس الخامس. أنا ممتنٌّ من جينيفر رايت، التي ناقشت معي بواسطة البريد الألكتروني أثناء عملي في تلك الورقة، وذاك الولاء للمجموعة مميّزٌ عن الهرمية، وهي المكان الذي وضعناها أنا وكريج فيه بالأصل. بدءاً من عام 2005، قمنا بتغيير أسماء الأسس الخمس لنستخدم كلمتين قريبتين كلٌّ منها للأخرى، من أجل اختزحالات سوء التفاهم التي كنّا نواجهها. كما استخدمنا هذه الأسماء من 2005 وحتى 2009:الأذى/الرعاية، التقيد بالقواع [العدل]/ التبادلية، في المجموعة/ الولاء، السلطة/ الاحترام، الطهارة/ القداسة. في عام 2010 قمنا بإعادة صياغة النظرية لتوسيعها وإصلاح النواقص التي سوف أصفها في الفصل 8. لتجنّب فوضى الحديث عن أسماءٍ تعددية من أجل الأسس ذاتها، تبنّيت أسماء 2010 هنا، عندما أصف أصول النظرية. فيما يتعلّق بالسلطة، قمتُ بالتركيز هنا على علم نفس الشخص التابع ـ علم نفس الاحترام نحو السلطة. في الفصل التالي سأستكشف علم نفس القائد الأعلى كذلك الأمر.

[2] انظر على سبيل المثال، "تناسب" المشاعر الأخلاقية التي طرحها ترايفرز 1971 على أنه الآلية الكامنة وراء الغيرية المتبادلة (مثلاً، امتنان لقاء أعمال معروف تم تلقّيها، والاستياء حيال أعمال معروف لم تتم إعادتها من قبل الشخص الآخر، والإثم لأعمال معروف لم يتم ردّها من قبل الذات.) بالنسبة لأساس العناية، على سبيل المثال، قد يكون هنالك وحدة وظيفية بمفردها ترصد المعاناة، وأخرى مخصصة لإلحاق الأذية بقصد، وثالثة لرصد



الراهنة ـ أنواع الأشياء التي تطلق الجزئيات الوظيفية المعنيّة (في بعض الأحيان عن طريق الخطأ) بالنسبة إلى الناس في مجتمع غربي حديث. ويُدرج النسق الرابع قوائمَ لبعض المشاعر التي هي جزءٌ من مُخرَج كلّ أساس، على الأقل عندما يتمّ تفعيل الأساس بقوة. ويُدرِجُ النسق الخامس بعض كلمات الفضيلة التي نستخدمها للحديث عن أناسٍ يطلقون "ذوقاً" أخلاقياً معيّناً في عقولنا.

سأتحدث عن كلّ أساس بتفصيلٍ أكبر في الفصل التالي. أما في الوقت الراهن، فأريد أنْ أبرهن النظرية التي تستخدم أساس العناية /الأذى فحسب. تخيّلْ أنّ ابنَك البالغ أربع سنواتٍ من عمره تم نقله إلى المشفى لاستئصال الزائدة الدودية. ويُسمَحُ لك بمراقبة الإجراء من خلف زجاج النافذة. يتم إعطاءُ إبنك تخديراً عاماً وتراه مستلقياً، غائباً عن الوعي، على طاولة العمليات. ثمّ، ترى مبضع الجراح يشق بطنه. أتشعر بموجة من الارتياح، حين تعرف أنه في النهاية سيخضع لعملية سوف تنقذ حياته؟ أم ستشعر بألمٍ مبرّح يجعلك ترغب بإشاحة نظرك بعيداً؟ إذا ما كانت "دولورات" (الآلام) ترجح على حساب "الهيدونات" (المباهج)، ستكون ردة فعلك غير عقلانية، من وجهةِ نظرٍ نفعية، لكنّها تقدم مغزىً تاماً على أنها مُخرَجٌ للجزئية الوظيفية. نقوم بالرد شعورياً على إشارات العنف او الألم، ولا سيما عندما يتعلّق الأمر بالطفل الخاص بنا. فنحنُ نستجيب حتى عندما ندرك عن سابق وعيٍ أنّ الأمر ليس عنفاً حقيقياً وهو [الطفل] لا يتألمُ فعلياً. إنه أشبه بوهم موللر ـ لاير: ليس بوسعنا سوى رؤية خطٍ واحدٍ على أنّه أطول، حتى عندما نعرف على نحوٍ واعٍ أنهما بطولٍ واحد.

القرابة، ورابعةً لرصد جهود للعناية والراحة. والنقطة الهامة هي أنّ هناك مجموعة من برامج "إذا ــ بعدئذٍ" الفطرية التي تعمل مجتمعةً على مساعدة الناس كي يلبّوا تحديات التكيّف. بعض هذه الوحدات الوظيفية قد تكون فطرية باعتبارها "وحدات تعلّم وظيفية"، تقوم بإنتاج وحداتٍ وظيفية أكثر تخصصاً أثناء تطوّر الطفولة، حسبما يصف سبيربر. أنظر Haidt and Joseph 2007 للاطّلاع على نقاشٍ مفصّل تركيبية الوحدة الوظيفية الأخلاقية.



حين تراقب الجراحة، تلاحظُ أنَّ ممرّضتين تساعدان في إنجاز العملية ـ إحداهما أكبر عمراً [من الأخرى]، وواحدة أصغر عمراً. كلتاهما في حالة انتباه تام للإجراء، لكنّ المرضة الأكبر عمرا تقوم بين الفينة والفينة بتمسيد رأس ابنك، وكأنها تحاول التخفيف عنه. والممرضة الشابة منهمكة بالعمل تماماً. افترض، من قبيل تقديم الحجة، أنّ هنالك برهاناً دامغاً بأنّ المرضى الخاضعين للتخدير العميق لا يسمعون أو يشعرون بأيّ شيء. وإذا ما كانت الحالة كذلك، ماذا ستكون ردة فعلك حيال الممرّضتين؟ إن أفعال المرضة المتقدمة في العمر لم تفعلْ شيئاً لتحجيم الألم أو تحسين النتيجة الجراحية. إذا ما كنت شخصاً كانتياً [نسبةً إلى كانت]، فَلَنْ تعطي كذلك الأمر المرضة المتقدمة في العمر صدقية إضافية. يبدو أنها قد تصرّفت وهي شاردة الذهن، (حتى أسوأ من ذلك، بالنسبة لكانتُ) قد تصرفت بدافعٍ من مشاعرها. فهي لا تتصرّف من جرّاء الالتزام بمبدأ يتّخذ صيغة الكونية. لكنْ إذا ما كنت هيومياً [نسبةً إلى هيوم]، فمن المناسب تماماً بالنسبة لك أنْ تُحِبَّ المرضة الأكثر تقدماً في السن وتمدحها. لقد التقطت تماماً فضيلة الرعاية التي تقوم بها بشكلٍ أوتوماتيكي ودونما جهدٍ يُذكر، حتى عندما لا يترتّب على الفعل أيّ أثر. إنها فنانة في الرعاية، وهو أمر حسنٌ وجميل عند المرضة. إنه طيّبُ الطعم.

باختصار

ثاني مبادئ علم النفس الأخلاقي هو: الأخلاق تنطوي على أكثر من التقيّد بالقواعد والأذية. في هذا الفصل بدأت القول على وجه التحديد ما هو أكثر من ذلك:

- الأخلاق مثل الذوق بأشكالٍ عديدة ـ وهو تشابه تناظري تم إجراؤه قبل زمنٍ طويلٍ من قِبَل هيوم ومينشيوس.
- الأخلاق الأدبية والمنفعة هي أخلاقيات "عضو تذوّق واحد" من المرجّح أن تجتذب بمنتهى القوة الناس الذين هم رفيعو المستوى في التصنيف ومتدنّو المستوى في التقمّص العاطفي.



- إنَّ المقاربة نحو أخلاقيات هيوم التعددية، العاطفية، الطبيعية هي واعدة أكثر من المنفعة أو الأخلاق الأدبية بالنسبة إلى علم النفس الأخلاقي المعاصر. وإذ تتابع الخطوة الأولى مشروع هيوم، علينا محاولة تحديد أعضاء الذوق للعقل القويم.
- من الممكن أن يساعدنا وضع الوحدة الوظيفية على التفكير في أعضاء التذوق الفطري وكيف تنتج تنوّعاً من التصوّرات الأولية التي تتطوّر بطرقٍ متغيّرة ثقافياً.
- إنَّ المرشحين الخمس ليكونوا أعضاء تذوّق لدى العقل المستقيم هم العناية، والالتزام بالأصول، والولاء، والسلطة، والقداسة.

النظريات رخيصة في علم النفس. يمكن لأيٍّ كان أن يخترعَ نظرية. يحدث التقدم عندما يتم اختيار النظريات، ودعمها، وتصحيحها بواسطة البرهان التجريبي، ولا سيّما عندما يتم البرهان أنَّ النظرية مفيدة ـ على سبيل المثال، إذا ما ساعدت الناس في فهم لماذا يبدو نصف الناس في بلادهم كمن يعيشون في كونٍ أخلاقيٍ مختلف. هذا ما حدث بعد ذلك.



سابعاً

الأسس الأخلاقية للسياسة

وراء كلِّ فعلٍ من الإيثار، والبطولة، والآداب الإنسانية ستجدُ إما الأنانية أو الغباء. تلك، على الأقل، وجهة نظرٍ تم التمسك بها من قِبَل كثيرٍ من علماء الاجتماع الذين قَبِلوا فكرة الإنسان بوصفه نوعاً بيولوجياً هي في حقيقة الأمر الإنسان بوصفه نوعاً اقتصادياً.[1] "الإنسان الاقتصادي" هو مخلوقٌ بسيطٌ يقوم بكلّ خيارات الحياة على طريقة متبضّعٍ في السوبرماركت بمزيد من الوقت للمقارنة بين مرطبانات صلصة التفاح. إن كانت هذه عن نظرك عن الطبيعة البشرية، فمن السهل إيجاد نماذج رياضية للسلوك بسبب وجود مبدأٍ واحدٍ في وضع الفاعلية: المصلحة الشخصية. فالناس يفعلون أيّ شيءٍ يمكنّهم من الحصول على أعلى فائدة بأقل تكلفة.

ولرؤية كم هي خاطئة وجهة النظر هذه، أجب عن عشرة أسئلة في الشكل 7. 1. الإنسان الاقتصادي يضع السعر على إبرةٍ تخترق ذراعه، والسعر الأدنى ـ ربما الصفر ـ على الأفعال التسعة الأخرى، والتي لا يعود أيٌّ منها عليه بالأذى مباشرةً أو يكلّفه أيّ شيء.

إنَّ ما هو أهم من الأرقام التي كتبتها هي المقارنات ما بين الأعمدة. سيجد الإنسان الاقتصادي أفعالاً في العمود ب لا تقل مقتاً عن تلك الموجودة في العمود أ. إذا ما وجدتَ أيّاً من الأفعال في العمود ب أسوأ من أشباهها في العمود أ،

[1] مثال Luce and Raiffa 1957



فتهانينا، أنت كائنٌ بشري، ولست خيالاً لخبير في الاقتصاد. لديك اهتماماتٌ ما بعد المصلحة الشخصية الضيّقة. لديك مجموعة فاعلة من الأسس الأخلاقية.

<table>
<tr><td colspan="2">كم يتوجّب على شخصٍ ما أن يدفع لك كي تقوم بكلٍ من هذه الأفعال؟ افترض أنك ستتلقى الدفع سرّاً وأنَّ ما من تبعاتٍ اجتماعية، أو قانونية، أو سواها مما يسبب الأذى بالنسبة إليك فيما بعد. أجب عن طريق كتابةِ رقمٍ من 0 إلى 4 بعد كلّ فعل، حيث:
0 = $0 اقوم به دون مقابل
1 = 100 $
2 = $10000
3 = $1000000
4 = لن أفعل ذلك لقاء أيّ مبلغٍ من المال</td></tr>
<tr><th>العمود (أ)</th><th>العمود (ب)</th></tr>
<tr><td>1. أ شك إبرة معقمة تحت الجلد في ذراعك. ________</td><td>1. ب غرز حقنةٍ معقّمةٍ تحت الجلد في ذراع طفلٍ لا تعرفه. ________</td></tr>
<tr><td>2. أ قبول شاشة بلازما للتلفاز يريد صديقٌ تقديمها إليك. أنت تعرف أنَّ صديقك حصل على التلفاز قبل عامٍ مضى عندما قامت الشركة التي صنعته بإرساله إلى صديقك، عن طريق الخطأ وليس مقابل ثمن. ________</td><td>2. ب قبول شاشة بلازما للتلفاز يريد صديقٌ تقديمها إليك. أنت تعرف أنّ صديقك اشترى التلفاز قبل عامٍ مضى من لصٍ كان قد سرقهُ من عائلة ثريّة. ________</td></tr>
<tr><td>3. أ قول شيءٍ ناقد حول أمّتك (تعتقد أنّه صحيح) وأنت تتصل هاتفياً، دون</td><td>3. ب قول شيءٍ ناقد حول أمّتك (تعتقد أنّه صحيح) وأنت تتصل هاتفياً، دون</td></tr>
</table>



العمود (أ)	العمود (ب)
تسمية، إلى برنامجٍ حواري عند أمتك. ______	تسمية ، إلى برنامجٍ حواري عند أمّة أجنبية. ______
4. أ. صفعُ صديقٍ ذكرٍ على الوجه (بموافقته) بمثابة جزءٍ من مسرحية قصيرة ______	4. ب. صفع والدك على الوجه (بموافقته) بمثابة جزءٍ من مسرحية هزلية قصيرة. ______
5. أ. حضور مسرحية طليعية قصيرة يقوم فيها الممثلون بتجسيد الحمقى طوال ثلاثين دقيقة، بما فيها الإخفاق في حلّ مشكلاتٍ بسيطة والسقوط على أرض الخشبة على نحوٍ متكرر. ______	5. ب. حضور مسرحية طليعية قصيرة يقوم فيها الممثلون بلعب أدوار الحيوانات طوال 30 دقيقة، بما فيها الزحف عراةً في أرجاء المكان والزعيق مثل قرود الشمبانزي. ______
إجمالي العمود (أ):	إجمالي العمود (ب):

كتبتُ هذه الثنائيات الخمسة من الأفعال بحيثُ أنَّ العمود ب يعطيك إضاءةً حدسية من كلّ أساس، مثل وضع ذرّة ملحٍ أو سكّرٍ على لسانك. وتوضح الصفوف الخمسة انتهاكات الرعاية (أذية الطفل)، التقيّد بالأصول (الربح من خسارة غير مستحقة لشخصٍ ما)، والولاء (انتقاد أمّتك الموجّه إلى الغرباء)، السلطة (عدم احترام والدك)، والقداسة (التصرّف بطريقة متهتّكة أو مثيرة للاشمئزاز).

في معظم أجزاء هذا الفصل سأقوم بوصف هذه الأسس وكيف أصبحتْ جزءاً من الطبيعة البشرية. وسوف أُظهر أنَّ هذه الأسس تُستخدَم على نحوٍ مختلف، وإلى درجاتٍ مختلفة، لدعم المنظومات الأخلاقية على صعيد اليمين واليسار السياسيين.



ملاحظة عن الفطرية

كان من قبيل اعتياد المجازفة بالنسبة إلى العلماء التأكيد أنَّ أيّ شيء يخص السلوك الإنساني كان فطرياً. من أجل دعم ادعاءاتٍ كهذه، كان عليك أن تُظهر أنَّ السمة ذات تصميم بيولوجي مسبق، غير قابلة للتغيير بفعل التجربة، وموجودةٌ في كلّ الثقافات. بذاك التعريف، ليس الكثير فطريّاً، بعيداً عن المنعكسات الغريزية القليلة لدى الأطفال مثل ذاك الشيء الجذّاب الذي يقومون به عندما تضع إصبعَكَ داخل أيديهم. إذا ما افترضتَ أنَّ أيَّ شيءٍ أكثر تعقيداً من ذلك كان فطرياً ـ ولا سيما الاختلاف الجنسي ـ سيُقالُ لكَ إنَّ قبيلةً كانت موجودةً في مكان ما تحت الأرض لمْ تُظهِر السِّمةَ نفسها، وبالنتيجة فهي ليست فطرية.

لقد أحرزنا تقدماً كبيراً منذ السبعينات في فهمنا للدماغ، ونعرف الآن أنَّ السمات من الممكن أنْ تكون فطرية دون أنْ تكون إمّا ثابتة التصميم البيولوجي أو كونية. حسبما يشرح جاري ماركوس المختص بالأعصاب، "لقدْ أسبغتِ الطبيعة على المولودين حديثاً دماغاً معقداً إلى حدٍّ بعيد، لكنّه دماغٌ واحدٌ من الأفضل أن يرى ذا تصميم بيولوجي مسبق ـ مرنٌ وعرضة للتغيير ـ أكثر منه ثابت من حيث التصميم البيولوجي، ومثبّت، وغير قابلٍ للتغيير."[1]

من أجل تغيير الرسم البياني للكتابة، يقترح ماركوس قياساً تمثيلياً: الدماغ أشبه بالدفتر، تكتب المسوّدة الأولى منه الجينات أثناء التطوّر الجنيني. لا توجد فصولٌ تامة عند الولادة، وبعضٌ منها مخططات عامة محضة تنتظر الملء أثناء الطفولة. ولكن ما من فصلٍ واحدٍ ـ أكان عن النشاط الجنسي، واللغة، والتفضيلات الغذائية، أو الأخلاق ـ يتألف من صفحاتٍ خالية يستطيع المجتمع أنْ يكتب عليها أيّة مجموعات مفهومة من الكلمات. إنَّ قياس ماركوس التمثيلي يؤدي إلى أفضل تعريف للفطرية سبق لي الاطّلاع عليه:

---

[1] Marcus 2004, P. 12



تقدّم الطبيعة المسوّدة الأولى، تقوم التجربة بعدئذٍ بمراجعتها... عبارة "متكوّن في الداخل" لا تعني غير مطواعٍ؛ بل تعني "منظّم ما قبل التجربة."[1]

كانت قائمة الأسس الأخلاقية الخمس محاولتي الأولى لتفصيل كيف كان العقل القويم "منظّماً سلفاً قبل التجربة." لكنّ نظرية الأسس الأخلاقية تحاول أيضاً شرح (كيف يتم تثبيت المسوّدة الأولى أثناء الطفولة لإنتاج تنوّع الأخلاقيات التي نجدها عبر الثقافات ـ وعبر الطيف السياسي).

1. أساس العناية / الأذية

تتلقّى الزواحف طرقةً سيّئة لكونها باردة ـ ليست باردة الدم فحسب بل باردة القلب. بعض أمّهات الزواحف تتسكّع في المكان بعد فقس صغارها، لتقديم بعض الحماية، لكنْ في كثير من الأصناف لا يقمْنَ بذلك. وهكذا عندما تقوم بعض الثدييات الأولى بإرضاع صغارها، تكون قد رفعت كلفة الأمومة. لمْ تعُدْ الإناث تلقي دستاتٍ من الصغار وتراهن أنَّ قلّةً منهم ستتمكن من البقاء اعتماداً على ذاتها.

تقوم الثدييات برهاناتٍ أقل وتستثمر ما هو أكثر بكثير في كلّ صغير، وهكذا تواجه الثدييات تحدي رعاية اطفالها وتنشئتهم لزمنٍ طويل. تطرح الأمهات الثدية الراقية رهاناتٍ أقل وتستثمر رغم ذلك في كلّ صغير. وأطفال البشر، بلغتْ أدمغتهم من الكِبَرِ درجةً توجب دفع الطفل خارج قناة الولادة قبل عامٍ من تمكّنه/ها من المشي، رهاناتٌ بلغت حداً من الضخامة يجعل الأم غير قادرةٍ على أن تضع رقاقات البطاطا المقلية الخاصة بها على الطاولة بنفسها. فهي تحتاج مساعدةً في الشهور الأخيرة من الحمل، ومساعدة لتوليد الطفل، ومساعدة في إطعام الطفل والعناية به لعدة سنوات بعد الولادة. عند التسليم بهذا الرهان

---

[1] Marcus 2004. قمت بتجميع هذا التعريف من صفحتين. الجملة الأولى في الصفحة P. 34، والثانية في الصفحة P. 40 . لكنّها جزءٌ كاملٌ من مناقشة موحدة في الفصل 3.



الكبير، يبقى هناك تحدّي التكيّف الهائل: العناية بالطفل الضعيف والغالي والمكلف، وإبقاؤه سالماً، والحفاظ عليه حيّاً، وإبعاده عن الأذية.

إن من غير الوارد فحسب أنّ الفصل الذي يتحدث عن الأمومة في كتاب الطبيعة البشرية أبيضُ كليّاً، تاركاً الأمر للأمهات لتعليم كلّ شيء عن طريق التلقين الثقافي أو التجربة والخطأ. لقد حسّنت الأمّهات ذوات الحساسية الفطرية حيال إشارات الألم، والأسى، والعوز رهاناتهن، بالنسبة إلى شقيقات أقل حساسية.

ليست الأمّهات فقط من تحتجنَ إلى معرفةٍ فطرية. وعند التسليم بعدد الأشخاص الذين يجمّعون إمكانيّاتهم للرهان على كلّ طفل، فضّل الاصطفاءُ النساءَ و(بدرجةٍ أقل) الرجال الذين كان لديهم ردة فعل آلية لإشارات الحاجة، مثل البكاء، من الأطفال بينهم (الذين، في الأزمنة الموغلة في القدم، كان من المرجّح أن يكونوا من الأقارب).[1] إنَّ ألمَ أبنائك هو المقداح الأصلي لواحد من مفاتيح الوحدات الوظيفية المتعلّقة بأساس الرعاية. سأشير في الغالب إلى الأساسين باستخدام العنصر الأول من اسميهما ــ الرعاية بدلاً من الرعاية / الأذية.) تعمل هذه الوحدة الوظيفية مع الجزئيات الوظيفية الأخرى ذات العلاقة [2] لتلبية تحدي تكيّف حماية الأطفال ورعايتهم.

---

[1] لقد تمّ في الآونة الأخيرة اكتشاف أن القرابة الجينية في جماعات الصيادين- لاقطي الثمار ليست بشكلٍ تقريبي عالية كما كان خبراء الأنثروبولوجيا قد افترضوا لزمنٍ طويل (Haidt et al. 2011). أفترض، من جانب آخر، أن هذا الانخفاض في القرابة قد جاء في مئات آلاف السنين القليلة الأخيرة، إذ تزايد تعقيدنا الثقافي. أفترضُ أنّ أساس الرعاية قد تعرّض سلفاً للتعديل والتكثيف في ملايين السنوات القليلة قبل ذلك، حيث ازداد حجم دماغنا وطول فترة طفولتنا.

[2] من قبيل متابعة درجة القرابة ، أو تمييز الأذية المقصودة من غير المقصودة بحيث تعرف متى تغضب حيال شخصٍ ما يسبب البكاء لابنك. أكرر ملاحظتي من الفصل السابق بأنَّ هذه الوحدات الوظيفية ليست حسبما سبق لفودر 1983 أن عرّفها في الأصل. إنَّ معايير فودر صارمة بحيث أنّه إلى أبعد الحدود ما من شيءٍ في الإدراك العالي من الممكن أن يكون مؤهلاً. للمناقشة حول كيف من الممكن أن يتم تشكيل الإدراك الأعلى بشكلٍ جزئيّ في وحدات وظيفية، أنظر Haidt and Joseph 2007 ، وانظر Barrett and Kurzban 2006 حول الوحدات الوظيفية باعتبارها أنظمة وظيفية أكثر من المناطق الموجودة في الدماغ.





الشكل 7. 2. بيبي جوجو، وماكس، وجوجو

هذه ليست قصة هكذا ـ فقط. إنها قصة إعادة سردي لبداية نظريّة الحميمية، وهي نظرية مدعومةٌ جيداً تصف النظام الذي بموجبه يضبطُ كلّ من الامهات والأطفال سلوك بعضهم ضبطاً يمكن الطفل من أنْ يحصلَ على مزيجٍ جيّد من الحماية وفرص الاستكشاف المستقل.[1]

إنّ مجموعة المقاديح الراهنة لأية وحدات مركبة في الغالب أكبر من مجموعة المقاديح الأصلية. توضح الصورة في الشكل 7. 2. هذا التوسع بأربع طرق. أولاً، قد تجدها جذّابة. إن كنت كذلك، فذاك لأن عقلك على نحوٍ آلي مستجيبٌ إلى نسبٍ درجاتٍ ونماذج تميّز أطفال البشر عن الراشدين. تشحننا الجاذبية للقيام بالرعاية، والتنشئة، والحماية، والتفاعل.[2] فهي تميل نحو الفيل. ثانياً، على الرغم من أنّ هذا ليس طفلك، فأنتَ بالرغم من ذلك قد تتمتّع

[1] Bowlby 1969

[2] انظر Sherman and Haidt 2011 للاطّلاع على مراجعة.



باستجابةٍ شعورية آنية لأنَّ أساس الرعاية من الممكن إطلاقه بواسطة الطفل. ثالثاً، من الممكن أن تجد أصحاباً لابنك (جوجو وبيبي جو) جذّابين، ولو أنّهم ليسوا أطفالاً حقيقيين، لأنهم قد صُمّموا من قِبَل شركة الألعاب لإطلاق أساس الرعاية لديك. رابعاً، ماكس يحبُ جوجو؛ يصرخ عندما أجلس على جوجو بالمصادفة، وهو في الغالب يقول، "أنا أم جوجو،" لأن نظام الحميمية لديه وأساس الرعاية يتطوّران على نحوٍ اعتيادي. إذا ما كان من الممكن لأزرارك أن تُضغَط بفعل صورةٍ طفلٍ نائمٍ إلى جانب قردين محشوّين، فتخيّلْ كيف ستشعر إذا ما رأيتَ ابنك أو حيواناً جذّاباً يواجه تهديداً بالعنف، كما في الشكل 7. 3.

لا يقدم مغزىً تطوّريّاً اهتمامك بما يحدث لابني ماكس، أو لطفلٍ جائع في بلدٍ ناءٍ أو لفقمةٍ صغيرة. لكنّ داروين لا يشرح لمَ تذرف أيّة دمعةٍ محددة. إن عليه فحسب أن يشرح لمَ لديك قناة دمعٍ في المقام الأول، ولم هذه الأقنية من الممكن



الشكل 7. 3. مقداح آني لأساس الرعاية /الأذى



أن تتفعّل في بعض الأحيان بفعلِ ألمٍ ليس خاصاً بك.[1] يجب على داروين شرح المقاديح الأصلية لكلّ وحدة مركبة. من الممكن للمقاديح الراهنة أنّ تتغيّر بسرعة. نهتم بالعنف تجاه طبقاتٍ كثيرة جداً من الضحايا اليوم أكثر مما كان يفعل أجدادنا القدامى في زمانهم.[2]

تكافح الأحزاب السياسية ومجموعات المصالح لجعل همومها تصبح مقاديحَ راهنة لجزئيّاتنا الوظيفية الأخلاقية. للحصول على صوتك، ومالك، ووقتك، ويجب عليهم تفعيل واحدٍ على الأقل من أُسُسِك الأخلاقية.[3] على سبيل المثال الشكل 7.4. يُظهر سيّارتين قمت بتصويرهما في شارلوتسفيل. ماذا يمكنك أن تخمّن بشأن الموقف السياسي للسائق؟

الملصقات الضخمة هي في الغالب شارات قبلية: تعلن عن الفرق التي نشجّعها، بما فيها الفرق الرياضية، والجامعات، وفرق الروك. يعلنُ السائق صاحب سيارة تحمل عبارة "أنقذوا دارفور" أنه أو أنها إلى جانب الفريق الليبرالي. تعرف أنتَ ذلك حدسياً، لكنني أستطيع تقديم سبب أكثر شكلانية: ترتكز المنظومة الأخلاقية لليبراليين، في أمريكا وأمكنة أخرى، كثيراً إلى أساس الرعاية أكثر من منظومات المحافظين، ولقد قام صاحب هذه السيارة باختيار ثلاثة ملصقاتٍ كبيرة تحثُّ الناس على حماية الضحايا الأبرياء.[4] ليس لهذا

---

[1] للاطّلاع على روايةٍ حديثة للارتقاء والدراسة العصبية للتقمّص العاطفي، أنظر Decety 2011

[2] أنظر Pinker 2011 حول الصعود الطويل والمتواصل للاشمئزاز نحو العنف. على سبيل، النكات حول ضرب الزوجات كانت شائعة ومقبولة في الأفلام وبرامج التلفزة الأمريكية حتى خلال فترة الستينات.

[3] في بعض الأحيان الملصق السياسي الضخم سوف يناشد الخوف المصلحة المالية الشخصية (مثال "تدرّب هنا، تدرّب الآن، إدفع أقل،" من أجل الجمهوريين في 2008)، لكنّ هذا نادرٌ مقارنةً مع المناشدات الأخلاقية.

[4] بالنسبة للقراء غير الأمريكيين، ألاحظ مرةً أخرى أنني أقصد بكلمة ليبرالي اليسار السياسي. والبيانات التي سأعرضها في الفصل التالي تشير إلى أنّ الأشخاص من اليسار، في أيّ بلدٍ قمنا باختباره، كانت أرقامهم المسجلة أعلى على صعيد أسس الرعاية / الأذية من الأشخاص في اليمين السياسي.



السائق علاقة بهؤلاء الضحايا. يحاول السائق دفعك إلى ربط تفكيرك في دارفور وأكل اللحوم بحالات الحدس التي يتم إحداثها بفعل أساس الرعاية.





الشكل 7. 4. الرعاية لدى الليبراليين والمحافظين

كان من الأصعب إيجاد ملصقات كبيرة متعلّقة بالرأفة حيال المحافظين، لكنّ سيارة "المحارب الجريح" مثال. هذا السائق أيضاً يحاول دفعك إلى الرعاية، لكنّ الرعاية المحافظة هي نوعاً ما مختلفة ـ هي ليست موجهة إلى الحيوان أو



الناس في بلدان أخرى وإنما إلى هؤلاء الذين ضحّوا من أجل الجماعة.[1] وهي ليست ذات طابع كوني؛ إنها أكثر محلّيةً، ومندمجة بالولاء.

2. أساس العدل [التقيد بالأصول] / الغش

افترضْ أنَّ زميلةً في العمل عرضَتْ عليك أن تأخذ عبأكَ من العمل لمدة خمسة أيام مما يتيح لك إضافة أسبوعٍ ثانٍ لعطلتك الكاريبية. كيف كنتَ ستشعر؟ الإنسان الاقتصادي سيشعر ببهجة لا شائبة فيها، وكأنّهُ قد مُنِحَ تواً سلّةً من المواد التموينية. لكنّ معظمَنا يعرفون أن المحفظة ليست دون مقابل. إنّه معروفٌ كبير، وأنت لا تستطيع رد معروف الزميلة في العمل بإحضار زجاجةٍ روم. إذا ما قبلتَ عرضها، فمنَ المرجّح أن تفعلَ ذلك وأنت تغدق تعابير الامتنان، والمديح للطفها، والوعد بفعلِ الشيء نفسه من أجلها في أي وقت تغادر فيه من أجل العطلة.

يتحدّثُ منظّرو التطوّرعن جينات بأنها "أنانية،" أي إنها تستطيع التأثيرعلى حيوانٍ ما للقيام بأشياء ستقوم بنشر نسخٍ من تلك الجينة فحسب. لكنّ واحداً من أهم التبصّرات المتعلّقة بأصول الأخلاق هي أنّ جينات "أناني" من الممكن أن تكون باعثاً على مخلوقاتٍ سخيّة، طالما أنّ تلك المخلوقات انتقائية في سخائها. إنّ الإيثار حيال الأقارب ليس لغزاً على الإطلاق. أما الإيثار تجاه غير الأقارب، من جانبٍ آخر، فقد قدّمَ واحداً من الألغاز المستمرة أمداً طويلاً في تاريخ التفكير التطوري.[2] وجاءتْ خطوةٌ كبيرة نحو حل [تلك الألغاز] في عام 1971 عندما نشرَ روبرت ترايفرز نظريّته عن الإيثارالمتبادل.[3]

---

[1] المسيحيّون المحافظون يرسلون الكثير من المال إلى الخارج، ويقدمون فعلياً الكثير من المساعدة والغوث للفقراء، لكن يتم إنجازها عموماً من خلال جماعاتٍ تبشيرية تجاهد لإضافة معتنقين جدد للجماعة. ما يزال الأمر ما يزال صيغةً ضيّقة، وليس رعايةً ذات طابعٍ كوني.

[2] كان اهتماماً رئيسياً لدى داروين، في ((أصل الأنواع)) وفي ((نسب الإنسان)). سأعود إلى حيرة داروين وحلوله في الفصل 9.

[3] Trivers 1971



لاحظ ترايفرز أنَّ الارتقاء قد يستطيع خلق إيثاريّين في صنفٍ حيث الأفراد قد يتمكنون من تذكُّر تفاعلات سابقة مع أفرادٍ آخرين ثمَّ يحصرون لطفَهم الراهن في أولئك الذين كانوا سيردّون غالباً على المعروف على المعروف. نحن البشر فحسب صنف من ذاك القبيل. لقد طرح ترايفرز أنَّ مجموعة من المشاعر الأخلاقية تجعلنا نؤدي دور "واحدةً بواحدة". نحن بالعادة لطفاء حيال الأشخاص الذين نقابلهم للمرة الأولى.لكننا بعد ذلك انتقائيّون: نتعاون مع أولئك الذين كانوا لطفاء معنا، ونتجنّب أولئك الذين قاموا باستغلالنا.

الحياة البشرية عبارة عن سلسلة من الفرص المتعلّقة بالتعاون النفعي على نحوٍ تبادلي. إذا ما لعبنا أوراقنا لعباً صحيحاً، نستطيع العمل مع الآخرين لزيادة حجم الفطيرة التي سنتقاسمها في خاتمة المطاف. فالصيادون يعملون معاً لقنص فريسةٍ لا يستطيع شخصٌ الحصول عليها وحيداً. يراقبُ الجيران بيوت بعضهم ويعيرو ن بعضهم الأدوات. زملاء العمل يغطّون ورديات بعضهم. طوال ملايين السنين، واجه أسلافنا تحدي التكيّف المتعلّق بجني هذه الفوائد دون التعرّض للخداع. أولئك الذين دفعتهم مشاعرهم الأخلاقية إلى اتباع مبدأ "واحدة بواحدة" يجنون من هذه المنافع أكثر من أولئك الذين اتبعوا أيّة استراتيجية أخرى، من قبيل "ساعد أيّ شخص يحتاج المساعدة" (الذي يدعوا إلى الاستغلال)، أو "خذْ لكنْ لا تعطي" (الذي يمكن أن يكون ناجحاً مرةً واحدة فحسب لدى كلّ شخص؛ في أقرب وقت ما من أحد سيرغب في تقاسم الفطيرة معك).[1] إنَّ المقاديح الأصلية للجزئيات الوظيفية المتعلقة بالعدالة هي أفعال التعاون والأنانية التي يظهرها الآخرون نحونا. نشعر بالبهجة، والتحبب، والصداقة عندما يظهر الناس إشاراتٍ بأنّه يمكن

---

[1] تمّ بشكلٍ رائع إظهار هذه النقطة في جولة روبرت أكسيلرود الشهيرة عام 1948 التي تنافست فيها الاستراتيجيات في تحريضٍ ارتقائي على الحاسوب. ما من استراتيجية كانت قادرةً على العمل بمبدأ واحدة بواحدة. (لكنْ أنظر نوواك 2010 من أجل مناقشة لمقالته حول استراتيجية "إربح الإقامة، واخسر النوبة"، عندما تقوم بجرد الأخطاء والتصورات المغلوطة.)



الوثوق بهم للرد بالمثل. نشعر بالغضب، والمقت، وحتى بالقرف في بعض الأحيان عندما يحاول الناس غشّنا أو الاستفادة على حسابنا.[1]

تتضمّن المقاديح الراهنة لوحدات التقيد بالأصول [العدل] الوظيفية أشياء جمّة باتت متصلة، من الناحيتين السياسية والثقافية، بديناميكيات التبادلية والغش. في الجانب اليساري، الاهتمامات بالمساواة والعدالة الاجتماعية قائمةٌ على أساس التقيّد بالأصول على نحوٍ جزئي ـ وتُتَّهم الجماعات الغنيّة والمتنفذة بالكسب عن طريق استغلال أولئك القابعين في الأسفل بينما لا يدفعون "حصّتهم المحددة أصولاً" من العبء الضريبي. وهذا موضوع رئيس لدى حركة احتللوا وول ستريت، التي زرتها في تشرين الأول 2011 (أنظر الشكل 5.7).[2] إلى اليمين، حركة تي بارتي أيضاً مهتمة جداً بالالتزام بالأصول. يرون الديمقراطيين ك "اشتراكيين" يأخذون المال من الأمريكيين الذين يعملون بجد كي يعطوه إلى الناس الكسالى (بمن فيهم أولئك الذين يتلقّون تعويضات الرفاه والبطالة) وللمهاجرين غير الشرعيين (في صيغة الرعاية الصحية والتعليم المجانيين).[3]

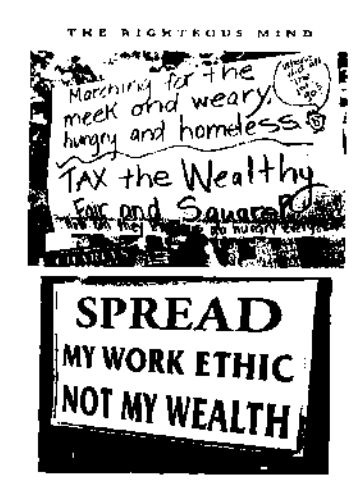
---

(1) Rozin et al. 1999; Sanfey et al. 2003 .

(2) قمت أثناء طباعة هذا الكتاب بالزيارة. كما نشرتُ مقالةً في صورة طبّقتُ فيها نظرية الأسس الأخلاقية على يافطات في احتجاج احتلّوا وول ستريت على موقع http://reason.com/archives/2011/10/20/ الأسس الأخلاقية لاحتجاج احتلّوا.

(3) لقد قمت بمناقشة الدافع الأخلاقي لأتباع التي بارتي هو في المقام الأول العدالة على أنّها التناسبية والعاقبة الأخلاقية. لا أعتقد أن الحرية هي مثلما كان يدعي أنصار الإرادة الحرة. أنظر Haidt 2010





الشكل 7. 5. التقيّد بالأصول يميناً ويساراً. الأعلى: يافطة في احتجاج احتلّوا وول ستريت، حديقة زوكوتي، مدينة نيويورك. أسفل: يافطة في مهرجان تي بارتي، واشنطن دي. سي. (تصوير إيميلي إيكنز). كل واحد يعتقد أنّ الضرائب يجب أن تكون "متوازنة [حسب الأصول]."

كلّ شخصٍ يهتمُّ بالتقيّد بالأصول، لكن هنالك نوعان رئيسان. في الجانب اليساري، يدل التقيّد بالأصول ضمنياً النوعية غالباً، ولكن في جانب اليمين يعني التناسبية ـ يجب أنْ يُكافأ الناس بالتناسب مع ما يساهمون به، حتّى لو لم يضمنْ ذلك نتائج مضمونة.

3. أساس الولاء/ الخيانة

في صيف عام 1954، أقنع مظفّر شريف اثنتين وعشرين مجموعة من اباء ينتمون إلى الطبقة العاملة أن يسمحوا له بأخذ أولادهم الصبية البالغين اثني عشر عاماً لمدة ثلاثة أسابيع. أحضر الصبية إلى مخيّمٍ صيفي قام باستئجاره في روبرز كايف ستايت بارك، أوكلاهوما. قام هناك بإجراءِ واحدةٍ من أشهر الدراسات في علم النفس الاجتماعي، وواحدة من الأغنى لفهم أسس الأخلاق. أحضر الصبية



إلى المخيّم في مجموعتين كل منهما مؤلفة من أحد عشر صبيّاً، في يومين متتابعين، ووضعهم في أجزاء مختلفة من الحديقة. على مدى الأيام الخمسة الأولى، فظنّت كلّ مجموعة أنها وحيدة. وعلى الرغم من ذلك، انطلقوا لتحديد منطقتهم وإيجاد هويات قبلية.

أسمت إحدى المجموعات نفسها "المقعقعون،" واتخذتْ مجموعة أخرى اسم "النسور." كما اكتشف المقعقعون حفرةَ سباحة أعلى التيار خارج المخيّم الرئيس، وبعد سباحةٍ أولية، قاموا بعدّة تحسينات في الموقع، مثل رصفِ ممرٍ حجريّ يؤدي إلى الماء. ثمّ أعلنوا الموقع ملكاً (خاصاً) بهم، بوصفه مخبأً لهم، كانوا يزورونه كلّ يوم. شعر المقعقعون بالانزعاج ذات يومٍ عند اكتشاف كؤوسٍ ورقية في الموقع (والتي في حقيقة الأمر تركوها بأنفسهم خلفهم): كانوا غاضبين لأنّ "الدخلاء" قد استخدموا حفرة السباحة الخاصة بهم.

في كلّ مجموعةٍ برز زعيمٌ عن طريق الإجماع. عندما كان الأولاد يقررون ما الذي سيتم عمله، قاموا جميعاً باقتراح أفكار. ولكنْ عندما آن الأوان لاختيار إحدى هذه الأفكار، قام الزعيم بالاختيار غالباً. لقد بدأت قواعدٌ سلوكية، وأغانٍ، وطقوس، وهويات متمايزة بالتشكّل في كل مجموعة (المقعقعون أشداء ولا يبكون؛ والنسور لا يمارسون السباب). على الرغم من أنهم كانوا هناك لغرض المرح، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعتقدون أنهم وحيدون في الغابة، وصلت كلّ مجموعة إلى القيام بأنواعٍ من الأمور التي ستكون مفيدةً تماماً إذا ما كانوا على وشك مواجهة جماعةٍ منافسةً طالبت بالبقعة نفسها. وهم كانوا كذلك.

في اليوم السادس من الدراسة، سمح شريف للمقعقعين بالاقتراب مسافةً كافية من ميدان البيسبول لسماع أنّ الأولاد الآخرين ـ النسور ـ كانوا يستخدمونه، على الرغم من أنّ المقعقعين قد طالبوا بحق تملّكه باعتباره ميداناً لهم. ناشد المقعقعون مستشاري المخيّم السماح لهم بتحدي النسور في مباراة بيسبول. حسبما كان قد خططَ أنْ يفعل من البداية، قام شريف بعد ذلك بترتيب دورةٍ في المنافسات الرياضية ومهارات التخييم. منذ تلك النقطة وما تلاها، يقول



شريف، "تمَّ الدخول إلى أداء كلّ الأنشطة التي قد تصبح حالياً تنافسية (نصب الخيام، لعب البيسبول، الخ) بحيوية أكثر وكذلك الأمر بفاعلية أكثر."[1] كما تزايد السلوك القبلي دراماتيكياً. اخترع كلٌّ من الجانبين راياتٍ وعلّقها في المنطقة المتنازع عليها. وقام بتدمير رايات الخصم، وهاجم كلُّ طرفٍ أسرّة الطرف الآخر وخرّبها، وسمى الطرف الآخر تسمياتٍ بشعة، وصنع أسلحة (جرابات مليئة بالحجارة)، وغالباً ما وصل الطرفان إلى حالات الضرب لولا تدخل القائمين على المخيّم.

نحن جميعاً ندرك هذه الصورة لزمن الصبا. يبدو أنّ العقل الذكوري قبليّ فطرياً ـ مما يعني أنّه مبنيٌّ مسبّقاً على التجربة إذ يستمتع الصبية والرجال بفعل كلّ أنواع الأشياء التي تؤدي إلى تماسك الجماعة والنجاح في الصراع بين الجماعات (بما فيها الأعمال القتالية).[2] إنّ فضيلة الولاء تهمّ كلا الجنسين إلى حدٍّ بعيد، على الرغم من أن أهداف الولاء تميل إلى أن تكون فرقاً وإئتلافات لدى الصبية، مقابل العلاقات القائمة بين شخصين لدى الفتيات.[3]

على الرغم من ادعاء بعض خبراء الأنثروبولوجيا في السبعينات، أنَّ بني البشر ليسوا الصنف الوحيد الذي ينخرط في حربٍ أو يقتلُ بني جنسه. يظهر في الوقت الحاضر أنّ قرود الشمبانزي تحرس منطقتها، وتُغيرُ على منطقة الآخرين، وإذا ما استطاعوا النجاح ، يقتلون ذكور الجماعات المجاورة ويأخذون منطقتهم وإناثهم.[4] ويظهر الآن أنّ الأعمال القتالية كانت سمة متواصلة للحياة الإنسانية

---

(1) Sherif et al. 1961/1954. P. 94

(2) على سبيل المثال، يقوم الصبية بتنظيم أنفسهم تلقائياً من أجل منافسات الفرق بالغالب أكثر بكثير من الفتيات (Maccoby 1998)، ويصبح طلبة الكلية الذكور أكثر ميلاً للتعاون عندما يتم تأطير واجب على أنه مسابقة داخل الجماعة؛ الطالبات أقل تأثراً بعملية التلاعب (Van Vugt, De Cremer, and Janssen 2007)

(3) Baumeiser and Sommer 1997; Maccoby 1998

(4) Boehm 2012; Goodall 1986



قبل الزراعة والملكية الخاصة بوقتٍ طويل.[1] وطوال ملايين السنين، واجه أسلافُنا التحدي التكيّفي للزراعة والحفاظ على الائتلافات التي كانت تستطيع صدّ التحديات والهجمات من قِبَل الجماعات المنافسة. نحن متحدّرون من أناس قبليين ناجحين، وليس من أولاد عمِّهم الفرديين.

تساهم أنظمة نفسية كثيرة في القبليّة الفاعلة والنجاح في التنافس ضمن المجموعة. إنّ أساس الولاء /الخيانة جزءٌ فحسب من جاهزيّتنا الفطرية لمواجهة تحدّي التكيّف المتعلّق بتشكيل ائتلافاتٍ متماسكة. والمقداح الرئيس لأساس الولاء هو أيُّ شيءٍ يخبرنا من هو لاعب الفريق ومن هو الخائن، ولا سيما عندما يكون فريقك يقاتل ضد الفرق الأخرى. ولكن لأننا نحبّ القبلية حبّاً جمّاً، نسعى إلى طرقٍ لتشكيل جماعات وفرق تستطيع أن تتنافس من أجل مرح التنافس فقط. والكثير من علم نفس الرياضة هو عن توسيع المقاديح الراهنة لأساس الولاء ليتمكّن الناس من الحصول على مُتَع ارتباط بعضهم ببعض للسعي إلى ميدالية انتصار غير مؤذية. (الميدالية دليل على النصر. الدافع لأخذ الميداليات - تتضمن أجزاءً من جسد عدوٍّ مقتول - هو أمر واسع النطاق في الحرب، يحدث حتّى في الأزمنة الحديثة.)[2]

لا أستطيع أن أكون متأكّداً من أنّ صاحب السيارة في الشكل 7. 6 هو رجل، لكنني إلى حدٍ واثقٌ من أن المالك جمهوريّ بناءً على اختياره أو اختيارها في دوكرة [من ديكور] السيارة باستخدام أساس الولاء فحسب. إن حرف V مع سيوف متصالبة هو شعار فرق جامعة فرجينيا (الفرسان) واختار المالك دفع 20$ زيادةً كلّ عام للحصول على رخصةٍ لوحة سيّارة حسب الطلب تمجّد العلم الأمريكي بعبارة ("المجد التليد") والوحدة الأمريكية ("متّحدون في وقفتنا").

(1) Keeley 1996

(2) Glover 2000



يتساوى حبّ زملاء الفريق الموالين مع ما يوازيه من كراهية الخونة، الذين يُعدون عادة أسوأ بكثير من الأعداء. فالقرآن، على سبيل المثال، حافل بتحذيراتٍ حول نفاق أعضاء خارج الجماعة، ولا سيما اليهود، رغم ذلك لا يأمر القرآن المسلمين بقتل اليهود. ولا بقتل من هو أسوأ من اليهودي أيْ: المرتد ـ وهو مسلمٌ قام ببساطة بخيانة العقيدة أو التخلي عنها. يأمر القرآن المسلمين بقتل المرتدين، ويعد الله أنه "سيشويهم في النار...الله عزيز حكيم."[1] على نحوٍ مشابه، في "الجحيم"، يبقي دانتي الجزء الداخلي الأعمق من دائرة جهنم ـ وأكثر الآلام وجعاً ـ لقاء جريمة الخيانة. والأسوأ من الشهوة، والشره، والعنف، وحتى الهرطقة هو خيانة المرء لعائلته، وفريقه، وأمته.

وبعد التسليم بالروابط القوية مع الحب والكراهية، هل هنالك من عجب في أنّ أساس الولاء يقوم بدورٍ مهم في السياسة؟ يميل اليسار إلى الكونية وبعيداً عن القومية،[2] وهكذا لديه غالباً مشكلة الارتباط مع الناخبين الذين يعتمدون على أساس الولاء. في حقيقة الأمر، بسبب اعتماده القوي على أساس أنّ الليبراليين الأمريكيين معادون في الغالب للسياسة الخارجية الأمريكية. على سبيل المثال، أثناء السنة الأخيرة من رئاسة جورج دبليو بوش، قام أحد الأشخاص بتخريب إشارة توقف قرب منزلي (الشكل 7. 6). لا أستطيع أنْ أكون متأكداً من أنّ المخرّب يرفض الفرق والجماعات من الأنواع كافة، ولكنْ أستطيع أنْ أكون متأكداً من أنه أو أنّها إلى أقصى اليسار من مالك سيارة "OGLORY." تظهر هاتان الصورتان بياناتٍ متعارضة بشأن حاجة الأمريكيين إلى آن يكونوا لاعبي فريق عندما كانت أمريكا تخوض حروباً في العراق وأفغانستان. يسهّلُ

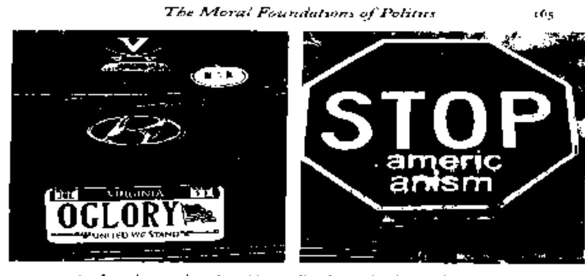
---

[1] هذه آية من القرآن 4: 56 ، ترجمة أربري 1955. للمزيد حول قتل المرتدين: أنظر القرآن 4: 89 ؛ إلى جانب الأحاديث النبوية على سبيل المثال ((صحيح البخاري)) 52: 260، ((صحيح البخاري)) 84: 58.

[2] غالباً ما يوضح الباحثون في الليبرالية هذا الأمر (مثال، Gray, 1995)، ونجده في دراساتٍ كثيرة www.YourMorals.org; أنظر Iyer et al. 2011



الناشطون الليبراليون غالباً على المحافظين ربطهم بأساس الولاء ـ وليس بطريقةٍ جيدة. يقول عنوان كتاب آن كاتلر في عام 2003 الأمر برمته: ((الخيانة: الغدر الليبرالي من الحرب الباردة وحتى الحرب على الإرهاب)).[1]



الشكل 7. 6. سيارة عليها ديكور يتضمّن شعارات الولاء، وشارة [مُطَرِقيّة] لرفض نوع واحد من الولاء.

4. أساس السلطة/ التدمير

بعد أنْ عُدتُ من الهند كنتُ على الفور أتحدثُ إلى سائق تكسي اخبرني أنّه أصبح أبا للتوّ. سألته إن كان يخطط للبقاء في الولايات المتحدة أو العودة إلى وطنه الأصلي الأردن. لن أنسى ردّه أبداً: "سنعود إلى الأردن لأنني لا أريد مطلقاً أن أسمع إبني يقول لي 'هييك وهيك' فيك." الآن، معظم الأطفال الأمريكان لن يقولوا أشياء شنيعةً كهذه لوالديهم، لكنّ بعضهم سيفعل، والأكثر منهم سيقولونها على نحوٍ غير مباشر. تتنوّع الثقافات إلى حدٍ بعيد في الدرجة التي يجب أن يصل إليها إظهار الاحترام للوالدين، والمعلّمين، والآخرين ممن هم في موقع السلطة.

(1) Coutler 2003



إنّ حافز احترام العلاقات التراتبية عميقٌ بما يكفي لأنْ يجعل كثيراً من اللغات تضعه مباشرةً في شيفرةٍ. في الفرنسية، كما في سواها من اللغات الناشئة عن اللاتينية، المتحدّثون مجبرون على الاختيار فيما إن كانوا سيوجّهون النداء إلى شخصٍ ما باستخدام صيغة الاحترام (vous) [حضرتكم] أو الصيغة المألوفة (tu) [أنت]. حتى الإنكليزية، التي لا تُجذِّر المنزلة في تصريفات الفعل، تقوم بذلك في مواضع أخرى. وحتى وقتٍ قريب، كان الأمريكان يخاطبون الغرباء وأصحاب المراتب الأعلى باستخدام اللقب إضافةً إلى إسم العائلة (السيدة سميث، الدكتور جونز)، في حين أن الأصدقاء الحميمين والأتباع كانوا يخاطَبونهم باسمهم الأول. إنْ كنتَ قد شعرت أبدا بوميض النفور عندما خاطبك موظف مبيعات باسمك دون أنْ يُدعى إلى القيام بذلك أو إذا شعرت بوخزة من الإرباك عندما طلبَ إليكَ رجلٌ متقدم في السن كنتَ تبجّله لفترة طويلة أن تناديه باسمه الأول، وهكذا تكون قد جرّبتَ تفعيل بعض الجزئيات الوظيفية التي تشكّلُ أساس السلطة /التدمير.

إنَّ الطريقة الواضحة لبدء التفكير في تطوّر أساس السلطة يتمثّل في تأمل الأنظمة القسرية وهرميات السيطرة لدى الصيصان، والكلاب، وقرود الشمبانزي، وأصنافٍ أخرى كثيرة تعيش ضمن جماعات. إن الاستعراضات التي يقوم بها أفراد من المستويات المتدنية غالباً متشابهة عبر الأصناف لأنَّ وظيفتها دائماً هي ذاتها ـ الظهور بمظهر المسالمين، مما يعني أنها صغيرة ولا تشكّل تهديداً. إنَّ الإخفاق في رصد إشارات السيطرة ثمَّ الاستجابة وفقاً لذلك يفضي غالباً إلى الضرب.

حتى الآن لا يبدو هذا أشبه بقصة واعدة لأصل الأساس "الأخلاقي"؛ فهي تبدو أشبه بأصل قمع الضعفاء على يد الأقوياء. لكنّ السلطة يجب ألاّ يتم خلطها بالنفوذ.[1] وحتى بين قرود الشمبانزي، حيث هرميات السلطة في حقيقة الأمر

[1] مسألة تمّ توضيحها بقوة من قِبَل عالم الاجتماع روبرت نيسبت 1993 / 1966 في فصوله 1 و4.



متعلقة بالقوة الفجة وإمكانية إنزال العنف، يقوم الذكر ألفا ببعض الوظائف النافعة من الناحية الاجتماعية، مثل التصدي ل "دور السيطرة."[1] يقوم بحل النزاعات ويخمد النزاع العنيف الذي يندلع عندما لا يكون قرد ألفا واضحا موجوداً. وحسب تعبير خبير الحيوانات الثديّة الراقية فرانس دي وال: "من دون الموافقة على الرتبة واحترام السلطة المؤكَّد لن تكون هنالك حساسية كبيرة حيال القواعد الاجتماعية، كما هو الحال حين سيوافق أيّ شخصٍ كان قد حاول تعليم قطة القواعد المنزلية البسيطة."[2]

إنَّ دور السيطرة مرئيٌّ تماماً في القبائل البشرية والحضارات الأولى. الكثير من أوائل النصوص القانونية تبدأ بتأسيس دور الملك في الاختيار المقدس، ثمَّ تكرِّس سلطة الملك لتقديم النظام والعدالة. وأول جملةٍ في شريعة حمورابي (القرن الثامن عشر قبل الميلاد) تتضمّن هذه العبارة "آنذاك خاطبني أنو وبعل [إلهان] بالاسم، حمورابي، الأمير المحترم الذي يخشى الله، لكي يبسط حكم الاستقامة في البلاد، لتدمير مقترفي الفحشاء والإثم؛ فلا يقدرُ القوي على إيذاء الضعيف."[3]

السلطة البشرية، إذن، ليست قوّةً محضة يدعمها التهديد بالقسر. السلطات البشرية تتطلّع لمسؤولية الحفاظ على النظام والعدل. بالطبع، تقوم السلطة غالباً باستغلال أتباعها من أجل منفعتها الخاصة وهي على قناعة أنها عادلة تماماً. لكن إذا ما أردنا فهم كيف انبثقت الحضارات الإنسانية وغطّت الأرض خلال عدة آلاف من السنوات فحسب، علينا أن نمعن النظر في دور السلطة في خلق النظام الأخلاقي.

---

(1) Boehm 1999; de Waal 1996

(2) De Waal 1996, p. 92

(3) من ترجمة قام بها ل. و. كينج، تم استخراجها من
www.holyebooks.org/babylonian/the__code__of__hammurabi/hamo4.html



عندما بدأت دراستي الدنيا استسلمت للاعتقاد الليبرالي السائد عن أن الهرمية = القوة النفوذ = الاستغلال = الشر. ولكن عندما شرعتُ في العمل مع آلان فيسك، اكتشفت أنّني كنت على خطأ. إنّ نظرية فيسك ذات الأنواع الأربعة من العلاقات الاجتماعية تتضمّن واحدة تُدعى "تراتبية السلطة." بالاعتماد على عمله الميداني الخاص في إفريقيا، أظهر فيسك أنَّ الناس الذين يقيمون علاقاتٍ فيما بينهم بهذه الطريقة لديهم آمالٌ مشتركة أشبه ما تكون بعلاقات الأب مع الإبن منها بعلاقات الطاغية والأتباع الخائفين:

> في تراتبيّة السلطة يتمتّع الناس بمواقع لا متناسقة في هرمية خطيّة يقوم الأتباع فيها بالإذعان، والاحترام، و(ربما) الطاعة. بينما يتّخذُ الرؤساء الأسبقيّة ويتولّون مسؤوليةً رعوية حيال المرؤوسين. والأمثلة هي الهرميات العسكرية ... عبادة الأسلاف ([بما فيها] نذور التقوى البنوية وآمال الحماية وفرض الأعراف)، [و] أخلاقيات الديانات التوحيدية ... وعلاقات مراتبيّة السلطة قائمة على تصوّرات حالات عدم التناسق الشرعي، وليس القوة القسرية؛ وهي ليست استغلالية على نحوٍ وراثي.[1]

تمّت استعارة أساس السلطة، كما أصفه، مباشرةً من فيسك. وهو أكثر تعقيداً من الأسس الأخرى لأن جزئياته الوظيفية يجب أن تنظر باتجاهين ـ إلى الأعلى نحو الرؤساء وإلى الأسفل نحو المرؤوسين. تعمل هذه الجزئيات الوظيفية مجتمعةً لمساعدة الأفراد لتلبية التحدي التكيّفي لصوغ علاقاتٍ قائمة على المنفعة

---

[1] هذا المقبوس مأخوذ من مراجعة عامة لنظرية منشورة في موقع فيسك: www.sscnet.ucla.edu/anthro/faculty/fiske/relmodov.htm للاطّلاع على عرضٍ النظرية، أنظر Fiske 1991



ضمن الهرميّات. نحن سليلو الأفراد الذين كانوا الأقدر على ممارسة اللعبة ـ للارتقاء بالمستوى وهم يصقلون حماية الرؤساء وولاء المرؤوسين[1]

تتضمّن المقاديح الأصلية لبعضٍ من هذه الجزئيات الوظيفية نماذجَ مظهرٍ وسلوك تدلُّ على الرتبة الأعلى مقابل الرتبة الأدنى. مثل قرود الشمبانزي، يقتفي الناس ويتذكّرون مَنْ فوق مَن.[2] عندما يتصرّف أشخاصٌ ضمنَ نظامٍ هرميّ يرفضونه أو يخرّبون ذاك النظام، نشعر بالأمر على الفور، حتّى لو لم نكنْ أنفسنا متلقّين للأذيّة مباشرة. إذا ما كانت السلطة منطوية على حماية النظام ورد خطر الفوضى، وهكذا يكون لكلّ شخصٍ رهانٌ في دعم النظام القائم وفي إخضاع الناس للمحاسبة لتلبية الالتزامات في موقعهم.[3]

تتضمّن المقاديح الراهنة لأساس السلطة / التخريب، بالنتيجة، أيّ شيء يتم بناؤه على أنه فعل طاعة، وعصيان، واحترام، وعدم احترام، وخضوع، وتمرّد، فيما يتعلّق بالسلطات التي يتمّ تصوّرها على أنّها شرعية. وتتضمّن المقاديح الراهنة كذلك الأمر أعمالاً يتمّ النظر إليها على أنّها تخرّب التقاليد، والمؤسسات، والقيم التي يتم تصوّرها على أنّها تمنح الاستقرار. وكما هو حال أساس الولاء، من الأسهل بكثير لدى اليمين السياسي بناء هذا الأساس مما هو لدى اليسار، الذي غالباً ما يُعرِّف نفسه جزئياً عن طريق معارضته للهرمية، وعدم المساواة، والسلطة. ولا يجب أن يكون أمراً صعباً بالنسبة إليك أن تخمّن سياسة المجلّة

---

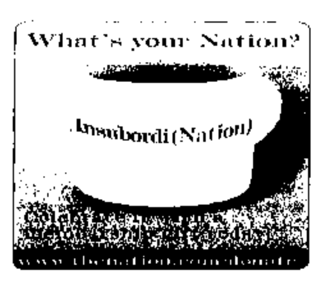
[1] قصة الارتقاء فعليّاً أكثر تعقيداً، وسوف أعالج الحقيقة الهامة التي مفادها أنّ البشر مرّوا خلال فترةٍ طويلة من المساواتية في الفصل التالي. فيما يتعلّق بالوقت الحاضر، آمل أنْ تفكّروا ببساطةٍ في إمكانية أنّ لدينا بعض وحدات الإدراك الوظيفية تجعل معظم الناس جيّدين في رصد النقاط والاعتناء بالهرمية والاحترام.

[2] De Waal 1996; Fiske 1991

[3] هذا تفسيري لسبب قيام الناس الموجودين في أسفل الهرمية عموماً بتأييد الهرمية. لمزيد من التفاصيل، أنظر Haidt and Graham, 2009. للاطّلاع على وجهةِ نظرٍ بديلة أنظر عملي حول "نظام تبرير النظرية،" على سبيل المثال Jost and Hunyady 2002



المعلـن عنهـا في الـشكل 7.7. علـى شـكل محادثـة، بينمـا الميثوديـون* ليـسوا بالضرورة محافظين، فإنّ اليافطة أمام كنيستهم تخبرنا أنهم ليسوا توحيديين.**



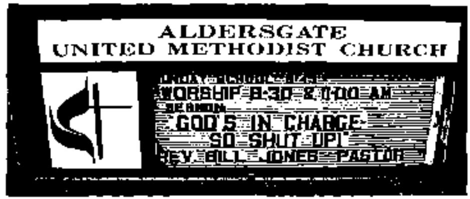


FIGURE 7.7. *Two rather different valuations of the Authority/subversion foundation.* Advertisement for the liberal magazine *The Nation* (top); church in Charlottesville, Virginia (bottom; photo by Sarah Estes Graham).

الشكل 7.7. التقييمان المختلفان لأساس السلطة / التخريب. الإعلان بالنسبة إلى المجلة الليبرالية ((ذا نايشن)) [الأمة] (الأعلى)؛ كنيسة في تشارلوتسفيل، فرجينيا (في الأسفل؛ تصوير سارة إستيس جراهام).

* الميثودي، المنهجي: أحد أتباع الحركة الدينية الإصلاحية التي قادها في أكسفورد (عام 1729) تشارلز وجون ويزلي محاولين فيها إحياء كنيسة إنكلترا ـ المورد

** الموحّد: أحد أفراد طائفة مسيحية ترفض الثليث وتقول بالتوحيد. ـ المورد



أساس القداسة / الانحلال

في أوائل عام 2001، قام أرمين ماويس، وهو تقني في مجال الحاسوب، بإرسال إعلانٍ غير اعتيادي عبر الشبكة العنكبوتية: "نبحث عن شخصٍ قويّ البنية 21 - إلى - 30 عاماً لكي يتم ذبحه ومن ثمّ استهلاكه." مئات الرجال أجابوا بواسطة البريد الألكتروني، وقام ماويس بمقابلة عددٍ قليلٍ منهم في بيت مزرعته. كان بيرند براندِيز، وهو مهندس حاسوب في الثالثة والأربعين من عمره، أوّل مستجيبٍ لم يُغيِّر رأيه عندما تحقق أنّ مايوس لم يكنْ منخرطاً في وهمٍ مجرّد. (تحذير: على القراء المفرطين في الحساسية تجاوز الفقرة التالية برمّتها.)

في مساء 9 آذار، قام الرجلان بتسجيل شريط فيديو يثبت أنّ براندِيس وافق تماماً على ما كان على وشك الحدوث. بعد ذلك تناول براندِيس بعض الحبوب المنومة والكحول، لكنّه كان ما يزال حذراً عندما قطع ماي ويس قضيب براندِيس، بعد العجز عن قطعه بواسطة العض (حسبما طلب براندِيس). بعدئذٍ قام ماي ويس بقلي القضيب في مقلاة مع الخمر والثوم. وتناول ماي ويس قضمة منه، ثمّ ذهب إلى حوض الحمام كي ينزف حتى الموت. بعد عدة ساعاتٍ لمْ يكن براندِيس قد فارق الحياة بعد، فقام ماي ويس بتقبيله، وطعنه في عنقه، ومن ثمَّ علّق الجسد على خطّافِ اللحم كي يقوم بنزع اللحم. وقام ماي ويس بتخزين اللحم في جمّادته وأكله بالتدريج على مدى الشهور العشرة اللاحقة. تمّ ضبط ماي ويس أخيرا، واعتقاله ومحاكمته ولكنْ لأنّ مشاركة براندِيس كانت طوعية تماماً، تمَّ الحكم على ماي ويس بالقتل غير العمد، وليس القتل العمد، في المرة الأولى التي تمّ عرض القضية على المحاكمة.[1]

---

[1] نظراً لردة الفعل الغاضبة على حكم بجريمة القتل القصد، قام مكتب المدعي العام باستئناف الحكم، وربح محاكمة، وفي النهاية ربح تثبيت اتهام بالقتل العمد وحكماً بالسجن مدى الحياة. للاطّلاع على تقريرعن هذه القضية، أنظر Stamp 2008



إذا ما كانت المنظومة الأخلاقية محصورةً في أخلاقية الاستقلالية، أنت في مجازفة عالية لأن تكون مشدوهاً من جرّاء هذه القضية. لا بدّ أنك تجدها بالتأكيد مزعجة، والعنف فيها من المحتمل أن يُفعّل أساس الرعاية / الأذى لديك. لكنّ أيّة محاولة لإدانة أيٍ من ماي ويس أو براندس توجّه صفعةً إلى مبدأ الأذى لدى جون ستيوارت ميلل، الذي قدّمته في الفصل 5: "إنّ الغرض الوحيد الذي من أجله تتم ممارسة السلطة بوجه حقٍّ على أيِّ عضوٍ في تجمّع متحضّر، ضدّ إرادته، يتمثّلُ في منع أذيّة الآخرين." والخطُّ الثاني في المقبوس الأصلي: "صالحه الشخصي، جسدياً أو معنوياً، ليس بمثابة كفالة بيّنة." من ضمن أخلاقية الاستقلالية ، يتمتّع الناس بحقٍّ أن يعيشوا حياتهم كما يحلو لهم (طالما أنّهم لا يؤذون أحداً)، ولديهم حقٌّ في إنهاء حياتهم كيفما ومتى يشاؤون (طالما أنهم لا يتركون خلفهم تُبَّعاً دون رعاية). لقد اختار برانديس وسيلة موتٍ مقززة إلى حدّ يفوق التصور، لكن كما قال طلبةُ جامعة بنسلفانيا تكراراً في رسالة بحثي، لأنّ شيئاً ما مقرفٌ فحسب، لا يجعله خطأً. لكنّ معظم الناس يشعرون أنّ شيئاً ما خاطئ إلى درجة مرعبة، ولا بدّ أن يكون ضدّ القانون انخراط الراشدين برضى الطرفين في أنشطةٍ كهذه؟ لماذا؟

تصوّر أنّ ماي ويس خدم فترة حكمه في السجن ثمّ عادَ إلى منزله. (افترضْ أنّ فريقاً من المختصّين النفسيين برهنوا أنّه لا يشكّلُ تهديداً لأيِّ شخص لا يطلب صراحةً أن يقوم الغير بأكله.) تصوّر أنّ منزله على مسافةٍ كتلة بناء واحدة من منزلك. هل ستجد عودته باعثةً على القلق؟ لو تمّ إكراه ماي ويس بفعل الضغط الاجتماعي على الخروج من البلدة، هل يمكنُ أن تشعر بالارتياح؟ ولكن ماذا بشأن المنزل حيث وقعت هذه الفعلة الشنعاء؟ كم يتوجب على شخصٍ ما أنْ يدفع لك لتسكنَ فيه مدة أسبوع؟ ألا يمكن أن تشعر بأنّ الوصمة ستُمحى إذا ما تمّ إحراق المنزل إحراقاً تاما فقطْ؟

إنّ مشاعر - الوصمة، والتلوّث، والتطهير - هي غير عقلانية من وجهة نظر نفعية، لكنّها تفيد مغزىً تاماً في أخلاقية شوير المتعلّقة بالقداسة. ماي ويس وبرانديس تواطئا على التعامل مع جسد برانديس على أنّه قطعة من اللحم، أضافا



إليها رعباً إضافياً قوامه رشّة من النشاط الجنسي. لقد تصرّفا بأسلوب وحشيّ ـ على أقصى قدرٍ من الانحطاط يمكن أن يصل إنسانٌ إليه على البعد العمودي للقداسة الذي سبق لي مناقشته في الفصل 5. الدود والشياطين فقط يأكلان لحماً بشرياً. لكن لماذا نهتم إلى هذا الحد الكبير بما يختار الناس أن يفعلوه بأجسادهم؟

تولد معظم الحيوانات وهي تعرف ما تأكل. إن نظم دب الكوالا الحسّية تمّ "بناؤها سابقاً على التجربة" كي ترشدَه إلى ورق شجر الإيكاليبتوس [الكينا]. يجب على البشر، من جانب، آخر أنْ يتعلّموا ما يأكلون. ومثل الفئران والصراصير، نحن من القوارت*.

يتمتع المرء كونه قارتاً بفائدة عظيمة قوامها المرونة: يمكنك أن تتجوّل في قارةٍ جديدة وكنْ على ثقةٍ تامة أنك ستجد شيئاً تأكله. لكنّه يتمتّع أيضاً بضرر فالأغذية الجديدة يمكن أن تكون سامة، موبوءة بالميكروبات، أو مشوّهة بالديدان الطفيلية. "معضلة الكائن القارتي" (وهو مصطلح نَحَتَهُ بول روزين)[1] هو أن المخلوقات القارتية يجب أن تسعى إلى وتستكشف الأغذية الممكنة بينما تظلّ محترسةَ منها حتى تتبيّن سلامتها.

تجـرّبُ المخلوقات القارتية في حياتها، إذن، دافعين متنافسين: النيوفيليّة (الانجذاب إلى الأشياء الجديدة) والنيوفوبيّة** (الخوف من الأشياء الجديدة). يتنوّع الناس على صعيد أيّ من الدافعين أقوى، وسوف يعود هذا التنوّع إلى مساعدتنا في فصول لاحقة: سيُسجّل الليبراليون أرقاماً أعلى في قياسات النيوفيليّة (المعروفة أيضاً بـ "الانفتاح على التجربة")، ليس بالنسبة إلى الأطعمة فقط، بلْ أيضاً بالنسبة إلى الناس، والموسيقا، والأفكار الجديدة. وأرقام

---

* قارت: مقتات بالمواد الحيوانية والنباتية معا ـ المود

(1) قدّم روزين 1976 هذا المصطلح؛ من ثمّ استعاره مايكل بولان عنواناً لكتابة الأكثر مبيعاً.

** يقترح مترجم هذه السطور تقريباً لهذين المصطلحين بالصيغة الواردة أعلاه، وهذا أمر جائزٌ في اللغة العربية إذ نقول "ديموقراطية"، و"ديماغوجية" الخ ـ المترجم



المحافظين أعلى بالنسبة إلى النيوفوبيّة؛ فهم يفضّلون التمسك بما هو مجرّب وحقيقي، وهم يهتمّون أكثر بكثير بشأن حماية الحدود، والتخوم، والتقاليد.[1]

لقد تطوّر شعور القرف في المقام الأول كي يجعل الاستجابات حيال معضلة المخلوق القارت أقرب إلى الكمال.[2] كان الأفراد الذين تمتّعوا بإحساسٍ بالقرف متدرّجٍ على نحوٍ مناسب قادرين على استهلاك سُعراتٍ حرارية أكثر من أبناء عمّهم ذوي الشعور المفرط بالقرف في حين أنّهم يستهلكون ميكروباتٍ خطيرة أقل من أبناء عمومتهم ذوي الشعور غير الكافي بالقرف. لكنْ ليس الغذاء فحسب ما يُشكّل التهديد: عندما نزلت المخلوقات البشرية البدائية عن الأشجار وبدأت العيش في جماعاتٍ أكبرفوق سطح البسيطة، قامت بزيادة فرصة إصابتها بأمراضٍ معدية من بعضها، ومن النفايات الناجمة عن كلٍّ منها. وقد أظهر عالم النفس مارك شيللرأنَّ القرف جزءٌ مما يدعوه "نظام المناعة السلوكي" ـ وهي مجموعةٌ من الجزئيات الوظيفية الإدراكية يتمّ تفعيلها من جرّاء عدوى أو مرض عند الأشخاص الآخرين والذي يجعلك ترغب في الابتعاد عن أولئك الأشخاص.[3] وهو أكثر تأثيراً إلى حدٍّ بعيد لمنع الإصابة بالعدوى في غسل الطعام الخاص بك، أو عزل المصابين بالجذام، أو ببساطة تجنّب الناس القذرين أكثر منها للسماح بدخول الميكروبات إلى جسمك ومن ثمّ تأمل أنّ نظام المناعة البيولوجية لديك يستطيع قتل كلٍّ منها حتى آخرها.

كان التحدي التكيّفي الأصلي الذي وجّه تطوّر أساس القداسة، هو الحاجة لتجنّب الكائن المرض، والطفيليات، والتهديدات الأخرى التي تنتشر عن طريق الاحتكاك الجسدي أو القرب. إنّ المقاديح الأصلية للوحدات الوظيفية

---

(1) McCrae 1996

(2) Rozin and Fallon 1987 لا نعرف متى برزالقرف، لكن نعرف أنّه غير موجود لدى أيّ حيوان آخر. الثدييات الأخرى ترفض الأطعمة اعتماداً على طعمها أو رائحتها، لكنّ البشر فقط يرفضونها اعتماداً على ما لامسها، أو من تعامل معها.

(3) Schaller and Park 2011



التي تشكّل هذا الأساس تتضمّن الروائح، والمناظر، والنماذج الحسيّة الأخرى التي تتنبّأ بوجود المخلوقات المرضة في الأشياء أو الناس. (وتتضمّن الأمثلة الجثث، والغائط، والقمّامات* مثل النسور، والأشخاص الذين لديهم آفات أو تقرّحات مرئية.

إنَّ مقاديح أساس القداسة الراهنة، من جانب، آخر متقلّبة وقابلة للتوسع عبر الثقافات والحقب. إن التوسع المباشر والشائع هو إلى أعضاء من جماعات خارجية. تختلف الثقافات حيال المهاجرين، وهناك بعض الأدلّة على أنّ المواقف الليبرالية والمرحّبة هي أكثر شيوعاً في أوقات وأزمنةٍ حيث تكون أخطار الأوبئة أقل.[1] تقع الجائحات، والأوبئة، والأمراض الجديدة عادةً من قِبَل الأجانب ـ كما هو حال الكثير من الأفكار الجديدة، والبضائع، والتقنيات الجديدة ـ وهكذا تواجه المجتمعات تناظراً بشأنِ معضلة المخلوق القارت، وموازنة رهاب الأجانب والهوى حيال الأجانب.

وكما هو حال أساس السلطة، تبدو القداسة بداية متواضعة بصفتها أساسياً للأخلاق. أليس صحيحاً أنها استجابة بدائية للمُمْرِضات؟ وأيضاً ألا تقود هذه الاستجابة إلى التحامل والتمييز؟ والآن طالما أنّ لدينا مضادات حيوية، يجب علينا رفض هذا الأساس بمجمله، أليس هذا صحيحاً؟

ليس بهذه السرعة. يجعل أساس القداسة من السهولة بالنسبة إلينا اعتبار بعض الأشياء "نجساً،" بطريقتين، واحدة سيئة (لأنَّ شيئاً ما بالغ القذارة أو التلوّث لدرجةِ أننا نبقى بعيدين عنه) وأخرى جيّدة (لأنَّ شيئاً ما بالغ التبجيل، بالغ التقديس، لدرجة أننا نريد حمايته من التدنيس). إذا لم يكن لدينا إحساسٌ

---

* كائنات تقتات بالقمامة ـ المورد

[1] Thronhill, Fincher, and Aran 2009 لقد وصل الأمر بفريق شاولر إلى إثبات أنهم يستطيعون زيادة مخاوف الطلبة الكنديين من المهاجرين غير الخارجين على المألوف بفرضِ صورٍ عليهم للمرض والعدوى؛ الطلبة الذين شاهدوا تهديداتٍ أخرى، مثل الإعدام بالصدمة الكهربائية، كانوا أقلّ خوفاً (Faulkner et al. 2004)



بالقرف، أعتقد أننا أيضاً لن نتمتع بإحساس القرف المتعلّق بالمقدس. وإذا ما فكرت، كما أفعل، بأنّ أكثر الألغاز العصية على الحلّ هي كيف وصل الناس دائماً مجتمعين إلى تشكيل مجتمعاتٍ تعاونية، وقد يتّخذون اهتماماً خاصاً بعلم نفس القداسة. لمَ يقمْ الناس بهذا القدر من الجاهزية بالتعامل مع الأشياء (الأعلام، الصلبان)، والأمكنة (مكة، ميدان معركة على علاقة بولادة أمتك)، والأشخاص (القدّيسين، والأبطال)، والمبادىء (الحرية، والأخوة، والمساواة) وكأنّها كانت قيمةٌ لا متناهية مهما كان أصلها، تساعد نفسيّة القداسة في ربط الأفراد داخل تجمّعات أخلاقية.[1] عندما يقوم شخصٌ في تجمّعٍ أخلاقيّ بتدنيس أحد الأركان المقدسة الداعمة للتجمع، لا بدّ لأن تكون ردة الفعل سريعة، عاطفية، رادعة.

بالعودة، ختاماً، إلى ماي ويس وبرانديس: لم يسبّبا أيّةِ أذيّةٍ لأيّ شخصٍ كان بأية طريقةٍ مباشرةٍ، أو ماديّة، أو نفعيّة.[2] لكنّهما قاما بتدنيس عددٍ من المبادئ الأخلاقية الوطيدة لدى المجتمع الغربي، من قبيل معتقداتنا المشتركة أنّ الحياة الإنسانية عالية القيمة على نحوٍ فائق، وأنّ الجسد البشري أكثر من شريحة لحمٍ تمشي فحسب. لقد داسا هذه المبادئ ليس بدافع الضرورة، وليس لخدمة هدفٍ رفيع، إنما برغبةٍ شهوانية. وإذا ما كان مبدأ الأذى يمنعنا من حظر أعمالهما من الناحية القانونية، فسيبدو مبدأ الأذية لدى ميلل غير مناسب بمثابة أساسٍ لتجمّعٍ أخلاقي. سواءٌ أكان الله موجوداً أم لمْ يكنْ، يشعر الناس أنّ بعض الأشياء، والأفعال، والناس نبلاءٌ، وأنقياءٌ، ورفيعون؛ وأشياء أخرى دنيئة، ملوّثة، منحطّة.

---

[1] سأتناول أصول الارتقاء لكل من الكفر والدين في الفصلين 9 و 11.

[2] قد يعترض المرء بأنّ أفعالهما كانت بالتأكيد ستثير القرف وتستفزّ مشاعر الأشخاص الذين سمعوا بهما. لكنّ تلك المناظرة ستدفع بك إلى الاشمئزاز من اللواط وممارسة الجنس بين أفراد مختلفين عرقياً، وتناول أطعمة مثل أقدام الدجاج وعيون السمك، في جو منزل المرء الخاص، ضمن التجمّعات البشرية التي ستشعر بالقرف حيال هذه الأفعال.



هل تخبرنا قضيّة ماي ويس أيّ شيءٍ عن السياسة؟ إنّها قضيّةٌ مقزّزة الاستخدام في بحث؛ أنا على ثقة من أنّ كلاً من الليبراليين والمحافظين سيقومون بإدانة ماي ويس (على الرغم من أنني لست متأكداً من أنصار مذهب الإرادة الحرة).[1] ولكن إذا ما قمنا برفض القرف درجاتٍ قليلة، فسنرى فرقاً كبيراً بين اليمين واليسار بشأن استخدام مفاهيم مثل الحرم والطهارة. فالمحافظون الأمريكان من المرجّح أنْ يتحدثوا عن "قدسيّة الحياة" و"قداسة الزواج". والمحافظون ـ ولا سيّما المحافظون المتدينيّون ـ من المرجّح أنْ يعدوا الجسد معبداً، يحتضنُ الروح داخله، أكثر منه آلةً يتمّ جعلها قريبة من الكمال، أو ملعباً يتمُّ استخدامه من أجل المرح.

تظهر الصورتان في الشكل 7. 8 على وجه الدقة مفارقة كان قد وصفها شويدر في أخلاقية القداسية لديه. الصورة الأعلى هي من لوحةٍ تعود إلى القرن الخامس عشر، ((قصةٌ مجازيةٌ حول العفّة))[2] وهي تظهر السيدة مريم العذراء مرفوعة ومحمية بواسطة بنية صخرية من الجمشت [اللون الأرجواني]. ومن تحتها يسيل جدولٌ (يمثّل الطهارة) يحميه أسدان. تصوّر اللوحة العفة على أنّها فضيلة، وكنز كي تتم حمايته.

---

[1] أنصار مبدأ الإرادة الحرّة، بالمعدل الوسطي، يمارسون تقمّصاً عاطفياً أقلّ وقرفاً أضعف (Iyer et al., 2011) ، وهم أكثر استعداداً للسماح للناس بانتهاك المحرّمات (Tetlock et al. 2000).

[2] بريشة الرسام الألماني المولد هانس ميلتنج، 1475. في متحف جاك مارت أندرية، باريس. من أجل معلومات حول هذه اللوحة أنظر .http://www.ghc.edu/faculty/sandgren/sample2.pdf





الشكل 7. 8. وجهتا نظرٍ مختلفتان بشأن أساس القداسة/ الانحلال. ((حكاية مجازية عن العفة))، بقلم هانس مهملنج (1475)، وملصق ضخم [bumper] موضوع على سيارة في تشارلوتسفيل، فرجينيا. وملصق آخر على سيارة (تأييدا للسيناتور الديمقراطي جيم ويب) أكّد أن مالك السيارة ميّالٌ نحو اليسار.

إنَّ هذه الفكرة ليست تاريخاً قديماً فحسب؛ لقد ألهمت حركة الالتزام بالعذرية في الولايات المتحدة حتى وقت متأخر في فترة التسعينات. كما تطلب جماعة **شخص الخاتم الفضي** من أعضائها البقاء عازبين [دون تواصل جنسي] وأنقياء حتى الزواج. وأولئك الذين ينطقون القسم يُعطَونَ خاتماً فضيّاً، كي يلبسوه مثل خاتم الزواج، منقوشٌ عليه أسماء سورٍ في الكتاب المقدس "أهل تسالونيكي" 4: 3 - 4." وتعلن هذه الآيات: "**لأنّ هذه هي إرادة الله قداستكم. أن تمتنعوا عن الزنا، أن يعرف كلُّ واحدٍ منكم أن يقتني إناءه بقداسة**



وكرامــة."[1] ["رســالة بــولس الأول إلى أهــل تــسالونيكي،" 3 و4، الكتــاب المقدس، جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، 1952.]

في الجانب اليساري، على أية حال، فضيلة العفّة عادةً مرفوضةٌ على أنها عفا عليها الزمن وتنطوي التمييز الجنسي. لقد حثّنا جيرمي بينتام على زيادة حجم "هيدوناتنا" (متعنا) إلى الحد الأعلى وتصغير "دولراتنا" (آلامنا) إلى الحد الأدنى. إذا ما كانت أخلاقك تركّز على الأفراد وتجاربهم الوجدانية، لمَ إذن بحق الدنيا لا يتوجّب على أيّ شخص استخدام جسده ميداناً للبهجة؟ يتمّ النظرُ في الغالب إلى المسيحيين الأتقياء من قِبَل الليبراليين على أنهم محتشمون متشنّجون خائفون من المتعة.

يُستَخدمُ أساس القداسة إلى أقصى درجات الغلوّ من قبل اليمين الديني، لكنّه كذلك الأمر يُستَخدَمُ من قبل اليسار الروحاني. يمكنك مشاهدة وظيفة الأساس الأصلية المتعلّقة بتجنّب الدنس في مخازن تموين نيو إيج [العصر الجديد]، حيث ستجد تنوّعاً من المنتجات تعدُ بأنها ستطهّرك من "الملوّثات". كما ستجد اساس القداسة مفهوماً له الأولوية في بعض الميول الأخلاقية لحركة البيئة. ويشتم كثيرٌ من أنصار البيئة التصنيع، والرأسمالية، والسيّارات ليس بسبب التلوّث الفيزيائي الذي تخلقه فحسب لكنْ بسبب نوعٍ رمزيّ آخر من التلوّث ـ الحط من شأن الطبيعة، ومن طبيعة الإنسانية الأصلية، قبل التعرّض للتلوّث من قِبَل الرأسمالية الصناعية.[2]

إنّ أساس القداسة مفصليّ لفهم حروب الثقافة الأمريكية، ولا سيما بشأن القضايا البيولوجية الطبيعية. وإذا ما رفضتَ أساس القداسة على نحوٍ كاملٍ، فمن الصعب عليك فهم الجلبة بشأن معظم المسائل المثيرة للجدل في زمننا ويصبح السؤال الأخلاقي الوحيد بشأن الإجهاض: في اية مرحلة يستطيع الجنين أن يشعر

---

(1) NRSV

(2) أنظر على سبيل المثال D. Jensen 2008



بالألم؟ ويصبح الانتحار بمساعدة الطبيب شيئاً جيّداً على نحوٍ واضح: الأشخاص الذين يتألّمون يجبُ السماح لهم بإنهاء حياتهم، ويجب منحهم مساعدة طبية للقيام بالأمر دون ألم. والشيء ذاته ينطبق على البحث في خلايا النسب: لم لا نأخذ نُسُجاً من تلك الأجنة التي تعيش في تحريك متجمّد في عيادات الخصوبة؟ لا يمكن لنُسُجهم تحمّل الأمر، لكنّ نسجهم يمكن أن تساعد الباحثين على تطوير علاجاتٍ ستجنّب أشخاصاً واعين الألم؟

إنّ الفيلسوف ليون كاس من بين الناطقين الأبرز باسم أخلاقية القداسة لدى شويدر، وإلى أساس القداسة التي قامت عليه. رثى كاس، وهو يكتبُ في عام 1997، السنة التي أصبحت فيها النعجة دوللي أوّل حيوان ثديٍ مستنسخ، الطريقة التي تمحو بها التكنولوجيا في الغالب الحدود الأخلاقية وتجلب الناس على نحوٍ أقرب بكثير إلى المعتقد الخطير بأنّ الناس يستطيعون فعلَ أيّ شيء يريدون القيام به. في مقالةٍ بعنوان "حكمة الاشمئزاز"، قدّم كاس برهاناً على أنّ مشاعر القرف يمكن في بعض الأحيان أنْ تقدّم لنا تحذيراً قيّماً بأننا نتجاوز الحد، حتى عندما نكون مصعوقين من الناحية الأخلاقية بالإشارة إلى الضحية:

> الاشمئزاز، هنا كما هو في أمكنةٍ أخرى، ينتفض ضدّ العناد البشري، محذّراً إيّانا من انتهاك ما هو أساسيّ على نحوٍ لا يوصف ذكره. في حقيقة الأمر، في هذا العصر حيث يُرى كلُّ شيءٍ مباحا طالما أنّه يتم إنجازه بحريّة، وفيه طبيعتنا البشرية الممنوحة لمْ تَعُدْ تأمر بالاحترام، وفيه أجسادنا تُعتَبَر أدواتٍ لإرادتنا العقلانية المستقلة، فيكون الاشمئزاز الصوت الوحيد المتروك الذي يتحدثُ بصوتٍ عالٍ للدفاع عن الجوهر المركزي لإنسانيّتنا. فالأرواح التي قد نسيت كيف ترتجف إنما هي ضحلة.[1]

---

[1] Kass 1997



باختصار

بدأتُ هذا الفصل بمحاولةٍ لإطلاق حالاتك الحدسية بشأن خمسةِ أسس أخلاقية تمّ التمهيد لها في الفصل 6. بعد ذلك قمتُ بتعريف الفطريّة على أنّها "منظّمة قبل التجربة،" مثل مسوّدة كتابٍ أولى تخضع للمراجعة حين يشبّ الأفراد ضمن ثقافاتٍ متنوّعة. لقد سمح لي هذا التعريف باقتراح أنّ الأسس الأخلاقية فطرية. تتنوّع قواعدٌ وفضائلُ محددة عبر الثقافات، سيتمّ خداعك إذا ما بحثتَ عن الكونية في الكتب النهائية. ولنْ تعثرَ على فقرة توجد على نحوٍ متطابق في كلّ ثقافةٍ إنسانية. ولكن إن بحثتَ عن روابط بين النظرية الارتقائية والملاحظات الأنثروبولوجية، تستطيع القيام ببعض التخمينات التعليمية عما كانت عليه المسوّدة الكونية للطبيعة البشرية. حاولت القيام (وتسويغ) خمس تخمينات من هذا القبيل:

- تطوّر أساس الرعاية /الأذى استجابةً لتحدّي التكيّف المتعلّق برعاية الأطفال الضعفاء. يجعلنا حسّاسين لإشارات الألم والحاجة؛ فهو يجعلنا ننفر من القسوة ونرغب بالعناية بأولئك الذين يتألّمون.
- تطوّر أساس التقيّد بالأصول /الغش استجابةً لتحدّي التكيّف المتعلّق بجني مكاسب التعاون دون التعرّض للاستغلال. فهو يجعلنا حسّاسين حيال مؤشّرات أنّ شخصاً آخر من المرجّح أن يكون شريكاً جيّداً (أو سيّئاً) من أجل التعاون والغيرية المتبادلة. كما يجعلنا نرغب باجتناب الغشّاشين أو معاقبتهم.
- تطوّر أساس الولاء /الخيانة استجابةً لتحدّي التكيُّف المتعلّق بصياغة التحالفات والحفاظ عليها. فهو يجعلنا حسّاسين تجاه إشاراتٍ بأنّ الشخص الآخر لاعبٌ (أو ليس لاعباً) في الفريق. كما يجعلنا نثق بـ أو نكافئ أناساً كهؤلاء، وتجعلنا نرغب بإيذاء أولئك الذين يخونوننا أو يخونون جماعتنا ونبذهم، وحتى قتلهم.
- تطوّر أساس السلطة / التخريب استجابةً لتحدي التكيّف المتعلّق



بتأسيس علاقاتٍ ستفيدنا ضمن هرمياتٍ اجتماعية. كما يجعلنا حسّاسين لإشارات المرتبة أو الوضعية، ولإشاراتٍ بأنَّ الناس الآخرين هم (أو لا) يتصرّفون على نحوٍ مناسب، مع التسليم بموقعهم.

- تطوّر أساس القداسة /الانحلال في المقام الأول لتحدّي التكيُّف المتعلّق بمعضلة المخلوق القارت، ثمَّ التحدّي الأشمل المتمثّل في العيش في عالم من الطفيليّات والممرضات. ويتضمّن النظام المناعي السلوكي، الذي يستطيع أن يجعلَنا محترسين من عرضٍ متنوّع من التهديدات والأشياء الرمزية. وهو يجعل من الممكن للناس استثمارَ أشياءٍ ذات قيمٍ غير عقلانية ومغالية ـ إيجابية أم سلبية ـ وهي مهمة لربط بعض الجماعات ببعضها.

أظهرتُ أنَّ طرفي الطَّيف السياسي يعتمدان على كلّ أساس بطرقٍ مختلفة أو إلى درجاتٍ مختلفة. يبدو أن اليسار في المقام الأول يعتمد على أسس الرعاية والتقيّد بالأصول، في حين أنّ اليمين يستخدم الأسس الخمس جميعاً. وفي حال كان هذا صحيحاً، تكون أخلاق اليسار مثل الطعام الذي يُقدّمه مطعم المذاق الحقيقي؟ هل تُفعِّل أخلاق الجناح اليساري واحداً فقط من بين أعضاء التذوّق، في حين تشبك أخلاق الجناح اليميني حاسّة ذوقٍ أوسع، تتضمّن الولاء، السلطة، والقداسة؟ وإذا ما كان الأمر كذلك، هل يمنح ذلك السياسيين المحافظين تنوّعاً أوسع من طرقٍ للربط مع الناخبين؟



ثامناً

الميزة المحافظة

في شهر كانون الثاني 2005، دُعيتُ للتحدّث إلى الحزب الديموقراطي في تشارلوتسفيل. رحّبتُ بالفرصة لأنني أمضيت الكثير من عام 2004 كاتبَ خطابات حملة جون كيري الرئاسية. وليس كاتب خطابات بالأجرة ـ إنّه* فتىً قام ذهنياً بإعادة صياغة بعضٍ من مناشدات كيري العقيمة فحسب، بينما كان يأخذ كلبه في مشوارٍ كل مساء. على سبيل المثال، في خطاب قبول كيري في مؤتمر الحزب الديمقراطي، أدرَجَ قائمةً بتنويع إخفاقات إدارة بوش وبعد كلّ إخفاق أعلن، "يمكن أن تقوم أمريكا بما هو أفضل" و"المساعدة في الطريق." فالشعار الأول لم يقترنْ بأيّ أساسٍ أخلاقيٍّ على الإطلاق. والثاني متعلّق بضعفٍ بأساس الرعاية /الأذية، لكنْ إذا ما ارتأيت فحسب أنّ أمريكا أمةٌ من المواطنين الذين لا حول لهم، فهم يحتاجون إلى رئيسٍ ديمقراطيٍّ يهتمّ بهم.

في صياغتي المعدّلة، أدرج كيري قائمةً لتنوّع وعود حملة بوش وبعد كل وعد سأل، "لا بُدَّ أن تدفعَ ثمنَ ذلك، يا جورج؟" هذا الشعار البسيط كان سيجعل الكثير من برامج بوش الجديدة، التي تأتي على رأس خفضه الضرائب وإنفاقاته الهائلة على حربين، تبدو أشبه بسرقة [أشياء بسيطة] في متجر أكثر منه كرماً. كان من الممكن لكيري تفعيل جزئيات التقاط الغشاش الوظيفية.

---

* مؤلف هذا الكتاب – المترجم



كانت رسالة حديثي إلى ديمقراطيي تشارلوتسفيل بسيطة: الجمهوريّون يفهمون علم النفس الأخلاقي. الديمقراطيّون لا يفهمون. لقد فهم الجمهوريون لزمنٍ طويلٍ أنَّ الفيل مسؤول عن السلوك السياسي، وليس الراكب، وهم يعرفون كيف تتصرّف الفيلة.[1] تتّجه شعاراتهم، والإعلانات السياسية، والخطابات نحو العمق، كما هو في إعلان 1988 السيّء السمعة الذي يُظهر سفّاحاً يُطلقُ النار على شخصٍ أسود، ويلي هورتون، الذي ارتكب جريمة قتلٍ وحشية بعد إطلاق سراحه من السجن في إجازة نهاية الأسبوع بواسطة المرشّح الديمقراطي "المتساهل مع الجريمة"، حاكم الولاية مايكل دوكاكس. كان الديمقراطيون يوجّهون مناشداتهم على نحوٍ أكثر توازناً عند الراكب، مؤكّدين سياساتٍ محددة والمنافع التي سيجلبونها لك، [أنت] الناخب.

لم يكن أيٌّ من جورج. و. بوش أو والده جورج هـ. و. بوش، يتمتّع بالقدرة على تحرك المشاهدين حتى ذرف الدمع، لكنَّ كليهما كان لديهما الحظ العظيم في الترشح مقابل ديمقراطيين ميالين إلى الذهنية وباردين عاطفياً (مايكل دوكاكس، وآل جور، وجون كيري). وليست مصادفة أنَّ الديمقراطيَّ الوحيد الذي كسب انتخابات منذ فرانكلن روزفلت وإعادة انتخابات جامعاً القطيعية والمهارة الخطابية مع الانفعالية الموسيقية. عرف بيل كلينتون كيف يسحر الفيَلة.

لا يرمي الجمهوريون إلى التسبب بالخوف فحسب، حسبما يتّهم بعض الديمقراطيين. هم يطلقون مجالاً كاملاً من حالات الحدس الموصوفة من قبل نظرية الأسس الأخلاقية. ومثل الديمقراطيين، يستطيعون التحدث عن الضحايا الأبرياء (بشأن سياسات الديمقراطيين المؤذية) وعن الالتزام بالأصول (ولا سيما عدم عدالة أخذ المال الضريبي من أشخاصٍ يعملون بجدٍ وحكماء لدعم الغشاشين، التنابل، والحمقى عديمي المسؤولية). لكنَّ الجمهوريين منذ عهد نيكسون كانوا قد امتلكوا ما يشبه الحصرية (ولا سيما حبّ الوطن والفضائل

---

[1] أنظر Lakoff 2008 and Western 2007 للاطّلاع على مناقشةٍ مشابهة.



العسكرية) والسلطة (بما فيها احترام الوالدين، والأساتذة، وكبار السن، والشرطة، إضافةً إلى التقاليد). وبعد أن عانقوا المسيحيين المحافظين أثناء حملة رونالد ريجان 1980 وأصبحوا حزب "القيم العائلية،" ورثَ الجمهوريون شبكةً من الأفكار المسيحية التي تخصُّ القداسة والممارسة الجنسية التي سمحت لهم بتصوير الحزب الديمقراطي كحزبِ سدوم وعمورة. مقابل صعود الجريمة والفوضى لفترتي الستينات والسبعينات، تمتّعت هذه الأخلاق ذات الأسس الخمس بجاذبية عريضة، حتى عند الكثير من الديمقراطيين (مُمن يُسمّون ديمقرطيّو ريجان). بالمقابل، بدت الرؤية الأخلاقية التي يقدّمها الديمقراطيّون منذ فترة الستينات ضيّقة، وكثيرة التركيز على مساعدة الضحايا والنضال من أجل حقوق المقهورين. لقد قدّم الديمقراطيّون السكّر فحسب (االرعاية) والملح (التقيّد بالأصول على أنّه العدالة)، في حين أنّ الأخلاق الجمهورية اجتذبت جميع أعضاء التذوّق الخمسة.

تلك كانت القصة التي رويتها لديمقراطيي تشارلوتسفيل. لم أوجّه اللوم إلى الجمهوريين على احتيالهم. وجهت اللوم إلى الديمقراطيين على سذاجتهم النفسية. توقعت ردة فعلٍ غاضبة، لكن بعد خسارتين متتاليتين ضد جورج و. بوش، كان الديمقراطيّون توّاقين لشرحٍ ما؛ إذ إنّ أن الحضور بدوا مستعدّين للتأمل في شرحي. عودة إلى ذلك الوقت، من جانبٍ آخر، كان شرحي تخميناً فحسب. لم أتمكّنْ حتى الآن من تجميع أيّة بيانات لدعم ادعائي بأنَّ المحافظين استجابوا لمجموعةٍ أوسع من الأذواق الأخلاقية من الليبراليين.[1]

---

[1] ساويت الديمقراطيين بالليبراليين واليسار؛ ساويت الجمهوريين بالمحافظين واليمين. المعادلة لم تكنْ حقيقية قبل السبعينات، عندما كان كلا الحزبين عبارة عن تحالفات واسعة النطاق، لكن منذ فترة الثمانينات، وعندما غيّر الجنوب ولاءه من الديمقراطيين إلى الجمهوريين، أصبح الحزبان مصنّفين تقريباً بشكلٍ كامل في محور اليسار- اليمين. وتظهر بيانات إحصاء الانتخابات الوطنية الأمريكية إعادة الاصطفاف بوضوح؛ إن العلاقة المتبادلة بين التماهي الليبرالي- المحافظ مع تماهي الحزب الديمقراطي-
==



معايرة الأخلاق

لحسن الحظ، جاء طالب في الدراسات العليا إلى جامعة فرجينيا تلك السنة جعل منّي إنساناً صادقاً. وإذا ما كان موقع Match.com قد منح طريقة التوفيق بين ما بين المرشدين والطلبة في السنوات الدنيا، فأنا ما كنت قادراً على العثور على شريك أفضل من جيسي جراهام. كان قد تخرّج من جامعة شيكاجو (الأفق البحثيّ)، وحصل على درجة الماجستير في كلّية اللاهوت بهارفارد (حالات تقييم الدين)، ومن ثمّ أمضى عاماً يدرّس اللغة الانكليزية في اليابان (تجربة عابرة للثقافات). من أجل مشروع بحث جيسي في السنة الأولى، قام بإبداع استبيانٍ لقياس الأرقام التي يسجّلها الناس على خمسة أسس أخلاقية.

عملنا مع زميلي بريان نوسيك على تصميم النسخة الأولى **لاستبيان الأسس الأخلاقية** (إ. أ. أ.)، التي بدأت بالتعليمات التالية: "عندما تقرر إن كان شيءٌ ما خطأ أم صواباً، إلى أيٍّ مدى الاعتبارات الآتية متعلّقة بتفكيرك؟" بعد ذلك شرحنا سُلّم الجواب، من 0 ("لا علاقة له على الإطلاق ـ ليست له أية صلة بأحكام الخطأ والصواب") وحتى 5 ("متعلّق إلى حدّ بعيد ـ هذا واحد من أهم العوامل عندما أحكم على الخطأ والصواب"). بعد ذلك أدرجنا قائمة من خمسة عشر بياناً ـ ثلاثة لكلّ خمسة أسس ـ مثل "إن كان شخصٌ ما قاسياً أم لا" (بالنسبة إلى أساس الاهتمام) أو "إنْ أظهر شخصٌ ما قلّة احترام للسلطة" (بالنسبة إلى أساس السلطة).

الجمهوري قد ازداد باطّراد منذ عام 1972، متسارعاً بشكلٍ حاد في فترة التسعينات (Abramowitz and Saunders 2008). بالطبع لا يتناسب أيّ شخص في هذا الطيف ذي البعد الأحادي، ومن بين أولئك الذين يتناسبون، معظمهم في مكان ما في الوسط، وليس قرب الطرفين القصيّين. لكن يتمّ توجيه السياسة وممارستها بواسطة أولئك الذين يتمتّعون بهوياتٍ محازبة، وأركّز في هذا الفصل وفي الفصل 12 حول فهم هذا النوع من العقل القويم.



كان بريان مدير موقع ProjectImplicit.org ، أحد أكبر مواقع البحث على الإنترنت، وهكذا كنّا قادرين على تجنيد 1600 مشاركاً كي يملؤوا (إ. أ. أ) [استبيان الأسس الأخلاقية]. في غضون أسبوع. عندما قام جيسي برسم المعطيات في خطٍّ بياني، وجد الفروقات التي توقعناها تماماً. وأعدت طباعة رسم جيسي البياني في الشكل 8. 1، الذي يُظهر أجوبةً صادرة عن أشخاصٍ قالوا إنّهم كانوا "ليبراليين جداً" في أقصى اليسار، ثمّ يتحرّك على واجهة الطيف السياسي عبر المعتدلين (في الوسط) إلى أشخاصٍ عرّفوا أنفسهم "محافظون جدّاً" (في أقصى اليمين).[1]

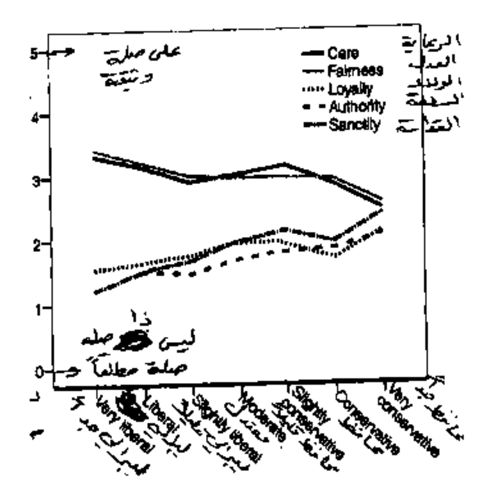
ويمكن أنْ ترى، أنَّ خطوط الرعاية والتقيّد بالأصول (الخطّان الأعلى) عالية على نحوٍ معتدل عبر اللوح. كلُّ شخصٍ ـ اليمين، واليسار، والوسط ـ يقول إنَّ الاهتمامات بشأن التعاطف، والقسوة، والتقيّد بالأصول، والظلم متعلّقة بأحكامهم التي تخصّ الصواب والخطأ. بالرغم من ذلك، ما تزال الخطوط تنحدر نحو الأسفل، حسبما يقول الليبراليون إنَّ هذه القضايا أكثر بقليل تعلّقاً بالأخلاق مما يفعل المحافظون.

لكنْ عندما نتأمل أسس الولاء، والسلطة، والقداسة، تكون الحكاية مختلفةً تماماً. فالليبراليون يرفضون إلى حدٍّ بعيدٍ هذه الاعتبارات. ويظهرون فجوةً كبيرةً كهذه بين هذه الأسس مقابل أسس الرعاية والتقيّد بالأصول مما يمكنّنا من القول، من قبيل الاختزال، إنّ لدى الليبراليين أخلاقاً ذاتَ أساسٍ مزدوج.[2] إذا ما انتقلنا إلى اليمين،

[1] وضع المشاركون في هذه الدراسة أنفُسَهم على سلّم من "ليبرالي بقوة،" إلى "محافظ بقوّة،" لكنْ قمت بتغيير "بقوّة" إلى "جداً" لتناسب الصياغة المستخدمة في الشكل 8. 2.

[2] التوسّع الأطول الأكثر دقّةً للاختزال هو هذا: كلُّ شخص يستطيع استخدام الأسس الخمس في بعض الظروف، لكنّ الليبراليين يفضّلون الرعاية والعدالة أكثر، ويبنون منظوماتهم الأخلاقية في الغالب المقام الأول حول هذين الأساسين.





الشكل 8. 1. الدليل الأول على نظرية الأسس الأخلاقية. (تمّ اقتباسه بالموافقة من جراهام، وهايت، ونوسيك 2009، ص 1033؛ تم نشره بواسطة جمعية علم النفس الأمريكية.)

من جانبٍ آخر، تتحرّك الخيوط نحوالأعلى. حين نصل إلى الأشخاص الذين هم "محافظون جداً،" تتجمّع الخطوط كافة. يمكننا القول، من قبيل الاختزال، إنّ المحافظين لديهم أخلاقٌ ذات خمسة أسس. ولكن، أيمكن للأمر أن يكون حقيقياً بشأن أنّ المحافظين يهتمّون بطيفٍ أوسع من القيم الأخلاقية والقضايا مما هو حال الليبراليين؟ أم أنّ هذا النموذج يبرز بسبب الأسئلة الخاصة التي تصادف أن طرحناها؟

على مدى العام التالي، قام جيسي، وبرايان، وكاتب هذه السطور بتشذيب استبيان الأسس الأخلاقية. فأضفنا أسئلة تطلب من الأشخاص المشاركين تحديد درجة موافقتهم مع هذه البيانات. على سبيل المثال، هل توافق مع عنصر الرعاية هذا: "أبشع أمرٍ قد يقدم الإنسان عليه هو أذيّة حيوانٍ لا حول له"؟ وماذا بشأن عنصر الولاء الآتي: "هل كون المرء لاعباً في فريقٍ أهم من أن يعبّرَ عن نفسه"؟



وكانت نتائج جيسي الأصلية تتطابق مع ذلك. ولقد وجدنا النموذج ذاته كما هو في الشكل 8. 1. ، ووجدناه لدى مشاركين من بلدانٍ كثيرة إلى جانب الولايات المتحدة.[1]

بدأتُ بعرض خطوطنا البيانية في كلّ وقتٍ كنتُ أحاضر فيه عن علم النفس الأخلاقي. وقد سمعني راڤي آير، وهو طالب دراسات عليا في جامعة كاليفورنيا الجنوبية، أتحدث في خريف عام 2006 وأرسل إلي رسالةً ألكترونية كي يطلب إن كان بإمكانه استخدام إ. أ. أ. [استبيان الأسس الأخلاقية] في بحثه عن المواقف بشأن الهجرة. كان راڤي مبرمجاً بارعاً على الشبكة العنكبوتية، وعرض المساعدة عليَّ وعلى جيسي لتأسيس موقع على الشبكة العنكبوتية من أجل بحثنا. في الوقت ذاته تقريباً، طلبت مني سينا كوليفا، وهي طالبة دراسات عليا في جامعة كاليفورنيا بإرفن، إن كان بإمكانها استخدام إ. أ. أ. كانت سينا تدرس علم النفس السياسي مع مشرفها، بيت ديتو (الذي وصفت عمله بشأن "التفكير القائم على الدوافع" في الفصل 4). وأجبت بنعم على الطلبين كليهما.

في شهر كانون الثاني من كلّ عام، يندفع خبراء علم النفس الاجتماعي أفواجاً إلى مؤتمرٍ واحد ليتعلّمَ بعضُهم من عملِ بعض ـ ويدردشوا، ويدخلوا شبكة العلاقات، ويحتسوا الخمر. في عام 2007، تمّ عقدُ ذاك المؤتمر في ميمفس، تينيسي. فالتقى كلٌّ من راڤي، وسينا، وبيت، وجيسي، وكاتب هذه السطور في وقتٍ متأخر من إحدى الأماسي في بار الفندق، للتشارك في نتائجنا وليتعرّف كلٌّ على الآخر.

---

[1] أنظر تقرير Graham et al. 2011، الجدول 11، للاطّلاع على بيانات حول الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وكندا، وأستراليا، إضافةً إلى معظم أرجاء العالم تمّ تجميعها إلى مناطق: أوروبا الغربية، وأوروبا الشرقية، وأمريكا اللاتينية، وإفريقيا، والشرق الأوسط، وجنوب آسيا، وشرق آسيا، وجنوب شرق آسيا. النموذج الأساسي الذي قمت بالإبلاغ عنه هنا قائمٌ في جميع هذه المناطق والبلدان.



كنا نحن الخمسة ليبراليين من الناحية السياسية، رغم ذلك تشاركنا القلق ذاته بشأن الطريقة التي كان ميداننا السياسي يقارب علم النفس السياسي بها. كان الهدف من البحث الكثير شرح ما كان موضع خلل لدى المحافظين. (لمَ لا يعتنق المحافظون المساواة، والتنوّع، والتغيير مثل الناس العاديين؟) في ذلك اليوم فقط، وفي جلسةٍ تخصُّ علم النفس السياسي، قام عددٌ من المتحدّثين بإلقاء نكاتٍ عن المحافظين، أو عن إمكانات جورج بوش الإدراكية المحدودة. شعرنا نحن الخمسة جميعاً بأنّ هذا كان خطأً، ليس من الناحية الأخلاقية فقط (لأنّه يخلق مناخاً عدائياً بالنسبة إلى القلّة من المحافظين الذين قد يكونون بين الحضور) بل من الناحية العلمية أيضاً (لأنّه يميط اللثام عن دافعٍ للوصول إلى نتائج محددة، وكنّا نعرف جميعاً كيف كان من السهل على الأشخاص الوصول إلى نتائجهم المرغوبة).[1] شاركنا نحن الخمسة أيضاً قلقاً عميقاً بشأن الاستقطاب وفظاظة الحياة السياسية الأمريكية، وأردنا استخدام علم النفس الأخلاقي لمساعدة المحازبين السياسيين على إيجادِ فهمٍ واحترامٍ متبادلٍ فيهم.

تحدّثنا عن عدّةً أفكارمن أجل دراساتٍ مستقبلية، ومن أجل كلّ فكرة قال رافي، "تعرفون، يمكننا القيام بذلك بواسطة الشبكة." اقترح تأسيس موقع على الشبكة العنكبوتية حيث يستطيع الناس التسجيل عندما يزورون الموقع للمرة الأولى، ثمّ المشاركة في عشرات الدراسات التي تخص علم النفس الأخلاقي والسياسي. ويمكننا بعد ذلك ربط كلّ إجاباتهم ببعضها لتطوير ملفٍ أخلاقيٍّ لكلّ (مجهول) زائر. مقابل ذلك، سنعطي الزوّار تغذيةً راجعةً مفصّلة، مظهرين لهم كيف يُقارَنون بالآخرين. وإذا ما جعلنا التغذية الراجعة أكثر متعةً، سيُخبرون أصدقاءهم عن الموقع.

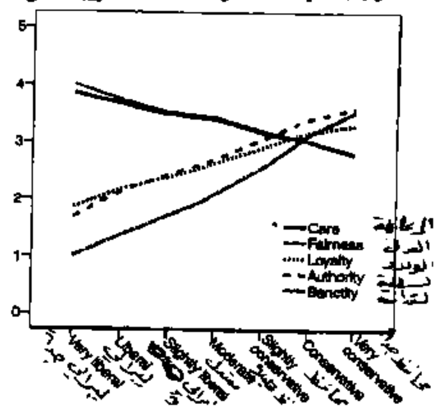
---

[1] بعد أربع سنواتٍ لاحقاً، في كانون الثاني 2011، ألقيت مداخلةً في هذا المؤتمر أحثُّ فيه الحقل على إدراك تأثيرات الإيديولوجيا الجامعة العمياء. تم تجميع المداخلة وردود الأفعال تجاهها على موقع www.JonathanHaidt.com/postpartisan.html .



على مدى الشهور الخمسة التالية، قام رافي بتصميم الموقع ـ www.YourMorals.org ـ وعملنا نحن الخمسة معاً على تطويره. في 9 أيار حصلنا على موافقة من لجنة المشاركين البشريين في جامعة فرجينيا لإجراء البحث، ودخل الموقع عالم الحياة في اليوم التالي. في غضون أسابيع قليلة كنا نكسب خمسة زوّارٍ أو أكثر كلّ أسبوع. بعدئذٍ أجرى كاتب الشؤون العلمية نيكولاس وايد مقابلةً معي من أجل مقالةٍ في جريدة ((نيويورك تايمز)) عن جذور الأخلاق.[1] وضمّن اسم موقعنا. ظهرت المقالة في 18 أيلول، وفي نهاية ذاك الأسبوع، قام 26000 زائرٍ جديد بملء واحدةٍ أو أكثر من استبيانات المسح.

الشكل 8. 2 يظهر بياناتنا بشأن إ. أ. أ. كما كانت عليه في عام 2011، مع وجود 130000 مشاركاً. قمنا بعدّة تحسينات منذ استبيان جيسي المبسّط، لكنّنا نجد دائماً النموذج الأساسي نفسه الذي أوجده في عام 2006. لقد انزاحت خطوط الاهتمام نحو الأسفل؛ وخطوط الولاء، والسلطة، والقداسة مالت نحو الأعلى. يُثمّنُ الليبراليون الاهتمام والتقيّد بالأصول أكثر من الأسس الثلاثة الأخرى؛ ويقوم المحافظون بتثمين الأسس الخمسة تقريباً على قدم المساواة.



الشكل 8. 2 الأرقام المسجّلة [النقاط] حول [إ.أ.أ.]، من قبل 132000 مشارك، في عام 2011. البيانات من موقع YourMorals.org.

---

[1] Wade 2007



[1]لقد وجدنا هذا الفرق الأساسي بغض النظر عن كيفية توجيهنا للأسئلة. على سبيل المثال، في دراسةٍ واحدة سألنا الأشخاص عن المزايا التي قد ترجّح اختيارهم سلالةً محددةً من الكلاب بوصفها حيواناً مدلّلاً. وعلى أيّ طرفٍ من الطيف السياسي تفترض أنّ هذه المزايا ستكون الأكثر جاذبيةً؟

- الصنف البالغ اللطافة.
- الصنف المفرط في استقلال العقل والذي يتعلّق بمالكه بوصفه صديقاً أو ندّاً.
- الصنف الموالي إلى حدٍّ بعيد لعائلته ومنزله ولا يظهر حرارة بسرعة تجاه الغرباء.
- الصنف الشديد الطاعة والذي يتدرّبُ بسهولة على تلقّي الأوامر.
- الصنف النظيف جداً، ومثل الهرّ، يعتني إلى حدٍّ كبير بنظافته الشخصية.

وجدنا أنّ الناس يرغبون بكلابٍ تناسب منظوماتهم. فالليبراليّون يفضّلون كلاباً لطيفة (أيّ أنها تناسب قيم أساس الرعاية) ويرتبطون بعلاقة تقوم على الندية مع أصحابهم (التقيّد بالأصول على أنّه المساواة). يريد المحافظون، من جهةٍ

---

[1] بالنسبة للأشخاص المشاركين في هذه الدراسة الذين قالوا إنّهم "محافظون جداً" الخطوط البيانية تصالبت، مما يعني أنّهم يثمّنون الولاء، والسلطة، والقداسة بشكلٍ أكبر قليلاً من الرعاية والعدالة، على الأقل إذا ما تقيّدنا بأسئلة حول إ.أ.أ [استبيان الأسس الأخلاقة] MFQ. فالأسئلة حول هذه النسخة من إ.أ.أ MFQ. هي في الغالب مختلفة عن تلك الموجودة في النسخة الأصلية، المبيّنة في الشكل 8. 1، بحيث من الصعب مقارنة الأدوات عبر الصيغتين. ما يهمّ هو أنّ منحنيات الخطوط متماثلة عبر النسخ المتعددة للاستبيان، وفي هذا الرسم البياني، مع توفّر عدد أكبر من المشاركين، تصبح الخطوط مستقيمةً تماماً، مشيرةً إلى تأثيرٍ خطّيٍّ للإيديولوجيا السياسية بموجب كلّ من هذه الأسس الخمسة.



أخرى، كلاباً موالية (الولاء) والطاعة (السلطة). (عنصر القداسة لم يظهر أيّ ميلٍ متحازب؛ كلا الجانبين يفضّل الكلاب النظيفة.)

ولم يكن النموذج الاندماجي المبيّن في الشكل 8. 2 شيئاً وجدناه في عمليات مسح الإنترنت. كما وجدناه في الكنيسة أيضاً. وحصلَ جيسي على نصّ عشرات المواعظ التي أُلقِيَتْ في كنائس توحيدية (ليبرالية)، وعشرات [المواعظ] الإضافية التي أُلقِيَت في كنائس جنوبية معمدانية (محافظة). قبل قراءة المواعظ، قام جيسي بتحديد مئات الكلمات التي كانت من الناحية المفاهيمية متعلّقة بكلّ واحدٍ من الأسس (على سبيل المثال، السلام، والاهتمام، والتعاطف على الصعيد الإيجابي من الاهتمام، ويتألّم، وقاسي، ومتوحّش على الصعيد السلبي؛ ويطيع، وواجب، وصدق في الجانب الإيجابي للسلطة، ويتحدّى، وعدم الاحترام، والمتمرّد في الجانب السلبي). بعدئذٍ استخدم جيسي برنامج حاسوب يُدعى LIWC لإحصاء عدد المرّات التي استُعمِلَتْ فيها كلّ كلمة في مجموعتيّ النصوص.[1] ولقد ثبّت هذا الأسلوب المبسّط ذهنيّاً نتائجنا من إ. أ. أ. ا يستخدم الكهنة الموحّدون كلمات الرعاية والعدالة إلى حدٍّ كبير، بينما يستخدم الكهنة المعمدانيون كلمات الولاء، والسلطة، والقداسة استخداماً هائلاً.[2]

نجد هذا النموذج في الموجات الدماغية أيضاً. عَمِلنا في فريقٍ واحدٍ مع جيمي موريس، وهو مختصٌّ بعلم الأعصاب في جامعة فرجينيا، لتقديم ستين جملة للطلبة المحافظين والليبراليين وقد جاءت في نسختين. نسخةٌ واحدة تثبِّتُ فكرةً متساوقة مع أساسٍ محدد، فقرأ نصف المشاركين معنا "المساواة التامة في مكان

---

(1) Linguistic Inquiry Word Count, Pennebaker, Francis, and Booth 2003

(2) Graham, Haidt, and Nosek 2009. لاحظ أنّ المرور الأوّل لتعدادات للكلمة البسيطة أحدثت النتائج المتوقعة لكل الأسس عدا الولاء. وعندما أعدنا مروراً آخر، حيث جعلنا مساعدينا في البحث يقرؤون الكلمات في السّياق ومن ثمّ تشفير إن كان أساس أخلاقي ما يتمّ دعمه أو رفضه، تصبح الفروق بين الفئتين أكبر، وتم إيجاد أن الفروقات المتوقعة تم العثور عليها بالنسبة لكلّ الأسس الخمسة، بما فيها الولاء.



العمل ضرورية." والنصف الآخر قرؤوا "المساواة في مكان العمل غير واقعية". كما ارتدى المشاركون قُبّعةً لقياس موجات دماغهم عندما كانت الكلمات في كلّ جملة تلتمع على الشاشة، في كلّ مرّةٍ كلمة. وفيما بعد نظرنا إلى صورة تخطيط الدماغ (EEG) لتحديد أيّة أدمغة أظهرت دليلاً على الدهشة أو الصدمة في اللحظة التي تمّ فيها عرض الكلمات المفتاحية (على سبيل المثال ضرورية مقابل غير واقعية).[1]

أظهرتِ الأدمغة الليبرالية دهشةً أكبر، بالمقارنة مع الأدمغة المحافظة، استجابةً لجملٍ رفضت قضايا الاهتمام والتقيّد بالأصول. كما أظهرت مزيداً من الدهشة استجابةً للجمل التي ثبّتت مسائل الولاء، والسلطة، والقداسة (على سبيل المثال، "في سنوات المراهقة، يجب التقيّد بنصيحة الوالدين" مقابل "..يجب أن تكون موضع تساؤل"). بمعنى آخر، عندما يختار الناس لصاقات "ليبرالي" أو "محافظ" فهم لا يختارون تثبيت قيمٍ مختلفةٍ فحسب بشأن الاستبيانات. ضمن نصف الثانية الأوّل بعد سماع المقولة ، كانت الأدمغة المحازبة تواً تتّخذ ردة فعلٍ على نحوٍ مختلف. إنّ هذه الإضاءات الأوّليّة للنشاط العصبي إنما هي الفيل، المنحاز قليلاً، والذي يدفع راكبيه فيما بعد إلى التفكير على نحوٍ مختلفٍ، والبحث عن أنواعٍ مختلفة من البراهين، والوصول إلى نتائج مختلفة. الحالات الحدسية تأتي أولاً، والتبرير الاستراتيجي ثانياً.

ما الذي يجعل الناس يصوّتون للجمهوري؟

عندما اقتنص باراك أوباما الترشيح الديمقراطي لسباق الرئاسة، شعرت برعشةٍ في جسدي. في آخر الزمن، بدا أنّ الديمقراطيين قد اختاروا مرشّحاً يتمتّع بذوقٍ أخلاقيّ أشمل، شخصاً ما قادراً على التحدّث عن الأسس الخمسة كلّها. في كتابه ((جرأة الأمل))، أظهر أوباما نفسه ليبرالياً استوعب الحجج المحافظة بشأن الحاجة إلى النظام وقيمة التراث. وعندما ألقى خطابه بمناسبة عيد الأب في

[1] قمنا باختبار المكوّنات N400 وLPP . أنظر Graham 2010 .



كنيسة للسود، أشاد بالزواج وبالعائلة ذات الوالدين، ودعا الرجال السود إلى تحمّل المسؤولية حيال أطفالهم.[1] وعندما ألقى خطاباً عن الوطنية، انتقد الثقافة المضادة الليبرالية للستينات من أجل حرق الأعلام والإخفاق في تكريم المحاربين القدامى العائدين من فييتنام.[2]

لكنْ بعد أن تواصل صيف عام 2008، بدأتُ أقلق. كان مُجْمَلُ خطابه إلى منظمةٍ للحقوق المدنية عن العدالة الاجتماعية والطمع المشترك.[3] لقد استخدم أساسيّ الرعاية والتقيّد بالأصول فحسب، وغالباً ما عنى التقيّد بالأصول المساواة في النتائج. وفي خطابه الشهير في برلين، قدّم نفسه "مواطناً أخاً للعالم" وتحدّث عن "المواطنة الكونية."[4] لقد أحدث لغطاً في فترةٍ مبكّرة من الصيف برفض ارتداء شعار العلم الأمريكي على طيّة صدر سترته، كما يفعلُ السياسيّون الأمريكان عادة. بدا اللغط سخيفاً بالنسبة إلى الليبراليين، لكنّ خطاب برلين عزّز بروز الرواية المحافظة إنّ أوباما كان ليبراليّاً كونياً، وهو شخص لا يمكن الثقة به في وضع المصالح القومية لأمته فوق مصالح بقيّة العالم. استغلَّ خصمهُ جون ماكين إخفاق أوباما في بناءِ أساس الولاء مع شعار خاص بحملته الانتخابية: "البلاد أولاً."

لدى شعوري بالقلق من أنّ أوباما سيسيرعلى خطى جور وكيري، كتبت مقالةً طبّقتُ فيها نظريّة الأسس الأخلاقية على سباق الرئاسة. أردت أنْ أُظهرَ للديمقراطيين كيف يمكنهم الحديث عن قضايا سياسةٍ ما بطرقٍ تُفعِّلُ أكثر

---

[1] خطاب بتاريخ 15 حزيران، 2008، أُلقِيَ في كنيسة الرّب الرسولية، شيكاجو، إيلينوي.

[2] خطاب بتاريخ 30 حزيران، في عيد الاستقلال، ميسوري.

[3] خطاب بتاريخ 14 تموزن 2008، إلى الجمعية الوطنية لتقدم الملونينNAACP ، سينسيناتي، أوهايو.

[4] خطاب بتاريخ 24 تموز، 2008. قدّم نفسه "مواطناً فخوراً من الولايات المتحدة، ومواطناً رفيقاً للعالم." لكنّ منشورات المحافظين في الولايات المتحدة تعلّقت بجزء "مواطن العالم" ولم تقتبس جزء "المواطن الفخور".



من أساسين. دعاني جون بروكمان، الذي يدير منتدىً علمياً عبر الشبكة العنكبوتية على موقع Edge.org ، لنشر المقالة في موقع Edge،[1] طالما أنني جرّدتُ معظم النصيحة وركّزتُ على علم النفس الأخلاقي.

عنونت المقالة "ما الذي يجعل الناس ينتخبون الجمهوري؟" وبدأتُ بتلخيص الشروحات المعيارية التي سبق لعلماء النفس تقديمها طوال عقود: المحافظون محافظون لأنهم تلقوا تربية من قبل والدين صارمين بوضوح، أو لأنّهم خائفون على نحوٍ جامعٍ من التغيير، والجدّة، والتعقيد، أو لأنّهم يعانون من مخاوف وجودية ومن ثمّ يتشبّثون بنظرة حيال العالم تخلو من ظلال اللون الرمادي.[2] تتمتّع جميع هذه المقاربات بسمةٍ مشتركة واحدة، [وهي أنها] استخدمت علم النفس لتفسّر النزعة المحافظة. لقد جعلتْ من غير الضروري أخذ الأفكار المحافظة على محمل الجد لأنَّ هذه الأفكار تسبّبتْ بها حالات الطفولة السيّئة أو السمات الشخصية البشعة. اقترحتُ مقاربةً مختلفة جداً: ابدأ بافتراض أنّ المحافظين مخلصون بقدر الليبراليين، ثمّ استخدمْ نظريّة الأسس الأخلاقية لفهم المنظومات الأخلاقية للجانبين كليهما.

كانت الفكرة المفتاحية المفصلية أن هنالك مقاربتين مختلفتين مختلفتان جذريّاً حيال خلق مجتمعٍ حيث يستطيع أناس لا رابطَ بينهم أن يعيشوا معاً بسلام. ولقد تمّ ضربُ مثل بواسطة ستيوارت ميل، والآخر بواسطة عالم النفس الفرنسي الكبير إميل دوركهايم. ولقد وصفتُ رؤية ميل على النحو الآتي:

> أولاً، تصوّرْ مجتمعاً على أنّه عقدٌ اجتماعي تمّ اختراعه من أجل فائدتنا المتبادلة. كلُّ الأفراد متساوون، والكلُّ يجب أن يكونوا

[1] يمكنك العثور على مقالتي هنا: www.edge.org/3rd_culture/haidt08/haidt08_index.html. أصبح بروكمان مؤخراً وكيلي الأدبي.

[2] أنظر على سبيل المثال Adorno et al. 1950, and Jost et al. 2003 . يقدم لاكوف في عام 1996 تحليلاً متساوقاً ، على الرغم من أنّه لا يُظهر أخلاق "الأب الصارم" المحافظة على أنها حالة في علم الأمراض.



متروكين ليتحرّكوا بحرّية قدر الإمكان، يطوّرون المواهب، ويصيغون علاقاتٍ كما يحلو لهم. إن القديس الراعي للمجتمع التعاقدي هو جون ستيوارت ميل، الذي كتب [في كتاب ((في الحرية))] إنّ "الغاية الوحيدة التي تسمح بممارسة السلطة عن وجه حق حيالَ أي عضوٍ في تجمّعٍ متحضّر، ضد مشيئته، هي منع الأذية عن الآخرين." وتجتذبُ رؤية ميل الليبراليين وأتباع الإرادة الحرة؛ ومجتمع ميل في أفضل صيغه سيكون مكاناً سلمياً، ومنفتحاً، ومبدعاً حيث يحترم الأفراد المتنوّعون حقوق بعضهم ويترابطون معاً من طوع أنفسهم (مثل نداءات أوباما الداعية إلى "الوحدة") لمساعدة أولئك المحتاجين أو لتغيير القوانين في سبيل الصالح العام.

لقد أظهرتُ أنّ هذه الرؤية للمجتمع تستند حصراً إلى أساسَي الاهتمام والتقيّد بالأصول. وإذا ما افترضتَ أنّ كلَّ شخصٍ يعتمد على هذين الأساسين، فستستطيع الافتراض أنّ الناس سينزعجون من القسوة والظلم وسيكونون مدفوعين إلى احترام الحقوق فيما بينهم. ومن ثمّ قارنتُ رؤية ميل مع رؤية دوركهايم:

تخيّلْ المجتمع الآن ليس بصفته توافقاً بين الأفراد بل شيئاً ما برز عضوياً بمرور الزمن إذ وجد الناس طرقاً للعيش معاً؛ ونشأت بينهم روابط؛ يكبتون أنانية بعضهم، ويعاقبون المارقين والخارجين عن السرب الذين يقوّضون الجماعات التعاونية داخليّاً. والوحدة الاجتماعية الأساسية ليست الفرد، بل الأسرة المبنيّة تراتبياً، والتي تخدم بصفتها نموذجاً للمؤسسات الأخرى. ويولَد الأطفال في مجتمعاتٍ كهذه داخل علاقاتٍ متينة ومُقيّدة تحدُّ من استقلاليّتهم بعمق. والقدّيس الراعي لهذا النظام الأخلاقي الأكثر عصبويةً هو عالم الاجتماع دوركهايم، الذي حذّرَ من أخطار الشذوذ (اللامعياري) وكتب، في 1897، أنَّ "الإنسان لا يستطيع أن يصبح



منجذباً إلى أهداف أسمى ويخضع لحكم إذا لمْ يرَ شيئاً فوقه لينتمي إليه. إنَّ قيامَه بتحرير نفسه من الضغط الاجتماعي إنما هو إهمال نفسه وإحباط معنويّاته." إن مجتمع دوركهايم في أفضل أحواله سيكون شبكةً مستقرة مؤلفة من جماعاتٍ معزولة ومتداخلة تقوم بالتواصل الاجتماعي للأفراد، وتكوينهم، والاهتمام بهم والذين، لو تُرِكوا على هواهم، لسعوا إلى مباهج ضحلة، وشهوانية، وأنانية. وسيُثمّن المجتمع الدوركهايمي ضبطَ النفس أكثر من التعبيرعنها، والواجب على حساب الحقوق، والولاء لجماعات المرء على حساب قضايا الجماعات الخارجية.

لقد أظهرتُ أنّ مجتمعاً دوركهايمياً لا يمكن أن يتمّ دعمه بواسطة أساسي الرعاية والتقيّد بالأصول فحسب.[1] عليك الاعتماد على أسس الولاء، والسلطة، والقداسة أيضاً. ثمَّ بيّنتُ كيف يُخفق اليسار الأمريكي في فهم المحافظين الاجتماعيين واليمين الديني لأنّه لا يستطيع أن يرى عالماً دوركهايمياً كأيّ شيءٍ أكثر من مقتٍ أخلاقيٍ شديد.[2] إنّ العالم الدوركهايمي هرميٌّ عادةً، وردعيٌّ، ومتديّن. وهو يضعُ قيوداً على استقلالية الأشخاص ويثبّت التقاليد، غالباً بما فيها أدوار الجنسين التقليدية. بالنسبة إلى الليبراليين، لا بُدَّ من التصدي لرؤية كهذه، لا احترامها.

---

[1] تعلّمتُ أن أرى الرؤيا الدوركهايمية ليس فحسب من قراءة دوركهايم لكن من العمل مع ريتشارد شويدر ومن العيش في الهند، مثلما وصفتُ في الفصل 5. اكتشفتُ فيما بعد أنّ معظم رؤية دوركهايم من الممكن أن تُعزى إلى الفيلسوف الإرلندي إدموند بورك كذلك الأمر.

[2] أريد أنْ أؤكد أنّ هذا التحليل ينطبق على المحافظين الاجتماعيين. وهو لا ينطبق على أنصار الإرادة الحرة أو المحافظين وعدم التدخل، المعروفين أيضاً بالليبراليين الكلاسيكيين. أنظر الفصل 12.



إذا ما اعتمدت منظومتُك الأخلاقية كليّاً على أساسيْ الاهتمام والتقيّد بالأصول، ومن ثمّ من الصعب سماع المعاني الإضافيّة المقدسة للشعار الأمريكي غير الرسمي *Epluribus unum* (من الكثيرين، واحد). وأقصدُ بكلمة "مقدس" المفهوم الذي طرحته مع أساس القداسة في الفصل الأخير. إنّه القدرة على إسباغ قيم مطلقةٍ على الأفكار، والأشياء، والأحداث، ولا سيّما تلك الأفكار، والأشياء، والأحداث التي تربط المجموعة إلى بعضها في كينونةٍ فردية. إنَّ عملية تحويل *pluribus* (الناس المتنوّعين) *إلى unum* (أمة) إنّما هي معجزة تحدث في كلّ أمةٍ ناجحةٍ على وجه الأرض.[1] وتنحط الأمم أو تتقسّم عندما تتوقف عن صنع هذه المعجزة.

في فترة الستينات، أصبح الحزب الديمقراطي حزب الناس المتنوّعين. على وجه العموم يحتفي الديمقراطيّون بالتنوّع، ويدعمون الهجرة دون الاندماج، ويعارضون جعل الانكليزية اللغة الوطنية، ولا يحبّون ارتداء بروشاتٍ تحمل العلم الوطني، ويشيرون إلى أنفسهم على أنّهم مواطنو العالم. هل من أعجوبة في أنّ أداءهم كان متواضعاً في الانتخابات الرئاسية منذ عام 1968؟[2] إنَّ الرئيس بمثابة أرفع قُسٍّ لما يدعوه عالم الاجتماع روبرت بيللا "الدين الأمريكي المدني."[3] يتوجّبُ على الرئيس القيام بمناشدة اسم اللّه (ولو لم يكن المسيح)، وتمجيد أبطال أمريكا تاريخها، واقتباس نصوصها المقدسة (إعلان الاستقلال والدستور)، والقيام بطقس تحويل الناس المتنوّعين إلى أمة. هل سيختار

---

[1] بالطبع، الأمر أسهل بكثير في أممٍ متجانسة عرقياً ذات التواريخ الطويلة واللغة الواحدة، مثل بلدان الشمال الأوروبي. قد يكون هذا سبباً واحداً بأنّ هذه الأمم هي أكثر ليبرالية وعلمانيةً من الولايات المتحدة. أنظر المزيد من النقاش في الفصل 12.

[2] من الممتع ملاحظة أنّ الديمقراطيين قد أبلوا بلاءً حسناً في انتخابات كونجرس الولايات المتحدة. فكل من أعضاء مجلس الشيوخ والكونجرس ليسوا قُسُساً. والتشريع عمل فاسدٌ قذر حيث قدرة أيٍ من أولئك على جلب المال وفرص العمل لدائرته الانتخابية قد تكون محسوبة أكثر من قدرته على احترام الرموز المقدسة.

[3] Bellah 1967



الكاثوليك بالمطلق قُسّاً يرفض التحدث باللاتينية، أو يعتبرُ نفسَه نصيراً متحمّساً لكلّ الآلهة؟

وفيما تبقّى من المقالة نصحتُ الديمقراطيين بالتوقف عن رفض النزعة المحافظة على أنها حالة في علم الأمراض والبدء بالتفكير في أخلاق ما بعد الاهتمام والعدالة. وحثثْهم على جَسرِ هوّة القداسة بين الحزبين باستخدام أكبر لأسس الولاء، والسلطة، والقداسة، وليس في "تراسلهم" فحسب، ولكنْ في كيفيّة تفكيرهم في السياسة العامة وأفضل مصالح الأمة.[1]

ما الذي افتقدته

أثارت المقالة ردود فعلٍ قويّة من القرّاء، والتي شاركوها معي بواسطة البريد الألكتروني. في اليسار، بقيَ كثيرٌ من اليساريين متمترسين منظوماتهم الأخلاقية القائمة على الرعاية ورفضوا تصديق أنّ النزعة المحافظة كانتْ رؤيةً أخلاقيةً بديلة. على سبيل المثال، قال أحد القرّاء إنّه وافق على تشخيصي ولكنّه فكّر في أنّ النرجسيّة كانت عاملاً إضافياً لم يسبق لي الإشارة إليه: "افتقاد التعاطف يناسبهم [الجمهوريين]، والنرجسيّون يفتقدون أيضاً إلى هذه السمة الإنسانية." فكّرَ أنّ من "المحزن" أن النرجسية المحافظة كانت ستمنعهم من فهم منظوري بشأنِ "مرضهم."

كانت ردود الأفعال من اليمين على وجه العموم أكثر إيجابية. فقد وجد قرّاءٌ كثيرون من خلفيات دينية وعسكرية تصويري لأخلاقهم دقيقاً ومفيداً، كما هو الحال في هذه الرسالة الألكترونية:

> تقاعدتُ مؤخراً من خفر سواحل الولايات المتحدة بعد اثنين وعشرين عاماً من الخدمة... بعد أن تقاعدت، اتخذتُ عملاً [مع وكالةٍ علمية حكومية]. تميل ثقافة [الدائرة الجديدة] أكثر نحو النموذج

---

[1] Westen 2007, chapter 15 قدّم نصيحةً مشابهة، أيضاً يدنو من تمييز دوركهايم ما بين المقدّس والمدنّس. قمتُ بالاستفادة من تحليله.



> الليبرالي المستقل ... ما أجدهُ هنا هو منظمة حافلة بالفردية والاقتتال الداخلي، على حساب الأهداف الأعظم. في الجيش، كنتُ دائماً متأثرا بالأعمال العظمى التي يمكن إنجازها على يد عددٍ صغيرٍ من الأشخاص الملتزمين والذين لديهم مواردٌ محدودة. في مجموعتي، أنا أتأثرعندما استطيع إنجازَ أيّ شيءٍ كان.[1]

تلقّيتُ أيضاً ردوداً قليلةً غاضبةً تماماً، على ولا سيّما من المحافظين الاقتصاديين الذين كانوا يعتقدون أنني لم أفهم أخلاقهم. وقد أرسل لي واحد من هؤلاء القرّاء رسالةً ألكترونية موضوعها "ارفع رأسك يا حمار،" والذي شرحه بهذه الطريقة:

> أصوّت للجمهوري لأنني ضدّ الأشخاص الآخرين (أولي الأمر) الذي يقومون بأخذ مالي (الذي عملت بجد من أجله) ويعطونه إلى جامعي نقود الرفاه غير المنتجين، والأم العزباء، والطفل المثيرللضوضاء الذين يشكّلون أنصار الحزب الديمقراطي في المستقبل. ...أنت "فيلسوف" مفرطٌ في التعلّم يداك ناعمتان وتحصل على الأجر لقاء طرح أسئلةٍ غبيّة والوصول إلى أجاباتٍ "منطقية"... هلمّ وصبّ بعض الأسيد واقرأ شيئاً من يونج.

كما وجّه قارئٌ غاضبٌ آخر قائمةً خاصةً به إلى مدوّنة النقاش في موقعي الألكتروني "أول خمسة عشر سبباً يصوّت الناس بموجبها للديمقراطي." كان سببه الأول "مستوى متدنياً في اختبار الذكاء،" لكنّ معظم قائمته أظهرت الكثير بشأن منظومته الأخلاقية والقيمة الأساسية فيها. ولقد تضمّنت ما يلي:

- الكسل.
- تريد شيئاً مقابل لا شيء.

[1] أقدّم هذه ورسائل ألكترونية متتابعة بحرفيّتها، حيث تمّ التصرّف بها بسبب الطول وحماية مجهوليّة إسم الكاتب.



- تريد أحداً ما تلومه على مشاكلك.
- أنت خائفٌ من المسؤولية الشخصية أو ببساطة لا ترغب بقبول أيٍّ منها.
- أنتَ تحتقرُ الناس الذين يعملون بجدٍ في سبيل مالهم، ويعيشون أعمارهم كما يشتهون، ولا يعتمدون على مساعدة الحكومة من المهد إلى اللحد.
- لديك 5 أطفالٍ من 3 رجالٍ مختلفين وتحتاجين شيك الإعانة.

كانت هذه الرسائل الألكترونية تفيض بالمحتوى الأخلاقي، رغم ذلك مررت بوقت عصيبٍ في تصنيف ذاك المحتوى باستخدام نظرية الأسس الأخلاقية. كان الكثير منها يتعلّق بالتقيّد بالأصول، لكنّ هذا النوع من التقيّد بالأصول لا علاقة له بالمساواة. إنها عدالة خُلُق عمل البروتستانت وقانون الكارما الهندوسي: على الناس حصدَ ما يزرعون. ولا بدّ انْ يتحمّلَ الأشخاص الكسالى وغير المسؤولين العواقب.

لقد جعلتني هذه الرسالة الألكترونية والردود الأخرى من محافظين اقتصاديين أتحقق من أنني وزملائي في موقع yourMorals.org قد قمنا بعملٍ متواضعٍ في التقاط أفكار المحافظين المتعلّقة بالعدل [التقيد بالأصول]، والتي ركّزت على التناسب، لا المساواة. يجب أنْ يحصلَ الناس على ما يستحقّون، اعتماداً على ما قاموا به. كنّا قد افترضنا أنّ المساواة والتناسب كانا كلاهما جزءاً من أساس العدالة، لكنّ الأسئلة التي استخدمناها لقياس هذا الأساس كانت في معظمها عن المساواة والحقوق المتساوية. فوجدنا - بناءً على ذلك- أنّ الليبراليين اهتموا بالمساواة أكثر من العدل [التقيد بالأصول]، وهذا ما جعل المحافظين الاقتصاديين على هذا القدر من الغضب ضدي. كانوا يعتقدون أنّ الليبراليين لا يقيمون وزناً للعدالة (على أنها التناسب).

هل التناسب والمساواة تعبيران مختلفان لالوحدة الوظيفية الأساسية الإدراكية ذاتها، حسبما كنّا نفترض؟ هل كلاهما متعلّقان بالإيثار المتبادل، حسبما كان قد وصفه روبرت ترايفرز؟ من السهل شرح سبب اهتمام الناس



بالتناسب وكونهم توّاقين لالتقاط الغشاشين. وهذا يتبع تحليل ترايفرز المتعلّق بكيفية كسبنا عبر تبادل المعروف مع شركاء موثوقين. لكنْ ماذا بشأن المساواة؟ هل الاهتمامات الليبرالية بشأن المساواة السياسية والاقتصادية متعلّقة فعليّاً بالإيثار المتبادل؟ هل الغضب العاطفي الذي يشعر الناس به حيال البلطجيّة والظالمين هو الغضب ذاته الذي يشعرون به حيال الغشّاشين؟

بعد أن أمعنت النظر فيما هو معروفٌ عن المساواة لدى الصيّادين لاقطيّ الثمار، وجدتُ تبريراً قوياً لفصل هذين النوعين من العدالة. تبدو الرغبة بالمساواة على علاقة لصيقة بعلم نفس الحرية والظلم أكثر من علم النفس المتعلق بالثنائية والتبادل. بعد الحديث عن هذه القضايا مع زملائي في موقع YourMorals.org، وبعد أن قمنا بدراسات تخصُّ عدة أنواع من العدالة والحرية، أضفنا أساساً شرطيّاً سادساً ـ الحرية /القمع.[1] قرّرنا أيضاً مراجعة تفكيرنا في مدى عدالة وضع مزيدٍ من التأكيد على التناسب. واسمحوا لي أن أشرح.

[1] كنّا قد تلقّينا شكاوى من أنصار الإرادة الحرة بأنّ الأسس الخمسة الأوّلية لم تتمكن من حصر أخلاق أنصارالإرادة الحرة. وبعد القيام بدراسة رئيسية تقارن أنصارالإرادة الحرة مع الليبراليين والمحافظين، استنتجنا أنهم كانوا على صواب (Iyer et al. 2011). لقد تأثر قرارنا بتعديل قائمة الأسس الأخلاقية "بمواجهةٍ" أرسلناها إلى موقع www.MoralFoundations.org، نطلب من الناس انتقاد نظرية الأسس الأخلاقية واقتراح أسس إضافية. جاءت حجج كثيرة مؤيدة للحرية. وتتضمّن الأسس الإضافية المرشّحة التي ما نزال نستقصي صدقيّتها، الملكية /التملّك، والهدر / انعدام الفعالية. إنّ الأساس السادس، الحرية / الظلم شرطي بحيث أننا في الوقت الحاضر في عملية تطوير طرقٍ تعددية لقياس الاهتمامات حول الحرية، ولم نقم بعد باختبار دقيق جداً يشكل إضافة إلى بحثنا حول الأسس الخمس الأصلية وإ.أ.أ. MFQ [استبيان الأسس الأخلاقية] وأقوم هنا بوصف أساس الحرية / الظلم لأنني أعتقد أنّ عرض الأسس المنطقية النظرية له قوي، ولأننا وجدنا للتو اهتماماتنا بالحرية هي حقاً الاهتمام المركزي لدى أنصار الإرادة الحرة (Iyer et al. 2011)، وهم جماعة حقيقية هامة تم تجاهلها إلى حدٍّ بعيد من قبل علماء نفس السياسة. لكنّ الحقائق القائمة على التجربة العملية قد تثبت خلاف ذلك. www.MoralFoundations.org فيما يتعلّق بتحديثات حول بحثنا.



أساس الحرية / الظلم

اقترحتُ في الفصل الأخير أنّ البشر ، مثل أسلافنا من الحيوانات الثديية الرئيسة، مزوّدون فطريا ليعيشوا في هرميات قائمة على السيطرة من الممكن أن تكون متوحشة تماماً. ولكن، إذا ما كان ذلك صحيحاً، فمن ثمّ كيف يمكن للصيادين لاقطي الثمار أن يكونوا دائماً مساواتيين؟ ليس هنالك هرميات (على الأقل بين الذكور الراشدين)، لا يوجد زعيم، وأعراف الجماعة تشجّعُ فعلياً على تقاسم الموارد، ولا سيما اللحم.[1] ويدعم الدليل الأثري وجهة النظر هذه، ويدل على أنّ أسلافنا كانوا يعيشون على مدى مئات الألوف من الأعوام في عصبٍ من الصيادين- جامعيّ الثمار الجوّالين.[2] وتصبحُ الهرمية واسعة الانتشار عند الوقت الذي بدأت فيه الجماعات بالعمل في الزراعة أو تدجين الحيوانات وغدت [الجماعات] أكثر استقراراً. وتخلق هذه التغييرات مزيداً من الملكية الخاصة وجماعات أضخم. وقامت كذلك الأمر بوضع نهاية للمساواة. إنّ أفضل الأرض ونصيباً من كلّ شيء ينتجه الناس على نحوٍ طبيعيّ تخضع لسيطرة الزعيم، والرئيس، أو طبقة نخبة (الذين يأخذون بعضاً من ثروتهم معهم إلى القبر من أجل التفسير السهل من قبل خبراء الآثار اللاحقين). وهكذا كانت عقولنا "مبنية مسبّقاً على التجربة" من أجل الهرمية أو من أجل المساواة؟

بالنسبة إلى الهرمية، حسب خبير الأنثروبولوجيا كرستوفر بويهم، في وقتٍ مبكّرٍ من حياته المهنية، درس بويهم الثقافات القبلية ، لكنّه قام كذلك الأمر بدراسة قرود الشمبانزي مع جين جودال. كما ميّز أوجه الشبه الاستثنائية بالطرق التي يظهر البشر وقرود الشمبانزي بها السيطرة والخضوع. في كتابه

---

[1] Boehm 1999

[2] المصدر السابق. لكنْ أنظر أيضاً أنَّ عمل عالم الآثار بريان هايدن (2001) الذي يجد أنّ الدليل على الهرمية وعدم المساواة غالباً ما تسبق التحول إلى الزراعة بعدةِ آلاف من السنوات حيث اختراعات تقنية أخرى تجعل من الممكن لـ "المبجّلين" السيطرة على الإنتاج وجعل من الممكن أيضاً لجماعات الشروع بممارسة الزراعة.



بعنوان ((الهرمية في الغابة))، استنتج بويهم أن بني البشر هم هرميّون فطرياً، لكن في نقطةٍ ما أثناء المليون سنة الأخيرة خضع أسلافنا إلى "تحوّلٍ سياسي" سمح لهم بالعيش بوصفهم متساويين من خلال ارتباطهم في جماعة تكبح، أوتعاقب، أو تقتل أيّ ذكورٍ نجومٍ مستقبليين حاولوا السيطرة على الجماعة.

إنَّ قرود الشمبانزي الذكور النجوم هم حقاً قادة جماعاتهم. يقومون ببعض الخدمات العامة، من قبيل الوساطة في النزاعات.[1] لكنْ في معظم الوقت، تمّ وصفهم على نحوٍ أفضل على أنهم بلطجيّة يأخذون ما يريدونه. على الرغم ذلك وحتى وسط قرود الشمبانزي، يحدث في بعض الأحيان أن الأتباع يتجمّعون في زمر كي يطيحوا بالنجوم، بين الفينة والفينة وصولاً إلى قتلهم.[2] على نجوم قرود الشمبانزي الذكور إذاً أن يعرفوا حدودهم ويتمتعوا بمهارات سياسية كافية ليضمنوا عدداً قليلاً من الحلفاء كي يدرؤوا الاعتداء.

تخيّلْ الحياة شبه البشرية المبكرة على أنّها توازن متوتر للسلطة بين النجم (مع حليفٍ أو اثنين) والمجموعة الأكبر من الذكور المبعدين خارج نطاق السلطة. ثمّ يتمّ تسليح كلّ فردٍ بحربة. ومن المرجّح أنْ ينزاح ميزان القوة عندما لا تعود القوة الجسدية تقرر نتيجة كلّ عراك. هذا أساساً ماحدث، حسبما يقترح بويهم،

---

(1) De Waal, 1996

(2) كما هو موصوف عند de Waal 1982 . يحاول بويهم 2012 إعادة تركيب صورةٍ لآخر أسلاف البشر المشتركين، وكل من قرود الشمبانزين وقرود البونوبو. ويصل إلى الاستنتاج أن السلف المشترك كان أشبه بقرد الشمبانزي العدواني المتمسّك بمنطقته منه بقرد البونوبو المسالم. ويوافق رانجهام 2001 و(Wrangham and Pilbeam 2001) ، ويقترح أنّ قرود البونوبو والبشر يشتركون بكثير من السمات من خلال عملية "تدجين ذاتية" مشابهة ، والتي جعلت كلا الصنفين أكثر مسالمةً ومرحاً من خلال جعلِ كليهما يحتفظان بسمات طفولية أكثر حتى مرحلة الرشد. لكن ما من أحد يعرف بالتأكيد، ويقترح دي وال ولانتنج 1997 أن السلف المشترك الأخير ربما كان أكثر شبهاً بقرود البونوبو منه بقرود الشمبانزي ، على الرغم من أنّ هذه الورقة نلاحظ أيضاً أنّ قرود البونوبو أكثر حفاظاً على شبابها من قرود الشمبانزي.



حين طوّر أسلافنا أسلحةً أفضل للصيد وتقطيع الطرائد مع بداية السنوات الخمسمئة ألف المنصرمة، عندما يبدأ السجل الأثري بإظهار ازدهارٍ بأنواع الأدوات والأسلحة.[1] وما إن قام البشر بتطوير الرماح، باستطاعة أي شخصٍ كان قتل النجم البلطجي الذكر. وإذا ما أضفتَ القدرة على التواصل بواسطة اللغة، ولاحظ أن كلّ مجتمع إنساني يستخدم اللغة للثرثرة بشأن الانتهاكات الأخلاقية،[2] من ثمّ يصبح من السهل معرفة كيف طوّر البشر الأوائل القدرة على الاتحاد كي يقوموا بتشنيع، أو نبذ، أو قتل أي شخص كان سلوكه يهدد أو ببساطة يقلق معظم أفراد الجماعة.

إنّ ادعاء بويهم هو أنه في نقطة ما أثناء نصف مليون السنة الأخيرة، بعد حلول اللغة، قام أسلافنا بخلق أولى التجمّعات البشرية الأخلاقية الحقيقية.[3] في هذه التجمّعات، استخدم الناس الثرثرة لتعريف السلوك الذي لم يحبّوه، ولا سيما السلوكيات العدوانية والمسيطرة لدى الذكور النجوم المستقبليين. في المناسبات النادرة عندما لمْ تكنْ الدردشة كافية لإقناعهم بالتعاون، كان لديهم القدرة على استخدام الأسلحة لإضعافهم. يقتبس بويهم روايةً عن تجمّعٍ كهذا في حالة نشاط بين شعب الكونج في صحراء كالاهاري:

---

[1] في الفصل 9 سأشرح لماذا أفضل المرشحين لهذه النقلة هو Homo heidelbergensis الإنسان الهدلبرجني [أسم معدل ليسهل نطقه بالعربية ــ الأصل: هايدلبرجنسي ــ المترجم] الذي يظهر أولاً حوالي سبع أو ثمان مائة ألف عام خلت، ويبدأ التمكن من تقنياتٍ جديدة مثل صنع النار والحراب.

[2] Dunbar 1996

[3] يقدم دي فال الحجة في عام 1996 أنّ قرود الشمبانزي تتمتع بقدرةٍ أولية لتعلّم قواعد سلوكية ومن ثم تتّخذُ ردة فعلٍ تجاه منتهكيّ القاعدة السلوكية. وكما هو حال الكثير من المقارنات الأخرى بين البشر وقرود الشمبانزي، هنالك المماحات لكثيرٍ من القدرات البشرية المتطورة، رغم أنّ قواعد السلوك لا يبدو أنها تنمو ويعتمد أحدها على الآخر وتطوّق كلّ فرد. يقول دي فال بوضوح أنه لا يعتقد أنّ قرود الشمبانزي تتمتع بأخلاق. أعتقد أننا لا نستطيع أنْ نتحدث فعلياً عن "تجمّعات أخلاقية" حتى ما بعد *Homo heidelbergensis* *الإنسان الهدلبرجنيّ*، مثلما اشرح في الفصل التالي.



قام رجلٌ يُدعى توي بقتل ثلاثة أشخاص آخرين، عندما نصب [أبناء] التجمّع، في حركة نادرة من الإجماع، كميناً وأوقعوا فيه جرحاً قاتلاً في وضح النهار. وأثناء موته محتضراً، أطلق كلّ الرجال عليه سهاماً مسنونة حتى، حسب تعبير أحد الرواة، "بدا أشبه بحيوان النيّص." بعد ذلك، وبعد أن فارق الحياة، اقترب كلُّ الرجال والنساء على حدّ سواء وطعنوه بالحراب، بشكلٍ رمزيّاً بالمسؤولية عن موته.[1]

ليس الأمر أنّ الطبيعة البشرية على نحوٍ فجائيّ تغيّرت واصبحت قائمة على المساواة؛ مازال الناس يحاولون السيطرة على الآخرين عندما كانوا يستطيعون النجاة من العقاب. ولنَقُلْ: قام الناس المزوّدون بالأسلحة والثرثرة بخلق ما يدعوه بويهم "عكس هرميات السيطرة" قاعدة الجمهور تشكل عصبةً للسيطرة على الذكور النجوم المستقبليين وضبطهم. (إن الأمر على نحوٍ بالغ غريب ومشابه لحلم ماركس ب "دكتاتورية البروليتاريا.")[2] والنتيجة حالةٌ هشّة من المساواتية السياسية تمّ إنجازها بواسطة التعاون بين المخلوقات المعدة مسبقاً على نحوٍ فطري للترتيبات الهرمية. وإنّه لمثالٌ عظيم كيف أنّ "الفطري" يشير إلى المسوّدة الأولى للعقل. والطبعة النهائية من الممكن أن تبدو مختلفةً تماماً، وهكذا من الخطأ النظر اليوم إلى الصياد ـ جامع الثمار والقول، "تأمّل، ذاك ما تبدو عليه فعليّاً الطبيعة البشرية <u>في حقيقة الأمر</u>!"

بالنسبة إلى الجماعات التي جعلت هذا التحوّل السياسي إلى المساواتية ممكناً، كانت هنالك قفزة من حيث الكمّ في تطوّر المنظومات الأخلاقية. يعيش الناس في الوقت الحاضر في شبكات عنكبوتية أكثف من قواعد

---

(1) Lee 1979, quoted in Boehm 1999, p. 180

(2) قد يكون المصطلح استُخدمَ للمرة الأولى في مقالة عن ماركس في جريدة ((نيويورك تايمز))، لكنّ ماركس والماركسيين سرعان ما اعتنقوا المصطلح، وهو يبرز في مقالة ماركس بعنوان ((نقد برنامج جوتا)) الصادرة عام 1825.



السلوك، وحالات الحظر غير الرسمية، وبين الفينة والفينة عقوبات عنيفة. وهؤلاء الذين يمكنهم اجتياز هذا العالم بمهارة والحفاظ على السمعات الجيّدة تتم مكافأتهم بالحصول على ثقة، وتعاون، ودعم الأخرين السياسي. وأولئك الذين لم يتمكّنوا من احترام قواعد سلوك الجماعة، والذين تصرّفوا مثل البلطجية، تتمّ إزاحتهم من تجمّع الجينات عن طريق تجنّبهم، اونفيهم، أو قتلهم. تتطوّرالجينات والممارسات الثقافية (من قبيل القتل الجماعي للمنحرفين) جماعياً.

كان الناتج النهائي، يقول بويهم، عمليّةً تُدعى في بعض الأحيان "التدجين الذاتي." تماماً مثلما يستطيع مستولدو الحيوانات إيجاد مخلوقاتٍ أكثر تدجيناً ولطفا وداعة عن طريق الاصطفاء من أجل هذه السمات، بدأ أسلافنا باستيلاد ذواتهم انتقائياً (دون قصد) في سبيل القدرة على بناء منظوماتٍ أخلاقية مشتركة ومن ثمّ العيش بشكلٍ بتعاونٍ ضمنها.

لقد تطوّر أساس الحرية / القمع، الذي أطرحه، استجابةً لتحدٍّ تكيُّفي متعلّق بالعيش في جماعاتٍ صغيرة ذات أفرادٍ سيقومون، إذا ما سنحت لهم الفرصة، بالسيطرة والتنمّر على من هم أضعف منهم وتقييدهم. ومن ثم تتضمّن المقاديح الأصليّة بالتالي متعلّقة بمحاولة السيطرة. إنّ أيّ شيءٍ يدل على السلوك المتحكّم العدائي لنجمٍ ذكرٍ (أو أنثى) من الممكن أن يحرّض هذا الشكل من الغضب القويم، والذي يُدعى في بعض الأحيان المفاعلة. (أي ذاك الشعور الذي تمر به عندما تطلبُ منك سلطة ما ألاّ تقدم على عملٍ ما فتشعرفي نفسك برغبة أقوى في الإقدام عليه.)[1] لكنّ الناس لا يعانون من القمع في عزلة؛ يحرّض صعود المسيطرين المستقبليين حافزاً للوحدة [لدى الناس] كأشخاصٍ متساوين مع أفرادٍ مقموعين آخرين لمقاومة الظالم، وكبحه، وفي حالاتٍ متطرّفة قتله. أما الأفراد الذين أخفقوا في التقاط إشارات السيطرة ويردون عليها بغضبٍ صوابي وتوحيدي

(1) Brehm and Brehm 1981



للجماعة فقد واجهوا إمكانية تقليص الوصول إلى الغذاء، والأزواج، والأشياء الأخرى التي تجعل الأفراد (وجيناتهم) ناجحةً بالمعنى الدارويني.[1]

يعملُ أساس الحرية بجلاءٍ بتوترٍ مع أساس السلطة. نلاحظ جميعاً بعض الأنواع من السلطة على أنها مشروعة في بعض السياقات، ولكننا كذلك الأمر متيقّظون من أولئك الذين يدّعون بأنهم قادة مالم يكسبوا ثقتنا أولاً. ونحن مترقّبون أيّة إشاراتٍ تفيد بأنهم انحرفوا عن الصراط نحو تعظيم الذات والطغيان.[2]

يدعم أساس الحرية منظومة الثوريين و"المناضلين في سبيل الحرية" في كل مكان. إنَّ إعلان الاستقلال الأمريكي هو قائمة "أذيّات واغتصابات عروشٍ متكررة، كلّها تتمتع بهدف مباشر قوامه تأسيس استبدادٍ مطلقٍ على هذه الولايات." وتبدأ الوثيقة بالادعاء أنّ "كلّ البشر خلقوا أحراراً" وتنتهي بوعدٍ مؤثر بالاتحاد: "نتعهد تبادليّاً بأرواحنا بعضنا لبعض، وبثرواتنا وبشرفنا المقدس." والثوار الفرنسيون، على نحوٍ مشابه، كان عليهم الدعوة إلى الأخوة fratenite والمساواة egalite إذا ما أرادوا حثّ العامة على الانضمام إلى ضالتهم المنشودة في قتل الملك من أجل الحرية liberte.

---

[1] تبرز مسألة الخارجين عن السرب بشكلٍ طبيعي؛ أنظر Dawkins 1976 . ألن تكون أفضل الاستراتيجيات البقاء في الخلف وترك الآخرين يجازفون بحيواتهم للوقوف في وجه المستأسدين الخطرين؟ إن مشكلة الخارج عن السرب ملحّة تماماً لدى الأنواع التي تفتقد إلى اللغة، وقواعد السلوك، والعقوبات الأخلاقية. لكنْ حسبما سأبيّن في في الفصل التالي، تمّت المبالغة في تأكيد أهمية الأمر بالنسبة للبشر. الأخلاق، في جزء كبير، حل ارتقائي لمشكلة الخارجين عن السرب. كما تستطيع جماعات الصيادين- لاقطي الثماروكذلك الأمر القبائل الأكبر حجماً إرغام أعضائها على العمل والتضحية من أجل الجماعة بمعاقبة الخارجين عن السرب؛ أنظر Mathew and Boyd 2011 .

[2] غالباً ما يبرز القادة في النضال ضد الطغيان، ليصبحوا في النهاية طغاةً أنفسهم. وحسبما تصوغ فرقة موسيقى الروك المسماة "ذا هو" بطريقة ذائعة الصيت: "قابل رئيس العمل الجديد. هو ذاته رئيس العمل القديم."



يحتفي علم ولايتي، فرجينيا، بالاغتيال (أنظر الشكل 8. 3). وهو علم عجيب، ما لم تفهم أساس الحرية /القمع. ويظهر العلم فضيلة (تجسّده امرأة) واقفة على صدرٍ ملكٍ ميت، مع شعار

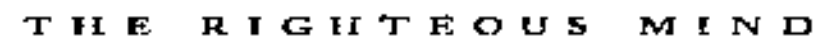




FIGURE 8.3. *The flag of Virginia, illustrating the Liberty/oppression foundation.*

الشكل 8. 3. علم ولاية فرجينيا، يوضح أساس الحرية /الاستبداد

("هكذا دوماً نحو الطغاة"). وكان ذاك نداءاً جامعاً يقال إنه أطلقَ من قِبَل ماركوس بروتوس بينما كان ومن معه من المتآمرين الشركاء يقتلون يوليوس قيصر لتصرّفه على طريقة الذكر النجم. ولقد أطلقها [الصيحة] جون ويلكيس بوث من المنصة الرئيسة في مسرح فورد بعد دقائق من إطلاق النار على الرئيس لنكولن (الذي ينظر إليه الجنوبيون على أنه طاغية منعهم من إعلان الاستقلال).

غالباً ما يبدو القتل فضيلةً للثوريين. إنه يبدو فحسب نوعاً ما مثل الشيء الصحيح الذي يمكن فعله، وتبدو هذه المشاعر مستبعدة تماماً من غيرية ترايفرز التبادلية والعين بالعين. وهذا ليس عدالةً. وهذا هو تحوّل السياسة عند بويهم وقلب السيطرة.



إذا ما تضمّنت المقاديح الأصلية لهذا الأساس البلطجيّة والطغاة، تتضمّن المقاديح الراهنة تقريبا أيّ شيء يُفهَمُ أنّه يفرض قيودا غير مشروعة على حريّة الفرد ومن ضمنه الحكومة (من منظور اليمين الأمريكي). في عام 1993، عندما تمّ توقيف تيموثي مكفاي بعد ساعات قليلة من قيامه بتفجير مبنى مكاتب اتحادي في مدينة أوكلاهوما، أودى بحياة 168 شخصاً، كان يرتدي قميص "تي" يحمل عبارة هكذا نحو الطغاة. وعلى نحوٍ أقل تبشيراً بالشؤم، يعتمد الغضب الشعبوي لحزب الشاي على هذا الأساس، كما يبدو في رايتهم غير الرسمية، والتي تقول "لا تدُسْ على طريقي" (أنظر الشكل 7. 4).

لكنّ على الرغم من هذه التجليات لدى اليمين، يبدو الإلحاح على الانضواء في عصبة لمجابهة القمع واستبداله بالمساواة السياسية في الحدّ الأدنى سائداً بالقدر نفسه لدى اليسار. على سبيل المثال؛ أدرج أحد القرّاء الليبراليين لمقالتي "الجمهوريون" طرح بوبهم على وجه الدقة:

> إنَّ عدوّ المجتمع بالنسبة إلى شخصٍ ليبراليّ هو شخصٌ ما يسيء استخدام قوته (السلطة) وعلى الرغم من ذلك يطلب، وفي بعض الحالات يقسر، الآخرين على "احترامه" على أيّة حال.... والسلطة الليبرالية هي شخصٌ ما أو شيءٌ ما يُكسِبُ المجتمع احتراماً من خلال توحيد المجتمع وقمع أعدائه. [التأكيد مضاف.] [1]

ليس تجميع السلطة أو إساءة استخدامها ما يفعّل الغضب لدى أساس الحرية /القمع؛ من الممكن أن تتوسّع المقاديح الراهنة لتشمل مراكمة الثروة التي تساعد على شرح كراهية الرأسمالية المنتشرة في أوساط أقصى اليسار. على سبيل المثال، شرح قارئٌ ليبرالي لي بأنّ "الرأسمالية في خاتمة المطاف، مخلوقٌ مفترس ـ المجتمع الأخلاقي سيكون اشتراكياً، أي يساعد بعض الناس بعضهم الآخر."

---

[1] أشكر إميلي ديكسون لسماحها لي بإعادة طباعة مجزوءة لرسالتها الألكترونية. وكل المقبوسات الأخرى أطول من جملةٍ واحدة من الرسائل الألكترونية ومواقع النقاش في هذا الفصل تُستخدَم بموافقة المؤلفين، الذي اختاروا أن يحجبوا هويتهم.



تستطيع أنْ تسمع الاعتماد الكبير على أساس الحرية / القمع في أيّ وقت يتحدث الناس فيه عن العدالة لاجتماعية. ولقد استخدم أصحاب مقهى تقدمي و"منظمة تعاونية ثقافية" في نيو بالتز، نيويورك، هذا الأساس، إلى جانب أساس الرعاية، لتوجيه خياراتهم في مجال الديكور، كما يمكنك أنْ ترى في الشكل 8. 4.

وتوجد كراهية القمع لدى الجانبين كليهما من الطيف السياسي. ويبدو الفرق بالنسبة إلى الليبراليين ـ الأكثر ميلاً إلى الكونية والأكثر اعتماداً على أساس الرعاية /الأذى ـ أنّ استخدام أساس الحرية /القمع في خدمة المضطهدين والضحايا، والمجموعات العاجزة. وهو [الأساس] يقود الليبراليين (لكنّ ليس الآخرين) إلى تقديس المساواة، وتتم بعدئذٍ متابعته بواسطة النضال من أجل الحقوق المدنية وحقوق الإنسان. ويذهب الليبراليون في بعض الأحيان إلى ما بعد المساواة في الحقوق ويسعون إلى المساواة في النتائج، وهو أمرٌ لا يمكن الحصول عليه في نظامٍ رأسمالي. وهذا ما قد يكون السبب في تفضيل اليسار لضرائب أعلى على الأغنياء، والمستوى العالي من الخدمات التي يزوَّد بها الفقرات، وفي بعض الأحيان دخلاً في الحد الأدنى مضموناً لكلّ شخص.

المحافظون، بالمقابل، أكثرمحدودية ـ فهم مهتمون بشأن جماعاتهم، أكثر من اهتمامهم بعموم الإنسانية. بالنسبة إليهم، يدعم كلّ من أساس الحرية /القمع وكراهية الطغيان كثيراً من عقائد النزعة الاقتصادية المحافظة: لا تطأني بقدمك (بدولتك النانا الليبرالية وضرائبها الباهظة)، ولا تُخضع مصلحتي التجارية (بقوانينك القمعية)، ولا تطأ أمتي بقدمك (بأممك المتحدة ومعاهداتك الدولية التي تحدّ من السيادة.)

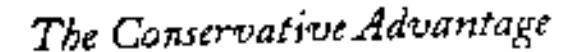


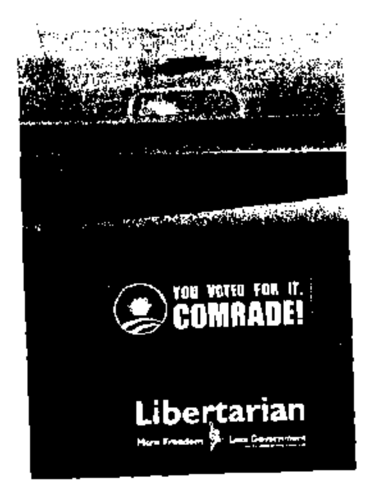


الشكل 8. 4. الحرية الليبرالية: الجزء الداخلي من مقهى في نيو بالتز، نيويورك. تقول اللافتة إلى اليسار، "ما من أحد حرّ عندما يكون الآخرون مقموعين." ويظهر العلم الموجود إلى اليمين شعارات الشركات العملاقة التي تحلّ مكان النجوم على العلم الأمريكي. كما تقول اللافتة الموجودة في المنتصف ، "كيف السبيل إلى إيقاف العنف ضد الأطفال والنساء."

يقدّس المحافظون الأمريكان، بناءً على ذلك، كلمة حرية ، وليس كلمة مساواة. وهذا يوحّدهم من الناحية السياسية مع أنصار المشيئة الحرة. لقد اختار الواعظ الإنجيلي جيري فالويل إسم جامعة الحرية عندما أسّس مدرسته المحافظة المتشددة في عام 1971. ويظهر الشكل 8. 5. سيّارة طلاب الحرية. وطلبة الحرية على وجه العموم مؤيدون للسلطة. ويُفَضّلون العائلات الأبوية. لكنّهم يعارضون السيطرة والتحكم من قَبَل حكومةٍ علمانية؛ ولا سيما حكومة ليبرالية سوف تقوم (وهم يخشون) باستخدام سلطتها لإعادة توزيع الثروة (حسبما كان "الرفيق أوباما" يُظَنُّ أنه من المرجّح أن يفعل).







الشكل 8. 5. الحرية المحافظة: سيّارة في مهجع في جامعة الحرية، لينشبيرغ، فرجينيا. ويقول اللاصق الأسفل، "الحر المشيئة: حرية أكثر، حكومة أقل."

العدالة بصفة التناسب

برز حزب الشاي كأنه من عالم مجهول في الشهور الأولى من رئاسة أوباما لإعادة تشكيل المشهد السياسي الأمريكي وإعادة رص صفوف ثقافة الحرب الأمريكية. وبدأت الحركة جدياً في 19 شباط، 2009، عندما أطلقَ ريك سانتيللي، وهو مراسل لدى شبكةٍ إخبارية مختصة الأعمال الحرة، خطبة مسهبة عنيفة ضدَ برنامج تبلغ كلفته 75$ بليون لمساعدة مـلاّك المنازل الذين اقترضوا مالاً أكثر مما كانوا يستطيعون سداده في الوقت الحاضر. وقال مانتيللي، الذي كان يبثّ من الطابق الأرضي في بورصة شيكاجو التجارية، "إن الحكومة تشجّع السلوك السيّء." بعد ذلك حثّ الرئيس أوباما على إنشاء موقع على الشبكة العنكبوتية لإجراء استفتاءٍ قومي:



لرؤية إنْ كنّا حقاً نريد تمويل قروض الخاسرين، أو إن كنا سوف نحب شراء سيّارات على الأقل وشراء منازل في حبس الرهن* ومنحهم لأناس قد يكون لديهم فعلياً فرصةٌ للازدهار على الطريق ومكافأة أشخاص من الممكن أنْ يحملوا الماء بدلاً من أنْ يشربوه. [عند هذا الحد، انطلقت صيحات الإعجاب خلفه.] ..هذه هي أمريكا. كم منكم أيها الناس يريدون تسديد قرض جيران لهم لديهم حمام إضافي ولا يستطيعون دفع فواتيرهم؟ أتسمع يا رئيس أوباما. [تمت إضافة التأكيد.]

بعد ذلك أعلن سانتيللي أنه كان يفكّر في استضافة "حزب الشاي في شيكاجو" في شهر تموز.[1] وقام معلّقون من اليسار بالهزء من سانتيللي، وظنّ الكثيرون أنه كان يرسّخ أخلاقاً شنيعة قوامها لتاكل الكلاب بعضها فيها يتوجّبُ ترك "الخاسرين" للموت (وقد تعرّض الكثيرون منهم للاحتيال على يد مقرضين مجرّدين من المبادىء الخلقية). لكنْ في حقيقة الأمر كان سانتيللي يدافع عن قانون كارما.

لقد استغرقت وقتاً طويلاً في فهم العدالة لأنني، مثل كثير من الأشخاص الذين يدرسون الأخلاق، كنتُ قد فكّرتُ بالعدالة على أنها صيغةٌ من المصلحة الشخصية التنويرية، قائمة على نظرية ترايفرز في الغيرية التبادلية. لقد قال ترايفرز بأنّ العدالة تطوّرت لأنّ الناس الذين يتمتعون بهذه الجينات تفوّقوا في التنافس على أولئك الذين لمْ تتوفّر لديهم. ويجب علينا عدم إهمال فكرة الإنسان الاقتصادي؛ يجب علينا فحسب منحه ردود أفعالٍ عاطفية تدفعه إلى اللعب واحدة بواحدة.

---

* حرمان الراهن من حق استرجاع العقار المرهون ــ المورد

[1] كان هذه إشارة إلى حزب الشاي في بوسطن لعام 1773، وهو واحد من أوائل الأعمال الرئيسية لتمرّد المستوطنين الأمريكان ضد بريطانية العظمى.



في السنوات العشر الأخيرة، من جانب آخر، تحقق مختصّو نظرية الارتقاء من أنّ الغيرية التبادلية ليس من السهل العثور عليها لدى الأصناف غير البشرية.[1] لقد تبيّن أنّ الادعاء الذي تمّ الإخبار عنه على نطاق واسع بأنّ الخفاشات مصاصة الدماء تشارك وجبات الدم مع خفاشاتٍ أخرى قامت في السابق بمشاركتها هو حالة اختيار القريب (أقارب يتشاركون الدماء)، وليس غيرية متبادلة.[2] إنّ الدليل على التبادلية لدى قرود الشمبانزي والقرود المقلنسة• أفضل ولكنّه غامضٌ بالرغم من ذلك.[3] يبدو أن دفعَ الغيرية الاجتماعية على الانطلاق يتطلّب أكثر من مستوى عالٍ من الذكاء الاجتماعي. فهو يتطلّبُ تجمّعاً سكانياً ثرثاراً، تأديبياً، أخلاقياً برز إلى حيّز الوجود عندما أتاح كلٌّ من اللغة والسلاح للبشر الأوائل إمكانية الإطاحة بالبلطجيّة ثمّ إبقائهم في الأسفل بواسطة منظومةٍ أخلاقية مشتركة.[4]

---

(1) Hammerstein 2003

(2) أنا مذنبٌ في نشر هذه الأسطورة، في ((فرضيات السعادة)). كنت أشير إلى واحدٍ من أعمال ويلكنسون 1984. لكنْ تبيّن أنّ من المحتمل أنّ خفّاشات ويلكنسون كانوا أقارباً لصيقين. أنظر Hammerstein 2003 .

• القرد المقلنس، قرد جنوب أمريكي Capouchin يعلو رأسه شعرٌ أسود شبيه بالقلنسوة ــ المورد

(3) أنظر مراجعة في F. S. Bronsan 2006 . في الدراسة الرئيسية القائمة على التجربة التي توثّق اهتمامات العدالة عند قرود القلنسوة ((S. F. Bronsan and de Waal 200) ، أخفق القرود في شرط التحكم الرئيسي؛ لقد انزعجوا كلما شاهدوا ثمرة عنبٍ لمْ يحصلوا عليها، سواء تم منح العنب للقرود الأخرى ام لا. وجهة نظري الخاصة هي أنّ بروسنان ودي فال من المحتمل أن يكونوا على صواب؛ تبقى قرود الشمبانزي والقلنسوة سجلاً لأفعال المعروف أو الإهمال، ولديهم إحساس بدائي بالعدالة. لكنّهم لا يعيشون ضمن منظومات أخلاقية. في غياب قواعد سلوكية واضحة وحديث، فهم لا يظهرون هذا الإحساس بالعدالة بشكلٍ متساوٍ في الأوضاع المخبرية.

(4) قام ترايفرز بمناقشة "التبادلية الأخلاقية، "لكنّ هذا الأمر عملية مختلفة جداً عن الغيرية التبادلية. أنظر Richerson and Boyd 2005, chapter 6 .



تخفق الغيرية المتبادلة كذلك الأمر في شرح سبب تعاون الناس في أنشطة الجماعات. تعمل التبادلية بنجاح لدى الثنائيات من الناس، الذين يمكنهم أن يلعبوها واحدة بواحدة، أما ضمن الجماعات فعادةً ما لا تكمن مصلحة الفرد في أن يكون الفارض لها بالقوة ـ الشخص الذي يعاقب المتهربين من أداء واجبهم. على الرغم من ذلك نقوم بالعقاب، ونزوعنا إلى العقاب يتبيّن أنه أحد المفاتيح للتعاون على نطاقٍ واسع.[1] في تجربة كلاسيكية واحدة، طلب خبيرا الاقتصاد إرنست فيهر وسيمون جيتشر من طلبةٍ سويسريين أن يلعبوا اثنتي عشرة جولة من لعبة "البضائع العامة."[2] وتدور اللعبة على هذا النحو: تحصلُ أنت وكلّ من شركائك الثلاثة على 20 قطعة [من نقودٍ رمزية] في كلّ جولة (قيمة كل قطعة عشر سنتات أمريكية). يمكنك الاحتفاظ بالنقود الرمزية، أو يمكنك "استثمار" بعض النقود الرمزية أو كلّها في صندوقٍ مشترك للمجموعة. في نهاية كلّ جولة، ضاعف منفّذو التجربة النقود الرمزية في الصندوق المشترك بمعدل 1.6 ثمّ قسموا الصندوق المشترك على اللاعبين الأربعة، وهكذا إذا ما أسهم كلّ شخص بجميع النقود الرمزية العشرين، يتزايد الصندوق المشترك من 80 إلى 128، وعلى كلّ شخصٍ الاحتفاظ ب 32 قطعة نقدية رمزية (والتي يتم تحويلها إلى مالٍ حقيقي في نهاية التجارب). لكنّ كلّ فردٍ أبلى بلاءً حسناً عن طريق الإحجام: إن لم تضع شيئاً بينما وضع كلّ من شركائك، فعليك الاحتفاظ بنقودك الرمزية ال20 إضافةً إلى ربع الصندوق المشترك الذي يدفعه شركاؤك الواثقون (ربع الرقم 96)، فتنتهي الجولة ب 44 قطعة نقدٍ رمزية.

لقد جلس كلّ شخصٍ على جهاز حاسوب في ركنٍ منفصل، دون أن يعرف أي شخص شركاءه الآخرين في أيّة جولة محددة كانوا، على الرغم من أنهم شاهدوا شاشة التغذية الراجعة بعد كلّ جولة تكشف على وجه التحديد كم كان مقدار مساهمة كل واحدٍ من اللاعبين الأربعة. كذلك الأمر، وبعد كلّ

(1) Mathew and Boyd 2011

(2) Fehr and Gachter 2002



جولة، قام فيهر وجيشتر بإعادة خلط المجموعات على نحوٍ يكون معه كلّ شخصٍ قد لعب مع ثلاثةِ شركاءَ جُدُد ـ لم تكن الفرصة واردة لتطوير مبادئ سلوكية قائمة على الثقة، ولم تعد الفرصة متاحة لأي شخص كي يستخدم مبدأ واحدة بواحدة (عن طريق الإحجام في الجولة الآتية إذا ما قام أي شخصٍ ب "الغش" في الجولة الحالية).

في ظل هذه الظروف، يكون خيار المخلوق البشري الاقتصادي واضح: لا تساهم بأي شيء، مطلقاً. بالرغم من ذلك قام الطلبة بالمساهمة في الصندوق المشترك ـ حوالي عشر قطع نقد رمزية في الجولة الأولى. وإذ تواصلت اللعبة، من جانبٍ آخر، شعر الأشخاص بالانزعاج من جرّاء تدني مساهمات بعض شركائهم، وتضاءلت مساهماتهم باطّراد، نزولاً إلى مستوى ست قطع رمزية نقدية في الجولة السادسة.

ذاك النموذج ـ المساهمة الجزئية لكنْ المتضائلة ـ تمّ الإعلان عنه من قبل. لكنْ هنا يكمن سبب كون هذه الدراسة باهرة: بعد ست جولاتٍ، أبلغ منفّذا التجربة الطلبة أنّ هنالك قاعدة جديدة: لدى علمك بمقدار ما ساهم به شركاؤك في كلّ جولة، سيكون لديك خيار الدفع، بواسطة قطع النقود الرمزية، *لمعاقبة* لاعبين آخرين محددين. كلّ قطعة نقد رمزيّة تدفعها من أجل العقاب ستسحب ثلاث قطعٍ من اللاعب الذي عاقبته.

بالنسبة إلى المخلوق البشري الاقتصادي، سبيل الفعل الصحيح مرة أخرى واضح تماماً: لا تدفع كي تعاقب، لأنك لن تلعب ثانيةً مع هؤلاء الشركاء الثلاثة ، وهكذا ليس هنالك فرصة للاستفادة من التبادلية أو من الحصول على صيتٍ الجلافة. بالرغم من ذلك وعلى نحوٍ لافتٍ للنظر، *دفع 84 بالمئة من المشاركين من أجل العقاب*، على الأقل مرة واحدة. ولكن على الرغم من ذلك وعلى نحوٍ أكثر إثارةً للإعجاب، ارتفع مستوى *التعاون إلى معدلات هائلة* في الجولة الأولى بحد ذاتها عندما كانت العقوبة مسموحاً بها، وواصلت صعودها. بحلول



الجولة الثانية عشرة، وكان معدل المساهمة يساوي خمس عشرةَ قطعةً نقودٍ رمزيةً.[1] يشجّع عقاب السلوك السيّئ الفضيلة ويعود بالفائدة على الجماعة. وحسبما قدّمَ جلاوكون الدليل فحسب في مثاله عن خاتم جايجيس، وعندما يُزاح التهديد بالعقوبة، يتصرّف الناس بأنانية.

لمَ دفعَ معظم اللاعبين كي يعاقبوا؟ جزئياً، بدا القيام بذلك أمراً جيّداً.[2] نحن نكره رؤية الناس يأخذون دون أنْ يُعطوا. نريد رؤية الغشاشين والمتهرّبين من تأدية الواجب "ينالون ما يحلّ بهم." نريد قانون العاقبة الأخلاقية أن يأخذ مجراه، ونحن مستعدّون للمساعدة في فرضه.

عندما يتبادل الناس أعمال المعروف، يصبح الطرفان متساوين، بطريقةٍ أو بأخرى، وهكذا من السهل التفكير (مثلما فعلت) أنّ الغيرية التبادلية كانت مصدر البديهيات الأخلاقية بشأن المساواة. لكنّ نزعة المساواة تبدو أكثر تجذُّراً في كراهية السيطرة منها في محبة المساواة ذاتها.[3] شعور المرء بالتعرض

---

[1] قام فيهر وجيتشر أيضاً بإدارة نسخةٍ من هذه الدراسة كانت مطابقة باستثناء أنّ العقوبة كانت متوفرة في الجولات الستة الأولى وتمّ سحبها في الجولة السابعة. كانت النتائج ذاتها: مستويات عالية ومتصاعدة من التعاون في الجولات الست الأولى، الذي هبط بشكلٍ عمودي في الجولة 7 ومن ثم تناقص من تلك النقطة وما تلاها.

[2] وجدت دراسة PET قام بها de Quervain et al. 2004 أن مناطق المكافأة لدى الدماغ كانت لدى الناس فرصة لإنزال العقوبة على أساس الغيرية. عليّ أن ألاحظ أيضاً أنّ كارلسميث، وويلسون، وجيلبرت قد وجدوا في عام 2008 أنّ متعة الانتقام في بعض الأحيان خطأ "حالة تنبّؤ عاطفية"؛ الانتقام ليس في الغالب حلواً كما نتوقع. لكن إن كانوا يشعرون بالبهجة فيما بعد أم لا، النقطة الهامة هي أنّ الناس يريدون إنزال العقوبة عندما يتعرّضون للغش.

[3] هذه هي أطروحة بويهم، وأرى تثبيتاً لها في حقيقةٍ مفادها أنّ اليسار لم يكن قادراً على جعل معظم سكان البلاد منزعجين من جرّاء صعود انعدام المساواة الأمريكية منذ عام 1980. في خاتمة المطاف، في عام 2011، كان قد بدأ محتجّوا احتلّوا وول ستريت [البورصة] بالانتقال إلى ما بعد الإشارة إلى انعدام المساواة ببساطة، كما شرعوا في إطلاق ادعاءات قائمة على أساس العدالة / الغش (حول كيف قام "1 بالمائة" بالغش



للسيطرة أو القمع على يد شخصٍ بلطجي مختلفٌ تماماً عن الشعور بالتعرض للغش في مقايضة للبضائع أو أعمال المعروف.

ما إن قام فريقي في موقع YourMorals.org بتعريف الحرية /القمع على أنهما (شرطي) بصفته أساساً سادساً منفصلاً، بدأنا نلاحظ أنّ في بياناتنا، هموماً بشأن المساواة السياسية متعلّقة بكراهية القمع والاهتمام بالضحايا، وليس رغبة بالتبادلية.[1] وإذا ما كانت محبة المساواة السياسية ترتكز على أساسي الحرية / القمع والرعاية /الأذى أكثر من أساس التقيّد بالأصول /الغش، فمن ثمّ لا يعود أساس التقيّد بالأصول متمتعاً بشخصية منقسمة؛ ولا يعود متعلقاً بالمساواة والتناسب. إنه في المقام الأول متعلق بالتناسب.

عندما يعمل الناس معاً في أداء واجب، فهم يريدون عموماً رؤية العمال الأكثر جديةً يحصلون على أكبر المكاسب.[2] ويريد الناس في الغالب المساواة في المخرجات، لكنّ ذلك بسبب أن الوضع في الغالب انطوى على أن مدخلات الناس كانت متساوية. وعندما يقوم الناس بتقسيم المال، أو أي نوع آخر من المكافأة، لا تكون المساواة سوى حالةٍ من مبدأ تناسب الأعرض. وعندما قامت

للوصول إلى القمة، وكيف هم "مدينون" لنا بالإنقاذ من الأزق المالي الذي منحناه لهم)، وأيضاً على أساس الحرية /القمع (حول كيف أنّ 1 بالمائة قامت بالاستحواذ على السيطرة الحكومة وتسيء استخدام سلطتها لإيذاء واستعباد ال99 بالمائة). لكنْ لا يبدو أنّ مجرّد الإشارة إلى عدم المساواة، دون إظهار الغش أو القمع، يحرّض الكثير من الغضب العارم.

[1] في تحليلات العوامل والتشكيلات العنقودية لبياناتنا على YourMorals.org ، نجد بشكلٍ متكرر أنّ الأسئلة حول المساواة تنسجم مع أسئلة حول الرعاية، والأذية، وا (أساس الرعاية)، وليس مع أسئلة حول التناسب.

[2] أنظرْ الكتلة الكبيرة من البحث في علم النفس الاجتماعي التي تُدعى "نظرية الإنصاف،" والتي تتمثّل بديهيتها المركزية في أن معدّل المكاسب الصافية (الناتج ناقص المدخلات) بالنسبة إلى أن المدخلات يجب أن تكون متساوية لدى كل المشاركين (Walster and Berscheid 1978). ذاك هو تعريف التناسب.



قلّة من أعضاء جماعة بمساهمة أكبر من مساهمات الأعضاء الآخرين - أو، حتى عندما لا تساهم القلة بشيء ـ فلا يرغب الراشدون برؤية الفوائد توزّع بالتساوي.[1]

نستطيع من ثمَّ تنقية توصيف أساس التقيّد [العدل] بالأصول الذي قدمته في الفصل الأخير. وهو ما يزال مجموعةً من الوحدات الوظيفية التي تطوّرت استجابةً للتحدي التكيّفي المتعلّق بجني مكافئات التعاون دون التعرّض للاستغلال على يد الخارجين عن السرب.[2] لكنْ الآن وحيث إننا قد بدأنا الحديث عن التجمعات الأخلاقية التي يتم الحفاظ على التعاون ضمنها بواسطة الكلام والعقاب، يمكننا النظر إلى ما وراء *الأفراد* الذين يحاولون اختيار الشركاء (الذي تحدثت عنه في الفصل الأخير). نستطيع النظر على نحوٍ أكثر قرباً إلى رغبات الناس القوية لحماية *تجمّعاتهم* من الغشاشين، والمتهرّبين من تأدية الواجب، والخارجين عن السرب، الذين، إذا ما تمّ السماح لهم بالاستمرار على سُبُلهم دون مضايقة، سيتسببون للآخرين بالتوقف عن التعاون، والذي سيؤدي بالمجتمع إلى الانحلال. ويدعم أساس التقيّد بالأصول الغضب المحق عندما يَغُشّك شخص مباشرةً (على سبيل المثال، تاجر سيّارات يبيعك سيارة رديئةً عن دراية). لكن يدعم أيضاً اهتماماً عمومياً بالغشاشين، والطفيليّين، وأيّ شخص آخر "يشرب الماء" ولا يحمله للجماعة.

تتنوّع المقاديح الراهنة لأساس التقيّد بالأصول اعتماداً على حجم الجماعة وعلى كثيرٍ من الظروف التاريخية والاقتصادية. ففي مجتمعٍ صناعيّ يتمتع بشبكة أمانٍ اجتماعية، من المرجّح أن تحتوي المقاديح الراهنة الأشخاص الذين يعتمدون على شبكة أمان من أجل أكثر من نشاط آنيّ لإنقاذ الحياة. وتشرح

[1] يحبُّ الأطفال عموماً المساواة، حتى يقتربوا من سنّ البلوغ، ولكنْ حين ينضج ذكاؤهم الاجتماعي يتوقفون عن أنء يكونوا مساواتيين صلبين ويبدؤون بالتحوّل إلى تناسبيّين: أنظر Almas et al. 2010 .

[2] Cosmides and Tooby 2005



الاهتمامات بشأن انتهاك شبكة الأمان الرسائل الألكترونية الغاضبة التي تلقّيتها من المحافظين الاقتصاديين، من قبيل الرجل الذي لمْ يرغب بدولارات ضريبته أن تذهب إلى "أمّ دون زواج، غير منتجة، ووليد ضوضائي، من جامعي تعويض الضمان، ومنتجي أنصار الحزب الديمقراطي المستقبليّين." وهي تشرح قائمة المحافظين المتضمّنة الأسباب التي تحدو بالناس لانتخاب الديمقراطي، مثل "الكسل" و"أنت تمقت الأشخاص الذين يعملون بجدّ من أجل مالهم، ويعيشون حياتهم، ولا يعتمدون على الحكومة للمساعدة من المهد إلى اللحد." وتشرح أيضاً حديث سانتيللي الصاخب عن إنقاذ أصحاب البيوت من إفلاسهم، والذين كذب كثيرون منهم في طلبات قروضهم ليكونوا مخولين بالحصول على قروضٍ عالية القيمة لم يكونوا يستحقونها. وهي تشرح أيضاً ملصق الحملة الدعائية في الشكل 8. 6، من حزب ديفيد كاميرون المحافظ في المملكة المتحدة.

ثلاثة مقابل ستة

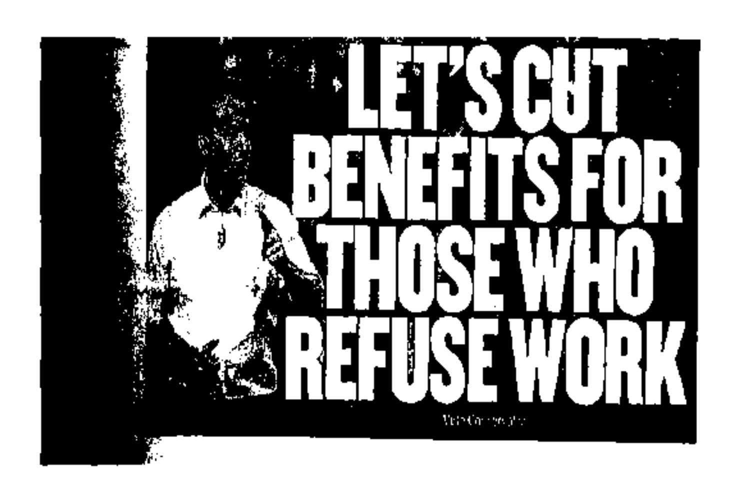
لإجمال هذا الأمر برمّته: تقول نظرية الأسس الأخلاقية إنّ هنالك (على الأقل) ستة أنظمةٍ نفسيةٍ تُشَكِّلُ الأسس الكونية لكثير من منظومات العالم الأخلاقية.[1] تميل الأخلاقيات السابقة لدى اليسار السياسي إلى الارتكاز على أساسي الرعاية /الأذى والحرية /القمع. وتدعم هذه الأسس مُثُل العدالة الاجتماعية، التي تؤكد على الشفقة تجاه الفقراء والنضالّ في سبيل المساواة السياسية بين الجماعات الفرعية التي تكوّن المجتمع. وتؤكد حركات العدالة

---

[1] كان هدفنا من نظرية الأسس الأخلاقية وموقع YourMorals.org إيجاد *أفضل* الجسور بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس التطوّري، ليس مجموعة تامة من الجسور. نرى أن الأسس الست التي حددناها هي الأهم، ونجد أننا نستطيع أن نشرح معظم الأمور الخلافية الأخلاقية والسياتسية باستخدام هذه الأسس الستة. لكن هنالك بالتأكيد وحدات فطرية إضافية تُبرزبديهاتٍ أخلاقية إضافية. الأسس المرشحة الأخرى التي نحاول استقصاءها تتضمن بديهاتٍ متعلّقة بالصدق، والملكية؛ وضبط النفس، والهدر. أنظر موقع MoralFoundations.org لتعرف حول بحثنا بشأن الأسس الأخلاقية الإضافية.



الاجتماعية على التضامن ـ وتدعو الناس إلى التجمّع لمناهضة قمع النخب المتنفّذة المستأسدة. (لهذا لا يوجد أساس مساواة منفصل. فالناس لا يلتمسون المساواة من أجل المساواة؛ وإنما يقاتلون في سبيل المساواة عندما يُدركون أنهم يتعرّضون للبلطجة والسيطرة، كما هو الحال أثناء الثورتين الأمريكية والفرنسية، والثورات الثقافية في فترة الستينات.)[1]



الشكل 8. 6. *العدالة بصيغة التناسب.* اليمين عادةً أكثر اهتماماً من اليسار بالتقاط الركاب المتفلّتين من اليسار. (ملصق حملة لصالح حزب المحافظين في الانتخابات النيابية في المملكة المتحدة لعام 2010.)

[1] إذا ما شاهدت طفلاً في حالة ألم، تشعر بالشفقة. إنها أشبه بنقطة عصير الليمون فوق اللسان. وأنا أناقش أنّ مشاهدة عدم المساواة ليس كذلك. وهو يجعل الضغينة تعتمل في صدورنا فقط عندما ندرك أنّ الشخص يعاني (الرعاية /الأذى)، يتعرّض للاضطهاد من قبل شخصٍ مستأسد (الحرية /القمع)، أو يتعرضون للغش (العدالة /الغش). من أجل حجة ضدي ولمصلحة المساواة باعتباره الأساس الأولي، أنظر Rai and Fiske 2011



يهتم كلّ شخصٍ - من اليسار، واليمين، والوسط - بشأن الرعاية /الأذى، لكنّ الليبراليين يهتمّون أكثر. وعبر الكثير من الموازين، وعمليات المسح، والأمور السياسية المثيرة للجدل، يتبيّن أنّ الليبراليين أكثرانزعاجاً بإشارات العنف والمعاناة، بالمقارنة مع المحافظين ولا سيما أنصار المشيئة الحرة.[1]

كلّ شخص - يمينيٌّ، ويساريّ، ووسطي - يهتمّ بالحرية / القمع، لكنّ كلّ فصيلٍ سياسي يهتم بطريقةٍ مختلفة. في الولايات المتحدة المعاصرة، الليبراليّون كانوا أكثر اهتماماً بحقوق جماعاتٍ محددة مستضعفة (على سبيل المثال، الأقليات العرقية، والأطفال، والحيوانات)، ويتطلّعون إلى الحكومة للدفاع عن الضعفاء ضد القمع من قِبَل الأقوياء. المحافظون، بالمقابل، يحافظون على أفكارٍ تقليدية عن الحرية على أنها الحق في أن يُتركوا وشأنهم، وهم يمتعضون غالباً من البرامج الليبرالية التي تستخدم الحكومة لتنتهك حرمة حرّيّاتهم لكي تحمي جماعاتٍ يهتم اليسار بها في المقام الأول.[2] على سبيل المثال، يدعم أصحاب المصالح التجارية الصغيرة على نحوٍ ساحقٍ الحزب الجمهوري[3] ، لأنهم يمتعضون جزئياً من الحكومة التي تقول لهم كيف يديرون مصالحهم التجارية تحت لوائها الذي قوامه حماية العمال، والأقليّات، والمستهلكين، والبيئة. وهذا يشرح لمَ اصطف أنصار المشيئة الحرة مع الحزب الجمهوري في العقود الأخيرة. إنّ أنصار المشيئة الحرة يهتمّون بالحرية تقريباً إلى حد إبعاد كل الاهتمامات الأخرى،[4]

---

(1) يمكنك رؤية هذه النتيجة عبر عمليات مسح متعددة لدى Iyer et al. 2011

(2) أشار بيرلين 1985/1997 إلى هذا النوع من الحرية على أنها "حرية سلبية" - الحق في أن يُترك الناس وشأنهم. وأوضح أنّ اليسار قد طوّر مفهوماً جديداً لـ "حرية إيجابية" أثناء االقرن العشرين - مفهوم الحقوق والموارد التي يحتاجها الناس للاستمتاع بالحرية.

(3) في استطلاعٍ للرأي تمّ نشره في 26 تشرين الأول، 2004، وجد مركز بيو للبحث أن أصحاب المصالح التجارية الصغيرة فضّلوا بوش (56 بالمائة) على كيري (37 بالمائة). كما انتهى في عام 2010 تحوّلٌ صغيرٌ نحو اليسار حدث في عام 2008. أنظر الملخص في موقع HuffingtonPost.com بواسطة البحث عن "Small business polls: Dems get pummeled".

(4) كانت هذه نتيجتنا بالتجربة العملية في Iyer et al. 2011، والتي يمكن طباعتها من موقع www.MoralFoundations.org



وفهمهم للحرية هو المفهوم ذاته لدى الجمهوريين: إنه الحق في أنْ يُترَك الناس وشأنهم، أحراراً من تدخّل الحكومة.

إنّ أساس [العدل] الالتزام بالأصول /الغش يتعلّق بالتناسب وقانون العاقبة الأخلاقية. إنه يقوم على التأكد من أنّ الناس يأخذون ما يستحقّونه ولا يحصلون على أشياء لا يستحقونها. كل شخص ـ يساري، ويميني، ووسطي ـ يهتم بالتناسب؛ وكل شخصٍ يشعر بالغضب عندما يأخذ أناسٌ أكثر مما يستحقون لكنّ المحافظين يهتمّون أكثر، ويعتمدون على نحوٍ أوضح على أساس الالتزام بالأصول ـ فور أن يحصَرَ الالتزام بالأصول بالتناسب. على سبيل المثال، إلى أيّ حدٍّ يتعلّق بأخلاقك إن كان "كل الأشخاص يقومون بقسطهم الكامل من العمل"؟ هل توافق على أن "موظفا يعمل بأقصى درجات الجدية يجب أن يتلقى دخلاً أعلى؟" لا يرفض الليبراليون هذه البنود، لكنّهم متأرجحون. المحافظون، بالمقابل يصادقون على بنودٍ كهذه بحماس.[1]

قد يفكّر الليبراليون أنهم يمتلكون مفهوم العاقبة الأخلاقية بسبب روابط العصر الجديد، لكنّ أخلاقاً قائمةً على الحنوّ والاهتمامات بشأن قمعٍ يجبرك على انتهاك مبدأ العاقبة الأخلاقية (التناسب) بطرقٍ عديدة. يظن المحافظون، على سبيل المثال، أنّ من الجليّ أنّ الاستجابات حيال الجريمة يجب أن تكون قائمة على التناسب، كما يظهر في شعارات مثل "أقدم على جريمة، وأقدم على الزمن،" و"ثلاث طرَقات وتخرج." بالرغم من ذلك غالباً ما يكون الليبراليّون غير مرتاحين مع الجانب السلبي لمبدأ العاقبة الأخلاقية ـ الثواب والعقاب ـ كما هو موضح في الملصق الخلفي للسيارة في الشكل 8. 7. في آخر الأمر، الثواب والعقاب يسببان الأذى، ويفعّل الأذى أساس الرعاية /الأذى. ولقد وجدت دراسة حديثة أنّ الأساتذة الجامعيين الليبراليين يمنحون معدّلاتٍ أضيق مما يفعل الأساتذة

---

[1] بيانات غير منشورة، YourMorals.org . يمكنك أن تأخذ هذا المسح بالذهاب إلى موقع YourMorals.org ومن ثم تحصل على نسخة B / MFQ . أيضاً، أنظر مناقشاتنا للبيانات حول العدالة في قسم رسائل النقاش في موقع YourMorals.



الجامعيون المحافظون. والأساتذة الجامعيون المحافظون أكثر استعداداً لمكافأة الطلبة الأفضل وعقاب الطلبة الأسوأ.[1]

تظهر الأسس الثلاث المتبقيّة ـ الولاء /الخيانة، والسلطة / التخريب، والقداسة /التهتك ـ أكبر الفروقات التحزبية ومعظمها. فالليبراليون متأرجحون بشأنِ هـذه الأسس في أفضل الأحوال، بينما يعتنقها المحافظون الاجتماعيون. (لدى أصحاب



الشكل 8. 7. سيّارةٌ في تشارلوتسفيل، فرجينيا، يُفضّل مالكها الرأفة على التناسب

المشيئة الحرة استخدامها [الأسس] على نحوٍ محدود، وهو السبب في أنهم يميلون إلى دعم المواقف الليبرالية فيما يتعلّق مثل زواج المثليين، واستخدام المخدرات، وقوانين "لحماية" العلم الأمريكي.)

بدأتُ هذا الفصل بإخباركم عن نتائجنا الأصلية: يتمتّع الليبراليون بأخلاقٍ ذات أساسين، تعتمد على أسس الاهتمام والعدالة، في حين أنّ المحافظين لديهم أخلاق ذات خمسة أسس. لكن تأسيساً على ما تعلّمناه في السنوات الخمس الأخيرة، أحتاج إلى مراجعة تلك المقولة. يتمتع الليبراليّون بأخلاق ذات ثلاثة أسس، في حين أنّ المحافظين يستخدمون الأسس الستة جميعها. تعتمد المصفوفات الأخلاقية الليبرالية على أسس الاهتمام /الأذى، والحرية /القمع، والالتزام بالأصول [العدل] /الغش، على الرغم من أنّ الليبراليين في الغالب

[1] Bar and Zussman 2011



مستعدون للتخلّص من التقيّد بالأصول (على أنّه التناسب) عندما تتعارض مع الرأفة أو مع رغبتهم في النضال ضد القمع. ترتكز أخلاق المحافظين على الأسس الستة، على الرغم من أنّ المحافظين أكثر استعداداً من الليبراليين للتضحية بالاهتمام وترك بعض الناس يتعرّضون للأذى من أجل إنجاز أهدافهم الأخلاقية الكثيرة الأخرى.

باختصار

من الممكن أن يساعد علم نفس الأخلاق على شرح السبب في أنّ الحزب الديمقراطي كان قد عانى صعوبةً جمةً في التواصل مع الناخبين في علم 1980. يفهم الجمهوريون النموذج الحدسي الاجتماعي أكثر من الديمقراطيين. فالجمهوريون يتحدثون على نحوٍ أكثر مباشرةً إلى الفيل. ولديهم التقاط أفضل لنظرية الأسس الأخلاقية؛ فهم يحرّضون كل جهاز لاقطٍ للذوق بمفرده.

لقد قدّمت الرؤية الدوركهايمية للمجتمع، التي يفضّلها المحافظون الاجتماعيّون، والتي تكون الأسرة فيها الوحدة الأساسية، أكثر من الفرد، والتي يتمّ فيها إعلاء شأن النظام، والهرمية، والتقاليد. ولقد قمت بمقابلة هذه الرؤية مع الرؤية الليبرالية المنسوبة إلى ميلل، وهي أكثر انفتاحاً وفردية. ولاحظت أنّ المجتمع لدى ميلل لديه صعوبة في دمج الأفراد المتنوّعين *pluribus* في أمة *unum*. يتابع الديمقراطيون في الغالب سياساتٍ تشجّع الأفراد المتنوّعين *pluribus* على حساب *unum* الأمة، وهي سياسات تتركهم منفتحين على اتهامات بالخيانة، والتهديم، وتدنيس المقدسات.

بعدئذٍ وصفتُ كيف قمت وزملائي بمراجعة نظرية لأسس الأخلاقية للقيام بعملٍ أفضل في شرح حالات الحدس بشأن الحرية والتقيّد بالأصول [العدل].

- قمنا بإضافة أساس الحرية /القمع، الذي يجعل الناس يلاحظون ويستاؤون من أي إشارة لمحاولة السيطرة. فهو يقوم بتحريض الدافع للانضواء في جماعات من أجل مقاومة أو الإطاحة بالمستأسدين والطغاة. ويدعم هذا الأساس نزعة المساواة ونزعة معاداة السلطة لدى اليسار،



إضافةً إلى مبدأ لا تطأني بقدمك وأعطِني حرّيتي المتعلق بغضب أنصار المشيئة الحرة المناويء للحكومة وبعض المحافظين.

- قمنا بتعديل أساس التقيّد بالأصول [العدل] لجعله يركّز بقوّةٍ أكبر على التناسب. ويبدأ أساس التقيّد بالأصول [العدل] بعلم نفس الغيرية التبادلية، لكنّ واجبه توسّع فور قيام بني البشر باختراع الثرثرة والتجمّعات الأخلاقية الرادعة. لدى معظم الناس اهتمام حدسيٌّ عميق بقانون العاقبة الأخلاقية - فهم يريدون رؤية الغشاشين يتعرّضون للعقاب والمواطنين الطيّبين يتلقّون المكافأة بالتناسب مع أعمالهم.

مع هذه المراجعات، تستطيع نظريّة الأسس الأخلاقية حالياً أن تشرح واحداً من الألغاز الكبيرة التي شغَلَتْ تفكير الديمقراطيين في السنوات الأخيرة: لمَ يُصوّت الأمريكيون من الطبقة العاملة والريفية عموماً لصالح الحزب الجمهوري في حينْ أنَّ الحزب الديمقراطي هو من يريد إعادة توزيع المال بطريقةٍ أكثر تساوياً؟

غالباً ما يقول الديمقراطيون إنّ الجمهوريين قاموا بخداع هؤلاء للتصويت ضدّ مصالحهم الاقتصادية الشخصية. (تلك كانت هي أطروحة الكتاب الشعبي الصادر في عام 2004 ((ما خطب كانساس؟)))[1] ولكنْ من منظور نظريّة الأسس الأخلاقية، كان ناخبوّ الريف والطبقة العاملة في حقيقة الأمر يصوّتون من أجل مصالحهم *الأخلاقية*. فهم لا يريدون أن يأكلوا في مطعم المذاق الحقيقي، وهم لا يريدون أنْ تُكرّسَ أمّتهم نفسها في المقام الأول للاهتمام بالضحايا والسعي إلى العدالة الاجتماعية. وحتى يفهم الديمقراطيّون رؤية دوركهايم عن المجتمع والفرق بين أخلاق الأسس الستة وأخلاق الأسس الثلاثة، فلن يفهموا ما الذي يجعل الناس يصوّتون للحزب الجمهوري.

---

(1) Frank 2004



في الجزء الأول من هذا الكتاب عرضتُ أوّل مبادئ علم النفس الأخلاقي: *حالات الحدس تأتي أوّلاً، والتبرير الاستراتيجي ثانياً*. في الجزء الثاني، قمت بوصف تلك الحالات الحدسية بالتفصيل أثناء عرض المبدأ الثاني: *الأخلاق لا تقتصر على الأذية والتقيد بالأصول*. نحن مستعدّون الآن لاختبار كيف يمكن للتنوع الأخلاقي أن يقسم الناس الطيّبين ببساطة إلى جماعات عدائية لا تريد أن تفهم بعضها. نحن مستعدّون للانتقال إلى المبدأ الثالث: *الأخلاق تربط العميان إلى بعضهم*.





الجزء الثالث

الأخلاق تجمع وتعمي

الصورة المجازية المركزية

نحن 90 بالمئة قرود شمبانزي و10 بالمئة نحل





تاسعاً

لمَ نحن عصبويّون على هذه الشاكلة؟

في الأيّام المرعبة بعد هجمات 11 أيلول 2001 الإرهابية، شعرت بحافز من البدائية لدرجة أنني شعرت بالإحراج من الاعتراف به لزملائي: لقد أردتُ وضعَ علم لاصقٍ على سيّارتي.

بدا الحافز آتياً من عالم الغيب، لا علاقة له بأيّ شيءٍ سبق لي القيام به. والأمر هو أن هنالك صندوق الإنذار في خلفيّة دماغي مع شاخصة عليه تقول، "في حالة هجومٍ أجنبيّ، اكسر الزجاج واضغط الزر." لم أكن أعلم أنّ صندوق الإنذار كان هناك، ولكن عندما قامت تلك الطائرات الأربعة بكسر الزجاج وضغط الزرامتلكت إحساساً عارماً بكوني أمريكياً. أردت فعلَ شيءٍ ما، أيّ شيء، لدعم فريقي. ومثل آخرين كُثُر، قدمت الدم وتبرّعتُ بالمال للصليب الأحمر. كنتُ أكثر انفتاحاً على مساعدةً للغرباء. وأردتُ عرض عضويّة فريقي بإظهار العلم بطريقةٍ ما.

لكنّني كنتُ أستاذا جامعياً، والأستاذ الجامعي لا يقوم بأمورٍ كهذه. إنّ التلويح بالأعلام والوطنية من شأن المحافظين. وأساتذة الجامعات كونيّون ليبراليّون جوّابو الكوكب، وعلى نحوٍ انعكاسيّ حذرون من القول إنّ أمّتهم أفضل من الأمم الأخرى.[1] فعندما ترى علَماً أمريكياً على سيّارةٍ في مرآب

[1] في العلوم الاجتماعية والإنسانية، انتقل المحافظون من كونهم بشكلٍ مجرّد منخفضيّ التمثيل في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية لكونها تقريباً منقرضة بحلول فترة ==



سيّاراتٍ طواقم جامعة فرجينيا، يمكنك أنْ تكون واثقاً بأنّ السيّارة تنتمي إلى سكرتيرة أو أحد عمال الياقات الزرق.

بعد ثلاثةِ أيّام واضطراب من المشاعر لم أمرّ بها من قبل، وجدتُ حلاً لمعضلتي. وضعتُ علماً أمريكياً في زاويةٍ من زجاج سيارتي الخلفي، ووضعت علم الأمم المتحدة في الزاوية المقابلة. بتلك الطريقة كنت أستطيع أنْ أعلن أنني كنتُ أحبُّ بلادي، ولكن لا تقلقوا يا قوم، لا أفضّلها على البلدان الأخرى، وهذا كان في آخر الأمر، هجوماً على العالم برمّته، بصيغةٍ ما، أليس كذلك؟

حتى الآن قمت في هذا الكتاب بطباعة لوحةٍ ساخرة نوعاً ما للطبيعة البشرية. وقدمت الحجة على أنّ جلاوكون كان على صوابٍ وأننا نملك اهتماماً أكثر بشأن الظهور *بالطيبة* من كوننا طيّبين فعلياً.[1] حالات الحدس تأتي أولاً، التبرير *الاستراتيجي* ثانياً. نحن نكذب، ونغش، ونقطع الزوايا الأخلاقية في أكثر الأحوال عندما نفكر أننا نستطيع الإفلات من العقاب، منْ ثمّ نوظّفُ تفكيرَنا الأخلاقي لاستخدام سمعاتنا وتبرير أنفسنا للآخرين. ثمّ نصدّق تبريرنا التالي للحدس بشموليةٍ فينتهي الأمر بنا مقتنعين بفضيلتنا الخاصة اقتناعاً مطلقاً.

أنا على قناعة أنكم تستطيعون فهم معظم علم النفس الأخلاقي باستعراضه على أنّه صيغةٌ من المصلحة الشخصية المتنوّرة، وإن كانت مصلحة شخصية، ومن ثمّ من السهولة بمكانٍ شرحها بواسطة الاصطفاء الطبيعي الداروني الفاعل على

التسعينات باستثناء مجال الاقتصاد. كان واحدٌ من الأسباب الرئيسية لهذا التغيير أنّ الأساتذة الجامعيين من "الجيل الأكبر" الذي قاتل في الحرب العالمية الثانية ولم يكنْ مستقطباً إلى هذه الدرجة العالية، تمّ استبدالهم تدريجياً بالأطفال الهادرين الأكثر استقطاباً من الناحية السياسية بدءاً من فترة الثمانينات (Rothman, Lichter, and Nevitte 2005).

[1] هذه إشارة إلى جلاوكون في كتاب أفلاطون ((الجمهورية))، الذي يتساءل إن كان الإنسان يتصرّف بشكلٍ حسن إذا ما امتلك خاتم جايجز، الذي يجعل من يلبسه خفياً وبالتالي متحرراً من الاهتمامات حول السمعة. أنظر الفصل 4.



مستوى الفرد. الجينات أنانية،[1] وتنتج الجينات الأنانية أناساً يتمتعون بوحداتٍ قياسٍ عقلية متعددة، وبعض هذه الوحدات القياسية العقلية تجعلنا غَيْريّين استراتيجياً، لا كونياً أو بما يُعوَّل عليه. لقد تمّ تشكيل عقولنا الصوابية عن طريق انتقاء القرابة إضافةً إلى الغيريّة التبادلية المزيدة بواسطة الكلام وتدبير السمعة. تلك هي رسالة كلّ كتاب عن الأصل التطوّري للأخلاق، ولا شيء قلته حتى الآن يناقض هذه الرسالة.

لكن في الجزء الثالث من هذا الكتاب سأُظهر لماذا هذه الصورة غير كاملة. نعم، الناس أنانيون في الغالب، والكثير من سلوكنا الأخلاقي، والسياسي، والديني من الممكن أن يُفهَم على أنه طرق ضئيلة التمويه للسعي إلى المصلحه الشخصية. (أنظرْ فحسبْ إلى النفاق الكريه لدى رجال الدين والسياسة.) وفي الحقيقة الناس عصبيون كذلك الأمر. نحن نحبُ الانضمام إلى فرقٍ، ونوادٍ، وروابط، وأخويّات. ونتّخذُ هويات عصبوية ونعمل كتفاً إلى جانب كتف مع الغرباء نحو أهدافٍ مشتركة بحماسٍ كبيرٍ يبدو معه كأنَّ عقولنا كانت مصممة باتجاه عمل الفريق. لا أظنُّ أننا نستطيع فهم الأخلاق، أوالسياسة، أو الدين إلى أن نمتلك صورةً جيّدة عن العصبوية وأصلها. ولا نستطيع أنْ نفهم الأخلاق المحافظة والمجتمعات الدوركهايمية التي وصفتها في الفصل الأخير. كما لا نستطيع فهم الاشتراكية، والشيوعية، والتعاونية لدى اليسار.

لأكنْ أكثر دقة. عندما أقول إنّ الطبيعة البشرية *أنانية*، أعني أنّ عقولنا تحتوي على تنوّعٍ من الآليات العقلية تجعلنا مهَرَةً نعزّزُ مصالحنا، في التنافس مع الأقران الآخرين. وعندما أقول أنَّ الطبيعة البشرية عصبوية كذلك الأمر، أعني أنّ عقولنا تتضمّن تنوعاً من الآليات العقلية التي تجعلنا مهرةً في تعزيز مصالح

[1] حسبما صاغها داوكنز بشكلٍ لا يُنسى، الجينات تستطيع فقط تشفير السمات التي تنتهي إلى إنتاج نُسَخٍ من هذه الجينات. ولم يعنِ داوكنز أنّ الجينات الأنانية تنتج بشكلٍ كاملٍ أشخاصاً أنانيين.



جماعتنا، في التنافس مع الجماعات الأخرى الأخرى.[1] نحن لسنا قدّيسين، لكننا في بعض الحالات لاعبون جيّدون في الفريق.

لدى الصياغة بهذه الطريقة، تصبح هذه الآليات العصبوية بمثابة لغز. هل لدينا عقول عصبوية اليوم لأنَّ أفراداً عصبويين تفوّقوا على أفرادٍ أقل عصبويةً _ضمن المجموعة نفسها_؟ إذا ما كان الأمر على هذه الشاكلة، فمن ثمَّ هذا أمر معياري فحسب، يؤدي وظيفة الانتقاء الطبيعي للخبز والزبدة على مستوى الفرد. وإذا ما كانت القضية على هذه الشاكلة، فهذه إذن عصبوية جلاوكون ـ علينا توقع إيجاد أنّ الناس يهتمون _بمظهر_ الولاء، وليس الواقع.[2] أو [عطفاً على ما سبق] هل لدينا آليات عصبوية (من قبيل ردة الفعل الانعكاسية المتمثلة بالالتفاف حول العلم) لأنّ الجماعات التي نجحت في الائتلاف والتعاون تفوّقت على الجماعات التي لم تتمكن من رصّ صفوفها؟ وإذا ما كان الأمر على هذه الشاكلة، أنا أستحضر من ثمّ عمليةً تُعرَفُ ب "انتقاء الجماعة،" واختيار الجماعة تمّ استبعاده بصفته نوعاً من الهرطقة من الأوساط العلمية في فترة السبعينات.[3]

---

[1] بالطبع نحن عصبويون في الحد الأدنى من المعنى بأننا نحب الجماعات، وننجذب إلى الجماعات. كلّ حيوان يعيش في قطيع، أوسرب، أو مجموعة هي عصبوية بذاك المعنى. أعني القول ما أبعد من ذلك. نحن نهتمّ بجماعاتنا ونريد تعزيز مصالح جماعتنا، وحتى على حساب أنفسنا. هذا ليس صحيحاً حول الحيوانات التي تعيش ضمن قطعانٍ أو زمر (Williams 1966).

[2] لا أشك بأنّ هناك جزءاً ملموساً من النزعة الجلاوكونية تستمر عندما يقوم الأشخاص بعروض الوطنية وصيغ أخرى من ولاءات الجماعة. أنا ببساطة أؤكد أنّ روح الفريق لدينا ليست جلاوكونية صرفة. في بعض الحالات نقوم فعلياً بالتعامل مع جماعاتنا على أنها مقدسة، ولن نخونها حتى لو تم التأكيد لنا بمكسب مادي كبير وسرية تامة مقابل خيانتنا.

[3] أنظر Dawkins 1999/1992، وانظر استخدام داوكنز لكلمة _هرطقة_ في Dicks 2000 .



في هذا الفصل سأناقش بأن الاصطفاء كان مُداناً على نحوٍ زائف وطرده بغير وجه حق. سأقدم خمسة أدلةٍ جديدة أعتقد أنها تبرّئ اصطفاء الجماعة (في بعض الصيغ لا جميعها) ويثبت هذا الدليل أنّ قيمة التفكير في الجماعات تكمنُ في عدّها كيانات حقيقية تتنافس فيما بينها. ويؤدي هذا الدليل بنا مباشرةً إلى المبدأ الثالث والأخير لعلم النفس الأخلاقي: *الأخلاق تجمع وتعمي*. سأقترح أنّ الطبيعة البشرية في الغالب أنانية، ولكن مع غطاء عصبوي ناجم عن حقيقةٍ مفادها أن الاصطفاء الطبيعي يؤدي وظيفته على مستويات متعددة بتزامنٍ. يتنافس الأفراد مع الأفراد، وذاك التنافس يكافئ أنانية ـ تتضمّنُ بعض صيغ التعاون الاستراتيجي (حتى المجرمون من الممكن أن يعملوا معاً ليعزّزوا مصالحهم الخاصة).[1] ولكنْ في الوقت ذاته، تتنافس الجماعات، وذاك التنافس يُفضّلُ جماعات مكوّنة من لاعبي فريق حقيقيّين ـ هؤلاء الذين لديهم استعداد للتعاون والعمل من أجل خير الجماعة، حتى عندما كان بإمكانهم الأداء الأفضل عن طريق التخاذل، أو الغش، أو الانسحاب من الجماعة.[2] لقد دفعت هاتان العمليّتان الطبيعة البشرية باتجاهاتٍ مختلفة وأعطتنا مزيجاً غريباً من الأنانية والأنانية التي نعرفها في يومنا الحاضر.

[1] يُدعى هذا *التشارك التبادلي* ـ عندما يتعاون حيوانان أو أكثر ويحصل كلٌّ منهم على بعض الفائدة من التفاعل. وهي ليست صيغةً من الغيرية ؛ وهي ليست لغزاً بالنسبة لنظرية الارتقاء. إنّ التشاركية التبادلية كانت بالغة الأهمية في الحقب المبكرة من تطورنزعة المجتمعية المفرطة للإنسانية؛ أنظر Baumard, Andre, and Sperber, unpublished; Tomasello et al., forthcoming.

[2] سأركّز على التعاون في هذا الفصل، أكثر من الغيرية. لكنّني مهتم إلى أبعد حدبالتعاون في هذه الأنواع من الحالات، لن يتعاون فيها الشخص الجلاوكوني المهتم حقّ الاهتمام بمصلحته الشخصية. قد ندعو بالتالي هذه الحالات المركز عليها "التعاونية الغيرية" للتمييز بينهم من نوع التعاون الاستراتيجي البالغ السهولة شرحه بواسطة عن طريق الاصطفاء الطبيعي الفاعل على مستوى الفرد.



القبائل المنتصرة

ها هنا مثالٌ على نوعٍ واحدٍ من اصطفاء الجماعة. في صفحاتٍ لافتةٍ للنظر من كتاب ((أصل الإنسان))، طرح داروين حالة اصطفاء المجموعة، وقدَّمَ اعتراضاً مبدئياً عليه، ومن ثمّ طرح اتفاقاً حول الاعتراض:

> عندما تصل قبيلتان من الإنسان البدائي، تعيشان في البلاد ذاتها، إلى المنافسة، في حال (كون الظروف الأخرى متساوية) القبيلة التي كانت تتضمّن عدداً كبيراً من الأعضاء الشجعان، والمتعاطفين، والأوفياء، الذين لديهم استعداد دائماً لتحذير [إخوتهم] من الخطر، ولمساعدة بعضهم والدفاع عنهم، *ستصيب هذه القبيلة نجاحاً أفضل وتستولي على القبيلة الأخرى*... إنّ الميزة التي يتفوّق بها الجنود المنضبطون على زمر غير منضبطة تنبعُ أساساً من الثقة التي يشعر بها كل فرد برفاقه... *فالأشخاص الأنانيون والمشاكسون لا يتماسكون، ومن دون تماسك لا يمكن إنجاز أيّ شيء. وسوف تنتشر القبيلة الغنية بالمزايا أعلاه وتنال الانتصار على القبائل الأخرى*.[1]

بدأت القبائل المتماسكة بتأدية وظيفتها مثل المتعضيات الأخرى، بالتنافس مع كياناتٍ أخرى. والقبائل التي كانت متماسكة ربحتْ على وجه العموم. وقام

[1] الجزء الأول، الفصل 4، ص 134؛ تمت إضافة التأكيد. لا يعتبر داوكين 2006 هذه على أنها حالة اصطفاء مجموعاتٍ حقيقية لأنّ داروين لا يتخيّل القبيلة تنمو ومن ثمّ تتشظّى إلى "قبائل بنات لها" بالطريقة التي تنقسم خليّة النحل إلى خلايا بنات لها. لكنْ إذا ما أضفنا ذاك التفصيل (وهو بشكلٍ نمطي حقيقي في مجتمعات الصيادين ــ لاقطي الثمار التي تميل إلى الانقسام عندما تتضخّم لتتجاوز 150 شخصاً راشداً)، ومن ثمّ هذا سوف يكون، بكل الاعتبارات، مثالاً لاصطفاء الجماعة. يدعو أوكاشا 2005 هذا النوع MLS-2، بالتقابل مع MLS-1، الذي يظن أنّه أكثر شيوعاً في عملية التحول الرئيسي المبكرة. وهناك الكثير حول ذلك أدناه.



الاصطفاء الطبيعي بوظيفته في القبائل بالطريقة ذاتها لدى كلّ واحدة من الكيانات الأخرى.

لكن في الفقرة الآتية، طرح داروين مشكلة الخارج عن السرب، وهي ما تزال الاعتراض الرئيسي المرفوع ضد اصطفاء الجماعة:

> لكنْ من الممكن السؤال، كيف يُصبحُ عددٌ كبيرٌ ضمن حدود القبيلة ذاتها أولاً ممنوحين هذه المزايا الاجتماعية والأخلاقية، وكيف كان مقياس الامتياز مطروحاً؟ *إن من المشكوك به إلى حدٍّ بعيد إذا ما كان نسل الآباء الأكثر تعاطفاً وسخاءً، أو الذين كانوا أكثر إخلاصاً لرفقائهم، سيتم مكافأتهم بأعداد أكبر من أطفال الآباء الأنانيين الغدّارين الذين ينتمون إلى القبيلة ذاتها*. فمن كان مستعداً للتضحية بحياته مثلما كان حال أيّ شخصٍ متوحش، أكثر من خيانة رفقائه، لن يتركَ في الغالب نسلاً لوراثة طبيعته النبيلة.[1]

التقط داروين المنطق الأساسي لما هو معروف حالياً باصطفاء متعدد المستويات.[2] الحياة هي هرمية من مستويات معزولة، مثل الدمى الروسية: الجينات ضمن الكروموسومات ضمن الخلايا ضمن المتعضيات ضمن القفيرات، والمجتمعات، والجماعات الأخرى. من الممكن أن تكون هناك منافسة على أيّ مستوى من الهرمية، ولكنْ من أجل غاياتنا (دراسة الأخلاق) المستويان الوحيدان اللذان ينطويان على أهمية هما المتعلّقان بالمتعضية [الكائن الحي] الفردية والجماعة. عندما تتنافس الجماعات، تربح عادةً الجماعة المتماسكة المتعاونة.

---

(1) *Descent of Man*, chapter 5, p. 135: تمت إضافة التأكيد. إنّ مشكلة الخارج عن السرب إنما هي فحسب اعتراض طرحه داوكنز ضد اصطفاء الجماعة في *The God Delusion*, chapter 5.

(2) Price 1972



ولكن داخل كل جماعة، يبرز الأفراد الأنانيون (الركاب الأحرار) في المقدمة. فهم يتشاركون في مكاسب مغانم الجماعة في حين أنهم يساهمون بالقليل جداً في جهودها. الجيش الأكثر شجاعةً، لكنْ ضمن الجيش الأكثر شجاعةً، الحشود القليلة التي تتخلّف عن الآخرين في الخلف هي أقرب من الجميع إلى النجاة بعد القتال، ويذهب [أفرادها] أحياءً إلى منزلهم، ويصبحون آباءً.

يشير الاصطفاء المتعدد المستويات إلى طريقةٍ لقياس كمية قوة ضغط الاصطفاء في كلّ مستوى، وهو يعني ما مدى القوة التي التي يفضّل بها تنافس الحياة الجينات بالنسبة إلى سماتٍ محددة.[1] يتم تفضيل جينة التضحية بالنفس الانتحارية من قبل مستوى اصطفاء الجماعة (سيساعد الفريق على الربح)، لكنّه سيتعرّض بقوةٍ لمقاومة الاصطفاء على المستوى الفردي لأنّ سمةً كهذه يمكن أن تتطوّر فحسب في أصناف من قبيل النحل، حيث التنافس ضمن الخلية قد تم تقريباً استبعاده وكل الاصطفاء تقريباً هو اصطفاء الجماعة.[2] إن النحل (والنمل والنمل الأبيض) هم لاعبوّ الفريق المطلقون: الفرد من أجل المجموع، والمجموع من أجل الفرد، طوال الوقت، حتى لو كان ذلك يعني الموت في سبيل

[1] لاحظ أنّ الفكرة القديمة بأن جيناتٍ كانت موجودة "من أجل" المزايا قد أصابت نجاحاً متواضعاً في عصر الخريطة الوراثية لا يوجد جيناتٍ فردية، أو حتى مجموعات من عشرات الجينات، تستطيع أن تشرح الكثير من التفاوت في أية سمةٍ نفسية. لكن نوعاً ما، تقريباً كلّ سمةٍ نفسية موروثة. سأتحدث في بعض الأحيان عن الجين "بمثابة" سمة، لكنّ هذا مجرّد ملاءمة. ما اعنيه حقاً هو أن الخريطة الوراثية بالمجمل يُشفّر سماتٍ محددة، ويغيّر الاصطفاء الطبيعي بحيث أنه يشفّر سماتٍ مختلفة.

[2] أؤكد أنّ اصطفاء الجماعة أو مستوى اصطفاء المستوطنة كما وصفته هنا متساوق مع نظرية تناسب شاملة (Hamilton 1964) ومع منظور "جينة الأنانية" لدى داوكنز. لكنّ الأشخاص الذين يتعاملون مع النحل، والنمل، والمخلوقات الأخرى ذات السوية الاجتماعية العالية، يقولون في بعض الأحيان أن الاصطفاء يساعدهم على رؤية ظواهر أقل ملاحظة عندما يتخذون رؤية العين للجينة ؛ أنظر Seeley 1997 .



حماية الخلية من الغزاة.[1] (من الممكن تحويل البشر إلى انتحاريي القنابل، لكنّ الأمر يتطلّب الكثير من التدريب، والضغط، والتلاعب النفسي. ولا يأتينا هذا الأمر فطرياً.)[2]

ما إن تمتعت الجماعات البشرية بقدرةٍ في حدّها الأدنى على الاتحاد في جماعة والتنافس مع الجماعات الأخرى، بعدئذ قام اصطفاء مستوى الجماعة بدوره فكان للجماعات الأكثر عصبوية ميزة على حساب جماعات مؤلفة من أفرادٍ أنانيين. ولكنْ من اين أتت تلك القدرات العصبوية في المقام الأول؟ طرح داروين سلسلةً من "الخطوات المحتملة" تطوّر البشر بها إلى حدٍّ كان من الممكن معه وجود جماعاتٍ من لاعبي الفريق في المقام الأول.

كانت الخطوة الأولى "الغرائز الاجتماعية". في الأزمنة القديمة، كان من المرجّح أن يُلتَقطَ المعزولون من قبل الحيولنات المفترسة اكثر من صغارهم القطيعيّين، الذين كانوا يشعرون بحاجة عارمة إلى البقاء ملتصقين بالجماعة. وكانت الخطوة الثانية هي التبادلية. كان من المرجّح أنَّ الأشخاص الذين ساعدوا الآخرين سيحصلون على المساعدة حين يكونون بأمس الحاجة إليها.

---

[1] أنا أبالغ بالتبسيط هنا؛ تتنوّع أصناف النحل، والنمل، والدبّور، والنمل الأبيض في الدرجة التي انجزت بها حالة المتعضيات [الكائنات الحية] المتفوقة. من النادر تقلبص المصلحة الشخصية إلى درجة الصفر، على وجه الخصوص عند النحل والدبور، التي تحتفظ بقدرة على التناسل في بعض الظروف: أنظر Holldobler and Wilson 2009

[2] أشكر ستيفن بينكر لإيضاح هذا الأمر لي في دراسة نقدية لنسخة أولية من هذا الفصل. لاحظ بينكر أن الحرب في مجتمعات ما قبل الدولة ليست أي شكلٍ يشبه صورتنا المعاصرة لرجال زاحفين للموت في سبيل قضية. هنالك الكثير من اتخاذ الوضعية، والكثير من السلوك الجلاوكوني الذي يحصل عندما يكافح المحاربون لتلميع سمعاتهم. الإرهاب الانتحاري فحسب نادراً ما يحصل في التاريخ الإنساني؛ أنظر Pape 2005، الذي يلاحظ أن حوادث كهذه تحدث تقريباً بشكلٍ حصري في مواضع حيث الجماعة تدافع عن وطنها المقدس ضد غزاةٍ غرباء ثقافياً. أنظر أيضاً Atran 2010 حول دور المثل المقدسة في الإرهاب الانتحاري.



لكنَّ "الحافز الأهم لتطوّر الفضائل الاجتماعية" كان حقيقةً مفادها انّ الناس مهتمّون عاطفياً ب "بمديح أخوتنا البشر أو لومهم."[1] شارك داروين(الذي كان يكتب في إنكلترا الفيكتورية) جلاوكون في وجهة نظره ([المنبثقة] من أثينا الأرستقراطية) بأن الناس مهووسون بسمعاتهم. اعتقد داروين أنَّ المشاعر التي تحرّض هذا الهوس تم الاستحواذ عليها عن طريق الاصطفاء الطبيعي الفعّال على مستوى الفرد: هؤلاء الذين افتقدوا الإحساس بالعار أو الحب أو المجد كانوا من المستبعد أن يجتذبوا الأصدقاء والأصحاب. كما أضاف داروين خطوةً نهائية: رأى القدرة على معالجة الواجبات والمباديء بوصفها مقدسة، جزءاً من طبيعتنا الدينية.

عندما تَجمعُ هذه الخطوات إلى بعضها، فهي تأخذك في طريق تطوّري من الثدييات الراقية إلى البشر، الذين لم يعد الخروج عن السرب على قدرٍ كبير من الجاذبية بالنِّسبة إليهم. في جيشٍ حقيقيَ، يقدس الشرف، والولاء، والبلاد، أليس الجبان هو الأكثر ترجيحاً في العودة سالماً إلى المنزل ليصبح أباً لأولاد. فهو الأكثر أرجحية في التعرض للضرب، والترك في الخلف، أو إطلاق النار عليه في الظهر لإقدامه على تدنيس المقدّسات. وإذا ما كُتِبَ له الرجوع سالماً إلى دياره، ستُنَفِّرُ سمعته النساء وأرباب العمل المحتملين.[2] الجيوش الحقيقية، مثل معظم الجماعات الفعالة، تتمتّع بطرق لقمع الأنانية. وفي أيّ وقتٍ تجد جماعةٌ طريقاً إلى قمع الأنانية، تقوم بتغيير ميزان القوى في تحليلٍ متعدد المستويات: ويصبح الاصطفاء على المستوى الفردي أقلّ أهميّةً، ويصبح الاصطفاء على مستوى الجماعة أقوى. على سبيل المثال، إذا ما كان هنالك أساسٌ جيني لمشاعر الولاء والقداسة (أي أسس الولاء والقداسة)، ومن ثمّ سيجعل التنافس الشديد داخل الجماعة هذه الجينات تصبح أكثر شيوعاً في الجيل القائم. والسبب هو أنّ الجماعات التي تكون فيها هذه السمات شائعة ستحل محل الجماعات التي

---

[1] *Descent of Man*, Chapter 5, p. 135

[2] أنظر على وجه الخصوص Miller 2007، حول كيف ساهم الاصطفاء الجنسي في تطوّر الأخلاق. ويبذلُ الناس كلَّ جهدٍ مستطاع لإعلان فضائلهم للأزواج المحتملين.



تكون فيها نادرة، حتى لو أنّ هذه الجينات تفرض ثمناً ضئيلاً على حامليها (بالتناسب مع أولئك الذين يفتقدون إليها ضمن كلّ مجموعة).

في ما قد يكون المقولة الأكثر بلاغةً وتبصّراً في تاريخ علم النفس الأخلاقي، قام داروين بتلخيص الأصل التطوّري للأخلاق بهذه الطريقة:

> جوهرياً يصبح إحساسنا أو وجداننا الأخلاقي عاطفة بالغة التعقيد ـ تنشأ في الغرائز الاجتماعية، التي يقودها إلى حدّ كبير استحسان رفقائنا البشر، ويتحكّم بها العقل، والمصلحة الشخصية، وفي أزمنةٍ لاحقة المشاعر الدينية العميقة، يتمّ تثبيتها بواسطة الإرشاد والعادة.[1]

لقد نالت استجابة داروين لمشكلة الخارجين عن السرب رضا القراء طوال مائة عامٍ تقريباً، وأصبح اصطفاء الجماعة جزءاً قياسياً من التفكير الارتقائي. لسوء الحظ، لم يهتمّ معظم الكتّاب بالاستنباط كيف حلّ كلّ صنفٍ مشكلة الخروج عن السرب بالضبط، مثلما كان داروين قد فعل بالنسبة إلى بني البشر. لقد توالدت الادعاءات بأنّ الحيوانات تتصرّف "لمصلحة الجماعة" ـ على سبيل المثال، الادعاء بأن أفراد الحيوانات تقيّد رعيها أو تناسلها بحيث لا تُعرِّضُ الجماعة لخطر الجور في استغلال مؤنها الغذائية. كما تمّ طرح ادعاءات أكثر غطرسة بشأن حيواناتٍ تعمل من أجل صالح الأصناف، أو حتى النظام البيئي.[2] كانت هذه الادعاءات ساذجةً لأنّ الأفراد الذين اتّبعوا استراتيجية غيرأنانية سيتركون أبناءً باقين على قيد الحياة وسرعان ما سيتم استبدالهم في السكان بالمتحدّرين من أسلاف الخارجين عن السرب.

في عام 1966، تم إيقاف هذا التفكير المتفلّت، إضافةً إلى التفكير بشأن اصطفاء الجماعة إجمالاً.

---

(1) *Descent of Man*, Part I, chapter 5, p. 137. أنظر Richardson and Boyd 2004، الذي يوضح الحالة بأن داروين كان بشكلٍ أساسي على صواب.

(2) Wynne –Edwards 1962



قطيع غزلان سريع؟

في عام 1955، حضر عالم أحياء شاب يُدعى جورج وليامزمحاضرةً في جامعة شيكاجو يلقيها مختصّ في النمل الأبيض. ادّعى المتحدث أنَّ الكثير من الحيوانات متعاونة وتقدم المساعدة، مثل النمل الأبيض تماما. لقد قال إنّ العمر المتقدّم والموت هما الطريقة التي تقوم بها الطبيعة بإفساح المجال لأعضاء أكثر شباباً وجدارةً لكلّ صنف. لكنّ ويليامز كان ضليعاً في علم الجينات والارتقاء، وكان قد أصيب بالنفور من جراء تهافت المتحدث البانجلوسي*. لقد ارتأى أن الحيوانات لن تقدم على الموت لفائدة الآخرين، باستثناء ظروفٍ خاصة مثل تلك التي تسود في عش النمل الأبيض (حيث الجميع أخوات). وشرع في تأليف كتابٍ "سيطهّر علم الأحياء" من التفكير الصبياني مرّةً وإلى الأبد.[1]

في كتاب ((التكيّف والاصطفاء الطبيعي)) (الصادر عام 1966)، أخبر ويليامز علماء الأحياء كيف يفكّرون بوضوحٍ في التكيّف. لقد شاهد الاصطفاء الطبيعي على أنّه عملية تصميم. ولا يوجد مصممٌ واعٍ أو ذكيّ، لكنّ ويليامز وجد لغة التصميم مفيدةً رغم ذلك.[2] على سبيل المثال، من الممكن فهم الأجنحة على أنها آليّاتٌ مصممة لإنتاج الطيران فحسب. ولاحظ وليامز أنّ التكيّف في مستوىً محددٍ يفيد دائماً وعلى نحوٍ ضمني عمليّةً (تصميم) اصطفاء تقوم بوظيفتها على ذلك المستوى، وحذّر القراء من عدم النظر إلى المستويات الأعلى (مثل الجماعات) حيث من الممكن أن تشرح تأثيرات الاصطفاء على مستوياتٍ أدنى (مثل الأفراد) السمة على نحوٍ تام.

لقد عمل من خلال مثال سرعة الجري عند الغزال. عندما يجري غزال في قطيع، نلاحظ قطيعاً من الغزلان السريعة، تتحرّك كوحدةٍ متكاملة وفي بعض

* مفرط في التفاؤل دون مبرر مقنع – [قاموس Webster's على الشبكة العنكبوتية]

(1) Williams 1966, p.4

(2) Williams (ibid., pp. 8 -9) قام وليامز بتعريف التكيّف على أنه آليّةٌ بيولوجية تنتج على الأقل تأثيراً واحداً من الممكن تسميته هدفاً.



الأحيان تغيّر المسار كوحدة. من الممكن أن نُغري بشرح سلوك القطيع عبرالاستغاثة باصطفاء الجماعة: على مدى ملايين السنين، نجت القطعان الأسرع من الضواري، وهكذا بمرور الوقت استبدلت القطعان الأسرع القطعان الأبطأ. لكنّ ويليامز أوضح أن [صنف] الغزال كان مصمماً على نحوٍ بالغ الإتقان *كأفراد* للهروب من الضواري. لقد قامت عملية الاصطفاء بعملها على مستوى الأفراد: الغزلان الأبطأ تتعرّض للالتهام، بينما أولاد عمّهم الأسرع *في القطيع ذاته* نجوا. ما من حاجة إلى استحضار الاصطفاء على مستوى القطيع. فقطيع سريعٌ من الغزلان لا يعدو كونه قطيعاً من الغزلان السريعة.[1]

كما قدّم ويليامز مثالاً عما هو مطلوب لإرغامنا على تحليل على مستوى الجماعة: آلياتٌ سلوكية كان هدفها أو وظيفتها بوضوحٍ حماية *الجماعة*، أكثر من الفرد. إذا ما كانت غزلانٌ ذات أحاسيس مرهفة على وجه الخصوص قامت بمهمة الحراس، بينما العدّاؤون الأسرع في القطيع حاولوا استدراج الضواري بعيداً عن القطيع، فكان لدينا الدليل على تكيّفات متعلّقة بالجماعة، وحسبما عبّر عنها ويليامز، "يمكننا إنجاز شرحٍ علميٍّ لحالات التكيّف المتعلقة بالجماعة بواسطة نظرية الاصطفاء بين الجماعات فقط."[2]

قال ويليامز إنّ اصطفاء الجماعة كان ممكناً من حيث النظرية. لكنّه كرّس معظم كتابه لتثبيت أطروحته أنّ "حالات التكيّف المتعلّقة بالجماعة لا وجود لها في الحقيقة."[3] وقدّم أمثلةً عابرة لمملكة الحيوان، مظهراً في كلّ حالة أن ما يشبه الغيرية أو التضحية لعالم أحياء ساذج (مثل المختص في النمل الأبيض) يتبيّن أنّه إما الأنانية الفردية أو اصطفاء الأقارب (عندما تكون الأفعال المكلفة ذات مغزى لأنها تفيد النسخ الأخرى للجينات ذاتها متعلّقة تعلُّقاً لصيقاً بالأفراد،

---

(1) كتبَ ويليامز حول "قطيعٍ سريعٍ من الغزلان،" لكنني قمت باستبدالكلمة سريع بكلمة أقل شيوعاً رشيق.

(2) Williams 1966, pp. 92-93

(3) Ibid., p. 93



حسبما يحدث مع النمل الأبيض). وقد فعل ريتشارد داوكنز الشيء ذاته في كتابه الأكثر شعبية عام 1976 ((الجينة الأنانية))، مسلّماً أنّ اصطفاء الجماعة ممكن ، ولكن فيما بعد فضحت حالات ظاهرة زيف حالات التكيّف المتعلقة بالجماعة. بحلول نهاية فترة السبعينات كان هنالك إجماعٌ قويٌّ إلى درجة أنّ أيّ شخص قال إن سلوكاً حصل "من أجل صالح الجماعة" كان أحمقَ من الممكن تجاهله بأمان.

ننظر في بعض الأحيان إلى الوراء في فترة السبعينات على أنها "عقد أنا." لقد تمّ تطبيق المصطلح على نمو نزعة الفردية في المجتمع الأمريكي، لكنّه يصف مجموعةً عريضةً من التغييرات في العلوم الاجتماعية كذلك الأمر. لقد انتشرت فكرة الإنسان الاقتصادي في كل مكان. في علم النفس الاجتماعي، على سبيل المثال، الشرح الرئيس للعدالة (المعروفه ب "نظرية التساوي") كان مؤسساً على أربع بديهيات، أولها كان "أفرادٌ سيحاولون تضخيم نتائجهم." ولاحظ المؤلفون بعد ذلك أنه "حتى أكثر العلماء مشاكسةً سيجدون من صعوبة في تحدي أول افتراضٍ لنا. ترتكز نظريّاتٌ في تنوّعٍ واسعٍ من الاختصاصات على الافتراض بأنّ "الإنسان أناني."[1] وكان لا بدّ من شرح كل أفعال الغيرية، والتعاون، وحتى العدالة البسيطة الجليّة، في الخاتمة، على أنها صيغة مموّهة من المصلحة الشخصية.[2]

بالطبع، الحياة الواقعية حافلة بحالات تنتهك البديهية. فالناس يتركون بقشيشاً في مطاعم لن يعودوا إليها؛ ويتبرّعون لا على التعيين إلى جمعيّات خيرية؛

(1) Walster and Berscheid 1978, p. 6

(2) أوافق على أن الجينات دائماً "أنانية،" وكل أطراف هذه الجدالات توافق بأن الجينات الأنانية من الممكن أن تصنع أشخاصاً كرماءً استراتيجيّاً. والجدال إنما هو حول إن كانت الطبيعة البشرية تتضمّن أية آليات عقلية تجعل الناس يضعون مصلحة [خير] الجماعة قبل مصالحهم، وإن كان الأمر كذلك، إن كانت آليات كهذه تُعدّ حالات تكيّف على مستوى الجماعات.



وفي بعض الأحيان يغرقون بعد القفز إلى الأنهار لإنقاذ أطفال لا يخصّونهم. لا مشكلة، يقول الساخرون: هذه كبَوات فحسب من الأنظمة القديمة المصممة من أجل الحياة في جماعاتٍ صغيرة للعصر الحديث الأقرب [البلوستيسني]، حين كان معظم الناس أقارباً.[1] في الوقت الراهن ونحن نعيش في مجتمعاتٍ كبيرة مجهولة، تقودنا داراتٌ قديمة أنانية على نحوٍ خاطيء إلى مساعدة الغرباء الذين لن يساعدوننا بالمقابل. إنّ "خصائصنا الأخلاقية" ليست حالات تكيّف، حسبما كان داروين يعتقد. هي نتاجاتٌ جانبية؛ وهي أخطاء. ولقد قال ويليامز أنَّ الأخلاق هي "قابلية عابرة تمّ إنتاجها، في غبائها اللامحدود، بواسطة عمليّاتٍ بيولوجية مقاومة – اعتيادياً – للتعبير عن مقدرةٍ كهذه."[2] واشترك داوكنز في هذه السخرية: "لنحاولْ تدريس السخاء والغيرية لأننا نولد أنانيين."[3]

أنا لا أوافق. إنّ البشر هم زرافات الغيريّة. نحن نوع واحد من المخلوقات الغريبة للطبيعة الذين يمكن أن يكونوا بين الفينة والفينة - حتى لو كان نادراً - منكرين للذات وذوي روح الفريق مثل النحل.[4] إذا كان مثلك الأخلاقي الإنسا

---

(1) يتبيّن أنّ هذا الأمر صحيح. في عمليّةٍ مسحٍ لثلاثين مجتمعاً صيداً–لاقط ثمار، Hill wt al. 2011 وجد هيل أنه في حالة كلّ فردٍ مستهدف، فقط حوالي 10 بالمائة من رفقائه او رفقائها من الجماعة كانوا لصيقين مقرّبين. الأغلبية لم يكونوا أقارباً بالدم. وكان معامل هاميلتون لصلة القرابة الجينية لدى شعب الآتشي [شعب هندي في *أمريكا الجنوبية، موطنه شرق الباراجواي ـ المترجم*] مجرّد 0540 . . هذه مشكلة النظريات التي تحاول شرح التعاون الإنساني عن طريق اصطفاء الأقارب.

(2) Williams 1988, p. 438

(3) Dawkins 1976, p. 3 . في مقدمته للذكرى الثلاثين للطبعة، يأسف داوكنز على اختياره للكلمات، لأنّ الجينات الأنانية تستطيع أنْ وتقوم فعلاً بالتعاون مع بعضها، ويستطيعون ويصنعون فعلياً الآليات متعددة الوظائف على شكلٍ أناس يستطيعون التعاون مع بعضهم. لكنّ آراءه الراهنة ما تزال تبدو متنافرة مع نوعٍ العصبوية وروحيّة الفريق التي أصفها في هذا الفصل والذي يليه.

(4) قبل زمن طويلٍ أفاد الاختصاصيون بالثدييات الراقية عن أفعالٍ تظهر على أنها غيرية أثناء ملاحظاتهم لتفاعلات غير منضبطة في أصناف الثدييات الراقية، لكن حتى وقتٍ



نة التي تكرّس حياتها لمساعدة الغرباء، حسناً إذن، أوكي ـ أشخاصٌ كهؤلاء نادرون لدرجة أننا نرسل طواقم تلفزيونية لالتقاط تسجيلات لهم من أجل أخبار المساء. ولكنْ إذا ما ركّزت، مثلما فعل داروين، على السلوك في *جماعات* البشر الذين يعرف بعضُهم بعضاً ويشتركون في الأهداف والقيم، [فيغدو كل من] قدرتنا على العمل معاً، وتقسيم العمل، ومساعدة بعضنا لبعضنا الآخر ، وتأدية الوظيفة كفريق منتشرٍ انتشاراً منظّماً حتى أننا لا نلاحظه. ولن نجد عنواناً مفاده "أربعون طالب كليّة لا قرابة بينهم يعملون معاً بتتعاونٍ، دون مقابل مادي، تحضيراً لليلة افتتاح مسرحيّة ((روميو وجولييت))."

عندما طرح ويليامز مثاله المتخيّل لتقسيم العمل عند الغزلان والعمل معاً لحماية القطيع، ألم يكن واضحاً أنّ الجماعات البشرية تفعل الشيء ذاته تماماً؟ بموجب معياره الخاص، إذا ما نظم الناس أنفسهم برغبة في جماعاتٍ تعاونية ذات تقسيمٍ للعمل، ومن ثمّ فإنَّ هذه القدرة هي مرشّحٌ ممتاز لكونه تكيّفاً على علاقة بالجماعة. حسب تعبير ويليامز: " بواسطة الانتقاء بين الجماعات فقط يمكننا إنجاز شرحٍ حالات تكيّف على علاقة بالجماعات."

لقد فعّلتْ هجمات 11/9 عدة حالات من التكيّف متعلّقة بالجماعة في عقلي. حوّلتني الهجمات إلى لاعب فريق، مع دافع قويّ وغير متوقع لعرض علم فريقي ومن ثمّ القيام بأشياء لدعم الفريق، من قبيل منح الدم، والتبرّع بالمال، ونعم، دعم

متأخرٍما من أحد كان قادراً على إظهار الغيرية في بيئةٍ مختبرٍ تحت السيطرة عند قرود الشمبانزي. في الوقت الحاضر توجد دراسة (Horner et al. 2011) واحدة تظهر أنّ قرود الشمبانزي ستتبنى الخيار الذي يعود بفائدة كبيرة على شريك دون تكلفة من حسابهم. إنّ قرود الشمبانزي مدركة أنها تستطيع إنتاج الفائدة، وهي تختار القيام بذلك. لكن لأن هذا الخيار لا يفرض تكلفة على القائم بالاختيار، فقد أخفق أنْ يلبّي تعاريف الغيرية. أصدّق النوادر القصيرة حول غيريّة قرود الشمبانزي، لكنني أتمسك بادعائي أنّ البشر "زرافات" الغيرية. وحتى لو كانت قرود الشمبانزي والثدييات الراقية الأخرى تؤدي القليل منها، فنحن أكثر إقداماً عليها إلى درجة هائلة.



الـزعيم.[1] وكانـت استجابتي فـاترة مقارنـةً مـع مئـات الأمريكـان الـذين ركـبـوا سيّاراتهم في فترة العصر تلك وقادوها مسافرين مسافاتٍ كبيرة إلى نيويورك في أملٍ واهٍ بأنهم يستطيعون المساعدة في انتشال أشخاصٍ ناجين من تحت الأنقاض، أو آلاف الأشخاص الذين تطوّعوا للخدمة العسكرية في الأسابيع اللاحقة. هل كان أولئك الناس يتصرفون بدوافع أنانية، أم بدوافعٍ عصبوية؟

رد الفعل الانعكاسي المتلخّص بالالتفاف حول العلم هو مثالٌ عن الآلية العصبوية.[2] هي على وجه التحديد نوع من الآلية تتوقع العثور عليها إذا ما كنّا نحن البشر تم تكويننا بواسطة اصطفاء الجماعة بالطريقة التي وصفها داروين. لا يمكنني أن أكون متأكداً، من جانبٍ آخر، أن هذا الفعل المنعكس حقاً تطوّر من جرّاء الاصطفاء على مستوى الجماعة. إنّ اصطفاء الجماعة مثار جدلٍ بين خبراء نظرية الارتقاء، والذين يتفق معظمهم مع ويليامز على أن اصطفاء المجموعة لم يحدثْ فعلياً بين البشر. فهم يظنّون أنّ أيَّ شيءٍ يبدو أشبه بتكيّف متعلّقٍ بالجماعة سوف ـ أذا ما نظرت إلى الأمر عن كثب ـ يتبيّن أنّه حالة تكيّف لمساعدة الأفراد كي يتفوّقوا على جيرانٍ لهم ضمن المجموعة نفسها، وليس التكيّف لمساعدة الجماعات كي تتفوّق على الجماعات الأخرى.

---

[1] لم أفضّل جورج بوش في أيّة مرحلة أثناء فترة رئاسته، لكن فعلاً وثقت برده القوي على الهجمات، بما فيه غزو الولايات المتحدة لأفغانستان، كان الرد الصحيح [*حتى الليبراليين الأمريكيين لا يجدون غضاضةً في غزو البلدان الأخرى ـ المترجم*]. بالطبع يستطيع القادة استغلال استجابة التجمع حول العلم لأهدافهم الخاصة، حسبما يعتقد الناس ما قد حدث مع غزو العراق اللاحق. أنظر Clarke 2004 .

[2] لا يتطلّب رد الفعل الانعكاسي علماً؛ فهو يشير إلى رد الفعل الانعكاسي للتجمّع وإظهارعلائم التضامن العصبوي استجابة لتهديد خارجي. للاطّلاع على مراجعات حول الكتابات النظرية بشأن هذا التأثير، أنظر Dion 1979; Kesebir ، تُنشَرُ لاحقاً.



قبل أن نستطيع مواصلة استكشافنا للأخلاق، والسياسة، والدين، لا بدّ لنا من معالجة هذه المشكلة. وإذا ما كان الخبراء منقسمين، لم نقف إلى جانب أولئك الذين يظنون بأن الأخلاق (في جزءٍ منها) تكيّف متعلّق بالجماعة؟[1]

في الأجزاء الآتية سأقدم لكم أربعة أسباب. وسأُظهر لكم أربعَ "صور معروضة" في دفاعي عن الاصطفاء المتعدد المستويات (الذي يتضمن اصطفاء الجماعة). لكنّ هدفي هنا ليس بناء قضيّة قانونية فحسب في معركة أكاديمية قد لا تعنيكم. إنّ هدفي هو أن أظهر لكم أنّ الأخلاق بمثابة مفتاحٍ لفهم الإنسانية. سآخذكم في جولةٍ مختصرة حول أصول الإنسانية التي سنرى فيها كيف ساعدتنا العصبوية. وسوف أظهر أن عصبويتنا ـ رغم كل الأشياء الشنيعة والقبلية تجعلنا نفعلها ـ هي واحدة من المكوّنات التي جعلت من الممكن لحضارتنا أن تبرز للعيان، وتغطي الأرض، ومن ثمّ العيش بسلام على الدوام في غضون ألوف قليلة من الأعوام.[2]

---

[1] المتحدثون الرئيسيون لوجهة النظر هذه هم دايفيد سلون ويلسون، إيليوت سوبر، إدوارد أو. ويلسون، ومايكل ويد. فيما يتعلّق بالمراجعات التقنية، أنظرْ Sober and D. S. Wilson 1998P D. S. Wilson and E. O. Wilson 2007 . للاطّلاع على مقدمة متاح الوصول إليها، أنظر D. S. Wilson and E. O. Wilson 2008 .

[2] إنّ العنصرية، والإبادة الجماعية، والعمليات والتفجيرات الانتحارية تجلياتٌ للعصبوية. فهي ليست أشياء يفعلها الناس من أجل التفوق في المنافسة مع أقرانهم المحليين؛ هي أشياءٌ يفعلها الناس لمساعدة جماعاتهم في التفوق في المنافسة على الجماعات الأخرى. وللاطّلاع على الدليل بأنّ معدلات العنف هي إلى حدّ كبير أدنى في المجتمعات المتحضّرة أكثر منها لدى مجتمعات الصيادين ـ قاطفي الثمار، أنظر Pinker 2011 . يشرح بينكر كيف أن الدول القوية بشكلٍ متزايد إضافةً إلى انتشار الرأسمالية قد أديا إلى تناقص مطّرد في مستويات العنف، حتى عندما عندما تضمّن الحروب والإبادات في القرن العشرين. (النزعة ليست خطيّة بشكلٍ تام ـ من الممكن لأمم فردية أن تجرّب بعض التردي. لكن النزعة الإجمالية للعنف في حالة تدنٍ مطّرد.)



عرض صوراً: تحوّلات رئيسة في التطوّر

افترض أنّك دخلت سباقاً للزوارق. انطلقَ مئةٌ من المجذّفين، كلّ منهم في زورق ذي مجذافين، في سباقٍ مسافته عشرة أميال على طول نهرٍ عريضٍ بطيء الجريان. وأوّل من يقطع خط النهاية سيربح 10000 $. في منتصف السباق، أنت في المقدمة. لكن بعد ذلك، من حيث لا تَحتسبْ، تمّ تخطّيك من قبل زورقٍ فيه مجذّفان، كلّ منهما يجذّف بمجذافٍ واحد. لا عدالة! انضمّ مجذّفان مع بعضهما في زورق واحد! ومن ثمّ، وما هو أكثر غرابةً، تقوم بالمراقبة إذ يتمّ تخطّي زورق التجذيف من قِبَل سلسلة من ثلاثة قوارب من هذا النوع، كلّها مربوطة إلى بعضها لتشكيل زورقٍ صغير طويل. والمجذّفون عبارة عن سبعة عناصر متطابقة. يجذّف ستة منهم بتناغمٍ تام بينما السابع هو موجه الدفة، يقوم بتوجيه الزورق ويملي الإيقاع على المجذّفين. لكنّ أولئك الغشاشين يتمّ حرمانهم من النصر تماماً قبل عبورهم خط النهاية، لأنهم بدورهم يتم تخطّيهم على يد جماعة مغامرة مؤلفة من أربع وعشرين أختاً قمن باستئجار زورق يعمل بمحرك.يتبيّن أنّ ما من قواعد لهذا السباق فيما يتعلّق بأية أنواع من العربات يُسمَحُ بها.

كان ذاك ملخّصاً مجازيّاً لتاريخ الحياة على الأرض. طوال المليار الأول أو ما شابه من الأعوام، وكانت المتعضيات الوحيدة خلايا بروكاريوتيكية (من قبيل الباكتيريا). كلّ منها كانت عملية على انفراد، تتنافس مع الآخرين وتعيد إنتاج نسخٍ عن ذاتها.

لكن بعدئذٍ، وقبل حوالي ملياري عامٍ مضت، انضم نوعا باكتيريا إلى بعضهما نوعاً ما داخل غشاءٍ نباتي [حيواني]، والذي يشرح لماذا تمتعت متعضّيات الميتوكوندريا ب DNA خاص بها، لا علاقة لها بالـ DNA في النويّة.[1] هذان هما الشخصان في زورق التجديف في مثالي. ومن الممكن للخلايا التي تتميّز

(1) Margulis 1970 . في الخلايا النباتية، الحبيبات اليخضورية لديها أيضاً DNA خاصة بها.



بأورجانيلاّت [وحدات بنيوية وظيفية] داخلية أن تتمتّع بفوائد التعاون وتقسيم العمل (أنظر Adam Smith). لم تعد هنالك أيّة منافسة بين هذه الأورجانيلاّت [الوحدات البنيوية الوظيفية]، إذ يمكنها إعادة الإنتاج عندما يتم إعادة إنتاج الخلية برمتها فقط، وهكذا كان "واحد من أجل الجميع، والجميع من أجل واحد." لقد مرّت الحياة على سطح الأرض بما يدعوه خبراء علم الأحياء "تحوّل جذري."[1] تواصل الاصطفاء الطبيعي مثلما سبق له أن فعل على الدوام، ولكنْ في الوقت الحاضر كان هنالك جذرياً نوع جديدٌ من المخلوقات يتمُ اصطفاؤه. كان هنالك نوعٌ جديدٌ من *العربة* التي يمكن بواسطتها أن تنسخ الجينات الأنانية نفسها. ولقد كانت اليوكاريوتات أحادية الخلية ناجحةً على نحوٍ مفرط منشرة عبر المحيطات.

بعد مائة مليون عام فيما بعد، طوّرت بعض هذه اليوكاريوتات تكيّفاً جديداً: بقيت مجتمعةً بعد انقسام الخلية لتشكيل متعضيات متعددة الخلايا فيها تحتوي كلّ خلية على الجينات ذاتها. وهذه هي أخوة القوارب الثلاثة ذات الطاقم المؤلف من سبعة عناصر في مثالي. مرةً أخرى، يتم كبح التنافس (لأنَّ كلّ خلية لا تستطيع فقط إعادة الإنتاج إلا إذا أعادت المتعضية الإنتاج، من خلال خلايا نطفها أو بيوضها). لقد أصبحت مجموعة من الخلايا فرداً، قادراً على تقسيم العمل بين الخلايا (التي تحولت إلى أطرافٍ وأعضاء). ويبرز نوعٌ جديدٌ من العربة القوية، وفي مدة زمنية قصيرة من الزمن تتم تغطية الدنيا بالنباتات، والحيوانات، والفطريات.[2] وهذا تحوّلٌ رئيسٌ آخر.

---

[1] Maynard Smith and Szthmary 1997; Bourke 2011

[2] هنالك سقطة هامة في قياس "سباق زوارقي": الآليات متعددة الوظائف الجديدة لا "تربح" السباق فعلياً. البروكاريوتات ما تزال البكتريا البروكاريوتية ناجحةً تماما؛ وهي ما تزال تمثّل معظم الحياة فوق الأرض بواسطة الوزن والعدد. لكن رغم ذلك، تبدو الآليات متعددة الوظائف الجديدة أنها قادمة من علم الغيب ومن ثم تستحق جزءاً ملموساً من طاقة الأرض البيولوجية المتوفرة.



إنّ التحوّلات الرئيسة نادرة. يحصي كلٌّ من علماء الأحياء جون ماينارد سميث يورس سذثماري ثمانية أمثلة واضحة فقط طوال أربعة المليارات المنصرمة من السنوات (وآخرها هو المجتمعات الإنسانية).[1] لكنّ هذه التحوّلات من بين أهم الأحداث في تاريخ علم الأحياء، وهي أمثلةٌ للاصطفاء متعدد المستويات في حالة فاعلية. إنّها القصة ذاتها مراراً وتكراراً: وفي كلّ وقتٍ توجد طريقة لكبح الخروج عن السرب كبحاً تستطيع معه الوحدات الفردية التعاون، والعمل كفريق، وتقسيم العمل، يصبح الاصطفاء في المستوى الأدنى أقل أهمية، ويصبح الاصطفاء على المستوى الأعلى أكثر أهمية، ويفضّل اصطفاء المستوى الأعلى المتعضيات المتفوقة المتماسكة.[2] (المتعضية المتفوقة هي متعضّية مؤلفة من متعضيات أصغر.) وإذ تتكاثر هذه المتعضيات المتفوّقة، تبدأ التنافس مع بعضها، لكي تتطوّر إلى نجاحٍ أكبر في تلك المنافسة. وهذه المنافسة ما بين المتعضيات المتفوقة هي صيغة واحدة من اصطفاء الجماعة.[3]

---

[1] يعزو ماينارد سميث وسزاثماري التحوّل الإنساني إلى اللغة، ويقترحان أنّ التحوّل حدث حوالي 40000 عاماً مضت. يقدم بورك 2011 مناقشة محدّثة. ويقوم بتعريف ستة أنواع من التحولات، ويلاحظ أن العديد منها قد حدث عشرات المرات بشكلٍ منفصل، والمثال تحوّل إلى النزعة الاجتماعية الحسنة.

[2] Holldobler and Wilson 2009 . الكثير من المنظّرين يفضّلون مصطلحات خلافاً المتعضّية [الكائن الحي] المتفوقة. Bourke 2011 ، على سبيل المثال، يدعوها ببساطة "الأفراد."

[3] Okasha 2006 يدعو أوكاشا 2006 هذا الأمر MLS-2. سأدعوه *الاصطفاء بين الجماعات المستقرة* مقابل MLS-1 ، الذي سأدعوه *الاصطفاء ما بين الجماعات المتحوّلة* . وهذا تمييز حاذق وهو مفصليّ في النقاشات بين المختصّين الذين يتجادلون فيما إذا كان اصطفاء الجماعة قد حصل. من البراعة البالغة شرح النص الرئيسي، لكنّ الفكرة العامة هي: فيما يتعلّق بالاصطفاء ما بين الجماعات المستقرة، نركز على الجماعة باعتبارها كينونة، ونتابع تناسبها وهي تتنافس مع الجماعات الأخرى. ولكي يكون هذا الاصطفاء ذا أهمية، على الجماعات الإبقاء على حدود فاصلة مع درجةٍ عالية من العلائقية الجينية داخل كل جماعة على مدى كثيرٍ من الأجيال. لا تقوم جماعات الصيادين- لاقطي الثمار كما نعرفها اليوم بذلك: يأتي الأفراد ويذهبون، من خلال



هناك تنوّعٌ وسط الجماعات، والجماعات الأجدر تقوم بنقل سماتها إلى الأجيال المستقبلية للجماعات.

قد تكون التحوّلات الكبيرة نادرة، لكنها عندما تحدث، تتغيّر الأرض في الغالب.[1] أنظر فحسب إلى ما حدث قبل أكثر من مئة مليون عام خلت عندما

الزواج أو لأسباب أخرى. (رغم ذلك، حسبما أوضح أدناه، أنّ طرق الصيادين- لاقطي الثمار الراهنة لا يمكن اتخاذها على أنها الطرق التي عاش بها أسلافنا قبل 100،000، أو حتى 30000 عاماً مضت.) بالمقابل، بالنسبة للاصطفاء بين الجماعات المتحولة للتأثير على تواتر الجينات، كل ما تدعو الحاجة إليه هو أنّ البيئة الاجتماعية من الممكن أن تتكوّن من أنواع تعددية من الجماعات التي تتنافس فيما بينها، ربما فحسب طوال أيامٍ أو شهورٍ قليلة. ونحن نركّز ليس فقط على تناسب الجماعات، لكن حول تلازم الأفراد الذين إما يتمتعون، أو يفتقدون، إلى حالات تكيّف متعلقة بالجماعة. الأفراد الذين تحتوي عقولهم على حالات تكيّف مؤثّرة على علاقة بالجماعة ينتهي الأمر بهم إلى اللعب على ربح الفريق بشكلٍ أكثر تكراراً ـ على الأقل إذا ما كانت بنية السكان نوعاً ما كثيرة الكتل أو متفاوتة الأجزاء، بحيث أنّ الأفراد العصبويين يتمتعون بأرجحية فرصة أفضل في إيجاد ذواتهم ضمن الفريق ذاته. يقول بعض النقاد بأن هذا ليس اصطفاء جماعة "حقيقي"، أو ذاك الذي ينتهي بكونه الشيء ذاته على انه اصطفاء على المستوى الفردي، لكنّ أوكاشا لا يوافق. وهو يوضح أن الاصطفاء ما بين الجماعات المتحولة يحدث مبكراً في عمليّة تحوّلٍ رئيسية، وتؤدي إلى حالات تكيّف تزيد التماسك وتكبح الخروج عن السرب، وهو ما يفسح المجال فيما بعد للاصطفاء بين الجماعات المستقرة لكيّ تقوم بوظيفتها في المراحل اللاحقة من التحوّل الكبير. ولقد قدّم بعض الأشخاص الدليل على أن بني البشر متوقفون في منتصف عملية التحوّل الكبيرة (Stearns 2007). أظن أن الطريقة الأخرى لقول ذلك فنحن 90 بالمائة قرود شمبانزي و10 بالمائة نحل. للاطلاع على شرحٍ كاملٍ ل MLS-1 وMLS-2، أنظر Okasha 2006 chapters 2 and 6.

[1] لا أقصد أن ألمّح ضمناً أنّ هنالك ارتقاء إجمالياً وحتمياً للحياة نحو تعقيد وتعاونٍ أكبر كذلك الأمر. يعني الاصطفاء المتعدد المستويات أنّ هنالك دائماً القوى المعادية للاصطفاء التي تعمل على عدة مستويات. في بعض الأحيان ترتد الأصناف إلى المتعضّيات [الكائنات الحية] المتفوقة إلى صيغٍ أكثر انعزالية. لكنّ عالماً في ظهرانيه النحل، والنمل، والدبّور، والنمل الأبيض، والبشر لديه أطنان أكثر من الأفراد المتعاونين أكثر مما كان لدى العالم قبل 200 مليون عاماً.



طوّرت بعض الزنابير حيلة تقسيم العمل ما بين الملكة (التي تضع جميع البيوض) وعدة أنواعٍ من العاملات اللواتي تحافظن على العش وتحضّرنَ الغذاء للتشارك. تمّ اكتشاف الحيلة بواسطة الحشرات المجنّحة البدائية (أعضاء النظام الذي يتضمّن الزنابير، التي مهّدت لظهور النحل والنمل) وقد تمّ الاكتشاف على نحوٍ مستقل عشرات المرات الأخرى (من قبل أسلاف النمل الأبيض، وفئران الخلد العارية، وبعض أصناف القريدس، وحشرات المن، والخنافس، والعناكب).[1] في كلّ حالة، تم التغلّب على مشكلة الخارجين عن السرب وبدأت الجينات الأنانية ببراعة تشكّل أعضاء جماعاتٍ غير أنانيين نسبيّاً وهم الذين يكوّنون مع بعضهم جماعةً أنانيةً بتفوّق.

كانت هذه الجماعات نوعاً جديداً من آليات متعددة المهام*: خليّة أو مستوطنة ذات قرابات جينية لصيقة، قامت بوظيفة وحدة (على سبيل المثال في التشكيل والقتال) وقامت بالتناسل على أنها وحدة. تلك كانت بمثابة أخوات الزورق المزوّد بمحرّك في مثالي، والاستفادة من المخترعات التقنية والهندسة الميكانيكية التي لم يسبق أنْ وُجِدَتْ من قبل. كان تحوّلاً آخر. وبدأتْ جماعةٌ أخرى بأداء وظيفتها وكأنّها كانتْ متعضّيةً واحدة، والجينات التي كان عليها الركوب في أرجاء المستوطنات سحقتْ الجينات التي لم تكن قادرة "على العمل جماعياً" وركبت في أجسام الحشرات الأكثر أنانية وانعزالية. وتمثّلُ الحشرات المستوطنة 2 بالمئة فحسب من بين كلّ أصناف الحشرات، لكن ضمن فترة قصيرةٍ من الوقت طالبت بأفضل مواقع الغذاء والتناسل لها، ودفعت بمنافساتها إلى المواقع الهامشية، وقامت بتغيير معظم نظم بيئة سكان الأرض (على سبيل المثال، بواسطة تمكين تطوّر النباتات المزهرة، التي تحتاج إلى الملقّحات).[2] وفي

---

[1] Bourke 2011; Holldobler and Wilson 2009

* في الأصل الإنكليزي [vehicle] لكنّها في السياق الراهن تفيد آلية متعددة المهام – المترجم

[2] Holldobler and Wilson 2009; E. O. Wilson 1990. ألاحظ أنّ المتعضّيات[الكائنات الحية] المتفوّقة الجديدة لا تنتقل إلى السيطرة مباشرةً بعد معالجة مشكلة الخارج عن السرب ==



الوقت الحالي هي الأغلبية، من حيث الوزن، من بين كل الحشرات على سطح الأرض.

ماذا بشأن البشر؟ منذ الأزمنة القديمة، شبّه الناس المجتمعات الإنسانية بخلايا النحل. ولكن هل هذا قياس منفلت فقط؟ إذا ما رسمت خريطةً ملكة الخلية على نموذج ملكة أو ملك الدولة المدينة، من ثمّ: نعم، هو منفلت. ليس لدى الخليّة أو المستعمرة حاكمٌ، أو رب عمل. إن الملكة هي المبيضُ فحسب. ولكن إذا ما تساءلنا إن مرّ البشر عبر عملية التطور ذاتها كالنحل - تحوّلٌ رئيس من الفردية الأنانية إلى الخلايا العصبوية التي تزدهر عندما يجدون طريقةً لكبح الركوب الحر - فإنّ القياس يغدو أكثر التصاقاً.

إنَّ الكثير من الحيوانات اجتماعية: يعيشون في مجموعات، أوقطعان، أو زمر. ولكنَّ حيواناتٍ قليلةً فحسب قد اجتازت العتبة وأصبحت اجتماعية مفرطة ، مما يعني أنها تعيش في جماعات كبيرة تتمتع بشيء من البنية الداخلية، التي تمكّنها من جني فوائد تقسيم العمل.[1] إنّ خلايا النحل وأعشاش النمل، بطبقاتهما المختلفة من الجنود، والكشّافة، ومساعدي العناية الطبية، هي أمثلة للاجتماعية المفرطة، وكذلك هو حال المجتمعات الإنسانية.

إنّ إحدى السمات المفصليّة التي ساعدت كلّ المخلوقات غير الإنسانية المفرطة في اجتماعيّتها على التجاوز يبدو أنّها الحاجة إلى الدفاع عن عشٍ مشترك.

مباشرة. تمرُّ المتعضيات [الكائنات] المتفوّقة بفترة تنفية إلى أنْ تبدأ بالاستفادة إلى الحد الأقصى من تعاونهم الجديد، والذي يتحسّن بواسطة الاصطفاء على مستوى الجماعة وهي تتنافس مع المتعضيات المتفوقة الأخرى. لقد برزت الحشرات الغشائيات الأجنحةَ الحسنة اجتماعياً للمرة الأولى قبل أكثر من 100 مليون عامٍ مضى، لكنْها لمْ تصلْ حالة من السيطرة حتى قرابة 50 مليون عاماً مضت. القصة ذاتها، ربما، لدى البشر، الذين من المحتمل أنهم قاموا بتطوير عقول عصبوية بشكلٍ تام في العصر البليوستسيني الأخير، لكن لم يحققوا سيطرةً عالمية حتى العصر الهولوسيني المتأخر.

(1) Richardson and Boyd 1998



ويلخّص عالما الأحياء بيرتهولدوبلر وي. و. ويلسون نتائج بحث حديثة بأنّ الاجتماعية المفرطة (وتدعى أيضاً "الاجتماعيية الحسنة")[1] موجودة بين أنواع القريدس، والمنّ، والخنافس، إضافةً إلى الزنابير، والنحل، والنمل، والنمل الأبيض.

> في [الأنواع] المعروفة كافة التي تظهر المراحل الأولى من الاجتماعية الحسنة؟، يحمي سلوكها مصدر رزق دائم يمكن الدفاع عنه ضد الضواري، والطفيليين، أو المنافسين. ومصدر الرزق هو على نحوٍ ثابت عشٌ فضلاً عن كونه غذاءً يُعتَمَدُ عليه ضمن مجال تجميع المؤن لسكان العش.[2]

يمنح كلٌّ من هولدوبلر وويلسون أدواراً داعمة إلى عاملين آخرين: الحاجة إلى تغذية الذرية طوال فترة مطوّلة (وهو ما يمنح ميزةً للأنواع التي تستطيع تجنيد الأقارب أو الذكور لمساعدة الماما) والصراعات ضمن الجماعة. وتنطبق كل هذه العوامل الثلاثة على تلك الزنابير الأولى المعسكرة سويّةً في الخارج في أعشاشٍ قائمة يمكن الدفاع عنها على نحوٍ طبيعيّ (مثل الثقوب في الأشجار). من تلك النقطة وما بعدها، كان على أكثر الجماعات تعاوناً الحفاظ على أفضل مواقع بناء الأعشاش، التي قاموا بتعديلها بعد ذلك بطرقٍ صارخة بشكلٍ متزايد ليجعلوا أنفسهم أكثر تكاثراً وأكثر حمايةً. ويتضمّن نسلُهم نحلَ العسل الذي نعرفه في وقتنا الحاضر، والذي تمّ وصف خلاياه بأنها "معملٌ داخل حصن."[3]

---

(1) برز مصطلح الاجتماعية الحسنة للعمل مع الحشرات، ويتم تعريفه بمعنى ما بحيث أنّه لا ينطبق على البشر ــ أي، يتطلّب من الأعضاء تقسيم الإنجاب بحيث أنّ كل أفراد الجماعة يكونون عقيمين. بالتالي، أقوم باستخدام المصطلح الأكثر عمومية مفرط الاجتماعية ، وهو يتضمّن سلوك الحشرات الاجتماعية الحسنة إضافةً إلى بني البشر.

(2) Holldobler and Wilson 2009, p.30; تمّت إضافة التأكيد. النص 1 الذي تمّ استبداله بالنص ضمن قوسين كان "أصناف فرعية أنواعها موجودة حالياً."

(3) Wilson and Holldobler 2005, p. 13370



لقد انطبقت هذه الشروط الثلاثة ذاتها على بني البشر. مثل النحل، كان أسلافنا (1) مخلوقات مناطقية لها ولعٌ بالأعشاش القابلة للحماية (من قبيل الكهوف) (2) أنجبوا نسلاً لديه حاجة إلى مقادير كبيرةٍ من العناية، كان لا بدَّ من تقديمها بينما كانت الجماعة عرضةً للتهديد من جماعات مجاورة. ولذلك على مدى مئات آلاف السنين، كانت الشروط القائمة قد ساعدت على ثورة قوامها [النزعة] الاجتماعية المفرطة، وبالنتيجة، نحن الحيوان الثدي الوحيد المفرط في الاجتماعية. وقد يكون النسل البشري قد انطلق بالسلوك على نحوٍ مشابه لقرود الشمبانزي،[1] ولكن في الوقت الذي بدأ فيه أسلافنا السير خارجين من إفريقيا، كانوا قد أصبحوا نوعاً ما أشبه بالنحل.

وفي وقتٍ طويلٍ فيما بعد، عندما بدأت بعض الجماعات تزرع المحاصيل والبساتين ثمّ تبني مستودعات الحبوب، وسقيفات التخزين، والمراعي المسوّرة، والمنازل الدائمة، كان بحوزتهم مؤن من الغذاء لا بدّ من الدفاع عنها بقوّة. ومثل النحل، بدأ البشر يبنون أعشاشاً أكثر إتقاناً، وفي غضون آلافٍ قليلة من السنين، ظهرت آلية جديدة متعددة المهام على سطح الأرض ـ الدولة المدينة، القادرة على رفع الأسوار وتنظيم الجيوش.[2] لقد انتشرت الدول ـ المدن، وفيما

---

[1] البشر على صلةٍ وثيقةٍ بقرود البونوبو المسالمة بقدر صلتهم بقرود الشمبانزي الأكثر عدوانية. لكنني اتبعت Boehm (2012) and Wrangham (2001; Wrangham and Pilbeam, 2001) في افتراض أنّ آخر سلفٍ مشتركٍ للأنواع الثلاثة كان أكثر شبهاً بالشمبانزي، وأنّ السمات التي يشترك بها البشر مع قرود البونوبو مثل المسالمة العظيمة وميل الراشدين للتسلية إنما هي نتيجة تطوّر متقارب ـ كلا النوعين تغيّر باتجاهٍ مشابه قبل وقتٍ طويل من الانفصال عن السلف المشترك.. تغيّر كلاهما ليصبحا أكثر شبهاً بالطفل من الراشدين. أنظر Wobber, Wrangham, and Hare 2010 .

[2] لا أقول بأن الأدمغة البشرية أو الجينات تغيّرت جذرياً في هذا الوقت. أتبع Richerson and Boyd 2005 and Tooby and Cosemides 1992 في الافتراض أنّ معظم الجينات التي جعلت الحياة في الدولة- المدينة ممكنة كانت قد تشكّلت أثناء مئات آلاف السنين من حياة ==



بعد، الأمبراطوريات، بسرعة في أوراسيا، وشمال إفريقيا، وأمريكا الوسطى، حيث غيّرت الكثير من نظم بيئة الأرض وسمحت لحمولة أطنانٍ كاملة من البشر ليرتقوا من ضآلة الشأن في بداية عصر الهولوسين (قبل حوالي اثنتي عشر ألف عامٍ مضت) إلى السيطرة على العالم في الوقت الحاضر.[1] ومثلما فعلت الحشرات المستعمرة للحشرات الأخرى، قمنا بدفع كل الثدييات الأخرى إلى الهوامش، والانقراض، والعبودية. والقياس مع النحل ليس ضحلاً أو متفلّتاً. على الرغم من الفروقات الكثيرة، الحضارات البشرية وخلايا النحل كلاهما نتاجا تحوّلاتٍ كثيرةٍ في تاريخ الارتقاء. هم الزوارق المزودة بمحركات.

اكتشاف التحوّلات الكبيرة هو العرض أ. في تجربةٍ ثانية لانتقاء الجماعة. وقد لا يكون انتقاء الجماعة أو لا يكون شائعاً في أوساط الحيوانات الأخرى، لكنّه يحدث كلّما وجد الأفراد طرقاً لقمع الأنانية والعمل في فريق، للتنافس مع الفرق الأخرى.[2] ويخلق اصطفاء الجماعة حالات تكيُّفٍ متعلّقة بالجماعة. وليس أمراً بعيد الاحتمال، ولن يكون بمثابة الهرطقة الاقتراح أن هذا هو كيفية اتخاذنا الغطاء العصبوي الذي يشكّل جزءاً حاسماً من عقولنا الصوابية.

الصياد- لاقط الثمار. لكنْ كما سأقول أدناه، أرتأي أنّ المرجّح أنّ بعض التطور الجيني الإضافي كان موجوداً أثناء الحقبة الهيلوسينية.

[1] لسنا حرفيّاً غالبية ثقل عالم الثدييات، لكنّ هذا فقط لأنّنا نربّي الكثير من الأبقار، والخنازير، والخرفان، والكلاب. وإذا ما شملتْنا مع خدمنا المدجّنين، فإنّ حضاراتنا في الوقت الراهن تشكّل نسبة 98 بالمائة المدهشة من كل الحياة الثديية، حسب بيانٍ ل Donald Johansen تمّ تقديمه في في مؤتمرٍ حول "الأصول" في جامعة ولاية أريزونا في نيسان 2009.

[2] يضيف منتقدوّ انتقاء الجماعة المعيار الذي مفاده أنّ الجماعات يجب أن تعيد توليد نفسها، بما فيها ال "البراعم" لتشكيل جماعات جديدة متعددة تشبه بشكلٍ لصيقٍ الجماعة الأصل. وهذا صحيح في حال MLS-2 (الاختيار بين الجماعات المستقرة)، لكن ليس من الضروري ل MLS-1 (الاصطفاء لدى الجماعات المتحوّلة)، أنظر Okasha 2006، وانظر الملاحظة 365 أعلاه.



العرض ب : القصدية المشتركة

في عام 49 قبل الميلاد، اتخذ جايوس يوليوس قراراً خطيراً بعبور نهر الروبيكون، وهو نهر ضحلٌ في شمالي إيطاليا. قام بخرق القانون الروماني (الذي كان يحظّر على الجنرالات الاقتراب من روما مع جيوشهم)، وبدأ حرباً أهلية، وأصبح يوليوس قيصر، حاكمَ روما المطلق. فقدّم لنا صورةً مجازية عن أيّ فعلٍ صغيرٍ يطلق سلسلةً من الأحداث التي يستحيل إيقافها وهي ذات تداعيات هائلة.

من التسلية النظر إلى التاريخ الماضي والتعريف بعبور نهر روبيكون. اعتدتُ الاعتقاد بأنه كان هنالك الكثير من الخطوات الصغيرة في تطوّر الأخلاق لتعريف واحدةٍ مثل حكاية روبيكون، لكنّني غيّرتُ رأيي عندما سمعتُ مايكل توماسيللو، أحد خبراء العالم الرئيسين في مجال إدراك الشمبانزي، وهو يقول جملته: "من غير المفهوم أنكم سترون قرديْ شمبانزي يحملان زند خشب معاً."[(1)]

كنتُ مصعوقاً. إنَّ قرود الشمبانزي - بما يقبل النقاش - هي ثاني أكثر الأنواع ذكاءً على سطح الكوكب، فهي قادرةٌ على صنع الأدوات، وتعلّم لغة الإشارة، والتنبّؤ بمقاصد القرود الأخرى، وخداع [بني جلدتها] للحصول على ما تريده. أفرادها حاذقون. وهكذا لمَ لا تستطيع العمل مجتمعةً؟ وما الذي تفتقده؟

تمثّلَ اختراع توماسيللو بخلق مجموعةٍ من المهام البسيطة التي يمكن طرحها على قرود الشمبانزي والأطفال الصغار جدا بصيغةٍ متطابقةٍ تقريباً.[(2)] وأكسب

[(1)] ألقى توماسيللو ثلاث محاضراتٍ رئيسية في جامعة فرجينيا في تشرين الأول 2009. كان نقاشه الأساسي، بما فيه مقبوس كهذا، من الممكن العثور عليه في Tomasello et al. 2005. من الممكن لقرود الشمبانزي تجنيد عنصرٍ متعاون لمساعدتهم في الحصول على الطعام الذي يتطلّب قرديْ شمبانزي للحصول على أيّ طعام (Melis, Hare, and Tomasello 2006) لكن لا يبدو أنّهم يشاركون النوايا أو ينسّقون فعليّاً مع القرد المتعاون.

[(2)] Herrmann et al. 2007. توصيفات المهام كاملةً، بما فيها تسجيلات الفيديو، من الممكن تحميلها http://www.sciencemag.org/content/317/5843/suppl/DC1 لكنْ لاحظ أنّ تسجيلات الفيديو دائماً ما تظهر قرود الشمبانزي وهي تحلّ الواجبات على الرغم من أنّهم نادراً ما يفعلون ==



حل الواجب الشمبانزي أو الطفل متعةً (عادةً قطعة من الطعام للشمبانزي، ولعبة للطفل). كما تطلّب بعض الواجبات التفكير في الأجسام المادية في الفضاء الفيزيائي فقط - على سبيل المثال، استخدام العصا لسحب شيء ممتع كان خارج المتناول، أو اختيار طبقٍ يحتوي على عدد أكبر من الأشياء الممتعة وليس الذي فيه عدد أصغر. وعبر الواجبات العشر كلّها، أدت قرود الشمبانزي والأطفال بعمر السنتين أداءً جيداً بالتساوي، إذ حلّوا المشكلات حلاً صحيحاً بنسبة 68 بالمئة من المرات.

لكنّ الواجبات الأخرى تطلّبت تعاونا مع صاحبة التجربة، أو على الأقل الإدراك بأنّها تريد مشاركة المعلومات. على سبيل المثال، في أحد الواجبات، أوضحت صاحبة التجربة كيفية إزاحة شيء ممتع من أنبوب فارغ بإحداث فجوةٍ في الورقة التي كانت تغطي النهاية، ومن ثمّ قدمت أنبوباً مشابهاً لكلّ من الطفل والشمبانزي. هل سيفهم المشاركون في التجربة أنّ صاحبة التجربة كانت تحاول تعليمهم ما يفعلونه؟ في واجبٍ آخر، قامت صاحبة التجربة بإخفاء الشيء الممتع تحت أحد الأكواب من ثمّ حاولت أنْ تُظهر للشمبانزي أو الطفل الكوب الصحيح (بالنظر أو الإشارة إليه). التقط الأطفال هذه التغييرات الاجتماعية، إذ حلّوها بشكلٍ صحيح في 74 بالمئة من المرات. وأخفقت قرود الشمبانزي، إذْ حلّتها بنسبة 35 بالمئة من المرات فقط (ليس أفضل من فرصة واحدة في الكثير من الواجبات).

حسب تواسيللو، انحرف الإدراك البشري بعيداً عن إدراك الثدييات الأخرى عندما طوّر أسلافنا القصدية المشتركة.[1] في نقطةٍ ما في السنوات المليون

ذلك في حال الواجبات الاجتماعية. لاحظ أيضاً أنّ التجربة اشتملت على مجموعة ثالثة - إنسان الغاب [*ضرب من القرود العليا الشبيهة بالإنسان يقطن في بورنيو وسومطرة - إضافة المترجم*]، التي أصابت إخفاقاً أكبر على صعيد كلا النوعين من الواجبات.

[1] Tomasello et al. 2005 يدرج توماسيللو عملاً أسبق لباحثٍ في مرض التوحد Simon Baron-Cohen (1995)، الذي قام بوصف "آليّة انتباه مشتركة" تتطوّر لدى الأطفال العاديين، لكن ليس لدى الذين يعانون من التوحد، مما يتركهم "عميان عقلياً".



المنصرمة، قامت جماعةٌ صغيرةٌ من أسلافنا بتطوير القدرة على الاشتراك في تصوّرات ذهنيّة لمهام كان يتابعها اثنان منهم أو أكثر معاً. على سبيل المثال، أثناء الطواف بحثاً عن الطعام، قام شخصٌ بسحب غصن بينما يقطف الآخر الثمرة، واقتسما الوجبة معاً. ولا تفعل قرود الشمبانزي هذا الأمر مطلقاً. أو أثناء الصيد، يفترق الثنائيّ للاقتراب من الحيوان من الجانبين. يبدو قرود الشمبانزي أنهم يفعلون ذلك في بعض الأحيان، كما في الحالات التي تمّ الإبلاغ على نطاق واسع عن أنّ قرود شمبانزي تقوم باصطياد قرود كولوبوس،[1] لكنّ توماسيللو يُجادل بأنّ قرود الشمبانزي لا تعمل مع بعضها في واقع الأمر. بالأحرى، يرصد كل شمبانزيّ المشهد ثم يقدم على الإجراء الذي يبدو أفضل بالنسبة إليه في تلك اللحظة.[2] تلاحظ توماسيللو أنّ وقت عمليات الصيد لدى هذه القرودهو الوقت الوحيد الذي تبدو فيه قرود الشمبانزي تعمل بتعاونٍ، لكن حتى في هذه الحالات النادرة يخفق في إظهار إشارات التعاون الحقيقي. فهي لا تبذل جهداً للتواصل فيما بينها، على سبيل المثال، وهي مريعةٌ في اقتسام الغنائم بين الصيّادين، إذ يستخدم كلٌّ منها القوة للحصول على حصةٍ من اللحم في خاتمة المطاف. فهي جميعاً تطاردُ الفرد في الوقت ذاته، لكن يبدو أنها جميعاً في الصفحة ذاتها بشأن الصيد.

بالمقابل، عندما شرع البشر الأوائل باشتراك في النوايا، تزايدت قدرتهم على الصيد، وجمع الثمار، وتربية الأطفال، والإغارة على جيرانهم على نحوٍ جذري. كان كلّ واحد في الفريق في ذلك الوقت لديه تصورٌ عقليّ للواجب، ويعرف أن شركاءَه أو شركاءَها يشتركون في التصور ذاته، ويعرف متى أقدم الشريك

---

[1] Boesch 1994

[2] Tomasello et al., forthcoming. من الواضح أنّ قرود الشمبانزي تقوم بتشكيل تحالفات سياسية - يشكّل اثنان من الذكور فريقاً لمعارضة الذكر الأبرز في الجماعة، حسبما تمّ التوثيق من قبل De Waal 1982 . لكنّ التنسيق ضعيف في أحسن الأحوال.



على عملٍ بطريقةٍ معيقةٍ للنجاح أو لأخذ نصيبٍ أكبر من الغنائم، ويقوم بردة فعلٍ سلبية حيال انتهاكاتٍ كهذه. وعندما بدأ كلّ فردٍ في الجماعة بالاشتراك في فهمٍ عام عن كيف يُفْتَرَضُ إنجاز الأمور، ثمّ شعر بومضةٍ من السلبية عندما قام أيّ فردٍ بانتهاك هذه التوقعات، فتمّت ولادة أوّل منظومة.[1] (لا تنسَ أنّ المنظومة هي هلوسةٍ لاإرادية) ذاك، على ما أعتقد، كان بمثابة عبور نهر روبيكان.

تعتقد توماسيللو ان الاجتماعية المفرطة برزت من خلال خطوتين. كانت الأولى هي القدرة على الاشتراك في النوايا ضمن جماعاتٍ مؤلفة من شخصين أو ثلاثة كانوا يصطادون بنشاطٍ أو يطوفون معاً بحثاً عن الطعام. (ذاك كان نهر روبيكان). بعدئذٍ، بعد عدة مئاتِ ألوفٍ من سنيّ الارتقاء نحو تعاونٍ ومشاركةٍ أفضل بوصفهم صيّادين ـ جامعي ثمار رُحَّل، ربما استجابةً لتهديدِ جماعاتٍ أخرى. وانتقل النصر إلى أكثر الجماعات تماسكاً ـ وهي تلك التي كانت قادرةً على رفع قدرتها على الاشتراك بالنوايا من ثلاثة أشخاص إلى ثلاثمئة شخصٍ. وهذا كان الخطوة الثانية: لقد فضّل الاصطفاء الطبيعي مستوياتٍ متزايدة مما تدعوه توماسيللو "ميل لعقليّة الجماعة" ـ أي القدرة على التعلّم والتقيّد بالقواعد السّلوكية، والإحساس بمشاعرمتعلّقة بالجماعة والمشاركة بها، وجوهرياً، خلق مؤسسات اجتماعية والخضوع لها، بما فيها الدين. وكانت مجموعةً جديدةً من ضغوط الاصطفاء تفعل فعلها ضمن الجماعات (على سبيل المثال، كان المنشقّون يتعرّضون للعقوبة، أو في الحدّ الأدنى كان من المستبعد اختيارهم شركاء في

---

[1] De Waal 1996 يناقش دي فال بأنّ مجتمعات قرود الشمبانزي تطوّر القواعد السلوكية وتدير عقوبةً لمنهكيّ القاعدة السلوكية. من جانبٍ آخر، والأمثلة عن قواعد سلوكيّةٍ كهذه في أوساط قرود الشمبانزي هي نادرة، وقرود الشمبانزي بالتأكيد لا تبني بشكلٍ متزايدٍ شبكاتٍ متقنةً من القواعد السلوكية بمرور الزمن. وكما هو الحال في الكثير خلاف ذلك بشأن قرود الشمبانزي، من قبيل قدراتها الثقافية، يبدو أنّ لديهم الكثير من "مداميك البناء" للأخلاق البشرية ، لكن لا يبدو أنهم يركبّونها لبناء نُظُمٍ أخلاقية.



مشاريع مشتركة)[1] وما بين الجماعات على حدٍّ سواء (الجماعات المتماسكة أخذت المنطقة ومصادر الثروة الأخرى من جماعاتٍ أقل تماسكاً).

القصدية المشتركة هي العرض ب في اختبارٍ ثانٍ لاصطفاء الجماعة. فور قيامك بالتقاط تبصّر توماسيللو العميق، برؤية شبكاتٍ عنكبوتيةٍ هائلة من القصدية المشتركة تمّ بناء الجماعات الإنسانية منها. يفترض كثيرٌ من الناس أنّ اللغة بمثابة عبورنا نهر روبيكون، لكنّ اللغة أصبحت ممكنة بعد أن حصل أسلافنا على قصديّةٍ مشتركة فقط. تلاحظ توماسيللو أنّ الكلمة ليست علاقةً بين صوتٍ وشيء. هي اتفاقٌ بين الناس الذين يشتركون بتجسيدٍ جماعي للأشياء في عالمهم، والذين يشتركون في مجموعة من التقاليد للتواصل فيما بينهم بشأن هذه الأشياء. وإذا ما كان مفتاح اصطفاء الجماعة هو عشٌ مشتركٌ يمكن الدفاع عنه، فإنّ القصدية المشتركة للناس سمحت ببناء أعشاش كانت رحيبة ومزخرفةً ولو أنها كانت عديمة الوزن ومحمولة. يبني النحل خلاياه من الشمع وألياف الخشب، وبعد ذلك يقاتل، ويقتل، ويموت للدفاع عنها. ويشكّل البشر مجتمعاتٍ أخلاقية من القواعد السلوكية المشتركة، والمؤسسات، والآلهة، حتى في القرن الحادي والعشرين، يقاتلون، ويقتلون، ويموتون في سبيل الدفاع عنها.

---

[1] موضوع رئيسي قيد النقاش في الأوساط الاصطفائية هو لمَ سيدفع شخصٌ تكاليف عقاب الآخر، الذي قد يتضمّن، ردّةَ فعلٍ عنيفة من الفرد الخاضع للعقاب. لكن إذا ما كانت العقوبة زهيدة التكلفة ـ على سبيل المثال، القيل والقال، أو ببساطة عدم اختيار المعتدي في مغامرة مشتركة (Baumard, Andre, and Sperber, unpublished) ـ من ثم تصبح التكلفة ضئيلةً جداً، وتظهر نماذج الحاسوب عدة طرقٍ يمكنُ أنْ تبرزَ نزعةً لعقوبة: أنظر Panchanathan and Boyd 2004 . وإذ تتصاعد تكلفة الخروج عن السرب ويصبح نادراً بشكلٍ متزايد، والاصطفاء على مستوى الجماعة على صعيد سمات أخرى يصبح بشكلٍ متزايدٍ قوياً، بالمقارنة مع الاصطفاء على مستوى الفرد.



العرض ج: الجينات والثقافات تتطوّر معاً

متى اجتاز أسلافنا نهر الروبيكون؟ لنْ نعرفَ أبداً متى عمل اثنان من الباحثين عن الطعام ضمن فريقٍ لقطاف ثمار التين عن الشجرة، ولكنْ عندما نبدأ برؤيةِ إشاراتٍ في سجلّ المستحاثات للاختراعات الثقافية المجمّعة والتأسيس على الاختراعات الأسبق، نستطيع التخمين بأنّ المخترعين قاموا بالعبور. وعندما تتراكم الثقافة، يعني أنّ الناس يتعلّمون من بعضهم، ويضيفون اختراعاتهم الخاصة، ومن ثمّ ينقلون أفكارهم إلى الأجيال اللاحقة.[1]

لقد بدأ أسلافنا بالابتعاد عن الأسلاف العامين الذين نشترك بهم مع قرود الشمبانزي والبونوبو ما بين 5 ملايين و7 ملايين عامٍ خلت. على مدى ملايين السنوات القليلة التالية، كان هنالك الكثير من أنواع شبيهة بالإنسان تتجوّل في الأرجاء على رجلين في إفريقيا. ولكن بالاحتكام إلى حجم أدمغتها واستخدامها المحدود للأدوات، فإنّ هذه المخلوقات (بما فيها الأستراليوبيثيات من أمثال "لوسي") من الأفضل أنْ نعدّها قروداً تسير على رجلين [كالإنسان] وليس بشراً أوائل.[2]

بعدئذٍ، منذ ما يقارب 42. مليون عامٍ خلت، يبدأ أشباه الإنسان، من ذوي أدمغةٍ أكبر، بالظهور في سجلّ المستحاثات. وكان أولئك أوائل أعضاء نوع الإنسان، بمن فيهم إنسان هابيليس، وسمّيَت هذه المخلوقات كذلك لأنها كانت "أناساً بارعين باستخدام اليدين" بالمقارنة مع أسلافهم. ولقد خلّفوا وفرةً من الأدوات الحجرية المعروفة بمجموعة أدوات أولدووان.

---

[1] للمزيد حول التطوّر المتزامن لكل من الثقافة المتراكمة وثقافة الجينات، أنظر Richerson and Boyd's masterpiece *Not by Genes Alone*. أنا مدين لهما بكثيرٍ من الأفكار في هذا الفصل.

[2] من المرجّح أنّ هذه المخلوقات قامت بتصنيع بعض الأدوات. وحتى قرود الشمبانزي صنّعت بعض الأدوات. لكن لا يوجد دليلٌ كافٍ في سجل المستحاثات حتى نهاية هذه الفترة، قرب بروز الإنسان الذكي genus Homo.



مليون سنة خلت	
7	
6 -------------	أسلاف البشر ينفصلون عن سلف من الشمبانزي/ البونوبو (5 ـ 7 م س خ)
5	
4 -------------	مخلوقات أوسترالوبيثيسين (مثال، لوسي) تظهر، حوالي 4 م س خ
3	
2 -------------	نوع الإنسان (بما فيه البارع باستخدام اليدين) يظهر، حوالي 42 . م س خ؛ مجموعة أدوات ألدووان
1--------------	تظهر مجموعة الأدوات الأكويلية
ألف سنة خلت	
800	مرحلة نهر الرويبكون تمكّن القصدية المشتركة حدوث الارتقاء المتزامن في الثقافة التراكمية والثقافة الجينية في إنسان هايدلبرجينيسيس. ويظهر الصيد بالرماح، إضافةً إلى الطهي على المواقد، الكثير جدا من الجماعات التعاونية (500 ـ 700 أ س خ)
600 -----------	
400	
200	
100	
50 -----------	يهاجر الإنسان الحديث من إفريقيا والشرق الأوسط (50 ـ 70 أ س خ)
20	
10 -----------	يبدأ عصر الهولوسين؛ تبدأ الزراعة والرعي. تطور متزامن للجينات والثقافة يتسارع دول المدن، الأمبراطوريات (2 ـ 7 أ س خ)
5 ----------	يربط الفيسبوك نصف مليار من الناس معاً (2010)
0 ----------	

الشكل 9 ـ 1 خط زمن الأحداث الرئيسة في تطوّر البشر. م س خ = مليون سنة خلت؛ أ س خ = ألف سنة خلت. التواريخ مستقاة من **Potts and Sloan 2010, Richerson and Boyd 2005; and Tattersall 2009**.



لقد ساعدت هذه الأدوات، التي هي في معظمها رقاقات حادة قاموا باقتطاعها من حجارةٍ أكبر، إنسانَ هابيليس [الذي يستخدم الأدوات] في قطع اللحم وكشطه من جثث حيوانات قتلتها حيواناتٌ أخرى. فالإنسان البارع باستخدام اليدين لمْ يكنْ صيّاداً يعتدّ به.

بعدئذٍ، ومنذ ما يقارب 81. مليون سنة خلت، بدأ أشباه البشر بصناعةِ أدواتٍ أكثر إتقاناً، تُعرَفُ بمجموعة الأدوات الأكويلية.[1] كانت الأداة الرئيسة بلطة يد بشكل الدمعة، ويفاجئنا كلّ من تناسقها وجودة صنعها بمثابة شئٍ جديدٍ تحت الشمس، شيئ صنعته عقولٌ تشبه عقولنا (انظرْ الشكل 9. 2). يبدو هذا أشبه بمكانٍ واعدٍ للبدء بالحديث عن الثقافة التراكمية. لكن ها هنا الأمر الغريب: الأدوات الأكويلية متطابقةٌ تقريباً في كلّ مكانٍ، في إفريقيا وأوروبا وآسيا، طوال ما ينوف عن مليون سنة. لا يكاد يوجد أيّ تنوّع، مما يفيد أنّ معرفة كيفية تصنيع هذه الأدوات من غير الممكن أن يكون قد تمّ نقله لاثقافياً. على الأصح، معرفة كيفية صنع الأدوات ربما أصبحت فطرية، تماماً مثل "معرفة" كيفية بناء السدود هي فطرية لدى السمّورات*.[2]

منذ ما يقارب 000600 , أو 000700 , سنة فحسب نبدأ برؤية مخلوقات قامت بعملية العبور. كما تبدأ أوائل المخلوقات الشبيهة بالبشر التي تتمتع بأدمغةٍ كبيرة الحجم كأدمغتنا بالظهور في إفريقيا ثمّ أوروبا. وهي معروفة جماعياً ب هومو هايدلبرجينسيس، وكانوا أسلاف كلٍ من بشر نياندرتال ونحن. فنجد في مضاربهم الدليل الأول الواضح على المواقد، وعلى الرماح. كانت أقدم الرماح

---

[1] Lepre et al. 2011

* حيوان من القواضم ثمين الفرو ــ المترجم

[2] يعبّر ريتشيرسين وبويد Richersen and Boyd 2005 عن هذه النقطة. لم تُظهرْ الأشياء المصنّعة ثقافياً استقراراً كهذا عبر الزمن والفضاء. تأمل، على سبيل المثال، السيوف وأوعية الشاي، التي تملأ خزائن المتاحف لأنّ الثقافات وافرة الإبداع في الطُرُق التي يخترعون بها الأشياء التي تلبّي الوظائف الأساسية ذاتها.



المعروفة عصبياً حادة [الرأس] فحسب، ولكنْ فيما بعد أصبحت نقاطاً [رؤوساً] حجريّةً حادة ملصقة بأعمدة خشبية ومتوازنة من أجل الرمي الصحيح. لقد صنع أولئك الناس أسلحةً معقدة ثمّ عملوا معاً [جماعياً] في الصيد وقتل الحيوانات الضخمة التي جلبوها إلى المخيّم الرئيس ليتمّ تقطيعها، وطهيها، واقتسامها.[1]



الشكل 9.2 فأس يدودي أكويلي

من ثمّ فإن الإنسان الهايدلبرجيني هو مرشّحنا كعابرٍ لنهر روبيكون.[2] كان لدى أولئك الناس ثقافةً تراكمية، وعمل الفريق، وتقسيم العمل. ولا بد أن قصديّةً مشتركة كانت لديهم، تتضمّن على الأقل منظومةً أخلاقية بدائية ساعدتهم على العمل مجتمعين ثمّ اقتسام ثمار عملهم. من خلال العبور، لم يقوموا

---

[1] قصة الإنسان الهايدلبرجيني Homo heidelbergensis مستقاة من Potts and Sloan 2010 ومن Richerson and Boyd 2005, chapter 4.

[2] قصتي قائمة على التخمين: من الخطورة الحزرمتي جرى حدثٌ معيّن أو برزت قدرةٌ محددة. توماسيللو، الذي كان أكثر حذرزاً مني، لم تيدد مطلقاً وقتاً أو أنواعاً برزت فيها أوّلاً القصدية المشتركة. لكنْ عندما سألته إن كان الإنسان الهدلبرجيني المرشّح الأفضل، أجاب نعم.



بتحويل مجرى الارتقاء البشري بل طبيعة الارتقاء بحد ذاتها. بدءاً من هذه المرحلة وما تلاها، عاش الناس في بيئةٍ من صنعهم الخاص على نحوٍ متزايد.

لقد ناقش كل من عالمي الأنثروبولوجيا بيت ريتشيرسون وروب بويد أنّ الاختراعات الثقافية (مثل الرماح، وأدوات الطهي، والأديان) تتطوّر إلى حدٍّ بعيدٍ بالطريقة ذاتها التي تتطوّر الاختراعات البيولوجية بموجبها، واتجاها التطوّر السائدان منضفران إلى حد أنك لا تستطيع إلا دراسة الاثنين معاً.[1] على سبيل المثال، إحدى أكثر حالات ثقافة الارتقاء المتزامن المتعلّقة بثقافة الجينات حصلت بين أول الناس الذين دجّنوا الحيوانات. عند البشر، كما هو الحال لدى الثدييات الأخرى، يتم فقدان القدرة على هضم اللاكتوز (السكر في الحليب) أثناء الطفولة. إنّ الجينة التي تصنع اللاكتاز (لأنزيم الذي يفكك اللاكتوز) يتوقف بعد سنواتٍ قليلةٍ من الخدمات، لأنّ الثدييات لا تشرب الحليب بعد أن يتم فطامها. لكنّ أوائل مربّي الماشية، في شمال أوروبا وفي عدّةٍ أجزاءٍ من إفريقيا، كان لديهم مخزونٌ جديد هائل من الحليب الطازج، الذي كان من الممكن أنْ يُقدَّمَ لأطفالهم وليس للراشدين. وكلّ فردٍ جيناته متحوّلة أخّرت إيقاف إنتاج اللاكتاز لديه ميزة. بمرور الزمن، ترك أناس كهؤلاء المزيد من المتحدّرين شاربي الحليب أكثر من أقاربهم الذين لا يتحمّلون اللاكتوز. (الجينة بحدّ ذاتها

---

[1] يوجد فرقان رئيسيان: (1) الابداعات الثقافية تنتشر بشكل لاحق، إذ يرى الناس الاختراعات ومن ثمّ ينسخونها؛ الاختراعات الجينية من الممكن أن تنتشر عمودياً فحسب، من الأب إلى الطفل. و(2) الاختراعات الثقافية من الممكن دفعها بواسطة مصممي الذكاء ـ الأشخاص الذين يحاولون حلّ المشكلة؛ كما يحدث الاختراع الجيني بواسطة التغيار الإحيائي. أنظر Richerson and Boyd 2005 . قام داوكنز Dawkins 1976 أولاً بترويج مفهوم الارتقاء الثقافي كونه مثل الارتقاء الجيني عن طريق فكرة الحمولات الثقافية "memes"، لكنّ ريتشيرسن وبويد طوّرا التضمينات الارتقائية المتزامنة بشكلٍ أكثر اكتمالاً.



تمّ تحديدها.)[1] بعدئذٍ قامت التغييرات الوراثية بتوجيه اختراعات ثقافية كذلك: ومن ثمَّ فالجماعات التي تتمتع بجينة اللاكتاز ربّت قطعاناً أكبر، ووجدت طرقاً أكثر لاستخدام الحليب ومعالجته، من قبيل تحويله إلى جبن. ودفعت هذه الاختراعات الثقافية بعدئذٍ نحو تغييرات جينية أبعد مدىً، واستمرتْ دون انقطاع.

إذا ما استطاعت الاختراعات الثقافية (من قبيل تربية الماشية) أنْ تؤدي إلى استجاباتٍ جينية (من قبيل شخص راشد لديه تقبّل للاكتوز)، لذلك قد تكون الاختراعات الثقافية المتعلّقة بالأخلاق أدت إلى استجاباتٍ جينية كذلك؟ نعم. يناقش ريتشرسن وبويد أنّ الارتقاء المتزامن الجيني ـ الثقافي قد ساعد على رفع الإنسانية من اجتماعيّة جماعةٍ صغيرةٍ بين الثدييات العليا إلى نزعةٍ اجتماعيةٍ مفرطة موجودة في الوقت الحاضر لدى المجتمعات الإنسانية كافة.[2]

بموجب "فرضية غرائزها القبلية"، كانت الجماعات الإنسانية دائماً في حالة تنافس إلى حدٍ ما مع الجماعات المجاورة. والجماعات التي فهمت (أو وقعت على) الاختراعات الثقافية التي ساعدتها على التعاون والتماسك في جماعاتٍ أكبر من العائلة مالت إلى كسب المنافسات (تماماً حسبما قال داروين).

---

[1] Tishkoff et al. 2007 . بشكلٍ ممتع، هي جينةٌ مختلفة في السكان الأفارقة أكثر من الأوروبيين. إنّ الخريطة الوراثية هي من المرونة والتكيّف بمكان بحيث أنها تجد في الغالب عدة طرقٍ للاستجابة إلى حالة ضغطٍ فردية.

[2] قد يجادل المرء بأنّ المجتمعات الصناعية المعاصرة كوزموبوليتانية وليست قبلية. لكنّ نزعتنا لتشكيل مجموعات ضمن هذه المجتمعات قد تمّ ربطها إلى الطبيعة الاجتماعية القبلية الأساسية؛ أنظر Dunbar 1996 . في المقلب البعيد الآخر، ليس الصيادون- جامعو الثمار مجرّد زمرٍ من ذوي القربى، كما يفترض كثيرٌ من الناس. وينتقل الناس دخولاً وخروجاً من جماعات مشتركة بالإقامة من أجل الزواج ولأسباب أخرى. تحافظ الزمَر على وتتبادل مع زمرٍ أخرى بموجب علاقاتٍ وثيقةٍ في التجارة غير قائمة على القرابة بشكلٍ مباشر، على الرغم من أنّ تسهيلها قد تمّ عن طريق الحقيقة التي مفادها أنّ أولاد إحدى الزمر يتزوجون في الغالب إلى الخارج، لينضمّوا إلى الزمر المجاورة، بينما يحافظون على صلاتٍ مع الآباء والأقارب. تعزز الزيجات المتبادلة ارتباط الجماعات مع بعضها، إلى أبعد من العائلات الفردية المشتركة في الزواج. أنظر Hill et al. 2011 .



كان من بين أهم اختراعات كهذه حب الإنسان لاستخدام العلامات الرمزية لإظهار عضويّتنا للجماعة. فمن الوشم وثقب الوجه المستخدم في أوساط قبائل الأمازون مروراً بختان الذكور المطلوب من اليهود وحتى الوشمات والثقوب في الوجه التي تستخدمها جماعة البانكيين في المملكة المتحدة، يتّخذ البشر خطواتٍ خارجة على المألوف، ومكلفة، وفي بعض الأحيان مؤلمة لجعل أجسادهم تعلن عضويّاتهم في الجماعة. ولقد بدأت هذه الممارسة بالتأكيد على نحوٍ متواضع، ربما بواسطة مساحيق ملوّنة لطلاء الجسد فحسب.[1] لكن كيفما كانت بدايتها، وجدت الجماعات التي أسستْ عليها واخترعت علاماتٍ أكثر ديمومةً طريقةً لصوغ معنى "نحن" التي تخطت حدود القرابة. فنحن نثق ونتعاون برغبة مع أشخاصٍ يشبهوننا في ظاهر الأمر.[2] ونتوقّع أنهم يشاركوننا القيم والقواعد السلوكية.

ما إن طوّرت بعض الجماعات اختراع نموذج القَبَليّة الأوّلي الثقافي، قامت بتغيير البيئة التي يحدث في داخلها الارتقاء الجيني. وحسبما يشرح ريتشرسن وبويد:

> لقد فضّلتْ هذه البيئات تطوّرمجموعةٍ من الغرائزالاجتماعية الحديثة الملائمة للحياة ضمن هذه الجماعات، بما فيها "تركيبةُ نفسيّة" "تتوقّع" أنّ الحياة مبنيّة بواسطة القواعد السلوكية الأخلاقية ومصممة في سبيل تعلّم هذه القواعد وتمثّلها ذاتيّاً؛ [وهناك] مشاعرُ جديدة مثل العيب والإثم، التي تزيد فرصة اتباع القواعد السلوكية، وتركيبة نفسية "تتوقع" أنّ العالم الاجتماعي مقسّمٌ إلى جماعات مميّزة العلامات رمزياً.[3]

---

[1] لقد تمّ العثور على المساحيق الملوّنة والخضب في مواقع مضارب تعود إلى 160000 عاماً خلت، ومن المُعتَقد أنها قد استُخدِمتْ لغاياتٍ رمزيّة وشعائرية؛ أنظر Marean et al. 2007 .

[2] Kinzler, Doupux, and Spel;e 2007; see Kesebir, Forthcoming, for a review

[3] Richerson and Boyd 2005, p. 214. أنظر ايضاً Fessler 2007 حول كيف تطوّر العيب من شعورٍ بالخضوع للسلطة إلى شعورٍ بالامتثال للقواعد السلوكية.



في مجتمعاتٍ ذات نموذجٍ قبليٍّ أوليٍّ كهذه، ما كان الأفراد (الذين وجدوا من الصعب اللعب داخل التركيبة، وكبح نزواتهم المضادة للمجتمع، والامتثال لمعظم القواعد السلوكية الجمعية) الأكثر أهمية ليغدوا الخيار الأول لدى أيّ شخص عندما يحلّ زمن لاختيار شركاء للصيد، والبحث عن الطعام، أو التزاوج. على وجه الخصوص، فيتمّ نبذ الأشخاص الذين كانوا عنيفين، وعقابهم، أو في حالاتٍ متطرفة قتلهم.

لقد تمّ وصف هذه العملية ب "تدجين الذات".[1] فأسلاف الكلاب، والقطط، والخنازير تغدو أقل عدوانية إذ تمّ تدجينها وتشكيلها للشراكة مع البشر. في المقام الأول الحيوانات الأكثر ودّيةً فحسب كانت تقترب من المستوطنات؛ لقد تطوّعت لتصبح أسلاف كلّ من حيوانات المزارع والمنازل في وقتنا الحاضر.

بطريقةٍ مشابهة، قام البشر بتدجين أنفسهم عندما بدؤوا باختيار أصدقاءَ وشركاء استناداً إلى قدرتهم على العيش ضمن منظومة القبيلة الأخلاقية. في حقيقة الأمر، يظهرُ كلٌّ من أدمغتنا، وأجسادنا، وسلوكنا الكثير من علامات التدجين الموجودة لدى حيواناتنا المدجّنة: أسنان أصغر، وجسمٌ أصغر، وعدوانية محجّمة، وميل أكثر إلى اللعب، تتواصل حتى سن الرشد.[2] والسبب هو أنّ التدجين على وجه العموم يتّخذ سماتٍ تتلاشى في نهاية الطفولة وتبقيهم مولّفين للعيش. إنّ الحيوانات المدجّنة (بما فيها البشر) طفوليون، اجتماعيون، ولطفاء أكثر من أسلافهم المتوحّشين.

وهذه الغرائز القَبَليّة إنما هي نوعٌ من الغطاء، ومجموعةٌ من المشاعر المتعلّقة بالجماعة والآليات العقلية تمّ تأسيسها فوق طبيعتنا الأقدم والأكثر أنانية بوصفنا

---

(1) Hare, Wobber, Wrangham, unpublished; Wrangham 2001 . تدجين الذات (في بعض الأحيان تُدعى التدجين الآلي) هو صيغة لعملية أكثر عمومية معروفة بالاصطفاء الاجتماعي، وفيها ينجم الاصطفاء عن اختياراتٍ يقوم بها أعضاء الجماعة الخاصة بالمرء.

(2) Hare, Wobber, and Wrangham غير منشور.



مخلوقات ثديّة رئيسة.[1] قد يبدو أمراً محبطاً الاعتقاد بأنّ عقولَنا الصوابية عقولٌ قبَليّة أساساً، لكن فكّربالبديل. تجعل عقولنا القبَليّة من السهولة تقسيم أنفسنا، لكنْ دون مدة طويلة من حياتنا القبلية لن يكون هنالك ما يمكن تقسيمه في المقام الأول. سيكون هنالك فحسب عائلاتٌ صغيرةٌ من الباحثين عن الطعام ـ ليسوا اجتماعيين تقريباً مثل الصيّادين ـ لاقطي الثمار في يومنا هذا ـ يكدحون لكسب الرزق ويخسرون معظم عناصرهم ضحيّةً للجوع أثناء كلّ فترةٍ طويلةٍ من الجفاف. لم يحضّرنا التطوّر المتزامن لكلٍّ من العقول القبَليّة والثقافات القبلية من أجل الحرب؛ فهو حضّرنا على نحوٍ أوضح للتعايش السلمي ضمن الجماعات، و[حضّرنا] في العصور الحديثة، للتعاون على نطاقٍ واسع كذلك الأمر.

إنّ الارتقاء المتزامن للثقافة ـ والجينات هو العرض ج في الاختبار الثاني لاصطفاء الجماعة. وفور قيام أسلافنا بعبور نهر روبيكون ليغدوا مخلوقاتٍ ثقافيّةً بطريقةٍ تراكمية، بدأت جيناتهم بالارتقاء المتزامن مع اختراعاتهم الثقافية. على الأقل كانت بعض هذه الاختراعات موجّهةٌ نحو تمييز عناصر تجمّعٍ أخلاقي، وتعزيز تماسك الجماعة، وقمع العدوانية والطيران خارج السرب ضمن

[1] بالقول إنّ طبيعتنا القديمة كثديّات راقية هي أكثر انانيّة، لا أقصد معارضة عمل فرانس دي فال Frans de Waal وجود التقمص العاطفي وسواها من حجارة بناء الإحساس الأخلاقي لدى قرود الشمبانزي والبونوبو. إنّ ما أعنيه فحسب هو أنّ حجارة البناء تلك جميعها سهلة الشرح على أنها آليّات ساعدت الأفراد على الازدهار ضمن الجماعات. لا أظنّ أنك تحتاج إلى اصطفاء الجماعة كي تشرح طبيعة الشمبانزي، لكنْ أعتقد أنك تحتاجها لتشرح الطبيعة البشريّة. ينتقد دي فال (2006) "منظّريّ الطبقة القشرية" الذين يعتقدون بأنّ الأخلاق هي قشرة رقيقة تغطّي طبيعتنا الحقيقية، التي هي أنانية. أنا لست من منظّري الطبقة الرقيقة بذلك المعنى. على أية حال، أنا منظّر طبقةٍ رقيقة باقتراح أننا نحن البشر لدينا حالات تكيّفٍ حديثة، تشكّلت بفعل الاصطفاء على مستوى الجماعة، التي تطوّرت من طبيعتنا القديمة الأولى كمخلوقات راقية تجعلنا مختلفين جداً عن الكائنات الراقية الأخرى.



الجماعة، والدفاع عن المنطقة التي يشترك فيها التجمع الأخلاقي. وهذه هي على وجه التحديد أنواع التغييرات التي جعلت التحوّلات الكبرى تحدث.[1] وحتى لو لمْ يَقُمْ اصطفاء الجماعة بأيِّ دورٍ في ارتقاء أيّ كائنٍ ثديٍّ آخر، فلقد كان ارتقاء البشر على قدرٍ من الاختلاف منذ الوصول إلى القصدية المشتركة وتطور الثقافة - والجينات متزامناً إلى درجة أنَّ البشر قد يكونون حالةً خاصة. وكان الرفض الإجماليّ لاصطفاء الجماعة في الستينات والسبعينات، غير القائم في معظمه على مناقشاتٍ و"أمثلةٍ من أنواع أخرى، سابقاً لأوانه.

العرض د :من الممكن أن يكون الارتقاء سريعاً

متى على وجه التحديد أصبحنا اجتماعيين مفرطين؟ البشر في كلِّ مكانٍ هم اجتماعيون لدرجة تؤكد أنّ معظم التغيّرات الجينية حدثت قبل أن ينتشرأسلافنا خارج إفريقيا والشرق الأوسط قرابة 50000عاماً خلتْ.[2] (أميل إلى الشك في أنّ تطوّر العصبوية التعاونية كان ما مكّن هؤلاء الأسلاف من احتلال العالم والاستحواذ على منطقة إنسان نياندرتال الجغرافية.) لكن هل توقف الارتقاء المتزامن للثقافة والجينات عند هذا الحد؟ هل تجمّدت جيناتنا في مكانها، تاركةً كلّ التكيّف اللاحق كي يتم تناوله من قِبَل الاختراع الثقافي؟ على مدى عقود، قال الكثير من علماء الأنثروبولوجيا ومنظّري الارتقاء نعم. في مقابلةٍ عام 2000، قال العالم الباليونتولوجي أو الإحاثي* جاي جولد إن "الاصطفاء الطبيعي قد أصبح تقريباً غيرَ ذي أهمية في الارتقاء البشري" لأنّ

---

[1] أنظر Bourke 2011, pp. 3- 4

[2] ما عدا اثنين من أنواع الجرذان الخلود الإفريقية، وهي الثدييات الوحيدة المؤهلة على أنها اجتماعية أكثر من اللازم. تقوم الجرذان الخلود بإنجاز اجتماعيتهم الزائدة بالطريقة ذاتها لدى النحل والنمل ــ بواسطة كبت التناسل عند الجميع عدا زوجٍ متناسلٍ واحد، بحيث يكون كل أفراد المستوطنة أقارب عضيدين. كذلك الأمر، لأنهم حفروا أنفاقاً ممتدة تحت الأرض، فإنّ لديهم عشٌ من الممكن الدفاع عنه.



التغيير الثقافي يفعل "أنظمة ذات شأن" أسرع من التغيير الجيني. وبعد ذلك أكّد أنه "لم يكن في البشر تغيير بيولوجي طوال 40.000 أو 50.000 عام. فكلّ شيء اسمه ثقافة أو حضارة قمنا ببنائه بالجسد والدماغ ذاتهما." [1]

إذا ما اعتقدتَ بتأكيد جولد أنّ ما من ارتقاء بيولوجي قد حصل في السنين ال 50.000 ، عليك إذنْ أن تكون بالغ الاهتمام بحقبة البلياستوسين (المليوني عام تقريباً قبل صعود الزراعة)، وسوف تصرف النظر عن الهولوسين (السنوات 12.000 الأخيرة) على أنّ لا صلةَ لها بفهم الارتقاء البشري. لكن هل ال 12.000 الأخيرة رفة عين في زمن الارتقاء فقط؟ لم يرتئي داروين ذلك؛ لقد كتبَ تكراراً عن تأثيرات تم الحصول عليها خلال بضعة أجيال فحسب.

إنّ السرعة التي يحدث فيها التطور الجيني موضحةٌ خير إيضاح بواسطةِ دراسةٍ خارجةٍ على المألوف لديمتري بيلاييف، وهو عالمٌ سوفييتي تمّ إنزال مرتبته العلمية في عام 1948 بسبب إيمانه بعلم ماندل الوراثي. (تطلّبت الأخلاق السوفييتية الاعتقاد بأنّ السمات الملتَقَطَة أثناء فترة حياة الإنسان من الممكن نقلُها إلى أبناء المرء.)[2] انتقلَ بيلاييف إلى معهد بحوثٍ سيبيريا، حيث قرّرَ اختبار أفكاره عن طريق إجراء تجربة تناسلٍ على الثعالب. بدلاً من اختيار ثعالبَ اعتماداً

---

[1] بعض عناصر من بشر سابين Homo sapiens قد غادروا إفريقيا بحلول 70000 عاماً خلت، وكانوا يعيشون في إسرائيل **[معظم النخب الثقافية الأمريكية حتى الليبرالية منها تتجاهل وجود فلسطين ــ المترجم]** وحولها. أثناء هذا الزمن يبدو أن تناسلاً متداخلاً [interbreeding] مع بشر نياندرتال قد حصل (Green et al. 2010). قد يكون بعض البشر قد غادروا إفريقيا ما بين 70000 أو 60000 عاماً وارتحلوا من خلال اليمن وجنوب آسيا ليصبحوا أسلاف الشعب في غينيا الجديدة وأستراليا حوالي 50000 عاماً خلت. لكنّ الجماعة التي غادرت إفريقيا وإسرائيل **[فلسطين ــ المترجم]** حوالي 50000 عاماً خلت إنما هي الجماعة التي من المُعتقد أنّها سكنت أوراسيا والأمريكتين. بالتالي أستخدم 50000 خلت على أنها تاريخ التشتت، على الرغم من أنّ بعض الناس قاد غادروا قبل ذلك الحين ب 20000 عاماً خلت. أنظر Potts and Sloan 2010.

[2] Gould في مقابلة في *Leader to Leader Journal* 15 (Winter 2000). متوفر على الرابط http://www.pfdf.org/knowledgeecenter/journal.aspx?ArticleID=64 . تمّت إضافة التأكيد.



على نوعيَة جلودها، مثلما يفعل عادةً مهجّنوالثعالب، قام باختيارها بموجب وداعتها. مهما كانت جراء الثعالب أقل خوفاً من البشر فقد تم تزاوجها لإنتاج جيلٍ جديدٍ. وضمن أجيالٍ قليلة باتت الثعالب أكثر وداعة. ولكن وعلى نحوٍ أكثر أهمية، بعد تسعة أجيالٍ، بدأت سماتٌ جديدة بالظهور في جراءٍ قليلة، وكانت إلى حدٍّ كبيرذات الجراء التي تميّز الكلاب من الذئاب. على سبيل المثال، ظهرت بقعٌ من الفراء الأبيض على الرأس والصدر؛ وانكمش الفكان والأسنان؛ والذيول التي كانت مستقيمةً في السابق بدأت بالاعوجاج. وبعد ثلاثين جيلاً فحسب غدت الثعالب مدجّنةً تدجيناً بات يمكن معه تربيتها بوصفها حيوانات أليفة. ليودميلا تروت، التي عملت خبيرة في الجينات مع بيلاييف في المشروع والتي أدارته بعد وفاته، وصفت الثعالب بأنها "طيّعة، ومتشوّقة لجلب المسرّة، ومدجّنة على نحوٍ جليّ".[1]



الشكل 9. 3. ليودميلا تروت مع باقليك، سليل الجيل الرابع والعشرين لدراسة بيلاييف الأصلية

[1] يُعرَفُ هذا الأمر باللامركية. كان داروين يعتقد أيضاً، بشكلٍ خاطيء. كانت اللامركية مساعدةً لحكمٍ دكتاتوري مصمّم على إنتاج صنفٍ جديدٍ من الكائن البشري، الإنسان السوفييتي. تروفيم لايتشنكو كان عالم الأحياء المفضّل وليس ماندل.



ليس الاصطفاء على مستوى الفرد هو السريع فحسب. كذلك الأمر تُظهر دراسةٌ ثانية تمت على الدَّجاج أنَّ اصطفاء المجموعة من الممكن أن يؤدي إلى نتائجَ دراماتيكية. إذا ما اردتَ زيادة ناتج البيض، تُخبِرُك الحصافة أن تُزاوج الدجاجات التي تضع معظم البيوض فقط. لكنّ واقع صناعة البيض هي أنّ الدجاجات تعيش محشورةً مع بعضها في أقفاصٍ، وأفضل الدجاجات في وضع البيوض تميل لأن تكون أكثر عدوانيّةً، وهي دجاجات مسيطرة. لذلك، إذا ما استخدمت الاصطفاء الفردي (الدجاجات الأكثر إنتاجاً فحسب تفقس)، تنخفض الإنتاجية الإجمالية فعلياً لأنّ السلوك العدواني - بما في ذلك القتل وأكل لحوم البشر - يتصاعد.

في الثمانينات استخدم خبير الجينات وليام ميور اصطفاء الجماعة للالتفاف على المشكلة.[1] لقد عمل على أقفاص يحتوي كلٌّ منها اثنتي عشرة دجاجة، وقام ببساطة باختيار الأقفاص التي أنتجت معظم البيضات في كلّ جيل. من ثمّ لقّح كلّ الدجاجات في تلك الأقفاص لإنتاج الجيل التالي. ضمن ثلاثة أجيالٍ فحسب، هبطت مستويات العدائية. عند الجيل السادس، هبط معدل الوفيات من الخط القاعدي المريع 67 بالمئة إلى 8 بالمئة فقط. وقفز إجماليّ البيضات المنتوجة من قبل الدجاجة الواحدة من 91 إلى 237، على نحوٍ رئيس لأنّ الدجاجات بدأت تعيش حياةً أطول، وأيضاً لأنها كانت تضع بيضاتٍ أكثر في اليوم. كانت الدجاجات الخاضعة لاصطفاء الجماعة أكثر إنتاجيّةً من تلك التي خضعت لاصطفاء على المستوى الفردي. كما أنها بدت أشبه بصور الفراريج التي تراها في كتب الأطفال — ممتلئة وذات ريشٍ جيّد، على عكس الدجاجات المسحوقة، المعرّضة للضرب، والفاقدة جزئيّاً للريش الناجم عن الاصطفاء على المستوى الفردي.

---

(1) Trut 1999



من المحتمل أنّ البشر لم يتعرّضوا بتاتاً لضغط اصطفاء قويٍ ومتساوق مثل الذي خضعت له الثعالب والدجاجات، وهكذا سيستغرق الأمر أكثر من ستة أو عشرة أجيال لإنتاج سماتٍ جديدة؟ لكن إلى أي مدى أطول؟ هل يمكن للخريطة الوراثية البشرية الاستجابة إلى ضغوط اصطفاء جديدة في، قُلْ: ثلاثين جيلاً (ستمئة عام)؟ أم هل سيأخذ الأمر أكثر من خمسمئة جيل (عشرة آلاف عام) لكي ينتجَ ضغط الاصطفاءِ الجديد أي تكيّفٍ جينيّ؟

إنّ السرعة الفعلية للارتقاء الجيني سؤال يمكن الإجابة عنه بواسطة البيانات، وبسبب مشروع الخريطة الوراثية البشرية، هذه البيانات متوفرة لدينا في الوقت الحاضر. لقد قامت عدة فِرَقٍ بتتبّع الخرائط الوراثية لآلاف الأشخاص من كلّ قارّة. تتحوّل الجينات وتنتقل عبر جماعات السكان، لكن من الممكن تمييز هذا الانتقال العشوائي عن حالات تمّ فيها "سحب" الجينات بواسطة الاصطفاء الطبيعي.[1] النتائج مدهشة، وهي بالضبط عكس ادعاء جولد: تسارع الارتقاء الجيني على نحوٍ أوضح خلال الأعوام 50.000 الأخيرة. لقد بدأ معدّل تغيّر الجينات استجابةً لضغوط الاصطفاء بالتصاعد منذ 40.000 عامٍ خلت. غدا المنتى أكثر إفراطاً في الانحدار بعد 20.000 عاماً خلت. ووصل التغيّر الجيني قفزة تصعيدية أثناء الحقبة الهولوسينية، في كلّ من إفريقيا وأوراسيا.

ينطوي هذا الأمر على مغزىً عظيم. في السنوات العشر الأخيرة، قام خبراء الجينات باكتشاف كيف تكون الجينات فاعلة فحسب. والجينات على نحوٍ متساوق تنفتح وتُغلَق استجابةً لشروطٍ مثل الشدة النفسية، والجوع، أو المرض. الآنْ تخيّل الجينات الديناميكية التي تبني هياكلَ (الناس) الذين هم مجبرون تماماً على تعريض أنفسهم لمناخاتٍ، وحيواناتٍ ضاريّة، وخيارات غذائية، وبنىً اجتماعية، وأشكال فعاليات حربٍ جديدة. تخيّل كثافات السكان تتصاعد بسرعةٍ صاروخية أثناء الحقبة الهولوسينية، تصاعداً يوجد أناساً يضعون تحوّلاتٍ

(1) Muir 1996



جينيّةٍ قيد التفعيل. إذا ما ارتقى كلٌّ من تكيّفات الثقافة والجينات على نحوٍ متزامنٍ في "الفالتز الدوراني" (حسبما يصوغ الأمر ريتشرسن وبويد)، وحين يبدأ الشريك الثقافي فجأةً يرقص الجتريغ [رقصة بهلوانية]، ستقوم الجينات بالتقاط الإيقاع كذلك الأمر.[1] وهذا هوسبب الانطلاق الجيني في الحقبة الهولوسينية، ساحباً معه تحوّلاتٍ مثل جينة تقبّل اللاكتوز، أو الجينة التي غيّرت دماء التبيتيّين تغييراً أدى إلى أنهم استطاعوا العيش على ارتفاعاتٍ عالية.[2] لقد تمّ تعريف الجينات لهذه السمات القريبة زمياً وعشراتٍ سواها تواً.[3] إذا ما كان الارتقاء الجيني على توليف عظامنا، وأسناننا، وجلدنا واستقلابنا في بضعة آلافٍ من الأعوام حين تغيّر غذاؤنا ومناخاتنا، كيف لا يمكن للارتقاء ألاّ يقوم بسمكرة في أدمغتنا وسلوكنا في حين أن بيئاتنا الاجتماعية تعرّضت لمعظم التحوّل الجذري في تاريخ الثدييات العليا؟

لا أظنّ أن الارتقاء يستطيع خلق وحدة وظيفية عقلية من اللاشيء في ظرف 12.000عامٍ فقط، لكنني لا استطيع رؤية سبب وراء اقتلاع [انتزاع] السمات الموجودة ـ من قبيل الأسس الستة التي وصفتها في الفصلين 7 و8، أو الميل إلى الشعور بالعار ـ إذا ما تغيّرت الشروط ثمّ بقيت مستقرّةً طوال ألف عام. على سبيل المثال عندما يصبح مجتمع أكثر هرميّةً أو مغامرةً من الناحية التجارية، أو عندما

---

[1] Richerson and Boyd 2005 أنظر Hawks et al. 2007 ; Williamson et al. 2007 . يتمثّل الشرح المختصر في أنك تختبر الدرجة التي تميل فيها الجينة لسحب DNA المجاورة عندما تمرّ عبر التعديل الكروموسومي للانقسام المنصّف. إنّه مجرّد انتقال عشوائي، بالتالي التيارات الخلوية المجاورة لا يتم جرّها.

[2] Yi et al. 2010.

[3] يلاحظ ريتشرسن وبويد 2005أنّه عندما تتغيّر البيئات بسرعة، من قبيل كل بضعة ألفيات، الجينات لا تستجيب: والتكيّف كلّه يتم إنجازه بواسطة الاختراع الثقافي. لكنّهما صاغا نظريّتهما في وقتٍ ماضٍ عندما كان كلّ امرئٍ يفكر أن التطور الجيني كان يتطلّب عشرات أو آلاف السنين. في الوقت الحاضر حيث الجينات من الممكن أن تستجيب ضمن ألفيّةٍ واحدة، أعتقد أن بياني صحيحة هنا



تتبنى جماعة زراعة الأرُزّ، أو الرعي، أو التجارة، تبدّل هذه التغييرات العلاقات الإنسانية بطرقٍ عديدة، وتكافئ مجموعاتٍ مختلفة جداً من الفضائل.[1] سيحدث التغيير الثقافي بسرعة بالغة ـ من الممكن أن تحدث المنظومة الأخلاقية المبنيّة على ستة أسس تغييراً ضمن بضعة أجيال. لكن إذا ما بقيت هذه المنظومة الأخلاقية الجديدة نوعاً ما ثابتة لعدة عشراتٍ من الأجيال، سوف تعمل ضغوط الاصطفاء الجديد وقد يحصل ارتقاء متزامن جيني – ثقافيّ إضافي ما.[2]

الارتقاء السريع هو في العرض د في اختبار الاصطفاء الثاني لدى الجماعة. إذا ما أمكن أن يكون الاصطفاء الجينيّ سريعاً، وإذا ما تطوّرت الخريطة الوراثية البشرية على نحوٍ متزامنٍ مع الاختراعات الثقافية، تكاد تتحقق إمكانية أنّ تغيير الطبيعة البشرية قد تمّ في ظرف بضعة آلافٍ من الأعوام، في مكانٍ ما من إفريقيا، عن طريق اصطفاء الجماعة أثناء فترات قاسية على وجه التحديد.

على سبيل المثال، تقلّبَ المناخ في إفريقيا على نحو منفلت ما بين 70.000 و170.000عامٍ خلت.[3] ومع كلّ انتقالٍ من مناخ أكثر حرارةً إلى آخر أكثر

---

(1) Pickrell et al. 2009

(2) أنظر مثلاً، Clark 2007

(3) Potts and Sloan 2010 قد يخشى بعض القرّاء، ربما مثلما فعل جولد، بأنّه إذا ما تواصل التطوّر الجيني **أثناء** السنوات ال50.000، بالتالي قد تكون هنالك تباينات بين الأعراق. أعتقد أن هموماً كهذه قائمة لكن مبالغاً بها. هنالك ضغوط اصطفاء قليلة انطبقت بالمطلق على جميع الأوروبيين، أو الأفريقيين، أو الأسيويين. الأعراق على امتداد القارات ليسوا وحدات لها علاقة بالتحليل بالنسبة لاصطفاء الأخلاق. بالأحرى، كانت هنالك ضغوط اصطفاء كثيرة تواجهه كلّ جماعة تنتقل إلى الوسط البيئي الملائم، أو اتخذت طريقة جديدة لكسب العيش، أو تلك التي طوّرت طريقة معيّنة في تنظيم الزواج. علاوةً على ذلك، وعندما فضّل تطورالجين – الثقافة المتزامن مزايا محدد، لإنّ هذه المزايا كانت عادةً حالات تكيّف حيال بعض التغيّرات أو سواها، وهكذا فإنّ الخلافات ما بين الجماعات لا تفيد حالات الخلل. وفي نهاية الأمر، حتى إذا ما تجلّت فعلياً تباينات عرقية في السلوكيات الأخلاقية ذات صلةٍ بالتباينات الجينية، فإنّ الإسهام الجيني في هذا الأمر سيكون على الأرجح ضئيلاً بالمقارنة مع تأثيرات الثقافة. وكان من الممكن



برودةً، أو من مناخٍ أكثر رطوبةً إلى آخر أكثر جفافاً، تغيّرت موارد الغذاء وكان الجوع على نطاقٍ واسعٍ شائعاً. ربّما أحدث اندفاع بركانيٌّ كارثيّ قبل 74,000 عام خلت من بركانتوبا في إندونيسيا تغييراً جذرياً في مناخ الأرض أثناء عامٍ واحد.[1] مهما كان السبب، نعرف أنّ معظم البشر تقريباً لاقوا مصرعهم في مرحلةٍ ما أثناء هذه الفترة من الوقت. وكل شخصٍ على قيد الحياة في الوقت الحاضرمنحدرٌ من بضعة آلافٍ من الأشخاص الذين كُتِبَ لهم البقاء خلال واحدةٍ أو أكثر من طرق السكان الضيّقة.[2]

ماذا كان سرّهم؟ من المرجّح أننا لن نعرفَهُ، لكنْ لنتصوّرْ أنَّ 95 بالمئة من الغذاء في الأرض اختفى هذه الليلة بطريقةٍ سحريّة، مما يحتّم أنّ جميعنا تقريباً سنجوع حتى الموت في غضون شهور. القانون والنظام سينهار. ويليهما الفوضى العنف. من بيننا سيبقى على القيد الحياة بعد عامٍ من الآن؟ هل سيكونون الأفراد

لكلّ شخصٍ فبركة قصة كهذه فحسب في عام 1945 لشرح كيف أنّ الألمان تطوّروا ليكونا مناسبين تماماً للفتح العسكريتاري بينما يهود الأشكيناز تطوّروا ليكونوا خنوعين ومسالمين. لكن بعد خمسين، عند مقارنة إسرائيل بألمانيا، كان عليهم شرح نموذج السلوك المعاكس. (أشكر ستيفن بينكر Steven Pinker على هذا المثال). . أنظر أيضاً Richerson and Boyd 2005 فيما يتعلّق بنظريّةٍ حول كيف أنّ الفترة الأولى من عدم الاستقرار المناخي قد تكون دفعت إلى القفزة الأولى في تحوّل البشرية إلى مخلوقاتٍ ثقافية، وذلك حوالي 500.000 عاماً خلت.

[1] Ambrose 1998 . سواء كان هذا الاندفاع البركاني المحدد قد غيّر مسار الارتقاء البشري أم لا، أحاول شرح المسألة الأشمل بأنّ الارتقاء ليس عمليةً سلسةً أو تدريجية، كما هو مفتَرَضٌ في معظم حالات المحاكاة. كان من المحتمل وجود احداث "بجعات سود" كثيرة، وهي الأحداث البعيدة الاحتمال التي وصفها طالب [Taleb 2007] التي تعطّل جهودنا في تصميم نماذج العمليّات مترافقة مع متغيّرات قليلة وبعض الافتراضات القائمة على شروطٍ "اعتيادية".

[2] Potts and Sloan 2010. أنظر أيضاً Richerson and Boyd 2005 بشأن نظرية حول كيف من المحتمل أن تكون الفترات الأولية من عدم استقرار المناخ قد دفعت القفزة الأولى في تحول بني البشر إلى مخلوقات ثقافية، قبل حوالي 500.000 عاماً خلت.



الأضخم، والأقوى، والأعنف في كلّ بلدة؟ أوهل سيكونون الأشخاص الذين يتمكّنون من العمل ضمن جماعات لاحتكار إمدادات الغذاء المتبقّية، وإخفائها، واقتسامها فيما بينهم؟

تخيّل الآن مجاعاتٍ كهذه تحدث كلّ بضعة قرون، وتأمّل ما الذي ستحدثه أحداثٌ قليلةٌ كهذه لتجمّع الجينات. وحتى لو كان اصطفاء المجموعة محصوراً خلال بضعة آلافٍ من الأعوام، أو خلال الفترة الأطول ما بين 70,000 و140,000عامٍ خلت، من الممكن أن تقدّم لنا حالاتٍ تكيّفٍ على علاقة بالجماعة سمحت لنا بالاندفاع خارجين من إفريقيا بعد حالة الطريق الضيّق كي نحتلّ الكوكب ونسكنه.[1]

الأمر ليس برمّته عن الحرب

لقد عرضتُ اصطفاء الجماعة حتى الآن بأبسط صيَغِه: جماعاتٌ تتنافس فيما بينها كما لو كانت متعضيات فردية، وأكثر الجماعات تماسكاً تزيح من الوجود الجماعات الأقل تماسكاً وتحلّ مكانها أثناء الاحتراب ما بين القبائل. هذه هي الطريقة التي تخيّلها داروين للمرة الأولى. ولكن عندما قرأتْ المختصةُ في علم النفس الارتقائي ليزلي نيوسون مسوّدة هذا الفصل الأولية، أرسلت إليّ هذه الملاحظة:

> أعتقد أنّ من الأهمية بمكان عدم إعطاء القراء الانطباع بأنّ تنافس الجماعات يعني بالضرورة أن تكون الجماعات في حالة حربٍ أو

---

[1] الجزء الأخير من هذه الفترة هو عندما بدأ السجل الأثري يظهر لنا علاماتٍ من الأشياء المزيّنة، وحبات الخرز، والأنشطة الرمزية وشبه الدينية، والسلوك القبلي بشكلٍ أكثر عمومية. أنظر Henshilwwod et al. 2004 حول نتائج من كهف بلومبوسفي جنوب إفريقيا، حوالي، 75,000 عاماً. أنظر أيضاً Kellyy 1995; Tomasello et al., forthcoming, Wade 2009 . شيءٌ ما ممتع فعلاً كان يحدث في جنوب إفريقيا ما بين 70,000 و80,000 عاماً خلت.



قتالٍ فيما بينها. كانت تتنافس لتكون الأكثر فعاليةً في تحويل الموارد إلى ذرّية. تذكّر أيضاً أنّ النساء والأطفال كانوا أعضاءً مهمّين في هذه الجماعات.

بالطبع هي على صواب. لا يتطلّب اصطفاء الجماعة الحرب أو العنف. مهما كانت السمات التي تجعل الجماعة أكثر فعاليةً في الحصول على الغذاء وتحويله إلى أطفال فهي تجعل تلك الجماعة أكثر لياقةً من جيرانها. ويساعد اصطفاء الجماعة على التعاون، إذ إنّ القدرةعلى كبح السلوك اللااجتماعي وحثّ الأفراد على التصرّف بطرق تفيد جماعاتهم. وتفرض السلوكيات التي تخدم الجماعة في بعض الأحيان كلفةً مرعبةً على المارقين (كماهو الأمر في حال الحرب). لكن على وجه العموم، العصبوية يتمّ تركيزها في تحسين الرفاه للجماعة في الداخل، وليس لأذية جماعة الخارج.

باختصار

كان داروين يعتقد أنّ الأخلاق كانت تكيّفاً تطوّربواسطة الاصطفاء الطبيعي الذي يقوم بوظيفته على الصعيد الفردي وعلى مستوى الجماعة. حلّت القبائل التي تضمّ أعضاءً فاضلين أكثر مكان القبائل التي تضمُّ أعضاءً أنانيين أكثر. لكنّ تمّ التخلّص من فكرة داروين من العالم الأكاديمي عندما ناقش كلٌّ من ويليامز وداوكنز أنّ مشكلة الخارج عن السرب تحكم على اصطفاء المجموعة بالإخفاق. بعد ذلك دخلتِ العلوم فترةً مدتها ثلاثة عقود تمّ أثناءها التقليل من اهمية التنافس بين الجماعات وكلّ فردٍ ركّز على التنافس بين الأفراد ضمن الجماعات. في ظاهر الأمر كان لا بدّ من شرح أفعال الغيرية على أنها صيغٌ مقنّعةٌ للأنانية.

لكن في السنوات الأخيرة برز ثقافة بحث رفعت دور الجماعات في التفكير الارتقائي. يقوم الاصطفاء الوظيفي بعمله على مستويات متعددة على نحوٍ متزامن، في بعض الأحيان يتضمّن جماعات من المتعضيات. لا أستطيع القول بالتأكيد إنّ الطبيعة البشرية قد تشكّلت بواسطة اصطفاء الجماعة ـ هنالك



علماءُ أحترمُ آراءهم على طريق المناظرة. ولكن بوصفي مختصاً في علم النفس أقوم بدراسة الأخلاق، يمكنني القول إنّ الاصطفاء المتعدد المستويات سيصل إلى مدى بعيد في شرح لماذا يكون الناس في آنٍ معاً أنانيين أو جمعيين إلى هذا الحد.[1]

يوجد هنالك الكثير من ثقافة البحث منذ السبعينات تدفعنا إلى التفكير من جديد في اصطفاء الجماعة (بوصفه جزءاً من الاصطفاء متعدد المستويات). فقمت بتنظيم تلك الثقافة البحثية إلى أربع "حالات عرض" تكافئ مجتمعةً دفاعاً[2] عن اصطفاء الجماعة.

العرض أ: تحوّلات محورية تنتج متعضيات متفوقة . إنّ تاريخ الحياة على وجه الأرض يظهر أمثلةً متكررة ل "تحوّلات رئيسة". عندما يتم تغيير مشكلة الخارج عن السرب في مستوى واحد من الهرمية البيولوجية، وتبرزهيكليات (متعضيات متفوقة) أكبر وأكثر قوّة في المستوى التالي الأعلى ضمن الهرمية، متمتعة بمزايا جديدة من قبيل تقسيم العمل، والتعاون، والغيرية ضمن الجماعة.

---

[1] من أجل محاولةٍ لشرح العصبوية دون استحضار اصطفاء الجماعة، أنظر Tooby and Cosmides 2010 . أنظر أيضاً Henrich and Henrich 2007 ، هم يسمحون باصطفاء الجماعة الثقافي، لكنْ دونما تأثيراتٍ جينية. أعتقد أنّ هذه المقاربات من الممكن أن تشرح الكثير من عصبويتنا، لكنّ لا أظنّ أنهم يستطيعون شرح الأشياء من قبيل تبادل سمة خليّة النحل، الذي أصفه في الفصل التالي.

[2] كلّ هذه القضايا معقدة، وباعتباري مختصاً في علم النفس الاجتماعي لست خبيراً في أيّ من المجالات الأربعة التي قمت بمراجعتها. وهكذا قد يكون أكثر دقة وصف عرضي ليس بصفة مرافعة في محاكمةٍ قانونية، بل باعتباره استئنافاً مختصراً لدى محكمة العلم العليا يشرح لماذا أظن أنّ القضية يجب أن يعاد فتحها ومحاكمتها من قبل الخبراء، على ضوء الدليل الجديد.



العرض ب: القصدية المشتركة تولّد منظومات أخلاقية. كان عبور نهر الروبيكون الذي أتاح لأسلافنا القيام بوظيفتهم على أكمل وجه ضمن جماعاتهم بمثابة بروز قدرةٍ إنسانية على نحوٍ متفرّدٍ على الاشتراك في المقاصد والتصوّرات الذهنية الأخرى. ومكّنت هذه القدرة البشر الأوائل من التعاون، وتقسيم العمل، وتطوير قواعد سلوكية مشتركة ليحكم بعضهم على سلوك بعضٍ. كانت هذه القواعد السلوكية المشتركة بداية المنظومات التي تحكم حياتنا الاجتماعية في يومنا هذا.

العرض ج: الجينات والثقافات تتطوّر على نحوٍ متزامن. فور قيام أسلافنا بعبور نهر الروبيكون وبدئهم بالمقاصد المشتركة، بدأ ارتقاؤنا يصبح مسألةً ثنائية الخيوط. لقد أوجد الناس عاداتٍ، وقواعد سلوكية، ومؤسساتٍ جديدة غيّرت الدرجة التي كانت عندها الكثير من السمات الجماعاتية قابلة للتأقلم. ولا سيما منحنا الارتقاء الجيني الثقافي المتزامن مجموعة من الغرائز القبلية: نحن نحب منح علامة للانتماء القبلي، ومن ثمّ نتعاون على نحوٍ تفضيليّ مع أبناء جماعتنا.

العرض د: الارتقاء من الممكن أنْ يكون سريعاً. الارتقاء البشري لمْ يتوقفْ أو يتباطأ قبل 50.000 عامٍ خلت. لقد تسارع. كما وصل ارتقاء الثقافة – الجينات ذروةً نشاطٍ بالغ أثناء الأعوام الـ 12.000الأخيرة. لا نستطيع فحسب تفحّص الصيادين – لاقطيّ الثمار الحديثين وأفترض أنهم يمثّلون طبيعةً بشريةً كونية مثلما تمّ انغلاقها في المكان قبل 50.000 عامٍ خلت. ولا بد أن تبرز فترات التغيير البيئي الهائل (حسبما وقعت ما بين 70.000 و140.000عامٍ خلت)



والتغيير الثقافي (حسبما وقع أثناء الحقبة الهولوسينية) على نحوٍ أكثر جلاءً في محاولتنا فهم من نكون نحن، وكيفا حصلنا على عقولنا الصوابية.

لقد تمّ تشكيل معظم الطبيعة البشرية بواسطة الاصطفاء الطبيعي على مستوى الفرد. معظمها، وليس كلّها. لدينا حالات تكيّف قليلة ذات صلةٍ بالجماعة كذلك الأمر، حسبما اكتشف أمريكيون كثرٌ في الأيام التي تلت 9/11. نحن البشر لدينا طبيعةٌ مزدوجة ـ نحن ثدييات عليا أنانية تتعطّش لتكون جزءاً من شيءٍ ما أكبر وأنبل من أنفسنا. نحن 90 بالمئة شمبانزي و10 بالمئة نحل.[1] فإذا ما تبنّيتَ الادعاء مجازياً، فإن أمر العصبويّة والانتماء للخليّة التي يقوم بها الناس سيقدم مغزى أكبر بكثير. الأمر تقريباً كأنّ هنالك زرَّ تشغيلٍ موجوداً في رؤوسنا يفعّل إمكانيّةً صفة خليّة النحل عندما تتوفر الشروط الصحيحةُ تماماً.

[1] لا يجب تبنّي رقمي 90 بالمائة و10 بالمائة حرفياً. أحاول القول فحسب أنَ معظم الطبيعة البشرية كانت قد تقولبت بواسطة الأنواع ذاتها من العمليات على مستوى الفرد التي شكّلت طبيعة الشمبانزي، بينما تمّ تشكيل مقدارٍ محدود من الطبيعة البشرية بواسطة الاصطفاء على مستوى الجماعة، وهي عمليّةٌ مقترنةٌ بشكلٍ أكثر شيوعاً بالنحل، والنمل، والمخلوقات الاجتماعية المفرطة الأخرى. بالطبع التركيب النفسي للنحل لا علاقة له بالطبيعة النفسية للبشر ـ يقومون بإنجاز تعاونهم غير الاعتيادي دون أيّ شيءٍ يشبه الأخلاق أو المشاعر الأخلاقية. أنا فحسب أستخدم النحل على سبيل التوضيح بشأن كيف يوجدُ الاصطفاء على مستوى الجماعة لاعبين في الفريق.

10. زر تشغيل خليّة النحل



عاشراً

زرّ تشغيل خلية النحل

في أيلول من عام 1941، تمّ تجنيد وليام ماكنيل في الجيش الأمريكي. أمضى عدةَ أشهرٍ في تدريبٍ أساسي، تمثّل في الغالب بالمسير العسكري حول ميدان التدريب في تشكيلاتٍ متقاربة مع عشراتٍ من الرجال الآخرين. في البدء ظنّ ماكنيل أنّ المسير المنتظم كان طريقةً لتمضية الوقت، لأنّ قاعدته لم تكن لديها أسلحة يتم التدريب بواسطتها. لكنْ بعد بضعةِ أسابيع عندما بدأت الوحدة بالتناغم جيّداً، بدأ يجرّب وضعاً متغيّراً في وعيه.

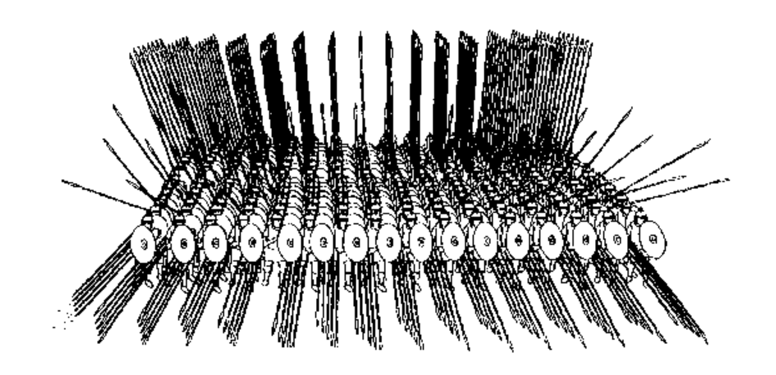
> الكلمات غير مناسبة لوصف الشعور الذي تمّ تحريضه عن طريق الحركة المطوّلة في انسجام انطوى التدريب عليه. ما أستعيده هو معنى الحالة الجيدة المنتشرة؛ بمعنى أكثر دقةً، إحساس غريب بالتضخيم الشخصي؛ نوعٌ من الانتفاخ، لأصبح أكبر من واقع الحياة، من جرّاء الاشتراك في طقسٍ جماعيّ.[1]

لقد قاتل ماكنيل في الحرب العالمية الثانية وأصبح فيما بعد مؤرّخاً مميّزاً. قاده بحثه إلى نتيجةٍ مفادها أنّ الاختراع المفصلي للجيوش اليونانية، والرومانية، وفيما بعد الأوروبية كان نوعاً من التدريب التناغمي ومسير الجيش المنتظم الذي أُجبِرَ عليه قبل سنواتٍ. وقدم فرضية أنّ عمليّة "الرابطة العضليّة" ـ التحرك معاً في

(1) McNeill 1995, p. 2



الزمن ـ هي آليّةً كانت قد تطوّرتْ قبل زمنٍ طويلٍ من التاريخ المدوّن من أجل توقيف عمل الذات وإيجاد كيانٍ عضويّ متفوّق آنيّ. يمكّنُ الرابط العضلي الناس من نسيان ذواتهم، والثقة ببعضهم، وممارسة وظيفتهم كوحدة، ومن ثمّ تحطيم الجماعات الأقل تماسكاً. ويُظهر الشكل 10. 1 الكيان العضوي المتفوّق الذي استخدمه الإسكندر الأكبر لهزيمة جيوش أكبر بكثير.



الشكل 10. 1 الكتيبة المقدونية

لقد قام ماكنيل بدراسةِ تقارير عن رجالٍ في المعركة ووجد أنّ الرجال جازفوا بحياتهم ليس ليس إلى حدٍّ بعيد من أجل بلدهم أو مُثُلِهم بل من أجل رفاقهم في السلاح. لقد اقتبس محارباً قديماً أعطى هذا المثال عما يحدث عندما "أنا" تصبح "نحن":

> سيُقرُّ كثير من المحاربين القدماء وهم صادقون مع أنفسهم، على ما أعتقد، أنّ تجربة الجهد المشترك في المعركة... كانت النقطة العليا في حياتهم. "نحن" العائدة لهم تمرّ على نحوٍ مفهومٍ إلى "نحن"، و"خاصّتي" تصبح "خاصتنا"، والقدر الفردي يفقد أهميته المركزية.... ولا أعتقد أنّ شيئاً أقل من تأكيد ضمان الخلود هو ما يجعل الفداء



في لحظاتٍ كهذه سهلةٌ نسبياً إلى هذه الدرجة... قد أسقط، لكن لا أموت، لأنّ ما هو حقيقيّ فيّ يسير نحو الأمام ويواصل الحياة في الرفاق الذين ضحّيتُ بحياتي في سبيلهم.[1]

فرضيّة خليّة النحل

في الفصل الأخير، اقترحت أنّ الطبيعة البشرية 90 في المئة شمبانزي و10 في المئة نحل. نحن مثل قرود الشمبانزي في كوننا ثدييات راقية تشكّلت عقولها بفعل منافسة لا هوادة فيها بين الأفراد مع جيرانهم. لقد انحدرنا من سلسلةٍ طويلةٍ من الفائزين الرابحين في لعبة الحياة الاجتماعية. ولهذا نحن جلاوكونيون [نسبةً إلى جلاوكون]، مهتمون عادةً بمظهر الفضيلة أكثر من واقعها (كما هو الحال في قصة جلاوكون عن خاتم جايجز).[2]

لكنّ الطبيعة البشريّة تتمتّع أيضاً بغطاء متأخر أكثر عصبوية. نحن مثل النحل في كوننا مخلوقاتٍ مفرطة في اجتماعيّتها تشكّلت عقولنا بفعل منافسة متواصلة بين جماعات سواها. نحن منحدرون من بشر أوائلٍ ساعدتهم عقولهم العصبوية على التماسك، والتعاون، والتفوق على الجماعات الأخرى. وهذا لا يعني أنّ أسلافنا كانوا لاعبين في فريقٍ دون عقلٍ أو شروط؛ يعني أنهم كانوا انتقائيين. في ظلّ الشروط الصحيحة، كانوا قادرين على دخول حالةٍ عقلية قوامها "واحد في الجميع، والجميع في واحد" كانوا يعملون فيها فعليّاً من أجل صالح الجماعة، وليس من أجل تقدمهم ضمن الجماعة فقط.

---

[1] J. G. Gray 1970/1959, pp. 44 - 47. المقبوسات من جراي نفسه، وهو يتحدث بصفته محارباً قديماً عبر عدة صفحات. لقد تم تجميع المقبوسات بهذه الطريقة من قِبَل ماكنيل McNeil 1995, p. 10.

[2] أنظر الفصل 4. أكرّر أن جلاوكون نفسه لم يكن جلاوكونيًا؛ كان شقيق أفلاطون، وفي كتاب ((الجمهورية)) يريد أن ينجح سقراط. لكنه شكّل النقاش بدرجةٍ من الوضوح ـ الناس المتحرّرون من كلّ التبعات المتعلّقة بالسمعة يميلون إلى التصرّف بشكلٍ مقيت ـ بحيث أستخدمه ناطقاً لوجهة النظر هذه، التي أعتقد بأنها صحيحة.



إنّ فرضيّتي في هذا الفصل هي أنّ بني البشر مخلوقات خليّة شرطية. لدينا القدرة (في شروطٍ محددة) لتجاوز المصلحة الذاتية وتذويب ذواتنا (آنياً ونشوانياً) في شيءٍ أكبرمن ذواتنا. تلك القدرة هي ما أدعوه زرّ تشغيل خليّة النحل. وزر تشغيل خليّة النحل، الذي أفترضه، هو حالة تكيّف ذات صلةٍ بالجماعة من الممكن شرحها "بواسطة نظرية الاصطفاء بين الجماعات"، حسبما قال ويليامز.[1] ولا يمكن شرحها بواسطة الاصطفاء على مستوى الفرد. (كيف كانت هذه القدرة الغريبة ستساعد الشخص على التفوّق في المنافسة على جيرانه في المجموعة ذاتها؟) إنّ زر تشغيل خليّة النحل هو حالة تكيّفٍ لجعل الجماعات أكثر تماسكاً، وبسبب ذلك أكثر نجاحاً في التنافس مع الجماعات الأخرى.[2]

إذا ما كانت فرضيّة خلية النحل صحيحة، فسيترتب عليها تداعيات هائلة فيما يتعلّق بالطريقة التي بها نشكّل المنظّمات، وندرس الدين، ونبحث عن المعنى والبهجة في حياتنا.[3] هل هو حقيقي؟ وهل زر تشغيل خلية النحل موجود؟

الأحاسيس الجمعية

عندما شرع الأوروبيون باستكشاف العالم في أواخر القرن الخامس عشر، جلبوا معهم تنوعاً غير اعتياديٍ من النباتات والحيوانات. فلكل قارةٍ عجائبها؛ وكانت تعددية العالم الطبيعي هائلة تفوق الخيال. لكنّ التقارير عن سكان هذه البلدان النائية كان، بطرقٍ ما، أكثر تماثلاً. لقد شاهد الرحّالة الأوروبيون في كل القارات أناساً يأتون مجتمعين بكثرة للرقص حول النيران، منسجمين مع

---

[1] G. C. Williams 1966, pp. 92 -93; أنظر مناقشة ويليامز في الفصل السابق.

[2] شرحت هذه المناقشة للمرة الأولى في Haidt, Seder, and Kesebir 2008، حيث استقصيت تضمينات التركيبة النفسية لخليّة النحل من أجل التركيبة النفسية الإيجابية والسياسة العامة.

[3] إن استخدامي كلمة يتوجّب في هذه الجملة عملي واقعي بشكلٍ مجرّد، وليس معيارياً. أقول إذا ما رغبت بإنجاز X، يتوجّب عليك بالتالي أن تعرف حول جوهر خلية النحل عندما تضع خطتك لإنجاز X. أنا لا أحاول أن أخبر الناس ما هو هذا ال X.



ضربات الطبول، تقريباً حتى الإنهاك في الغالب. في كتاب ((الرقص في الشارع: تاريخٌ من البهجة الجمعيّة)) تصف باربارا أهرنرايش كيف كانت ردود فعل الرحالة الأوروبيين حيال هذه الرقصات: بالاشمئزاز. لقد جعلت الأقنعة، وطلاء الجسم، والصرخات من الحلوق الراقصين يبدون أشبه بالحيوانات. وكانت الأجساد المتموّجة مع الإيقاع والإيماءات الجنسية الصامتة عرضياً، بالنسبة إلى معظم الأوروبيين، مخزية، و مضحكةً في غرابتها، و"همجية" كلياً.

لم يكنْ الأوروبيون مستعدين لفهم ما كانوا يشاهدونه. وكما تناقش أهرينرايش، الرقص الجماعي والباعث على النشوة هو تقريباً "تقنيةٌ حيوية" كونية لربط الجماعات مع بعضها. [1] وهي توافق مع ماكنيل أنه صيغةٌ من الرباط الجسدي. وهو يعزّز الحب، والثقة، والمساواة. كان شائعاً في اليونان القديمة (فكّرْ بديونيزيوس وعبادته) وفي المسيحية الأولى (التي تقول أنها دين "قائم على الرقص" حتى أنّ الرقص في الكنيسة تم قمعه في القرون الوسطى).

لكنْ إذا ما كان الرقص الباعث على النشوة مفيدا وواسع الانتشار إلى هذا الحد، إذنْ لمَ أقلع الأوروبيون عنه؟ إنّ شرحَ إهرينرايش التاريخي متنوع الظلال إلى حدٍ بعيد لكي يتم تلخيصه هنا، لكنّ الجزء الأخير من القصة هو صعود الفردية والأفكارالأكثر تهذيباً عن الذات في أوروبا، بدءاً من القرن السادس عشر. لقد تسارعت هذه التغييرات الثقافية أثناء عصر الأنوار والثورة الصناعية. إنّها ذات العملية التاريخية التي أنتجت ثقافة **غريب الأطوار** في القرن التاسع عشر (أي غربي، متعلّم، مصنّع، غني، ديمقراطي). [2] مثلما قلتُ في الفصل 5، كلما ازداد **غريب الأطوار** لديك، ازداد إدراكُكَ لعالم مليء بالمجسّمات المنفصلة، أكثر من العلاقات. وكلما ازداد **غريب الأطوار** لديك، ازداد فهم ما يفعله هؤلاء "الهمج" صعوبةً.

---

[1] تمّ تطوير الفكرة في زمن أقدم من قبَل فريمان وماكنيل Freeman 1995 and by McNeill 1995.

[2] يأتي كل من اللفظة الأوائلية والمفهوم من Henrich, Heine, and Norenzayan 2010



كانت إيهرينرايش مندهشةً لاكتشاف كم هي ضئيلةٌ المساعدة التي يمكننا الحصول عليها من علم النفس في مسعاها لفهم البهجة الجمعية. يتمتع علم النفس بلغةٍ غنيّةٍ لوصف العلاقات بين زوجين من الأشخاص، من الانجذابات العابرة إلى الحب الذي يذيب الأنا إلى الهوس المرضي. ولكن ماذا بشأن الحب الذي يوجد بين عشرات الأشخاص؟ تلاحظ أنه "إذا كان الانجذاب المثلي هو الحب الذي (لا يجرؤ على البوح باسمه)"، والحب الذي يربط الأشخاص إلى الجمعيّ لا اسمَ له كي يبوحَ به".[1]

من بين الباحثين القلائل الذين عثرت عليهم في مسعاها كان إميل دوركهايم. لقد أكّد دوركهايم أنّ هنالك "حقائق اجتماعية" كانت موجودة ولم تكنْ قابلة للتحوّل إلى حقائق عن الأفراد. تبرز الحقائق الاجتماعية ـ من قبيل معدّل الانتحار أو قواعد السلوك ـ عندما يتفاعل البشر. وهي على القدر ذاته من الواقعية والجدارة بالدراسة (بواسطة علم الاجتماع) مثلما يخضع الناس وحالاتهم الذهنية (لدراسة علم النفس). لم يكن دوركهايم على معرفةٍ بنظرية الانتقاء متعدد المستويات والتحوّلات الكبرى، لكن علم الاجتماع لديه يتناسب على نحوٍ خارقٍ مع الفكرتين كلتيهما.

لقد انتقد دوركهايم على نحوٍ متواترٍ معاصريه، مثل فرويد، الذين حاولوا شرح الأخلاق والدين باستخدام التركيبة النفسية للأفراد وعلاقاتهم القائمة على الثنائية. (الله هو شخص الأب، قال فرويد). ناقش دوركهايم، بالمقابل، أنّ الإنسان بوصفه نوعاً بيولوجياً *Homo sapiens* كان حقيقةً الإنسان بوصفه كائناً ثنائياً *Homo duplex*، أي مخلوقاً موجوداً على مستويين: بصفته فرداً وبصفته جزءاً من مجتمعٍ أكبر. واستنتج من دراساته في الدين أن الناس يتمتّعون بمجموعتين متمايزتين من "العواطف الاجتماعية"، مجموعة لكلّ مستوى. المجموعة الأولى من العواطف "تربط كلّ فردٍ إلى شخص أخوته المواطنين: وهذه

[1] Ehrenreich 2006, p. 14



تتجلّى ضمن المجتمع المحلّي، في علاقات الحياة القائمة يومياً. وتتضمن هذه عواطف الشرف، والاحترام، والمحبة والخوف التي قد نشعر بها حيال بعضنا."[1] من الممكن شرح هذه العواطف بواسطة الاصطفاء الطبيعي الذي يقوم بوظيفته على مستوى الفرد: تماماً كما قال داروين، الناس يتجنّبون شركاءً يفتقدون إلى هذه العواطف.[2]

ولكنّ، لاحظَ دوركهايم بأنّ الناس أيضاً كانوا يتمتعون بالقدرة على تجريب مجموعةٍ أخرى من المشاعر:

> المشاعر الثانية هي تلك التي تربطني إلى كيانٍ إجتماعيٍّ ككل؛ وتعرب هذه عن نفسها في المقام الأول من خلال العلاقات بين المجتمع مع المجتمعات الأخرى، ومن الممكن تسميتها "داخل ـ اجتماعي". المجموعة الأولى من المشاعر تترك سيادتي وشخصيّتي سليمة تقريباً. مما لا شكَّ فيه أنها تربطني إلى الآخرين، ولكن دون أنْ تأخذَ الكثيرمن استقلاليّتي. عندما أقوم بعملٍ تحت تأثير المشاعر الثانية، بالمقابل، <u>أنا ببساطة جزءٌ من كلّ، الذين أتبع أفعالهم، وأخضع لنفوذهم.</u>[3]

لقد وجدتُ من المذهل أن دوركهايم يستعيد منطق الاصطفاء متعدد المستويات، مقترحاً أنّ مجموعةً جديدة من العواطف الاجتماعية توجَدُ لمساعدة الجماعات (وهي أشياءٌ حقيقية) على صعيد علاقاتهم "الاجتماعية الداخلة". إنَّ عواطف المستوى الثاني تدير زر تشغيل خليّة النحل، وتوقف عمل الذات، وتفعّل الغطاء الجماعاتي، وتسمح للشخص أنْ يصبح "ببساطة جزءاً من كل".

---

(1) Durkheim 1992/1887, p. 222

(2) كما هو موصوف في الفصل 9؛ حول "الاصطفاء الاجتماعي"، أنظر Boehm 2012

(3) Durkheim 1992/ 1887; pp. 219--20 ؛ تمّت إضافة التأكيد.



الأكثر أهميةً في تفاصيل دوركهايم العالية هذه هو مستوى "الفوران الجمعية"، التي تصف العاطفة والنشوة التي من الممكن أن تحدثها الطقوس الجمعية. حسبما صاغها دوركهايم:

> إنّ فعل التجمّع بحدّ ذاته هو على نحو استثنائي منبّه قويّ. فور قيام الأفراد بالتجمّع سويةً، يتم توليد نوعٌ من الكهرباء من تقاربهم اللصيق ويطلقهم إلى أوج غير اعتيادي من الشعور غير السوي بالقوة.[1]

في حالةٍ كهذه، "تصبح الطاقات الحيوية مفرطةً في الإثارة، والأهواء أكثر كثافةً، والعواطف أقوى."[2] اعتقد دوركهايم أنّ هذه العواطف الجمعية تسحب البشر تماماً ولو مؤقتاً نحو الأعلى من مملكتين خاصتين بنا، مملكة المقدس، حيث تختفي الذات وتسود المصالح الجمعية. وتكون مملكة المدنّس، بالمقابل، هي العالم الاعتيادي يوماً بيوم حيث نقضي معظم أعمارنا، مهتمّين بشأن الثروة، والصحة، والسمعة، لكننا منزعجون أن هناك، في مكانٍ ما، شيء ما أسمى وأنبل.

اعتقد دوركهايم أن تحرّكاتنا ذهاباً وإياباً ما بين هاتين المملكتين تسبّب أفكارنا عن الآلهة، والأرواح، والسماوات، وفكرة النظام الأخلاقي الموضوعي بحد ذاتها. إنّ هذه حقائق اجتماعية لا يمكن لعلماء النفس الذين يدرسون حالات فردية (أو ثنائيات) فهمها بأيّ طريقةٍ أكثر من إمكانية الاستدلال على بنية خلية النحل من قِبَل علماء الحشرات الذين يقومون باختبار نحلات وحيدة (أو أزواج منها).

[1] Durkheim 1995/1915, p. 217

[2] Durkheim 1995/1915, p. 424



طرق كثيرة جداً لإدارة زرّ التشغيل

يبدو الهياج الجمعي عظيماً، أليس كذلك؟ من السوء بمكانٍ أنك تحتاج إلى ثلاثة وعشرين صديقاً ومَشعَلة للحصول عليه. أو هل تفعل ذلك؟ أحد أكثر الحقائق خداعاً بشأن زر تشغيل خلية النحل هو أنّ هناك طرقاً كثيرة لتشغيله. حتى لو أنك تشك بأنّ زرّ التشغيل هو حالة تكيّف على مستوى الجماعة، آمل أنك ستوافق معي أنّ زرّ التشغيل موجود، وهذا على وجه العموم يجعل الأشخاص أقل أنانية وأكثر محبةً. وهنا ثلاثة أمثلة من إدارة زرّ التشغيل التي ربما جرّبتها بنفسك.

1. رهبة في الطبيعة

في ثلاثينات القرن التاسع عشر، ألقى رالف والدو إيمرسون مجموعةً من المحاضرات عن الطبيعة التي شكّلت أساس المدرسة الأمريكية المتعالية*، وهي حركةٌ رفضت التعالي الثقافي التحليلي في أرفع الجامعات الأمريكية. ناقش إيمرسون أنّ أعمق الحقائق يجب معرفتها عن طريق الحدس، وليس المنطق، وكانت تجارب الرهبة في الطبيعة من بين افضل الطرق لإحداث حالات حدسٍ كهذه. لقد وصف شعور تجدد الشباب والبهجة التي حصل عليها من التطلّع إلى النجوم، أو إلى أمشهد من خلال مجازٍ ضيّق من الأرض الزراعية المنبسطة ، أو من مسيرٍ بسيطٍ في الغابات:

> إنّ الوقوف على الأرض العارية ، - وقد استحمّ رأسي بالنسيم العليل وتم رفعه إلى الفضاء اللامتناهي -، الكل يعني أنّ الأنا تتلاشى. أتحوّلُ إلى بؤبؤٍ شفاف؛ أنا لا شيء؛ أرى كل شيء؛ كلّ تيارات الكيان المطلق تسري من خلالي؛ وأنا جزءٌ أو ذرّة من الله.[1]

---

* مدرسة تقول إن اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر لا عن طريق الخبرة أو التجربة ــ المورد

[1] Emerson 1960/1838, p. 24



يسجّل داروين تجربةً مشابهةً في سيرته الذاتية:

> في دفتر يومياتي كتبت ذلك بينما وقفت وسط جلال غابةٍ برازيلية، "من غير الممكن إعطاء فكرةٍ ملائمة عن مشاعر الروعة الأسمى، والإعجاب، والحب الغامرالذي يملأ العقل ويسمو به." أتذكّر تماماً اقتناعي أنّ في الإنسان ما هو أكثر من مجرّد تنفس الجسد.[1]

لقد وجد كلّ من إيمرسون وداروين في الطبيعة مدخلاً ما بين مملكة المدنّس ومملكة المقدس. حتى إذا كان زرّ تشغيل خلية النحل في الأصل حالة تكيّفٍ على علاقة بالجماعة ، من الممكن تدويره عندما تكون وحيداً مع مشاعر الرهبة في الطبيعة، مثلما عرف المتصوّفون والزاهدون على مدى آلاف السنين.

يتمّ إطلاق شعورٍ بالرهبة في أغلب الوقت عندما نواجه أوضاعاً ذات سمتين: الضخامة (شيءٌ ما يغمرنا ويجعلنا نشعر أننا صغار) والحاجة إلى التكيّف (أي أنّ تجربتنا لا يمكن دمجها بسهولةٍ في بنانا العقلية القائمة؛ علينا "تكييف" التجربة عن طريق تغيير هذه البنى."[2] تفعل الرهبة فعل زر تعديل البرنامج: تجعل الناس ينسون أنفسهم وهمومهم الصغيرة. تفتح الرهبة امكانيات جديدة، وقيماً، وتوجهات في الحياة. إنّ شعور الرهبة واحد من أكثر المشاعر ارتباطاً بزر تشغيل خلية النحل، إلى جانب الحب الجمعي والبهجة الجمعية. ويصف الناس الطبيعةَ بمصطلحاتٍ روحية على وجه التحديد ـ مثلما فعل كل من إيمرسون وداروين ـ لأنّ الطبيعة من الممكن أنْ تحرّض زر تشغيل خلية النحل وتوقف عمل الذات، جاعلةً إيّاك تشعر أنك <u>ببساطة جزءٌ من كل</u>.

---

[1] من سيرة داروين الذاتية، تمّ اقتباسها من قبل Wright 1994, p. 364

[2] Kelner and Haidt 2003



2. عوامل دوركهايمية

عندما استولى كورتيز على المكسيك في عام 1519، وجد أنّ الأزتيك يمارسون ديناً قائماً على نباتات فطر تحتوي على هاليوسينوجين بسيلوسيبين. كانت نباتات الفطر تُدعى تيوناناكاتل ـ حرفياً "جسد الله" باللغة المحلية. كما لاحظ أوائل المبشّرين المسيحيين تشابهاً بين أكل الفطر والقربان المسيحي المقدس، لكنّ الممارسة الأزتيكية كانت أكثر من طقسٍ رمزي. لقد انتقل تيوناناكاتل بالناس مباشرةً من مملكة المدنّس إلى مملكة المقدس في حوالي ثلاثين دقيقة.[1] يظهر الشكل 10 . 2 إلهاً على وشك إمساك شخصٍ آكلٍ للفطر، من لفيفة بردي أزتيكية تعود إالى القرن السادس عشر. كما ركّزت الممارسات الدينية في شمال شعوب الأزتيك على التهام البيّوت*، الذي يتم قطافه من صبّارٍ يحتوي على الميسكالين. وركّزت الممارسات الدينية جنوب شعوب الأزتك على استهلاك أياهواسكا (وتعني "كرمة الروح")، وهي نوعٌ من الشراب المخمّر من نباتٍ معرّش وورق يحتوي على د م ت (dimethyltriptamine).

لقد تمّ تصنيف هذه المخدرات الثلاثة معاً على أنّها مركبات هالوسينوجين (إلى جانب LSD ومركّبات مخدّرة أخرى) لأن الفئة من شبه القلويات المماثلة الأخرى في مخدّراتٍ كهذه تُحدث هلوساتٍ بصريّةٍ وسمعيّة. لكن أعتقد أنّ هذه المخدرات من الممكن كذلك الأمر أن تُدعى عوامل دوركهايمية، بافتراض قدرتها الفريدة (على الرغم من أنّها غير موثوقة) على توقيف عمل الذات وتقدّم للناس تجارب يصفونها لاحقاً بأنها "دينية" أو "تحويلية".[2]

---

[1] من أجل مراجعة حذرة وفي الغالب نقدية بشأن الادعاءات المنفلتة التي طُرحت في بعض الأحيان حول الفطر والتاريخ الإنساني، أنظر Lechter 2007 . يقول ليشتر أنّ الدليل من أجل استخدام الفطروسط شعب الأزتيك بالغ القوة.

* ضربٌ من الصبار الأمريكي محتوٍ على مادةٍ مخدرة ـ المورد

[2] أنظر سلسلة مطوّلة من تجارب المخدرات في موقع www.Erowid.org. فيما يتعلّق بكلّ مركّب مسبب للهلوسة هنالك الكثير من القصص حول تجارب باطنية والكثير من الرحلات السيئة والمرعبة.



لدى معظم المجتمعات التقليدية طقسٌ ما من أجل تحوّل الصبية إلى رجال والبنات إلى نساء. إنّ الأمرعادةً أكثر من قضيب ميتزفا عقابي شديد وهو على نحوٍ متكررٍ يتضمّن خوفاً، وألماً، ورمزية الموت والبعث، وإظهار المعرفة من قبل الآلهة والكبار.[1] كما استخدمت مجتمعاتٌ



الشكل 10 .2 آكل فطرٍ ازتيكيٍّ على وشك تعرّضه للانتقال برشاقة إلى مملكة المقدس. التفاصيل من مخطوطة ماجليابيتشيانو، CL.XIII.3، القرن السادس عشر.

كثيرة مخدّرات تحدث الهلوسة من أجل تحفيز هذا التحوّل. تقوم المخدّرات بتدوير زرّ تشغيل خلية النحل وتساعد الطفل الأناني على الاختفاء. من ثمّ يتمّ التعامل مع الشخص الذي يعود من العالم الآخر على أنّه راشدٌ مسؤول من الناحية الأخلاقية. تستنتج إحدى المراجعات الأنثروبولوجية لطقوسٍ كهذه: "لقد تمّ إحداث هذه الحالات لمضاعفة التعلّم وخلق رابط ما بين أعضاء جماعةٍ عصبة، عند الحاجة، ليتمّ دمج الحاجات النفسية الفردية ضمن حاجات الجماعة الاجتماعية".[2]

[1] من أجل المثال وتحليل طقوس الدخول في الطور الجديد، أنظر Herdt 1981 .

[2] Grob and de Rios 1994.



عندما يتناول الغربيون المخدرات، منقطعين عن الطقوس والشعائر، فهم لا يلتزمون عادةً بأية جماعة، لكنّهم في الغالب يخوضون تجارباً من الصعب تمييزها عن "تجارب الذروة" التي وصفها عالم النفس الإنساني آبي ماسلو.[1] في إحدى التجارب الخاضعة للسيطرة، والتي تمّ إجراؤها قبل جعل المخدرات غير شرعية في معظم البلدان الغربية، تم تجميع عشرين طالباً دارساً للاهوت في قبو مصلّى صغير بكنيسة في بوسطن.[2] تطلّب الأمر برمّته حبة، لكن طوال الدقائق العشرين الأولى، لم يعرفْ أحدٌ من أخذ بسيلوسيبين ومن أخذ نياسين (عبارة عن فيتامين B يمنح الناس شعوراً دافئاً غامراً). لكن عند مرور أربعين دقيقة من التجربة، بات الأمر واضحاً. العشرة الذين أخذوا نياسين (ومن كان أوّل من شعر بشيئ ما يحدث) كانوا ملتصقين بالأرض يأملون خيراً للعشرة الآخرين في رحلتهم الخيالية.

قام منفّذو التجربة بتجميع تقارير مفصّلة من المشاركين قبل الدراسة وبعدها، إضافةً إلى ستة أشهر لاحقاً. فوجدوا أنّ البسيلوسيبين أحدث تأثيراتٍ مهمة من الناحية الإحصائية على تسعة أنواع من التجارب: (1) وحدة، تتضمن فقدان الإحساس بالنفس، وشعوراً بالوحدانية الألوهية؛ (2) شفافية الزمن والفضاء، (3) مزاج إيجابي محسوس بعمق، (4) إحساس بالقداسة، (5) إحساس بالحصول على معرفةٍ حدسية بدت حقيقية على نحوٍعميق وموثوق؛ (6) حالة التناقض الظاهري، (7) صعوبة وصف ما كان قد حدث، (8) سرعة الزوال، إذ يعود كل شيء إلى الوضع الاعتيادي في غضون ساعاتٍ قليلة، (9) استمرار التغيّرات في الموقف والسلوك.

---

[1] أنظر على وجه الخصوص Appendix B in Maslow 1964 . يدرج ماسلو قائمة مؤلفة من خمسةٍ وعشرين علامة مميزة، تتضمن: "يتمّ إدراك الكون برمّته على أنه كلٌّ مندمج وموحّد"؛ "يتم النظر إلى العالم.... على أنّه جميلٌ فحسب"؛ "يصبح مجرّب تجربة الذروة أكثر محبّة وقبولاً."

[2] Pahnke 1966



بعد انقضاء خمسةٍ وعشرين عاماً، قام ريك دوبلن باستقصاء تسعة عشر من المشاركين الأصليّين في التجربة وأجرى مقابلاتٍ معهم.[1] واستنتج أنّ "كل المشاركين ممن تناولوا بسيلوسبين واشتركوا في عملية المتابعة، لكن ليس كل حالات التحكم، ما زالوا يُعَدّون تجربتهم الأصلية ذات عناصر باطنية وأنها قدمت إسهاماً إيجابياً قيماً على نحوٍ متفرّد لحياتهم الروحية." ولقد استعاد أحد المشاركين ممن تناولوا البسيلوسيبين تجربته على هذا النحو:

> على حين غرّة شعرت بشئٍ من الانجذاب إلى اللانهاية، وعلى الفور فقدت الصلة مع عقلي. شعرتُ بأنني كنت قد وقعت في شرك ضخامة الخليقة.... في بعض الأحيان تتطلّع إلى الأعلى وترى الضوء على المذبح وكان ضوءاً فحسب وإشعاعاتٍ تعمي البصر.... لقد تناولنا كميةً متناهيةً في الصغرمن البسيلوسيبين، وبالرغم من ذلك وصلتني باللانهاية.

3. حالات هياج

دائماً ما اقترنت موسيقى الروك بالانغماس المنفلت في الملذات والشهوة الجنسية. وغالباً ما شارك الآباء الأمريكان في الخمسينات في غالباً ذعر أولئك الأوروبيين في القرن السابع عشر الذين واجهتهم عملية الرقص حتى النشوة لدى "المتوحشين". لكن في الثمانينات، قام الشباب الانكليز بخلط التقنيات الجديدة بعضها ببعضٍ لخلق نوع جديد من الرقص الذي استبدل بالشهوة الجنسية والفردية للروك مشاعر أكثر جماعية. لقد أحضرت التطورات في مجال الألكترونيات

[1] Doblin 1991 . قال أحد المشاركين الخاضعين للسيطرة أن التجربة قد أنتجت نمواً مفيداً، وأنّ، من دواعي السخرية، ذلك كان لأنها أقنعت المشارك بتجربة عقاراتٍ مخدّرة بأسرع وقتٍ ممكن. تضيفُ دراسة دوبلن ملاحظة هامة لم يتم تفصيلها في دراسة بانكيه الأصلية: لقد جرّب معظم المشاركين ممن تناولوا البسيلوسيبين بعض الخوف والسلبية طوال فترة التجربة، على الرغم من أنّ الجميع قالوا أنّ التجربة برمتها كانت بالغة الإيجابية.



أنواعاً جديدة وأكثر تخديراً من الموسيقى، من قبيل التكنو، والترانس، والهاوس، والدرم، والباس. كما جعلت التطوّرات في تقنية الليزر من الممكن إدخال مؤثراتٍ بصرية إلى الحفل. وكذلك جعلت التطورات في علم العقاقير حشداً من العقاقير متوفرةً للطبقة الراقصة، ولا سيما MDMA ، وهو تنوّع من الأمفيتامين يعطي الناس طاقةً طويلة الأمد، إلى جانب مشاعر حبٍ وانفتاح عميقة. (على نحوٍ جليّ، الإسم الشائع MDMA هو النشوة). وعندما يتم دمج بعض من كل هذه المكوّنات، تكون النتيجة عميقةً الجذب عمقاً يجعل الشبان يبدؤون الزحف آلافاً إلى حفلات رقصٍ طوال الليل، أولاً في المملكة المتحدة ثم، في التسعينات، عبر أرجاء العالم المتطور.

يوجد وصفٌ لتجربة هيجان في سيرة طوني هسيه الذاتية بعنوان ((توصيل السعادة)). هسيه (ولفظها "شيه") هو CEO لموزّع عبر الشبكة العنكبوتية Zappos.com . لقد جمع ثروة في الخامسة والعشرين من عمره عندما باع شركته التقنية المبتدئة لشركة مايكروسوفت. على مدى السنوات القليلة التالية كان هشيه يتعجّب ماذا يفعل بحياته. كان لديه مجموعة صغيرة من الأصدقاء الذين اعتادوا التواجد معاً في سان فرانسيسكو. في أول مرة حضر هشيه و"قبيلته" (كما دعوا أنفسهم) حفلة هياج، قامت بإدارة زر تشغيل خلية النحل الخاصة به. وهنا وصفه:

> ما جربته بعد ذلك غيّر منظوري إلى الأبد.... نعم، الديكورات وتشكيلات الليزر كانت ممتازة، ونعم، كانت هذه أضخم قاعة بمفردها ملآى بأشخاصٍ يرقصون وقعت عيني عليها. لكنّ أيّاً من هذين الأمرين لم يشرح مشاعر الرهبة التي كنت أجربها.... بصفتي الشخص الأكثر منطقيةً وعقلانيةً في المجموعة، كنت مندهشاً إذ وجدتُ نفسي مغموراً بإحساس كاسح من الروحانية ـ ليس بالمعنى الديني، لكنْ بمعنى <u>صلةٍ عميقة مع كلّ شخص موجود هناك إضافة إلى معظم الكون.</u> كان هنالك إحساسٌ بانتفاء القدرة على المحاكمة.... هنا لم يكن هناك إحساسٌ <u>بوعي الذات</u> أو شعورٌ بأنّ



أيّ شخصٍ كان يرقص لكي يُرى وهو يرقص.... كان كلّ شخصٍ يواجه ال DJ [منسّق الموسيقا]، الذي تم تنصيبه عالياً فوق منصة.... بدت القاعة برمّتها أشبه بقبيلةٍ واحدة متكتلة مؤلفة من آلاف الأشخاص، وكان ال DJ [منسّق الموسيقى] كان الزعيم القبلي للجماعة.... وكانت الطرقات الألكترونية المطّردة اللادنيوية نبضات القلب الموحّدة التي أعطت الحشد التناغم. بدا الأمر كأنّ وجود الوعي الفردي قد اختفى وتم استبداله بوعي جماعةٍ واحدة موحدة.[1]

لقد وقع هسيه على نسخةٍ حديثة للرابط العضلي الذي قام بوصفه كل من إهرينرايش وماكنيل. لقد بعث كل من المشهد والتجربة الرهبة فيه، وأوقف الضمير "أنا" لديه، وتم دمجه في "نحن" العملاقة. كانت تلك الليلة نقطة تحوّل في حياته؛ أطلقته على طريق خلق نوعٍ جديدٍ من العمل التجاري يجسّد بعض الطائفية* وبكبت الأنا الذي شعر به في حالة الهياج.

هنالك طرقٌ كثيرةٌ أخرى لإدارة زرّ تشغيل خلية النحل. في السنوات العشرة التي كنت أناقش خلالها هذه الأفكار مع طلابي في فرجينيا، وسمعتُ تقاريرَ عن أشخاص يمرّون "بحالة هياج" عن طريق الغناء في الجوقات، والأداء في فرق الاستعراض العسكري، والاستماع للخطب، وحضور المهرجانات السياسية، والتأمل. وقام طلابي بتجربة زرّ التشغيل على الأقل مرة واحدة، على الرغم من أنّ قلّةً منهم تمتعوا بتجربة غيّرت الحياة. وعلى نحوٍ أكثر شيوعاً، تتلاشى المؤثرات في غضون ساعاتٍ أو أيام قليلة.

الآن طالما أعرف ماذا يمكن أن يحدث عندما يتم إدارة زرّ تشغيل خلية النحل بالطريقة الصحيحة والوقت الصحيح، أنظر إلى طلابي بطريقةٍ مختلفة. ما أزال أراهم أفراداً يتنافسون مع بعضهم من أجل المعدلات، وحالات التفوق، والشركاء الرومانسيين. لكن لديّ تثمينٌ جديد للحماسة التي بها يرمون أنفسهم في نشاطاتٍ خارجة على المنهاج الدراسي، والتي معظمها تحوّلهم إلى لاعبين في فريق.

[1] Hsieh 2010, p. 79؛ التأكيد مضاف.



فيقومون بعرض المسرحيات، ويتنافسون في الرياضة، ويتجمّعون في سبيل القضايا السياسية، ويتطوّعون في عشراتِ المشاريع لمساعدة الفقراء والمرضى في تشارلوتسفيل وفي بلدانٍ نائية. أراهم يبحثون عن نداءٍ ما، يستطيعون إيجاده فحسب كجزءٍ من جماعةٍ أكبر. أراهم الآن يناضلون ويبحثون على مستويين في آنٍ معاً، لأننا جميعاً من فئة الإنسان المزدوج.

بيولوجيا زر تشغيل خلية النحل

إذا كان زرّ تشغيل خلية النحل حقيقياً ـ إن كان تكيّفاً على المستوى الفردي مصمماً من قِبَل اصطفاء على مستوى المجموعة من أجل رابط الجماعة ـ من ثمّ لا بد أن تكون مصنوعة من العصبونات، وموزعات العصبونات، والهرمونات. وهو لن يكون بقعةً في الدماغ ـ مجموعة من النيوترونات التي يمتلكها البشر وتفتقدها قرود الشمبانزي. على نحوٍ أصح، سيكون نظاماً وظيفياً مصنّع على نحوٍ غير متقن من داراتٍ موجودة مسبقاً ومواد يُعاد استخدامها بطريقة غريبة نوعاً ما لإنتاج قدرة جديدة جذرياً. في السنوات العشرة الأخيرة كان هنالك طوفان من البحث حول اثنين[1] من مواد البناء على نحوٍ مرجح لهذا النظام الوظيفي.[2]

---

[1] هنالك مرشّحان آخران لن أتطرّقَ إليهما نظراً لقلة البحث حولهما. لقد قام ف. س. راماشاندران V. S. Ramachandran بتحديد بقعةٍ في في الفص الأيسر الصدغي والتي، عندما تتعرض لتحريض كهربائي، في بعض الأحيان تُعطي الناسَ تجارب دينية؛ أنظر Ramachandran and Blakeslee 1998. كما درس كل من نيوبيرج Newberg، وداكويلي D'Aquili، وراوس Rause 2001، أدمغة الأشخاص الذين ينجزون حالاتٍ متبدلة للوعي عبر التأمل. ووجد الباحثون تناقصاً في النشاط في منطقتين من قشرة الدماغ في خلفية الرأس التي يستخدمها الدماغ للحفاظ على الخريطة الذهنية من فضاء الجسد. عندما تكون هاتان المنطقتان أكثر هدوءاً، يجرّب الشخص فقداناً ساراً للذات.

[2] إنّ هدفي ليس تقديم تقريرٍ تامٍ عن علم الأحياء العصبيي لزرّ تشغيل خلية النحل. إنه ببساطة توضيح عن وجود الكثير من الالتقاء ما بين توصيفي الوظيفي لزرّ تشغيل خلية النحل واثنتين من أكثر المناطق حرارةً لعلم الأعصاب الاجتماعي ـ هرمون الأكسيتوسين [متعلّق بالمحبة والألفة ــ المترجم] ومرائي العصبونات. آمل أن الخبراء في علم الأعصاب

==



إذا ما وقع الارتقاء مصادفةً بطريقة تربط الناس إلى بعضهم في جماعات أكبر، فإنّ اللاصق الأكثر وضوحاً هو الأكسيتوسين، وهو هرمون وموزع عصبي يتم إنتاجه بواسطة الهايبوثلاموس [ما تحت السرير البصري]. والأكسيتوسين مستخدم على نطاقٍ واسع بين الفقاريات لتحضيرالإناث للأمومة. وعند الثدييات يسبب تقلّصات رحمية ونزول الحليب، إضافةً إلى دافعٍ قوي للمس واعتناء المرء بأطفاله. لقد قام الارتقاء في الغالب بإعادة استخدام الأكسيتوسين لتأسيس أنواع أخرى من الروابط. في أنواع إذ يلتصق الذكور بزوجاتهم أو يحمون ذرّيتهم، وذلك لأنّ أدمغة الذكور كانت نوعاً ما معدّلة لتكون أكثر استجابةً للأكسيتوسين.[1]

لدى البشر، يصل الأكستوسين إلى ما هو أبعد من حياة الأسرة. إذا ما قمتَ برش الأكسيتوسين في أنف شخصٍ ما، سيكون هو أو هي أكثر موثوقيّةً في لعبة تنطوي على تحويل المال مؤقتاً إلى شريكٍ مجهول.[2] وبالمقابل، الأشخاص الذين يتصرّفون بثقةٍ يتسببون بارتفاع مستويات الأكستوسين في الشريك الذي يثقون به. كما ترتفع مستويات الأكستوسين عندما يشاهد الناس أشرطة فيديو عن أناسٍ آخرين يتألمون ـ على الأقل بين أولئك الذين يخبرون عن مشاعر التقمص العاطفي والرغبة بالمساعدة.[3] يخبّيء دماغك كماً أكبر من الأكسيتوسين

سيرصدون على مقربة كيف أنّ الدماغ والجسد يستجيبان لنوع من من الأنشطة العصبوية والتوقيية التي أصفها. للمزيد حول علم الأحياء العصبي للشعيرة والتوقيع أنظر Thomson 2011 .

(1) Carter 1998

(2) Kosfeld et al. 2005

(3) Zak 2011 يصف زاك بيولوجيا النظام ببعض التفصيل. مما تجدر ملاحظته، يسبب هرمون الأكستوسين ارتباط الجماعة وإنكار الذات بشكلٍ جزئي بالعمل من مُطلقات عصبونات إضافية: هرمون الدوبامين، الذي يحفّز الفعل ويجعله مجزياً، وهرمون السيروتونين، الذي يقلّص القلق ويجعل الناس أكثر اجتماعيةً ــ وهي مؤثرات شائعة أشبه بعقاقير البروزاك التي ترفع مستويات السيروتونين.



عندما يكون لديك احتكاكٌ بشخصٍ آخر، حتى لو كان ذاك الاحتكاك تربيتة من قبل شخصٍ غريب.[1]

يا له من هرمون محبّب! ولا عجبَ أنّ الصحافة قد انتشت في السنوات الأخيرة، مانحةً إياه لقب "مخدّر الحب" "وهرمون العناق". وإذا ما استطعنا وضع الأكسيتوسين في مياه شرب العالم، هل ستكون هنالك نهاية للحرب والقسوة؟

لسوء الحظ، لا. إذا ما كان زرّ تشغيل خلية نتاج اصطفاء الجماعة، من ثمّ يجب أن يُظهِر سمة توقيع اصطفاء الجماعة: إنكار الذات المحدود.[2] لا بدّ أن يربطنا الأكستوسين إلى آبائنا وجماعاتنا، ربطاً يمكنّنا على نحوٍ أكثر فعاليةً من التنافس مع الجماعات الأخرى. ويجب ألاّ تربطنا بالإنسانية على وجه العموم.

لقد قامت عدة دراسات حديثة بتثبيت هذا التوقع. في مجموعة من الدراسات، قام رجالٌ هولنديون بلعب تنوّعٍ من الألعاب الاقتصادية وهم جالسون وحيدين في مهاجعٍ [منفصلة]، مرتبطين عبر الحواسيب في فرق.[3] تمّ إعطاء نصف الرجال رذاذاً أنفياً من الأكستوسين، وحصل نصفٌ على رذاذ بلاسيبو. فقام الرجال الذين تلقوا الأكسيتوسين باتخاذ قرارات أقل أنانيةً ـ كانوا أكثر اهتماماً بمساعدة جماعتهم، لكنّهم لم يُظهروا اهتماماً بتحسين مدخولات الرجال في الجماعات الأخرى. في إحدى هذه الدراسات، جعل الأكستوسين الرجال أكثر طواعيةً لأذية الفرق الأخرى (في لعبة معضلة السجين) لأنّ القيام بذلك كان أفضل طريقةٍ لحماية جماعتهم وفي مجموعة دراسات متممة، وجد المؤلفون أن الأكسيتوسين قد سبّبَ للرجال الهولنديين أن يحبّوا الأسماء الهولندية أكثر وأن يثمّنوا أعمار الهولنديين أكثر (معضلات نمط عربة الترولي). كما

[1] Morhenn et al. 2008 ، على الرغم من التربيتة على الظهر كانت مترافقة مع علامة ثقة. تتمتع اللمسة الفيزيائية بتنوع من التأثيرات الترابطية؛ أنظر Keltner 2009 .

[2] Parochial تعني محلي أو مقيّد، كأنه ضمن حدود مصلى الكنيسة. ومفهوم إنكار الذات المحلي كان قد تمّ تطويره من قبل Sam Bowels and others, e. g. Choi and Bowels 2007.

[3] De Dreu et al. 2010



بحث المختصون مراراً وتكراراً عن إشارات بأنّ هذه المحبة المتزايدة لداخل الجماعة ستقترن بكرهٍ متزايد حيال جماعات خارجية (نحو المسلمين)، لكنّهم أخفقوا في العثور عليه.[1] يجعل الأكسيتوسين الناس يحبون أشخاصاً في الجماعة التي هم فيها أكثر. وهو ما يجعلهم منكرين محلّيين للذات. ويستنتج المؤلفون أن نتائجهم "تقدّم دليلاً على الآليات العصبية البيولوجية على وجه العموم، ونظم الأكسيتوسينرجيك على وجه العموم، تطوّراً للحفاظ على كلٍّ من التنسيق والتعاون داخل الجماعة وتسهيلهما."

المرشح الثاني للحفاظ على التنسيق ضمن الجماعة هو مرآة نظام العصبة. تم اكتشاف مرآة العصبونات مصادفةً في فترة الثمانينات عندما قام فريق إيطاليٌّ من العلماء بإدخال لاحباتٍ إلى عصبونات فردية في أدمغةِ قرود المكاك. كان الباحثون يحاولون اكتشاف ماذا كانت الخلايا الفردية تفعل في منطقة من قشرة المخ التي كانوا يعرفون بأنها تسيطر على حركات محرك جيدة. لقد اكتشفوا أنه كان هناك بعض العصبونات التي اضطرمت بسرعةٍ فقط عندما قام القرد بحركةٍ محددة، من قبيل إمساك جوزةٍ ما بين الإبهام والسبابة (مقابل، لنقل، القبض على الجوزة بكامل اليد). لكن ما إن قاموا بزرع وتثبيت اللاحبات إلى مكبّر صوت (تثبيتاً يمكنّهم من سماع معدل الاضطرام)، بدؤوا بسماع أصواتِ ضجيجٍ مضطرمة في مراتٍ فردية، من قبيل عندما كان القرد في ثباتٍ تام وكان الباحث من قام فحسب بالتقاط شيءٍ ما بواسطة إبهامة وسبابته. وهذا لا يفيد مغزىً لأنّ الفهم والفعل كان من المفترض حدوثهما في مناطق من الدماغ. بالرغم من ذلك هنا كانت عصبونات لا تكترث فيما إذا كان القرد يفعل شيئاً ما أو يراقب شخصاً آخر ما يقوم به. بدا القرد يعكس أفعال الآخرين في الجزء ذاته من دماغه الذي سيقوم باستخدامه للقيام بتلك الأفعال بحد ذاتها.[2]

---

[1] De reu et al. 2011; quote is from p. 1264

[2] التقرير الأولي لهذا العمل كان Iacoboni et al. 1999 . لمراجعة شاملة حديثة، أنظر Iacoboni 2008



لقد أثبت العمل اللاحق أن معظم عصبونات المرآة لم تضطرم عندما نرى حركةً فيزيائية محددة ولكن عندما ترى فعلاً يدل على هدف أو قصد أكثر عموميةً. على سبيل المثال، مراقبة شريط فيديو ليد تقوم بالتقاط كأسٍ من على طاولة نظيفة، كمن تحضرها إلى فم شخصٍ ما، تحرّضُ عصبون مرآةٍ للطعام. لكنّ تعرّض الكأس ذاتها بالضبط من على طاولة مكركبة (حيث يبدو أنّ وجبةً قد انتهت) يحرّض مرآة عصبون مختلف لالتقاط الأشياء على وجه العموم. وتتمتّع القرود بنُظُمٍ عصبونية تستدل على مقاصد الآخرين ـ التي هي بوضوح متطلّبٌ مسبّقٌ لقصدية توماسيلّو المشتركة[1] ـ لكنّهم حتى الآن غير مستعدين للمشاركة. تبدو عصبونات المرآة مصمّمةً لاستخدام خاصٍ بالقرد، إما لمساعدته على التعلّم من الآخرين أو لمساعدته على التنبّؤ بما ستقدم عليه القرود لاحقاً.

لدى البشر نظام عصبون المرآة موجود في مناطق الدماغ التي تتوافق مباشرةً مع تلك التي قامت بدراسة قرود المكاكي ولكن لدى البشر يتمتّع نظام عصبونات المرآة بارتباطٍ أقوى في مناطق متعلّقة بالشعور من الدماغ ـ أولاً مع قشرة نسج معزولة، ومن هنالك إلى لوزة الحلق والمناطق الطرفية الحركية[2]. يشعر بعض الناس بألم وبهجة إلى درجةٍ أكبر بكثير مما هي لدى الثدييات الراقية الأخرى. إنّ مجرد رؤية شخصٍ آخر يبتسم تنشّط بعضاً من العصبونات ذاتها عندما تبتسم. الشخص الآخر يبتسم على نحوٍ مؤثرٍ في دماغك، مما يجعلك سعيداً ومن المرجّح الابتسام، وهي بدورها تنتقل إلى إلى دماغ شخصٍ آخر.

إن عصبونات المرآة مناسبةٌ تماماً لعواطف دوركهايم الجمعية، ولا سيما "الكهرباء" الشعوري للفورة الجمعية. لكنّ طبيعتها الدوركهايمية تبرزُ على نحوٍ أكثر وضوحاً في دراسةٍ قادتها عالمة الأعصاب تانيا سنجر.[3] قام المشاركون في التجربة أولاً بلعبةٍ اقتصادية مع شخصين غريبين، أحدهما لعب لعباً حسناً بينما

---

(1) Tomasello et al. 2005؛ أنظر الفصل 9

(2) Iacoboni 2008, p. 119

(3) T. Singer et al. 2006. كانت اللعبة عبارة عن متاهة السجين.



لعب الآخرون لعباً أنانياً. في الجزء التالي من الدراسة، تمّ مسح دماغ المشاركين في التجربة بينما كان يتم إحداث صعقاتٍ كهربائية عشوائياً على يد المشارك، يد اللاعب الحسن أو يد اللاعب الأناني. (كانت أيادي اللاعبين الآخرين مرئيّةً من قِبَل المشارك في التجربة، قرب يدها بينما كانت هي في مجال الماسحة.) وأظهرتِ النتائج أنَّ دماغ المشارك في التجربة استجاب بالطريقة ذاتها عندما تلقّى اللاعب المهذّب الصدمة مثلما حدثَ عندما تعرّضوا هم أنفسهم للصدمة. واستعمل الخاضعون للتجربة عصبونات المرآة لديهم، وقاموا بالتقمّص العاطفي، وشعروا بألم الآخر. ولكنّ عندما تعرّض اللاعب الأناني للصدمة، أظهر الناس اعتناقاً عاطفياً أقل، وحتى أنّ بعضاً منهم أظهروا دليلاً عصبونياً للسرور.[1] بمعنى آخر، لا يتعاطف الناس على نحوٍ أعمى فحسب، ولا يتناغمون مع كلّ شخص يرونه. نحن مخلوقات خليّة خاضعون للتكيّف. ونحن من المرجّح أن نعكس كالمرآة ونتعاطف مع أناس وآخرين ينصاعون إلى منظومتنا الأخلاقية أكثر مما هو الحال عندما يقومون بخرقها.[2]

---

[1] كانت النتائج أنّ الرجال أظهروا انخفاضاً في التقمّص العاطفي، وفي المعدل أظهروا تنشيطاً في الدارات العصبونية المقترنة المكافأة. كما أحبّوا رؤية اللاعب الأناني يتعرّض للصدمة. وأظهرت النساء فقط هبوطاً صغيراً في استجابة التقمّص العاطفي. ولم يكن هذا الهبوط بالغ الأهمية إحصائياً، لكنّ أظن من المرجّح أنّ النساء كنّ قادراتٍ على عزل التقمص العاطفي في بعض الظروف. ومع عيّنةٍ أكبر حجماً، أو تعدٍّ خطير، وسوف أراهن أنّ النساء تُظهرنَ هبوطاً أكبر من الناحية الإحصائية في التقمص العاطفي كذلك الأمر.

[2] بالطبع في هذه الحالة اللاعب "السيّء" الذي غشّ المشارك بالتجربة مباشرةً، وهكذا شعر بعض المشاركين بالغضب. والتجربة المفتاحية، التي بعدُ لم يتمّ إجراؤها ستكون لرؤية إنّ كانت استجابة التقمّص العاطفي تهبط حيال اللاعب "السيّء" الذي لاحظه المشارك في التجربة فحسب يقوم بغش الشخص الآخر، وليس المشارك في التجربة. توقّعت أنّ التقمّص العاطفي سيتنازل هناك كذلك الأمر.



خلايا في حالة العمل

نحن محاطون من المهد إلى اللحد بالشركات العملاقة وأشياءَ تصنعها الشركات العملاقة. فما هي الشركات العملاقة، وكيف آل الأمر إلى تغطيتها كوكب الأرض؟ فالكلمة نفسها corporation تأتي من corpus، باللاتينية وتعني "الجسم، الهيكل". وتعني كلمة corporation، بكامل الحرفية، كياناً عضوياً عملاقاً. وهنا تعريفٌ مبكرٌ، من كتاب ستيوارت كيد الصادر عام 1974 ((رسالة عن قانون الشركات العملاقة)):

> إنّ [الشركة العملاقة] تجمّع من أفرادٍ كثيرين تمّ توحيدهم في هيكلية واحدةٍ، تحت سيطرةٍ خاصةٍ، تتمتّع بتسلسلٍ دائمٍ أبديّ تحت صيغةٍ مصطنعةٍ، ومغطاةٍ، بسياسة القانون، مع قدرة على الفعل، في مجالاتٍ عدة، كأنهم فرد واحد.[1]

الكتابة المتخيّلة الشرعية، التي تدرك "تجمّعاً من أفرادٍ كثيرين" على أنّه نوع من فردٍ واحد، تبيّن أنه صيغة منتصرة. لقد تركت الناس يتخذون أمكنةً لأنفسهم في داخل نوعٍ جديدٍ من القارب يمكنهم فيه تقسيم العمل، وكبح الركوب المنفلت، والتطلّع لمهمات هائلة مع إمكانية محتملة للمكافأة الهائلة.

لقد ساعدت الشركات العملاقة وقانون الشركة العملاقة إنكلترا على تجاوز معظم أرجاء العالم في الأيام الأولى من الثورة الصناعية. وكما هو التحوّل إلى خلايا النحل ودول المدن، تطلّب الأمر فترة من الزمن كي تقوم الكيانات العضوية الهائلة باستنباط النزوات، وجعل الصيغة كاملة، وتطوّر دفاعاتٍ فعّالة ضدّ الهجمات الخارجية والتخريب الداخلي. وما إن تم التصدّي لهذه المشكلات، كان هنالك نموٌّ انفجاريّ. وخلال القرن العشرين، تم دفع المصالح التجارية الصغيرة إلى الهوامش أو الانقراض في حين سيطرت الشركات العملاقة على معظم الأسواق الرابحة. لقد لقد باتت الشركات العملاقة في الوقت الحاضر قوية

---

(1) Kyd, p. 13؛ تمّت إضافة التأكيد.



إلى حدٍّ أنّ الحكومات الوطنية فقط من يمكن أن يكبح الأضخم بينها (وحتى في حينه بعض من الحكومات الوطنية فحسب [من يقوم بذلك]، ولبعض الوقت).

من الممكن فحسب إنشاء شركةٍ عملاقةٍ مزودة كليّاً بطاقمٍ من الإنسان الاقتصادي. والمكاسب الناجمة عن التعاون وتقسيم العمل هي ضخمةٌ إلى حدٍّ أنّ الشركات الضخمة من الممكن أنْ تدفع [أجوراً] أكثر من المصالح التجارية الصغيرة ثمّ تستخدم سلسلةً من الجزرات والعصيّ المأسسة ـ بما فيها آليات مكلفة من المراقبة والتعزيز ـ لتحفيز العاملين الساعين لمصالحهم بطرقٍ ترغبها الشركة. لكنّ هذه المقاربة (يُطلق عليها في بعض الأحيان القيادة التعاملية التجارية)[1] لديها محدوديّاتها. والعاملون الحريصون على مصلحتهم هم جلاوكونيون، وهم أكثر اهتماماً إلى حدٍّ بعيد بالظهور بمظهر الطيبين والحصول على الترقية أكثر من مساعدتهم الشركة.[2]

بالمقابل، المنظمة التي تستغلّ طبيعة خليّة النحل لدينا من الممكن أنْ تنشّط الكبرياء، والولاء، والحماسة بين العاملين ثم مراقبتهم مراقبةً أقل التصاقاً. إنّ هذه المقاربة للقيادة (تدعى في بعض الأحيان القيادة التحويلية)[3] تولّد المزيد من رأس المال الاجتماعي ـ روابط الثقة التي تساعد العاملين على القيام بإنجاز مزيدٍ من العمل بتكلفةٍ أقل من العاملين في الشركات الأخرى. ويعمل العاملون ذوو نزعة خليّة النحل بجدٍ أكبر، ويتمتعون بمرحٍ أكبر، وهم من الأقل ترجيحاً لترك الشركة أو مقاضاتها. وعلى عكس الإنسان الاقتصادي، فهم حقاً لاعبون في فريق.

ما الذي يستطيع القادة فعلَه لإيجاد منظمات كخلايا النحل؟ الخطوة الأولى هي التوقف عن التفكير كثيراً في القيادة. كما قامت مجموعة من الباحثين باستخدام الاصطفاء متعدد المستويات للتفكير بشأن ما هي القيادة في حقيقة

(1) Burns 1978

(2) Keise, Hogan, and Craig 2008; Van Vugt, Hogan, and Keiser 2008

(3) Burns 1978



الأمر. يقدّمُ الحجج كلٌّ من روبرت هوجان، وروبرت كايزر، ومارك فان فوجت أنّ القيادة من الممكن فهمها فحسب على أنها تتمةٌ للزمالة.[1] ويشبه التركيز على القيادة فحسب محاولة فهم التصفيق بدراسة اليد اليسرى فقط.. ويوضحون أنّ القيادة إنما هي ليست هي اليد الأكثر متعةً؛ وليس من قبيل الأحجية فهم لماذا يرغب الناس الناس بالقيادة. والأحجية الحقيقية هي لماذا يرغب الناس بالتبعية.

يلاحظ أولئك الباحثون أنّ الناس تطوّروا ليعيشوا في جماعاتٍ تصل حتى 150 كانت تقوم نسبياً على المساواة وحذرة من الذكور النجوم (كما قال كريس بويهم).[2] لكننا طوّرنا أيضاً القدرة على التجمّع حول القادة عندما تتعرّض جماعتنا للخطر أو تتنافس مع الجماعات الأخرى. تذكّر كيف أصبح المقعقون والنسور على الفور أكثر قبليّةً وهرميةً في اللحظة التي اكتشفوا فيها حضور الجماعة الأخرى.[3] كما يظهر البحث أنّ الغرباء تلقائيّاً ينظمّون أنفسهم قادةً وأتباعاً عندما تحلّ كارثةٌ طبيعية.[4] والناس سعداء بالتبعية عندما يرون أنّ جماعتهم تحتاج إلى القيام بشيءٍ ما، وعندما لا يقوم الشخص الذي يبرز قائداً بتفعيل لواقط الحساسية المفرطة حيال القمع. على القائد إنشاء منظومة قائمةٍ بطريقةٍ ما على أساس السلطة (من أجل شرعنة سلطة القائد)، وأساس الحرية (للتأكيد بأنّ الأتباع لا يشعرون بأنهم مضطهدون، ولا يرغبون الانضمام إلى عصبة لمعارضة الذكر النجم البلطجي)، وعلاوة على ذلك، أساس الولاء (الذي عرّفته في الفصل السابع بوصفه استجابة لتحدي تشكيل ائتلافاتٍ متماسكة).

---

(1) Kaiser, Hogan, and Craig 2008; Van Vugt, Hogan, and Kaiser 2008.

(2) يُدعى الرقم 150 في بعض الأحيان "عدد دونبار" بعد أن لاحظ روبن دونبار أن هذا بشكلٍ تقريبي جداً يبدو أنه الحد الأقصى لحجم جماعةٍ يمكن فيها لكلّ شخصٍ معرفة الأشخاص الآخرين، ويعرف العلاقات ما بين الآخرين؛ أنظر Dunbar 1996 .

(3) Sherif et al. 1961/1954, as described in chapter 7، كما هو موصوف في الفصل 7.

(4) Baumeister, Chesner, Senders, and Tice 1989; Hamblin 1958



باستخدام هذا الإطار التطوّري، نستطيع استنتاج بضعةَ دروسٍ مباشرة لأيّ شخصٍ يرغب بتشكيل فريق، أو شركة، أو مدرسة أو منظمة أخرى أكثر شبهاً بخلية النحل، وسعداء، ومنتجين. لنْ تحتاجَ إلى طرح النشوة في مبرّدٍ مائي ثمّ تطرح حفلةً هائجة في الكافتيريا. وزرّ تشغيل خلية النحل قد يكون مفتاحاً منزلقاً أكثر منه مفتاحاً للفتح والإغلاق. وبوجود تغييراتٍ مؤسساتية قليلة يمكنكَ خلق بيئاتٍ ستقوم بدفع مزلاج كل شخص أقرب إلى موقع الخلية. على سبيل المثال:

- قمْ بزيادة التشابه، لا التنوّع. لإنشاء خلية بشرية على طريقة النحل، تريد أن تجعل كل شخصٍ يشعر كأنه في أسرة. وهكذا لا تلفت الانتباه إلى الفروقات العنصرية والإثنية؛ اجعلها أقل أهمية برفع التشابه والاحتفاء بقيم الجماعة المشتركة والهوية العامة.[1] ويظهر كثير من البحث في مجال علم الاجتماع أنّ الناس أكثر دفئاً وثقة حيال الأشخاص الذين يبدون شبيهين بهم، ويلبسون مثلهم، ويتحدثون مثلهم، أو يشتركون معهم بالاسم الأول أو تاريخ الميلاد.[2] لا يوجد ما هو خاص بشأن العرق. يمكنكَ جعل الناس أقل اهتماماً بالعرق عن طريق إغراق التباينات العرقية في بحر من حالات التشابه، والأهداف المشتركة، وحالات الاتكال المتبادلة.[3]

---

[1] أنظر العمل حول العام في هوية الجماعة الداخلية (Gaertner and Dovidio 2000; Moyttyl et al. 2011) من أجل التوضيح العملي بأن زيادة حالات إدراك التشابه تقلّص التحيّز الصريح أو الضمني. أنظر Haidt, Rosenberg, and Home حول مشكلة التنوّع الأخلاقي.

[2] أنظر Batson 1988 من أجل مراجعة حول الطرق التي يزيد التشابه إنكار الذات بواسطتها.

[3] أنظر Kurzban, Toboy, and Cosmides 2001 من أجل تجربةٍ تظهرُ أنك تستطيع "محو العرق" – مما يعني، تستطيع أن تجعل الناس يخفقون في ملاحظة وتذكر عرق الأشخاص الآخرين عندما لا يكون العرق كلمة بدءٍ ل "عضوية قائمة على الائتلاف".



- قمْ باستغلال التناغم. يقول الأشخاص الذين يتحرّكون معاً "نحن واحد، نحن فريق؛ فقط انظرْ كم نحن على نحوٍ كامل قادرون على القيام بعمل توماسيللو القائم على القصد المشترك." وتبدأ الشركات اليابانية العملاقة مثل تويوتا يومها بتمارين رياضية متزامنة على نطاق الشركة برمتها. كما تستعد الجماعات للمعركة ـ في الحرب والرياضة ـ بهتافاتٍ وحركات طقسية. (إذا ما أردتَ رؤية حالة مثيرة للإعجاب في لعبة الركبي، ابحث في محرك جوجل عن "All Blacks Hakas".) وإذا ما طلبت من الناس إنشاد أغنيةٍ مع بعضهم على الطاولة، فيجعلهم الأمر يزدادون ثقةً ببعضهم ويغدون أكثر قابليّةً لمساعدة بعضهم لبعض، جزئياً مما تجعل الأشخاص يشعرون بأنهم أكثر تشابهاً فيما بينهم.[1] وإذا ما كان أمراً مروّعاً قيامك بسؤال العاملين لديك أو رفاقك أعضاء الجماعة القيام بألعابٍ جمبازيةٍ متزامنة، ربما تستطيع فحسب محاولة القيام بحفلاتٍ أكثر مع الرقص أو الكاراووكي*. التزامن يبني الثقة.
- <u>أوجد تنافساً صحياً بين الفرق، وليس الأفراد</u>. وحسبما قال ماكنيل، لا يجازف

الجنود بأعمارهم من أجل بلادهم أو من أجل الجيش؛ وهم يفعلون ذلك من أجل رفاقهم في الزمرة أو الفصيلة. وتظهر الدراسات أنّ التنافس داخل الجماعة يزيد المحبة في داخل الجماعة أكثر مما تزيد عدم المحبة حيال الجماعات

---

(1) Wiltermuth and Heath 2008; Valdesolo, Ouyang, and SeSteno 2010 . أنظر أيضاً Cohen at al. 2009 من أجل شرحٍ بالأمثلة بأنّ التجذيف المتزامن يزيد تحمّل الألم (بالمقارنة مع التجذيف القويّ على حدٍ سواء لوحده) لأنه يزيد إطلاق الإندورفين.

* نشاط ترفيهي ياباني حيث تقوم آلة تسجيل بإطلاق موسيقى الأغاني الشعبية ويستطيع الناس إنشاد الكلمات ــ المترجم



الخارجية.[1] المنافسات داخل الجماعات، من قبيل التنافسات الودية بين أقسام الشركة الكبرى، أو منافسات الرياضة الداخلية، لا بُدَّ أن تتمتَّعَ بتأثير إيجابي صافٍ على نزعة خلية النحل ورأس المال الاجتماعي. لكن تحريض الأفراد على بعضهم في منافسة على الموارد النادرة (العلاوات على سبيل المثال) سوف يدمّر نزعة خلية النحل، والثقة، والمعنويات.

من الممكن قول المزيد عن قيادة منظمة على طريقة خلية النحل.[2] ويعرض كايزر وهوجان هذا الملخص لكتابة البحث النظرية:

> إنّ القيادة التجارية الإجرائية تروق لأتباع المصلحة الذاتية، لكنّ القيادة التحويلية تغيّر الطريقة التي يرى بها الأتباع أنفسهم ـ من <u>أفراد منعزلين إلى أعضاء في جماعة كبيرة</u>. يقوم القادة التحويليون بذلك عن طريق وضع نموذجٍ جمعي للالتزام (مثال التضحية بالنفس او استخدام "نحن" لا "أنا")، مؤكدين على التشابه بين أفراد الجماعة، وتعزيز الأهداف الجماعية، والمُثُل المشتركة، والمصالح العامة.[3]

بمعنى آخر، يفهم القادة التحويليون (على الأقل ضمنياً) أن البشر يتمتعون بطبيعةٍ مزدوجة. ويقومون بتأسيس منظماتٍ تتعهد، إلى درجةٍ معيّنةٍ، المستوى الأعلى لتلك الطبيعة. والقادة الجيّدون يخلقون أتباعاً جيّدين، لكنّ الزمالة في منظّمةٍ ذات طابع خليّة النحل يتمُّ وصفها على نحوٍ أفضل على أنّها عضوية.

---

(1) Brewer and Campbell 1976

(2) سأقول المزيد في موقع www.RighteousMind وفي موقع www.EthicalSystems.org .

(3) Kaiser, Hogan, and Craig 2008, p. 104 ؛ تمت إضافة التأكيد.



خلايا النحل السياسية

يفهم القادة العظام دوركهايم، ولو أنهم لم يقرؤوا عمله مطلقاً. بالنسبة إلى الأمريكيين المولودين قبل عام 1950، تستطيع تفعيل طبيعتهم الدوركهايمية العليا بقول كلمتين فحسب: "لا تسألْ" وتأتي الجملة التامة التي سيسمعونها في عقولهم من خطاب قسم الرئيس جون ف. كندي عام 1961. فبعد مناشدة كلّ الأمريكيين "لحمل عبء الكفاح الطويل حتى غروب الشمس" ـ مما يعني، دفع تكاليف وخوض مجازفات قتال الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي ـ ألقى كنيدي واحداً من أشهر السطور في التاريخ الأمريكي: "وهكذا، يا إخوتي الأمريكيين، لا تسألوا ما الذي يستطيع أن يفعلَ وطنُكم من أجلِكم؛ اسألوا ماذا تستطيعون أنْ تفعلوا من أجل وطنكم."

إنَّ التوق إلى خدمة ما هو أكبر من الذات كان الأساس لدى كثيرٍ من الحركات السياسية المعاصرة. وهنا مناشدة دوركهايمية أخرى حاذقة:

> [ترفض حركتنا وجهة نظر نحو الإنسان] على أنّه فرد، قائمٌ بحدّ ذاته، وأناني، وخاضع لقانون الطبيعة، الذي يدفعه غريزياً نحو حياة من المتعة الأنانية الآنية؛ فهي لا ترى الفرد بل الأمة والبلاد؛ والأفراد والأجيال مرتبطون بعضهم ببعض بواسطة قانون أخلاقي، وتقاليد مشتركة ورسالة، تكبت غريزة الحياة المغلقة ضمن دائرة صغيرة من المتعة وتبني حياةً أعلى، مؤسسة على الواجب، وهي حياة متحررة من حدود الزمان والفضاء، إذ يمكن للفرد فيها، بواسطة الفداء، والتخلي عن المصلحة الشخصية ... أن يحققَ على نحوٍ مجرّد وجوداً روحياً تتكون فيه قيمته بوصفهم إنساناً.

إنه كلام لاهب، إلى أن تعلم أنّه من ((مبدأ الفاشية))، لبينيتو موسوليني.[1] إنّ الفاشيّة هي تركيبة نفسية لخلية النحل يتم رفعها إلى قممٍ مضحكة. إنه مبدأ

---

[1] Mussolini 1932. العبارة المحذوفة من السطر الثاني وحتى نهايته هي "بالموت ذاته". قد لا يكون موسوليني كتب هذه السطور؛ قام بكتابة المقالة بالغالب بكاملها الفيلسوف جيوفاني جينتيلي، لكن تمّ نشرها باسم موسوليني باعتباره المؤلف.



الأمة باعتبارها هيكليّةً متفوقة، يفقد الفرد فيها كل الأهمية. وهكذا فإنّ التركيبة النفسية لخلية النحل عبارة عن كلام سيّء، أليس كذلك؟ إنّ أيَّ قائدٍ يحاول جعل الناس ينسون أنفسهم ويندمجون في فريق يسعى إلى هدفٍ عام إنما هو يغازل الفاشية، لا؟ إنّ الطلب من العاملين لديك ممارسة الرياضة مع بعضهم بعض ـ أليس هذا الأمر الذي قام به هتلر في مهرجاناته الحاشدة في نورمبرج؟

تخصّصُ إهرنرايش فصلاً من كتاب ((الرقص في الشوارع)) لدحض هذا الشأن. تلاحظ أنّ الرقص المنتشي هو تقنية حيوية متطوّرة من أجل تبديد الهرمية وربط الناس في تجمّعٍ إنسانيٍ موسّعٍ إنّ الرقص المنتشي، والاحتفالات، والكرنفالات بثبات تمحو أو تعكس هرميات الحياة اليومية. فالرجال يرتدون ملابس النساء، والفلاّحون يظهرون بمظهر النبلاء، والقادة من الممكن أن يتعرّضوا للسخرية بسلام. وعندما يصل الأمر إلى نهايته ويكون الناس قد عادوا إلى محطاتهم الاجتماعية الاعتيادية، فإنّ هذه المحطات تكون أقلّ جموداً، والارتباطات بين الناس في محطاتٍ مختلفةً أكثر دفئاً نوعاً ما.[1]

المهرجانات الفاشية، حسبما تلاحظ إهرنرايش، لا شبه لها بذلك البتّة. كانت مشاهداً لافتة، وليست مهرجانات. لقد استخدمت الرهبة لتقوية الهرمية ولربط الناس إلى شخص القائد شبه الإلهي. فالناس في المهرجانات الفاشية لم يرقصوا، وهم بالتأكيد لم يسخروا من قادتهم. لقد كانوا يقفون في المكان باستسلام لساعات، وهم يصفّقون عندما كانت تقوم مجموعات من الجنود بالسير في استعراضٍ عسكري، أو يهتفون على نحوٍ جنوني حين كان القائد الغالي يصل ويتحدث إليهم.[2]

---

[1] أنظر على وجه الخصوص V. Turner 1969.

[2] أنظر تأثيرات المهرجانات الفاشية، حيث يتم ترهيب الناس بواسطة استعراضات التزامن العسكري ويكرّسون أنفسهم للقائد، مع التأثيرات التي أخبرعنها ماكنيل عند مجموعة صغيرة من الرجال ضمن التشكيل. إنّ التدريب الأساسي يربط الجنود مع بعضهم، وليس مع العريف المدرب.



لقد استغل الطواغيت الفاشيّون بوضوحٍ عناصرَ كثيرةً من التركيبة النفسية للجماعة الإنسانية، لكن هل هذا سببٌ موجبٌ بالنسبة إلينا كي ننأى بأنفسنا عن أو نخاف من زر تشغيل خلية النحل؟ حالة خلية النخل تأتي على نحوٍ طبيعيٍ، بسهولةٍ، وبهجةٍ بالنسبة إلينا. ووظيفتها الاعتيادية التي تربط غالباً عشرات أو مئات الناس معاً في مجتمعات من الاتحاد الاحتكاري، والتعاونية، وحتى الحب. هذه الجماعات المترابطة قد تهتم على نحوٍ أقل بالعناصر خارج الجماعة أكثر مما كانت تفعل قبل ارتباطها ــ تتمثّل طبيعة اصطفاء الجماعة في قمع الأنانية ضمن الجماعات لجعلها أكثر تأثيراً في التنافس مع الجماعات الأخرى. لكن هل ذلك حقاً شيءٌ على وجه الإجمال، مع الأخذ بعين الاعتبار كم هو ضحلٌ اهتمامنا بالغرباء في المقام الأول؟ هل من الممكن أنْ يكون العالم مكاناً أفضل إذا ما تمكنّا أن نزيد على نحوٍ كبيرٍ الاهتمام الذي يتلقّاه الناس ضمن جماعاتهم وأممهم الموجودة بينما يقلصون على نحوٍ ضئيلٍ الاهتمام الذي يتلقّونه من غرباء في جماعاتٍ وأمم أخرى؟

لنتصوَّر أمّتين، وحداةً مليئة بخلايا نحلٍ على نطاقٍ تام، وواحدة خالية منها. في الأمة التي تتصف بخلية النحل، لنفترض أنّ معظم الناس يشاركون بعدة خلايا نحلٍ مقطوعة عرضياً ــ ربما تكون في مكان العمل، وواحدة في الكنيسة، وواحدة رياضة الدوري في عطلة نهاية الأسبوع. ففي الجامعات، ينضم معظم الطلبة إلى الجمعيات وأندية الفتيات في الكليات. وفي مكان العمل، يقوم معظم القادة بهيكلة منظماتهم للاستفادة من غطائنا العصبوي. وفي مراحل حياتهم كافة، يستمتع المواطنون بالارتباط العضلي، وببناء الفريق، وبلحظات من التعالي على الذات مع جماعاتٍ من الأخوة المواطنين الذين قد يكونون مختلفين عنهم عرقياً، لكنّهم يشعرون معهم بشبه واتكال متبادل عميقين. يترافق هذا الارتباط في الغالب مع الإثارة للتنافس داخل الجماعة (كما هو الحال في العمل التجاري والرياضة) ولكن في بعض الأحيان دونها (كما هو الحال في الكنيسة).



في الأمة الثانية، لا توجد حياة على الإطلاق. كل من الناس يتعلقون باستقلاليّتهم ويحترمون استقلالية أخوتهم المواطنين. وتتأسس الجماعات فحسب إلى الحد الذي فيه يحسّنون مصالح أعضائها. كما أنّ الأعمال التجارية تُقاد من قبل قادة تنفيذيّين يصفّون مصالح العاملين المادية قريباً قدرَ الإمكان من مصالح الشركة، على نحوٍ يتبع فيه كلُّ شخصٍ مصالحه الشخصية، وسوف يزدهر المشروع التجاري. في هذه الأمة غير الشبيهة بخلية النحل ستجد العائلات والكثير من الصداقات؛ ستجد إنكار الذات (عائلي وتبادلي معاً). سوف تجد كل المادة الموصوفة من قِبَل علماء النفس التوريّين الذين يشكون بأن انتقاء الجماعة قد حصل، لكنّك لنْ تجدَ دليلاً على حالات التكيّف المتعلّقة بالجماعة من قبيل زرّ تشغيل الخلية. ولن تجدَ طرقاً مصادقاً عليها ثقافيّاً أو ممأسسة لتفقد نفسَكَ في جماعةٍ أكبر.

أيّةُ أمّةٍ تظنّها ستسجل نقاطاً أعلى بشان إجراءات رأس المال الاجتماعي، والصحة العقلية، والسعادة؟ وأيّة أمةٍ ستنتج مصالحَ تجارية أكثر ومستويات حياةٍ أعلى؟ [1]

عندما يتم رفع خليّةٍ نحلٍ إلى حجم أمة وتتم قيادتها من قِبَل دكتاتور مع جيشٍ تحتَ تصرُّفِهِ، ستكون النتائج كارثيّةً على نحوٍ ثابتٍ. لكنَّ ذلك ليس حجةً دامغة لإزاحة أو قمع خلايا النحل على مستوياتٍ أدنى. في حقيقة الأمر، االأمة المليئة بخلايا النحل هي أمةٌ من الناس السعداء والشاعرين بالرضا. وهي ليست هدفاً واعداً للاستحواذ من قِبَل شخصٍ ديماغوجيٍ يعرضُ على الناس معنىً لقاء أرواحهم. ولقد كان خلقُ امّةٍ من جماعاتٍ وأحزابٍ متنوعةٍ متنافسة، في

[1] إذا ما ظننتَ أنّ هذه المقولة تقترب من أن تقوم بإطلاق حكم قيمة، فأنت على حق. وهذا مثال عن منفعيّة دوركهايم، وهو النظرية المعيارية التي سأقوم بتطويرها في الفصل التالي. أعتقد فعلاً أنّ نزعة خليّة النحل تساهم في رفاه وكرامة المجتمع الديمقراطي المعاصر، الذي ليس عرضةً لخطر ربط الأفراد بإحكام بالغ؛ أنظر Haidt, Seder, and Kesebir 2008. من أجل الدعم التجريبي الحديث.



حقيقةِ الأمر، حسبما رأى آباء أمريكا المؤسسون طريقةً لمنع الطغيان.[1] في الزمن الأقرب، البحث عن رأس المال المجتمعي قد أثبت بالدليل أنّ رابطة رياضة البولنج، والكنائس، وأنواعاً أخرى من الجماعات، والفرق، والأندية إنما هي حاسمة من أجل صحّة الأفراد والأمة. وحسب تعبير روبرت بوتنام عن الأمر، إنّ رأس المال الاجتماعي الذي يتم توليده بواسطة جماعاتٍ محلية كهذه: "تجعلنا أذكى، وأفضل صحّةً، وأكثر سلامةً، وأغنى، وأكثر قدرةً لحكم ديموقرطكيةٍ مستقرة وعادلة".[2]

إنَّ أمةً من الأفراد، في المقابل، حيث يمضي المواطنون كلَّ وقتهم في مستوى دوركهايم الأسفل، من المرجّح أن يكونوا جائعين للمعنى. إذا لمْ يستطعْ الناس تلبية حاجتهم لارتباط عميقٍ بطرقٍ أخرى، فسيكونون أكثر تلقّفاً لقائدٍ عذب الكلام يحثّهم على التخلّي عن حياتهم القائمة على "البهجة الأنانية اللحظية" ومتابعته نحو الأمام وصولاً إلى "ذاك الوجود الروحاني على نحوٍ خالص" حيث تتكون قيمتهم بصفتهم بشراً.

باختصار

عندما شرعتُ في كتابة ((فرضية السعادة))، اعتقدت أنّ السعادة تأتي من الداخل، حسبما قال بوذا والفلاسفة الرواقيون قبل آلاف السنين. لن تجعل العالم

---

[1] أنظر ملاحظات جيمس ماديسون Madison's notes for June 6 in *The Records of the General Convention of 1787*: "العلاج الوحيد [لمجازفة القمع من قِبَل الأغلبية] يكمن في توسيع المجال، بذلك لتُقسم الجماعة الكبيرة إلى عدد كبيرٍ من المصالح والأحزاب، أي، في المقام الأول، من غير المرجّح أن يكون لدى غلبية ما، في اللحظة ذاتها، مصلحة مشتركة منفصلة عن ذاك الكل، أو عما هو للأقليّة: فإنهم في المقام الثاني، وإذا ما توفرت لديهم مصلحة كهذه، فأنهم لن يكونوا ميّالين للاتحاد في السعي إليه." كان المؤسسون يتحدثون عن فصائل سياسية نادراً ما ترقى إلى تماسك خلايا النحل. على الرغم من ذلك، تصوّروا أمةً تأتي قوتها من التزام الناس في جماعاتٍ ومؤسساتٍ محلية، انسجاماً مع تحليل بوتنام Putnqam's (2000) لرأس المال الاجتماعي.

[2] Putnam 2000, P. 209



ينصاع لرغباتك، وهكذا ركّزْ على تغيير ذاتك ورغباتك. لكن عندما انتهيت من الكتابة، غيّرت رأيي: السعادة تأتي من المنطقة البينية. تأتي من الحصول على العلاقات الصحيحة بين نفسك والآخرين، ونفسك وعملك، ونفسك وما هو أكبر من نفسك.

فور فهم طبيعتك المزدوجة، بما فيها غطاؤنا العصبوي، يمكنك رؤية أنّ السعادة لم تأتْ من منطقة الما بين. لقد تطوّرنا كي نعيشَ في جماعات. عقولنا لمْ تكنْ مصممةً فحسب لمساعدتنا في الفوز في المنافسة ضمن جماعتنا، ولكن أيضاً لمساعدتنا في الاتحاد مع أولئك الذين في جماعتنا للفوز في مسابقات عابرة للجماعات.

لقد عرضتُ في هذا الفصل فرضية خلية النحل، التي تفيد أنّ بني البشر مخلوقات خلية نحلٍ شرطيين. نتمتع بالقدرة (في ظروفٍ خاصة) على التعالي فوق مصلَحَتَنا الشخصية ونفقد ذواتنا (آنياً على نحوٍ منتشٍ) في شيءٍ ما أكبر من ذواتنا. وقد أسميتُ هذه القدرة زرّ تشغيل خلية النحل. وزر تشغيل خلية النحل هو طريقةٌ أخرى صوغ كلمات فكرة دوركهايم بأننا إنسانٌ ثنائي: نعيش معظم فترات عمرنا في عالم دَنِسٍ، لكننا ننجزُ أعظمَ مباهجنا في تلك اللحظات المختصرة من العبور إلى العالم المقدس، حين نصبح "ببساطةٍ جزءاً من كل."

لقد وصفتُ ثلاثَ طُرُقٍ شائعةٍ يقوم الناس فيها بإدارة زر الخلية": الرهبة في الطبيعة، وعقاقير دوركهايمية، وحالات الافتتان. وصفت النتائج حديثة العهد بشأن الأوكسيتوسين وعصبونات المرآة التي تفيد في أنّها المادة التي يُصنَعُ منها زر تشغيل الخلية. يقوم الأوكسيتوسين بربط الناس إلى جماعاتهم، وليس إلى مجمل البشرية. تساعد عصبونات المرآة الناس على التقمص العاطفي مع الآخرين، ولا سيّما أولئك الذين يشتركون في منظومة الأخلاقية.

سيكون أمراً حسناً الاعتقاد بأننا نحن البشر كنا مصممين لمحبةِ كلّ شخصٍ دون قيد أو شرط. حسنٌ، لكن على نحوٍ أجدر من غير المرجح من منظور الارتقاء. إنّ الحب الضيّق ـ المكبَّر بواسطة التشابه، ومعنى القدر المشترك، وقمع الأشخاص المنفلتين، قد يكون معظمَ ما نستطيع إنجازه.



الحادي عشر

الدين رياضة فريق

في كلّ يوم سبتٍ في الخريف، في الكليات الجامعية في أرجاء الولايات المتحدة، يتجمّع ملايين الأشخاص في ستاداتٍ رياضية للمشاركة في طقسٍ من غير الممكن وصفُهُ إلا بالقبلي. في جامعة فرجينيا، يبدأ الطقس في الصباح إذ يرتدي الطلبة أزياءً خاصة. فيرتدي الرجال قمصاناً رسميةً مع ربطات عنق خاصة بجامعة فرجينيا [UVA]، وإذا ما كان المناخ حاراً، [يرتدون] بنطالاتٍ قصيرة. وبطريقةٍ نمطية ترتدي النساء تنانيرَ أو فساتينَ، في بعض الأحيان مع قلاداتٍ من الجوهر. كما يطبع بعض الطلبة شعار فرقنا الرياضية، الفرسان (حرف V المتقاطع مع سيفين)، على وجوههم أو أجزاء أخرى من أجسادهم.

يحضر الطلبة حفلات ما قبل المباراة التي تقدم الفطرغد* والمشروبات الكحولية. ومن ثمّ يتقاطرون إلى الاستاد، في بعض الأحيان يتوقفون عن الاختلاط مع الأصدقاء، أوالأقارب، أو الخرّيجين غير المعروفين الذين قادوا السيارات لعدة ساعات للوصول إلى تشارلوتسفيل في الوقت المناسب كي ينظموا حفلات السيارات المتقاربة المتلاحقة في كل موقف للسيارات ضمن مسافة نصف ميل من الاستاد. المزيد من الطعام، والمزيد من الكحول، والمزيد من طلاء الوجه.

* وجبة طعام نصف صباحية تقوم مقام الفطور والغداء معاً (فطور + غداء) ـ ((المورد))



في الوقت الذي تبدأ المباراة فيه، يكون الكثير من المشجعين ال 50.000 سكارى، مما يسهّل عليهم التغلب على الخجل والمشاركة بشكلٍ تام في الهتافات المتزامنة، والتهليلات، وعبارات السخرية، والأغاني التي ستملأ الساعات الثلاث التالية. وكلما سجل فريق الفرسان هدفاً، يقوم الطلبة بإنشاد الأغنية ذاتها التي قام طلبة جامعة فرجينيا بترديدها في مناسباتٍ كهذه على مدى قرنٍ من الزمن. ويأتي البيت الأول مباشرة من دوركهايم وإهرينرايش. يقوم الطلبة بشبك السواعد حرفياً والتمايل كتلةً واحدةً وهم ينشدون المدائح في جماعتهم (على لحن "Auld Lang Syne ") [قديم منذ عهودٍ بعيدة]:

تلك الأغنية وا ـ هوو ـ وا ـ سننشدها مراراً وتكراراً

هي تبهج قلوبَنا وتدفِئ دماءنا إذ نسمعهم يصرخون ويهدرون

أتينا من فرجين ـ،ي ـ ا القديمة، حيث الجميع متألقون ومرحون

لنشبك جميعاً السواعد ونطلق صيحةً من أجل يو ـ في ـ أي.

بعد ذلك، يوضح الطلبة أطروحة ماكنيل بأنّ "الترابط الجسدي" يحدث إحماءً لدى الأشخاص للقيام بعمل عسكري منسّق.[1] يفلتُ الطلبة سواعد بعضهم ويقومون بحركات رفع القبضات وإنزالها بأسلوبٍ عدائي في الهواء، بالتناغم مع هتاف معركةٍ قوامه الهراء:

ياه ـ هوو ـ واه! واه ـ هوو ـ واه! يوني ـ في،

فرجين ـ ي ـ ا!

هوو ـ راه ـ راي! راي ـ راي ـ

يو ـ في ـ إي!

---

[1] McNeill 1995، أنظر الفصل 10. الرابط مع العدوان أكثر وضوحاً في جامعاتٍ أخرى حيث الحركة المستخدمة أثناء هتافهم هي تأرجح التمهوك [فأس يصنعها الهنود الحمر سلاحاً وأداةً ـ المترجم] (على سبيل المثال جامعة فلوريدا الحكومية) أو حركة فك التمساح الخاطفة (جامعة فلوريدا) نحو مشجّعي الفريق المنافس، على الجانب الآخر من الستاد.



هو يومٌ كاملٌ من حالة خلية النحل والمشاعر الجمعية. الهيجان الجمعي مضمون، كما هو حال مشاعر الغضب الجمعي ضد نداءات حكام المباريات موضع الشك، والانتصار الجمعي إذا انتصر الفريق، والحزن الجمعي إذا خسر الفريق، يتبعها مزيدٌ من تناول الكحول الجماعي في حفلات ما بعد المباراة.

لمَ الطلبة يغنون، ويهتفون، ويرقصون، ويتمايلون، ويقومون بحركات قاطعة، ويرقصون الجاز على هذه الدرجة من الحماس أثناء المباراة؟ قد يساعد إظهار التشجيع لفريق كرة القدم الخاص بهم في تحفيز اللاعبين، ولكنْ هل تلك وظيفة تلك السلوكات؟ هل يتم القيام بها لإنجاز النصر؟ لا. من منظور دوركهايم تخدم هذه السلوكات وظيفةً مختلفةً جداً، وهي ذات التي رآها دوركهايم في معظم الطقوس الدينية: خلق التجمّع الكبير.

إن مباراة كرة قدم على مستوى كلية هي قياس رائع مع الدين.[1] ومن منظورٍ ساذج، التركيز على ما هو مرئيٌ فحسب (أي المباراة التي يتم لعبها في الميدان)، فإنّ كرة القدم على مستوى الكلية هي مؤسسةٌ متهورة، مكلفةٌ، متلافةٌ تقوم بإضعاف قدرة الناس على التفكير بطريقةٍ عقلانية بينما يتركون سلسلةً طويلةً من الضحايا (بمن فيهم اللاعبون أنفسهم، إضافةً إلى الكثير من المشجّعين الذين يعانون من إصابات ناجمة عن تعاطي الكحول). لكنْ من منظور مدعّمٍ عارفٍ بعلم الاجتماع، هي طقسٌ ديني يقوم بما يُفترَض القيام به فحسب: يسحب الأشخاص من مستوى دوركهايم الأسفل (المدنّس) إلى مستواه الأعلى (المقدس). فيقوم بإدارة زر تشغيل خلية النحل وتجعل الناس يشعرون، لبضعة ساعاتٍ، أنهم ببساطة "جزءٌ من كل". فهي تزيد من روح المدرسة التي كانت تشتهر بها جامعة فرجينيا، والتي بدورها تجتذبُ طلاباً أفضل وتبرعاتٍ أكثر من الخرّيجين، وهو بدوره يحسّن تجربة المجتمع المحلي، بمن فيهم أساتذةٌ جامعيون مثلي ممن لا يهتمون بالرياضة.

---

[1] لقد قمت بتطوير هذا القياس، وأفكارٍ كثيرةٍ أخرى في هذا الفصل، بالتعاون مع جيسي جراهام في Graham and Haidt 2010.



الأديان حقائقٌ اجتماعية. لا يمكن دراسة الدين لدى أفرادٍ معزولين بقدر ما يمكن دراسة نزعة خلية النحل لدى نحلاتٍ معزولة. ويجعلُ تعريف دوركهايم للدين وظيفته الترابطية واضحةً:

> أيّ دينٍ هو عبارةٌ عن نظام موحّدٍ من المعتقدات والممارسات متعلقة بأشياءٍ مقدسة، مما يعني، الأشياء الموضوعة جانباً والممنوعة ـ معتقدات وممارسات تتوحد في جماعة أخلاقية واحدة تُدعى الكنيسة، وكل أولئك الذين يتبعونها.[1]

في هذا الفصل أواصل استقصاء المبدأ الثالث المتعلق بعلم النفس الأخلاقي: الأخلاق تحدث الترابط والعمى. ويخطيء كثير من العلماء في فهم الدين لأنهم يتجاهلون هذا المبدأ ويتفحّصون فحسب ما هو أكثر ظهوراً. فهم يركزون على الأفراد ومعتقداتهم الفوطبيعية، أكثر من تركيزهم على جماعات وممارساتها الترابطية. ويستنتجون أنّ الدين مؤسسة متهورة، مكلفةٌ، متلافة تُضعف قدرة الأشخاص على التفكير المتعقّل بينما يُخلّفُ سلسلةً طويلةً من الضحايا. لا أنكرُ أنَّ الدين، في بعض الأوقات، يناسب فعاليّاً ذلك الوصف. لكنْ إذا ما كان لنا أنْ نستخلص حكماً عادلاً بشأن الدين ـ وفهم علاقته مع الأخلاق والسياسة ـ علينا باديء ذي بدءٍ وصفه على وجه الدقة.

المؤمن المعزول

عندما قام تسعةَ عشر مسلماً باختطاف أربع طائراتٍ واستخدموها لتدمير مركز التجارة العالمي وجزءٍ من مبنى البنتاجون، أقحموا إلى العلن الاعتقاد الذي كان العالم الغربي قد أضمره منذ الثمانينات [من القرن المنصرم]: ومفاده أنّ هنالك صلةً خاصة بين الإسلام والإرهاب. كان المعلّقون في اليمين سريعين في لوم

---

[1] Durkheim 1965/1915, p. 62



الإسلام. وكان المعلّقون من اليسار فحسب سريعين في القول أنّ الإسلام دين سلام وأنّ اللوم يجب أن يوجّه إلى الأصولية.[1]

لكن انفتح شرخٌ ممتع لدى اليسار. كما بدأ بعض العلماء الذين كانوا خلاف ذلك ليبراليين تماماً ليس بمهاجمة الإسلام فحسب بل جميع الأديان (عدا البوذية).[2] بعد عقودٍ من حرب الثقافة في الولايات المتحدة حول تدريس الارتقاء في المدارس العامة، رأى بعض العلماء تمايزاً قليلاً بين الإسلام والمسيحية. كل الأديان، حسبما قالوا، هي أوهام تمنع الناس من اعتناق العلم، والعلمانية، والحداثة. لقد حرّض رعب 11/9 عدة علماءَ من أولئك على وضع كُتُب، ما بين 2004 و2007، وهكذا تم نشر الكثير من هذه الكتب إلى حدّ أنّ ولادة حركةٍ قد تمت: الإلحاد الجديد.

كانت العناوين مولعةً بالقتال. اول الكتب المنشورة كان كتاب سام هاريس ((نهاية اليقين: الدين، والإرهاب، ومستقبل المنطق))، يليه كتاب ريتشارد داوكنز ((وهم الله))، وكتاب دانييل دينيت ((تفكيك السحر: الدين بصفته ظاهرة طبيعية))، والعنوان الأكثر صراحةً من الجميع، وكتاب

---

[1] أو، بالنسبة للبعض في اليسار المتطرف، كان اللوم على أمريكا نفسها. أنظر، على سبيل المثال، وادعاء وورد تشرشل Ward Churchill 2003 أنّ الأشخاص الموجودين في البرجين التوأم كانوا يستحقون الموت. الاحظُ أنّ هنالك تاريخاً طويلاً من عداء الجناح اليساري للدين، يعود إلى ماركس، ولفلاسفة التنويرالفرنسيين في القرن التاسع عشر. أعتقد أنّ دفاعات الجناح اليساري الحالي عن الإسلام في الأمم الغربية ليس دفاعاً عن الدين بأيّ حالٍ من الأحوال؛ هو نتيجة تنامي النزعة في الجناح اليساري لرؤية المسلمين باعتبارهم ضحايا القمع في أوروبا وفلسطين. الاحظ أيضاً أنه في الأيام التي تلت هجمات 11/9 ، وضع الرئيس بوش نفسه في جانب أولئك الذين قالوا إنّ الإسلام دين سلام.

[2] يتم عادةً الصفح عن البوذية من الانتقاد، وفي بعض الأحيان اعتناقها ـ على سبيل المثال، من قبَل سام هاريس ـ ربما لأنها من الممكن أن تتعلمن بسهولة وتؤخذ على أنها نظامٌ فلسفي وأخلاقي يستند بقوةٍ إلى أساس الرعاية/الأذى. وهذا تماماً ما يفعله الدالاي لاما في كتابه الصادر عام 1999 بعنوان ((أخلاق من أجل ألفية جديدة)) *Ethics for the New Millennium*.



كريستوفر هيتشنز ((الله ليس أكبر: كيف يسمم الدين كل شيء)). هؤلاء المؤلفون الأربعة معروفون بانهم فرسان حركة الإلحاد الجديد، لكنني ساقوم باستبعاد هيتشنز لأنه صحفيٌّ لم يتظاهر كتابه بأنه يعدو عن كونه نقداً ساخراً عنيفاً جدلياً. المؤلفون الثلاثة الآخرون، من جانبٍ آخر، هم رجال علم: كان هاريس طالب دراسات عليا في علم الأعصاب آنذاك وكان داوكنز عالم أحياء، ودينيت فيلسوفاً كان قد كتب على نطاقٍ واسعٍ عن الارتقاء. ولقد ادعى هؤلاء المؤلفون الثلاثة التحدث باسم العلم لكي يقدموا مثالاً عن قيم العلم ـ ولا سيما انفتاحه العقلي وتأكيده على ادعاءات راسخة في المنطق والدليل القائم على التجربة العملية، لا اليقين او الشعور.

أقوم كذلك الأمر بضم هؤلاء المؤلفين إلى بعضهم لأنهم يقدمون تعاريف متشابهة للدين، جميعها تركز على الاعتقاد بقوى فوطبيعية. هنا هاريس: "في كافة مواضع هذا الكتاب، أقوم بتوجيه النقد للإيمان بمعناه الاعتيادي، والمتعلّق بالنص المقدس ـ على أنه اعتقادٌ بِ، وتوجيه للحياة باتجاه، فرضيات تاريخيةٍ وميتافيزيقيةٍ محددة."[1] يقوم بحث هاريس الخاص بدراسة ما الذي يحدثُ في الدماغ عندما يصدق الناس أو لا يصدّقون عدة افتراضات، ويبرّرُ تركيزه على المعتقد الديني بهذا الادعاء السايكولوجي: "الاعتقاد هو رافعة، فور سحبها، تقوم بتحريك كلّ شيءٍ في حياة الشخص."[2] بالنسبة إلى هاريس، المعتقدات هي المفتاح لفهم التركيبة النفسية للدين لأنه حسب وجهة نظره،

---

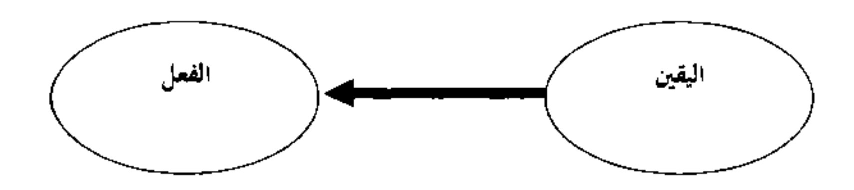
(1) Harris 2004, P. 65

(2) Ibid., P. 12 . يرفع هاريس سوية المعتقد ليكون جوهر الإنسانية: "إنّ إنسنية أي دماغ تتألف إلى حد بعيد في قدرته على تقييم مقولاتٍ جديدة للحقيقة المفترضة على ضوء عدد لا يحصى سواها كان قد تلقاها مسبقاً" (Ibid., P. 51). وهذا تعريف لا بأس به بالنسبة لشخصٍ عقلاني، لكن باعتباري حدسياً اجتماعياً أرى أنّ إنسانية أيّ دماغ تتشكل أساساً في قدرته على المشاركة والدخول في هلوسات تقوم على الإجماع (أي منظومات أخلاقية) تقوم بخلق جماعات أخلاقية تعاونية. أنظر مناقشتي لعمل توماسيللو في الفصل 9. أنظر أيضاً Harris et al. 2009.



التصديق عبارة زيف (سيكافأ الشهداء باثنتين وسبعين حورية في الجنة) يجعل الأشخاص المتديّنين يفعلون أشياء مؤذية (على سبيل المثال التفجيرات الانتحارية). ولقد قمت بإيضاح نموذج هاريس النفسي في الشكل 11. 1.

يتّخذ داوكنز مقاربةً مشابهة. فهو يعرّف "فرضية الله" على أنها افتراضٌ "بأنه يوجد عقل فوإنساني، فوطبيعي يقوم عن سابق إصرارٍ بتصميم وخلق الكون وكلّ ما فيه، بما في ذلك نحن."[1] ومعظم الكتاب محاججة بأنّ "الله،



الشكل 11. 1 نموذج الملحد الجديد للتركيبة النفسية للدين

بالمعنى المعرّف، هو نوعٌ من الوهم؛ وكما ستظهر الفصول اللاحقة، وهو وهمٌ ثمين."[2] مرةً أخرى، يُدرَسُ الدين على أنه مجموعة من المعتقدات تخصّ معتقداتٍ فوطبيعية، وهذه المعتقدات يُقالُ إنها سبب سلسلة من الأفعال المؤذية. ويتبنّى دينيت هذه المقاربة كذلك الأمر.[3]

---

[1] Dawkins 2006, P. 31

[2] Ibid

[3] Dennet 2006, P. 9 يقول دينيت إنّ الأديان "نظمٌ اجتماعيةٌ يُقرُّ المشاركون فيها الاعتقاد بقوة فوطبيعية أو قوى لا بدَّ من السعي إلى استحسانها." على الأقل يعترف دينيت بأنّ الأديان "نُظُمٌ اجتماعية،" لكنّ معظم ما تبقى من هذا الكتاب يركّز على أسباب وتداعيات المعتقدات المزيّفة التي يتمسك بها الأفراد، وفي هامش أسفل الصفحة لتعريفه يقوم صراحةً بمناقضة تعريفه لتعريف داوكنز.



تلعب القوى الفوطبيعية فعلياً دوراً مركزياً في الدين، كما هي كرة القدم بحد ذاتها في مركز دوامة النشاط في يوم المباراة في جامعة فرجينيا. لكنّ محاولة فهم إصرار الدين وغلوائه بواسطة دراسة المعتقدات عن الله إنما هو أشبه بمحاولة فهم إصرار وعاطفة كرة قدم الكليات عن طريق دراسة حركات الكرة. عليك أن تتوسّع في التحقيق. عليك النظر إلى الطرائق التي تعمل المعتقدات الدينية بموجبها مع الممارسات الدينية لخلق تجمّع ديني.[1]

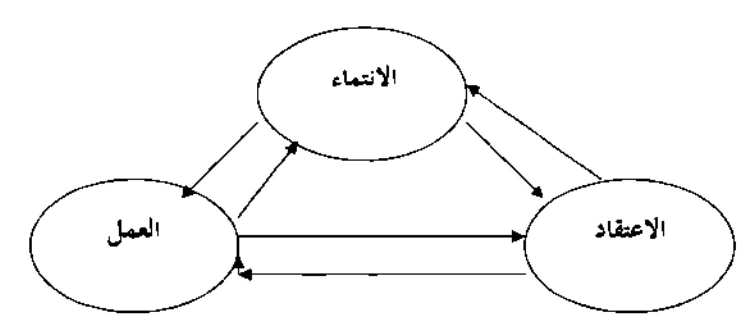
إنّ اليقين، والممارسة، والانتماء ثلاثة عناصرَ متممة ولو أنها متمايزة من التقوى، حسب كثيرٍ من الباحثين.[2] عندما تتأمل العناصر الثلاثة في الوقت ذاته، تحصل على وجهة نظر علم نفس الدين مختلفةً كثيراً عن وجهة نظر الملحدين الجدد. سأسمي هذا النموذج التنافسي النموذج الدوركهايمي، لأنه يقول إنّ وظيفة تلك المعتقدات والممارسات جوهرياً خلق جماعة. في الغالب معتقداتنا هي بُنىً لاحقة مصممةٌ لتبرير ما كنا قد فعلناه تواً، أو لدعم الجماعات التي يقوم نموذج الملحد الجديد على النظرة الأفلاطونية العقلانية للعقل، الذي عرضته في الفصل 2: العقل (أو على الأقل من الممكن أن يكون) عبارةٌ عن سائق المعجّلة ذو الأعنة يقود العواطف (الأحصنة). وهكذا طالما أنّ العقل يتمتع بالمعتقدات المناسبة القائمة على الحقائق (ويتمتع بالسيطرة على العواطف غير المنضبطة)، ستسير العربة في الاتجاه الصحيح. وفي الفصول 2 و3 و4،

---

[1] أنظر على سبيل المثال Ault 2005; Eliade 1957/1959 . ألاحظ أنّ أعظم باحث حول الدين في علم النفس، وليام جيمس William James (1961/1902) اتخذ منظور المؤمن المعزول أيضاً. وعرّف الدين على أنه "مشاعر، وأفعال، وتجارب الرجال الأفراد في عزلتهم، إلى حد أنهم يدركون أنفسهم ليقفوا في علاقة مع شيءٍ قد يعتبرونه المقدس". إنّ التركيز على المعتقد ليس مقتصراً على الملحدين الجدد. وهو شائعٌ لدى علماء النفس، وعلماء الأحياء، وسواهم من العلوم الطبيعية، مقابل علماء النفس، والأنثروبولوجيا، والباحثين في أقسام الدراسات الدينية، وهم جميعاً أكثرُ مهارةً في التفكير حول ما يدعوه دوركهايم "الحقائق الاجتماعية".

[2] أنظر على سبيل المثال Froese and Bader 2007; Woodberry and Smith 1998





الشكل 11. 2. النموذج الدوركهايمي لعلم نفس الأديان

من جانبٍ آخر، راجعتُ الكثير من الأدلة ضد النظرة الأفلاطونية وإلى جانب النظرة الهيومية إذْ العقل (الراكب) هو خادمٌ لحالات الحدس (الفيل).

لنتابع المناظرة بين العقلانية والحدسية الاجتماعية حين نتقصى الدين. لفهم علم نفس الدين، هل يتوجب علينا التركيز على المعتقدات المزيفة والتبريرية المختلّة للمؤمنين الأفراد؟ أو يتوجب علينا التركيز على العمليات الآلية (الحدسية) للأشخاص الراسخين في الجماعات المجتمعية الذي يجهدون لخلق مجتمع أخلاقي [مصغّر]؟ وهذا يعتمد على ما نظنه بشأن ماهية الدين، وما نظنه بشأنِ منشئه.

قصة الملحد الجديد: نتاجات جانبية، وطفيليون

بالنسبة إلى شخصٍ مؤمن بالارتقاء، تبرز السلوكات الدينية "مثل طواويس في أرضٍ فضاءٍ داخل غابة" حسب تعبير دينيت.[1] يستبعد الارتقاء بقسوة السلوكات المكلفة والمبددة من مجموع تصرفات الحيوان (على مدى أجيالٍ كثيرة)، وبالرغم من ذلك، لنقتبس داوكنز، "ما من ثقافةٍ تفتقد نسخةً ما لطقوسٍ، مبددة للزمن، مستهلكة للثروة، ومثيرة للعداء، تخيّلات الدين ذات

[1] Dennett 2006, P. 141



المفعول العكسي والمضادة للحقيقة."[1] ولحل هذا اللغز، يترتب عليك إما التسليم بأن التدين (أو على الأقل، اعتاد أن يكون) مفيدٌ أو يتوجب عليك إنشاء شرحٍ معقد متعدد الخطوات لكيفية وصولَ البشر في كل الثقافات المشهورة إلى السباحة عكس تيار التكيّف والقيام بالكثير من المادة الدينية الانتحارية. ويختار الملحدون الجدد المسار التالي. وتبدأ سردياتهم بمناقشة "المنتجات الجانبية" الارتقائية التي تشرح الأصل العرضي للمعتقدات بالله، ويستمر بعضهم بعدئذٍ في سردية عن كيفية تطور هذه المعتقدات بوصفها مجموعاتٍ من السلوكات الثقافية الطفيلية.[2]

إنّ الخطوة الأولى في قصة الملحد الجديد ـ وهي ما لن أتحداها ـ هي الواسطة المفرطة في الحساسية لجهاز الكشف.[3] والفكرة ذات معنىً بليغ: نرى وجوهاً في الغيوم، لكن لا نرى غيوماً في الوجوه، لأننا نتمتع بنماذج إدراكية خاصة لالتقاط الوجوه.[4] إنّ لاقط الوجه على قادح من الشعر، ويجعل تقريباً كافة أخطائه باتجاه واحد ـ إيجابيات مزيّفة (مشاهدة وجه عندما لا يكون الوجه الحقيقي موجوداً، مثل)، أكثر من السلبيات الزائفة (الإخفاق في رؤية الوجه الموجود فعلياً). على نحوٍ مشابه، معظم الحيوانات تواجه تمييز الأحداث الناجمة عن حضور حيوانٍ آخر (وهي قوة من الممكن أن تتحرك تحت سلطته الخاصة) من تلك الناجمة عن الريح، أو سقوط ثمرة صنوبر، أو أيّ شيء يفتقد القوة.

إنّ حلّ هذا التحدي هو وحدة قوة التقاط وظيفية، وكما هو حال لاقط الوجه، يقع على قادح من الشعر. يرتكب تقريباً جميع أخطائه باتجاهٍ واحد ـ الإيجابيات المزيّفة (التقاط قوة عندما ينتفي حضورها)، أكثر من السلبيات

(1) Dawkins 2006, P. 166

(2) [meme] عبارة عن كم قليل من المعلومات من الممكن أن تتطوّر ببعضٍ من الطرق ذاتها التي تتبعها الجينة في التطور[الترجمة المقترحة الحمولة الثقافية]. أنظر Dawkins 1976 .

(3) Barrett 2000; Boyer 2001

(4) تم إضفاء الشعبية على هذه الفكرة على يد جوثري Guthrie 1993 .



المزيفة (الإخفاق في التقاط حضور قوة حقيقية). إذا ما أردت رؤية لاقط قوة مفرط الحساسية قيد العمل، قم فحسب بإزلاق قبضتك في المكان تحت البطانية، على مرأى من كلبٍ صغيرٍ أو قطة. وإذا ما أردت أن تعرف لمَ هو على قادح شعرة، فكّر فقط في أيّ نوعٍ من الخطأ سيكون أكثر جسامةً في المرة التالية حين تسير وحيداً في قلب الغابة في الليل أو في زقاق مظلم. إنّ الجهاز لاقط القوة مفرط الحساسية مولّفٌ بحساسية لتضخيم البقاء وليس الدقة.

لكنْ الآن افترضْ أنّ البشر الأوائل، المزوّدين بلاقط قوة مفرط الحساسية، وهي قدرةٌ جديدة على الانخراط في قصدية مشتركة، وحبٌ للقصص، يبدؤون الحديث بشأن إدراكاتهم المشوهة. افترض أنهم يبدؤون بعزوِ القوة إلى المناخ. (الرعد والبرق من المؤكد أنهما يجعلان الأمر يبدو كأنَّ أحداً ما عالياً في السماء غاضبٌ علينا). افترض جماعةً من البشر تبدأ جماعياً بإيجاد هيكلٍ للآلهة مؤلف من قوى غير مرئية تسبب المناخ، وحالات منوّعة من حسن الحظ أو سوئه. تمام Voila - إنّ ولادة قوى فوطبيعية، ليس تكيّفاً من أجل أيّ شيءٍ سوى نتاجٍ جانبي لوحدة وظيفية إدراكية يكون خلاف ذالك بالغ القدرة على التكيف. (من أجل مثال أكثر دنيوية لناتج جانبي، فكّر في قصبة الأنف على أنها سمةٌ تشريحية مفيدة لحمل النظارات. لقد تطوّرت من أجل أسبابٍ أخرى، لكننا نحن البشر نعيد استخدامها من أجل غايةٍ أخرى تماماً).

الآن كرّر هذا النوع من التحليل حول مزيد من خمس أو عشر سمات. يفترض داوكنز وحدة "تعلّمٍ ساذج" وظيفية: "سيكون هنالك فائدة مختارة لدماغ الطفل الذي يمتلك قاعدة الإبهام: اقتنع، دون تساؤل، أيّ شيءٍ يخبرك به كبارك."[1] يقترح دينيت أنّ الدارات الكهربائية للوقوع في الغرام قد تعرضت

---

[1] Dawkins 2006, P. 174 . لكنّ تجارب الالتزام الديني والتحول الديني تبدأ جدّياً في سنوات المراهقة، وهي على وجه التحديد السنوات حين يبدو الأطفال من المستبعد أن يعتقدوا بأيّ شيءٍ يخبرهم كبارهم عنه.



للتوجيه بواسطة بعض الأديان لجعل الناس يقعون في عشق الله.[1] ولقد أظهر عالم النفس الارتقائي بول بلوم أنَّ عقولنا صُمِّمتْ من أجل الثنائية ـ يخطرُ لنا أنّ العقول والأجساد مختلفة لكنّهما على حدٍ سواء شيئان حقيقيان ـ وهكذا نعتقد مسبّقاً أنّ لدينا أرواحاً خالدةً ساكنة في أجسادنا المؤقتة.[2] في كلّ الحالات المنطق هو ذاته: شيء قليل من معدات الآلة الذهنية تطوّر لأنه منح فائدة حقيقية، لكن معدات الآلة في بعض الحالات تفشل في إطلاق النار، منتجةً تأثيراتٍ عابرة مدركة تجعل الناس عرضةً للإيمان بالله. لم يكنْ الدين في أية مرحلة بحد ذاته مفيداً للأفراد والجماعات. ولم يتمّ اختيار الجينات في أية مرحلة لأنّ الأفراد والجماعات التي كانت أفضل في "التأليه تفوّقت في المنافسة على أولئك الذين أخفقوا في إنتاج، أومخافة، أو محبة آلهتهم. وحسب هذه النظريات، كانت كل الجينات لبناء وحدات وظيفية المتعددة هذه ماثلة في الوقت الذي غادر البشر فيه الحديثون إفريقيا، والجينات لمْ تتغير استجابةً لضغوط الاصطفاء سواءٌ أضدَّ التدين أو معه خلال 50.000 عاماً منذ ذلك الحين.

تغيّر الآلهة، من جانبٍ آخر، وهذا يحيلنا إلى الخطوة الثانية لقصة الإلحاد الجديد: التطور الثقافي. وما إنْ بدأ الناس الاعتقاد بالقوة فوطبيعية، والحديث عنها ونقلها إلى أطفالهم، برز عرقٌ واحد. لكنّ العرق لم يكن يُدارمن قِبَل أناس أو جينات: كان عرقاً بين عدة مفاهيم فوطبيعية ولّدها الناس. حسب تعبير دينيت:

> إن الحوريات والجنيّات والعفاريت والشياطين التي تزحم ميثولوجيات كلّ شعب هي نسل عادة مفرطة في النشاط في إيجاد قوة ما في أي وقتٍ تحيّرنا أو تخيفنا. ويولّد هذا على نحوٍ لا عقلاني حشداً عرمرماً من الأفكار ـ القوى، معظمها بالغ الغباء ليسترعي انتباهنا للحظة؛

[1] Dennett 2006, chapter 9 . أعتقد أنّ دينيت على صواب.

[2] Bloom 2004; 2012 . بلوم ليس ملحداً جديداً. أعتقد أنّ اقتراحه صحيح هنا ـ هذا واحدٌ من أهم التباشير النفسية للمعتقدات الفوطبيعية.



فقط تجتاز بضعة منها جيّدة التصميم جولة التدريب، والتغيير والتطوير حين تتلاشى. إنّ تلك التي يتم الاشتراك فيها وتذكّرها هي الرابحة التي تمت تقويتها في ملايين المنافسات لوقت التدريب في أدمغة أسلافنا.[1]

حسب دينيت وداوكنز، الأديان مجموعة من الحمولات الثقافية كانت قد خضعت للاصطفاء الدارويني.[2] وكما هو حال السمات البيولوجية، الأديان قابلة للتوريث، وهي تتحول، ويوجد هنالك اصطفاءٌ بين هذه التحولات. ولايحدث الاصطفاء على أساس الفائدة التي تمنحها الأديان للأفراد والجماعات بل على أساس قدرتها على البقاء وإعادة إنتاج نفسها. فبعض الأديان أفضل من غيرها في اختطاف عقول البشرن وحفر الأخاديد عميقاً، ثمَّ جعل أنفسهم ينتقلون إلى الجيل التالي من العقول المستضيفة. يفتتح دينيت كتاب ((فك السحر)) بقصة مخلوق طفيليٍ ضئيلٍ يقود أدمغة النملات، مسبباً لها التسلق إلى أعلى أوراق العشب، حيث من الممكن أن تكون عرضةً بسهولة أكبر للالتهام من قبل الحيوانات التي ترعى. السلوك عبارة عن انتحال بالنسبة إلى النمل، لكنّه تكيّفي بالنسبة إلى المخلوق الطفيلي، الذي يتطلّب من الجهاز الهضمي للحيوان المجتر إعادة إنتاج نفسه. يفترض دينيت أن الأديان تبقى لأنها، مثل تلك الطفيليات، تجعل مضيفيها يقومون بأمورٍ سيئة على أنفسهم (على سبيل المثال، التفجيرات الانتحارية) لكنها جيدة للطفيلي (على سبيل المثال، الإسلام). ويصف داوكنز على نحوٍ مشابه الأديان على أنها فيروسات. تماماً مثلما يقوم الفيروس بجعل مضيفه يعطس لكي ينشرَ نفسه، تجعل الأديان الناجحة مضيفيها ينفقون مواردهم الثمينة لكي تنشر "العدوى".[3]

---

(1) Dennett 2006, P. 123

(2) انظر أيضاً Blackmore 1999 . بلاكمور هي منظرة الحولات الثقافية التي كان بالأصل قد شاركت داوكنز رأيه بأن الأديان كانت عبارةً عن حمولات ثقافية انتشرت مثل الفيروسات. لكن بعد رؤية الدليل بأنّ المتديّنين أكثر سعادةً، وأكثر سخاءاً، وأكثر خصوبةً تخلت عن فكرتها. أنظر Blackmore 2010 .

(3) Dawkins 2006, P. 188 .



إنّ هذه القياسات تتمتع بدلالاتٍ واضحة على التغيير الاجتماعي. إذا كان الدين فيروساً أو طفيلياً يستغلُّ مجموعةً من النتاجاتِ الجانبية الإدراكية، التي لا تعود لنا، من ثمّ ينبغي علينا التخلص منه. العلماء، وأنصار الفلسفة الإنسانية، وعددٌ قليلٌ سواهم الذين نجوا من العدوى وما يزالون قادرين على التفكير المنطقي عليهم العمل معاً لتفكيك السحر، ورفع الوهم، والتسبب بنهاية الإيمان.

قصة أفضل: نتاجات جانبية، وبعدئذٍ اصطفاء الجماعة الثقافي

لقد كان العلماء الذين لم يكونوا في فريق الملحد الجديد على استعداد أكبر للقول إنّ الدين قد يكون حالة تكيّف (أي من الممكن أنه ربما تطور لأنه منح فوائدَ للأفراد والجماعات). وقد نشر علماء الأنثروبولوجيا سكوت أتران وجو هينريش مؤخراً ورقةً تخبرُ قصةً أكثر ظلالاً في المعنى عن تطور التديّن، وهي قصةٌ تنسجم مع مجموعةٍ أوسع من نتائج الاختبار القائم على الملاحظة والاختبار.[1]

مثل الملحدين الجدد، لقصّتهما خطوتان، والخطوة الأولى ذاتها: مجموعة متنوعة منالوحدات الوظيفية والقدرات الإدراكية (بما فيها لاقط القوة المفرط الحساسية) تطوّرت على شكل حالات تكيّف لحلّ تنوّع من المشكلات، لكنّها في الغالب أخفقت في إحداث التغيير المطلوب، منتجةً معتقداتٍ (من قبيل القوى الفوطبيعية) التي ربما ساهمت في حينه (بوصفها نتاجاً جانبيّاً) في السلوكات الأولية شبه الدينية. وحدات القياس هذه كانت جميعاً قائمة في الوقت الذي بدأ فيه البشر بمغادرة إفريقيا قبل أكثر من 50.000 عام مضت. وكما هو حال الملحدين الجدد، تلت هذه الخطوة الأولى خطوة ثانية تنطوي على تطوّر ثقافي (لا جيني). ولكن بدلاً من الحديث عن الأديان بوصفها حمولات ثقافية تتطور من

---

[1] Atran and Henrich 2010



أجل منافعها الخاصة، يقترح أتران وهنريش أنّ الأديان مجموعات من الاختراعات الثقافية تنتشر إلى حدٍ يجعل الجماعات أكثر تماسكاً وتعاوناً. يناقش أتران وهنريش أنّ التطور الثقافي للدين قد تمّ دفعه إلى الأمام إلى حدٍ كبير بواسطة التنافس بين الجماعات. كان للجماعات القادرة على تجيير منتجاتها الجانبية من الآلهة قيد الاستخدام المفيد ميزة على الجماعات التي أخفقت في القيام بذلك، وهكذا انتشرت أفكارهم (لا جيناتهم). والجماعات ذات الأديان الأقل فعالية لا تمّحي بالضرورة؛ في الغالب قاموا فحسب بتبني تنوعاتٍ أكثر فعالية. وهكذا هي حقاً الأديان التي تطوّرت، وليس الناس أو جيناتهم.[1]

بين أفضل الأشياء التي يمكن القيام بها مع نتاج جانبي قوامه إله، حسب أتران وهنريش، هو خلق مجتمعٍ أخلاقي [مصغّر]. فآلهة الصيادين ـ لاقطي الثمار نزويّون وحاقدون. في بعض الأحيان يعاقبون السلوك السئ، لكنّهم يجلبون المعاناة للفاضلين كذلك الأمر. وإذا اتخذت الجماعات الزراعة وازدادت حجماً، من جانبٍ آخر، تصبح آلهتهم أكثر تزمتاً.[2] كما أنّ آلهة المجتمعات الأكبرعادةً مهتمة بالعادة بالأعمال التي تثير الصراع والانقسام ضمن الجماعة، مثل القتل، والزنى، وشهادة الزور، والحنث بالقسم.

إذا ما تطوّرَ الآلهة (ثقافياً) لإدانة السلوكات الأنانية والمثيرة للشقاق، من الممكن استخدامها من ثمّ لتعزيزالتعاون والثقة ضمن الجماعة. لن تحتاجَ إلى إلى عالم اجتماع ليخبرَك أنّ الناس يتصرّفون على نحوٍ أقل أخلاقية عندما يفكرون أنْ لا أحد يستطيع رؤيتهم. تلك كانت غاية جلاوكون من خاتم جايجيز*، وأثبت كثيرٌ من علماء الاجتماع أنه كان على حق. على سبيل المثال يغش الناس

(1) من أجل رواياتٍ مفصّلة حول كيف تطورت الأديان والآلهة، انظر Wade 2009; Wright 2009

(2) ; Norenzayan and Shariff 2008 Roes and Raymond2003

* في الميثولوجيا اليونانية، جايجيز راعي عند ملك ليديا، يعثر على خاتمٍ سحري يستخدمه وفي خاتمة المطاف بقتل الملك بالتعاون مع زوجة الأخير ـ المترجم



في اختبار ما عندما تكون الأضواء خافتة.[1] وهم يغشّون بدرجةٍ أقل عندما تكون هنالك صورة تشبه رسوم الكرتون لعينٍ في مكان قريب،[2] أو عندما يتم تفعيل مفهوم الله في الذاكرة بالطلب من الأشخاص أن يعيدوا ترتيب جملٍ إلى وضعها الأصلي تتضمن كلماتٍ متعلّقة بالله.[3] إنّ خلقَ آلهةٍ تستطيع رؤية كل شيء، ومن يكرهون الغشاشين والحانثين باليمين، يتبيّن أنه طريقة جيدة لتقليص الغش والحنث باليمين.

الاختراع الاجتماعي الثقافي الآخر، حسب أتران وهينريش، هو الآلهة التي تدير العقوبة الجماعية. عندما يعتقد الناس أنّ الآلهة قد تأتي بالجفاف أو الطاعون على القرية برمتها من أجل شخصين ارتكبا الزنى، يمكنك أن تراهن أنّ القرويين سيكونون أكثرَ يقظةً بشأن أية إشارة إلى علاقة جنسية خارج الزواج ـ وثرثارين بشأنها. فغضبُ الآلهة يجعل العار أكثر فعاليةً كأداةٍ للسيطرة الاجتماعية.

يبدأ أتران وهينريش بالادعاء ذاته بشأن النواتج الجانبية مثلما يفعل الملحدون الجدد. لكنْ لأنّ هذين العالمين الأنثروبولوجيين يرتئيان أنّ الجماعات كياناتٌ حقيقية كانت منذ أمدٍ بعيد في حالة تنافس ، وهي قادرةٌ على رؤية الدور الذي يلعبه الدين في مساعدة بعض الجماعات لتفوز بالمنافسة. يوجد في الوقت الحاضرالكثير من الأدلة على أنّ الأديان تقوم فعليّاً في حقيقة الأمر بمساعدة الجماعات على التماسك، وحلّ مشكلات الركاب المنفلتين، والفوز في المنافسة على مستوى بقاء الجماعة.

يأتي أوضح الأدلة من عالم الأنثروبولوجيا ريتشارد سوسيس، يقوم برصد مئتي تشكيل اجتماعي صغيرتمّ تأسيسها في الولايات المتحدة في القرن التاسع

---

[1] Zhong, Bohns, and Gino 2010

[2] Haley and Fessler 2005

[3] Shariff and Norenzayan 2007



عشر.[1] التشكيلات الاجتماعية الصغيرة هي تجارب في التعاون دون علاقات قربى. من الممكن للتشكيلات الاجتماعية الصغيرة أن تبقى فحسب إلى الحد الذي يعزز ترابط الجماعة فيما بينها، ويقمع المصلحة الشخصية، وحل مشكلة الخارج عن السرب. يتم تأسيس التشكيلات الاجتماعية الصغيرة عادةً على يد جماعة من المؤمنين الملتزمين الذين يرفضون المنظومة الأخلاقية للمجتمع الأوسع ويريدون تنظيم أنفسهم بموجب مبادئ مغايرة بالنسبة إلى كثيرٍ من التشكيلات الاجتماعية الصغيرة في القرن التاسع عشر، كانت المبادىء دينية؛ ولدى الأخريات كانت علمانية، معظمها اشتراكي. أيّ نوع من التشكيلات الصغيرة بقي لمدة أطول؟ وجد سوسيس أنّ الفرق كان صارخاً: فقط 6 بالمئة من التشكيلات الاجتماعية العلمانية كانت ما تزال تقوم بوظيفتها بعد عشرين عاماً من تأسيسها، مقارنة بـ 39 بالمئة من التشكيلات الاجتماعية الصغيرة الدينية.

ما هو المقوّم السري الذي منعَ التشكيلات الاجتماعية الدينية الصغيرة هامش حياة أطول؟ قام سوسيس بقياس كل شيءٍ استطاع العثورعليه بشأنِ حياة كلِّ تشكيلٍ اجتماعي. ثمّ استخدم تلك الأرقام لرؤية إن كان أيٌ منها يستطيع شرح سبب اجتياز بعضها اختبار الزمن بينما تقوّضت الأخرى. فوجد عاملاً ثابتاً واحداً: عدد التضحيات الباهظة التي طلبها كل تشكيلٍ اجتماعي صغيرٍ من أعضائه. كانت أشياء مثل الإقلاع عن تناول الكحول والتبغ، الصيام لعدة أيام في كل مرة، والتقيّد بقانون رداء جماعي أو قصة شعر، أو قطع الصلات مع الغرباء. بالنسبة إلى التشكيلات الاجتماعية الصغيرة الدينية، كان التأثير خطيّاً على نحوٍ كامل: وكلّما تطلب التشكيل الاجتماعي الصغير تضحية أكبر، طال عمرها. لكنّ سوسيس كان مندهشاً ليكتشف أنّ متطلّبات التضحية لم تساعد التشكيلات الاجتماعية الصغيرة العلمانية. لقد أخفق معظمها في ظرف ثمانية أيام ولم يكن هنالك ترابطٌ ما بين التضحية وطول العمر.[2]

---

(1) Sosis 2000; Sosis and Alcorta 2003

(2) Sosis and Bressler 2003



لمَ لا تقوّي التضحية التشكيلات الاجتماعية الصغيرة؟ يقدم سوسيس الدليل بأنّ الطقوس، والقوانين، والقيود الأخرى تقوم بعملٍ أفضل عندما يتم منحها صفة القداسة. ويقتبس عالم الأنثروبولوجيا روي رابابورت: "إنّ تغليف التقاليد الاجتماعية بالقداسة إنما هو من أجل إخفاء اعتباطيّتها في قناعٍ من الضرورة الظاهرية."[1] لكن عندما تطالب المنظمات العلمانية بالتضحية، كل عضوٍ له حق السؤال عن تحليل تكلفة الفائدة، ويرفض كثيرون القيام بأمورٍ ليست ذات معنى منطقي. بمعنى آخر، إنّ الممارسات الشعائرية ذاتها التي يرفضها الملحدون الجدد على أنها مكلفة، وغير فعالة، وغير عقلانية يتبيّن أنها حل لواحدة من أعقد المعضلات الإنسانية التي يواجهها البشر: التعاون دون قرابة. من الممكن للمعتقدات غير العقلانية في بعض الأحيان أنْ تساعد الجماعة في تأدية الوظيفة على نحوٍ أكثر عقلانية، ولا سيما عندما ترتكز المعتقدات على أساس القداسة.[2] تربط القداسة الناس إلى بعضهم، ثمَّ تعميهم عن إعتباطية الممارسة.

تدعم نتائج سوسيس [كلاً من] أتران وهنريش. تساعد الآلهة الجماعات حقاً وفعلياً على التماسك، وتنجح، وتتفوق في التنافس مع الجماعات الأخرى. هذا شكلٌ من أشكال اصطفاء الجماعة، لكنْ يقول أتران وهنريش إنّ الأمر اصطفاء ثقافي للجماعة فحسب. إنّ الأديان التي تقوم بعملٍ أفضل قوامه تقوية ربط الناس إلى بعضهم وقمع الأنانية تنتشر على حساب الأديان الأخرى، لكن ليس بالضرورة بواسطة قتل الخاسر. من الممكن أن تنتشر الأديان على نحو أسرع إلى حدٍ بعيد من الجينات، كما هو حال الإسلام في القرنين السابع والثامن الميلاديين، أو المورمونية في القرن التاسع عشر. من الممكن تبنّي الدين الناجح من قبل الناس المجاورين أو السكان المغلوبين.

---

(1) Rappaport 1971, P. 36

(2) أقصد بكلمة "عقلاني" هنا أنَ الجماعة تتصرّف بطرقٍ توسع مصالحها البعيدة المدى، أكثر من تبديدها لأنّ الأفراد يناضلون من أجل مصالحهم الخاصة. أنظر Frank 1988 من أجل تحليلٍ مشابه للكيفية التي بموجبها تستطيع المشاعر الأخلاقية جعل الناس " غير عقلانيين بشكلٍ استراتيجي" بطريقةٍ تساعدهم على حل "معضلات الالتزام".



يشك أتران وهنريش من ثمّ إن كان هنالك تطوّرٌ جينيٌ للتقوى. كان الآلهة الأعلى المتشددون أخلاقياً قريبين جداً في الزمن، حسبما يقولان، إذ برزوا مع الزراعة في السنوات ال 10,000 الأخيرة.[1] يعتقد أتران وهنريش أنّ ثورة الجين والثقافة المتزامنة قد حدثت ببطء أثناء العصر البليستوسيني (عندما تمّ تشكيل وحدات وظيفية أنتجت فيما بعد آلهة بصفتها منتجات جانبية). في وقت مغادرة البشر لإفريقيا، تمّ تشكل الجينات وكلّ ما تبقى هو ثقافة. ينضم أتران وهنريش إلى الملحدين الجدد في الادعاء بأنّ عقولنا لم تكن متشكلة، ومولفة، أو متكيفة من أجل الدين.

لكن الآن إذ نعرف كيف يمكن أن يحدث التطوّر الجيني، أجد من الصعوبة تصوّر أنّ الجينات بقيت ثابتة طوال أكثر من 50,000عام.[2] كيف كان من الممكن للشريك الجيني في "رقصة الفاس الدورانية"[3] لثورة الجين-الثقافة المشتركة ألا يتخذ خطوة منفردة في حين بدأ الشريك الثقافي يرقص على وقع الموسيقى الدينية؟ قد لا تكون خمسون ألف عام وقتاً كافياً لتطوير وحدة وظيفية معقدة (من قبيل لاقط القوة البالغ الحساسية أو زر تشغيل خلية النحل من لا شيء. لكن كيف يمكن ألا يوجد سعيٌ لجعل الوحدة الوظيفية حسنة التوليف وقريبة من الكمال لجعل الناس أميلَ إلى أشكال تكيّفية قوامها سمة خلية النحل، والقداسة، أو التأليه، وأقل ميلاً إلى صيغ تدمير الذات أو تدمير الجماعة؟

---

[1] أو قد يكون بضعة ألوف من السنوات قبل الزراعة، إذا كان موقع غامض في جوبيكلي تيبي، تركيا، كان مخصصاً للآلهة الأكثر رفعةً أو المتشددين أخلاقياً. أنظر Scham 2008.

[2] أنظر Hawks et al. 2007، والفصل 9، من أجل مراجعات لسرعة التطور الجيني. أنظر Powell and Clarkl، قريب الصدور، من أجل مقالة نقدية عن نماذج نتاجات جانبية تؤكد هذه الغاية ـ بأنّ نظريات النتاج الجانبي لا تحول دون تكيُّفٍ حيويّ تالٍ.

[3] Richardson and Boyd 2005, P. 192، حسبما وصفت في الفصل 9.



القصة الدوركهايمية: النتاجات الجانبية، ثمّ ساريات نوار

كان دايفيد سلون ويلسون، عالم الأحياء في جامعة بينجهامبتون، المحتج الأقوى على محاكمة، وإدانة، ونفي اصطفاء المجموعة في السبعينات. بعد ذلك أمضى ثلاثين عاماً محاولاً البرهان أن اصطفاء الجماعة كان بريئاً. كما أنتج براهين عملية رياضية على أنّ اصطفاء الجماعة الجيني من الممكن أن يحصل في حقيقة الأمر، في ظلّ ظروفٍ خاصة من الممكن أنها قد كانت ظروف المجتمعات الإنسانية الأسبق.[1] بعدئذٍ قام بعمل صعبٍ عابرٍ للاختصاصات في استقصاء تاريخ كثيرٍ من الأديان، ليتبيّن إن كانت حقاً قد وفّرت تلك الشروط الخاصة.[2]

تمثّل إنجاز ويلسون العظيم في دمج أفكار أهمّ المفكرين في تاريخ العلوم الاجتماعية: داروين ودوركهايم. لقد أظهر ويلسون كيف يتمّم أحدهما الآخر. بدأ بفرضية داروين التي تتحدثُ عن تطور الأخلاق بواسطة اصطفاء الجماعة، ولاحظ اهتمام داروين بشأن الخارجين عن السرب. بعد ذلك قدم تعريف دوركهايم للدين بوصفه "نظاماً موحداً للمعتقدات والممارسات" توحّد الأعضاء في "مجتمعٍ أخلاقي واحد." وإذا ما كان دوركهايم على صوابٍ في أنّ الأديان تخلقُ جماعاتٍ يمكنها أداء وظيفة مثل المتعضيات، فهو بذلك يدعم فرضية داروين: من الممكن أن تبرز الأخلاق القبلية من اصطفاء الجماعة. وإذا ما كان داروين محقاً بأننا نتاج اصطفاءٍ متعدد المستويات، بما فيها اصطفاء الجماعة، فإنّه - بناءً عليه- يدعّم فرضيّة دوركهايم: نحن الإنسان المزدوج، المصمّم (بواسطة الاصطفاء الطبيعي) للانتقال نحو الأمام والخلف بين مستويي الوجود الأدنى (الفردي) والأعلى (الجمعي)

---

[1] إلى جانب إيليوت سوبر، على سبيل المثال Sober and Wilson 1998

[2] Dawkins 2006, p. 171 ، يُسلّم داوكنز أن الدين قد يوفر تلك الشروط الخاصة. بعد ذلك يقدم مناقشة بالحجة ضد احتمال أنّ الدين قد سهّل اصطفاء الجماعة، حتى لو كان هذا الاحتمال حقيقياً، فهو يُفنّدُ مناقشته بأنّ الدين طفيليّ، أكثر منه تكيّفٌ. أحث القراء على التمعّن في PP. 170-72 ، من *The God Delusion*.



في كتابه ((كاتدرائية داروين))، يقوم ويلسون بفهرسة الطرق التي ساعدت بها الأديان الجماعات على التماسك، وتقسيم العمل، والعمل معاً، والازدهار.[1] فهو يظهرُ كيف طوّر جون كالفن صيغةً متزمتةً ومتطلّبة من المسيحية قمعت الخروج عن السرب وسهّلت الاحتكار والتجارة في جينيف في القرن السادس عشر الميلادي. كما يُبيّنُ كيف خلقت يهوديّة القرون الوسطى "قلاعاً ثقافيّةً أبقت الغرباء خارجها وحافظت على الأهلين."[2] لكنّ المثال الأكثر كشفاً لديه (اعتماداً على بحثٍ قام به عالم الأنثروبولوجيا ستيفن لانسينج)[3] هو حالة معابد الماء بين مزارعي الأرزّ الباليّين* في قرون ما قبل الاستعمار الهولندي.

لا تشبه زراعة الأرزّ أيّ نوع آخر من الزراعة. يتوجّبُ على مزارعي الأرزّ إيجاد حقول أرزّ كبيرةٍ مروية يمكنهم تفريغها وملؤها في أوقاتٍ محددةٍ أثناء دورة الإنبات. وهي تتطلّبُ مجالاً مؤلفاً من مئة درجة. في إحدى مناطق بالي، تجري مياه الأمطار على جانب بركانٍ مرتفع عبر جداول وأنهار في التربة البركانية الطرية. على مدى قرونٍ عديدة قام الباليّون باقتطاع مئات البركِ المدرّجة على جانب الجبل ورووها عن طريق سلسلةٍ من قنوات جرّ المياه والأنفاق، بعضها يمتد تحت الأرض إلى ما يزيد عن كيلو متر. قاموا ببناء معبدٍ ضخمٍ لعبادة إلهة [أنثى] المياه في أعلى المنظومة بكاملها، على مقربةٍ من قمة البركان. وزوّدوا المعبد بطاقمٍ قوامه أربعةٌ وعشرون كاهناً متفرّغاً تم اختيارهم في الطفولة، وكاهنٌ رفيعٌ يُعتقَدُ بأنّه الممثل الأرضي للإلهة ذاتها.

---

[1] إذا ما بدوتُ في أوقاتٍ معينة بالغ الحماس لاصطفاء الجماعة، فبسبب قراءتي كتاب ((كاتدرائية داروين)) [*Darwin's Cathedral*] في عام 2005، مباشرة عندما كنت أكتب الفصل الأخير من كتاب ((فرضيّة السعادة)) *The Happiness Hypothesis*. وقت انتهائي من كتاب ويلسون، شعرت أنني وجدتُ الرابط المفقود في فهمي ليس للسعادة فحسب ولماذا تأتي من "الما بين" بل أيضاً للأخلاق ولماذا تقوم بالربط والتعمية.

[2] D. S. Wilson 2002, P. 136

[3] Lansing 1991

* أحد سكان جزيرة بالي في أندونيسيا ـ المترجم



كان المستوى الأدنى في التنظيم الاجتماعي السوباك ، وهم مجموعة من عدة عائلاتٍ ممتدة كانت تصنع القرارات ديمقراطياً. كان لكلّ سوباكٍ معبدٌ خاصٌ بها ، وآلهتها ، وكلّ سوباك كانت تعملُ جماعيا بكدٍ في زراعة االأرزّ بشكلٍ أو بآخرٌ. لكن كيف قامت السوباكات بالعمل معاً لبناء النظام في المقام الأول؟ وكيف قامتْ بالحفاظ عليه والاشتراك بمياهه بعدالةٍ وديمومة؟ هذه الأنواع من المتاهات الشائعة (حيث يتوجب على الناس التشارك في مصدر ثروة عامة دون استنفاذه) إنما هي صعبة الحل على نحوٍ فضائحي.[1]

كان الحل الديني العبقري لهذه المعضلة من الهندسة الاجتماعية يتمثّل في تثبيت معبدٍ صغير عند كل تشعّب في نظام الري. لقد قام في كلّ معبدٍ من هذا القبيل بتوحيد كلّ السوباكات أسفل المجرى المائي في تجمّعٍ قام بعبادة ذاك الإله ، بتلك الوسيلة مساعداً السوباكات على حل نزاعاته بطريقةٍ أكثر سلميّةً. لقد خفَضت هذه التسوية إلى الحد الأدنى الغش والخداع اللذين كانا خلاف ذلك سيزدهران في تقسيم خلاصة صفر من الماء. جعل النظام من الممكن لآلاف المزارعين ، المنتشرين على مئاتٍ من الكيلومترات المربعة ، أن يتعاونوا دون حاجةٍ لحكومةٍ مركزية ، ومفتّشين ، ومحاكم. كما عمل النظام بكفاءةٍ إلى حد أنّ الهولنديين ـ الذين كانوا أنفسُهم خبراءَ في الهيدرولوجيا [المائيات]ـ لم يجدوا ما يستحق التطوير إلا ما قلّ وندر.

ما المعنى الذي نستنتجه من مئات الآلهة والمعابد المتواشجة في هذا النظام؟ هل هم نتاجات جانبية فقط لنُظُمٍ عقلية كانت مصممة لغاياتٍ أخرى؟ هل هي أمثلة مما دعاه داوكنز "خيالات من الدين مستهلكة للزمن ، مبددة للثروة ... ذات مفعول عكسي؟" لا. أعتقد أنّ أفضل الطرق لفهم هذه الآلهة أشبه بساريات نوّار.

افترضْ أنك تراقب امرأةً فتيّةً في شعرها ورود ، ترقص باتجاه عقارب الساعة بينما تمسك إحدى نهايات الشريط. النهاية الأخرى مربوطةٌ إلى أعلى السارية

---

[1] Hardin 1968



الطويلة. وهي تدور حول السارية على نحوٍ متكرر، لكن ليس في دائرة منتظمة. على وجه الدقة، تبرز فجأةً على نحو غير متوقع وتتمايل بضعة خطواتٍ أقرب إلى أو أبعد عن السارية وهي تقوم بالدوران. إذا تمت مراقبته على حدة، يبدو السلوك لا معنى له، يذكّر بأوفيليا المجنونة في طريقها إلى الانتحار. لكن في الوقت الحاضر أضفْ إلى [المشهد] خمس نسوةٍ فتيّات تقمنَ بالضبط بما تقوم هي [الأولى] به، وأضف ستة شبان يقومون بالشيء ذاته باتجاه عكس عقارب الساعة، وبذا حصلْتَ على سارية رقصة سارية نوار. حين يمر الرجال والنساء إزاء بعضهم وينحرفون نحو الداخل والخارج، وتنسجُ أشرطتهم نوعاً من الرداء الأنبوبي حول السارية. تقوم الرقصة رمزياً بتجسيد المعجزة الرئيسة للحياة الاجتماعية.

يبدو أنّ رقصة سارية نوار قد نشأت في مكانٍ ما ضمن ضبابات شمال أوروبا ما قبل المسيحية، وهي ما تزال تؤدى بانتظام في ألمانيا، والمملكة المتحدة، والبلدان الاسكندنافية، في الغالب كجزءٍ من احتفالات عيد الأول من أيار [عيد العمال]. مهما تكن أصولها، فهي مجازٌ عظيمٌ بالنسبة إلى الدور الذي تقوم به الآلهة في رواية ويلسون عن الدين. فالآلهة (مثل ساريات نوار) عبارةٌ عن أدواتٍ تجعل الناس يترابطون إلى بعضهم على هيئة مجتمعٍ مصغّر بواسطة الدوران حولها. وفور ارتباطهم ببعضهم عن طريق الدوران، تستطيع هذه المجتمعات المصغرة القيام بوظيفتها بكفاءةٍ أكبر. وحسب تعبير ويلسون: "توجد الأديان في المقام الأول كي يقوم الناس مجتمعين بإنجاز ما لا يستطيعون إنتاجه فرادى."[1]

حسب ويلسون، كان هذا النوع من الدوران والترابط قد تواصل لمدة أطول من 10.000 عامٍ بكثير. فأنتَ لا تحتاج إلى آلهةٍ رفيعين متزمّتين يهدرون ضد الزنى لجمع الناس إلى بعضهم؛ وحتى الآلهة الحوّل من الناحية الأخلاقية لدى الصيادين ـ لاقطي الثمار من الممكن استخدامهم لخلق الثقة والتماسك. فواحدة من الجماعات! كونغ، على سبيل المثال، تؤمن بإله كلّي القدرة في السماء

---

[1] D. S. Wilson 2002, P. 159



يُدعى //جاووا//، وبأرواح الموتى، يُدعون //جاوواسي (ا و// تفيد أصوات الطرق). هذه الكينونات الفوطبيعية لا تقدّم إرشاداً أخلاقياً، أو ثواباتٍ على السلوك الجيد، أو عقوبات

الشكل 11. 3 رقصة سارية نوار. من *The Illustrated London News*, **August 14, 1858, P. 150**

على الخطيئة؛ إنها ببساطةٍ تسببُ حدوث الأشياء. ففي أحد الأيام يسير صيدك على ما يرام لأنّ الأرواح ساعدتك، وفي اليوم التالي تعضك أفعى لأنّ الأرواح انقلبت عليك. وهذه الكيانات عبارة عن أمثلة مكتملة لكاشف القوة المفرط الحساسية أثناء العمل: يلتقط الناس قوّة إذ تكون معدومة.



ولكن حتى هذه الأرواح البغيضة تقوم بدورٍ مفصليّ في "الرقصات الشافية" وهي بين الطقوس الدينية الرئيسة لجماعة الـ!الكونج. تصفهم عالمة الأنثروبولوجيا لورنا مارشال على النحو التالي:

> يترابط الناس بعضهم إلى بعضٍ ذاتيّاً ضد قوىً خارجيةٌ من الشر... تشد الرقصة كلاًّ منهم إلى بعضهم... مهما تكن علاقاتهم، سواء أكانوا يحبون بعضهم أم لا، وسواء أكانوا على علاقة طيبة مع بعضهم أم على علاقة سيئة، يصبحون كياناً موحداً، يرقصون، ويصفقون، ويتحركون سويّةً في انسجامٍ غير اعتيادي من خبط الأقدام والتصفيق بالأيدي، وقد اجتاحتهم الموسيقى. لا تفرّق الكلمات بينهم؛ تصرفوا بتناغم من أجل خيرهم الروحي والمادي ويقومون بشيءٍ مشتركٍ على نحوٍ يضخ فيهم الحيوية ويمنحهم البهجة.[1]

أعتقد أنّ جماعة الـ!كونج كانوا سيمضون وقتاً رائعاً في مباراة كرة قدم في جامعة فرجينيا.

إذا ما كانت الجماعات البشرية قد مارست هذا النمط من الأشياء قبل الخروج من إفريقيا، وإذا ما كان القيام به بطرقٍ ما أكثر من سواها قد حسّن بقاء الجماعة، وبالتالي من الصعب الاعتقاد أنه ما من ثورةٍ ثنائية للثقافة ـ الجين، وما من تركيبٍ متبادل يدمج الوحدات الذهنية الوظيفية مع الممارسات الاجتماعية، خلال الأعوام الـ 50.000 الأخيرة. من الصعبُ الاعتقاد تحديداً لأنّ كل الوحدات الوظيفية النواتج الجانبية تلك بقيت مكانها حتى عندما بدأت الجينات من أجل أيّ شيء آخر يتعلق بنا بالتغيّر بسرعةٍ أكبر، تصل مرحلة تصعيد التغير الجيني أثناء حقبة الهولوسين،[2] وهو على وجه الدقة الوقت الذي

---

[1] Wade 2009, P. 106 مقتبس في Marshal 1999

[2] Hawks et al. 2007 ، موصوف في الفصل 9، Roes and Raymond 2003



كانت فيه الآلهة تكبر وتصبح أكثر تزمّتاً. وإذا كان للسلوك الديني من عواقب، بالنسبة إلى الأفراد وبالنسبة إلى الجماعات، بطريقة كانت مستقرة على مدى عدة ألفيات من الأعوام، فكان لا بدّ إلى حدٍّ ما من وجود درجة معيّنة من الارتقاء الثنائي الثقافي - الجيني المشترك فيما يتعلق بالعقول القويمة التي آمنت بالآلهة ثم استخدمتها لخلق مجتمعات مصغّرة أخلاقية.

في كتاب ((غريزة الإيمان)) يراجع الكاتب عن العلم نيكولاس وايد ما هو معروف بشأن الممارسات الدينية ما قبل التاريخ ويؤيّد بقوّة نظرية ويلسون عن الدين. يلاحِظُ أن من الصعب سرد قصة تطور منحت فيها هذه الممارساتُ القديمةُ فائدةً لأفرادٍ تنافسوا مع جيرانٍ أقل تديّناً في الجماعة نفسها ، لكن من الواضح أنّ هذه الممارسات ساعدت الجماعات على التنافس مع الجماعات الأخرى. ويلخّص منطق اصطفاء الجماعة على نحوٍ جلي:

> إنّ الناس الذين ينتمون إلى مجتمع [متماسكٍ دينياً] من المرجّح أن يستمروا ويتناسلوا أكثر من الجماعات الأقل تماسكاً، التي من الممكن أن تُهزَم بواسطة أعدائها أو تتلاشى في انعدام الانسجام. في مجموع السكان، من المرجّح أن تصبح الجينات التي تعزّز السلوك الديني أكثر شيوعاً في كلّ جيلٍ حين تفنى المجتمعات الأقل تماسكاً وتزدهر المجتمعات الأكثر وحدةً.[1]

الآلهة والأديان، في خلاصة الأمر، عبارةٌ عن حالات تكيّف على مستوى الجماعة من أجل إنتاج التماسك والثقة. ومثل ساريات نوار وخلايا النحل، يتمُّ خلقها من قِبَل أعضاء الجماعة، ومن ثمّ ينظّمون نشاط الجماعة. وتتضمّن حالات التكيف على مستوى الجماعة، حسبما يلاحظ ويليامز، عملية اصطفاء تقوم بمهمتها على مستوى الجماعة.[2] ومن الممكن أن يعمل اصطفاء الجماعة بسرعةٍ

---

[1] Wade 2009, P. 107 : تمت إضافة التأكيد.

[2] G. C. Williams, 1966



كبيرة (كما في حالة تلك الدجاجات المصطفاة على مستوى الجماعة التي أصبحت أكثر مسالمةً في أجيالٍ قليلة فحسب).[1] إنّ مدة عشرة آلاف عام عبارة عن جمٍّ من الوقت لتطور الثقافة ـ الجين المزدوج، بما فيها بعض التغييرات الجينية، كي تحدث.[2] ومدة 50.000 عامٍ ليست بالوقت الكثير بالنسبة إلى الجينات، والدماغ، والجماعات، والأديان لتكون قد تطوّرت إلى هذا الاعتناق الشديد.

تنطوي هذه الرواية ـ رواية ويلسون ـ على تضمينات مختلفة جذرياً عن تضمينات نظريات النتاج الجانبي المجردة التي تناولناها سابقاً. في رواية ويلسون، كانت العقول البشرية والأديان البشرية تتطور على نحوٍ ثنائي متزامن (تماماً مثل النحلات وخليّتها المادية) على مدى عشرات أو مئات آلاف السنين. وإذا ما كان هذا صحيحاً، فإننا لا نستطيع أن نتوقع أنّ الناس سيتخلّون عن الدين بسهولة. بالطبع يستطيع الناس وفعلاً يتخلّون عن الدين المنظم، وهي إلى حد بعيد اختراعاتٌ ثقافية حديثة. لكن حتّى أولئك الذين يرفضون كل الأديان لا يستطيعون التخلّص من تركيبة الدين النفسية الأساسية للشكل 11. 2 : الفعل مرتبط بالاعتقاد المرتبط بالانتماء. من الممكن أن تكون مطالبة الناس بالتخلي عن كل صيغ الانتماء المقدس والعيش في عالمٍ من المعتقدات "العقلانية" ليست إلا أشبه بالطلب من الناس التخلي عن الأرض والعيش في مستعمراتٍ في مدارٍ حول القمر. من الممكن القيام به، لكنّه سيتطلّبُ الكثير من الهندسة الحذرة، وحتى بعد عشرة أجيال، قد يجد المنحدرون من هذه المستوطنات أنفسهم يتمتعون بحالات توقٍ بدائية إلى الجاذبية والخُضرة.

---

[1] Muir 1996 : أنظر الفصل 9. أكرّر أنّ ضغوط الاصطفاء على البشر من المحتمل أنها لم تكنْ قوية ومطّردة مثل تلك التي طُبِّقت في تجارب الإستيلاد، وهكذا ما كنت لأتحدث عن تطوّر جينيّ يحدث في خمسة أو عشرة أجيال. لكن ستكون ثلاثون أو أربعون جيلاً منسجمة مع الكثير من التغييرات الجينية في التجمعات البشرية والموصوفة عند كوشران وهاربيندنغ Cochran and Harpending 2009 .

[2] أنظر Bowles 2009



هل الله قوة من أجل الخير أم الشر؟

هل يجعل الدين الناس طيّبين أم سيئين؟ يؤكد الملحدون الجدد بأن الدين أصل معظم الشر. ويقولون إنه السبب الرئيس للحرب، والإبادة الجماعية، والإرهاب، وقمع النساء.[1] المؤمنون الدينيّون، من جانبهم، غالباً ما يقولون إنّ الملحدين عديمو الأخلاق، وإنّ من غير الممكن الثقة بهم. وحتى جون لوك، أحد مشاعل التنوير الرئيسة، كتب أنّ "الوعود، وآداب المجتمع، والأيمان، والتي هي روابط المجتمع الإنساني، من غير الممكن أن يكون لها سطوة على الملحدين. إن استبعاد الله، ولو كان حتى في التفكير، يبدّدُ كلَّ شيء." وهكذا مَنْ مِنَ [الطرفين] على حق؟

لعدةِ عقود، بدا التنافس في حالة تعادل. في عمليات المسح، ادعى الأشخاص المتدينون على نحوٍ روتيني أنهم يتبرعون بمالٍ أكثر للعمل الخيري، وهم يعبّرون عن قيم نكران الذات على نحوٍ أوضح. لكنْ عندما أحضر خبراء علم النفس أشخاصاً إلى المختبر وأعطوهم فرصة لمساعدة الغرباء فعلياً، نادراً ما تصرّف المتديّنون بطريقةٍ أفضل على أية حال مما فعل غير المتديّنين."[2]

لكن هل علينا أن نتوقع حقاً أن الدين يحوّل الأشخاص إلى غيريّين دونَ شروط، مستعدين لمساعدة الغرباء مهما كانت الظروف؟ مهما كان ما قاله المسيح عن السامريّ الطيّب الذي ساعد يهودياً مصاباً، إذا ما كان الدين تكيّفاً على مستوى الجماعة، فلا بدَّ أن يُنتجَ غيريةً ضيّقة. وسيجعل الناس أسخياء إلى أبعد حد ومساعدين حيال أعضاء المجتمعات المصغرة الأخلاقية الخاصة بهم، ولا سيما عندما سيتم تعزيز سمعاتهم. وفي حقية الأمر، يقوم الدين بذلك على وجه الضبط. تظهر الدراسات بشأن التبرع الخيري في الولايات المتحدة أنّ الأشخاص من خمس السكان الأقل تديّناً يمنحون 1.5 بالمائة فحسب من مالهم للعمل

[1] هذه المقولة أكثر انطباقاً على هاريس وهيتشنز، والأقل انطباقاً على دينيت.

[2] من أجل مراجعةٍ موجزة لهذين العملين النظريين، أنظر Norenzayan and Sheriff 2008 .



الخـيري. والأشـخاص في الخمـس الأكثـر تـديّناً (اعتمـاداً علـى الحـضور في الكنيسة، لا المعتقد) يمنحون 7 بالمئة هائلة من دخلهم لعمل الخير، ومعظم ذلك العطاء موجه للمنظمات الدينية.[1] وهـي ذات الحكاية في حال العمل التطوّعي: يقوم الأشخاص المتديّنون بالأمر أكثر من القوم العلمانيين، ومعظم ذلك العمل يتم القيام به من أجل، أو على الأقل من خلال، منظّماتهم الدينية.

هنالك بعض من دليل أيضاً على أنّ الأشخاص المتديّنين يتصرّفون تصرّفاً أفضل في التجارب المخبرية ـ ولا سيما عندما يشرعون بالعمل إلى جانب بعضهم. طلب فريقٌ من خبراء الاقتصاد الألمان من المشاركين في التجربة ممارسة لعبة فيها شخصٌ واحدٌ بمثابة "المؤتَمِن"، الذي يُمنَح بعض المال في كلّ دور من اللعبة.[2] من ثمَّ يُطلَبُ من المؤتَمِن أنْ يقرّر كم من المال، في حال توفره، يُحوّلُ إلى "القيّم" المجهول. وأيّ مالٍ يتم تحويله يتضاعف ثلاث مراتٍ بواسطة منفّذ التجربة، وعند هذا الحد يمكن ل"للقيّم" أن يختار كم من المال، في حال توفره، يُعاد إلى المؤتَمِن. وكلّ شخص يخوض عدة أدوارٍ من اللعبة، مع أشخاصٍ مختلفين كل مرة، في بعض الأحيان بصفة المؤتَمِن، وفي بعض الأحيان بصفة القيّم.

غالباً ما يستخدم خبراء الاقتصاد السلوكيّون هذه اللعبة، لكنّ الانعطاف غير المألوف في هذه الدراسة كان الكشف عن معلومة واقعية حقيقية حول المؤتَمنين إلى القيّمين، قبل أن يقوم المؤتمنون باتخاذ قرارهم في الإتمان. (تم أخذ المعلومات من استبياناتٍ قام جميع المشاركين في التجربة بملئها قبل أسابيع). في بعض الحالات، علِمَ المؤتَمِن سويّة الإيمان لدى القيّم، على مقياسٍ مدرّجٍ من 1 إلى 5. عندما علم المؤتَمِن أن القيّم كان متديّناً، قام بتحويل المال، مما يُظهِر أنّ هؤلاء الألمان تمسّكوا بالاعتقاد نفسه مثلما فعل لوك (حول كون المؤمنين المتديّنين أكثر أهلاً للثقة). والأهم من ذلك، قام القيّمون المتديّنون فعليّاً بإعادة تحويل مزيدٍ من المال أكثر من غير المتديّنين، على الرغم من أنهم لمْ يعرفوا شيئاً

(1) Putnam and Campbell 2010

(2) Tan and Vogel 2008



عن مؤتمنيهم. سيتم خلق أعلى مستويات الثروة، بالتالي، عندما يشرع الأشخاص المتديّنون بممارسة لعبة الأمانة مع أشخاصٍ متديّنين آخرين. (وصل ريتشارد سوسبس هذه النتيجة ذاتها أيضاً، في تجربةٍ ميدانية تمّ إجراؤها في عدة كيبوتزات إسرائيلية.)[1]

لقد تحدث كثيرٌ من الباحثين حول هذا التفاعل المتعلّق بالله، والثقة، والتجارة. في العالم القديم، أدتِ المعابدُ وظيفةً تجاريةً هامة: تمّ إطلاق الأيمان وتوقيع العقود بحضور الآلهة، مع تهديدات بعقوبةٍ فوطبيعية لقاء الإبطال.[2] في عالم القرون الوسطى، تفوّق اليهود والمسلمون في تجارة المسافات البعيدة لأن ديانتيهم ساعدتاهم في خلق علاقات قائمة على الثقة والعقود القابلة للتنفيذ.[3] حتى في الوقت الحاضر، الأسواق التي تتطلّب سويّة عاليةً من الثقة لتؤدي وظيفتَها بكفاءة (مثل سوق الألماس) غالباً ما يسيطر عليها جماعات عرقية مرتبطة دينياً (مثل غلاة اليهود)، الذين لديهم تكاليف أقل على صعيد المعاملة والمراقبة من منافسيهم غير المتديّنين.[4]

وهكذا تقوم الأديان بما يُفترَض أنْ تقوم به. حسب تعبير ويلسون، تقوم بمساعدة الناس "لينجزوا معاً ما لا يستطيعون إنجازه فرادى". لكنّ وصف العمل إياه ينطبق على قدم المواساة على المافيا. هل تساعد الأديان ممارسيها بواسطة ربطهم إلى بعضهم في متعضية ضخمة يفترسونها ـ أو على الأقل يديرون ظهورَهم على ـ لكلّ شخصٍ آخر؟ هل الغيرية الدينية بمثابة نعمة أم نقمة على الغرباء؟

---

(1) Ruffle and Sosis 2006 جعل رافل وسوسي عدة أعضاء كيبوتزعلمانيين ومتديّنين في إسرائيل [**فلسطين المحتلة** ـ المترجم] يلعبون لعبة الطلقة الواحدة التعاونية، في ثنائيات. كان الذكور المتديّنون الذين يصلّون معاً بشكلٍ متواتر أكثر مقدرةً على كبح أنانيتهم وزيادة صندوق المال المشترك الذي قاموا بتقاسمه في نهاية اللعبة.

(2) Larue 1999

(3) أنظر المناقشة في Norenzayan and Sheriff 2008

(4) Coleman 1988



في كتابهما ((النعمة الأمريكية: كيف يفرقنا الدين ويجمعنا))، قام عالما السياسة روبرت بوتنام وديفيد كامبل بتحليل مصادر بيانات لوصف كيف يختلف المتديّنون وغير المتديّنين الأمريكان. تخبرك الحصافة بأنه كلما زاد الناس من الوقت والمال الذي يمنحونه لجماعاتهم الدينية، كلما قلّ مقدار ما يمنحونه لأيّ شيء آخر. لكنّ يتبيّن أنّ الحصافة على خطأ. كما وجد بوتنام وكامبل أنّه كلما زاد الناس حضورهم المواعظ الدينية بشكلٍ متواتر، كلما باتوا أكثر سخاءاً وإحساناً في مجمل طيفهم.[1] بالطبع يمنح الأشخاص المتديّنون الكثير للجمعيات الخيرية الدينية، لكنّه كذلك الأمر يمنحون بالقدر ذاته أو أكثر من القوم العلمانيين للجمعيات الخيرية العلمانية مثل الجمعية الأمريكية للسرطان.[2] فهم يمضون الكثير من الوقت في خدمة كنائسهم وكنيساتهم [اليهودية]، لكنّهم كذلك الأمر يمضون وقتاً أكثر من القوم العلمانيين وهم يخدمون روابط الأحياء والروابط المدنية من كافة الأنواع. ويعرض بوتنام وكامبل نتائجهم بفظاظة:

> حسب الكثير من القياسات المختلفة الأمريكيون الملتزمون دينياً هم جيران ومواطنون أفضل من الأمريكان العلمانيين ـ فهم أكثر سخاءً بوقتهم ومالهم، على وجه الخصوص في مساعدة المحتاجين، وهم أكثر نشاطاً في حياة المجتمع المحلي.[3]

---

[1] بوتنام وكامبل حذران بشأن الوصول إلى استنتاجاتٍ سببيّة من بيانات معلوماتهم المتعالقة. لكنّ لأنهم يمتلكون بياناتٍ تمّ تجميعها على مدى عدة سنوات، كانوا قادرين على تبيّن إن كانت الزيادات أو التناقصات في المشاركة الدينية تنبّأت بتغييراتٍ في السلوك في العام التالي، ضمن الأفراد. يستنتجات أنّ البيانات في المجمل منسجمة مع الشرح السببي، أكثر منها ناتجة عن عاملٍ ثابت ثالث زائف.

[2] Arthur Brooks وصل آرثر بزوكس إلى هذه النتيجة بحد ذاتها في كتابه *Who Really 2006 Cares*

[3] Putnam and Campbell 2010, P. 461



لِمَ الأشخاص المتديّنون جيرانٌ ومواطنون أفضل؟ لتبيّن الأمر، ضمّن بوتنام وكامبل في إحدى عمليات المسح التي قاما بها قائمةً مطوّلة من الأسئلة عن المعتقدات الدينية (على سبيل المثال، "هل تؤمن بنار جهنم؟ هل توافق على أننا جميعاً سنُستدعى للمثول أمام الله لنجيب بشأن ذنوبنا؟") إضافةً إلى أسئلةٍ حول الممارسات الدينية (على سبيل المثال، "كم في الغالب تقرأ الكتب المقدسة؟ كم في الغالب تقرأ؟"). تبيّن أنّ هذه المعتقدات والممارسات كانت جدّ قليلة الشأن. إذا ما كنت تؤمن بنار جهنم، وإذا ما كنت تصلّي يومياً، وإن كنت كاثوليكياً، أو بروتستانتياً، أو يهودياً، أو مورمونياً... أيٌ من هذه الأمور ترتبط بعلاقةٍ متبادلة مع السخاء. وكان الشيء الوحيد الذي اقترنَ بشكلٍ موثوقٍ وقوي مع فوائد الدين الأخلاقية ما هو مدى وقوع الأشخاص في شرك علاقاتهم مع أبناء ملّتهم. إنّ الصداقات وأنشطة الجماعة، التي يتم تنفيذها ضمن منظومةٍ أخلاقية تؤكد على نكران الذات. هذا ما سيُخرجُ الأفضل لدى الناس.

يرفض بوتنام وكامبل تأكيد الملحدين الجدد على المعتقد ويخرجون بنتيجةٍ مباشرةٍ دوركهايم: "إنما الانتماء الديني هو ما يهم بالنسبة للجيرة، لا الاعتقاد الديني."[1]

قرود الشمبانزي والنحل والآلهة

يُظهِرُ عمل بوتنام وكامبل أنّ الدين في الولايات المتحدة في الأيام الراهنة مثل الفائضات الهائلة الكثير منه ينتشر نحو الخارج ويفيد الدخلاء. ولا يوجد سببٌ للتفكير في أنّ الدين في معظم الأوقات والأمكنة قد زوّد الكثير من الفوائد خارج حدوده. إن الأديان، على ما أدّعي، هي مجموعاتٌ من الممارسات الثقافية تطوّرت بشكلٍ مترافقٍ مع عقولنا المتديّنة بواسطة عملية الاصطفاء متعددة المستويات. إلى المستوى االتي وصل إليه بعض الاصطفاء الذي حدث على مستوى الجماعة ، يمكننا التوقع بأنّ الأديان والعقول المتديّنة ستكون محدودة ــ

---

(1) Ibid., P. 473



المركزة على الجماعة من الداخل ـ حتى عندما يأمربالحب والخير الكونيين. لقد تطوّرالتقى لأنّ الأديان المتلاحقة جعلت الجماعات أكثر كفاءةً في "تحويل الموارد إلى ذرّيّة،" حسبما يعبّر ليزلي نيوسون (في القرن 9).

إنّ الدين بذلك ملائمٌ تماماً لكي يكون بمثابة وصيفاتٍ للعصبوية، والقبلية، والقومية. ولنأخذ مثالاً واحداً، لا يبدو الدين أنّه سبب التفجيرات الانتحارية. حسب روبرت بايب، الذي أسس قاعدة بيانات لكلّ هجوم إرهابي انتحاري في السنوات المائة الأخيرة، إنّ التفجير الانتحاري عبارةُ عن ردٍّ وطني على احتلالٍ عسكري بواسطة قوة ديمقراطية دخيلةٍ من الناحية الثقافية.[1] إنّه ردٌّ على البساطير والدبابات على الأرض ـ وليس رداً على قنابلَ تُلقى من الجو. إنه ردٌّ على تلويث الوطن المقدس. (تخيّل قبضةً تمّ إدخالها في خليّة نحلٍ وتُركَت لوقتٍ طويل.)

لا تقود معظم الاحتلالات العسكرية إلى تفجيراتٍ انتحارية. لا بدّ من وجود إيديولوجيا قائمة من الممكن أن تحشّد الشبان إلى التضحية بأنفسهم شهداءاً في سبيل قضية كبرى. من الممكن أن تكون الإيديولوجيا علمانية (كما كان وضع الماركسيين- اللينيين التاميل في سيريلانكا) او من الممكن أن تكون دينية (مثلما كان حال المسلمين الشيعة الذين قاموا أولاً بالبرهان عملياً أنّ التفجيرات الانتحارية تفعل فعلها، إذ طردت الولايات المتحدة خارج لبنان في عام 1983). أيّ شيء يربط الناس إلى بعضهم في منظومة أخلاقية تمجّد الجماعة من الداخل بينما في الوقت نفسه تُشَيْطِنُ جماعةً أخرى من الممكن أن تؤدي إلى قتلٍ قائم على تشدد أخلاقي، والكثير من الأديان ملائمة تماماً لتلك المهمة. الدين بالتالي في الغالب عبارة عن شريك متواطيء في الوحشية، أكثر منه دافعاً أساسياً وراء الوحشية.

---

[1] Pape 2005. السبب هو أن الديموقراطيات في مجمل الأمرالتي كانت أهدافاً لإرهاب التفجيرات الانتحارية هي أكثر استجابةً للرأي العام. حملات التفجيرات الانتحارية ضد الديكتاتوريات من المستبعد أن تدفع إلى انسحابٍ من وطن الإرهابيين.



لكنْ إذا ما نظرتَ إلى تاريخ الإنسانية الطويل ورأيتَ عقولنا القويمة بصفتها بشكلٍ تقريبي طفرات إعجازية للتطور التي تستدعي الشرح، ومن ثمّ قد تشعر ببعض التقدير للدور الذي لعبه الدين في وصولنا إلى حيث نحن. فنحن الإنسان المزدوج؛ نحن عبارةٌ عن 90 بالمائة قرد شمبانزي و10 بالمائة نحلة. تعمل الأديان المتتابعة على كلا المستويين من طبيعتنا لقمع الأنانية، أو على الأقل لتوجيهها بطرقٍ تدفع حصةً للجماعة. كان الآلهة مساعدين في خلق المنظومات الأخلاقية التي تتمتع ضمنها المخلوقات الجلاوكونية بحوافزالطاعة. كما كان الآلهة جزءاً أساسياً من تطوّر غطائنا الذي يحمل سمات خلية النحل؛ في بعض الأحيان نحن فعلاً نتعالى على مصلحتنا الشخصية ونكرّسُ أنفسنا لمساعدة الآخرين، أو جماعاتنا.

إن الأديان هياكلُ خارجية. إن عشت في مجتمع ديني مصغّر، فأنت عالقٌ في شرك مجموعة من القواعد السلوكية، والعلاقات، والمؤسسات التي تعملُ في المقام الأول على الفيل لكي تؤثر في سلوكك. لكنْ إنْ كنتَ ملحداً تعيش في مجتمعٍ صغيرٍ أكثر تفلّتاً ذي منظومةٍ أخلاقية أقل ترابطاً، فربما اعتمدتَ على بوصلةٍ أخلاقية أكثر توجهاً نحو الداخل، يقرؤها الراكب. قد يبدو ذلك جذاباً للعقلانيين، لكنّه كذلك الأمر وصفةٌ للتخبّط [الناجم عن غياب المعايير] ـ وهي كلمة دوركهايم المعبرة عما يحدثُ لمجتمعٍ لم يعد لديه نظاماً أخلاقياً.[1] (وهي تعني، حرفياً، "غياب الضوابط السلوكية"). لقد تطوّرنا لنعيش، ونتاجر، ونثق ضمن منظومات أخلاقية مشتركة. عندما تفقد المجتمعات قبضتها على الأفراد، مجيزةً لهم أن يفعلوا ما يحلو لهم، ستكون النتيجة في الغالب تناقصاً في السعادة وزيادة في الانتحار، حسبما أوضح دوركهايم قبل مائة عامٍ خلت.[2]

---

[1] أقرّ بأنّ هذه المجتمعات الأكثر تساهلاً من الناحية الأخلاقية عبارة عن راية إلى أولئك المستَبعدين من النظام الأخلاقي الديني، من قبيل المثليين **[قضايا هذه العيّنات تشغل حيّزاً كبيراً من اهتمامات النخب الغربية ــ المترجم]** الذين يعيشون في مناطق يسيطر عليها المحافظون المسيحيّون والمسلمون.

[2] Durkheim 1951/1897. من أجل دليلٍ بأنّ ملاحظاتِ دوركهايم حول معدلات الانتحار ما زال قائماً بشكلٍ حقيقيٍّ اليوم، أنظر Eckersley and Dear 2002، وانظر عمود الانتحار الحاد في معدلات الانتحارية بين الشبان الذي بدأ في الولايات المتحدة في الستينات من

==



إن المجتمعات التي تتخلى عن الهيكل الخارجي للدين يتوجب عليها التأمل بحذرٍ حول ما سيحدث لها على مدى عدة أجيال. لا نعرف في واقع الأمر، لأنّ أول المجتمعات الملحدة قد برزت فحسب في أوروبا في العقود القليلة الأخيرة. إنها المجتمعات الأقل كفاءةً التي عُرِفت في تحويل الموارد (التي لديها الكثير منها) إلى ذرّيّة (التي لديها القليل منها).

تعريف الأخلاق (في الختام)

لقد فرغت من قراءة كتابٍ يتناول الأخلاق تقريباً، ولم أقدم لكَ بعدُ تعريفاً للأخلاق. ويوجد سبب لذلك. إن التعريف الذي أنا على وشك تقديمه لك ما كان ليعني الكثير إلى الوراء في الفصل 1. وما كان ليقع في مطب حالات الحدس لديك حول الأخلاق، وهكذا فكرت أنّ من الأفضل الانتظار. والآن، بعد أحد عشر فصلاً قمت فيها بتحدي العقلانية (في الجزء الأول)، ووسعت المجال الأخلاقي (في الجزء الثاني)، وقلت إنّ العصبوية كانت مفتاح الاختراع الذي أخذنا إلى ما بعد الأنانية ونحو الحضارة (الجزء الثالث)، أعتقد أننا مستعدون.

على نحوٍ غير مدهش، تبدأ مقاربتي مع دوركهايم، الذي قال: "ما هو أخلاقي عبارة عن كل شيء يكون مصدراً للتضامن، وكل شيء يجبر الإنسان... على قوننة أفعاله بواسطة شيءٍ ما خلاف... أناه الخاصة."[1] بصفته عالم اجتماع، ركز دوركهايم على الحقائق الاجتماعية ـ أشياء موجودة خارج العقل الفردي ـ وهي تكبح أنا الأفراد. تتضمّن الأمثلة على حقائق اجتماعية كهذه الأديان، والعائلات، والقوانين، وشبكات المعنى المشتركة التي أسميتها المنظومات الأخلاقية. ولأنني مختصٌّ في علم النفس، سأقوم بالتأكيد على ما نُدخِلُ في الأمور داخل الدماغ كذلك الأمر، من قبيل المشاعر الأخلاقية، المحامي

القرن العشرين، مع تزايد غياب المعايير السلوكية. (أنظر -www.suicide.org/suicide stastics.html).

(1) Durkheim 1984/1893, P. 331



الداخلي (أو السكرتير الصحفي)، والأسس الأخلاقية الست، وزرّ تشغيل الخلية، وكلّ الآليات النفسية الأخرى التي وصفتها في هذا الكتاب.

يجمع تعريفي ما بين مجموعتين من قطع الصور التجميعية لتحديد النّظُم الأخلاقية:

> النُظُم الأخلاقية عبارة عن مجموعاتٍ متواشجة من القيم، والفضائل، والقواعد السلوكية، والممارسات، والهويات، والتقانات، والآليات النفسية المتطورة التي تعملُ معاً على كبت المصلحة الشخصية أو تنظيمها وجعل المجتمعات التعاونية ممكنةً.[1]

سوف أوضح نقطتين حول هذا التعريف الآن، ومن ثمّ سنستخدمه في الفصل الأخير من أجل دراسة بعض الإيديولوجيات السياسية في المجتمع الغربي.

أولاً، هذا تعريفٌ وظيفي. أعرّفُ الأخلاق بواسطة ما تفعله، وليس بواسطة تفصيل أيّ محتوى يُعَدُّ أخلاقيّاً. توريه، بالمقابل، عرّفَ الأخلاقَ على أنّها حول "العدالة والحقوق، والرفاه."[2] لكنّ أيّ جهدٍ لتعريف الأخلاق بواسطة تخصيص بضع قضايا على أنها الأخلاقية فعلياً وإهمال الباقي على أنه "عرفٌ اجتماعي" لا بدّ أن يكون محدوداً. إنه المجتمع الأخلاقي المصغّر القائل، "ها هنا قيمنا الرئيسية، ونعرّف الأخلاق على أنها حول قيمنا الرئيسية: وإلى الجحيم بكم جميعاً." وكما أظهرتُ في الفصل 1 و7، لا ينطبق تعريف توريه على جميع الأمريكيين؛ إنّه تعريفٌ بواسطة ومن أجل الغربيين المتعلمين والليبراليين سياسيّاً.

بالطبع، من الممكن أنّ مجتمعاً أخلاقياً مصغّراً واحداً فعليّاً قد جانب الصواب بمعنىً ما، وباقي العالم على خطأ، مما يوصلنا إلى النقطة الثانية. يميّز الفلاسفة بشكلٍ نموذجيّ ما بين التعاريف الوصفية للأخلاق (التي ببساطةٍ تصف

---

[1] لقد قمت بعرض هذا التعريف وتبريره في أعمالٍ منشورةٍ سابقة، بما فيها Haidt and Kesebir 2010 من أجل المراجعة.

[2] Turiel 1983, P. 3، وانظر الفصل 1.



ما يصادف أن يفكر الناس بأنه أخلاقي) وتعاريف معيارية (التي تعيّن ما هو واقعياً وحقاً على صواب، بغض النظر عما يدور في تفكير أي شخص.) لقد كنت إلى هذا الحد في هذا الكتاب على نحوٍ تام وصفياً. قلتُ لكم إنّ بعض الأشخاص (ولا الليبراليين العلمانيين من أمثل تورييه، وكولبيرج، والملحدين الجدد) يظنون أنّ الأخلاق تشير إلى مسألتيّ الأذيّة والعدالة. والأشخاص الآخرون (على وجه الخصوص المحافظين الدينيين والأشخاص في الثقافات خارج "غريب الأطوار") يعتقدون أنّ الحقل الأخلاقي أكثر اتساعاً، ويستخدمون معظم أو كل الأسس الأخلاقية الستة لبناء منظوماتهم الأخلاقية. وهذه افتراضاتٌ تجريبية، وتقوم على الحقائق، وممكنة الإثبات، ولقد قدمتُ دليلاً عليها في الفصول 1، 7، و8.

لكنّ الفلاسفة نادراً ما يكترثون لما يُفكّر به الناس مصادفةً. إن حقل الأخلاق المعيارية مهتمٌ باستخراج أية الأفعال حقاً مصيبةٌ أو خاطئة. إنّ أفضل النظم المعروفة للأخلاق المعياريةهي نظام المتلقي الواحد الذي وصفته في الفصل 6: مذهب المنفعة (الذي يخبرنا بزيادة الصالح العام إلى الحد الأقصى) وعلم الأخلاق [والواجبات الأدبية] (والذي بمعناه الكانتي [نسبةً إلى كانت] يخبرنا أن نجعلَ الحقوق والاستقلال الذاتي للأخرين هما الأعلى). وعندما يتوفر لديك مبدأٌ واضح بمفرده، تستطيع البدء بإطلاق الأحكام عبر الثقافات. وتسجّل بعض الثقافات نقاطاً أعلى من الأخريات، مما يعني أنّها متفوّقةٌ أخلاقياً.

إنّ تعريفي للأخلاق مصمَّمٌ كي يكون تعريفاً وصفياً؛ ليس بإمكانه أن يبرز وحيداً بصفته تعريفاً معيارياً. (بصفته تعريفاً معيارياً، يمنح المجتمعات الفاشية والشيوعية إضافة إلى الفرق الدينية علاماتٍ عالية، طالما أنها أنجزت مستوياتٍ عالية من التعاون بواسطة إيجاد نظام أخلاقي مشترك.) لكنّي أعتقد بأنّ تعريفي يقوم بوظيفته على أكمل وجه مساعداً للنظريات المعيارية الأخرى، لا سيّما تلك التي واجهت صعوبةً في رؤية الجماعات والحقائق الاجتماعية. لقد ركّز أنصار المذهب النفعيّ منذ جيرمي بينتهام بإصرارٍ على الأفراد. فهم يحاولون إثبات



أن رفاه المجتمع عن طريق منح كل الأفراد مبتغاهم. لكنّ النسخة الدوركهايمية تدرك أنّ الازدهار البشري يتطلّب نظاماً ورسوخاً. وهو يبدأ بالمقدمة المنطقية أن إنجاز النظام الاجتماعي نفيس وصعب على نحوٍ غير اعتيادي. سيكون مذهب النفعية الدوركهايمي مفتوحاً على احتمال أن الوظائف الرابطة - الولاء، والسلطة، والقداسة - لديها دورٌ مفصليّ تلعبه في مجتمع جيّد.

لا أعرف ما هي النظرية المعيارية الأفضل للأفراد في حياتهم الخاصة.[1] لكنْ عندما نتحدّث عن سنّ القوانين ووضع السياسات العامة موضع التنفيذ في الديمقراطيات الغربية التي تتضمّن درجةً ما من التنوّع العرقي والأخلاقي، بالتالي أعتقد أنّ ما من بديلٍ إجباريٍ سوى مذهب النفعيّة.[2] أعتقد أنّ جيرمي بينثام كان على حق بأنّ السياسات العامة يجب أن ترمي، كعملية تقريب إلى إنتاج الخير العميم.[3] أريد فقط أن يقرأ بينثهام دوركهايم والتحقق أننا الإنسان

---

[1] أعتقد أنّ أخلاق الفضيلة عبارة عن إطارٍ معياري يناسب الطبيعة البشرية بشكلٍ أكثر قوياً. من أجل مراجعة راجع Haidt and Joseph 2007

[2] أوافق هاريس الرأي Harris 2010 في اختياره المذهب النفعي، لكن مع فارقين كبيرين: (1) أقوم بتثبيته من أجل السياسة العامة، إذ أنني أظنّ أنّ الأفراد يُكرهون على إنتاج أعظم الفائدة التامة، و(2) يدّعي هاريس بأنه أحدي **[القول بأنّ الحقيقة كلٌ عضوي واحد monism ـــ المترجم]**. يقول بأنّ ما هو صواب إنما هو ما يزيد إلى أقصى حد سعادة المخلوقات الواعية، وهو يعتقد أن السعادة من الممكن قياسها بواسطة تقنياتٍ موضوعية، مثل ماسحة fMRI . أنا لا أوافق.. أنا تعددي **[التعددية: pluralism مذهب يقول بأنّ ثمة أكثر من حقيقة مطلقة واحدة ـــ المترجم]** أتبع شويدر (Shweder and Haidt 19931991 ;) وبرلين Berlin 2001 في الاعتقاد أنّ هنالك بضائع وقيم متعددة وفي بعض الأحيان متصارعة ، ولا يوجد هنالك طريقة حسابية رياضية لتصنيف المجتمعات بموجب بعدٍ واحد. لا توجد طريق لاستبعاد الحاجة إلى تأمل فلسفي حول ما الذي يصنع مجتمعاً جيّداً.

[3] أقوم هنا بتثبيت نسخة من المذهب النفعي المعروف ب "حكم المذهب النفعي، " الذي يقول بأننا يجب أن نسعى إلى إيجاد نظام وقواعد سوف، على المدى البعيد، تنتج أعظم الخير الإجمالي. هذا على عكس "مذهب نفعي الفعل" "act utilitarianism " الذي يقول بأننا يجب أن نزيد المنفعة في كلّ حالة، ومع كل فعل.



الثنائي قبل أنْ يخبرَ أبّاً منا، أو مشرّعينا، كيف يتعاطون بشأن زيادة ذلك الخير العميم.[1]

باختصار

إذا ما فكّرتَ بالدين على أنه مجموعة من المعتقدات حول قوى فوطبيعية، من الحتمي أنك لن تفهَمَها. سترى أنّ هذه المعتقدات أوهاماً حمقاء، ربما باعتبارها طفيليات تستغل عقولنا من أجل منفعتها. لكن إذا ما اتخذت مقاربة دوركهايمية نحو الدين (مركّزاً على الانتماء) ومقاربةٍ داروينية (تنطوي على اصطفاءٍ متعدد المستويات)، فتحصل على صورةٍ مختلفةٍ تماماً. ترى أنّ الممارسات الدينية كانت تربط أسلافنا في جماعات طوال عشرات آلاف السنين. وينطوي ذاك الربط عادةً على ربط ما ـ ما أن يُعلَنَ شخصٌ، أو كتابٌ، أو مبدأ بأنه مقدس، بالتالي لن يعود بمقدور الأنصار المتحمسين التساؤل أو التفكير بوضوح عنه.

إنّ قدرتنا على الاعتقاد بقوى فوطبيعية قد يكون بدأ كنتاج جانبي بالمصادفة لجهاز التقاط القوة المفرط الحساسية، لكنْ ما أن بدأ البشر الأوائل الاعتقاد بهذه القوى، كانت الجماعات التي استخدمتها لبناء مجتمعات مصغّرة أخلاقية كانت تلك التي استمرت وازدهرت. وثل تلك الكومونات الدينية في

---

[1] أسلّم بأنّ المذهب النفعي، المعرّف بشكلٍ مجرّد، للتوّ يتضمّن دوركهايم. إذا ما تم البرهان أنّ دوركهايم كان على صواب بشأن كيف يزدهر الناس، من قد يوافق أنصار المذهب النفعي أننا يجب أن نضع سياسات دوركهايم. لكن من الناحية العملية، يميل أنصار المذهب النفعي لأن يكونوا منهجيي الترتيب يركزون على الأفراد ويجدون صعوبة في رؤية الجماعة. كما يميلون كذلك الأمر لأن يكونوا ليبراليين من الناحية السياسة، وهم من المرجّح بالتالي أن يقوموا بمقاومة الدنوّ نحو أسس الولاء، والسلطة، أو الورع. أعتقد بالتالي أن مصطلح مذهب دوركهايم النفعي مفيد باعتباره تذكيراً متواصلاً بأن البشر إنسانٌ مزدوج، وأنّ كلا المستويين من الطبيعة البشرية لا بد من تضمينهما في التفكير النفعي.



القرن التاسع عشر، الذين استخدموا آلهتهم لاستنباط التضحية والالتزام من الأعضاء. ومثل أولئك المشاركين في دراسات الغش وألعاب الثقة، ساعدتهم آلهتهم على قمع الغش وزيادة الموثوقية. فقط الجماعات التي استنبطت الالتزام وكبتت الخروج عن السرب من الممكن أن تنمو.

ولهذا نمت الحضارات الإنسانية على هذا النحوالسريع بعد أن تمّ تدجين أول النباتات والحيوانات. كانت الأديان والعقول القويمةتتطور، من الناحية الثقافية والجينية، على عشرات آلاف السنين قبل الحقبة الهولوسينية، وكلا النوعين من التطور تسارعا عندما قدمت الزراعة تحديات وفرصٍ جديدين. فقط الجماعات التي أعلت آلهتها من شأن التعاون، والتي استجابت عقول أفرادها لتلك الآلهة، كانت مستعدةً للارتقاء لسوية تلك التحديات وتحصد المكاسب.

نتمتع نحن البشر بقدرة على نحوٍ غير اعتيادي على الاهتمام بأمورٍ أبعد من ذواتنا، لنطوّف حول تلك الأشياء مع أشخاصٍ آخرين، وفي العملية على ربط أنفسنا ضمن فرقٍ من الممكن أن تتابع المشاريع الأكبر. هذا كل ما يتعلّق بالدين. ومع بضعة تعديلات، كل ما يتعلّق بالسياسة. في الفصل الأخيرسنلقي نظرةً أخيرةً على علم النفس السياسي. سنحاول فهم لمَ يختار الناس أن يربطوا أنفسهم في أحد الفرق السياسية أو سواه. وسوف ننظر على وجه الخصوص إلى كيف تعمي عضوية الفريق الأشخاص عن دوافع وأخلاقيات خصومهم ـ، وإلى الحكمة التي من الممكن الوصول إليها متناثرة على الإيديولوجيات السياسية المتنوعة.



اثنا عشر

لِمَ لا نستطيع جميعاً الاختلاف بالرأي بطريقة أجدى؟

قال أحد ظرفاء شيكاجو في عام 1895 :" السياسة ليست كيساً من الفاصولياء،"[1] وهي ليست تسليةً للأطفال. منذ ذلك الحين تم استخدام القول المأثور لتبرير بذاءة السياسة الأمريكية المنفلتة من الضوابط. قد يحلُمُ العقلانيون بدولة المدينة الفاضلة إذ يتم صنع السياسة من قِبَل هيئة مستشارين من الخبراء غير المنحازين، لكنْ في العالم الواقعي لا يوجد على ما يبدو بديلٌ عن عملية سياسية حيث تتنافس الأحزاب للفوز بالأصوات والمال. ودائماً ما تنطوي هذه المنافسة على الخداع والديماغوجية، حيث يلعب السياسيون على نحوٍ ماكر، مستخدمين مستشاريهم الصحفيين الداخليين لتصوير أنفسهم في أبهى حلّةٍ وخصومهم كحمقى سيقودون البلاد إلى الخراب.

ورغم ذلك، هل يتوجّب أن يكون الأمر على هذا القدر من البذاءة؟ كان كثيرٌ من الأمريكان قد لاحظوا أنّ الأمور تزداد سوءاً. تبدو البلاد حالياً في حالة استقطاب إلى حد الاختلال الوظيفي. وهم على صواب. وحتى بضعة سنوات قريبةٍ منصرمة، كان هنالك علماء في السياسة قد ادعوا أنّ ما يُدعى ثقافة الحرب كانت مقتصرة على واشنطن، والأمريكان في حقيقة الأمر لم يُصبحوا أكثر

[1] فينلي بيتر دين: نُشِرَ للمرة الأولى في جريدة *Chicago Evening Post* في 1895. المقبوس بأكمله، في نسخة 1898 في لهجة إيرلندية: "السياسة ليست كيساً من الفاصولياء. هي لعبة للرجل؛ والمرأة، والطفل، ومحرّمي المسكرات سيفضلون إبقاء السابقين خارجها."



استقطاباً في مواقفهم نحو معظم القضايا المتعلقة بالسياسة التنفيذية.[1] لكن في السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة كان الأمريكان قد بدؤوا التحرك إلى مزيدٍ من التباعد. بات هنالك انخفاضٌ في عدد الناس الذين يدعون أنفسهم وسطيين أو معتدلين (من 40 بالمائة عام 2000 إلى 36 بالمائة عام 2011، وارتفاع في عدد المحافظين (من 38 بالمائة إلى 41 بالمائة)، وارتفاع في عدد الليبراليين (من 19 بالمائة إلى 21 بالمائة).[2]

لكنّ هذا الانتشار الطفيف للناخب لا شيء بالمقارنة مع ما حدث في واشنطن، ووسائل الإعلام، والطبقة السياسية على نطاق أوسع. لقد تغيّرت الأمور

320 THE RIGHTEOUS MIND





الشكل 12.1 الكياسة في الوقت الحاضر. تمّ تصميم هذين الملصقين من قبل جيف جيتس، المخرج الفني لحزب شاي البابونج، الذي يجتذب ملصقات أمريكية من حقبة الحرب العالمية الثانية.
(انظر.www.chamomileteaparty.com تم استخدامها بإذن)

---

[1] Fiorina, Abrams, and Pope 2005

[2] إرجع إلى Gallup وابحث عن "U. S. Political Ideology" عن آخر النتائج. النتائج المدرجة هنا من "Half-Year Update2011".



في التسعينات [من القرن العشرين]، بدءاً من قواعد جديدة وسلوكيات جديدة في مجلس الشيوخ.[1] لم تكن الصداقات والاتصالات الاجتماعية العابرة لخطوط الأحزاب تلقى التشجيع. وما إن يتم إضعاف الصلات الإنسانية، أصبح من الأسهل معاملة أعضاء الحزب الآخر على أنهم أعداء أزليين أكثر منهم أعضاء زملاء من نادي النخبة. بدأ المرشحون بصرف مزيد من الوقت والمال على "الضد" (البحث في المعارضة)، إذ [يعمل] أعضاء الطاقم أو الاستشاريون مدفوعو الأجر للحفر بحثاً عن القذارة المتعلقة بالخصوم (في بعض الأحيان على نحوٍ غير شرعي) ومن ثم يحملونه إلى وسائل الإعلام. حسبما عبّر عضو كونجرس معمّر مؤخراً، "هذا لم يعد هيئة متعلقة بالكلية بأي حال. إن الأمر أشبه بسلوك العصابة. الأعضاء يسيرون في دخول قاعة الاجتماع مليئين بالكراهية."[2]

كانت هذه النقلة إلى ذهنية أكثر قبليةً وصوابية سيئة بما يكفي في التسعينات، وزمن السلم، والازدهار، والموازنات المتوازنة. لكن في أيامنا هذه، عندما تكون الأوضاع المالية والسياسية أسوأ بكثير، يشعر الكثير من الأمريكان أنهم على متن سفينةٍ تغرق، والطاقم منشغل إلى حد كبير بالقتال بين أفراده دون أن يشغلوا أنفسهم بإغلاق التسريبات.

في صيف عام 2011 ، تم رفع الرهانات. لقد قاد إخفاق الحزبين في كلٍّ من الاتفاق على مشروع قانونٍ روتيني لرفع سقف الدين، وفي الاتفاق على "صفقة كبيرة" لتخفيض العجز طويل الأمد، وكالة تحديد الرهن إلى إنزال معدل أمريكا الإئتماني. وأطلق التخفيض البورصات إلى التهاوي في أرجاء المعمورة وزاد

---

[1] أسباب تردي الكياسة معقدة، بما فيها تغيرات في وسائل الإعلام، واستبدال "الجيل الأعظم" بالأطفال الطنّانين، وزيادة دور المال في السياسة. أنظر التحليل والإحالات في Civil.Politics.org . يشير عدة أعضاءٍ في الكونجرس ممن قابلتهم أو استمعت إليهم في المؤتمرات، من كلا الحزبين، إلى تغيرات إجرائية وثقافية تم وضعها قيد التنفيذ على يد نيوت جينجريتش الذي أصبح رئيساً للبرلمان في عام 1995.

[2] عضو الكونجرس الديمقراطي جيم كوبر من ولاية تينيسي، مقتبس في Nocera 2011 .



من إمكانيات كسارٍ "مضاعف السقوط" في الداخل ـ مما سيكون بمثابة كارثةٍ لكثيرٍ من الأمم النامية التي تصدِّر إلى أمريكا. إن تحزّبية أمريكا المفرطة في الوقت الحاضر تهديد للعالم.

ما الذي يجري هنا؟ في الفصل 8، صوّرتُ حرب الثقافة الأمريكية على أنها معركةٍ بين أخلاقٍ ثلاثية الأساس وأخلاق سداسية الأساس. لكنْ ما الذي يقود الناس إلى تبني أياً من المنظومتين الأخلاقيتين؟ اكتشف خبراء علم النفس أصول التحزبية. الأخلاق تجمع وتعمي، ولفهم الكركبة التي نحن فيها، علينا فهم لمَ يربط بعض الناس أنفسهم بالفريق الليبرالي، وبعض آخر منهم بالفريق المحافظ، ورهط آخر مع فرقٍ أخرى أو دون ارتباطٍ مع أي فريق بالمطلق.

ملاحظةٌ في التعددية السياسية

سأقوم بالتركيز على ما هو معروفٌ عن نفسيّة الليبراليين والمحافظين ـ نقطتا النهاية في ميزانٍ متدرج أحادي البعد. يقاوم كثيرٌ من الناس ويمتعضون من محاولات تقليص الإيديولوجيا إلى بعدٍ واحد. في حقيقة الأمر، إنّ إحدى عناصر القوى العظيمة التي تتمتع بها نظرية الأسس الأخلاقية هو أنها تقدّم ستة أبعاد، مما يسمح بملايين التركيبات المحتملة للخلفيات. فالناس لا يأتون [إلى الدنيا] ضمن نمطين فحسب. لسوء الحظ معظم البحث في علم النفس السياسي قد استخدم بعد التيار اليساري مع عيّناتٍ أمريكية، وهكذا في كثيرٍ من الحالات هذا كل ما بإمكاننا الاستمرار بموجبه. لكنْ يتوجّب عليَ أيضاً ملاحظة أنَ هذا البعد الواحد ما زال مفيداً تماماً. فمعظم الناس في الولايات المتحدة وأوروبا يستطيعون وضع أنفسهم في مكان ما إزاءه (حتى لو كان معظم الناس قرب الوسط).[1] كما أنه المحور المبدئي لثقافة الحرب الأمريكية والتصويت المتعلق بالكونجرس،[2] وهكذا حتى إذا ما كان بضعةٌ من الناس نسبياً يناسبون تماماً

(1) Jost 2006

(2) Poole and Rosenthal 2000



ضمن أحد النمطين الذين سأصفهما، فإنّ فهم نفسية الليبرالية أو المحافظة مفصليٌ في فهم مشكلةٍ تهدد العالم بأكمله.

من الجينات إلى المنظومات الأخلاقية

هنا تعريفٌ بسيطٌ للإيديولوجيا: "مجموعة من المعتقدات حول نظام مناسب للمجتمع وكيف يمكن إنجازه."[1] وهنا معظم ما أساسي لكل المسائل الإيديولوجية: الحفاظ على الوضع النظام القائم، أو تغييره؟ في الجمعية الفرنسية لعام 1789، جلس الممثلون المندوبون الذين كانوا يفضّلون المحافظة على الجانب اليميني من قاعة الاجتماع، بينما جلسَ أولئك الذين كانوا يفضّلون التغييرعلى اليسار. مصطلحا اليمين واليسار أفادا معنى المحافظة والليبرالية منذ ذلك الحين.

كان منظّرو السياسة منذ ماركس قد افترضوا أنّ الناس اختاروا الإيديولوجيات لتعزيز مصلحتهم الشخصية. يريد الأغنياء والمقتدرون الحفاظ والإبقاء على؛ ويريد الفلاحون والعمال تغيير الأشياء ر(أو على الأقل سيقومون إذا ما أمكن رفع وجدانهم وإذا ما كان بمقدورهم رؤية مصلحتهم الخاصة بشكلٍ مناسب، حسبما قال الماركسيون). لكنْ حتى لو كانت الطبقة الاجتماعية ذات يوم مؤشراً للإيديولوجيا، فذاك الرابط قد تمّ قطعه إلى حدٍ بعيدٍ في الأزمنة الحديثة، عندما يتجه الأغنياء في كلا الاتجاهين (الصناعيون في الغالب يمينيّون، ومليارديرات التقانة يساريون في الغالب) وهذا ما يفعله الفقراء (الفقراء الريفيون في الغالب يمينيون، والفقراء المدنيون في الغالب يساريون). وعندما أنعم علماء السياسة النظرفي الأمر، وجدوا أنّ المصلحة الشخصية تقوم بعملٍ قليل الأهمية بشكلٍ لافت فيما يتعلق بتوقع المواقف السياسية.[2]

وهكذا طوال معظم أواخر القرن العشرين، اعتنقوا نظريات الصفحة البيضاء حيث قام الناس بامتصاص إيديولوجيات والديهم أو برامج التلفزة التي

---

[1] Erikson and Tedin 2003, p. 64, cited in Jost, Federico, and Napier 2009, P. 309

[2] Kinder 1998 . انظر مزيداً من النقاش في الفصل 4.



كانوا يشاهدونها.[1] حتى أن بعض علماء السياسة قالوا إنّ معظم الناس كانوا مشوّشين حول القضايا السياسية بحيث أنه لا يوجد إيديولوجيا لديهم بالمطلق.[2]

لكنْ من ثمّ جاءت دراسات التوائم. في الثمانينات [من القرن العشرين]، عندما بدأ العلماء بتحليل قاعدة بيانات ضخمة سمحتْ لهم بالمقارنة ما بين التوائم المتطابقة (الذين يشتركون بجميع جيناتهم، علاوة على، بالعادة، بيئات الطفولة والأبوة لديهم) إلى التوائم الأخوين من الجنس ذاته (الذين يشتركون بنصف الجينات، علاوة على بيئات الأبوة والطفولة)، وجدوا أن التوائم المتطابقة كانت أكثر تشابهاً فيما يتعلّق بكلِ شيءٍ تقريباً.[3] وما هو أكثر من ذلك، التوائم المتطابقة الذين ترعرعوا لدى أهل منزل منفصلين (بسبب التبني) عادة ما يتبيّن أنهم متشابهون جداً، في حين أنّ الأطفال ممن لا تجمعهم صلة قرابة وترعرعوا معاً (من جراء التبني) نادرا ما تجلّى أنهم يشبهون بعضهم، أو والديهم بالتبني؛ يميلون لأن يكونوا أكثر شبهاً بآبائهم الجينيين. تساهم الجينات، نوعاً ما، في تقريباً كل عنصر من شخصيّاتهم.[4]

نحن لا نتحدث فحسب عن اختبار الذكاء، والمرض العقلي، وسمات الشخصية الأساسية مثل الخجل. نحن نتحدث عن الدرجة التي يصل إليها حبّك لموسيقى الجاز، والطعام المبهّر، والفن التجريدي؛ وأرجحيّة تعرضك للطلاق أو الموت في اصطدام السيارة؛ ودرجة ورعك، وتوجهك السياسي بصفتك إنساناً راشداً. إذا ما انتهى الأمر بك في اليمين أو اليسار من الطيف يتبيّن أنها وراوثية مثل معظم السمات الأخيرة: يشرح علم الجينات بين ثلث ونصف المتغيّريّة وسط الناس فيما يتعلق بالمواقف السياسية.[5] يعلل كون [المرء] قد ترعرع في أهل ليبراليين أو محافظين ما هو أقل بكثير.

---

(1) Zaller 1992 ، ركّز زوللر على سبيل المثال على التعرض لآراء النُخب السياسية.

(2) Converse 1964

(3) Bouchard 1994

(4) Turkheimer 2000 ، على الرغم من أنّ توركهايمر أظهر أن البيئة عامل مساهم كذلك الأمر.

(5) Alford, Funk, and Hibbing 2005, 2008



كيف يمكن أن يكون ذلك؟ كيف يمكن أن يكون هنالك أساس جيني للمواقف حول الطاقة النووية، السياسة الضريبية التقدمية، والمساعدة الأجنبية عندما برزت هذه القضايا فحسب في القرن أو القرنين الأخيرين؟ وكيف يمكن أن يكون هنالك أساس للإيديولوجيا عندما يغيّر الناس في بعض الأحيان أحزابهم السياسية وهم راشدون؟

للإجابة على هذه الأسئلة تساعد العودة إلى تعريف الفطري الذي طرحته في الفصل 7. فطري لا يعني غير مطواع: وهو يعني منظّم ما قبل التجربة. ترشد الجينات في بناء الدماغ في الرحم، لكن هذا هو المسوّدة الأولى، إذا أمكن القول. تتعرّض المسوّدة لمراجعة تجارب الطفولة. من أجل فهم أصول الإيديولوجيا عليك اتخاذ منظور تطوّري، يبدأ بالجينات وينتهي بتصويت الشخص الراشد لصالح مرشّح محدد أو انضمامه إلى احتجاجٍ سياسي. هنالك ثلاث خطواتٍ رئيسة في العملية.

الخطوة 1: الجينات تصنع أدمغة

بعد تحليل ال DNA ل 13.000 أسترالي، وجد العلماء مؤخراً أنّ عدة جينات تتباين لدى الليبراليين والمحافظين.[1] معظمها مرتبط بمرسل العصبونات الذي يقوم بوظيفة، وعلى وجه الخصوص الجلوتمات والسيروتونين، وكلاهما منخرطان في استجابة الدماغ للتهديد والخوف. تتناسب هذه النتيجة جيّداً مع كثيرٍ من الدراسات التي تظهر أنّ المحافظين يتّخذون ردّة فعلٍ بشكلٍ أقوى من الليبراليين حيال إشارات الخطر، بما فيها خطر الجراثيم والعدوى، وحتى حيال تهديدات منخفضة المستوى مثل فرقعات مفاجئة ناجمة عن ضجيجٍ بريء.[2] قامت دراساتٌ أخرى بتوريط الجينات المرتبطة بالمُتَقَبِّل [عضو الحس] من أجل مرسل

---

(1) Hatemi et al. 2011

(2) Hezler and Pizarro 2011; Inbar, Pizarro, and Bloom 2009; Oxley et al. 2008; Thorisdottir and Jost 2011



العصبونات دوبامابين، الذي تم ربطه منذ أمد طويل بتجربة السعي إلى الإثارة والانفتاح، والتي تقع ضمن المتلازمات الأفضل رسوخاً لليبرالية.[1] وكما قال كاتب عصر النهضة ميشيل دي مونتان: "الشيء الوحيد الذي أجده مجزياً... هو التنوع والاستمتاع بالتعددية."[2]

على الرغم من أنّ تأثيرات أي جينٍ بمفرده ضئيلة، فإنّ هذه النتائج مهمة لأنها توضح نوعاً ما الطريق من الجينات إلى السياسة: الجينات (على نحوٍ جماعي) تعطي بعض الناس أدمغةً أكثر (أو أقل) استجابة للتهديدات، وتنتج أقل (أو أكثر) من المتعة عندما يتم التعرض للجديد، والتغيير، والتجارب الجديدة.[3] هذان هما اثنان من عوامل الشخصية الرئيسية التي تم الاكتشاف على نحوٍ متساوق بأنها تميّز الليبراليين عن المحافظين. كما وجدت ورقة مراجعة بقلم خبير علم النفس السياسي جون جوست سماتٍ، لكن تقريباً كلّها مرتبطة من الناحية المفاهيمية بالحساسية حيال التهديد (على سبيل المثال، يتخذ المحافظون ردود أفعال بشكل أقوى تجاه الأشياء التي تذكر بالموت) أو الانفتاح على التجربة (على سبيل المثال، الليبراليون لديهم حاجة أقل للنظام، والبنية، والإنغلاق).[4]

(1) McCrae 1996;

(2) /1588, Book III, section 9, on vanity Montaigne1999

(3) إنّ تأثيرات هذه الجينات الفردية في الواقع ضئيلة، ويبرز بعضها فقط عندما تكون شروطٌ بيئيةٌ معينةٌ حاضرةً أيضاً. أحد الألغاز الكبيرة المتعلقة بعصر الخريطة الوراثة هي أنه بينما تشرح الجينات بشكلٍ جماعي أكثر من ثلث حالة التغيّر بشأن معظم السمات، فلا توجد جينةٌ بمفردها بالمطلق تقريباً، أو حتى حفنة من الجينات، تبيّن أنها تشكّل ما يزيد على بضعة نقاطٍ من النسبة المئوية للتفاوت، حتى بالنسبة لسماتٍ بسيطةٍ في ظاهرها من قبيل الطول الفيزيائي. أنظر e.g., Weedon et al. 2008

(4) Jost et al. 2003



الخطوة 2: سمات ترشد الأطفال نحو طرقات مختلفة

من أين تأتي شخصياتنا؟ للإجابة على هذا السؤال، نحتاج إلى التمييز بين ثلاثة مستوياتٍ للشخصية، حسب نظرية مفيدة من خبير علم النفس دان ماك آدامز.[1] المستوى الأدنى من شخصيّاتنا، الذي أسماه "السمات المزاجية"، هي أنواع من الأبعاد العريضة للشخصية التي تظهر نفسها في مواقف أوضاع مختلفة وهي بوضوح متساوقة من الطفولة وحتى الشيخوخة. هذه السمات مثل الحساسية تجاه التهديد، السعي إلى الجدة، والانبساط، وحيوية الضمير. هذه السمات ليست وحدات وظيفية ذهنية يتمتع بها بعض الأشخاص ويفتقد إليها آخرون؛ وهي أميل إلى تعديلات على أقراصٍ مدرجة على أنظمة الدماغ التي يمتلكها شخص ما.

لنتخيّلْ توأماً أخوة، قوامه أخٌ وأختٌ ترعرعا في المنزل نفسه. أثناء شهورهما التسعة معاً في رحم أمهما، كانت جينات الأخ تنشيء دماغاً أعلى قليلاً من المعدل الوسطي في حساسيته تجاه التهديدات، وأدنى من المعدل الوسطي في نزعته للشعور بالمتعة عندما يتعرض بشكلٍ جذري لتجارب جديدة. وكانت جينات الأخت منشغلةً بصنع دماغٍ له خلفيات معاكسة.

ينمو الأخ والأخت في البيت ذاته ويداومان في المدرسة ذاتها، لكنّهما بالتدريج يخلقان لأنفسهما عالمين مختلفين. حتى في مدرسة الحضانة، يسبب سلوكهما دفع البالغين إلى معاملتهما على نحوٍ مختلف. كما وجدت إحدى الدراسات أنّ النساء اللواتي سمّين أنفسهنّ ليبراليات بصفتهنّ راشدات كنّ قد صُنِّفْنَ من قبل معلّماتهنّ في الحضانة على أنّ لديهنّ سماتٍ متناغمةً مع عدم الحساسية حيال التهديد والسعي إلى الجديد.[2] لقد تمّ وصف الليبراليين

---

(1) McAdams and Pals 2006

(2) Block and Block 2006. يتم الخطأ في توصيف هذه الدراسة على أنها تُظهر المحافظين المستقبليين بأنّ شخصياته كانت أقل جاذبيّة في طفولتهم. هذا يبدو صحيحاً بالنسبة للصبية، لكنّ قائمة السمات المتعلقة بالفتيات الليبراليات المستقبليات مختلطة تماماً.



المستقبليين على أنهم أكثر فضولاً، وشفاهية، وأكثر اعتماداً على الذات، لكن أكثر جزماً ومغامرة، وأقل طاعةً وترتيباً. وهكذا إذا ما تمكنّا من مراقبة أخينا وأختنا التوأم في أعوامهما الأولى من التعلّم، لوجدنا أن المعلمات كنّ يستَجبْنَ بشكلٍ مختلفٍ لهما. بعض المعلمات قد ينجذبنَ إلى البنت الصغيرة المبدعة لكن المتمرّدة؛ وبعضهن كن سيقمعنها على أنها طفلة مزعجة صعبة المراس، بينما يمدحنَ شقيقها على أنه الطالب النموذج.

لكنّ السمات المزاجية هي فحسب الأدنى في المستويات الثلاث، حسب ماك آدامز. المستوى الثاني هو "حالات التكيّف المميّز". وهذه سماتٌ تبرز حين نواصل النمو. وهي تدعى حالات تكيّف لأنّ الناس يطوّرونها استجابةً إلى بيئاتٍ وتحدياتٍ محددة يصادفُ أن يواجهوها. على سبيل المثال، لنتابع توأمنا إلى مرحلة المراهقة، ولنفترضْ أنهما داوما في مدرسةٍ صارمة وعالية التنظيم. الأخ يتناسب بشكلٍ جيد، لكنّ الأخت تشتبك في معارك متواصلة مع المعلمات. وتصبح غاضبة وغير منخرطة اجتماعياً. وهذه الأمور جزءٌ من شخصيتها ـ حالات تكيّفها المميّزة ـ ولكنّها ما كانت لتتطور لو أنها ذهبت إلى مدرسة أكثر تقدمية وأقل تشددا.

حينما يصلان المدرسة الثانوية ويبدآن الاهتمام بالسياسة، يكون الأخ والأخت قد اختارا نشاطين مختلفين (تنضمُّ الأخت إلى فريق النقاش جزئياً من أجل فرصة السفر؛ ويصبح الأخ أكثر انخراطاً مع كنيسة عائلته) وراكما أصدقاءاً مختلفين (تنضم الأخت إلى القوطيين؛ وينضم الأخ إلى الفرسان). تختار الأخت الذهاب إلى كليةٍ في مدينة نيويورك، حيث تختص في الدراسات الأمريكية اللاتينية وتجد دافعها الباطني بصفتها مدافعةً عن أطفال المهاجرين غير الشرعيين. ولأنّ حلقتها الاجتماعية مؤلفة برمتها من الليبراليين، فهي واقعة في شرك منظومةٍ اخلاقية قائمة في المقام الأول على أساس الأذى/العناية. في عام 2008، تتعرض للإثارة المفاجئة بواسطة اهتمام باراك أوباما بالفقراء ووعده بالتغيير.

الأخ، بالمقابل، لا اهتمام لديه في الانتقال إلى مدينة كبيرة، قذرة، حافلة بالتهديد. ويختار البقاء قريباً من الأسرة والأصدقاء بالدوام في الفرع المحلي من



جامعة الولاية. فيظفربدرجة في التجارة ومن ثم يعمل لدى مصرف محلي، ويترقى تدريجياً إلى منصب رفيع. ويصبح ركناً من أركان كنيسته ومجتمعه المحليين، وهو ذاك الشخص الذي مدحه بوتنام وكامبل لتوليد كميات كبيرة من رأس المال الاجتماعي.[1] إنّ المنظومات الأخلاقية التي تحيط به قائمة على جميع الأسس الستة. يوجد في مواعظ الكنيسة كلام في المناسبات عن مساعدة ضحايا القمع، لكنّ الموضوعات الأكثر شيوعاً في حياته هي المسؤولية الشخصية (اعتماداً على أساس العدل ـ وليس أن يكون المرء خارجاً عن السرب أو عبئاً على الآخرين) والولاء لكثير من الجماعات والفرق التي ينتمي إليها. كما يرجّع صدى شعار حملة جون ماكين "البلاد أولاً".

يجب ألا تحدث الأمور بهذه الطريقة. في اليوم الذي وُلِدا فيه، لم تكن الفتاة مقدّراً عليها سلفاً التصويت لصالح أوباما؛ ولم يكن مضموناً أن يُصبحَ جمهورياً. لكنّ مجموعاتهما المختلفة من الجينات منحتاهما مسوّداتٍ أولى من عقليهما، مما قادهما في مسارات مختلفة، من خلالٍ تجارب حياتية مختلفة، وإلى ثقافاتٍ فرعية. حين قد وصلا مرحلة الرشد أصبحا شخصين مختلفين حيث نقطة الاتفاق السياسية الوحيدة بينهما هي أنهما يجب ألاّ يتحدثا في السياسة عندما تأتي الأخت إلى دار الأهل لتمضية العطل.

الخطوة 3: الناس يبنون سرديات الحياة

العقل البشري عبارة عن معالج للقصص، وليس معالجاً للمنطق. كل شخصٍ يهوى قصةً جيدة؛ وكل ثقافةٍ تُغرق أطفالها بالقصص.

من بين أهم القصص التي نعرفها قصصٌ عن ذواتنا، و"سرديات الحياة" هذه هي المستوى الثالث للشخصية لدى ماك آدامز. ولقد كان إسهام ماك آدامزالأكبر لعلم النفس تأكيدُهُ على أنّ علماء النفس يربطون البيانات الكمية (حول المستويين الأدنى، الذين نقدرحجمهما بواسطة استبياناتٍ إجراءات

---

[1] Putnam and Campbell 2010, حسبما هو موصوف في الفصل 11 .



الاستجابة الزمنية) نحو فهمٍ أكثر نوعيةً للسرديات التي يختلقها الأشخاص لكي يصلوا إلى معنى ما لحياتهم. وهذه السرديات ليست بالضرورة قصصاً حقيقيةً ـ إنها عبارة عن إعادة صياغة مبسطة وانتقائية للماضي، في الغالب مرتبطة برؤيا مثالية للمستقبل. لكنْ على الرغم من أنّ سرديات الحياة إلى درجةٍ ما فبركات ما بعد الوقائع، فهي ما تزال تؤثر على كل من سلوك، وعلاقات، وصحة الأشخاص النفسية.[1]

إنّ سرديات الحياة مشبعةٌ بالأخلاق. ففي دراسةٍ واحدة، استخدمَ ماك آدامز نظرية الأسس الأخلاقية لتحليلِ سردياتٍ جمعها من المسيحيين الليبراليين والمحافظين. فوجد الأنماط ذاتها في هذه القصص التي سبق أن قمت مع زملائي باستخدامها في استبياناتٍ في موقع YourMorals.org:

> عندما تم طلب تحديد تطوّر معتقدهم الديني ومعتقداتهم الأخلاقية، أكّد المحافظون على مشاعرمتعلّقة باحترام السلطة، والولاء للجماعة الخاصة بالفرد، ونقاء النفس، في حين أكّد الليبراليون على مشاعرهم العميقة حيال المعاناة الإنسانية والعدالة الاجتماعية.[2]

تُقدّم سرديات الحياة جسراً ما بين تطوّر الذات المراهقة والهوية السياسية الراشدة. هنا، على سبيل المثال، كيف يصفُ كيث ريتشارد نقطةَ تحوّلٍ في حياته في سيرة حياته القريبة. كان ريتشارد، عازف الجيتار الرئيسي الباحث عن

---

[1] الأشخاص القادرون على إنشاء سردية جيدة، على وجه الخصوص سرداً يربط الانتكاسات والمعانات الأولى انتهاءً بالانتصار الأخير، هم أكثر سعادة وإنتاجية من أولئك الذين يفتقدون هذه السردية "التعويضية" : أنظر McAdams 2006؛ McAdams and Pals 2006 . بالطبع لا تُظهر العلاقة التبادلية أنّ كتابة سرديةٌ جيدة تؤدي إلى نتائجَ جيدة. لكنّ التجارب التي تمّ إجراؤها من قِبَل بينني ليبكر تُظهرُ أنّ منح الناس الفرصة كي يتبيّنوا معنى الصدمة عن طريق الكتابة عنها يؤدي إلى صحةٍ جسدية وعقلية أفضل. أنظر Pennebaker 1997 .

[2] McAdams et al. 2008, p. 987



الإثارة والخارج عن القيود في فرقة الرولينج الستونزنن عنصراً حسن السلوك بشكلٍ هامشي في جوقة مدرسته. ولقد فازت الجوقة بعدة مسابقات مع المدارس الأخرى، وهكذا قام مدير المدرسة بإعفاء ريتشاردز ورفاقه من حضور الكثير من الدروس بحيث يغدو بمقدورهم السفر إلى فعالياتٍ أكبر متعلقة بالجوقات. لكنْ عندما وصلَ الصبيةُ سنّ البلوغ وتغيّرتْ أصواتهم، قام المسؤول عن الجوقة باستبعادهم. كما تمَّ إبلاغهم آنذاك بأنّ عليهم إعادة سنةٍ كاملة في المدرسة للتعويض عن المواد التي فاتتهم، ولم يقم المسؤول عن الجوقة برفع إصبعه للدفاع عنهم.

يقول ريتشاردز: "كانت بمثابة ركلةٍ في البطن." لقد حوّلته بطرق ذات تداعيات سياسية:

> لحظة وقوع ذاك الأمر، تحوّلَ كل من سبايك، وتيري، وأنا إلى إرهابيين. كنت مجنوناً إلى حدٍّ أن كان لديّ رغبة عارمة للانتقام. كان لديّ سببا في ذلك الوقت للإطاحة بهذه البلاد وكلّ ما تمثّله. كما أمضيتُ السنوات الثلاثة التالية للنيل منهم بأبشع السُبُل. إذا ما رغبتَ بتوليد شخصٍ متمرد، فتلك هي الطريقة للقيام بالأمر.... ماتزال النار بعيدة عن الإخماد. ذاك كان عندما بدأت النظر إلى الدنيا بطريقةٍ مختلفة، وليس بطريقتهم بعد الآن. ذاك كان عندما تحققت أنّ هنالك مستأسدين [على من هم أضعف منهم] أكبر من المستأسدين فحسب. هاك إياهم، السلطات. وتمّ توليع فاصمةٍ بطيئة الاحتراق.[1]

قد يكون مصير ريتشارد تقرر بواسطة شخصيّته ليصبحَ ليبرالياً، لكنّ سياساته لمّ تكن مقدّرة مسبّقا. لو قام أساتذته بمعاملته بأسلوبٍ مختلف - أو قام هو ببساطة بتفسير الوقائع على نحوٍ مختلف عندما تمّ إيجاد مسوّداتٍ مبكرة

---

(1) Richards 2010, P. 53



لسرديته ـ لكان من الممكن أن ينتهي في عملٍ أكثر تقليدية محاطاً بالزملاء المحافظين ومشتركاً في منظومتهم الأخلاقية. لكنْ ما إن توصّل ريتشاردز إلى فهم ذاته بصفته مقاتلاً شرساً* ضدّ السلطة التعسفية، لم يكن هنالك من سبيلٍ بحيث كان سيقوم بالتصويت لحزب المحافظين البريطاني. ويتناسب سردُهُ خير تناسب مع القصص التي تقدمها كل أحزاب اليسار بصيغةٍ أو باخرى.

السرديات الكبرى لليبرالية والمحافظة

في الكتاب المعنون ((الحيوانات الأخلاقية المؤمنة))، يكتب المختص في علم النفس كريستيان سميث عن المنظومات الأخلاقية التي تقع ضمنها الحياة الإنسانية.[1] وهو يوافق دوركهايم أن النظام الاجتماعي يتمتع في جوهره بشيءٍ مقدس، وهو يُظهِرُ كيف القصص، على وجه الخصوص "السرديات الكبرى"، يعرّف ويعزّز الجوهر المقدس لكلّ منظومة. وسميث أستاذ في استنباط هذه السرديات الكبرى وتكثيفها في فقراتٍ بمفردها. وكلّ سردية، حسبما يقول، تعرّف بداية ("كان يا ما كان")، ووسط (فيه يبرزَ تحدٍ أو تهديد)، ونهاية (فيها يتم إنجاز الحل). وكلّ سردية مصممة لتوجه المستمعين أخلاقياً ـ لتوجه انتباههم إلى مجموعة من الفضائل والآثام، أو قوى الخير والشر ـ وإلى دروسٍ هامة حول ما يجبُ فعلُه الآن لحماية، واستعادة، أو الحفاظ على الجوهر المقدس للرؤيا.

ترتب إحدى هذه السرديات، التي يدعوها سميث "السردية الليبرالية التقدمية"، الكثير من المنظومة الأخلاقية لليسار الأكاديمي الأمريكي، وتجري على النحو التالي:

> كان يا ما كان في قديم الزمان أنّ الغالبية العظمى من الأشخاص البشريين قد عانوا في مجتمعاتٍ ومؤسساتٍ اجتماعية كانت ظالمة،

* في الأصل "صليبي"، وهو مصطلح شائع باللغة الانكليزية يفيد التشدد ـ المترجم

[1] C. Smith 2003. يستخدم سميث المصطلح "النظام الأخلاقي"، لكنّه يعني ما أقصده بالمصطلح "المنظومة الأخلاقية."



وغير صحية، وقمعية، وجائرة. وكانت هذه المجتمعات التقليدية تستحق الشجب بسبب عدم المساواة الضاربة الجذورعميقاً لديها، والاستغلال، والتقليدية غير العقلانية.... لكنّ الطموح الإنساني النبيل نحو الاستقلالية، والمساواة، والازدهار ناضل بقوةٍ ضد قوى البؤس والقمع، ونجح في خاتمة المطاف في تأسيس مجتمعاتٍ حديثةٍ، ليبرالية، ديمقراطية، رأسمالية، قائمة على الرفاه. وبينما تمتلك الظروف الحديثة إمكانية زيادة الحرية والبهجة الفردية إلى أقصى الحدود، ويوجد الكثير من العمل يمكن القيام به لإزالة آثار عدم المساواة، والاستغلال، والقمع. إنّ هذا النضال من أجل المجتمع الجيّد الذي يكون الأفراد فيه متساوين وأحراراً في السعي إلى سعادتهم المعرّفة ذاتياً هي المهمة الوحيدة الجديرة حقاً أن يكرّسَ المرء حياته للقيام بها.[1]

هذه السردية قد لا تنسجم تماماً مع المنظومات الأخلاقية لليسار في البلدان الأوروبية (حيث، على سبيل المثال، يوجد عدم ثقة بالرأسمالية). على الرغم من ذلك، فإن خط الحبكة العام لا بد أن يكون مميزاً لدى اليساريين في كلّ مكان. إنها سردية تحررية. يجب تحطيم قيود كلّ من السلطة، والهرمية، والسطوة، والتقاليد لتحرير "التطلعات النبيلة" للضحايا.

لقد كتب سميث هذه السردية قبل ان توجد نظرية الأسس الأخلاقية، لكن يمكنك أن ترى أن السردية تستمد قوتها الأخلاقية من أساس الرعاية/الأذية (اهتمام بمعاناة الضحايا) وأساس الحرية/القمع (الاحتفاء بالحرية بصفتها تحرر من القمع إضافة إلى حرية السعي إلى السعادة المعرّفة ذاتياً). في هذه السردية، العدالة هي المساواة السياسية (التي هي جزءٌ من معارضة القمع)؛ يوجد هنالك

(1) Ibid., P. 82



إشارات غير مباشرة إلى العدالة على أنها تناسُب.[1] ويتم ذكر السلطة فحسب على أنها شر، ولا يرد ذكر الولاء والورع.

قابلْ تلك السردية بأخرى من المحافظة الحديثة. المختص في علم النفس السريري درو وستن أستاذٌ آخر في تحليل السرد، وفي كتابه ((الدماغ السياسي)) يستخلص السردية الأم التي كانت ضمنيّة، وفي بعض الأحيان صريحة، في خطابات رونالد ريجان الرئيسية:

لقد هزم ريجان جيمي كارتر في عام 1980، وهو الوقت الذي كان الأمريكان فيه محتجزين رهائناً في إيران، وكان معدل التضخم يتخطى 10 بالمائة، ومدن أمريكا، وصناعاتها، وثقتها بحدّ ذاتها في حالة تردٍ. تجري سردية ريجان على النحو التالي:

> كان يا ما كان، كانت أمريكا منارةً مشعة. بعئذٍ أقبلَ الليبراليون وأنشؤوا بيروقراطيةً اتحادية هائلة قيّدت اليد غير المرئية لحرية السوق. وقاموا بتخريب قيمنا الأمريكية التقليدية وعارضوا الله والإيمان عند كلّ خطوةٍ في الطريق. ... وبدل الطلب من الناس أن يعملوا لكسب قوتهم، سيفنوا* المال من الأمريكان العاملين بكدّ ومنحوه لراكبي الكاديلاك من مدمنيّ المخدرات وملكات الرفاه. وبدلاً من عقاب المجرمين، حاولوا أن "يتفهموهم". وبدلاً من القلق بشأن ضحايا الجرائم، كانوا قلقين بشأن حقوق المجرمين.... وبدلاً من الالتزام بالقيم الأمريكية التقليدية المتعلقة بالأسرة، والإخلاص،

---

[1] لا أقصد التقليل إلى الحد الأدنى من أهمية المساواة على أنها أمر خيّر أخلاقي؛ أنا أقدم البرهان كما فعلتُ في الفصل 8 أنّ المساواة السياسية عبارة عن شغفٍ ينمو من أساس الحرية وردة فعله الشعورية ضد التنمّر والقمع، إضافةً إلى أساس الرعاية واهتمامه بالضحايا. لا اعتقد أن حبّ المساواة السياسية مستمد من أساس العدالة واهتماماته بالتبادلية والتناسب.

* [ارموا في مجارير الحمامات]



والمسؤولية الشخصية، كانوا يدعون للانفلات الجنسي، والجنس قبل الزواج، وأسلوب حياة المثليين...وشجّعوا الأجندة النسوية التي تُضعف مكانة أدوار الأسرة...وبدلاً من إظهار القوة حيال أولئك الذين يمارسون الشر حول العالم، قلّصوا الميزانيات العسكرية، ولم يحترموا جنودنا في زيهم الرسمي، وأحرقوا علمنا، واختاروا المحادثات ونزع السلاح المتعدد الأطراف.... من ثمّ قرر الأمريكيون استعادة وطنهم من أولئك الذين سعوا إلى التقليل من شأنه.[1]

سيتوجب تحرير هذه السردية للاستخدام في بلدانٍ وأسماءٍ أخرى، حيث ما يتمُّ "حفظُه" يختلف عن الحالة الأمريكية. على الرغم من ذلك، فإنّ خط حبكتها العام وأفقها الأخلاقي يجب أن تكون مميّزة للمحافظين في كل مكان. وهذه سرديّةٌ بطولية أيضاً، لكنّها بطولة الدفاع. هي أقل تناسباً لكونها تُحَوَّل إلى صورةٍ رئيسة متحركة. وبدلاً من الصورة المثيرة بصرياً للحشود التي تقتحم سجن الباستيل وتحرر السجناء، تبدو هذه السردية أميل إلى الشبه بأسرة تسترد منزلها من النمل الأبيض ومن ثمّ تُصلِحُ عارضات الأرضية والسقف.

إنّ سردية ريجان محافظةٌ على نحوٍ مرئي في كونها تعتمد من أجل قوتها الأخلاقية بأقل تعديلٍ على خمسة من ستة أسس أخلاقية. هنالك إلماح فحسب للعناية (الضحايا الجريمة)، لكن هنالك إشاراتٌ واضحة إلى الحرية (مثل الحرية من قيد الحكومة)، العدالة (باعتبارها تناسباً: أخذ المال من أولئك الذين يعملون بكَدٍّ ومنحه للكات [نظام] الرفاه)، والولاء (الجنود والعلم)، والسلطة (تهديم الأسرة والتقاليد)، والورع (استبدال الله بالانفلات الجنسي).

السرديّتان متعاكستان إلى أبعد لحدود. هل يمكن للمتحزبين حتى أن يفهموا القصة التي يرويها الجانب الآخر؟ وعوائق التقمص العاطفي ليست متماثلة. فإذا ما بنى اليسارمنظوماته الأخلاقية على عدد أقل من الأسس

(1) Westen 2007, PP. 157-58



الأخلاقية بناءً عليه لا يوجد أساسٌ مستَخْدَمُ من قِبَل اليسار غير مستخدمٍ من قِبَل اليمين. وحتى لو أنّ المحافظين يسجّلون نقاطاً أدنى قليلاً فيما يتعلّق بإجراءات التقمص العاطفي[1] فقد يكونون لذلك أقل تأثراً بقصةٍ حول المعاناة والقمع، ما زال بإمكانهم التمييز بأن بقاء [المرء] في القيد أمرٌ كريه. وحتى لو أنّ الكثير من المحافظين عارضوا بعض حالات التحرر العظيمة في القرن العشرين ـ للنساء، وعمال المعمل المعرّق*، والأفارقة الأمريكان، والأشخاص المثليين ـ فقد قام بالتصفيق استحساناً لأخرى مثل تحرير أوروبا الشرقية من القمع الشيوعي.

لكنْ عندما يحاول الليبراليون فهم سردية ريجان، فلديهم وقت أكثر صعوبة. عندما أتحدث إلى مشاهدين ليبراليين حول ثلاثةِ أسسٍ "جامعة" ـ الولاء، والسلطة، والورع ـ أجدُ أنّ الكثير بين المشاهدين يخفقون في ترجيع الصدى؛ على نحوٍ فعلي يرفضون هذه الاهتمامات باعتبارها غير أخلاقية. فالولاء لجماعةٍ يقلّص الدائرة الأخلاقية؛ وهي أساس العنصرية والإقصاء، حسبما يقولون. السلطة قمع. والورع عبارة عن بربرة* دينية وظيفتها الوحيدة قمع الشهوة الجنسية لدى النساء وتبرير الرهاب من المثليين.

في دراسةٍ أجريتها مع جيسي جراهام وبرايان نوسيك اختبرنا إلى أي حد يمكن لليبراليين والمحافظين فهم بعضهم بعضاً. لقد طلبنا من ألفي زائرٍ أمريكي ملءَ استبيان الأسس الأخلاقية. في ثلث الوقت طُلِبَ منهم ملؤه بطريقةٍ اعتيادية، الإجابة حسبما يعتقدون أنفسهم. وفي ثلثٍ من الوقت طُلِبَ منهم ملؤه حسبما يظنون أنّ "ليبرالياً نمطياً" سيستجيب. وفي ثلثٍ من الوقت طُلِبَ منهم ملؤه مثلما كان سيستجيب "محافظٌ نمطي". ولقد سمح لنا هذا التصميم بدراسة الصور النمطية التي يحتفظ كلٌّ من الطرفين بها عن الآخر. والأهم من ذلك، سمحت لنا بإجراء تقييم حول إلى أيّ مدى كانوا دقيقين بواسطة مقارنة توقعات

---

[1] Iyer et al. 2011

* مؤسسة صناعيّة صغيرة تستخدم العمال بأجور منخفضة وأحوال غير صحيّة ـــ المورد

* mumbo-jumbo بربرة: كلام غير مفهوم أو خلو من المعنى ـــ المترجم



الأشخاص عن المتحزّبين "النمطيين" مع الاستجابات الفعلية من المتحزّبين من اليسار ومن اليمين.[1] من كان الأفضل في التظاهر بأن يكون الآخر؟

كانت النتائج واضحة ومتساوقة. كان المعتدلون والمحافظون الأكثر دقة في توقعاتهم، سواء أكانوا يتظاهرون بأنهم ليبراليين أو محافظين. كان الليبراليون الأقل دقة، لا سيما الذين وصفوا أنفسهم "ليبراليين جداً". كلّ الأخطاء الأكبر في الدراسة جاءت عندما أجاب الليبراليون على أسئلة الرعاية والعدالة بينما يتظاهرون بأن يكونوا محافظين. عندما تتم مواجهتهم بأسئلة مثل "واحد من أسوأ الأشياء يمكن للمرء فعلها هو أذية حيوانٍ لا حول له" أو "العدل هو المتطلّب الأهم للمجتمع،" افترض الليبراليون أنّ المحافظين كانوا سيوافقون. إذا ما تمتعتَ بمنظومةٍ أخلاقية مبنيّة في المقام الأول على حالات الحدس بشأن الرعاية والعدالة (على أنها المساواة)، وأنت تستمع إلى سردية ريجان، ما الشيء الآخر الذي يمكن أن تفكر به؟ يبدو ريجان غير مكترثٍ برفاه مدمنيّ المخدرات، والأشخاص الفقراء، والأشخاص المثليين. إنه أكثر اهتماماً بخوض الحروب وإبلاغ الناس كيف يديرون حياتهم الجنسية.

إنْ لمْ تكنْ ترى أنّ ريجان يسعى إلى قيمٍ نبيلة قوامها الولاء، والسلطة، والورع ، يتوجب عليك تقريباً الاستنتاج بأن الجمهوريين لا يرون الرعاية والعدالة قيماً إيجابية. ويمكنُ أنْ يصلَ بك الأمر إلى الحد الذي وصله مايكل فينجولد ، وهو ناقدٌ مسرحي لصالح الجريدة الليبرالية ((ذا فيليج فويس))، عندما كتب:

---

[1] Graham, Nosek, and Hait 2011 . قمنا باستخدام عدة خطوط قاعدية لقياس الواقع. كان أحدها بياناتنا الخاصة التي تمّ جمعها في هذه الدراسة، مستخدمين جميع الليبراليين والمحافظين حسبما وصفوا أنفسهم. ومجموعة البيانات الأخرى كانت ذاتها لكنّها مقتصرة على أولئك الذين يدعون أنفسهم "ليبراليين جداً" و"محافظين جداً". وتمّ الحصول على الخط القاعدي الثالث من مجموعة قواعد بيانات ذات تمثيلٍ قومي باستخدام استبيان الأسس الأخلاقية MFQ . كان المحافظون في جميع التحليلات ، أدق من الليبراليين.



لا يؤمن الجمهوريون بالمخيّلة، من جانبٍ لأن قلة منهم تمتلك مخيّلة، بل في المقام الأول لأنها تعترض طريق عملهم المختار، وهو تدمير الجنس البشري والكوكب. بني البشر، الذين يتمتعون بمخيلة، من الممكن أن يروا وصفة كارثية قيد التشكل: الجمهوريون، الذين غايتهم في الحياة الربح من الكارثة وممن لا يبالون مثقال ذرّةٍ ببني البشر. وهذا ما يجعلني أفكر شخصياً أنهم يجب أن يتعرّضوا للإبادة قبل أن يتسببوا بمزيدٍ من الأذى.[1]

إحدى سخريات الأقدار في هذا المقبوس هو أنه يُظهر عدم قدرة ناقدٍ مسرحي - يدخل بمهارة عوالماً وهمية متخيّلة ليكسب قوته - أن يتصور بأنّ الجمهوريين يتصرفون ضمن منظومةٍ أخلاقية تختلف عن مصفوفته الخاصة. الأخلاق تربط وتعمي.

نقطة اليسار العمياء: رأس المال الأخلاقي

كان هنالك نقطتا تحوّلٍ في سردية حياتي الفكرية. في الفصل 5 قمت باستعادة الأولى، في الهند، التي تفتح عقلي فيها على أخلاقيات أوسع قام بوصفها ريتشارد شويدر (أي، أخلاقيات المجتمع المصغّر واللاهوت). لكن من نقطة التحول في عام 1993 وحتى انتخاب باراك أوباما في عام 2008، كنت ما أزال ليبرالياً متحزّباً. كنت أريد فريقي (الديمقراطيين) أن يهزم الفريق الآخر (الجمهوريين). في الحقيقة، في البداية شرعتُ بدراسة السياسة تحديداً لأنني كنت بالغ الإحباط من حملة جون كيري الرئاسية غير الفعالة. كنت مقتنعاً بأنّ الليبراليين الأمريكان ببساطة لم "يلتقطوا" أخلاق أبناء وطنهم المحافظين

---

[1] M. Feingold, "Foreman"s Wake-Up Call," 2004, retrieved March 28, 2011, from http://www.villagevoice.com/2004--01-13/theater/foreman-s-wake-up-call//. أفترض أن السطر الأخير ليس جدياً، لكن كان بمقدوري ألا أجد إشارة في المقالة بأنّ فينجولد كان منخرطاً في محاكاة فنية ساخرة أو كان يتحدث بصفته شخصاً آخر.



ودوافعهم، وأردتُ استخدام بحث حول علم النفس الأخلاقي لمساعدة الليبراليين على الفوز.

ولتعلُّم المزيد عن علم النفس الأخلاقي، قررت تدريس حلقة بحث للخرّيجين حول الموضوع في صيف عام 2005. لدى معرفتي بأنني سأدرس ذاك المقرر، كنت في عملية بحث عن قراءاتٍ جيدة. وهكذا عندما كنت أزور الأصدقاء في نيويورك بعد شهرٍ من هزيمة كيري، ذهبتُ إلى مخزن كتب مستعملة لتصفّح قسم العلوم السياسية لديه. وإذ قمت بمسح محتويات الرفوف، قفزَ كتابٌ واحد نحوي - وهو كتابٌ بني سميكٌ فيه كلمة واحدة على كعبه: المحافَظة. كان مجلداً مؤلفاً من قراءات قام بإعدادها المؤرخ جيري موللر. بدأت بقراءة مقدمة موللر وأنا واقف في الممر بين الرفوف، لكن عند الصفحة الثالثة كان علي الجلوس على الأرض. لم ألاحظ الأمر حتى بعد انقضاء عدة أعوام، لكنّ مقالة موللر كانت نقطة التحول الثانية لدي.

بدأ موللر بالتمييز ما بين المحافظة والمعتقد التقليدي. المعتقد التقليدي هو وجهة نظر تفيد بوجود "نظامٌ أخلاقي كائنٌ فوق الوجود المادي، ينبغي علينا محاولة إخضاع طرق المجتمع له."[1] المسيحيون الذين ينظرون إلى الكتاب المقدس على أنه دليلٌ للتشريع، مثل المسلمين الذين يريدون العيش في ظل الشريعة، أمثلة عن المعتقد التقليدي. هم يريدون مجتمعهم أن يماثل نظاماً أخلاقياً تمّ الأمر به خارجياً، وهكذا يدعون إلى التغيير، وفي بعض الأحيان التغيير الجذري. وهذا من الممكن أن يضعهم على تباينٍ مع المحافظين الحقيقيين، الذين يرون التغيير الجذري خطيراً.

ميّز موللر بعد ذلك مباشرةً المحافظة عن معاداة التنوير. من الصحيح أن معظم المقاومة للتنوير من الممكن القول بأنها محافظة، بالتعريف (رجال الدين

(1) Muller 1997, P. 4, citing Russell Kirk. أنظر أيضاً Hunter 1991 من أجل تعريف مشابه للمعتقد التقليدي، الذي يضعه مقابل التقدمية.



والأرستقراطيون كانوا يحاولون الحفاظ على النظام القديم). لكنَ المحافظة الحديثة، يؤكد موللر، تجد جذورها ضمن تيارات الفكر التنويري الرئيسية، عندما حاول رجالٌ مثب ديفيد هيوم وإدموند بيرك تطوير نقدٍ منطقي، وبراجماتي، وبالأساس نفعي لمشروع التنوير. وهنا السطر الذي بالمعنى الحرفي للكلمة طرحني أرضاً:

> ما يجعل المحاجات السياسية والاجتماعية محافظة بصفتها عكس تقليدية المعتقد هو أن نقد الجدالات الليبرالي أو التقدمي يقوم على ارضيةٍ تنويرية من البحث عن السعادة الإنسانية قائماً على استخدام المنطق.[1]

بصفتي ليبرالياً مدى العمر، كنتُ قد افترضت أن المحافظة = المعتقد التقليدي = الدين = الإيمان = رفض العلم. وتلا ذلك، بالتالي، أنني بصفتي ملحداً وعالماً، كان من المتوجّب علي أن أكون ليبرالياً. لكنّ موللر أكّد أنّ المحافظة الحديثة كانت فعلياً حول إيجاد أفضل مجتمعٍ ممكن، المجتمع الذي يسبب بالسعادة مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف المحيطة. هل ذلك من الممكن؟ هل وُجِدَ نوعٌ من المحافظة من الممكن أن يتنافس مع الليبرالية في ميدان العلوم الاجتماعية؟ هل يمكن أن يكون لدى المحافظين صيغةٌ أفضل من أجل كيف نخلق مجتمعاً صحياً سعيداً؟

واظبت على القراءة. لقد درسَ موللر بدقة سلسلةً من الادعاءات حول الطبيعة والمؤسسات البشرية، والتي قال إنّها جوهر معتقدات المحافظة. يعتقد المحافظون أن الناس غير كاملين بشكلٍ متأصّل وعرضة للتصرف بشكلٍ سيء عندما تتم إزاحة القيود والمحاسبة (نعم، فكرت: أنظرجلاوكون، وتيتلوك، وأريلي في الفصل 4). يشوب محاجحتنا الخلل والعرضة لفرط الثقة، وهكذا من الخطر بناء نظريات قائمة على التفكير البحت، غير المقيّد بواسطة المؤسسة والتجربة

---

[1] Muller 1997, P. 5



التاريخية (نعم؛ أنظر هيوم في الفصل 2 وبارون- كوهين حول الترتيب المنهجي في الفصل 6). كما برزت المؤسسات تدريجياً بصفتها حقائقاً اجتماعية، التي فيما بعد نحترمها ونقدسها، لكن لو جرّدنا هذه المؤسسات من السلطة وعاملناها على أنها حيلٌ اعتباطية توجد فقط من أجل مصالحنا، فنجعلها أقل فعالية. بالتالي نعرّضُ أنفسنا إلى اضطراب اجتماعي متزايد (نعم؛ أنظر دوركهايم في الفصل 8 و11).

تأسيساً على بحثي الخاص، لم يكنْ لديّ من خيار سوى الموافقة على هذه الادعاءات المحافظة. وإذا واصلتُ قراءة كتابة المثقفين المحافظين، من إدموند بورك في القرن الثامن عشر وحتى فريدريش هايك وتوماس سويل في العشرين، بدأت أرى أنهم امتلكوا تبصّراً حاسماً نحو علم اجتماع الأخلاق لم يسبق لي أن وقعت عليه من قبل. لقد فهموا أهمية ما أدعوه رأسمال الأخلاق. (من فضلك لاحظ أنني أثني على المثقفين المحافظين، وليس الحزب الجمهوري.)[1]

---

[1] الأحزاب السياسية أشياء غير مرتبة لا بُدَّ أن تسرّ الكثير من جمهور الناخبين والمتبرّعين وهكذا لا يقومون بترسيخ ملموس لإيديولوجيا ما بشكلٍ تام. كلا الحزبين الرئيسيين لديهما مشكلات خطيرة، في رأيي. آمل أنّ الديمقراطيين سيكونون أكثر دوركهايميةً، وآمل أن يصبحَ الجمهوريون أكثر نفعية. لكن في هذه اللحظة الراهنة ليس لدي أملاً أقل بأن الجمهوريين سيتغيّرون لأنهم واقعون في شرك في عواطف المشاركين في أنصار حزب الشاي الجامعة (المصيبة بالعماء). منذ عام 2009، وعلى وجه الخصوص في عام 2011، أظهر الجمهوريون أنفسهم بأنهم أقل استعداداً للحل الوسط من الديمقراطيين. والقضية التي منحوها صفة القداسة، لسوء الحظ، هي الضرائب. تعني القداسة عدم وجود مقايضة، وهم مستعدون للتضحية بكل الأشياء الجميلة التي يمكن أن تقوم بها الحكومة للحفاظ على معدلات ضرائب متدنية من أجل الأمريكيين الأكثر ثراءاً. وهذا الالتزام فاقم انعدام المساواة المتنامية سريعاً في الدخل وهي مؤذية للثقة الاجتماعية، وبالتالي لرأس المال الأخلاقي (Wilkinson and Picket 2009). وبصفتي نفعياً دوركهايمياً، أرى الكثير مما أحب في النزعة المحافظة، لكن الأقل القليل مما أحبه في الحزب الجمهوري.



إنّ مصطلح رأس المال الاجتماعي اكتسح العلوم الاجتماعية في التسعينات [من القرن العشرين]، قافزاً إلى مفردات عمومية أكثر اتساعاً بعد كتاب روبرت بوتنام الصادر عام 2000 بعنوان ((لعب البولنج وحيداً)).[1] يدل رأس المال، في الاقتصاد، على الموارد التي تسمح للشخص أو الشركة بإنتاج بضائع وخدمات. هناك رأس المال النقدي (المال في المصرف)، ورأس المال المادي (مثل مفتاح ربط أو معمل)، ورأس المال البشري (مثل قوة بيع جيّدة التدريب). وعندما يكون كل ما هو غير ذلك متساوياً، فإن شركة ما لديها المزيد من أي نوع من رأس المال سوف تتفوّق في المنافسة على شركة لديها أقل.

يشير رأس المال الاجتماعي إلى نوع من رأس المال سبق للاقتصاديين تجاهله: إنه الروابط الاجتماعية ما بين الأفراد وقواعد السلوك القائمة على التبادلية والموثوقية التي تنبثق عن هذه الروابط.[2] وعندما يكون كل شيء آخر متساوياً، فإنّ شركة لديها مزيد من رأس المال الاجتماعي سوف تتفوق في المنافسة على منافسين أقل تماسكاً وأقل موثوقية من الداخل (وهو أمر ذو مغزى باعتبار أن بني البشر كانوا قد تشكلّوا عن طريق الاصطفاء المتعدد المستويات لكي يكونوا عناصر فرقة متعاونين). في حقيقة الأمر، تستخدم المناقشات في رأس المال الاجتماعي في بعض الأحيان مثال تجار الألماس اليهود المتعصبين، والذي أوردته في الفصل السابق.[3] كانت هذه الجماعة العرقية شديدة الترابط قادرة على خلق أكثر الأسواق فاعلية لأن العمليات التجارية وتكاليف الرصد بالغة الانخفاض - يوجد قدرٌ أقل فوق رأسمال المال على كل صفقة. ونفقاتهم على هذا القدر من الانخفاض لأنّ الثقة قائمة فيما بينهم. وإذا ما كان أن قامت سوق أخرى بالافتتاح عبر المدينة مؤلفة من تجار متنوعين من الناحية الدينية والعرقية، كان عليهم أن ينفقوا مزيداً من المال على المحامين وحراس الأمن، مع الأخذ بعين

---

(1) Putnam 2000

(2) هذا تعريف بوتنام.

(3) Coleman 1988



الاعتبار كم هو سهل الإقدام على الاحتيال أو السرقة لدى إرسال قطع الألماس إلى الخارج من أجل التفحص من قبل تجار آخرين. مثل الكومونات غير الدينية التي قام ريتشارد سوسيس بدراستها، سيكون لديها أوقاتاً أصعب لجعل الأفراد يتبعون قواعد السلوك الأخلاقية السائدة في المجتمع المصغّر.[1]

كلُّ شخصٍ يحب رأس المال الاجتماعي. سواءً كنت من اليسار، أو اليمين، أو الوسط، منْ منَ الممكن ألا يرى قيمة كونه قادراً على الثقة ب أو الاعتماد على الآخرين؟ لكنْ لنوسع تركيزنا إلى ما هو أبعد من الشركة التي تحاول إنتاج البضائع ولنفكر بشأن مدرسة، أوكومونة، أوشركة كبيرة، أو حتى أمة برمتها تريد أن تحسّن السلوك الأخلاقي. لننحّيْ مشاكل التنوّع الأخلاقي جانباً ونحددْ فحسب الهدف المتمثّل بزيادة "ناتج" السلوكيات ذات الميل الاجتماعي وتقليص "ناتج" السلوكيات اللا- إجتماعية، كيفما تعرّف الجماعة هذين المصطلحين. من أجل تحقيق أية رؤية أخلاقية، كان من المحتمل أن تطلبَ مستوياتٍ عالية رأس المال الاجتماعي. (من الصعب تخيّل كيف الافتقاد للسلوكيات والمعايير الاجتماعية وعدم الثقة من الممكن أن يكونا مفيدين). لكنْ هل ربط الناس إلى بعضهم ضمن علاقاتٍ صحيّة، قائمة على الثقة سيكون كافياً لتحسين الصفحة الأخلاقية للجماعة؟

إذا كنتَ تعتقد أنَّ الناس بالفطرة طيّبون، وأنهم يزدهرون عندما تتم إزالة القيود والانقسامات، بعد إذٍ نعم، ذاك قد يكون كافياً. لكنّ المحافظين يتّخذون على العموم وجهة نظر مختلفة عن الطبيعة الإنسانية. فهم يعتقدون أنّ الناس يحتاجون إلى هيكليات أو قيودٍ خارجية من أجل التصرّف الحسن، والتعاون، والازدهار وتتضمّن هذة القيود القوانين، والمؤسسات، والأعراف، والتقاليد، والأمم، والأديان. والناس الذين يمتلكون وجهة النظر "التقيدية"[2] هم بالتالي بالغو الاهتمام حول الصحة والاستقامة لأجهزة التنسيق "الواقعة خارج

(1) Sosis and Bressler 2003 ؛ أنظر الفصل 11.

(2) Sowell 2002



العقلُ. من دونها، يعتقدون، أنّ الناس سيبدؤون بالغش ويتصرفون بشكلٍ أناني. من دونها، سوف يفسد رأس المال الاجتماعي على جناح السرعة.

إذا ما كنت عضواً في مجتمع "غريب الأطوار"، ستميل عيناك للوقوع على أجسامٍ فردية مثل البشر، فأنت على نحوٍ ميكانيكي لا ترى العلاقات بينهم. إنّ امتلاك مفهومٍ من قبيل رأس المال الاجتماعي أمرٌ مساعدٌ لأنّه يرغمُك على رؤية العلاقات التي ينطمر الناس ضمنها، والتي تجعل أولئك الناس منتجين. أقترح أنْ نمضي بهذه المقاربة خطوة أخرى إلى الأمام. ولفهم معجزة المجتمعات الأخلاقية المصغّرة التي تنمو إلى ما وراء حدود قرابة الدم لا يتوجب علينا النظر إلى الناس فحسب، وليس إلى العلاقات بين الناس فحسب، بل إلى البيئة كاملةً التي تجذّرت تلك العلاقات فيها، والتي تجعل الناس أكثر فضيلةً (مهما هم أنفسُهم يعرّفون هذا المصطلح). يأخذ الأمر الكثير من الأمور الواقعة خارج العقل من أجل دعم مجتمعٍ أخلاقيّ مصغّر.

على سبيل المثال، في جزيرةٍ صغيرةٍ أو بلدةٍ صغيرةٍ، لا تحتاج على نحوٍ نموذجيّ أن تُقفِلَ درّاجتك الهوائية، لكنْ في مدينةٍ أكبر في البلد ذاته، إذا ما قمتَ بإقفال هيكل الدراجة الهوائية، فإنّ عجلاتك ستتعرّض للسرقة. كون المجتمع مصغّراً، أومنعزلاً، أو متجانساً من الناحية الأخلاقية هي أمثلةٌ على الشروط البيئية التي تزيد رأس المال الاجتماعي للمجتمع المصغر. وهذا لايعني أنّ الجزر الصغيرة والبلدات الصغيرة أمكنةً أفضل للعيش بالإجمال - التنوّع وازدحام المدن الكبيرة يجعلها أمكنةً أكثر إبداعاً للكثير من الناس - لكن هذا هو التناوب [التخلّص من الشيء ببيعه]. (إذا ما كنت تنوي مبادلة بعض رأس المال الاجتماعي لتكسب بعض التنوّع والإبداع سوف يعتمد جزئيّاً على إعدادات دماغك على سماتٍ مثل الانفتاح على التجربة والحساسية حيال التهديد، وهذا جزءٌ من السبب وراء كون المدن عادة أكثر ليبرالية إلى هذا الحد من الريف).

إنّ النظر إلى حزمةٍ من العوامل الواقعة خارج العقل وإلى كيف تتناغم جيداً مع التركيبة النفسية الأخلاقية داخل الدماغ تعيدانا إلى تعريف النُظُم الأخلاقية الذي طرحته في الفصل الأخير. في حقيقة الأمر نستطيع معرفة رأس المال



الأخلاقي على أنه الموارد التي تطيل بقاء المجتمع الأخلاقي المصغّر.[1] على وجه الدقة، يشير رأس المال الأخلاقي إلى:

> الدرجة التي يمتلك المجتمع المصغّربها مجموعاتٍ متداخلةً من القيم، والفضائل، والأعراف، والممارسات، والهويات، والمؤسسات، والتقانات التي تنسجمُ مع الآليات النفسية المتطورة وبذلك تمكّن المجتمع المصغّر من كبح الأنانية وتنظيمها ويجعل التعاون ممكناً.

ولرؤية رأس المال الأخلاقي قيد العمل، لنَقُمْ بتجربةٍ فكرية باستخدام كومونات القرن التاسع عشر التي قام بدراستها ريتشارد سوسيس. لِنَفتَرِضْ أنّ كلّ كومونةٍ تمّ البدء بها على يد مجموعةٍ مؤلفة من خمسةٍ وعشرين شخصاً راشداً كان كلٌّ منهم يعرف كل منهم يعرف الآخر ويحبّه ويثق به. بمعنى آخر، لِنفترضْ أنّ كلَّ كومونة تم البدء بها بوجود كمٍّ كافٍ ومتساوٍ من رأس المال الاجتماعي في اليوم رقم 1. ما هي العوامل التي مكّنتْ بعضاً من الكومونات الحفاظ على رأس المال الاجتماعي وتوليد مستوياتٍ أعلى من السلوك الموالي للمجتمع على مدى عقودٍ بينما انحطّت الأخريات ألى النزاع وعدم الثقة ضمن السنة الأولى؟

في الفصل الأخير، قلتُ إنَّ الآلهة والطقوس الدينية المكلفة تبيّن أنها مقوّمات النجاح. لكنْ لِنَضَعْ الدين جانباً وننظر إلى كل الأمور الواقعة خارج العقل. لنفتَرِضْ أنَّ كلَّ كومونةٍ انطلقت أقلعت بقائمةٍ واضحة من القيم والفضائل قامت بطباعتها في ملصقاتٍ جدارية ووزعتها في كلّ أرجاء الكومونة. فالكومونة التي ثمّنت التعبير عن الذات على حساب الطاعة والتي بجّلت فضيلة التسامح على حساب فضيلة الولاء من الممكن أن تكون جذّابة للغرباء [من هم

---

[1] تم استخدام رأس المال الأخلاقي من قبل؛ لكن كان قد قيلَ عادةً أن تكون ملكية الفرد، أقرب إلى الاستقامة، التي تجعلُ الآخرين يثقون بالشخصِ ويحترمونه. أنظر Kane 2001 . أنا أقوم بتعريفه على أنه ملكية المجتمع المصغّر أو النظام الاجتماعي. Rosenberg 1990 روزنبرج استخدمه بهذا المعنى، حيث يعزي الفكرةَ لا المصطلح إلى آدم سميث.



خارجها]، وهذا من الممكن أن يكون في حقيقة الأمر ميزةً في تطويع أعضاءٍ جدد، لكن سيكون لديها رأسمال أخلاقيّ أقل من الكومونة التي ثمّنت الطاعة والولاء. الكومونات الأكثر تزمّتاً ستكون أفضل في قدرتها على كبح الأنانية وتنظيمها، وسوف تكون من ثمّ أكثر ترجيحاً للبقاء.

المجتمعات الأخلاقية المصغرة أشياءٌ هشة، من الصعب بناؤها ومن السهل تدميرها. وعندما نُفكر بمجتمعات كبيرة مثل الأمم، فإنّ التحدي استثنائي وتهديد الأنتروبيا* الأخلاقية شديد. لا يوجد هامشٌ كبيرٌ للخطأ؛ كثيرٌ من الأمم حالات إخفاق بصفتها مجتمعات أخلاقية كبيرة، ولا سيّما الأمم التي ينخرها الفساد حيث الطغاة والنخب يديرون البلاد من أجل منفعتهم الخاصة. إذا لم تثمّنوا رأس المال الأخلاقي، فأنتم لن تعززوا قيماً، وفضائلَ، وأعرافاً، وممارساتٍ، وهوياتٍ ومؤسساتٍ، وتقاناتٍ تزيده.

دعوني أعلنْ بجلاءٍ أنّ رأس المال الأخلاقي ليس دائماً خيراً لا تشوبه شائبة. يقود رأس المال الأخلاقي آلياً إلى كبح الخارجين عن السرب، لكنّه لا يقود آلياً إلى صيغٍ أخرى من العدالة مثل تكافؤ الفرص. وبينما يساعد رأس المال الأخلاقي العالي على أداء الوظيفة بكفاءة، من الممكن للمجتمع [المصغّر] أن يستخدم تلك الكفاءة في إلحاق الأذى بالمجتمعات الصغرى الأخرى. ومن الممكن الحصول على رأس المال الأخلاقي العالي ضمن طائفةٍ أو أمّةٍ فاشية، طالما أنّ معظم الناس فعليا يقبلون المنظومة الأخلاقية السائدة.

على الرغم من ذلك، لو حاولتَ تغيير منظمة أو مجتمع دون أن تراعي تأثيرات تغييراتك على رأس المال الأخلاقي، فأنت تسعى إلى المشكلة. وهذا، على ما أعتقد، هو نقطة العمى الأساسية لدى اليسار. وهي تشرح لماذا تؤدي الإصلاحات الليبرالية في الغالب إلى عكس النتائج المرجوّة[1]، ولماذا تنتهي الثورات الشيوعية

* عامل رياضي يُعتبر مقياساً للطاقة غير المستفادة في نظامٍ دينامي حراري ـ المترجم

(1) McWhorter 2005; Rieder 1985; Voegeli 2010



عادةً بالطغيان. وهو السبب الذي أعتقد أنه ـ والذي فعل الكثير ليسبب الحرية وتكافؤ الفرص ـ ليس كافياً بصفته فلسفةً للحكم. إنه يميل إلى المغالاة، وتغييرأشياء كثيرة بسرعةٍ كبيرة، ويقلّص مخزون رأس المال الأخلاقي على نحوٍ يشوبه الإهمال والغفلة. وبالعكس، بينما يقوم المحافظون بعملٍ أفضل في الحفاظ على رأس المال الأخلاقي، في الغالب يخفقون في ملاحظة بعض الطبقات من الضحايا، ويخفقون في الحد من عمليات سلب متعلقة بمصالح متنفذة محددة، ويخفقون في رؤية الحاجة إلى تغيير المؤسسات أو تحديثها حين يتغيّر الزمن.

يانٌ واحدٌ ويانجان

في الفلسفة الصينية، يشير اليان واليانج إلى أية قوتين متعارضتين ظاهرياً ومتكاملتين في حقيقة الأمر ومتوقفةٍ إحداهما على الأخرى. الليل والنهار ليسا عدوّين، وكذلك حال الساخن والبارد، والصيف والشتاء، والذكر والأنثى. نحن نحتاج الإثنين، وفي الغالب ضمن توازنٍ متناوب. قال ستيوارت ميلل أنّ الليبراليين والمحافظين كالآتي: "حزب قوامه النظام والاستقرار، وحزبٌ قوامه التقدم والإصلاح، كلاهما عنصران ضروريان لحالة صحية في الحياة السياسية."[1]

الفيلسوف بيرتراند راسل رأى الدينامية نفسها فعالة طوال تاريخ الغرب الفكري: "منذ عام 600 قبل الميلاد وحتى يومنا الراهن، انقسم الفلاسفة إلى أولئك الذين أملوا في تشديد الروابط الاجتماعية وأولئك الذين أملوا أن يخففوا منها."[2] كما شرح راسل بعد ذلك لمَ كلٌّ من الطرفين كان على صوابٍ جزئياً، مستخدماً مصطلحاتٍ تكاد تقارب إلى أقرب حد رأس <u>المال الاجتماعي</u> بقدر ما كنت آمل أن أجد:

---

(1) Mill 2003 /1859. P. 113. يستمر المقبوس: "كلٌ من صيغ التفكير هذه تستمد نفعها من نواقص الآخر؛ لكنها إلى حدٍ كبير عكس الآخر الذي يبقي كلاً منها ضمن حدود المنطق والعقل."

(2) Russell 2004/1946, P. 9



من الواضح أنّ كلّ طرف في هذا الصراع - فيما يتعلق بكل ما يبقى عبر فتراتٍ طويلة من الزمن - إنما هو صحيح جزئياً وخاطىء جزئياً. التماسك الاجتماعي ضرورة، ولم ينجحْ الجنس البشري بعد في تعزيزالتماسك بواسطة إيراد الحجج العقلانية على نحوٍ مجرد. كل مجتمع مصفّر معرّض إلى خطرين متعارضين: التحجر في العاطفة أو التفكيرمن خلال كثير من الانضباط وتبجيل التقاليد، وبالمقابل، الفناء، أو التعرض للاحتلال الخارجي، من خلال نمو حالة فردية واستقلالٍ شخصي يجعل التعاون مستحيلاً.[1]

سأقدم على مجازفة وأطبّق تبصّرات ميلل وراسل على بعض المناظرات الراهنة في المجتمع الأمريكي. هي مجازفة لأنّ القراء المتحزّبين قد يكونون قادرين على فهم ادعاءاتي حول اليين واليانج بالطريقة المجردة، لكنْ ليس عندما أبدأ القول "الطرف الآخر" لديه شيءٌ ما مفيد ليقوله عن قضايا إشكالية محددة. أنا مستعد لخوض هذه المجازفة، من جانب آخر، لأنني أريد إظهار أن السياسة العامة من الممكن تحسينها بالاعتماد على تبصّرات من كل الأطراف. سأستخدم إطاراً عاماً من النفعية الدوركهايمية الذي طوّرته في نهاية الفصل 11. بمعنى أنني سأقوم بتقييم كل قضية اعتمادا على الآتي إلى أيّ مدى يمكن للإيديولوجيا موضع النقاش أن تدفع الصالح الإجمالي للمجتمع إلى الأمام (هذا هو الجزء النفعي)، لكنني سأقوم بتبني وجهة نظر الجنس البشري باعتباره الإنسان المزدوج (أو 90 في المئة شمبانزي، 10 في المئة نحل)، مما يعني أننا نحن البشر نحتاج مدخلاً إلى خلايا نحل صحية من أجل الازدهار (أي الجزء الدوركهايمي).

بدلاً من الوقوف على النقيض من اليسار واليمين، سأقوم بتقسيم مناوئي اليسار إلى مجموعتين ـــ المحافظين الاجتماعيين (مثل اليمين الديني)

---

(1) Ibid



وأنصارمذهب حرية الإرادة (في بعض الأحيان يُطلَقُ عليهم "الليبراليين الكلاسيكيين" بسبب حبهم للسوق الحرة). هاتان مجموعتان قمنا بدراستهما في موقع YourMorals.org ، ونجد أنّ لديهما شخصيتين وأخلاقيات مختلفة. فيما يأتي سأقول باختصارلماذا أظنُ أنّ الليبراليين لهم تبريرفيما يتعلق نقطتين. سأقول بعدئذٍ أين أظن أن أنصار مذهب حرية الإرادة والمحافظين الاجتماعيين مبررون، فيما يتعلّق بنقطتين مضادتين.

اليين: الحكمة الليبرالية

يبني اليسار منظومته الأخلاقية على ثلاثة أسس، لكنه يستند بثبات وتماسك إلى أساس الرعاية.[1] يمكننا أن نوضحه كما هو في الشكل 12.2 ، حيث سماكة كل خط تتوافق مع أهمية كل أساس.

الليبراليون في الغالب مرتابون بشأن المناشدات من أجل الولاء، والسلطة، والورع، على الرغم من أنهم لا يرفضون حالات الحدس هذه في جميع القضايا (تأمل في تقديس الطبيعة)، وهكذا قمت برسم هذه الخطوط رفيعة، لكنّها ما تزال موجودة. لدى الليبراليين كثيرٌ من القيم المحددة، لكن أظنّ أن ما يساعد كلّ جماعة هو تحديد أقدس قيمها ـ "الحاجز الثالث" الذي سيبدأ فتلك بالصعقة الكهربائية إذا ما لمسته. بالنسبة إلى الليبراليين الأمريكان منذ الستينات، أعتقد أنّ أقدس القيم هي العناية بضحايا القمع. أيّ شخصٍ يلوم ضحايا كهؤلاء على مشاكلهم أو الذي يقوم بعرض أو على نحوٍ مجرد يجد العذر للانحياز ضد جماعات ضحايا مقدسة من الممكن أن يتوقع رداً قبلياً عنيفاً.[2]

---

[1] في الولايات المتحدة وكل منطقة وأمة أخرى قمنا بدراستها متوفرة في موقع YourMorals.org. أنظر Graham et al. 2011

[2] انظر على سبيل المثال الرد على تقرير دانييل باتريك موينهان Daniel Patrick Moynihan's 1965 حول العائلة السوداء، والتهجمات والنبذ كان عليه أن يتحملها؛ Patterson 2010 .



تطابقت نتائجنا في موقع YourMorals.org مع التعاريف الفلسفية والشعبية لليبرالية التي تؤكد على رعاية غير المحصَّنين، ومعارضة الهرمية والقمع، واهتمام بتغيير القوانين، والتقاليد، والمؤسسات لحل المشكلات الاجتماعية.[1] مقدم البرامج الحوارية الليبرالي جاريسون كيلور التقط روح صورة اليسار الأمريكي الحديث عن نفسه عندما كتب:

> أنا ليبرالي، والليبرالية هي سياسة الكياسة. والليبراليون يجسّدون التسامح، والشهامة، وروح المجتمع [المصغّر]، والدفاع عن الضعفاء ضد الأقوياء، وحب التعلّم، وحرية المعتقد، والفن والشعر، وحياة المدينة، وهي الأشياء ذاتها التي تجعل أمريكا جديرةً بالموت في سبيلها.[2]

لست متأكداً كم من الأمريكيين ضحّوا بحياتهم من أجل اللطافة، لكنْ أعتقد أنّ هذه المصفوفة الأخلاقية تقود الليبراليين إلى أنْ يعدّوا نقطتين شيئاً أساسياً على نحوٍ متساوقٍ، وهما نقطتان أعتقد أنهما أساسيتان من أجل صحة مجتمع.

---

[1] تميل تعاريف الأخلاق من الفلاسفة الليبراليين إلى التركيز على الرعاية، والأذى، والتخفيف من الأذى (الشبكة النفعية The Utilitarian Grill)، أو على حقوق الأفراد واستقلاليتهم (حافلة الطعام الأخلاقية) كما وصفت في الفصل 6. أنظر أيضاً تعاريف الأخلاق في Gewirth 1975; P. Singer 1979 .

[2] Keillor 2004, P.20



النقطة # 1: الحكومات تستطيع ويتوجب عليها كبح منظمات الشركات المتفوقة

النقطة # 1: الحكومات تستطيع ويتوجب عليها كبح منظمات الشركات المتفوقة

أحببتُ فيلم ((تجسّد الآلهة))، لكنّه يحتوي على أكثر التفكير التطوّري حماقة سبق لي مشاهدته. وجدتُ من الأسهل الاعتقاد أنّ الجزر من الممكن أن تطفو في السماء من الاعتقاد أنّ كل المخلوقات من الممكن أن تعيش في حالة تناغم، طوعياً يقبلون الهزيمة لجعل الآخرين يتركونهم يلتهمونهم. كان هنالك عنصرٌ مستقبليٌ وجدته قابلاً للتصديق، من جانب آخر. يصوّر الفيلم الأرض بعد عدة قرون من اللحظة الراهنة كوكباً تتم إدارته من قِبَل الشركات الكبرى التي حوّلت الحكومات إلى أتباعٍ لها.

في الفصل 9 تحدثت عن النقلات الرئيسة في ارتقاء الحياة. لقد وصفتُ العملية التي برزت المتعضيات المتفوقة بموجبها إلى الوجود، وسيطرت على البيئة الملائمة المفضلة، وغيّرتْ أنظمتهما البيئية، ودفعتْ منافسيها إلى الهوامش أو الانقراض. في الفصل 10 أظهرتُ أن الشركات الكبرى عبارة عن تكوينات عضوية متفوقة. وهي ليست مثل تكوينات عضوية متفوقة؛ بل هي تكوينات عضوية متفوقة فعلياً. وهكذا إذا ما كان الماضي بمثابة مرشد، ستنمو الشركات الكبرى لتغدو أكثر قوةً وهي تتحول، وتقوم بتغييرالنظم القانونية والسياسية لبلدانها المضيفة لتصبح أكثر استضافة بكثير. وتكون القوة الوحيدة المتبقية في الأرض التي يمكنها الوقوف في وجه الشركات الكبرى هي الحكومات الوطنية، والتي مازال بعضها يحافظ على سلطة فرض الضرائب، وتنظيم الشركات الكبرى وتجزيئها إلى قطعٍ أصغرعندما يتعاظم نفوذها.

يتحدث خبراء الاقتصاد عن "الخارجيات" ـ النفقات (أو الفوائد) التي يجلبها طرف ثالث لنفسه والذي لم يوافق على الصفقة التجارية التي تسبب الفائدة. على سبيل المثال، حين يبدأ مزارع استخدام نوعٍ جديد من الأسمدة التي تزيد محصوله



لكنّها تسبب تسريباتٍ مدمرة إلى الأنهار القريبة، فهو يبقي على الربح لكنّ قراره يتحمّل الآخرون تبعته. وإذا ما وجدت مزرعةُ تسمين الماشية طريقةً أسرع لتسمين الماشية لكنّه لذلك يسبب للحيوانات المعاناة من مشاكلَ في الهضم وعظامٍ مكسورة، فهي تحافظ على الربح وتدفع الحيوانات التكلفة. الشركات الكبرى مجبرة على مضاعفة ربح مالكي الأسهم إلى حده الأقصى، وهذا يعني البحث عن أي الفرص وجميعها لخفض النفقات، بما فيها تحويل النفقات ليدفعها الآخرون (عندما تكون قانونية) بصيغة الخارجيات.

أنا لست من المناوئين للشركات الكبرى، أنا ببساطة من أنصار جلاوكون. عندما تمارس نشاطها على مرأى تام من الجمهور، بوجود صحافةٍ حرة لديها الاستعداد وقادرة على نشر تقرير عن الخارجيات التي يتم إكراه الجمهور بها، فهي من المرجّح أن تحسّن سلوكها، مثلما تفعل جميع الشركات الكبرى. لكنّ الكثير من الشركات الكبرى تعمل بدرجةٍ عالية من السرية والخفاء حيال الجمهور (على سبيل المثال الشركات الأمريكية الكبرى في معالجة الغذاء ومزارع تسمين الماشية).[1] وتتمتع كثير من الشركات الكبرى بالقدرة على "التقاط" أو خلاف ذلك التأثير على السياسيين والوكالات الاتحادية التي يتمثل عملها في تنظيمها (ولا سيّما في الوقت الراهن طالما أن المحكمة الأمريكية العليا منحت الشركات الكبرى والاتحادات "الحق" في منح تبرعات غير محدودة للأحزاب السياسية).[2] وعندما يتم منح الشركات الكبرى خاتم جايجز، يمكننا أن نتوقع نتائج كارثية (على النظام البيئي، والنظام المصرفي، والصحة العامة، الخ).

---

[1] أنظر Pollan 2006 من أجل وصفٍ مريع لنظام الغذاء الصناعي الأمريكي باعتباره شبكة من تشويهات السوق، ولا سيما الخارجيات المفروضة على كلٍ من حيوانات المزارع، وأنظمة البيئة، ودافعي الضرائب، ومحيط الخصر في أمريكا.

[2] *Citizens United v. Federal Election Commission* 205---08 .558 U. S,



أعتقد أن الليبراليين على حق في أنَّ الوظيفة الرئيسة للحكومة هي الوقوف في وجه الشركات الكبرى ونزعتها إلى تشويه الأسواق وفرض خارجيّات على الآخرين، لا سيما أولئك الأقل قدرةً على تمثيل أنفسهم في المحاكم (مثل الفقراء، أو المهاجرين، أو حيوانات المزارع). تتطلّب الأسواق الكفوءة تنظيم الحكومة. يمضي الليبراليون في بعض الأحيان بعيداً ـ في حقيقة الأمر، هم غالباً وعلى نحوٍ انفعالي ضد العمل التجاري الحر[1]، وهذا خطأ كبيرمن وجهة نظر مذهب النفعية. ولكن هو أمر صحيّ بالنسبة إلى الأمة أن يكون لديها شد حبل متواصل، ومناظرة متواصلة بين الين واليانج بشأن كيف ومتى [يتمّ] الحد من سلوك الشركات الكبرى وتنظيمه.

النقطة # 2: بعض المشاكل من الممكن حلّها عن طريق التنظيم

حين تصاعدت ملكية السيارات بسرعة وعلى نحو فجائي في الخمسينات والستينات، تصاعد كذلك الأمر طنيّة* الرصاص المنفوث من عوادم السيارات إلى الجو ـ 200.000طنٍ من الرصاص بحلول عام 1973.[2] (كان منتجو البنزين يضيفيون الرصاص منذ الثلاثينات لزيادة كفاءة عملية التنقية.)على الرغم من ارتفاع طنيّة الرصاص كان يأخذ طريقه إلى الرئات، وجريان الدم وأدمغة الأمريكان وكان يعيق التطور الحيادي لملايين الأطفال، كانت الصناعة الكيميائية قادرةً على قطع الطريق على كل الجهود لمنع اضافات الرصاص إلى البنزين على مدى عقود. لقد كانت حالةً كلاسيكيةً من استخدام منظومات الشركات الكبرى المتفوقة كل أساليب السطوة للحفاظ على قدرتها في نقل الخارجية القاتلة إلى الجمهور.

---

(1) Kahan 2010 الرأسمالية والقطاع الخاص النشط فقط يستطيعان توليد الثروة الهائلة التي تنتشل غالبية الناس من الفقر.

* مصطلح مستخدم لقياس التلوث من حيث الوزن ـــ المترجم

(2) بموجب حساب منظمة EPA تم إجراؤه حوالي ذلك الوقت؛ أنظر Needleman 2000



بدأت إدارة الرئيس كارتر تجميداً جزئياً للبنزين المرصص، لكنَّ ذلك تمّ إبطاله تقريباً عندما قام ريجان بشلّ قدرة وكالة حماية البيئة على سن لوائح ناظمة أو فرض تنفيذ القديمة. مجموعة من أعضاء الكونجرس تنتمي إلى الحزبين مثلت الأطفال وواجهت الصناعة الكيميائية، وبحلول فترة التسعينات تمت إزالة الرصاص من البنزين.[1] هذا التدخل العام البسيط فعل المعجزات: لقد هبطت معدلات الرصاص في دماء الأطفال بالتلازم مع تدني مستويات الرصاص في البنزين، وكان التدني قد أدين له بالفضل على الارتفاع في اختبار الذكاء الذي تمّ قياسه في العقود الأخيرة.[2]

ومن دواعي مزيدٍ من الدهشة، أثبتت عدة دراسات أنّ التجميد، الذي بدأ في أواخر السبعينات، قد يكون مسؤولاً حتى عن نصف الانخفاض الخارق للعادة وغير الممكن تفسيره خلاف ذلك في معدل الجريمة الذي حصل في التسعينات.[3] عشرات الملايين من الأطفال، ولا سيما الأطفال الصغار في المدن الكبرى، كانوا قد نموا بمستويات عالية من الرصاص، والتي تدخلت في تطوّرهم الحيادي من الخمسينات وحتى السبعينات. وقد وصلَ الأمرُ بالصبية في هذه المجموعة إلى التسبب بموجة عاتية من الإجرام التي روّعت أمريكا ـ ودفعت بها نحواليمين ـ من الستينات وحتى أوائل التسعينات. وتمّ استبدال أولئك الشبان في خاتمة المطاف بجيلٍ جديدٍ من الشبان ذوي أدمغةٍ خالية من الرصاص (وبناءً عليه سيطرة أفضل على المزاج)، وهو ما يبدو أنه جزءٌ من السبب الذجي تدنّى معدل الجريمة من جرائه.

---

(1) Needleman 2000

(2) Neven 2000

(3) أنظر Carpenter and Neven 2010; Nevin 2000; Reyes 2007 . حصل التجميد في ولايات مختلفة وأوقات مختلفة، مما سمح للباحثين بالنظر إلى الفترة الفاصلة بين الانخفاضات في كلٍ من التعرض للرصاص والنزعة الإجرامية.



من منظوردوركهايم النفعي، من الصعب تصور حالة أفضل عن تدخل الحكومة لحل أزمة صحية وطنية. هذا القانون الواحد أنقذ كمياتٍ هائلةً من الأرواح، وعلامات اختبار الذكاء، والمال، ورأس المال الأخلاقي جميعاً في الوقت ذاته.[1] والرصاص ليس الخطر البيئي الوحيد الذي يعطل التطور الحيادي. عندما يتعرض الأطفال الصغار إلى PCBs (بفينيلات البوليكلورينبت)، والأورجانوفوسفات (المستخدم في بعض المبيدات الحشرية)، والزئبق الميتيلي (وهو ناتج جانبي لاحتراق الكربون)، يخفض مستوى ذكائهم ويرفع خطر تعرضهم ل ADHD (خلل انتباه لاضطراب النشاط المفرط).[2] مع الأخذ بالحسبان أنَّ هذه الاضطرابات، من المرجّح أن تجد الدراسات المستقبلية رابطاً مع العنف والجريمة. وبدلاً من تشييد مزيد من السجون، فالطريقة الأقل كلفة (والأكثر إنسانية) إنما هي منح مزيدٍ من المال والسلطة لوكالة حماية البيئة.

وعندما يعترض المحافظون على أنَّ التدخل في الأسواق أو الانخراط في "الهندسة الاجتماعية" يؤديان إلى عواقبَ غير مقصودة، فعليهم أن يلاحظوا أنه في بعض الأحيان تكون تلك العواقب إيجابية. وعندما يقول المحافظون إنَّ الأسواق تقدم حلولاً أفضل من القواعد الناظمة، ليتقدموا إلى الأمام ويشرحوا خطتهم لاستبعاد الخارجيات الخطيرة وغير العادلة التي تولدها الأسواق.[3]

---

(1) صحيح أن إنتاج البنزين من دون رصاص زاد من تكلفته. لكن قام رايس Reyes 2007 بحساب أن كلفة إزالة الرصاص من البنزين هي "على نحوٍ تقريبي أقل بعشرين مرة من القيمة التامة بما فيها نوعية حياة انخفاضات الجريمة." لا يتضمّن ذلك الحساب الأرواح التي أنقذت والفوائد الصحية المباشرة من تخفيضات الرصاص.

(2) Carpenter and Nevin 2010

(3) إلى جانب الأسباب الأخرى لإخفاقات السوق وحالات عدم الكفاءة، مثل احتكار السلطة واستنزاف البضائع العامة، يتطلب كلٌّ منها على نحوٍ متواتر تدخّل الحكومة لتحقيق كفاءة السوق.



يانع # 1: الحكمة الإرادوية الحرة

إنَّ أنصار الإرادة الحرة حسب ما يروى في بعض الأحيان ليبراليون من الناحية الاجتماعية (تفضيل الحرية الشخصية في الأمور الخاصة مثل الجنس واستعمال المخدرات) ومحافظون من الناحية الاقتصادية (يفضلون الأسواق الحرة)، لكنْ تُظهر تلك التصنيفات كيف أصبحت هذه المصطلحات مشوشة في الولايات المتحدة.

أنصار الإرادة الحرة هم سليلو مصلحي التنوير المباشرون في القرن الثامن ـ التاسع عشر الذين قاتلوا لتحرير الناس والأسواق من تحكم الملوك ورجال الدين. أنصار الإرادة الحرة؛ أي قيمتهم المقدسة. ويأمل أنصار الإرادة الحرة بأن تتم معرفتهم ببساطة على أنهم ليبراليون،[1] لكنّهم أضاعوا هذا المصطلح في الولايات المتحدة (ولو ليس في أوروبا) عندما انقسمت الليبرالية إلى معسكرين في أواخر القرن التاسع عشر. بدأ بعض الليبراليين يرون الشركات الكبرى القوية والصناعيين الأثرياء تهديدين رئيسين للحرية. هؤلاء "الليبراليون الجدد" (الذين يعرفون أيضاً ب"الليبراليين اليساريين" أو "التقدميين") تطلّعوا إلى الحكومة على أنها القوة الوحيدة القادرة على حماية الجمهور وإنقاذ الكثير من الضحايا الممارسات المتوحشة للرأسمالية الصناعية المبكرة. والليبراليون الذين استمروا في الخوف من الحكومة على أنها التهديد الرئيس للحرية أصبحوا يُعرَفون ب "الليبراليين الكلاسيكيين،" "الليبراليين اليمينيين،" (في بعض البلدان9، أو أنصار الإرادة الحرة (في الولايات المتحدة).

بدأ هؤلاء الذين اتخذوا الطريق التقدمية باستخدام الحكومة ليس لصون الحرية فحسب لكن لدفع الرفاه العام للناس نحو الأمام، ولا سيما أولئك الذين لا يستطيعون وقاية أنفسهم من الخطر. اتخذ الجمهوريون التقدميون (من أمثل

---

[1] Murray, 1997, p. xii ، يقول موراي "الكلمة الصحيحة لوجهة نظري عن العالم هي 'ليبرالي.'"



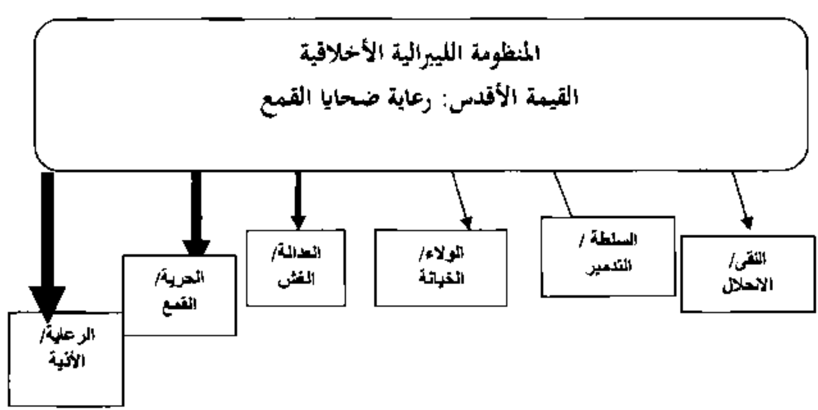
تيودور روزفلت) والديمقراطون (مثل وودرو ويلسون) خطوات للحد من قوة الشركات الكبرى المتنامية، مثل تفكيك الاحتكارات وإيجاد وكالات حكومية جديدة لتنظيم ممارسات العمل لضمان نوعية الأطعمة والأدوية. بعض الإصلاحات التقدمية تدخلت على نحوٍ أكثر عمقاً في الحياة الخاصة والحرية الشخصية، مثل إجبار الأهل على إرسال الأطفال إلى المدرسة ومنع بيع المشروبات الكحولية.

يمكنك أن ترى هذا التشعب في الطريق بالنظر إلى المنظومة الليبرالية الأخلاقية (الشكل 12. 2). وهي تستند إلى أساسين في المقام الأول: الرعاية والحرية (إضافةً إلى بعض العدالة، لأنّ كل شخصٍ يثمّن التناسب إلى حدٍ ما). الليبراليون في عام 1900 الذين اعتمدوا في المقام الأول على أساس الرعاية ـ هؤلاء الذين يشعرون بألم الآخرين على نحوٍ أكثر توقاً ـ كانوا عرضة مسبّقاً ليأخذوا مفترق اليد اليسرى (تقدميون). لكنّ الليبراليين في عام 1900 الذين اعتمدوا على نحوٍ مفرطٍ على أساس الحرية ـ هؤلاء الذين شعروا - أثناء حالة توق- بلسعة القيود على الحرية ـ رفضوا اتباع [الأمر] (أنظر الشكل 12. 3). في الحقيقة، أنصار الإرادة الحرة هم أساساً ليبراليون يحبون الأسواق ويفتقدون للقلوب النازفة.[1]

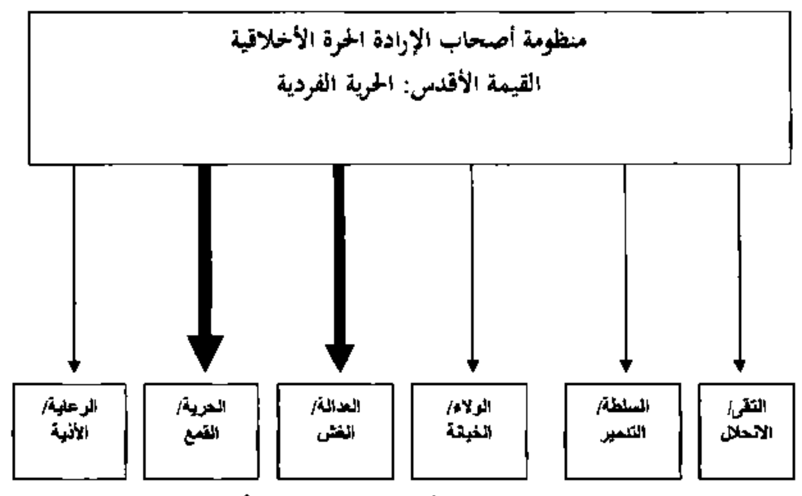
---

[1] Wilkinson, personal communication, 2010





الشكل 12. 2 منظومة الليبراليين الأمريكيين الأخلاقية



الشكل 12. 3 منظومة أصحاب الإرادة الحرة الأخلاقية



في موقع ,YourMorals.org ، وجدنا أنّ ويلكنسون على حق. في مشروع بإدارة رافي آيار وسينا كوليفا ، لاحظنا عشرات من عمليات المسح التي أتمّها 12.0000 شخصٍ من أنصار الإرادة الحرة وقارنا إجاباتهم مع سواها التي تعود إلى عشرة آلافٍ من الليبراليين والمحافظين. وجدنا أنّ أنصار الإرادة الحرة يبدون أشبه بالليبراليين منهم بالمحافظين في معظم القياسات الشخصية (على سبيل المثال سجلٌ كل من الجماعتين نقاطاً أعلى من المحافظين بشأن الانفتاح على التجربة، ونقاطاً أقل من المحافظين حول الحساسية من القرف والضمير الحي). وفي استبيانات الأسس الأخلاقية، انضم أنصار الإرادة الحرة إلى الليبراليين في تسجيل نقاطٍ متدنية فيما يتعلّق بأسس الولاء، والسلطة، والتقوى. وكان المكان حيث يفترقون عن الليبراليين على نحوٍ بالغ الحدة بشأن إجرائين: أساس الرعاية، حيث كانت نقاطهم متدنية جداً (حتى أدنى من المحافظين)، وعند أسئلةٍ جديدةٍ أضفناها تخصُ الحرية الاقتصادية ، حيث سجلوا نقاطاً عاليةً إلى حد بعيد (أعلى بقليل من المحافظين، وأعلى بكثير من الليبراليين).

على سبيل المثال، هل توافق على أن "على الحكومة القيام بالمزيد لدفع الصالح العام نحو الأمام، حتى لو أن ذلك يعني تقييد حرية واختيارات الأفراد"؟ وإذا كان الأمر كذلك، إذنْ من المحتمل أنّك ليبرالي. إن لم يكن ذلك، فمن الممكن أن تكون إما من أنصار الإرادة الحرة أو محافظاً. الانقسام ما بين الليبراليين (التقدميين) وأصحاب الإرادة الحرة (الليبراليين الكلاسيكيين) حصل بشأن هذا السؤال بالضبط قبل أكثر من مئة عامٍ خلت، وهو يبرز في بياناتنا في الوقت الحاضر. ولقد قام الأشخاص الذين لديهم قيم الإرادة الحرة على وجه العموم بدعم الحزب الجمهوري منذ الثلاثينات لأنّ أصحاب الإرادة الحرة والجمهوريين لديهم عدوٌ مشترك: مجتمع الرفاه الليبرالي الذي يعتقدون بأنه يدمّر حرية أمريكا (بالنسبة إلى أنصار الإرادة الحرة) والنسيج الأخلاقي (بالنسبة إلى المحافظين الاجتماعيين).



أعتقد أن أنصار الإرادة الحرة على حق فيما يتعلق بعدة نقاط،[1]، لكنني سأركز فحسب على نقطة واحدة مطابقة لليبرالية هنا.

نقطة مطابقة # 1: الأسواق خارقة

في عام 2007، قُتِلَ والد ديفيد جولدهيل بواسطة عدوى التقطها أثناء وجوده في المستشفى. في محاولة فهم معنى هذا الموت غير الضروري، بدأ جودهيل القراءة عن نظام العناية الصحية الأمريكي، الذي يقتل حوالي 100.000 شخصاً بحالات عدوى كهذه. وعلم أنّ معدل الوفيات من الممكن تخفيضه بنسبة الثلثين عندما تتّبع المستشفيات قائمة تذكيرمتعلقة بإجراءات التعقيم، لكنّ معظم المستشفيات لا تتبنّى قائمة التذكير.

لقد تعجّب جودهيل، رجل الأعمار (والديمقراطي)، كيف كان من الممكن لأية منظمة أن ترفض إجراءً بسيطاً من الممكن أن يعود بكل هذه الأرباح. في دنيا الأعمال الحرة، سرعان ما سيؤدي انعدام كفاءة كهذه إلى الإفلاس. وعندما علم الجم الكثيرعن نظام الرعاية الصحية الأمريكية، اكتشف فحسب كيف يمكن أن تتردى الأشياء عندما لا يتم التزويد بالخدمات والبضائع دون سوقٍ تؤدي وظيفتها بالطريقة المناسبة.

في عام 2009، نشر جودهيل مقالةً استفزازية في جريدة ((ذي أتلانتيك)) بعنوان "كيف قتل نظام الرعاية الصحية الأمريكية والدي" :[2] كانت إحدى نقاطه الرئيسة هي سخافة استخدام التأمين للدفع من أجل ثمن مشتريات روتينية.

[1] تتضمّن لائحتي القصيرة من النقاط الإضافية: (1) السلطة تُفسِد، وهكذا علينا أن نكون حذرين من تركيز السلطة في أيدي أيّ كان، بمن في ذلك أيدي الحكومة؛ (2) الحرية المنظّمة هي أفضل وصفةٍ لازدهار الديموقراطيات الغربية؛ (3) الدول "المربية" والرعاية "من المهد إلى اللحد" يصبّين الناس وتجعلهم يتصرفون بمسؤولية أقل، من هنا يتطلبون المزيد من حماية الحكومة. أنظر Boaz 1997.

[2] Goldhill 2009



على نحوٍ اعتيادي نشتري التأمين لتغطية مجازفة الخسارة الكارثية. ندخل صندوق تأمين مع أشخاصٍ آخرين لتوزيع المجازفة على الجميع، ولا نأمل أن نجمع بنساً واحداً. نعالج النفقات الروتينية بأنفسنا، ساعين إلى النوعية الأعلى لقاء أدنى الأسعار. وما كنا لنرفع مطالبة تأمين السيارات من أجل الدفع لتغيير الزيت.

في المرة القادمة حين تذهب إلى السوبرماركت، أنظر عن مقربة إلى علبة فاصولياء. فكّر بكل العمل الذي يدخل صنعها - المزارعون، وسائقو الشاحنات، ومستخدَموّ السوبرماركت، وعمال المناجم وعمال التعدين الذين صنعوا الصفيحة - وفكّر كم هو إعجازيٌّ أنّك تستطيع شراء هذه الصفيحة مقابل أقل من دولار. في كلّ خطوةٍ من الطريق، التنافس بين المزوّدين كافأ أولئك الذين تُخفّض اختراعاتهم دولاراً من كلفة إحضار الصفيحة إليك. وإذا ما كان الله يُعتَقدُ على نحوٍ شائع أنه خلق العالم ومن ثمّ رتّبه لمنفعتنا، ومن ثم السوق الحرة (ويدها الخفية) هي مرشّح جيدٌ تماماً ليكون إلهاً. يمكنك أن تبدأ بفهم لماذا لدى أنصار الإرادة الحرة في بعض الأحيان إيمانٌ شبه ديني بالأسواق.

الآن لنمارس عمل الشيطان وننشر الفوضى في كلّ أرجاء موقع السوق. افترض أنّ الأسعار أزيلت ذات يومٍ عن كل المنتجات في السوبر ماركت. كل لصاقات التصنيف أيضاً، ما بعد وصف المحتويات، بطريقةٍ لا تمكّنكَ من مقارنة منتجات من شركاتٍ مختلفة. فأنتَ تأخذ أي شيء تريده، وبالمقدار الذي تريد، وتحضره إلى آلة العدّ. يقوم موظف تدقيق الخروج بمسح بطاقة تأمينك الغذائي ويساعدك على ملء استمارة مطالبة بمفردات مفصلة. فتدفع رسماً منخفضاً مقداره 10$ وتمضي مع مشترياتك البقالية. بعد مضيّ شهرٍ تتلقى فاتورةً تعلمُك أن شركة تأمينك الغذائي سوف تدفع للسوبرماركت معظم الكلفة المتبقية، لكن عليك أن ترسل شيكاً بقيمة 15$ إضافية. قد يبدو الأمر أشبه بصفقة ناجحة للحصول على عربة تسوقٍ ملئى بالغذاء لقاء 25$، لكن أنت فعلياً تدفع فاتورة مشترياتك من البقالية كل شهر عندما تدفع ما يزيد على 2.000$ لقاء قسط تأمينك الغذاء.



في ظلّ نظامٍ كهذا، لا يكاد يوجد حافزٌ لدى أيّ شخصٍ لإيجاد طرقٍ خلاقة لتخفيض كلفة الغذاء وزيادة نوعيته. تتلقى محال السوبر ماركت أجورها من المؤمِّنين، ويحصل المؤمِّنون على أقساطهم منك. تبدأ كلفة تأمين الغذاء بالارتفاع عندما تقوم محال السوبرماركت بتخزين الأطعمة التي تغِلُّ لهم أعلى مدفوعات التأمين الصافية الربح فقط، وليس الأطعمة التي تقدم لك القيمة الغذائية.

وإذْ ترتفع كلفة التأمين الغذائي، لا يعود بوسع كثيرٍ من الأشخاص تحملها. الليبراليون (المدفوعون بعامل الرعاية) يضغطون من أجل برنامجٍ حكومي لشراء تأمين غذائي للفقراء وكبار السن. ولكن ما إنْ تصبح الحكومة المشتري الرئيس للغذاء، بناءً عليه يعتمد النجاح في السوبرماركت وصناعات تأمين الغذاء في المقام الأول على مضاعفة الغلّة من مبالغ كبيرة إلى حدها الأقصى. قبل أن تعرفَ الأمر، كانت تلك الصفيحة من الفاصولياء تكلّف الحكومة 30$، وجميعنا ندفع 25 بالمائة من شيكات دفعنا على شكل ضرائبَ فقط لتغطية كلفة شراء حاجاتنا اليومية بعضنا لبعض بتكاليف متضخِّمة إلى درجةٍ هائلة.

ذاك، حسبما يقول جودهيل، ما فعلناه بأنفسنا. طالما انّ الزبائن معفون من اخذ السعر بعين الاعتبار ـ بما معناه، طالما أنّ شخصاً آخر يقوم دائماً بالدفع من أجل اختياراتنا ـ الأمور ستزداد سوءاً. لا نستطيع حل المشكلة بتجميع هيئاتٍ خبراء لتحديد السعر الأعلى الممكن السماح لقاء صفيحةٍ من الفاصولياء. فقط السوق التي تعمل [1] من الممكن أن تأتي بالمؤونة، والطلب، والعبقرية معاً لتقديم الرعاية الصحية بأدنى سعرٍ ممكن. على سبيل المثال، توجد سوقٌ مفتوحة لجراحة LASIK (نوع من جراحة الليزر للعين تزيح الحاجة لارتداء عدسات

(1) يقرّ جودهيل أن للحكومات أدواراً كثيرةً تلعبها في نظام الرعاية الصحية القائم على السوق، بينما هنالك أشياء محددة تستطيع الحكومة فقط القيام بها. ويورد تحديداً فرض معايير السلامة، وضمان التنافس بين مقدّمي الخدمة، وإدارة منظومة صندوق ضمانٍ مالي من أجل الحالات الكارثية فعلياً، وتمويل الفقراء، الذين لا يتحملون شراء رعايتهم الصحية الخاصة حتى بأسعار خُفِّضتْ بنسبة 50 بالمئة.



لاصقة). يتنافس الأطباء فيما بينهم لجذب الزبائن، ولأنّ العملية غيرمغطاة بالتأمين، يأخذ المريض السعر بعين الاعتبار. ولقد قام كل من التنافس والإبداع بدفع سعر الجراحة للانخفاض بمقدار 80 بالمئة منذ تم طرحها. (كان لدى الأمم المتطوّرة الأخرى نجاحٌ أكبر في ضبط الأسعار، لكنّها أيضاً واجهت تكاليفَ مرتفعة سريعاً قد تصبح هدامة من الناحية المالية.[1] مثل الأمريكان كانوا يفتقدون الإرادة السياسية لرفع الضرائب أو الحد من الخدمات.)

عندما يتحدث أنصار الإرادة الحرة عن معجزة "النظام العفوي" الذي يبرز عندما يُسمَح للناس باتخاذ خياراتهم الخاصة (ويتحمّلون تبعة تكاليف وفوائد تلك الخيارات)، الجميع سيصفون.[2] يدفع كلٌّ من الرعاية والشفقة الليبراليين إلى التدخل في تشغيلات الأسواق، لكنْ من الممكن أن تكون النتيجة أذيةً على نطاقٍ واسع. (بالطبع، كما قلتُ أعلاه، على الحكومات أن تتدخّل في بعض الأحيان لتصحيح تشويهات السوق، بتلك الوسيلة تجعل السوق تعمل بالطريقة المناسبة.) يريد الليبراليون استخدام الحكومة من أجل أغراضٍ كثيرة على هذا النحو. لكنّ نفقات الرعاية الصحية تحتشد أكثر من جميع الإمكانيات الأخرى. إذا ما فكّرتَ في أنّ حكوماتك المحلية أو الاتحادية مفلسة حالياً، انتظر فحسب حتى تقاعد جيل أطفال الفورة.

يانغ # 2: الحكمة الاجتماعية المحافظة

إن المحافظين هم "حزب النظام والاستقرار،" حسب صيغة ميلل. فهم على وجه العموم يقاومون التغييرات التي يتم تطبيقها من قبل "حزب التقدم والإصلاح." لكن وضع الأمور في هذه المصطلحات يجعل المحافظين يبدون أشبه بواضعين مخيفين للعصي في الدواليب، يحاولون إيقاف دورة الزمن و"الطموحات البشرية" للسرد التقدمي الليبرالي.

---

[1] انظر *The Future of Healthcare in Europe*, a report prepared by *The Economist* magazine. Availabe at http://www.businessresearch.eiu.com/future-healthcare-europe.html-o.

[2] Hayek 1988 أشار حايك إلى هذا الاعتقاد بأن النظام يأتي من التخطيط العقلاني على أنه "إدراك القدرية".



المنظومة الأخلاقية للمحافظين الاجتماعيين

القيمة الأقدس: الحفاظ على المؤسسات والتقاليد التي

تُبقي على مجتمع أخلاقي مصغر

النقى/ الانحلال	السلطة/ التدمير	الولاء/ الخيانة	العدالة/ الغيانة	الحرية/ القمع	الرعاية/ الأذى

الشكل 12. 4 المنظومة الأخلاقية للمحافظين الاجتماعيين الأمريكان

أجد من دواعي السخرية أنّ الليبراليين على وجه العموم يعتنقون داروين ويرفضون "التصميم الذكي" بصفته تفسيراً للتصميم والتكيّف في العالم الطبيعي، لكنّهم لا يعتنقون آدم سميث بصفته تفسيراً للتصميم والتكيّف في العالم الاقتصادي. فهم يفضّلون "التصميم الذكي"، والذي غالباً ما ينتهي بكارثة من وجهة نظر المذهب النفعي.[1]

---

[1] انظر Cosmides and Tooby 2006 عن كيفية تنظيم العمل إلى جانب المبادىء الماركسية والاشتراكية ، التي تفترض أنّ الناس سيتعاونون في جماعات كبيرة، تسير عادةً بما لا يقبل به علم النفس الأخلاقي. لا يتعاون الناس جيّداً في جماعاتٍ كبيرة عندما يدركون

==



الطريقة الأكثرإيجابية لوصف المحافظين هي القول إنَّ منظومتهم الأخلاقية الأوسع تسمح لهم بكشف تهديدات رأس المال الاجتماعي الذي لا يستطيع الليبراليون إدراكه. فهم لا يعارضون التغيير بكافة أشكاله (مثل الإنترنيت)، لكنّهم يقاتلون بضراوة عندما يعتقدون أن ذاك التغيير سوف يدمر المؤسسات والتقاليد التي تزوّد هياكلنا الأخلاقية الخارجية (مثل العائلة). إنّ الحفاظ على تلك المؤسسات والتقاليد هو القيمة الأقدس لديهم.

على سبيل المثال، أشار صاموئيل هنتجتون إلى أن نزعة المحافَظَة لا يمكن تعريفها بواسطة مؤسساتٍ محددة،تقوم بتقديسها (والتي من الممكن أن تكون الملَكية في فرنسا القرن الثامن عشر، أو الدستور في أمريكا القرن الواحد والعشرين). على نحوٍ أصحّ، قال، "عندما تتعرّض أسس المجتمع للتهديد، تُذكّرالإيديولوجيا المحافظة الرجال بضرورة بعض المؤسسات ومرغوبية المؤسسات القائمة."[1]

في موقع YourMorals.org ، وجدنا أنّ المحافظين الاجتماعيين يتمتّعون بأوسع مجموعة من الاهتمامات الاجتماعية، ويثمّنون الأسس الستة بالتساوي نسبياً (الشكل 12. 4). هذا الاتساع ـ ولا سيّما خلفيّاتهم بشأن أسس الولاء، والسلطة، والتقى ـ يمنحهم تبصّرات قيّمة باعتقادي، من المنظور الدوركهايمي النفعي.

أنّ الكثيرمن الآخرين خارجون عن السرب،بناءً عليه، تلجأ الأمم الشيوعية والاشتراكية غالباً بحدّة إلى تطبيق متزايد للتهديدات والقوة لإكراه الناس على التعاون. نادراً ما ينجح أيّ من الخطط الخمسية أواليد الخفية.

(1) From "Conservatism as quoted by Muller 1997, P. 3



نقطة مطابقة # 2: لا تستطيع مساعدة النحلات عن طريق تدمير الخلية

يكره الليبراليون فكرة الإقصاء. في محاضرة حضرتها قبل أيام قليلة خلت، قام أ.د. في الفلسفة بضرب شرعية الدول ـ الأمم. لقد قال: "هي فحسب خطوط اعتباطية على الخريطة. بعض الأشخاص يرسمون خطأً ويقولون 'كل ما هو في هذا الجانب لنا. معظمكم يجب أن يبقى خارجه'." شاركه الآخرون الموجودون في الغرفة في الضحك. في محاضرة ألقيتها مؤخرا، وجدت أنّ كره الإقصاء انطبق على الأديان. كانت طالبة خرّيجة مندهشة من ادعائي أنّ الأديان في الغالب جيدة من أجل غالبية المجتمع، وقالت، "لكنّ الأديان إقصائية." سألتها عما قصدت، فأجابت: "طيّب، الكنيسة الكاثوليكية لن تقبل أي شخصٍ لا يؤمن بتعاليمها." لم أكن قادراً على التصديق بأنها جادة. فأوضحت أن برنامج الدراسات العليا في جامعة فرجينيا كان أكثر إقصائية من الكنيسة ـ لقد رفضنا تقريباً جميع المتقدمين. في سيرورة نقاشنا كان الاهتمام الطاغي لديها هو ضحايا التمييز، ولا سيما الأشخاص المثليّون الذين لا ينتمون إلى أيّ جماعة دينية.

إنّ تعليقاتٍ كهذه تقنعني أنّ جون لينون التقط حلماً ليبرالياً في أغنيته الطاغية الحضور "تخيّلْ." تخيّلْ لو لم يكن هنالك بلدانٌ، ودينٌ كذلك الأمر. إذا ما استطعنا إزالة كل الحدود والتخوم التي تفصل بيننا، بعدئذٍ يصبح العالم "كأنه واحد." هي رؤية الجنة لدى الليبراليين، لكنّ المحافظين يعتقدون بأنه سينحدرسريعاً إلى الجحيم. أعتقد أنّ المحافظين لديهم شيءٌ وجيه.

في كافة أجزاء هذا الكتاب قدمت الحجج والأدلة على أنّ المجتمعات الإنسانية الواسعة النطاق هي إنجازاتٌ خارقة تقريبا. لقد حاولت إظهار أن تركيبتنا النفسية الأخلاقية تطورت بالتزامن مع أدياننا واختراعاتنا الثقافية الأخرى (مثل القبائل والزراعة) لكي توصلنا إلى ما نحن عليه اليوم. لقد قدمت الحجج والأدلة على أننا نتاجات اصطفاءٍ متعدد المستويات، بما فيها اصطفاء الجماعة، وأن "أثرتنا المحدودة" هي جزءٌ مما يجعلنا لاعبي فريقٍ عظماءَ إلى هذا



الحد. نحن نحتاج الجماعات، على الرغم من أنّ هذه الجماعات بالضرورة تقصي غير الأعضاء. فإذا ما دمّرتَ كل الجماعات وفككتَ كل البنى الداخلية، فأنت تقوم بتدمير رأسمالكَ الأخلاقي.

المحافظون يفهمون هذه النقطة. قال إدموند بورك عام 1790:

> إنّ تعلُّقَنا بقُسيْمٍ، ومحبَّةَ شرذمة ننتمي إليها في المجتمع، هو المبدأ الأول (البزرة الأصل كما كانت) للعواطف العامة. هو الرابط الأول الذي ننطلق به نحو حُبِّنا لبلادنا، وللجنس البشري.[1]

لقد قدم آدم سميث الدليل على نحوٍ مشابه بأن الروح الوطنية والضيق في أفق التفكيرهي أشياء جيدة لأنها تقود الناس إلى تكريس أنفسهم لتحسين الأشياء التي يستطيعون تحسينها:

> إنّ الحكمة التي استنبطت نظام الوجدانيات الإنسانيات.... تبدو أنّها كانت قد قضت بأنّ مصلحة المجتمع الكبير للجنس البشري سيكون أفضل ما يمكن دفعه إلى الأمام بتوجيه الانتباه الرئيس لكلّ فرد إلى ذلك الجزء منه، والذي كان ضمن فضاء قدراته وفهمه الخاصين.[2]

تلك هي النفعية الدوركهايمية حالياً. إنها نفعية أنجزها شخصٌ ما يفهم العصبوية البشرية.

لقد قدم روبرت بوتنام وفرة من البراهين بأن بورك وسميث كانا محقين. في فصلٍ سابق أخبرتكم أن نتائجه هي أنّ الدين يحوّل الأمريكيين إلى جيرانٍ ومواطنين أفضل." وأخبرتكم هذه النتيجة إنّ المكوّن الفعّال الذي جعل الناس

---

(1) Burk 2003/1790, P. 40 لا أعتقد أنّ بورك كان على صوابٍ بأن محبة المرء لعصبته يقود، عموماً، إلى محبة الإنسانية. لكن يبدو فعلياً كأنّ زيادة حبُّ المرء لجماعته من الداخل لا يقود عادةً إلى زيادةٍ في كراهية الجماعة الخارجية (أنظر Brewer and Campbell 1976; de Dreu et al. 2011)، وهكذا سأكون راضياً بالعيش في عالمٍ يتمتع بالحب الضيّق على نحوٍ هائل وبقليل أو دونما تناقصٍ مع حب الإنسانية.

(2) Smith 1976/1759, Part VI, section ii, chapter 2



أكثر فضيلةً هو دمجهم في شبكة علاقاتٍ مع أخوتهم في الدين. فأيّ شيء يربط الناس ببعضهم في شبكاتٍ كثيفة من الثقة يجعل الناس أقل أنانية.

في دراسة أقدم، وجد بوتنام أنَّ التنوّع العرقي يتمتع بالتأثير المعاكس. في ورقةٍ معنونة على نحوٍ جليّ "E Pluribus Unum واحد من كثيرين"*، درس بوتنام مستوى رأس المال الأخلاقي عند مئات المجتمعات الأمريكية المصغّرة ووجد أن مستويات الهجرة العالية والتنوّع العرقي تبدو بأنها تسبب تناقصاً في رأس المال الاجتماعي. وهذا قد لا يدهشكم؛ ربما يدور في أذهانكم أنّ الناس عنصريون، وهكذا لا يثقون بأناسٍ لا يبدون مثلهم. لكنْ هذا ليس صحيحاً تماماً. كان المسح الذي أجراه بوتنام قادراً على تمييز نوعين من رأس المال الاجتماعي: رأس المال التواصلي يشير إلى الثقة بين الجماعات، وبين الأشخاص الذين يتمتعون بقيمٍ وهويات مختلفة، بينما رأس المال الترابطي يشير إلى الثقة ضمن الجماعة. كما وجد بوتنام أن التنوّع يقلّص كلا النوعين من رأس المال الاجتماعي. وهنا نتيجته:

> يبدو أنّ التنوّع لا يطلق الانقسام إلى جماعة الداخل/جماعة الخارج بل إلى افتقاد المعايير العرقية أو العزلة الاجتماعية في جماعةٍ بمفردها. باللغة المحكية، يبدو أنّ الناس الذين يعيشون في خلفيات مكانية متنوعة إثنياً "يجثون" ـ بما معناه، التحرّك مثل السلحفاة.

يستخدم بوتنام أفكار دوركهايم (مثل افتقاد المعايير الإثنية والاجتماعية) لشرح لماذا يجعل التنوّع الناس ينكفؤون نحو الداخل ويصبحون أكثر أنانية، وأقل اهتماماً بالمساهمة في مجتمعاتهم المصغرة. إنّ ما يدعوه بوتنام السَلْحَفَة* هو تماماً عكس ما دعوته روح خليّة النحل.

* شعار تمّ رفعه بمثابة الختم العظيم الأول للولايات المتحدة من قبل جون أدامز، وبنجامين فرانكلين، وتوماس جيفرسون في عام 1776. إنّ العبارة اللاتينية "واحد من كثيرين"، هي التي منحت التصميم الأمريكي بياناً قوياً لتشكيل أمةٍ واحدة من مجموعة ولايات. ـ المترجم

* من سلحفاة ـ المترجم



ينتصر الليبراليون لضحايا القمع والإقصاء. كما يناضلون لتحطيم الحواجز الاعتباطية (كتلك المؤسسة على العرق، وفي الآونة الأخيرة التوجّه). لكنّ حماسهم لمساعدة الضحايا، بالاقتران مع نقاطهم المنخفضة فيما يتعلق بأسس الولاء، والسلطة، والتقى، غالباً ما تقودهم إلى الضغط من أجل التغييرات التي تضعف الجماعات، والتقاليد، والمؤسسات، ورأس المال الأخلاقي. على سبيل المثال قاد الحافز لمساعدة الفقراء داخل المدن إلى برامج رفاه في الستينات فللت من قيمة الزواج، وزادت نسبة الولادات خارج نطاق الزوجية، وأضعفت العائلات الإفريقية الأمريكية.[1] وأدى الحافز إلى تمكين الطلبة بمنحهم الحق في الادعاء القضائي على أساتذتهم ومدارسهم في السبعينات إلى تآكل السلطة ورأس المال الأخلاقي في المجتمعات، مما خلق بيئاتٍ غير منضبطة تؤذي الفقراء قبل الجميع.[2] كما أدى الحافز إلى مساعدة المهاجرين من أصول لاتينية في الثمانينات إلى برامج تربوية متعددة الثقافات أكدت على الفوارق بين الأمريكان أكثر من قيمهم وهويتهم. ويجعل التأكيد على الفوارق الكثير من الناس أكثرعنصرية لا أقل.[3]

فيما يتعلّق بكلّ قضية تلوَ الأخرى، بدا أنّ الليبراليين يحاولون مساعدة مجموعة فرعية (وهو أمر في الواقع لا يحتاج مساعدة) على الرغم من أن القيام بذلك يدمّر روح خلية النحل. هذه "الإصلاحات" قد تخفّض الرفاه الإجمالي للمجتمع، وفي بعض الأحيان تؤذي حتى الضحايا ذاتهم الذين يحاول الليبراليون مساعدتهم.

---

(1) McHorter 2005; Rozenweig, section 11, cgapter 2

(2) Arum 2003

(3) Stenner 2005, P. 330 ، تستنتج ستينر من دراساتها عن السلطويين: "جوهرياً، لا يوجد ما يلهم التسامح لدى غير المتسامحين أكثر من وفرة في المعتقدات الشائعة والموحّدة، والممارسات، والطقوس، والمؤسسات، والعمليات. وعلى نحوٍ يدعو للأسى، ما من شيء أكثر حتمية في أن يحرّض التعبير عن ميولهم الكامنة مثل "التعليم المتعدد الثقافات.""



نحو سياسةٍ أكثر تهذيباً

إن فكرة الضدّين مثل الين واليانج تأتي من الصين القديمة، الثقافة التي ثمّنت تناغم الجماعة. لكنْ في الشرق الأوسط القديم، حيث تجذّرت الديانة التوحيدية أولاً، كانت الصورة المجازية للحرب أكثرانتشاراً من التوازن. لقد وعظ ماني الإله الفارسي في القرن الثالث بأنّ العالم المرئي هو أرض المعركة بين قوى النور (الخير المطلق) وقوى الظلمة (الشر المطلق). بنو البشر هم خط الجبهة في المعركة؛ فنحن نضم في ظهرانينا كلاً من الخير والشر، وعلى كلّ منا اختيار جانبٍ والقتال من أجله.

تطوّر وعظ ماني إلى المانوية، وهي دينٌ انتشر في الشرق الأوسط وأثّرَ على التفكير الغربي. إذا ما فكّرتَ في السياسة بطريقةٍ مانوية، فإن الحل الوسط إثم. فالله والشيطان لا يطلقان الكثير من تصريحات متعلّقة بحزبين، ولا يتوجب عليك الشيء ذاته.

لقد أصبحت طبقة أمريكا السياسية أكثر مانوية بكثير في أوائل التسعينات، أولاً في واشنطن ثمّ في كثيرٍ من عواصم الولايات. والنتيجة عبارة عن تزايد في الحدة وازدحام سير خانق، وتناقصٍ في القدرة على إيجاد حلولٍ بواسطة حزبين. ما الذي يمكن عمله؟ كانت جماعاتٌ ومنظماتٌ كثيرة قد حثّت المشرّعين والمواطنين على قدم المساواة كي يتخذوا "عهوداً باللطافة،" ليعدوا بأن يكونوا "أكثر تهذيباً" و"ينظروا إلى كلّ إنسان بعلاقات إيجابية أكثر". لا أعتقد أن تعهداتٍ كهذه ستفعل فعلها. فالخارجون عن خارج السرب من الممكن أن يوقعوا الكثيرمنها كما يحلو لهم، لكنّ التعهدات ليست ملزمة بالنسبة إلى الفيلة.

من أجل النجاة من هذه الورطة، أعتقد أن مختصّي علم النفس يجب أن يعملوا مع علماء السياسة لتحديد تغييراتٍ ستقلل من شأن المانوية مباشرةً. قمت بإدارة مؤتمرٍ عن القيام بذلك في عام 2007، في جامعة برينستون. وعلمنا أنّ الكثير من تزايد الاستقطاب لم يكن متوفراً. كانت النتيجة الطبيعية لإعادة التموضع الذي حصل بعد قيام الرئيس ليندون جونسون بتوقيع قانون الحقوق المدنية في عام 1964. الولايات الجنوبية المحافظة، التي كانت مؤيدة للحزب



الديمقراطي بصلابةٍ منذ الحرب الأهلية (لأنّ لينكولن كان جمهورياً) ومن ثمّ بدأت بالنأي عن الحزب الديمقراطي، وبحلول التسعينات كان الجنوب جمهورياً بصلابة. قبل إعادة الاصطفاف هذه كان هنالك ليبراليون ومحافظون في كلا الحزبينن مما جعل تشكيل فرق تجمع الحزبين ثنائية التحزب أمرٌ سهلاً إلى حدٍّ يمكّنهم من العمل معاً من أجل مشاريع تشريعية. لكن بعد إعادة الاصطفاف، لم يعد هنالك من تداخل، سواء أفي مجلس الشيوخ أو مجلس النواب، في أيامنا الراهنة الجمهوري الليبرالي وعلى نحوٍ نموذجي أكثر محافظةً من أكثر الديمقراطيين محافظةً. وما إن أصبح الحزبان نقيين من الناحية الإيديولوجية ـ الحزب الليبرالي والحزب المحافظ ـ لم يكنْ هنالك بدٌّ من صعودٍ في المانوية. [1]

لكنْ علمنا عن عواملَ قد يكون من الممكن تحريكها في الاتجاه المعاكس. جاءت اللحظة الأكثر إثارةً للمشاعر من المؤتمر عندما قام جيم ليتش، وهو عضو كونجرس جمهوري من أيوا، بوصف التغييرات التي بدأت في عام 1995. شجّع رئيس مجلس النواب نيوت جينجرتش مجموعةً كبيرةً من أعضاء الكونجرس القادمين بترك عائلاتهم في مقاطعاتهم الأصلية بدلاً من نقل زوجاتهم وأطفالهم إلى واشنطن. قبل عام 1995، كان أعضاء الكونجرس من كلا الحزبين يحضرون مناسباتٍ اجتماعية في نهايات الأسبوع؛ وكانت الزوجات تعقدن الصداقات؛ وكان أولادهم يلعبون في الفرق الرياضية ذاتها. لكنْ في أوقاتنا الحاضرة، يسافر معظم أعضاء الكونجرس جواً إلى واشنطن مساء الاثنين، ويتشاورون مع زملائهم في الفريق ويخوضون المعركة لمدة ثالثة أيام،

---

[1] أنظر Piledes 2011 من أجل مراجعة محدّثة لكثير من العوامل التي ساهمت في حالة "استقطابنا المفرطة". يناقش بيلديس أن إعادة الاصطفاف، إضافةً إلى نزعاتٍ تاريخية أخرى، تشرح على نحوٍ تام صعود الاستقطاب. يؤكد بناءً عليه أنّ ما من شيءٍ يمكن عمله لعكس هذا الأمر. أنا لا أوافق. حتى لو كان بمقدور النزعات التاريخية شرح 100 بالمئة من الزيادة، فذلك لا يعني أنّ التغييرات المؤسساتية سيكون لها تأثيرٌ. أفضل أن أتبع هيربست Herbst 2010، الذي يبيّن أن اللطافة والفظاظة هما استراتيجيّتان يمكنُ استخدامهما عندما تتجزان النتائج المرجوة. هناك أشياء كثيرة يمكننا القيام بها لتخفيض العواقب المترتبة على الفظاظة. أنظر CivilPolitics.org



ويعودون عن طريق الجو إلى موطنهم مساء الخميس. الصداقات العابرة للأحزاب تختفي؛ والمانوية وسياسة الأرض المحروقة تتزايدان.

لا أعرف كيف يقنع الأمريكيون مشرّعيهم بنقل عائلاتهم إلى واشنطن، ولا أعرف حتى إن كان هذا التغيير سيحيي الصداقات العابرة للأحزاب في الجو المسموم في الوقت الحاضر، لكنَّ هذا مثالٌ لنوع التغيير غير المباشر الذي ربما يغيّر الفيلة.[1] حالات الحدس تأتي أولاً، وهكذا أيُّ شيءٍ يمكننا فعله للسعي لتكريس صلاتٍ اجتماعية أكثر إيجابية سوف يغيّر حالات الحدس، وهكذا، التفكير والسلوك السائرين مع التيار. تتضمّن التغييرات البنيوية الأخرى التي ربما تغيّر المانوية الطرق التي تُدار بها الانتخابات الأولية، والطرق التي تحدَّدُ بها الدوائر الانتخابية، والطرق التي يجمع المرشّحون بها المال من أجل حملاتهم. (أنظر قائمة كاملة من العلاجات الممكنة في موقع www.CivilPolitics.org).

لا تقتصر المشكلةُ على الساسة. لقد سمح كلٌّ من التكنولوجيا وتغيير أنماط السكن لكلٍّ منا بعزل نفسه ضمن شرنقة من الأفراد المتشابهين في عقليتهم. في علم 1976، كان 27 بالمئة من الأمريكان فقط يعيشون في "أقاليم الأغلبية الساحقة" - الإقليم الذي صوّت للحزب الديمقراطي أو الحزب الجمهوري بهامش قدره 20 بالمئة أو أكثر. لكنَّ العدد ارتفع باطّراد؛ في عام 2008، كان 48 بالمئة من الأمريكيين يعيشون في إقليم بأغلبية ساحقة.[2] تصبح أقاليمنا وبلداتُنا على نحوٍ متزايد "جيوب نمط حياة محدد" منعزلة، حيث طُرق التصويت، والطعام، والعمل، والعبادة منحازة على نحوٍ متزايد. فإذا وجدتَ نفسَك في مخزن هول فودز، فهناك فرصة تصل إلى 89 بالمئة أنّ الإقليم المحيط بك قد صوَّت لصالح باراك أوباما. وإذا ما أردت العثور على الجمهوريين، فاذهب إلى مقاطعة تحتوي على مطعم كراكر باريل (62 بالمئة من هذه الأقاليم اختارت ماكين).[3]

---

[1] لا يُقصَدُ هنا بالتورية. التفكير المانوي مشكلةٌ بالنسبة للحمير والفيلة.

[2] Bishop 2008

[3] اعتماداً على بحثٍ بقلم ديفيد فاسرمان ,David Wasserman of *The Cook Political Report* reported by Stolberg 2011



الأخلاق تربط وتعمي. هذا الأمر لا يحدث فحسب لأناس في المقلب الآخر. نحن جميعاً يتم امتصاصنا في مجتمعاتٍ أخلاقية قبلية مصغّرة. نتحلّقُ حول مُثُلٍ مقدسة ومن ثمَّ نشترك في تقديم الأدلة والبراهين اللاحقة على لماذا نحن على حق إلى هذا الحد أو على خطأ إلى هذا الحد. نظن أن الطرف الآخر معميٌّ عن الحقيقة، والمنطق، والعلم، والفطرة السليمة، لكنْ في الحقيقة كلُّ شخصٍ يصبح معمياً عند الحديث عن كياناته المقدسة.

إذا ما أردت تفهّم جماعةٍ أخرى، اتبع التقى. كخطوةٍ أولى، فكّرْ في الأسس الأخلاقية الستة، وحاول أن تكتشف أيّ واحدٍ أو اثنين يحمل الوزن الأثقل في أيّ خلافٍ محدد. إذا ما استطعتَ الدخول في علاقة تفاعلية مع عضوٍ على الأقل من الجماعة "الأخرى"، ستجدُ من الأسهل بكثير السماع لما يقولونه، وربما ترى حتى القضية المثيرة للجدل بضوءٍ جديد. قد لا توافق، لكنّك من المحتمل أن تنتقل من عدم موافقة مانوية إلى موافقةٍ يين - يانج محترمة وبناءة.

باختصار

لا يتبنّى الناس إيديولوجياتهم كيفما اتفق، أو بالتشبّع بأيّة أفكار حولهم. الأشخاص الذين أعطتهم جيناتهم أدمغةً تستخلص بهجةً خاصةً من الجدة، والتنوّع، والتعددية، بينما هم بالتزامن أقل حساسيةً لإشارات التهديد، وهم معدّون مسبقاً (وليس مكتوباً قدرهم مسبقاً) ليكونوا ليبراليين. كما يميلون لتطوير "حالات تكيّفٍ نمطيّة" و"سرديات الحياة" التي تجعلهم يرجّعون الصدى - على نحوٍ غير واعٍ وحدسيّ - مع السرديات الكبرى التي تخبرها الحركات السياسية في اليسار (من قبيل السردية الليبرالية التقدمية). الأشخاص الذين تمنحهم جيناتهم أدمغةً ذات إعداداتٍ معاكسة هم معدّون مسبقاً، للأسباب ذاتها، لترجيع صدى السرديات الكبرى في اليمين (من قبيل سردية ريجان).

ما إنْ ينضمّ الأشخاص إلى فريقٍ سياسي، يتم وقوعهم في شرك منظومته الأخلاقية. يرون تثبيتاً لسرديّتهم الكبرى في كلّ مكان، ومن الصعب - ربما المستحيل - إقناعهم أنهم على خطأ إذا ما قدّمتَ لهم براهينَ من خارج منظومتهم الأخلاقية. لقد اقترحتُ أنّ الليبراليين قد يكون لديهم صعوبةً أكثر حتى في فهم المحافظين أوضح من الطريقة الأخرى المغايرة، لأنّ لدى الليبراليين في الغالب



صعوبة في فهم كيف يمكن أن يكون لأسس الولاء، والسلطة، والتقى أية علاقة بالأخلاق. وتحديداً، لدى الليبراليين في الغالب صعوبةً في رؤية رأس المال الأخلاقي، الذي عرّفته على أنه المصادر التي تديم المجتمع المصغّر الأخلاقي.

لقد اقترحت أنّ الليبراليين والمحافظين أشبه باليين واليانج ــ كلاهما عنصران ضروريان "لحالة صحية للحياة السياسية،" حسب تعبير جون ستيوارت ميل. الليبراليون خبراء في الرعاية؛ ولديهم قدرة أكبر على رؤية ضحايا الترتيبات الاجتماعية القائمة، وباستمرارٍ يدفعوننا إلى تحديث تلك الترتيبات واختراع ترتيباتٍ جديدة. وكما قال روبرت ف. كنيدي: "هناك أولئك الذين ينظرون إلى الأشياء كما هي عليه، ويسألون لماذا؟ أحلمُ بأمورٍ لم تكن موجودة، وأسأل لمَ لا؟" لقد أظهرتُ كيف أنّ هذه المنظومة الأخلاقية تقود الليبراليين لتأكيد نقطتين هما (في رأيي) بشكلٍ جوهري هامتان من أجل مجتمعٍ صحيّ: (1) تستطيع الحكومات ويتوجب عليها كبحُ منظومات الشركات العملاقة، و(2) ويمكن حل بعض المشكلات الكبيرة حقاً بواسطة القوننة.

شرحت كيف يقدم أصحاب الإرادة الحرة (الذين يقدسون الحرية) والمحافظين الاجتماعيين (الذين يقدّسون بعض المؤسسات والتقاليد) القوة المقابلة المفصلية لحركات الإصلاح الليبرالي التي كانت عظيمة النفوذ في أمريكا وأوروبا منذ أوائل القرن العشرين. قلتُ إنّ أنصار الإرادة الحرة على حق في أنّ الأسواق خارقة (على الأقل عندما يمكن التعامل مع خارجياتها وإخفاقاتها الأخرى)، وقلتُ إنّ المحافظين محقّون بأنك عادةً لا تساعد النحلات عن طريق تدمير الخلية.

في خاتمة المطاف، قلتُ إنّ تزايد المانوية في الحياة السياسية الأمريكية ليس أمراً يمكننا تناوله بتوقيعِ تعهدات والتصميم بأن نكون أكثر لباقةً. ستكون سياستنا أكثر كياسةً عندما نجد طرقاً لتغيير إجراءات انتخاب الساسة والمؤسسات والبيئات التي يتفاعلون فيها.

الأخلاق تربط وتعمي. هي تربطنا بفرقٍ إيديولوجية تتحارب فيما بينها وكأن مصير العالم اعتمد على انتصار فريقنا في المعركة. فهي تعمينا عن حقيقة أنّ كلَّ فريقٍ مؤلفٌ من أناس طيّبين لديهم أمر مهمٌ ليقولوه.



النتيجة

لقد أخذتكم في هذا الكتاب في رحلة الطبيعة والتاريخ البشريين، وحاولتُ أنْ أظهر بأنّ موضوعي المفضل في الاستقصاء - علم النفس الأخلاقي - هو مفتاح فهم السياسة والدين والهيمنة الدنيوية. أخشى أن أكون قد حشرت الكثير من المناظر في الرحلة، فدعوني أختم بإضاءةٍ على أهمّها.

في القسم الأول، قمت بتقديم المبدأ الأول في علم النفس الأخلاقي: حالات الحدس تأتي أولاً، والتفكيرالاستراتيجي ثانياً. شرحتُ كيف وصلتُ إلى تطوير نموذج حدسيّ اجتماعي، واستخدمت النموذج لتحدي "الوهم العقلاني." وكان أبطال هذا القسم ديفيد هيوم (لمساعدتنا في الهروب من العقلانية إلى الحدسية) وجلاوكون (ليظهر لنا الأهمية القصوى للسمعة والكوابح الأخرى لخلق النظام الاجتماعي).

إذا ما أحضرت شيئاً معك إلى البيت من هذه الرحلة، قد أقترح عليك أنْ تكون صورة عن نفسك - وعن كل من حولك - على أنك راكبٌ صغير على ظهر فيلٍ بالغ الضخامة. ال من الممكن أن يجعلك التفكير بهذه الطريقة أكثر صبراً مع الناس الآخرين. عندما تضبط نفسك وأنت تفبرك تقديم البراهين اللاحقة، وقد تكون أبطأ في استبعاد الناس الأخرين لأنك تفنّد برهانهم على هذا القدر من السهولة فقط. الحدثُ في علم النفس الأخلاقي ليس في حقيقة الأمر في تصريحات الراكب.

في الجزء الثاني من رحلتنا تحرّينا المبدأ الثاني من علم النفس الأخلاقي: في الأخلاق ما هو أكثر من الأذية والعدالة. أعدت وقت حضوري في الهند، وكيف ساعدني على الخروج من منظومتي الأخلاقية وإدراك اهتماماتٍ أخلاقية إضافية. وقدمت صورةً مجازية قوامها أنّ العقل الصوابي أشبه بلسان له ست لاقطات ذوقية. وقدمتُ نظرية الأسس الأخلاقية والبحث الذي أجريته مع زملائي في موقع YourMorals.org حول التركيبة النفسية لليبراليين والمحافظين، وكان أبطال هذا الجزء ريتشارد شويدر (لتوسيع فهمنا لمجال الأخلاق) وإميل دوركهايم



(ليظهر لنا لمَ كثيرٌ من الناس، ولا سيما المحافظون الاجتماعيون، يثمّنون الأسس الجامعة وهي الولاء، والسلطة، والتقى).

إذا ما عدتَ إلى منزلك بتذكار من هذا الجزء من الرحلة، هل لي أنْ أقترح أنها تشكيك في القائلين بكلّية الحقيقة. كنْ حذراً من أيّ شخصٍ يؤكد أن هنالك أخلاقاً حقيقية واحدة لجميع الناس، والأزمنة، والأمكنة ـ ولا سيما إذا كانت تلك الأخلاق مؤسسةً على أساسٍ أخلاقي واحد. المجتمعات الإنسانية معقدة؛ احتياجاتها وتحدياتها متبدلة. كما تحتوي عقولنا على صندوق أدوات خاصٍ من الأنظمة النفسية، بما فيها الأسس الأخلاقية الستة، التي من الممكن أن تُستَخدَم لمواجهة هذه التحديات وإنشاء مجتمعاتٍ أخلاقية مصغّرة. فأنتَ لا تحتاج إلى استخدام الستة جميعها، وقد تكون هنالك منظمات محددة أو ثقافات فرعية تستطيع الازدهار بواسطة واحد فقط. لكنْ إذا ما قال لك شخصٌ إنّ كل المجتمعات، في كل الأحقاب، يجب أن تستخدم منظومة أخلاقية، تستند إلى شكلٍ محدد من الأسس الأخلاقية، إنما هو أصولي من نمطٍ أو آخر.

تصارع الفيلسوف أشعيا برلين في كافة مراحل حياته المهنية مع مشكلة التنوع الأخلاقي للعالم وما الذي يمكن صنعه بشأنه. فرفض النسبية الأخلاقية بحزمٍ:

> لست نسبوياً؛ لا أقول "أنا أحب القهوة بالحليب وأنتَ تحبّها بدونه: أنا أؤيد اللطافة وأنت تؤيد معسكرات الاعتقال" ـ كل منا لديه قيمه الخاصة، التي من غير الممكن التغلّب عليها أو دمجها. أعتقد أن هذا لا بدّ أن يكون زائفاً.[1]

بدلاً من ذلك قام بتثبيت مذهب التعددية، وبرّرهُ على النحو الآتي:

> لقد وصلت إلى نتيجةٍ مفادها أن هنالك تعدداً في الأفكار، كما أن هنالك تعدداً في الثقافات وفي الأمزجة .... لا يوجد هنالك إطلاق في القيم: عدد القيم الإنسانية، من بين قيمٍ أستطيع السعي إليها بينما أحافظ على شكلي الإنساني، وشخصيّتي الإنسانية، متناه ـ لنَقُلْ 74، أو ربما 122، أو 27، لكنّه محدود، مهما يكنْ. والفرق الذي

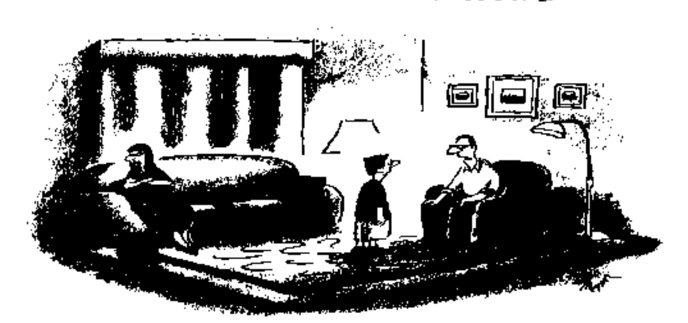
---

[1] Berlin 2001, pp. 11--12



يحدثه ذلك هو إذا ما سعى إنسانٌ إلى واحدةٍ من هذه القيم، أيا، ومن لا يفعل، قادر على فهم لمَ هو يسعى إليها أو كيف ستبدو، في ظروفه، بالنسبة إلى أن يُدفع كي يسعى إليها. من هنا تأتي إمكانية التفاهم الإنساني.[1]

في الجزء الثالث من جولتنا قدمت مبدأ الأخلاق تجمع وتعمي. فنحن نتاجات اصطفاء متعدد المستويات، حوّلتنا إلى الإنسان المزدوج. فنحن أنانيونن ونحن عصبويّون. نحن 90 بالمائة قرود شمبانزي و10 في المئة نحل. لقد اقترحتُ أنّ الأديان قد لعبتْ دوراً حاسماً مفصلياً في تاريخنا التطوري ـ إنّ عقولنا الدينية تطورت بالتزامن مع ممارستنا الدينية لخلق مجتمعات مصغّرة أكبر بكثير، ولا سيما بعد تقدم الزراعة. كما وصفتُ كيف تتشكّل الفرق السياسية، ولمَ بعضُ الناس ينجذبون إلى اليسار، وآخرون ينجذبون إلى اليمين. وكان أبطال هذا الجزء تشارلز داروين (من أجل نظريته في الارتقاء، بما في ذلك الاصطفاء المتعدد المستويات) وإميل دوركهايم (لإظهاره لنا أننا إنسانٌ مزدوج، بوجود جزءٍ من طبيعتنا متشكّل، ربما، بواسطة الاصطفاءات على مستوى الجماعة).



"أمك وأنا مقبلان على الانفصال لأنني أريد ما هو أفضل للبلاد وهي لا تريده."

الشكل 1.13 لمَ يعتقدُ المانويّون أنهم منقسمون بواسطة السياسة

[1] Ibid., P. 12; تمت إضافة التأكيد. أنظر أيضاً Shweder 1991; Showeder and Haidt 1993



إذا ما أحضرت إلى بيتك شيئاً واحداً من هذا الجزء الأخير من الرحلة، هل لي أن أقترح أن يكون صورة نتوء على الجزء الخلفي من رؤوسنا - ألا وهو زر تشغيل خلية النحل، تحت الجلد تماماً، بانتظار الكبسة. كان يُقالُ لنا طوال خمسين عاماً من الآن أنّ الكائنات البشرية أنانية أساساً. كما أننا نتعرض لهجمة تلفزيون الواقع التي تظهر الناس بأبشع صورهم. يعتقد بعض الناس في حقيقة الأمر أنّ على امرأة تتعرّض للاغتصاب أن تصرخ "حريقة"، على أساس أن الجميع لديهم من الأنانية ما يخرجهم لاستطلاع الأمر ما لم يخافوا على حياتهم.[1]

ليس صحيحاً. قد نمضي معظم ساعات صحونا ندفع إلى الأمام مصالحنا الخاصة، لكنْ لدينا جميعاً المقدرة على تخطّي المصلحة الشخصية ونصبح ببساطة جزءاً من الكل. وهي ليست مقدرة فحسب؛ إنها المدخل إلى كثيرٍ من تجارب الحياة الغالية.

لقد شرح هذا الكتاب لمَ ينقسم الناس بفعل السياسة والدين. الجواب لا، كان للمانويين أن يقولوا، لأنّ بعض الناس طيّبون وآخرون شرّيرون. بدلاً من ذلك، الشرح يتمثّل في أن عقولنا مصممة من أجل الصوابية العصبوية. نحن كائناتٌ حدسية بعمق تدفع مشاعرنا العميقة تفكيرنا الاستراتيجي. وهذا يجعل الأمر صعباً - لكن ليس مستحيلاً - للتواصل مع أولئك الذين يعيشون في منظوماتٍ أخرى مبنية غالباً على تشكيلات مختلفة من الأسس الأخلاقية المتوفرة.

وهكذا في المرة التالية التي تجد نفسك فيها جالساً إلى جانب شخصٍ ما من منظومةٍ أخرى، أقبل على المحاولة. ولا تقفز إلى الداخل تماماً. لا تستحضرْ الأخلاق حتى تجدَ عدة نقاط من الجمعية أو بطريقة ما سوى ذلك تكون قد أسستَ شيئاً من الثقة. وعندما تقوم باستحضار قضايا الأخلاق، حاول أن تبدأ ببعض المديح، أو بتعبير صادقٍ عن الاهتمام.

نحن جميعاً عالقون هنا لبعض الوقت، فدعونا نحاول تحقيق الأمر.

---

[1] هذه نصيحةٌ سيئة على نحوٍ لا يصدق؛ فهي ستشوش الناس فحسب، ويؤدي الغموض إلى التراخي (Latane and Darley 1970). سيكون من الأفضل تعريف الوضع بوضوح وتحديد المسار الصحيح للفعل. اصرخي مثلاً "النجدة، أنا أتعرض للاغتصاب. اتصل ب 911، وتعال إلى هنا."



عبارات الشكر

تعلّمت من طالبة الدراسات العليا سارة ألجو أننا لا نعبّرُ عن امتناننا من أجل رد الديون أو موازنة الدفتر الأستاذ* بل من أجل تقوية العلاقات. علاوة على ذلك، مشاعر الامتنان تجعلنا نريد مديح الأشخاص الآخرين في العلن، من أجل منحه أو منحها الاحترام. هناك كثيرٌ جمٌ من العلاقات التي أريد تعزيزها ، وكثيرٌ من الناس أريد تقديم التقدير لهم لمساعدتهم في إبداع هذا الكتاب.

بدايةً، أتقدم بالشكر إلى المرشدين الخمسة الذين علمّوني كيف أفكّر في الأخلاق. لقد اجتذبني جون مارتن فيشر وجوناثان بارون إلى الحقل إياه بحماستهما ودعمهما. كما قادني بول روزين إلى دراسة القرف، والطعام، وتركيبة النفسية الطهرانية، وأظهر لي كم هو أمرٌ مبهجٌ أن يكون المرء مختصاً في علم النفس العام. ودرّسني آلان فيسك النظر إلى الثقافة، والإدراك ، والارتقاء في آنٍ معاً، وأظهر لي كيف أفكر مثل عالم اجتماع. ودرّسني ريتشارد شويدر أنْ أرى بأنَّ كلَّ ثقافةٍ لديها خبرة في بعض عناصر الإمكانية الإنسانية الكامنة وليس في الأخرى؛ لقد حرّك عقلي على الانفتاح وجعلني تعددياً لا نسبوياً. تعتمد نظرية الأسس الأخلاقية بثقلٍ كبيرعلى "منظوماته الأخلاقية الثلاثة،" وكذلك الأمر على نظرية النماذج العلائقية لدى فيسك.

تالياً، أشكر عصبتي، الفريق العامل في موقع YourMorals.org :بيت ديتو، وجيسي جراهام، وراڤ آيَر، وسينا كوليفا، ومات موتايل، وشين وجسيك. كنا

---

* مصطلح في المال والأعمال ـ المترجم



قد أصبحنا معاً نحلاً بنسبة 90 في المئة، وقرود شمبانزي بنسبة 10 بالمئة. كان تعاوناً باعثاً على البهجة أوصلنا إلى ما هو أبعد من آمالنا الأولية. وأشكر أيضاً عائلة موقع YourMorals الممتدة: كريج جوزيف، الذي طوّر نظريّة الأسس الأخلاقية مع؛ وبرايان نوسيك، الذي قام بوضع البحث في مساره، وأعطانا دقةً، ويتشارك معنا في الأفكار والاطلاع الواسع عند كل نقطة انعطاف؛ وجاري شيرمان، "الهامس بالبيانات،" الذي يستطيع إيجاد أكثر العلاقات دهشةً في مجموعة البيانات لدينا، والتي هي الآن بلغتْ حداً من الضخامة اتخذتْ معه تقريباً شكل الوعي.

كنت محظوظاً لعثوري على مستقرٍّ في جامعة فرجينيا في واحد من أكثر أقسام علم النفس تمتعاً بمواصفات الكلية في أمريكا. كان لديّ شبكة خارقة للمألوف من المتعاونين، بمن فيهم جيري كلوري، وجيم كوان، وبين كونفيرس، وجودي ديلوتشي، وجيمي موريس، وبريان نوسيك، وشيجي أويشي، وبوبي سبيلمان، وصوفي ترولووتر، وتيم ويلسون. وكنت كذلك محظوظاً في العمل مع كثيرٍ من طلبة الدراسات العليا الممتازين الذين ساعدوني على تطوير هذه الأفكار والذين ناقشوا وخاضوا المناظرات في كلِّ فصلٍ مع: سارة ألجو، بيكا فرايزر، وجيسي جراهام، وكارلي هاوكنز، وسيلين كيسيبر، وجيسي كلوفر، وجاري شيرمان وتوماس تولهيلم. وأشكر طلبة الدراسات الدنيا سكوت موريف، وكريس أوفايس، وجين سيلفيرس على مساهماتهم في تفكيري.

أتقدم بالشكر إلى زملائي الجدد في كلية التجارة بجامعة ستيرن ـ العميد بيتر هنري، وإنجو وولتر، وبروس بوكانان ـ لترحيبهم بي في تموز من عام 2011 بصفتي أستاذاً زائراً، لدعوتي إلى البقاء دائماً. لقد منحتني جامعة ستيرن الوقت لإنهاء الكتاب وأحاطوني بزملاء رائعين، أتعلّم منهم في الوقت الحاضر أخلاقَ العمل التجاري الحر (وهو الحيّز حيث آمل أن أطبّقَ علم النفس الأخلاقي تالياً).

كما قدّمَ لي كثيرٌ من الأصدقاء والزملاء تعليقاتٍ مفصّلة عن المخطوط بكامله. إضافةً إلى فريق موقع YourMorals ، أشكر بول بلوم، وتيد



كادسبي، ومايكل دوود، ووين إيستمان، وإفريت فرانك، وكريستيان جالجانو، وفريدا هايت، وستيرلنج هايت، وجيمس هاتشنسون، وكريج جوزيف، وسوزان كينج، وسارة كارلسون مينون، وجين ريبو، وآرثر شفارتز، وباري شفارتز، وإيريك شفيتزجيبيل، ومالرك شوللن، وولتر سينوت آرمسترونج، وإيد سكيتش، وبوبي سبيلمان، وطوني تومسون. كما نظّم ستيفن كلارك مجموعة فلاسفة قرّاءٍ في جامعة أكسفورد قدموا انتقاداتٍ بنّاءةً لكلّ فصل؛ وتتضمّن المجموعة كاترين ديفولدر، وتوم دوجلاس، وميشيل هتشنسون، وجاي كاهاني، ونيل ليفي، وفرانسيسكا منيرفا، وترونج نجووين، وبيدرو بيريز، وراسل بويلل، وجوليان سافوليسكون وبول تروب، ومايكل ويب، وجراهام وود. أريد على وجه الخصوص تمييز ثلاثة قراء محافظين راسلوني قبل أعوام مضت بمراجعاتٍ مختلطة عن عملي: بو ليدبتر، وستيفن ميسنجرن ووليام مودال. منذ ذلك الحين قمت بتطوير صداقات عبر البريد الألكتروني مما يقدم الشهادة على قيمة التفاعل اللبق المعزّز العابر للانقسامات الأخلاقية. ولقد استفدت كثيراً من سخائهم بالنصيحة، والنقد، وقراءاتٍ مقترحةٍ بشأن النزعة المحافظة.

لقد قدم لي أصدقائي وزملائي النصيحة بشأن واحدٍ من أو عدة فصول. وإليهم أتقدم بالشكر: جيرارد أليكساندر، وسكوت أتران، وسيمون بارون كوهين، وبول بلومفيلد، وكريس بويهم، وروب بويد، وآرثر بوكس، وتيدي داوني، ودان فيسلر، ومايك جازينجا، وسارة إيستيس جراهام، وجوش جرين، وريبيكا هايتن وهنري هاسلام، وروبرت هوجان، وطوني هسيه، ودارلأيسونجل، وبراد جونز، وروب كايزر، ودووج كينريك، وجود كينج، وروب كورزبان، وبرايان لوي، وجوناثان مورينو، وليزلي نيوصن، وريتشارد نيسبيت، وآرا نورينزايان، وستيف بينكرن وديفيد بيزارو، وروبرت بوساكي، ون. سريرام، ودون ريد، وبيت ريتسرسون، وروبرت سابولسكي، وعظيم شريف، ومارك شيب، وريتشارد شويدر، وريتشارد سوسيس، وفيل تيتلوك، وريتشارد ثاولر، ومايك توماسيللو، وستيف فايسي، ونيكولاس ويد، ويل ويلكنسون، ودايفيد سلون ويلسون، وديف وينسبورو، وكيث وينستين، وبول زاك.



كما ساهم آخرون كثُرٌ بما تنوّع من الطرق: رولف ديجين وجد لي عشرات القراءات ذات الصلة؛ وقام بو ليدبيتر ببحث في خلفية الموضوع من أجلي بشأن السياسة المتعلقة بالقضايا الرئيسة؛ وتوماس تيلم قام بتحسين كتابتي في الفصول الأولى؛ وسوروجت سين ووالده، المرحوم سوكومار سين من أوريسا، الهند، كانوا مضيفين كريمين وأساتذة في بهوبانيسفار.

أنا ممتنٌّ على وجه الخصوص لفريق المحترفين الذين حوّلوا فكرتي الأصلية إلى كتابٍ بحوزتكم في الوقت الحاضر. لقد فعل وكيلي القانوني، جون بروكمان، الكثير لإيجاد جمهورلتجارة كتب العلم، وقام بفتح الكثير الجم من الفرص لي. قام مدقّقي اللغوي في دار بانثيون، دان فرانك، بوضع حكمته العظيمة موضع التنفيذ ولمسته الرقيقة لجعل هذا الكتاب أكثر تركيزاً وأكثر اختصاراً. كما جعل جيل فيريللو في دار بانثيون الأشهر الشاقة الأخيرة من إعداد المخطوط أسهل بكثير. وقام ستيفن ساجماير بتصميم غلاف النسخة المجلدة، وصمم كاردون ويب غلاف النسخة العادية، إذ أوضح كلا التصميمين تماماً ما الذي يرمي الكتاب إليه.

أخيراً تلقيت تبريك ودعم عائلتي. لقد قامت زوجتي، جين ريبو، بتنشئة عائلتنا النامية بينما كنت أعمل لساعاتٍ طويلة على مدى الأعوام الثلاث المنصرمة. وهي تقوم بتنقيح كلّ شيءٍ أكتبه. كما قام والديّ، هارولد وإيلين، بإدخالي أنا وشقيقتيّ، ريبيكا وسيمانثا، إلى المنظومة الأمريكية اليهودية القائمة على الدأب. توفي والدي في آذار من عام 2010، في سن الثالثة والثمانين، بعد أن قام بكلّ ما بوسعه من أجل مساعدة أولاده على النجاح.




مكتبة
التنوير





قالوا في كتاب، العقل القويم:

«إنّ ما يجعل كتاب «العقل القويم» آسراً هو الدمج السلس بين المعرفة الواسعة والمتعة، وقدرة المؤلف الواضحة على تحدي الحكمة التقليدية... إن مقولة هايت الجوهرية بسيطة ومحكمة الصياغة: تُرسَل أخلاقنا بمعظمها إلى أدمغتنا منذ الولادة، وهي في الوقت نفسه تربطنا مع بعضنا وتعمينا عن التجليات الأخلاقية المغايرة.»

جريدة الجارديان

إنه مناقشة عميقة للجذور النفسية المتعلقة بالأخلاق ودورها في إنتاج النزاعات السياسية. وليس من المبالغة القول إن هذا الكتاب سوف يساعد في الحد من هذه النزاعات.

ريتشارد إ. نيسبيت، جامعة ميتشيغان، مؤلف كتاب جغرافيا الفكر

«إنّ كتاب العقل القويم عملٌ فكري بارع ينقل التنظير الداروني إلى ميدان السياسة اليومية المملاني. والكتاب مصوغ على نحو جذّاب، ومن غير المألوف حقاً الوقوع على كتابٍ يقدّم إسهاماً نظرياً رئيساً، ويشجع المرء في الوقت ذاته على تقليب صفحاته بحماس.»

كريستوفر بويم، جامعة كاليفورنيا الجنوبية، مؤلف كتاب الأصول الأخلاقية

«بصفتي شخصاً يستمع إلى المناظرات السياسية حامية الوطيس يومياً، شعرت بالافتتان، وتنوير العقل، والدهشة حيال إشراقات هايت. وسيساعد الكتاب الكاشف والسلس القرّاءَ على فهم العقول القويمة التي تسكن عالم السياسة.»

لاري ساباتو، جامعة فرجينيا، مؤلف كتاب دستور أقرب إلى الكمال

دار الفرقد

للطباعة والنشر - دمشق - سوريا